تفسیر

مقتنیات الدرر

تألیف

الحاج میر سید علی الحائری الطهرانی

المعروف بالمفسر

الناشر

الشیخ محمد الآخوندی

صاحب

دار الکتب الإسلامیة

بازار سلطانی - طهران

الجزء الثالث

من كتاب التفسير
المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

اعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

مدير

دار الكتب الاسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٧ هـ ش

Shiabooks.net

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيراً والصلاة والسلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس و هدى وموعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً وحديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته ومشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه وجمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله وحرامه ، و طائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه . وكيفما كان ماوصلوا الا الى مبلغ علمهم ومنتهى هممهم ؛ وانى لهم الوصول الى حقائق التنزيل ودقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنور علمهم المامورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قداغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها واقتنوا منها درراً .

وهاهى « مقتنيات الدرر » قداقتناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، و النخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج المير سيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه ؛ قداقتنى من الدرر اغلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تلميذه المستضىء بنورعلمه ، المقتفى اثره الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء واورمة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد كاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه .

ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله .

محمد الاخوندى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤) .

جواب قسم محذوف ، واللام موطّئة للقسم أي و الله [لقد منّ الله] وأنعم على المؤمنين من قومه [إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم] أي من نسبهم و جنسهم عربيّاً مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة وفي ذلك لهم شرفٌ عظيم قال سبحانه : « و إنّه لذكر لك و لقومك »(١) و قرىء « من أنفَسهم » أي أشرفهم فإنّه صلى الله عليه وآله كان من أشرف قبائل العرب وبطونها .

وفي الآية بيان براءة ساحته صلى الله عليه وآله من الطمع والغلول الّذي زعم بعضهم أنّه صلى الله عليه وآله خصّ نفسه ببعض الغنائم .

[يتلو عليهم آياته] أي القرآن بعد ما كانوا أهل الجاهليّة لم يطرق أسماعهم الوحي [ويزكّيهم] ويطهّرهم من دنس الطبائع وأوضار الأوزار وسوء العقائد [ويعلّمهم الكتاب] أي القرآن [والحكمة] أي السنّة فتكمل نفوسهم بحسب القوّة العلميّة و العمليّة .

ووجه المنّ والانتفاع ببعثة الرسل في طريق الدين لأنّ الخلق جبلوا على النقصان وقلّة الفهم وعدم الدراية فهو صلى الله عليه وآله أصلح أُمورهم بأحكام محكمة ، وأنّهم جبلوا على الكسل والغفلة والتواني فأورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات حتّى أنّهم كلّما عرض لهم كسل أو فتور نشطهم ذلك البيان للطاعة .

---

(١) الزخرف : ٤٤ .

2273
.948
v.3-4

ثمّ إنّ أنوار عقول الخلق يجري مجرى أنوار البصر والانتفاع بنور البصر لا يكمل إلّا عند سطوع نور الشمس ونوره صلى الله عليه وآله عقليّ إلهيّ يجري مجرى طلوع الشمس فتقوى العقول بنور عقله وبيانه .

[وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين] « إن » هي المخفّفة من المثقّلة و الضمير الشأن محذوف ، و اللام فارقة بينها وبين النافية . وقيل : هي نافية واللام بمعني « إلّا » أي وما كانوا من قبل إلّا في ضلال مبين ، وأيّاً مّاكان فالجمله مبيّنة لكمال النعمة وقد أرسله الله إلى أقوام عتاة أشراس فذلّل منهم كلّ من عتا وعاس ، ونكس بمولده الأصنام على الرأس وانشقّ أيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة بعدد المعصومين : هو صلى الله عليه وآله وفاطمة والأئمّة الاثنا عشر صلوات الله عليهم، وخمدت نار فارس، وبحيرة ساوه غاصت على غير القياس، وأيّام دولته كأيّام التشريق وليلات الأعراس .

وفضائل نعمة وجوده صلى الله عليه وآله لا تحصى و فيما خطب به أبو طالب عليه السلام في تزويج خديجة ذكر بعض شرافته وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مُضر : الحمد لله الّذي جعلنا من ذرّيّة إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضيء معدّ ، وعنصر مضر و جعلنا حضنة بيته و سوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً أمناً وجعلنا الحكّام على الناس، ثمّ ابن أخي هذا محمّد بن عبدالله من لا يوزن به فتى من قريش إلّا رجّح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل .

قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال لي جبرئيل : يا محمّد قلّبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمّد صلى الله عليه وآله ولم أجد بني أب أفضل من بني هاشم ثمّ آدم ومن دونه تحت اللواء .

وحكي أنّ عبد المطّلب جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله بينا هو نائم في الحجر انتبه مذعوراً قال العبّاس : فتبعته وأنا يومئذ غلام أعقل ما يقال ، فأتى كهنة قريش فقال : رأيت كأنّ سلسلة من فضّة خرجت من ظهري ولها أربعة أطراف طرف قد بلغ مشارق الأرض وطرف قد بلغ مغاربها وطرف قد بلغ عنان السماء وطرف قد جاوز الثرى فبينا أنا أنظر عادت شجرة خضراء لها نور فبينا أنا كذلك قام عليّ شيخان فقلت لأحدهما: من أنت؟ قال : أنا نوح نبيّ ربّ

العالمين ، وقلت للآخر : من أنت ؟ قال : أنا إبراهيم خليل ربّ العالمين ، ثمّ انتبهت قالوا : إن صدقت رؤياك ليخرجنّ من ظهرك نبيّ يؤمن به أهل السماوات و أهل الأرض ودلّت السلسلة على كثرة أتباعه وأنصاره وقوّتهم لتداخل السلسلة وحلقها ، ورجوعها شجرة تدلّ على ثبات أمره وعاوّ ذكره وسيهلك من لم يؤمن به كما هلك قوم نوح و سيظهر به ملّة إبراهيم، انتهى .

أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شيء قدير (١٦٥) .

و لمّا كانت وقعة أُحد قال المنافقون : لوكان رسولاً من عند الله لما انهزم عسكره وما وقع هذا الانكسار فأجاب الله عن شبهتم :

[أو لمّا أصابتكم] الهمزة للتقريع و التقرير و الواو عاطفة على محذوف قبلها والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم و قتلم من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ والمراد تقريعهم بسبب صدور ذلك القول عنهم في ذلك؛ فإنّ كون مصيبة عدوّهم ضعف مصيبتهم ممّا يهوّن الخطب .

و بيان ضعف مصيبة المشركين أنّ المسلمين هزموا الكفّار يوم بدر و قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وايضا هزم المسلمون المشركين في يوم أُحد أوّلاً ثمّ لمّا عصوا ولم يستمرّوا على العكوف في المركز حسبما أمرهم النبيّ ﷺ هزم المشركون المسلمين؛ فانهزام المشركين ومصيبتهم حصلت مرّتين وانهزام المسلمين حصل مرّةً واحدةً وهذا معنى قوله : «قد أصبتم مثليها » .

و«لمّا» ظرف « لقلتم» ومتعلّق بها وإنّما دخلت الواو في قوله : « أولمّا » لعطف جملة على جملة وقدّمتها ألف الاستفهام لأنّ له صدر الكلام و وصلت هذه الواو الكلام الثاني بالأوّل ليدلّ على تعلّقه به في المعنى .

[قلتم أنّى هذا] استفهام على سبيل الإنكار لأنّه لمّا انهزم عسكره ﷺ من الكفّار يوم أُحد أدّى ذلك إلي أن قالوا : من أين هذا المغلوبيّة و كيف صار المشركون منصورون علينا ؟ فأمر الله رسوله بأن يجيب عن اعتراضهم الفاسد فقال : [قل هو] يا محمّد :

هذا الانهزام إنّما حصل بشؤم عصيانكم و[من عند أنفسكم] حيث حرصتم على الغنيمة وتركتم المركز .

[إنّ الله على كلّ شيء قدير] ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة ﷺ فأصابكم ما أصابكم .

وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين (١٦٦) وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧) .

والمراد من الجمعين جمع المشركين الّذين كانوا مع أبي سفيان وجمع أصحاب رسول الله يوم اُحد .

[فبإذن الله] والمراد من الإذن عبارة عن التخلية وترك النصرة ، استعار الإذن لتخلية الكفّار فإنّه تعالى لم يمنعهم لتبتليهم لأنّ الإذن في الشيء لا يدفع المأذون عن مراده و لا يمنعه فلمّا كان ترك النصرة و المدافعة من لوازم الإذن أطلق لفظ الإذن على سبيل المجاز .

وقيل : المعنى «فبإذن الله» أي بعلمه كقوله : «وأذان من الله [١]» أي إعلام و كقوله : «آذنّاك مامنّا من شهيد [٢]» وقوله : «فأذنوا بحرب من الله [٣]» وكلّ ذلك بمعنى العلم .

وقيل : إنّ المراد من «الإذن» أي بأمر الله بدليل قوله : «ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم» والمعنى أنّه تعالى لمّا أمر بالمحاربة ثمّ صارت تلك المحاربة مؤدّية إلى ذلك الانهزام صحّ على سبيل المجاز أن يقال : حصل ذلك بأمره .

والقول الرابع و هو قول ابن عبّاس : أنّ المراد من « الإذن » قضاء الله بذلك وحكمه به .

[وليعلم المؤمنين * وليعلم الّذين نافقوا] عطف على قوله : «فبإذن الله» عطف المسبّب

---

(١) التوبة : ٣ . (٢) فصلت : ٤٧

(٣) البقرة . ٢٧٩

على السبب . والمراد من العلم التمييز و الظهور فيما بين الناس وليتميّز المنافق ، و حاصل المعنى أنّ ما أصابكم يومئذ فهو كائن لتميّز الثابتين على الإيمان والّذين نافقوا على النفاق .

[وقيل لهم] عطف على «نافقوا» قال ابن عبّاس : المنافقون هم عبدالله بن اُبيّ و أصحابه حيث انصرفوا يوم اُحد عن رسول الله ﷺ و القائل لهم عبدالله بن عمرو بن خرام فقال لعبدالله بن اُبيّ وأصحابه : اُذكّركم الله أن تخذلوا نبيّكم و قومكم و دعاهم إلى القتال وذلك قوله :

[تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا] والمراد من قوله : «أو ادفعوا» أي ادفعوا عنّا العدوّ بتكثّر سوادنا إن لم تقاتلوا معنا . وقيل : المعنى: أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم و حريمكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله ، وترك العطف بين «تعالوا» «وقاتلوا» لما أنّ المقصود بهما واحد و هو القتال وذكر الأوّل توطئة له .

[قالوا] كأنّه قيل: فما ذا صنعوا؟ فقيل : قالوا : [لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم] أي لو نعلم ما يصحّ أن يسمّى قتالاً لاتّبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء النفس في الهلاك . وقيل : المعنى لو نعرف ونحسن قتالاً لاتّبعناكم و إنّما قالوه استهزاءً .

[هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان] فأجابهم سبحانه عند ما ذكروا هذا الجواب فقال : هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ؛ وذلك أنّهم كانوا قبل هذه الواقعة ما ظهرت منهم أمارات تدلّ على كفرهم بحسب الظاهر فلمّا رجعوا عن عسكر المؤمنين فتباعدوا عن أن يظنّ بهم كونهم مؤمنين لأنّ عدم الوثوق بصدق النبيّ واستهزائهم بقتال المؤمنين وسخريّتهم كفرٌ ، أو المعنى أنّهم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإسلام لأنّهم كانوا في الظاهر أبعد من الكفر فلمّا ظهر منهم ما كانوا يكتمون صاروا أقرب للكفر برجوعهم عن معاونة المسلمين .

[يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم] أي يظهرون خلاف ما يضمرون ، و إضافة القول إلى الأفواه تأكيدٌ ؛ فإنّ الكلام وإن كان يطلق على اللسانيّ و النفسانيّ إلّا أنّ القول لا يطلق إلّا على ما يكون باللسان والفم فذكر الأفواه بعده تأكيد كقوله : «ولا طائر يطير بجناحيه» فقوله : «بأفواههم» مع أنّ القول لا يكون إلّا من اللسان والفم تأكيدٌ و

تصويرٌ بصورة فرده الصادر عن آلته الّتي هي الفرد .

[والله أعلم بما يكتمون] من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض فإنّه يعلمه مفصّلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات .

الذين قالوا لاخوانهم و قعدوا لواطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين (١٦٨) .

[الّذين] بدل من الواو في «يكتمون» [قالوا لإخوانهم] من جنس المنافقين المقتولين يوم اُحد ، أو المراد من « إخوانهم» في سكنى الدار وفي النسب فحينئذ يندرج فيهم بعض الشهداء [و قعدوا] حالٌ من ضمير « قالوا » بتقدير « قد » أي قالوا وقد قعدوا عن القتال معهم .

[لو أطاعونا] فيما أمرناهم ووافقونا في ذلك [ما قتلوا] كما لم نقتل ، وفيه إيذان بأنّهم أمروهم بالانخذال وترك القتال وأغووهم كما غووا .

[قل] تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم [فادرؤوا] أي ادفعوا [عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين] جواب الشرط محذوف يدلّ عليه ماقبله وتقدير الكلام : إن كنتم صادقين فيما ينبىء عنه قولكم من أنّكم قادرون على دفع القتل ، فادفعوا عن أنفسكم الموت الّذي كتب عليكم بوقت موقّت وأنفسكم أعزّ عليكم من إخوانكم .

واعلم أنّ الموت ليس له وقت معلوم مالك وإنّما اختفى وقته ليكون المرء على اُهبة للسفر ومستعدّاً لذلك ، وكان بعض الصالحين ينادي باللّيل على سور المدينة : الرحيل الرحيل ، وتوفّي آخر الليل وفقد صوته أمير تلك المدينة ، فسأل عنه فقيل : إنّه مات ، مازال يلهج بالرحيل وذكره حتّى أناخ ببابه الحمّال فأصابه متيقّظاً متمشّراً ذا اُهبة لم تلهه الآمال .

روي أنّ دانيال عليه السلام مرّ ببادية فسمع منادياً : يا دانيال قف ساعة ترعجباً ، فلم ير شيئاً ثمّ نودي الثانية قال : فوقفت فإذا بيت يدعوني إلى نفسه فدخلت فإذا سرير مرصّع بالجواهر فإذا النداء من السرير : اصعد يا دانيال ترعجباً ، قال : فارتقيت السرير فإذا فراش من ذهب مشحون بالمسك والعنبر فإذاً عليه رجلٌ ميّت كأنّه نائم و عليه من الحلل و الحليّ مالا يوصف وفي يده اليسرى خاتم وفوق رأسه تاج وعلى منطقته سيف أشدّ خضرة

من البقل فإذاً النداء من السرير: إحمل هذا السيف واقرأ ما عليه، قال : فإذاً مكتوب عليه : هذا سيف صمصام بن عوج بن عنق بن عاد بن إرم و إنّي عشت ألف عام و سبعمائة و افتضضت اثني عشر ألف جارية وبنيت أربعين ألف مدينة وهزمت سبعين ألف جيش و في كلّ جيش قائدٌ مع كلّ قائد اثنا عشر ألف مقاتل، وباعدت الحكيم وقرّبت السفيه وخرجت بالجور والعنف والحمق عن حدّ الإنصاف ، وكان يحمل مفاتيح الخزائن أربعمائة بغل ويحمل إليّ خراج الدنيا فلم ينازعني أحد من أهل الدنيا فادّعيت الربوبيّة فأصابني الجوع حتّى طلبت كفّاً من ذرّة بألف قفيز من درّ فلم أقدر عليه فمتّ جوعاً؛ يا أهل الدنيا اعتبروا بي ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّتني فإنّ خدمي وأهلي لم يحملوا من وزري شيئاً ، انتهى .

ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) .

المراد بهم شهداء اُحد ، وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبدالمطّلب ومصعب بن عمرو وعثمان بن شهاب وعبدالله بن جحش، وباقيهم من الأنصار . والآية جواب لقولهم : « لو أطاعونا ماقتلوا » بأنّ القتل في سبيل الله فيه الحياة الأبديّة و المقتولون في سبيله مفضّلون بأنواع السعادة ومرزوقون بأنواع الرزق .

قال الرازيّ : اختلفوا في الحياة فقال بعضهم : إنّه تعالى تصعد أجساد الشهداء إلى السماوات تحت العرش ويوصل إليهم أنواع السعادة . ومنهم من قال : يتركها في الأرض و يحييها و يوصل إليها السعادات . ومنهم من أنكر الحياة للجسد وأثبت الحياة للروح؛ وأوّل بعضٌ الحياة ببقاء ذكرهم الجميل .

أقول : وهذا التأويل صريحٌ في مخالفة النصّ لأنّه قال : « عند ربّهم يرزقون » فهذا التأويل سفسطة .

قال الباقر عليه السلام و كثيرٌ من المفسّرين : إنّ الآية تتناول قتلى بدر واُحد معاً .

وقيل : نزلت الآية في شهداء بئر معونة وكان سبب ذلك على مارواه محمّد بن إسحاق بإسناده عن أنس بن مالك وغيره قالوا : قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنّة ـ وكان سيّد بني عامر بن صعصعة ـ على رسول الله وأهدى له هديّة فأبى النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يقبلها

وقال : ياأبابراء لا أقبل هديّة مشرك فأسلم إن أردت أن أقبل هديّتك و قرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال : إنّ أمرك هذا الّذي تدعوا إليه حسن جميل فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.فقال رسول الله : إنّي أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء :أنالهم جارفابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ؛ فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن صمه وحزام بن ملجان وعروة السلمي ّونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعيّ ، وذلك في صفرسنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من اُحد فساروا حتّى نزلوا بئرمعونة .

فلمّا نزلوا قال بعضهم لبعض : أيّكم يبلغ رسالة رسول الله أهل هذاالماء ؟فقال حزام ابن ملجان أنا،فخرج بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلمّا أتاهم لم ينظر عامر في كتاب رسول الله،فقال حزام : يا أهل بئر أنارسول رسول الله إليكم وأشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فطعن به في جنب حزام حتّى خرج من الشقّ الآخر فقال حزام : الله أكبر فزت وربّ الكعبة .

ثمّ استصرخ عامر بن الطفل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه على مادعاهم إليه وقالوا : لن نخفرأبا براء قدعقدلهم عقداً ،وجوارهم قبائل من بني سليم فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتّى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلمّا رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتّى قتلوا عن آخرهم إلّا كعب بن زيد فإنّهم تركوه وبه رمق فارتثّ بين القتلى فعاش حتّى قتل يوم الخندق .

واُخذ عمرو بن اُميّة أسيراً فلمّا عرّف نفسه أنّه مضريّ أطلقه عامر بن الطفيل بعدأن جزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنّها كانت على أبيه ،

فقدم عمرو بن اُميّة على رسول الله وأخبره الخبر فقال رسول الله : هذا عمل أبي براء وقد كنت لهذاكارهاً متخوّفاً.فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفار عامر بن الطفيل إيّاه وما أصاب رسول الله بسببه وأنزل الله تعالى : «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله ، الآية » .

روي عن ابن عبّاس أنّه صلى الله عليه وآله قال في صفة الشهداء : إنّ أرواحهم في أجواف طير خضر وأنّها ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها وتسرح حيث شاءت و تأوي إلى قناديل

من ذهب تحت العرش فلمّا رأوا طيب مسكنهم ومطعمهم ومشربهم قالوا: ياليت قومنا يعلمون ما نحن فيه وما صنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد.

قال الفيض في الصافي: إنّه قيل للصادق عليه السلام: إنّ الناس يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر حول العرش فقال عليه السلام: لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حواصل طير ولكن في أبدان كأبدانهم.

قوله: فرحين بما ءاتيهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الاخوف عليهم ولاهم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع اجر المؤمنين (١٧١).

[فرحين بما آتاهم الله من فضله] وهو شرف الشهادة و الفوز بالحياة الأبديّة و التمتّع بالنعيم المخلّد عاجلاً.

[ويستبشرون] عطف على قوله: «فرحين» و عطف الفعل على الاسم لكون الفعل في تأويل الاسم أي فرحين ومستبشرين. في الكشّاف: بشّرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. قال البيضاوي: يسرّون بالبشارة [بالّذين لم يلحقوا بهم] أي بإخوانهم الّذين لم يقتلوا بعد فيلحقوا بهم [من خلفهم] متعلّق «بيلحقوا» أي الّذين بقوا في الدنيا وهم قد تقدّموهم [أن لاخوف عليهم ولا يحزنون] «أن» هي المخفّفة أي يفرحون بما بشّر لهم وأنّ الّذين بقوا إذا ماتوا أو قتلوا يفوزون بحياة الأبديّة لا يدركهم خوف ولا حزن فوات مطلوب.

وقوله: «أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» يكون من كلام الأولى، وبيّن الله أحوال الشهداء أنّه لا يكون خوف بسبب توقّع المكروه النازل في المستقبل ولا يصيبهم حزن بسبب فوات أمر من الماضي.

[يستبشرون بنعمة من الله وفضل و أنّ الله لايضيع أجر المؤمنين] كرّر الاستبشار لبيان أنّ الاستبشار المذكور ليس بمجرّد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم وزيادة عظيمة وأنّه تعالى لا يضيع أجر المؤمنين كافّة سواء كانوا شهداء أو غيرهم، أو الاستبشار الأوّل بسبب سعادة إخوانهم والثاني بسعادة أنفسهم.

فإن قيل : أليس ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار ؟ فالجواب أنّ الاستبشار هو الفرح التامّ فلا يلزم تكرار ، أو أنّ حصول الفرح بما حصل لهم في الحال وحصول الاستبشار بما عرفوا ما يحصل لهم في الآخرة .

قال الرازيّ : «وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين» عندنا دالّة على العفو عن فسّاق أهل الصلاة ؛ لأنّه بإيمانه استحقّ الجنّة فلو بقي بسبب فسقه مؤبّداً مخلّداً لما وصل إليه أجر إيمانه فحينئذ يضيع أجر المؤمنين ، وذلك خلاف الآية .

الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم و اتقوا أجر عظيم (١٧٢) .

أي الّذين أطاعوا فيما اُمروا به و نهوا عنه من بعد ما أصابهم الجرح في غزوة اُحد يعني المقروحين الّذين اتّبعوا جميع المأمورات [واتّقوا] أي الّذين انتهوا عن المنهيّات ثواب عظيم وجملة قوله : «للّذين» خبر مقدّم مبتدؤه [أجرٌ عظيم] وكلمة «من» في قوله : «منهم» ليست للتبعيض لأنّ الّذين استجابوا لله والرسول كلّهم قد أحسنوا لا بعضهم بل هي لبيان الجنس .

وسبب نزول الآية أنّه لمّا رجع أبوسفيان و أصحابه من اُحد فبلغوا الروحاء و هو موضع بين مكّة والمدينة ندموا و همّوا بالرجوع حتّى يستأصلوا ما بقي من المؤمنين فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال . لا يخرجنّ معنا إلّا من حضر يومنا بالأمس أي وقعتنا ، فخرج رسول الله ﷺ إراءةً من نفسه و من أصحابه جلداً وقوّة ومعه جماعة حتّى بلغوا حمراء الأسد و هي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم أي حملوا المشقّة كيلا يفوتهم الأجر و ألقى الله الرعب في قلوب المشركين فرجعوا فنزلت الآية فهذه هي غزوة حمراء الأسد .

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله و نعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم (١٧٤) انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين (١٧٥) .

روي أنّ أباسفيان لمّا عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكّه نادى : يا محمّد موعدناموسم بدر الصغرى لقابل نقتتل بهاإن شئت،فقال ﷺ : «إن شاءالله» فلمّاكان القابل خرج أبوسفيان في أهل مكّة حتّى نزل مرّ الظهران فألقى الله الرعب في قلبه . والمراد من قوله «الّذين قال لهم الناس» المؤمنون .

[إنّ الناس] يعني أباسفيان وأصحابه [قد جمعوا لكم] أي اجتمعوا لحربكم،والقائل قيل : نعيم بن مسعود الأشجعيّ أوركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم أبوسفيان حمل بعيرمن زبيب أن ثبّطوا المسلمين .

وقيل : إنّ أباسفيان لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فقال له : يانعيم إنّي واعدت محمّداً أن نلتقي بموسم بدر إلّا أنّ هذا العام عام جدب ولا يصلحنا إلّا عام نرعي فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي أن أرجع ولكن إن خرج محمّد ولم أخرج زاده ذلك جرأة فاذهب إلى المدينة فثبّطهم ولك عندي عشرٌ من الإبل ، و ضمنها سهيل بن عمرو فجاء نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهّزون للخروج فقال لهم : ما هذا بالرأي أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد أفترون أن تخرجوا وقدجمعوا لكم ؟ فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد ؛ فأثّر هذا الكلام في قلوب قوم منهم ، فلمّا عرف رسول الله ذلك منهم قال : و الّذي نفسي بيده لأخرجنّ ولو لم يخرج معي أحدٌ فخرج في سبعين كلّهم يقولون : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

[فزادهم] القول [إيماناً] ولم يلتفتوا إلى ذلك بل ازداد اطمئنانهم و أظهروا حميّة الإسلام [وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل] أي كافينا الله ونعم الموكول إليه الله .

[فانقلبوا بنعمة من الله وفضل] الفاء فصيحة أي خرجوا إليهم ووافوا الموعد فرجعوا عن مقصدهم ملتبسين نعمة عظيمة من الله لا يقادر قدرها كائنة منه تعالى و هي العافية على الإيمان وحذر العدوّ منهم وربح عظيم في التجارة في سبيل الله .

[لم يمسسهم سوء] سالمين من المكاره ، روي أنّه ﷺ وافى بجيشه بدر الصغرى وكانت موضع سوق لبني كنانة يجتمعون فيها كلّ عامّ ثمانية أيّام ولم يلق رسول الله هناك أحداً من المشركين وأتوا السوق وكانت معهم تجارات فباعوا واشتروا أرياً(١) وزبيباً وربحوا وأصابوا

(١) الاري : العسل .

بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة غانمين ورجع أبوسفيان إلى مكّة فسمّى أهل مكّة جيشه جيش السويق وقالوا : إنّما خرجتم لتشربوا السويق .

[واتّبعوا رضوان الله] في كلّ ما أتوا من قول وفعل [والله ذوفضل عظيم] حيث تفضّل عليهم بزيادة الإيمان والتصلّب في الدين وإظهار الجرأة على العدوّ . وروي أنّهم قالوا : هل يكون هذا غزو ؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو .

[إنّما ذلكم] إشارة إلى المثبّط أو إلى من حمل المثبّط على التثبيط، والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ [الشيطان] خبره [يخوّف أولياءه] جملة مستأنفة مبيّنة لشيطنته والمراد «بأوليائه» أبوسفيان وأصحابه أونعيم الأشجعيّ ومن أمره .

فإن قيل : إنّ الّذين سمّاهم الله بالشيطان إنّما خوّفوا المؤمنين فما معنى «يخوّف أولياءه» ؟ قال ابن عبّاس : المفعول الأوّل في «يخوّفكم» محذوف فتقدير الكلام : ذلكم الشيطان يخوّفكم بأوليائه ، و حذف الجارّ مثل قوله : « لينذر يوم التلاق[1] » أي بيوم التلاق ، وحذف المفعول مثل قوله : «فإذا خفت عليه فألقيه في اليّم[2] » أي إذا خفت عليه فرعون . وفي قراءة أبيّ بن كعب «يخوّفكم بأوليائه» .

وقيل : إنّ التخويف يتعدّى إلى مفعولين من غير حرف يقال . خوّفته القتال ، ولا يحتاج إلى تقدير حرف جرّ وحذفه كما عليه قراءة ابن مسعود .

وقيل في معنى الآية قولٌ آخر وهو أنّ الشيطان يخوّف أولياءه وهم المنافقون ليقعدوا عن قتال المشركين مثل أبي سفيان و أصحابه فأمّا أولياء الله فإنّهم لا يخافونهم إذا خوّفهم ولا ينقادون لأمره .

والضمير في [فلا تخافوهم] على المعنى الأوّل راجعٌ إلى الأولياء وعلى القول الثاني عائد إلى الناس في قوله : «إنّ الناس قد جمعوا لكم» [وخافون] بحذف الياء [إن كنتم مؤمنين] .

ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله وأن لا يجعل لهم حظا في الاخرة ولهم عذاب عظيم (١٧٦) ان الذين

---

(١) المؤمن : ١٥　　(٢) القصص : ٧

اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم (١٧٧) ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما و لهم عذاب مهين (١٧٨) .

قرأ نافع في جميع القرآن «يحزنون» بضمّ الياء و كسر الزاي إلّا قوله : «لا يحزنهم الفزع الأكبر(١)» فإنّه فتحها وضمّ الزاي . وقرأ الباقون أجمعون في جميع القرآن بفتح الياء وضمّ الزاي .

وقرأ أبو جعفر عليه السلام عكس ماقرأ نافع فإنّه فتح الياء في جميع القرآن إلّا قوله : « لا يحزنهم الفزع الأكبر» فإنّه ضمّ الياء .

المعنى : لمّا علّم الله المؤمنين مايصلحهم عند تخويف الشيطان إيّاهم خصّ رسوله بضرب من التعليم في هذه الآية فقال : [ولا يحزنك] أيّها الرسول [الّذين يسارعون في الكفر] لغاية حرصهم عليه وشدّة رغبتهم فيه وهم المنافقون المتخلّفون الّذين يسارعون إلى ماأبطنوه من الكفر مظاهرة للكفّار وسعياً في إطفاء نور الله [إنّهم لن يضرّوا الله شيئاً] ولا يرد الضرر إلّا على أنفسهم .

[يريد الله أن لا يجعل لهم حظّاً في الآخره] والمراد من إرادة الله عدم جعل النصيب لهم في الآخرة وتركهم في طغيانهم و كفرهم وعدم إجبارهم على الإيمان لأنّه ليس في سنّة التكليف إجبارٌ؛ ولذلك تركهم بسوء اختيارهم إلى أن يهلكوا على الكفر لأنّ كفرهم بلغ النهاية ولا يستحقّون الرحمة أبداً [ولهم عذاب عظيم] معذلك الحرمان الكلّيّ من الثواب .

[إنّ الّذين اشتروا الكفر بالإيمان] أخذوه بدلاً منه رغبة فيما أخذوه [لن يضرّوا الله شيئاً] لأنّه تعالى غنيّ عن كفرهم وإيمانهم [ولهم عذاب أليم] موجع .

[ولا يحسبنّ الّذين كفروا] الموصول مع صلته فاعل « يحسبنّ » [أنّما نملي لهم] و« ما » في الكلام موصولة أو مصدريّة وكان حقّها في قياس علم الخطّ أن يكتب مفصولة لكنّها وقعت في مصحف عثمان متّصلة فتبعوه الكتّاب ، والإملاء إطالة المدّة .

---

(١) الانبياء : ١٠٣ .

بيّن سبحانه أنّ إمهال الكفّار لا ينفعهم إذا كان يؤدّي إلى العقاب أي لا يظنّ الّذين كفروا أنّ إطالتنا لأعمارهم خير لهم من القتل في سبيل الله لأنّ قتل الشهداء أدّاهم إلى الجنّة وبقاء هؤلاء الكفّار في الكفر يؤدّيهم إلى النار ونطيل عمرهم ونترك المعاجلة لعقوبتهم .

[ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين] أي لتكون عاقبة أمرهم ازدياد الإثم ، واللام لام العاقبة مثل قولهم :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقول الآخر : لد وا للموت وابنوا للخراب .

ولا يجوز أن يكون اللام لام الإرادة و الغرض ؛ لأنّها لو كانت لام الغرض و الإرادة يوجب أن يكون الكفّار مطيعين لله من حيث فعلوا ما وافق إرادته تعالى ، وذلك لم يقل به أحد ، ولأنّ إرادة القبيح قبيحة وهو تعالى منزّه عن القبيح وقد قال : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون [1]» و قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله[2] » وقال : « وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله[3]» فالّذين فسّروا اللام بلام الإرادة من أهل السنّة والجماعة بمعزل عن القبول .

ودلّت الآية على أنّ إطالة عمر الكافر وإيصاله إلى مراداته في الدنيا ليس بخير بل نقمة في الحقيقة لأنّ الخبيص المسموم لا يعدّ نعمة .

وفي تفسير روح البيان : قال النبيّ ﷺ : خير الناس من طال عمره وحسن عمله وشرّ الناس من طال عمره وساء عمله .

قال الله تعالى لرسول الله ﷺ ليلة المعراج : إنّ من نعمتي على أُمّتك أنّي قصّرت أعمارهم كي لا تكثر ذنوبهم وأقللت أموالهم كيلا يشتدّ في القيامة حسابهم وأخّرت زمانهم كيلا يطول في القبور حبسهم .

وقال أيضاً : يا أحمد لا تتزيّن بلين اللباس وطيب الطعام ولين الوطأة فإنّ النفس

---

(١) الذاريات : ٥٦ . (٢) النساء : ٦٣ .
(٣) البيّنة : ٥ .

مأوى كلّ شرّ وهي رفيق سوء كلّما تجرّها إلى طاعة تجرّك إلى معصية ، وتخالفك في الطاعة وتطيع لك في المعصية وتطغى إذا شبعت و تتكبّر إذا استغنت وهي قرينة للشيطان وقيل في النفس : مثلها كمثل النعامة تأكل الكثير وإذا حمّلت عليها لاتطير ، وإذا قيل : أنت طائر ، قالت : أنا بعير وهذه رجلي ، وإذا حمّلت عليها شيئاً ، قالت : أنا طائر وهذا جناحي . فكثرة المال تغرّ النفس .

قال الحقّيّ في تفسيره : وعن عائشة أنّها قالت : قلت لرسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك لما رأيت به من الجوع وشدّ الحجر من السغب؟ قال ﷺ : ياعائشة والّذي نفسي بيده لوسألت ربّي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنّي اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غنائها وحزن الدنيا على فرحها ، ياعائشة إنّ الدنيا لاتنبغي لمحمّد ولالآل محمّد ، والدنيا والآخرة ضرّتان فمن يطلب الجمع بينهما فهو ممكورٌ ومن يدّعي الجمع بينهما فهو مغرور ومن رام متابعة الهوى وترك البلوغ إلى الدرجات العلى فهو غريقٌ في الغفلة ، الحديث .

وبالجملة يا أيّها الإخوان اعلموا أنّ الّذين مضوا قبلنا من الأُمم قد عاشوا طويلاً وجمعوا كثيراً فما أغنتهم أموالهم فتذكّروا موتهم ومصارعهم تحت التراب وتأمّلوا كيف تبدّدت أجزاؤهم و كيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم وهلكت بعدهم صغارهم و كبارهم وانقطعت آثارهم وديارهم ؟ فلم يرجع من كفر بنعمة الله إلّا إلى العذاب ، فمن كانت غفلته كغفلتهم فستصير إلى ما صاروا وإن عاش طويلاً فإنّ الله يمهل ولا يهمل قال الله تعالى : « نمتّعهم قليلاً ثمّ نضطرّهم إلى عذاب غليظ[1] » وما التمتّع بها إلّا قليل فالدنيا ساعةٌ فاجعلها طاعة .

قوله تعالى : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب و ما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم (١٧٩) .

النزول : قيل : إنّ المشركين قالوا لأبي طالب : إن كان محمّد صادقاً فليخبرنا

(١) لقمان : ٢٤ .

من يؤمن منّا ومن يكفر فإن وجدنا مخبره كما أخبرنا آمنّا به فذكر ذلك للنبيّ فأنزل الله هذه الآية .

قال الرازيّ في تفسيره : هذه الآية من بقيّة الكلام في قصّة أُحد ؛ فأخبر تعالى أنّ الأحوال الّتي وقعت في وقعة أُحد من القتل و الهزيمة ثمّ دعاء النبيّ إيّاهم مع ماكان بهم من الجراحات إلى الخروج لطلب العدوّ ثمّ دعاؤه إيّاهم مرّة أُخرى إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان فأخبر سبحانه أنّ كلّ هذه الأحوال لامتياز المؤمن من المنافق لأنّ المنافقين خافوا ورجعوا وشتموا بكثرة القتلى منكم ثمّ تبطّؤ المؤمنين عن العود إلى الجهاد فأخبر سبحانه أنّه لايجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنّهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان في حكمته رفع هذه الشبهات حتّى يحصل الامتياز فهذا وجه النظم .

و « ماز » يتعدّى إلى المفعول وقرىء « يميز » مخفّفاً ومشدّداً ومنه الحديث من ماز أذى عن طريق فهوله صدقة وحجّة .

والمعنى : [ماكان الله] ليذركم يامعشر المؤمنين [على ما أنتم عليه] من اختلاط المؤمن بالمنافق وأشباهه [حتّى يميز] المنافق من المؤمن .

واختلفوا بأيّ شيء ميّز بينهم : قيل : بإلقاء المحن والقتل والهزيمة فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه وتصديق الرسول ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وإنكاره .

وقيل : إنّ الله وعد بنصرة المؤمنين وإذلال الكافرين فلمّا قوي الإسلام عظمت دولته وذلّ الكفر وأهله فعند ذلك حصل الامتياز .

وقيل : القرائن الدالّة مثل أنّ المسلمين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام والمنافقين كانوا يغتمّون بسبب ذلك .

فإن قيل : إنّ هذا التميّز إن ظهر وانكشف يبقى كونهم منافقين وإن لم يظهر لم يحصل موعود الله ؛ فالجواب أنّه ظهر عند الملائكة وخواصّ المؤمنين وعند الرسول وعند البعض حصل الامتياز الظنّيّ لا القطعيّ .

ثمّ قال : [وما كان الله ليطلعكم على الغيب] معناه أنّه سبحانه لا يظهر على غيبه

عامّة الناس فيعلموا ما في القلوب أنّ هذا مؤمن وهذا منافق ولا يكون له تعالى أن يبيّن أنّ فلاناً من أهل الجنّة وفلاناً من أهل النار لعامّة الناس بل يكون يعرف هذا الأمر من الإطاعة والمعصية والامتحانات فأمّا معرفة ذلك على الاطّلاع من الغيب فهو من خواصّ الأنبياء ولهذا قال :

[ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء] فخصّهم بإعلامهم أنّ هذا مؤمنٌ وهذا منافقٌ أو المعنى : ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء فيمتحن خلقه بالشرائع على أيديهم حتّى يتميّز الفريقان بالامتحان . ويمكن أن يكون المعنى : وماكان الله ليجعلكم كلّكم عالمين بالغيب من حيث يعلم الرسول حتّى تصيروا مستغنين عن الرسول بل الله يخصّ من يشاء من عباده بالرسالة ثمّ يكلّف الباقين طاعة هؤلاء الرسل .

ثمّ قال سبحانه : [فآمنوا بالله ورسله] ولا تشكوّا في دين الإسلام [وإن تؤمنوا] حقّ الإيمان [وتتّقوا] النفاق [فلكم] بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى [أجرٌ عظيم] لا يبلغ كنهه ، وهذا الأجر على قدر عظم التقوى فإنّ السير في مسلك التقوى يتهيّأ بقدمي التقوى إلى أن يبلغ السائر بمقام لا يصدر منه المباحات، ويكون سعيه أن يجعل المباحات مستحبّات .

قال إبراهيم بن أدهم : بتّ ليلةً تحت صخرة بيت المقدس فلمّا كان بعض الليل رأيت في الرؤيا أنّه نزل ملكان فقال أحدهما : من ههنا ؟ فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذلك الّذي حطّ الله درجةً من درجاته، فقال : لمَ ؟ قال : لأنّه اشترى بالبصرة التمر فوقعت تمرة على تمره من تمر البقّال فلم يردّها .

قال إبراهيم : فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرةً على تمره ورجعت إلى بيت المقدس وبتّ في الصخرة فلمّا كان بعض الليل إذ أنا بملكين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : من هنا ؟ فقال أحدهما : ذلّك الّذي ردّ التمرة إلى مكانها فرفعت درجته .

فهذا هو التقوى على الحقيقة ولا يتيسّر مثل هذا المقام إلّا بالتوسّل إلى اقتداء رسول الله كما قال سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة[1] » فيا أخي لا تضيّع أيّامك فإنّ أيّامك رأس

(١) المائدة : ٣٥ .

مالك وإنك مادمت قابضاً على رأس مالك قادرٌ على طلب الربح فإنّ الموتى يتمنّون أن يؤذن لهم بأن يصلّوا ركعتين أويقولوا مرّةً : « لا إله إلّا الله » أويسبّحوا مرّةً فلايؤذن لهم ويتعجّبون من الأحياء كيف يضيّعون أيّامهم في الغفلة .

ولايحسبن الذين يبخلون بما ءاتيهم الله من فضله هوخيراً لهم بل هو شرلهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والارض والله بماتعملون خبير(١٨٠) .

لمّا بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدّمة شرع في التحريض على بذل المال وبيّن الوعيد الشديد لمن يبخل يبذل المال المقرّر إنفاقه في سبيله .

قرأ حمزة بالياء و الباقون بالباء ؛ قال الزجّاج : على الخطاب معنى الآية : و لا تحسبنّ بخل الّذين يبخلون خيراً لهم ، فحذف المضاف لدلالة « يبخلون » عليه ، و أمّا من قرأ بالياء المنقّطة من تحت أي لا يحسبنّ ضمير رسول الله أو ضمير أحد بخل الّذين يبخلون خيراً لهم ، أو يكون فاعل « يحسبنّ » كلمة « الّذين يبخلون » فيكون المفعول محذوفاً و تقديره :

[ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله] بخلهم « هوخيراً لهم » فحاصل المعنى : لايحسبنّ البخلاء [هو] أي البخل[خيراً لهم] من إنفاقهم و «خيراً» مفعول ثان ليحسبنّ [بل هو] أي البخل [شرّلهم] لاستجلاب العقاب عليهم [سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة] بيان لقوله : « وهو شرّلهم » أي سيلزمون وبال مابخلوا به إلزام الطوق .

اختلف في معناه فقيل : الكلام من قبيل الاستعارة التمثيليّة شبّه لزوم وبال البخل وإثمه بهم بلزوم طوق الحمامة بها في عدم زوال الطوق عنها فعبّر عن لزوم الوبال بهم بالتطويق . وهذا المعنى يحتاج إلى تمحّل المجاز وخروج من الحقيقة ولاحاجة لنا به على أنّ هذا المعنى مخالف لأخبار كثيرة عن أئمّتنا عليهم السلام .

والمعنى الصحيح هو أن يجعل مابخل به طوقاً على عنق البخيل حقيقةً وهوالمرويّ عن أبي جعفر عليه السلام و هو قول ابن مسعود و ابن عبّاس و السدّيّ و الشعبيّ و جماعة .

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : ما من رجل لا يؤدّي الزكاة إلّا جعل في عنقه شجاع يوم القيامة ثمّ تلا هذه الآية وقال : ما من ذي رحم يأتي رحمه يسأله من فضل ما أعطاه الله إيّاه فيبخل به عنه إلّا أخرج الله له من جهنّم شجاعاً يتلمّظ بلسانه حتّى يطوّقه وتلا هذه الآية .

وقيل : معنى الآية : يجعل في عنقه يوم القيامة طوق من نار .

وقال ابن عبّاس : يجعل الزكاة في عنقهم كهيئة الطوق شجاعاً ذا زبيبتين يلدغ بهما خدّيه ويقول : أنا الزكاة الّتي بخلت في الدنيا بي .

وقيل : المعنى سيكلّفون ما بخلوا به يوم القيامة أن يؤتوا به فيكون ذلك توبيخاً و تشديداً لعذابهم .

ولكنّ الصحيح حمل الكلام على الحقيقة لأنّ الروايات وردت بها كما في رواية اُخرى: يجعل ما بخل به من الزكاة حيّةً يطوّقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدميه وتنقر رأسه ويقول : أنا مالك .

وفي حديث اُخرى قال النبيّ ﷺ : مامن رجل يكون له إبلٌ أو بقرٌ أو غنمٌ لا يؤدّي حقّها إلّا اُتي بها يوم القيامة أعظم ماتكون وأسمنها تطأه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلّما جازت اُخراها ردّت عليه اُولاها حتّى يقضى بين الناس .

قال أبو حامد : مانع زكاة الإبل يحمل بعيراً على كاهله ، له رغاءٌ وثقل يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة البقر يحمل ثوراً على كاهله له خوارٌ وثقلٌ يعدل الجبل العظيم، ومانع زكاة الغنم يحمل شاةً لها ثغاءٌ وثقلٌ يعدل الجبل العظيم، والرغاء والخوار والثغاء كالرعد القاصف ومانع الزكاة من الزرع يحمل على كاهله أعدالاً قد ملئت من الجنس الّذي كان يبخل به برّاً كان أو شعيراً أثقل مايكون ، ينادي تحته بالويل والثبور .

وقال : مانع زكاة المال يحمل شجاعاً أقرع له زبيبتان و ذنبه قد انساب في منخريه واستدار بجيده وثقل على كاهله كأنّه طوق بكلّ رحىً في الأرض وتقول الملائكة: هذا ما بخلتم به .

[ولله ميراث السماوات والأرض] أي مايتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات الّتي يتوارثها أهل السماوات فمالهم يبخلون عليه بملكه أو المعنى أنّه يرث منهم ما يمسكونه عند هلاكهم [والله بما تعملون خبير] من المنع والإعطاء فيجازيكم بحسبه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله حصّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا البلايا بالدعاء قال صلى الله عليه وآله : لاصلاة لمن لازكاة له .

روي أنّ موسى عليه السلام مرّ برجل وهو يصلّي مع حضور القلب وخشوع فقال : يا ربّ ما أحسن صلاته ، فقال الله : لوصلّى في كلّ يوم وليلة ألف ركعة وأعتق ألف رقبة وصلّى على ألف جنازة وحجّ ألف حجّة وغزا ألف غزوة لم ينفعه حتّى يؤدّي زكاة ماله .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ملعون مال لايزكّى كلّ عام ، وملعون بدن لايبتلي في كلّ أربعين ليلة ، ومن البلاء النكبة والعثرة والمرضة والخدشة واختلاج العين فمافوق ذلك .

لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير و نحن أغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الانبياء بغير حق و نقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١) ذلك بماقدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٨٢) .

وجه النظم : قال الطبرسيّ : لمّا نزلت « من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً [١] » قالت اليهود : إنّ الله فقير يستقرض منّا ونحن أغنياء . وقائله حييّ بن أخطب وقيل : كتب النبيّ صلى الله عليه وآله مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فدخل أبو بكر بيت مدراستهم فوجد ناساً كثيراً منهم اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص بن عازورا ، فدعاهم إلى الإسلام والصلاة فقال فنحاص : إن كان ماتقول حقّاً فإنّ الله إذن لفقير ونحن أغنياء ، ولو كان غنيّاً لما استقرضنا أموالنا فغضب أبو بكر و ضرب وجهه فنزلت الآية .

قال الرازيّ في المفاتيح إنّه يبعد من العاقل أن يقول : «إنّ الله فقير ونحن أغنياء» وقد صدر هذا الكلام منهم فإمّا أن ذكروه على سبيل الاستهزاء و السخريّة على سبيل

---

(١) البقرة : ٢٤٥.

الطعن في نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله .

والمعنى : لوصدق محمّد في أنّ الإله يطلب المال من عبيده لكان فقيراً ولمّا كان ذلك محالاً ثبت أنّه كاذب .

و بالجملة فلو كان القائل بهذا الكلام فنحاص فوجه الجمع رضى الباقين بذلك .

المعنى : أدرك سبحانه وعلم قول القائلين [إنّ الله فقير] أي ذوحاجة لانّه يستقرض منّا [ونحن أغنياء] عن الحاجة وإنّما قالوه تلبيساً على عوامّهم،وقيل : معناه أنّ الله فقيرلأنّه يضيّق علينا الرزق ونحن أغنياء لأنّا نوسّع الرزق على أهالينا .

[سنكتب ماقالوا] أي سنكتب قولهم في صحائف الحفظة و لا نهمله ، و السين للتأكيد أي لن يفوتنا أبداً تدوينه وإثباته كيف لا و هو كفر بالله و استهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ؟

[وقتلهم الأنبياء] أي سنكتب قتلهم الأنبياء و المراد أسلافهم وهم راضون بفعل آبائهم إذلم ينهوهم . و في العطف إيذان بأنّهما في العظم أخوان . و في الآية دلالة على أنّ الرضا بفعل القبيح يجري مجراه في عظم الجرم لانّ اليهود الّذين وصفوا بقتل الأنبياء لم يتولّوا ذلك بأنفسهم و إنّما ذمّوا بذلك لأنّهم بمنزلة من تولّى في عظم الإثم [بغير الحقّ] متعلّق بمحذوف وقع حالاً من« قتلهم » أي كائناً بغير حقّ وجرم في اعتقاداتهم و في نفس الأمر .

[ونقول] عند الموت أو عند الحشر أوعند قراءة الكتب [ذوقوا عذاب الحريق] نقول : ذوقوا عذاب المحرق كما أذقتم المرسلين الغصص .

[ذلك] إشارة إلى العذاب المذكور [بما قدّمت أيديكم] بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء والتفوّه بمثل تلك العظيمة ، والتعبير عن الأنفس « بالأيدي » لأنّ أكثر الأعمال يزاول ويداوم بهنّ فاستعمل على التغليب .

[وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد] وإنّما ذكر لفظ « الظلّام » و هو للتكثير تأكيداً لنفي مطلق الظلم .

الذين قالوا ان الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يا تينا بقربان تأكله

النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات و بالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين (١٨٣) .

هذه شبهة للكفار في طعن نبوته ﷺ و تقريرها : أنهم قالوا : [إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار] وأنت يا محمد ما فعلت ذلك فوجب أن لاتكون من الأنبياء .

قال ابن عباس : نزلت الآية في كعب بن الأشرف و كعب بن أسيد ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وزيد بن التابوت وفنحاص وغيرهم أتوا رسول الله فقالوا : تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً وقد عهد الله إلينا في التوراة « أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » و يكون لها دوي خفيف ينزل من السماء فإن جئتنا بهذا صدقناك،فنزلت الآية .

قال عطاء : كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الشروب وأطائب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم النبي في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل خارجون واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي خفيف ولا دخان لها فتأكل ذلك القربان.و هذا الاقتراح منهم غلط وعناد ؛ لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ؛ وذلك لأن اليهود ادعوا أن الله قال في التوراة : من جاءكم يزعم أنه نبي فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار .

قال الرازي : وللعلماء في هذا الادعاء قولان :

الأول : وهو قول السدي : أن هذا الكلام جاء في التوراة ولكنه مع شرط و ذلك أنه تعالى قال في التوراة : من جاءكم يزعم أنه نبي فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار إلا المسيح ومحمداً فإنهما إذا أتيا فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان تأكله النار .

و القول الثاني : أن هذا الكلام كذب على التوراة لأنه لو كان ذلك حقاً لكانت معجزات كل الأنبياء هذا القربان ومعلوم أنه ماكان الأمر كذلك ؛ فإن معجزات موسى عند فرعون كانت أشياء سوى هذا القربان .

وبالجملة ردّ الله عليهم هذه الشبهة بقوله : [قل] لهم يا محمّد : [قد جاءكم رسل] كثيرة العدد كبيرة المقدار [من قبلي بالبيّنات] والمعجزات الواضحة [وبالّذي قلتم] بعينه من القربان الّذي تأكله النار [فلمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين] في أنّكم تؤمنون لرسول يأتيكم بقربان تأكل النار فإنّ زكريّا ويحيى وغيرهما من الأنبياء قد جاؤوكم بما قلتم فلمَ قتلتموهم ولم تؤمنوا لهم ؟

و« القربان » البرّ الّذي يتقرّب به إلى الله وأصله المصدر كالكفران و الخسران ثمّ سمّي به نفس المتقرّب به ومنه قوله ﷺ لكعب بن عجرة : يا كعب الصوم جنّة و الصلاة قربان . أي بها يتقرّب إلى الله و يستشفع في الحاجة لديه .

فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات و الزبر والكتاب المنير (۱۸۴) .

أي فإن كذّبوك في نبوّتك فطالما كذّبوا رسلاً من قبلك وأنكروهم مثل نوح و هود وصالح وإبراهيم وشعيب بل قتلوهم مثل يحيى وزكريّا ، و المقصود تسلية رسول الله ﷺ و بيان أنّ هذا التكذيب ليس أمراً مختصّاً به بل شأن جميع الكفّار تكذيب الأنبياء وهم صبروا على ما نالهم فكن متأسّياً سالكاً طريقتهم ؛ لأنّ المصيبة إذا عمّت طابت وخفّت .

وأمّا البيّنات فهي الدلائل والمعجزات و أمّا الزبر فهي الكتب وهي جمع « زُبر » بمعنى المزبور أي المكتوب . قال الزجّاج : الزبور كلّ كتاب ذي حكمة . وعلى هذا فالأنسب أن يكون معنى الزبور من الزبر الّذي هو الزجر يقال زبرت الرجل إذا زجرته عن الباطل و سمّي الكتاب زبوراً لما فيه من الزبر عن خلاف الحقّ وبه سمّي زبور داود لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ و «المنير» الموضح .

و من المعلوم أنّ المواعظ الحسنة و الزواجر المصلحة تطهّر النفس من الصفات الرذيلة بشرط أن يكون الإنسان خالياً عن العناد و الإصرار حتّى يرى الحقّ حقّاً و الباطل باطلاً فحينئذ يهتدي بسراج الشريعة و علامة اهتدائه انقطاعه عن ميل الدنيا و اتّباع الهوى .

روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ بقرية فإذاً أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال : يامعشر الحواريّين إنّ هؤلاء ماتوا على سخط ولو ماتوا على غير ذلك لتدافنوا فقالوا : ياروح الله وددنا أنّا علمنا خبرهم ، فسأل عليه السلام ربّه فأوحى الله اليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك؛ فلمّا كان الليل أشرف على الموتى ثمّ نادى : يا أهل القرية فأجابه مجيب : لبّيك ياروح الله فقال : ماحالكم وماقصّتكم ؟ قال : بتنا في عافية وأصبحنا في الهاوية ، قال : وكيف ذلك؟ قال : لحبّنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حبّكم للدنيا ؟ قال : كحبّ الصبيّ لأمّه إذا أقبلت فرحنا وإذا أدبرت حزنّا ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال : لأنّهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال : كيف أجبتني من بينهم ؟ قال : لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم فلمّا نزل العذاب أصابني فأنا معلّق على شفير جهنّم لا أدري أأنجو منها أم أُكبكب فيها ؟ انتهى .

وإيّاك أيّها الإنسان و التكذيب والإنكار فيما بيّنه الأنبياء و أهل الذكر وقد نهى الحكماء الإلهيّة أن لايجالس الجاهل أهل الإنكار بل يكون لا يلتفت إليهم أصلاً إذ المجاورة مؤثّرة ومن موجبات تشكيك الأمر وتشويق الذهن كما قيل :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة　　　و الجمر توضع في الرماد فتخمد

كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيمة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور (١٨٥) .

أي كلّ نفس تخرج وتنفكّ من البدن بسبب الموت فكنّي بالذوق عن القلّة . في الحديث: لمّا خلق الله آدم اشتكت الأرض إلى ربّها لما أُخذ منها فوعدها أن يردّ فيها ما أُخذ منها فما من أحد إلّا ويدفن في التربة الّتي أُخذ منها .

[وإنّما توفّون أُجوركم] وتعطون جزاء أعمالكم خيراً كانّ أو شرّاً تامّاً وافياً [يوم القيامة] أي يوم قيامكم من قبوركم ولعلّ في لفظ « التوفية » إشعاراً بأنّ بعض أُجورهم يصل إليهم قبله كما ينبىء عن هذا قوله صلّى الله عليه وآله : الفقر روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران .

[فمن زحزح عن النار] وبعد عنها يومئذ و « الزحزحة » تكرير الزحّ وهو الجذب

بعجلة [وأُدخل الجنّة فقد فاز] بالنجاة ونيل المراد،قال النبي ﷺ : من أحبّ أن يزحزح عن النار وأُدخل الجنّة فلتدركه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس بما يحبّ أن يؤتى به .

[وما الحياة الدنيا] وزخارفها ولذّاتها [إلّا متاع الغرور] شبّهها سبحانه بالمتاع الّذي يدلّس به على المستام(١) وتغترّ حتّى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة ؛ فالعاقل لا يغترّ بالدنيا فإنّها ليّن مسّها قاتلٌ سمّها ظاهرها مطيّة السرور و باطنها مطيّة الشرور .

قال ﷺ : لموضع سوط في الجنّة خير من الدنيا وما عليها . وممّا نزل على بعض أنبيائه : يا ابن آدم تشتري النار بثمن غال ولا تشتري الجنّة بثمن رخيص . قيل في معناه : إنّ فاسقاً يتّخذ ضيافةً للفسّاق بمائة درهم أو أكثر فيشتري النار ولو اتّخذ للفقراء بدرهم أو درهمين يكون ثمن الجنّة .

قوله : لتبلون فى اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيراً وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور (١٨٦) .

بيّن سبحانه أنّ الكفّار بعد أن آذوا الرسول و المؤمنين يوم أُحد فسيؤذونهم أيضاً في المستقبل بكلّ طريق يمكنهم بالمال والنفس ، والغرض من هذا الإعلام أن يوطّنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع .

قال الواحديّ : اللام لام القسم و النون دخلت مؤكّدةً وضمّت الواو لسكونها وسكون النون ولم يكسر لالتقاء الساكنين لأنّها واو جمع فحرّكت بما كان تجب لما قبلها من الضمّ ومثله «اشتروا الضلالة (٢)» .

أي تعاملون معاملة المختبر لأنّه لا يجوز له في وصف الاختبار ، و المراد ما ينالهم من الشدّة والفقر والقتل والجرح والهزيمة من جهة الكفّار والصبر على الجهاد والتكاليف المتعلّقة بالبدن والمال من الصلاة والزكاة .

---

(١) افتعال من السوم ، والمراد المشترى .
(٢) البقرة : ١٦ .

[ولتسمعنّ من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم] وهم اليهود والنصارى [ومن الّذين أشركوا] من الناس كأبي جهل وأبي سفيان والوليد وأضرابهم [أذىً كثيراً] من الطعن في الدين الحنيف والقدح في أحكام الشريف وصدّ من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وماكان من كعب بن الأشرف اليهوديّ وأصحابه من هجاء المؤمنين فأخبر الله المؤمنين بذلك قبل وقوعها لتوطين النفس على الصبر ويستعدّوا للقائها فإنّ هجوم الأوجال ممّا يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب ممّا يهوّن الخطوب .

[وإن تصبروا] على تلك الشدائد والبلوى بحسن التقابل [وتتّقوا] و تحترزوا عمّا لاينبغي [فإنّ ذلك] أي الصبر والتقوى من معزومات الاُمور الّتي يتنافس فيها المتنافسون ، أو المعنى ممّا عزم الله عليكم فيه واُلزمتم الأخذ به وأصل العزم من قول الرجل : عزمت عليك أن تفعل كذا أي ألزمته إيّاك لامحالة على وجه لا يجوز لك الترخّص في تركه .

قوله : واذاخذالله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون (١٨٧) .

بيان النظم أنّه تعالى أوجب على أهل الكتابين من اُمّة موسى وعيسى عليهما السلام في أن يشرحوا مافي هذين الكتابين من الدلائل على صحّة نبوّة محمّد و علائمه صلى الله عليه وآله فشرعوا يحرّفونها ويذكرون لها تأويلات فاسدة فبيّن سبحانه أنّ هذا من تلك الجملة الّتي تجب فيها الصبر . وقرأ عاصم و أبو عمرو : « ليبيّننه ولا يكتمونه » بالياء .

المعنى : اذكر يا محمّد وقت أخذه تعالى ميثاق أهل الكتاب وهم علماء اليهود و النصارى وذلك الأخذ على لسان الأنبياء [لتبيّننّه] والضمير للكتاب واللام للقسم كأنّه قيل لهم : بالله لتبيّننّه [للناس] وتظهرنّ جميع مافيه من الأخبار الّتي من جملتها أمر نبوّته صلى الله عليه وآله [ولا تكتمونه] عطف على جواب القسم .

[فنبذوه] النبذ الرمي والإبعاد أي طرحوا هذا الميثاق [وراء ظهورهم] ولم يراعوه ونبذ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به والإعراض كما أنّ نصب العين مثل في كمال العناية بالأمر .

[واشتروا به] أي بالكتاب الّذي اُمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه و«الاشتراء» مستعار

عن استبدال متاع الدنيا بما كتموا أي أخذوا بدله [ثمناً قليلاً] و شيئاً قليلاً من حطام الدنيا وهو ماتناولوه من سفلتهم ومن الرواتب من ملوكهم و كرهوا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ فينقطع ذلك عنهم فكتموا ماعلموا [فبئس مايشترون] والمخصوص بالذمّ محذوف أي بئس شيء يشترونه ذلك الثمن .

والآية وإن كانت نازلة في حقّ الّذين كانوا يخفون الحقّ في أمر محمّد ﷺ إلّا أنّ حكمها يعمّ من كتم من المسلمين أحكام القرآن الّذي هو أشرف الكتب وأنّهم أشرف أهل الكتاب لأنّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب و كلّ من لم يبيّن الحقّ للناس و كتم شيئاً من أحكام القرآن أوغيّر وحرّف حكماً دخل تحت وعيد الآية قطعاً .

قال فضيل بن عياض : لوأنّ أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحّوا على دينهم و أعزّوا العلم وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادلهم الناس ، ولكنّه أذلّوا أنفسهم ولم يسألوا ما نقص من دينهم إذا سلمت دنياهم فذلّوا وهانوا على الناس .

وقال الفضيل : بلغني أنّ الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأبهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان فيقولون : ربّنا ما بالنا؟فيقول الله : ليس من يعلم كمن لايعلم .

حكي أنّ ذاالقرنين اجتاز على قوم تركوا الدنيا وجعلوا قبورموتاهم على أبوابهم يقتاتون بنبات الأرض ويشتغلون بالطاعة فأرسل ذوالقرنين إلى رئيسهم فقال : مالي حاجة إلى صحبة ذي القرنين فجاء ذوالقرنين فقال : ما سبب قلّة الذهب والفضّة عندكم قال : ليس للدنيا طالبٌ عندنا فجعلنا القبور على أبوابنا حتّى لا ننسى الموت ثمّ أخذ قحف إنسان وقال : هذا رأس ملك من الملوك كان يظلم الرعيّة و يجمع حطام الدنيا فقبضه الله و بقي عليه السيّئات ثمّ أخذ آخر وقال : هذا رأس ملك عادل مشفق فقبضه وأسكنه جنّته ثمّ وضع يده على رأس ذي القرنين وقال : من أيّ الرأسين يكون رأسك فبكى ذوالقرنين و قال له إن رغبت في صحبتي شاطرتك مملكتي وسلّمت إليك وزارتي ،فقال : هيهات،فقال ذوالقرنين: ولمَ قال : لأنّ الناس أعداؤك بسبب المال وأحبابي بسبب القناعة .

قوله تعالى : لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم (١٨٨) ولله ملك السموات والارض والله على كل شيء قدير (١٨٩) .

الخطاب للرسول أو لكلّ أحد يصلح له [الّذين يفرحون بما أتوا] بسبب ما فعلوا من كتمان الحقّ والتدليس ويحبّون أن يحمدوا بأنّهم أهل البرّ والتقوى والديانة .

قيل : نزلت الآية في الّذين حرّفوا نصوص التوراة و فسّروها بتفسيرات باطلة و أظهروا بأنّا أظهرنا الحقّ ووفينا بالميثاق [ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا] وهوادّعاؤهم باتّباع دين إبراهيم وأنّه عليه السلام كان على دين اليهوديّة .

و قال أبوسعيد الخدريّ : نزلت الآية في رجال من المنافقين كانوا يتخلّفون عن رسول الله في الغزو ويعتذرون بالمعاذير ويفرحون بقعودهم فيقبل صلى الله عليه وآله عذرهم فطمعوا أن يثني صلى الله عليه وآله عليهم كما يثني على المسلمين . لكنّ الموصول على عمومه شاملٌ لكلّ من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويودّ أن يمدحه الناس بما هو عار منه ، وكون السبب خاصّاً لا يقدح في عموميّة حكم الآية وقرىء « بما اُوتوا » أي اُعطوا وقرىء «بما أتوا» وقرأ عليّ عليه السلام «بما اُوتوا» أي « بما اُوتوه» .

[بمفازة من العذاب] أي بمنجاة منه من قولهم : فاز فلانٌ إذا نجا ؛ قال الفرّاء : أي ببعد من العذاب ؛ لأنّ الفوز معناه التباعد من المكروه [ولهم عذاب أليم] موجع .

[ولله ملك السماوات والأرض] أي له السلطة القاهرة فيهما إيجاداً وإعداماً [والله على كلّ شيء قدير] فكيف يرجو النجاة من هو معذّب به ؟

ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١) ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته وما للظالمين من انصار (١٩٢) ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار (١٩٣) .

روى الثعلبيّ بإسناده عن محمّد بن الحنفيّة عن أمير المؤمنين أنّ رسول الله كان إذا قام من الليل يسوك ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول : « إنّ في خلق السماوات - إلى قوله - : وقنا عذاب النار» وقد اشتهرت الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآيات قال : ويلٌ لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل ما فيها .

قال الطبرسي : وروي عن الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة وفي الضجعة وبعد ركعتي الفجر .

وعن معاوية بن وهب قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله كان يأتي بطهور فيخمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ماشاء الله فإذا استيقظ جلس ثم قلب وجهه إلى السماء وتلا الآيات من آل عمران أولها «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل، الآيات » ثم يستتر ويتطهر ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات ثم يركع حتى يقال متى يرفع رأسه و يسجد حتى يقال متى يرفع رأسه ثم يعود إلى فراشه فينام ماشاءالله ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران الخمس وهو يقلب بصره صلى الله عليه وآله إلى السماء ثم يستتر ويتطهر و يقوم إلى المسجد و يصلي أربع ركعات كما ركع أولاً ثم يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات الخمس ويقلب بصره في السماء ثم يستتر ويتطهر ويقوم إلى المسجد ويصلي الركعتين ثم يخرج إلى الصلاة .

المعنى : قيل : إن أهل مكة سألوا رسول الله أن يأتيهم ببرهان وآية لصحة دعواه لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده فنزلت [إن في خلق السماوات] الآية أي في هذه الخلقتين العظيمتين من الشمس و القمر النجوم في خلق السماوات و الجبال و البحار و الأشجار والوحوش والطيور .

[واختلاف الليل والنهار] بذهاب الليل ومجيء النهار واختلاف لونيهما وزيادة كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بحسب الأزمنة [لآيات لأولي الألباب] لعبرات كثيرة لذوي العقل الخالص من شوائب التكدير و «اللب» خالص العقل فإن العقل له ظاهر وله لب و في أول الأمر يكون عقلاً و في حال كماله يكون لباً .

[الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم] نعت «لأولي الألباب» أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين فإن الإنسان لايخلو عن هذه الهيئات غالباً . وقيل : المعنى : يصلون على قدر إمكانهم في صحتهم و سقمهم، فالصحيح يصلي قائماً

و السقيم جالساً و على جنبيه مضطجعاً فسمّي الصلاة ذكراً رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره .

[ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض] أي ومن صفة اُولي الألباب أن يعتبروا في خلقهما ؛ قال ﷺ : تفكّروا في الخلق ولاتفكّروا في الخالق . وإنّما نهى التفكّر في الخالق لأنّ معرفة حقيقة الخالق غير ممكنة ، ولمّا كان الإنسان مركّباً من النفس و البدن كانت العبوديّة للبدن بقوله : «الّذين يذكرون الله » فإنّ ذلك باستعمال الجوارح و الأعضاء و أشار بعبوديّة النفس بقوله : «ويتفكّرون» .

قال الحقّيّ في روح البيان : وعن عطاء بن أبي رباح قال : دخلت مع ابن عمر و عبيدالله بن عمر على عائشة فسلّمت عليها فقالت : من هؤلاء ؟ فقلت : عبيدالله بن عمر فقالت : مرحباً بك مالك لا تزورنا ؟ فقال عبيدالله : زرغبّا تزدد حبّاً . قال ابن عمر: دعونا من هذا ، حدّثينا بأعجب مارأيت من رسول الله فبكت فقالت :

كلّ أمره عجيب أتاني في ليلتي فدخل في فراشي فقال : يا عائشة أتاذنين لي أن أتعبّد لربّي فقلت : والله إنّي لاُحبّ قربك وهواك قدأذنت لك فقام إلى قربة ماء فتوضّأ منها ثمّ قال : فبكى وهو قائم حتّى بلغ الدموع حقويه حتّى اتّكأ على شقّه الأيمن ووضع يده اليمنى تحت خدّه الأيمن فبكى حتّى أدرّت الدموع وبلغت الأرض ثمّ أتاه بلال بعد ما أذن للفجر فلمّا رآه يبكي قال : لمَ تبكي يارسول الله وقد غفرالله لك ماتقدّم وماتأخّر من ذنبك ؟ قال: يابلال أفلاأكون عبداً شكوراً ومالي لاأبكي وقداً نزلت عليّ الليلة «إنّ في خلق السماوات ـ إلى قوله ـ فقنا عذاب النار» ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها ، انتهى .

وفي الحديث : تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة ستّين سنة . ووجه التفضيل أنّ التفكّر عمل القلب والعبادة عمل الجوارح . والقلب أشرف الجوارح فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح .

[ربّنا ما خلقت هذا باطلاً] معنى يتفكّرون في صنعه و يقولون : ربّنا ما خلقت السماوات و الأرض عبثاً ضائعاً عن الحكمة خالياً عن المصلحة بل منتظماً لمصالح عظيمة من جملتها أن تكون مداراً لمعايش العباد ومناراً وآثاراً إلى معرفة أحوال المبدء و المعاد .

وتذكير الضمير باعتبار تعلّق الخلق لهما في معنى المخلوق .

[سبحانك] ننزّهك عمّا لا يليق بك من الأمور الّتي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه [فقنا عذاب النار] أي من عذاب النار الّذي جزاء الّذين لا يعرفون خالقهم .

وفائدة الفاء الدلالة علي أنّ علمهم بما لأجله خلقت السماوات و الأرض حملهم على الاستعانة من عذابه فينبغي للإنسان دائماً أن يتولّي الذكر باللسان والتفكّر بالقلب و المعرفة بالروح وذكر اللسان يوصل صاحبه إلى ذكر القلب وهو التفكّر في قدرة الله والتفكّر في القلب في قدرة الله يوصل إلى مقام الكمال في المعرفة للروح فيخلّص من ظلمة الجهل و يتنوّر بنور المعرفة ولذا قيل : معنى « لا إله إلّا الله» للعوامّ : لا معبود إلّا الله، وللخواصّ: لا محبوب ولا مقصود إلّا الله .

ومراتب العبوديّة والمعرفة تنقسم إلى قشر ولبّ ولبّ لبّ وتمثيل ذلك بالجوز فإنّ له قشراً وله لبّ وللّبّ دهن وهو لبّ اللبّ فالمرتبة الأولى من العبوديّة أن يقول الإنسان «لا إله إلّا الله» وقلبه غافل عنه وهو القشر ، والثانية أن يصدّق قلبه بمعناه و هو اعتقاد و عمل وهو اللبّ ، والثالثة أن يشاهد ذلك بواسطة نور إلهيّ ويرى الأشياء صادرة من الواحد القهّار ولا يختار لنفسه رضىً غير رضى الله وهذا المقام لبّ اللبّ كالدهن في الجوز وهو المراد بقوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه [(١)] » .

[ربّنا إنّك من تدخل النار فقد أخزيته] غاية الإخزاء ، والمراد طلب الخلق الوقاية من عذابه تعالى وتهويل المستعاذ منه [وما للظالمين من أنصار] وجمع الأنصار بالنظر إلى جمع الظالمين أي وما لظالم من الظالمين نصيرٌ من الأنصار ينصر بالمدافعة و القهر فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة لأنّها مسألة بطريق اللين .

[ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان] والمراد به الرسول فإنّه ينادي ويدعو إلى الإيمان وهو قول الأكثرين والدليل عليه قوله : «ادع إلى سبيل ربّك»[(٢)] «وداعياً إلى الله بإذنه [(٣)] » وقيل ، إنّ المنادي هو القرآن كما حكى عن مؤمني الجنّ قوله : « إنّا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنّا به» [(٤)] وهذا و إن كان مجازاً إلّا أنّه مجازٌ

(١) الزمر : ٢٢ . (٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) الاحزاب : ٤٦ . (٤) الجن : ١ - ٢ .

متعارف والدليل على هذا الوجه في تفسير الآية أنّه أولى لأنّه ليس كلّ أحد لقي النبيّ ﷺ لكنّ القرآن فكلّ أحد سمع به إذا أراد أن يسمع كما قيل : في جهنّم : « تدعو من أدبر وتولّى» والفصحاء يصفون الدهر بأنّه ينادي ويعظ :

يا واضع الميّت في قبره * خاطبك الدهر فلم تسمع

واللام في قوله : « للإيمان» بمعنى «إلى» كقوله : «ثمّ يعودون لما نهوا»[1] ومثل قوله تعالى : «بأنّ ربّك أوحى لها »[2] وقيل اللام لام الأجل والغرض والمعنى : سمعنا منادياً كان نداؤه ليؤمن الناس .

[أن آمنوا بربّكم] ومالككم ومتولّي أُموركم [فآمنّا] أي فأجبنا نداءه [ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا و كفّر عنّا سيّئاً و توفّنا مع الأبرار] فطلبوا من الله في هذا الدعاء غفران الذنوب أوّلاً وتكفير السيّئات وأن تكون وفاتهم مع الأبرار .

قيل : المراد من الذنوب في الآية كبائرهم ، ومن السيّئات الصغائر فإنّها مكفّرة عن مجتنب الكبائر .

وقيل : المراد بهما شيءٌ و احد وإنّما اُعيد للتأكيد فإنّ الإلحاح في الدعاء و المبالغة فيه مندوبٌ

وقيل : المراد من الذنوب ماتقدّم ، ومن السيّئات المستأنف .

وقيل : المراد من الغفران مايزول بالتوبة ، وبالتكفير ماتكفّره الطاعات العظيمة، و«الأبرار» جمع برّ مثل ربّ وأرباب ، قال القفّال . أي وفاتهم معهم أن يموتوا على مثل أعمالهم حتّى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة كما يقال : أنا مع فلان ، يريد كونه مساوياً له في ذلك الاعتقاد أو كونهم في أتباعهم .

قال الرازيّ : احتجّ أصحابنا على حصول العفو بدون التوبة بهذه الآية و الاستدلال بأنّهم طلبوا غفران الذنوب ولم يكن للتوبة فيه ذكر فدلّ على أنّهم طلبوا المغفرة مطلقاً ثمّ إنّ الله سبحانه أجابهم لأنّه قال : في آخر الآية «فاستجاب لهم ربّهم» و هذا صريح في أنّه قد يعفو عن الذنب و إن لم توجد التوبة .

---

(١) المجادلة : ٧ . (٢) الزلزلة : ٥ .

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيمة انك لا تخلف الميعاد (١٩٤) .

[ربّنا و آتنا ما وعدتنا على رسلك] أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك أو تصديقهم من الثواب والكرامة [ولا تخزنا] لاتهنّا [يوم القيامة إنّك لاتخلف الميعاد] اسم مصدر بمعنى الوعد ، وهذه الدعوات من كمال الضراعة لا لخوفهم من اختلاف الميعاد بل لخوفهم أن يكونوا من جملة الموعودين لسوء عاقبة أوقصور في الامتثال فإنّه ربّما ظنّ الإنسان أنّه على الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح ثمّ إنّه يظهر له يوم القيامة أنّ اعتقاده كان ضالّاً وعمله كان ذنباً . وقوله : «ولا تخزنا يوم القيامة» مثل قوله : «وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون» .(١)

فاستجاب لهم ربهم أنى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم و اوذوا فى سبيلى و قاتلوا و قتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثواباً من عندالله والله عنده حسن الثواب (١٩٥) .

أي استجاب الله لهم طلبتهم . و «استجاب» أخصّ من « أجاب» فإنّ أجاب معناه : أعطاه الجواب ، وهو قد يكون بتحصيل المطلوب وبدونه و استجاب إنّما يقال لتحصيل المطلوب ويعدّى بنفسه وباللام .

[أنّي] أي بأنّي [لا اُضيع عمل عامل منكم] وهو ماحكى عنهم من المواظبة على ذكر الله في جميع حالاتهم والتفكّر في مصنوعاته استدلالاً والاشتغال بالدعاء [من ذكر أو اُنثى] بيان للعامل من غير تفاوت بين الذكر والاُنثى إذا كانا جميعاً في التمسّك بالطاعة . وإشعار في الآية بأنّ الفضل في باب الدين بالأعمال لابسائر الصفات من نسب خسيس أو شريف ولا تأثير له في هذا الباب .

[بعضكم من بعض] وقيل : «من» في الآية بمعنى الكاف أي بعضكم كبعض في الثواب و الطاعة ؛ روي أنّ اُمّ سلمه قالت : يارسول الله (صلى الله عليه وآله) إنّي أسمع الله يذكر

---

(١) الزمر : ٤٧ .

الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزل قوله : «أنّي لا أُضيع ، إلى آخره» .

[فالّذين هاجروا] تفصيلٌ لأعمال العاملين منهم وما أعدّ لهم من الثواب ، فالّذين هاجروا من أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم [وأُخرجوا من ديارهم] واضطرّوا إلى الخروج بإيذاء المشركين إيّاهم واختاروا المهاجرة من أوطانهم في خدمة الرسول [وأُوذوا في سبيلي] في دين الحقّ بسبب إيمانهم بالله فتحمّلوا الأذى لأجل الدين . قال البلخيّ : نزلت الآية وما قبلها في المهاجرين معه صلى الله عليه وآله و المتّبعين له ثمّ هي في جميع من سلك سبيلهم إلى يوم القيامة [وقاتلوا] في سبيل الله [وقتلوا لأُكفّرنّ عنهم سيّئاتهم] أي لأمحق بها عنهم ذنوبهم وأتفضّل عليهم بعفوي .

[ولأُدخلنّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ثواباً] «الثواب» في الأصل اسم لما يثاب به كالعطاء اسمٌ لما يعطى إلّا أنّه قد يوضع موضع المصدر فهو مصدرٌ مؤكّد بمعنى الإثابة أي لأُثيبنّهم بذلك إثابة كائنة [من عند الله] قصد بتوصيفه به تعظيم شأن الثواب فإنّ السلطان العظيم الشأن إذا قال لعبده : أُلبسك خلعة من عندي ، دلّ ذلك على كون تلك الخلعة في غاية الشرف [والله عنده حسن الثواب] والجزاء على الطاعات و هو نعيم الجنّة الباقية .

لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد (١٩٦) متاع قليل ثم مأويهم جهنم و بئس المهاد (١٩٧) .

قيل : الخطاب للنبيّ والمراد أُمّته ، أو الخطاب لكلّ من بلغه هذا الخطاب فمعناه : لايغرّنّك أيّها السامع تقلّب الّذين كفروا في البلاد .

نزلت في مشركي مكّة كانوا يتّجرون و يتنعّمون فقال بعض المؤمنين : إنّ أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا الجوع والجهد ، فنزلت الآية و المراد من التقلّب في البلاد تصرّفهم في التجارات و المكاسب أي لا يغرّنّكم أمنهم على أنفسهم و تصرّفهم في البلدان وأنتم معاشر المؤمنين خائفون محصورون فإنّ ذلك لايبقى إلّا مدّة قليلة ثمّ ينتقلون إلى أشدّ العذاب .

[متاع قليل] أي ذلك التقلّب متاع قليل لا قدر له في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين ؛

قال ﷺ : ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بمَ يرجع فإذاً لايجدي وجوده لواجديه ولا يضرّ فقدانه لفاقديه .

[ثمّ مأواهم] ومصيرهم الّذي يأوون إليه [جهنّم] الّتي لا يوصف عذابها ، والنعمة القليلة إذاكانت سبباً للمضرّة العظيمة لم يعدّ ذلك نعمة [وبئس المهاد] أي بئس مايمهدون لأنفسهم جهنّم .

لكن الذين اتقوا ربهم أي خافوه فلم يخالفوا أمره ولا نهيه .

لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عندالله وما عندالله خير للابرار (١٩٨) .

إذا لم يستفيدوا من حطام الدنيا لهم الجنّات مؤبّدون فيها [نزلاً من عندالله] النزل ما يعدّ للنازل من طعام وشراب وغيرهما [وما عندالله] لكثرته ودوامه [خيرٌ للأبرار] ممّا يتقلّب فيه الكفّار لقلّته وسرعة زواله .

وعن ابن مسعود قال : مامن نفس برّة ولافاجرة إلّا و الموت خيرٌ لها أمّا البرّة فإنّ الله يقول : «وماعندالله خيرٌ للأبرار» وأمّا الفاجرة فإنّه تعالى يقول : «إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً(١)» . وممّا وجد في خزائن الإسكندر مكتوباً بالذهب : حركات الأفلاك لا تبقي على أحد نعمة فإذا اُعطي العبد مالاً أوجاهاً أو رفعة فلتكن همّته تقليد المنن أعناق الرجال فإنّ المال والجاه يزول إمّا بندم طويل أومدح جزيل وإنّ للدهر عثرات يجبر كما يكسر ويكسر كما يجبر والأمر إلى الله .

وقد قيل : مادام قلمك يرعد و يبرق فليمطر معروفاً و ليرعف جيلاً .

وعن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال : هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً ؟ ألا إنّه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك و من زهد في الدنيا و قصّر أمله أعطاه الله علماً بغير تعلّم و هدىً بغير هاد ، ألا إنّه سيكون بعدي قوم لايستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر ولاالغنى إلّا بالبخل والفخر ولا المحبّة إلّا باتّباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على

---

(١) السورة : ١٧٨ .

الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبّة و صبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ لايريد بذلك إلّا وجه الله أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً .

قال ابن عبّاس : يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء [1] زرقاء وأنيابها بادية مشوّهة خلقها ويشرف على الخلائق فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا الّتي تفاخرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام و بها تحاسدتم و تباغضتم واغتررتم ، ثمّ تقذف في جهنّم فتنادي أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله : ألحقوا بها أتباعها .

قال ﷺ : يحشر أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة و يؤمر بهم إلى النار قالوا : يارسول الله مصلّين ؟ قال : نعم ، كانوا يصلّون ويصومون ويأخذون سنّة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه .

روي أنّه عرض عليه عشار من النوق ـ وهي الحوامل منها ـ فغضّ بصره مع أنّها من أحبّ الأموال إليهم وأنفسها عندهم لأنّها كانت تجمع الظهر واللحم و اللبن فلمّا لم يلتفت ﷺ إليها قيل له : يارسول الله هذه أنفس أموالنا فلِمَ لاتنظر إليها ؟ قال ﷺ قد نهى الله عن ذلك ثمّ تلا «ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به ، الآية »[2] .

هذا معاملته ﷺ مع الدنيا فكن أيّها العاقل متّبعه .

قال ﷺ : أنا حبيب الله ولا فخر و أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم و من دونه ولا فخر و أنا أوّل من يحرّك باب الجنّة فيفتح الله لي فيدخلنّها معي فقراء المؤمنين ولا فخر .

قوله تعالى : وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب (١٩٩) .

نزلت في عبدالله بن سلام و أصحابه .

وقيل : نزلت في أربعين رجلاً من نجران واثنين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا .

---

(١) من خالط بياض رأسه سواد . (٢) طه : ١٣١ ، الحجر : ٨٨ .

وقيل : نزلت في أصحمة النجاشي فإنه لمّا مات نعاه جبرئيل لرسول الله في اليوم الّذي مات فيه فقال ﷺ لأصحابه : اُخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، فقالوا : من هو ؟ قال ﷺ النجاشي ، فخرج إلى البقيع و كشف له إلى أرض حبشة فأبصر ﷺ سرير النجاشي فصلّى عليه و كبّر التكبيرات فقال المنافقون : اُنظروا إلى هذا يصلّي على علج نصراني حبشي لم يره قطّ وليس على دينه ؛ فأنزل الله هذه الآية .

[وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما اُنزل إليكم] من القرآن [وما اُنزل إليهم] من الكتابين [خاشعين لله] أي متواضعين له من خوف عذابه ورجاء ثوابه ، وهو حال من فاعل «يؤمن » لأنّ «مَنْ» في معنى الجمع [لا يشترون] لا يأخذون [بآيات الله] المكتوبة في التوراة والإنجيل من نعوت النبيّ ﷺ [ثمناً قليلا] شيئاً يسيراً من حطام الدنيا مثل بعض أحبارهم فإنّهم أخذوا وبدّلوا .

[اُولئك] أي أهل هذه الصفة [لهم أجرهم] الموعود المختصّ بهم [عند ربّهم] و المراد به التشريف [إنّ الله سريع الحساب] لنفوذ علمه بجميع الأشياء من غير حاجة إلى تأمّل ووعي صدر و كتب يد أي جزاؤهم سريع الوصول إليهم ، فإنّ سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء والإنسان يبعث على مامات عليه فإنّ من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ، والغافل يرد صفر الكفّ .

قيل : إنّ إبراهيم أدهم أراد أن يدخل الحمّام فمنعه الحمّامي وقال : لا تدخل إلّا باُجرة فبكى إبراهيم وقال : لا يؤذن لي أن أدخل بيت الشيطان مجّاناً فكيف بالدخول إلى بيت النبيّين والصدّيقين مجّاناً ؟ فمن لم يعمل صالحاً كان هناك خالياً من المثوبات .

قال رسول الله ﷺ : إنّ في الجنّة حوراء يقال لها «لعبة» لو بصقت في البحر لعذب البحر ، مكتوب على نحرها من أحبّ أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربّي .

بقدر الكدّ تكتسب المعالي * ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العزّ ثمّ تنام ليلاً * يغوص البحر من طلب اللئالي

يا ايها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا و اتقوا الله لعلكم تفلحون (٢٠٠) .

لمّا ذكر سبحانه في هذه السورة أنواعاً من علوم الاُصول و الفروع ختم السورة بهذه الآية المشتملة على حقيقة الآداب لأنّ أحوال الإنسان قسمان : منهاما يتعلّق به وحده ومنها مايكون مشتركاً بينه وبين غيره .

أمّا القسم الأوّل فلا بدّ فيه من الصبر حتّى أنّ الإنسان لابدّ أن يصبر على مشقّة النظر و الاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوّة فهذا في الاُصول ، و أمّا في الفروع فلابدّأن يصبر على أداء الواجبات و المندوبات و مشقّة التحمّل عن النفس في الاحتراز عن المنهيّات وشدائد الدنيا وآفاتها من المرض والفقر والقحط والخوف و أمثالها فقوله تعالى : «اصبروا» يدخل تحته هذه الأقسام .

وأمّا المصابرة فهي عبارة عن تحمّل المكاره الواقعة بينه وبين الغير ويدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من الأهل والجيران والأقارب ويدخل فيه ترك الانتقام ممّن أساء إليك كما قال : « وأعرض عن الجاهلين»(١) ويدخل فيه الإيثار على الغير .

وبالجملة [يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا] على مشاقّ التكليف وما يصيبكم من الشدائد [وصابروا] و غالبوا على أعداء الله في الجهاد و على أعدا عدوّكم في الصبر على مخالفة الهوى ، والمصابرة أفضل من الصبر ، والصبر هوحبس النفس عمّا تريد و عمّا لايرضاه الله و أوّل درجته التصبّر و هو التكلّف لذلك ثمّ المصابرة ثمّ الاصطبار و الالتزام [ورابطوا] أنفسكم على الطاعة وأبدانكم وخيولكم في الثغور ؛ قال رسول الله ﷺ : ألاأدلّكم على مايمحوالله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : إسباغ الوضوء على المكاره و كثرة الخطى(٢) إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط .

[واتّقوا الله لعلّكم تفلحون] لكي تفلحوا غاية الفلاح ، واتّقوا القبائح لعلّكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتّبة الّتي هي الصبر على مضض الطاعات و مصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السرّ وعقد القلب على الترصّد لإيجاب الواردات المعبّر عنها بالشريعة .

---

(١) الاعراف : ١٩٩ . (٢) جمع الخطوة .

حكي أنّ شيخاً من الصلحاء كان يسير إلى بيت الله راجلاً فإذاً أعرابيّ على ناقة فقال : ياشيخ إلى أين ؟ فقال الشيخ : إلى بيت الله ، قال الأعرابيّ : كيف وأنت راجل والمسافة بعيدة ؟ فقال الشيخ : إنّ لي مراكب كثيرة ، فقال : وماهي ؟ قال : إذا نزلت عليّ بليّة ركبت مركب الصبر وإذا نزلت عليّ نعمة ركبت مركب الشكر وإذا نزل بي القضاء ركبت مركب الرضاء وإذا دعتني النفس إلى شيء علمت أنّ ما بقي من العمر أقلّ من مامضى ، فقال الأعرابيّ : أنت الراكب وأنا الراجل ، سر على بركة الله .

قيل : إنّ صفوان بن سليم كان يجتهد في العبادة والقيام وكان من شدّة مخالفته لنفسه وهواه من عادته أن يبيت على السطح في أيّام الشتاء لئلاّ يستريح من البرد وفي الصيف ينزل إلى بيته لتعذّب نفسه بحرّ الهواء وكان عادته ذلك إلى أن مات في سجدته .

وقيل في أحوال رابعة العدويّة : إنّها ما نامت بالليل مدّة أربعين سنة وكانت معاذة العدويّة إذا جاء النهار تقول : هذا اليوم يوم موتي فيشتغل بالعبادة إلى المساء فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة ليلة موتي فتحييها إلى الصباح إلى أن ماتت على هذا النمط :

ولو كان النساء كمن ذكرنا * لفضّلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخرٌ للهلال

تمّت السورة بعون الله

سورة النساء

(هي مدنية كلها)

وقيل : إلّا قوله : « إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ، الآية » وآية « يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم في الكلالة ، الآية » فإنّ الآيتين نزلتا بمكّة .

فضلها : اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأها فكأنّما تصدّق على كلّ مؤمن ومؤمنة وبرأ من الشرك وكان في مشيئة الله من الّذين يتجاوز عنهم .

وروى العيّاشي بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : من قرأ سورة النساء في كلّ جمعة اُومن من ضغطة القبر إذا دخل قبره .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً (١) .

[يا أيّها الناس] خطابٌ للمكلّفين من جميع البشر ، قيل : إنّ النداء إنّما كان في سائر كتب الله السالفة « بيا أيّها المساكين » لكن في القرآن فيما نزل بمكّة فالنداء « بيا أيّها الناس » وما نزل بالمدينة فمرّة « بيا أيّها الناس » ومرّة « بيا أيّها الّذين آمنوا » [اتّقوا] معصية [ربّكم] ومخالفته بترك ما أمر به و ارتكاب ما نهى عنه .

وقيل : المعنى : اتّقوا حقّه أن تضيّعوه فكأنّه قال : يحقّ عليكم أن تتّقوا عقاب من أنعم عليكم بأعظم النعم وهي أن [خلقكم من نفس واحدة] والّذي قدر هذه القدرة أن أوجدكم من نفس واحدة فهو على عقابكم أقدر . والمراد « بالنفس » هنا آدم عليه السلام و« النفس » مؤنّث بالصيغة .

[وخلق منها زوجها] يعني حوّاء ، ذهب أكثر المفسّرين إلى أنّها خلقت من ضلع من أضلاع آدم ورووا عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : خلقت المرأة من ضلع آدم إن أقمتها كسرتها وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها . فحينئذ « من » للتبعيض .

[وبثّ] أي فرّق ونشر [منهما] أي من تلك النفس وزوجها بطريق التوالد [رجالاً كثيراً] وتذكير « كثير » للحمل على الجمع والعدد أي عدداً كثيراً [ونساءً] أي بنين وبنات كثيرة . وحاصل المعنى : اتّقوا ربّكم الّذي كثّركم وجعلكم صنواناً متفرّعة من أرومة واحدة .

[واتّقوا الله] فيما يجب لبعضكم على بعض من حقوق المواصلة الّتي بينكم فحافظوا

عليها ولاتقطّعوا في الدين والنسب أغصاناً تتشعّب من جرثومة واحدة [الّذي تساءلون به] فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض : أسألك بالله [و الأرحام] أي يسأل بعضكم بالله وبالرحم ، أويقول : اُناشدك الله والرحم افعل كذا . أي اتّقوا الله واتّقوا الأرحام فصلوها ، فقرن الأرحام باسمه إشعاراً بأنّ صلتها بأمر منه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : الرحم معلّقة بالعرش يقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله . وقال صلى الله عليه وآله : مامن عمل حسنة أسرع ثواباً من صلة الرحم ومامن عمل سيّئة أسرع عقوبه من البغي .

[إنّ الله كان عليكم رقيباً] الرقيب هو المراقب الّذي يحفظ عليك أفعالك في خلواتك .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّه كان بالبصرة رجل معروف بالمسكيّ لأنّه كان يفوح منه رائحة المسك ، فسئل عنه فقال : كنت من أحسن الناس وجهاً وكان لي حياء فقيل لأبي : لوأجلسته في السوق لانبسط مع الناس ، فأجلسني في حانوت بزّاز فجاءت عجوز و طلبت متاعاً فأخرجت لها ماطلبت فقالت : لوتوجّهت معي لثمنه فمضيت معها حتّى أدخلتني في قصر عظيم فيه قبّة عظيمة فاذاً فيها جارية على سرير عليه فراش مذهّب فجذبتني إلى صدرها فقلت : الله الله! فقالت : لابأس ، فقلت : إنّي حاقن فدخلت المستراح وتغوّطت ومسحت به وجهي وبدني ، فقيل : إنّه مجنون فخلصت .

فرأيت الليلة رجلاً قال لي : أين أنت من يوسف بن يعقوب؟ ثمّ قال لي في الرؤيا : أنا ملك ثمّ مسح يده على وجهي وبدني فمن ذلك الوقت يفوح المسك عليّ وذلك ببركة التقوى .

وللعبد أن يراقب الله في أحواله وأفعاله وهي أصل كلّ خير للعبد . قال سليمان ابن عليّ : لئن كنت عصيت الله في الخلوة وظننت أنّه تعالى يراك فقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظنّ أنّه لايراك فقد كفرت لقوله : « إنّ الله كان عليكم رقيباً » .

قوله تعالى : وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيّب ولا تاكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوباً كبيراً (٢) .

اليتيم من الناس المنفرد عن الأب بموته ومن سائر الحيوانات عن الأمّ . والمراد بإيتاء أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وليس المراد الإعطاء بالفعل فإنّه مشروط بإيناس الرشد والبلوغ .

والمعنى : أيّها الأولياء والأوصياء احفظوا أموال اليتامى ولاتتعرّضوا لها بسوء وسلّموها إليهم وقت التسليم [ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيّب] أي لاتستبدلوا الحلال المكتسب بالحرام المغتصب من مال اليتيم .

[ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم] و «إلى» بمعنى «مع» لقوله : «من أنصاري إلى الله(١)» أي مع الله أي لاتأكلوها مضمومة إلى أموالكم ، وإنّما ذكر الأكل لأنّه معظم مايقع لأجله التصرّف [إنّه] أي الأكل المنهيّ عنه [كان حوباً كبيراً] أي ذنباً عظيماً عندالله .

روي أنّ رجلاً من بني غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلمّا بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمّه فترافعا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فنزلت هذه الآية فلمّا سمع العمّ قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ، فدفع إليه ماله فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : من يوق شحّ نفسه و يطع ربّه هكذا فإنّه يحلّ داره ـ يعني جنّته ـ فلمّا قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وآله : ثبت الأجر وبقي الوزر ، فقالوا : كيف بقي الوزر؟ فقال : ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده .

وقد عدّ أكل مال اليتيم من المهلكات ؛ عن ابن عبّاس قال : ستّ موبقات ليس لهنّ توبة : أكل مال اليتيم وقذف المحصنة والفرار من الزحف والسحر والشرك بالله وقتل نبيّ من الأنبياء .

روى أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : عندي يتيم أضربه ؟ قال : بما تضرب ولدك للتأديب ، أي إن تضربه للتأديب لابأس إذا ضربت ضرباً غير مبرح مثل مايضرب الوالد ولده ولكن إذا أمكن التأديب بغير ضرب فلايجوز الضرب فإنّ ضرب اليتيم أمرٌ شديد ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ اليتيم إذا ضرب اهتزّ العرش لبكائه فيقول الله : ياملائكتي من أبكى

---

(١) السورة : ٥٢ ، الصف : ١٤ .

الّذي غيّبت أباه في التراب ؟ وهو أعلم به فيقول الملائكة: ربّنا لا علم لنا ، قال الله : فإنّي أُشهد كم أنّ من أرضاه أرضه من عندي يوم القيامة .

قال الله لداود عليه‌السلام : كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنّك كما تزرع كذلك تحصد .

قوله تعالى : وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم ذلك ادنى أن لا تعولوا (٣) و ءاتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئا (٤) .

الإقساط العدل ، والمراد بالخوف العلم أي وإن علمتم بوقوع الجور المخوف .

وسبب النزول أنّهم كانوا يتزوّجون من يحلّ لهم من اليتامى اللاتي يؤلونهنّ لكن لا لرغبة بل في مالهنّ ويسيئون الصحبة والمعاشرة ويتربّصون بهنّ أن يمتن فيرثونهنّ . وقيل : هي اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنّة نسائها فنهوا أن ينكحوهنّ إلّا أن يقسطوا لهنّ في إكمال الصداق فأُمروا أن ينكحوا من سواهنّ من النساء .

فمعنى الآية [وإن خفتم أن لا تعدلوا] في حقّ اليتامى إذا تزوجتم بهنّ بإساءة العشرة أو بنقص الصداق [فانكحوا ما طاب لكم من النساء] « ما » موصوله أُوثرت على « من » إشعاراً إلى الوصف أي نكاحاً طاب لكم من النساء غير اليتامى ؛ فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الأجنبيّات وهذا المعنى بشهادة قرينة المقام [مثنى وثلاث ورباع] وقرىء : من طاب لكم من النساء .

قال الزمخشريّ والواحديّ في قوله « ما طاب » : أي ما حلّ لكم من النساء لأنّ منهنّ من يحرم نكاحهنّ وهي الأنواع المذكورة في قوله : «حرّمت عليكم أُمهاتكم وبناتكم ، الآية [١]» .

---

(١) السورة : ٢٢ .

لكنّ الرازيّ أنكر هذا المعنى وقال : إذا حملنا الطيب على استطابة النفس وميل القلب أولى ، النهاية أنّ الآية عامّة ودخله التخصيص بقوله : « حرّمت عليكم أُمّهاتكم ، الآية» .

وكلمة « مثنى وثلاث ورباع » معناه اثنين اثنين وثلاثاً وثلاثاً وأربعاً وأربعاً وهو غير منصرف اجتمع في الكلمة العدل و الوصف : أمّا العدل عبارة عن أنّك تذكّر كلمة وتريد بها أُخرى كما تقول : عمرو تريد عامر فهي معدولة ، وأمّا أنّه وصف لمعنى الوصفيّة لأنّ معنى قوله : « أُولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع [(١)] » أي موصوفين بهذه الصفات فهذه الألفاظ معدولة عن تكرّرها فإنّك لاتريد بقولك : مثنى ثنتين فقط بل ثنتين ثنتين فإذا قلت : جاءني اثنان أو ثلاثة ، كان غرضك الإخبار عن مجيء هذا العدد فقط أمّا إذا قلت : جاءني القوم مثنى ، أفاد أنّ ترتيب مجيئهم وقع اثنين اثنين فثبت أنّه حصل في هذه الألفاظ نوعان من العدد .

والحكم في الآية لايتناول العبيد بل خاصّ للأحرار لأنّ العبد لايتمكّن من النكاح إلّا بإذن مولاه قال الله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء [(٢)] » وقال النبيّ ﷺ : أيّما عبد تزوّج بغير إذن مولاه فهو عاهر . فثبت أنّ هذه الآية المخاطب بها الحرّ ولايندرج فيها العبد .

وقوله : « مثنى وثلاث » يجوز أن يكون حال من قوله : «ماطاب لكم » ويجوز أن يكون بدلٌ من « ما » وإنّما جاءت الواو في « وثلاث » ولم تأت « أو » لأنّه على طريق البدل كأنّه قال : وثلاث بدل من مثنى ، و رباعاً بدل من ثلاثاً ، و لوجاء « أو » لكان لايجوز لصاحب المثنى ثلاث و لصاحب الثلاث رباع .

قال الطبرسيّ : إنّ هذا لايؤدّي إلى جواز نكاح التسع بأنّ اثنين وثلاثة وأربعة تسعة ؛ فإنّ من قال : دخل القوم البلد مثنى وثلاث ورباع ، لايقتضي اجتماع الأعداد في الدخول ، ولأنّ لهذا العدد لفظاً موضوعاً وهو تسع فالعدول عنه إلى مثنى و ثلاث نوع من العيّ مقدّس كلامه عن ذلك ؛ قال الصادق : لايحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من

---

(١) فاطر : ١ . (٢) النحل : ٧٥ .

أربعة أرحام من الحرائر .

[فإن خفتم أن لاتعدلوا] بين الأربع والثلاث في النفقة وسائر وجوه التسوية فتزوّجوا [واحدة أو ماملكت أيمانكم] أي واقتصروا على الإماء حتّى لاتحتاجوا إلى التسوية والقسم بينهنّ لأنّهنّ لاحقّ لهنّ في القسم .

[ذلك] إشارة إلى اختيار الواحدة [أدنى أن لاتعولوا] العول الميل من قولهم عال الميزان إذا رجح ومال ، وعال في الحكم إذا جار ، والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل أي ماذكر من اختيار الواحدة والتسرّي أقرب إلى التقوى بالنسبة إلى ما عداهما .

[وآتوا النساء] أي أعطوا النساء اللاتي اُمر بنكاحهنّ [صدقاتهنّ] مهورهنّ [نحلةً] أي فريضةً من الله لأنّها ممّا فرضه الله في النحلة أي الملّة والشريعة . وقيل : معنى النحلة عطيّته من الله عليهنّ . وانتصاب النحلة على الحاليّة ، وتعبير إيتاء المهور بالنحلة و العطيّة مع كونها واجبة لإفادة طيب الخواطر وكمال الرضى . والخطاب يعمّ الأولياء أيضاً وكانوا يأخذون مهور بناتهم وكان أهل الجاهليّة يقولون لمن يولد له بنت : هنيئاً لك النافجة يعنون بذلك : تأخذ مهرها فتنفج به مالك وتعظمه وتكثره .

[فإن طبن لكم عن شيء منه] الضمير للصدقات وتذكيره لإجرائه مجرى المال [نفساً] تميز والتوحيد لبيان الجنس أي إن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن نفوس طيّبة راضية غير مضطرّة إلى البذل من شكاسة أخلاقكم .

[فكلوه هنيئاً مريئاً] صفتان من قولهم : هنأ الطعام و مرأ إذا كان سائغاً لاتنغيص فيه ، ونصبهما على المصدريّة على أنّهما صفتان للمصدر المحذوف أي كلوه أكلاً هنيئاً مريئاً ، عبارة المبالغة في الإباحة وإزالة التبعة .

وفي الآية دليل على حفظ الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس وبيان لجواز معروفها وترغيب في حسن المعاشرة بينهما فإنّ خير الناس خيرهم لأهله وأنفعهم لعياله في توسعتهم . في الحديث : جهاد المرأة حسن التبعّل . وكانت المرأة على عهد النبيّ ﷺ تستقبل زوجها إذا دخل وتقول مرحباً بسيّدي وسيّد أهلي ، وتقصد إلى أخذ ردائه فيأخذه وتعمد إلى نعله فتخلعه فإن رأته حزيناً قالت : مايحزنك إن كان حزنك لآخرتك فزاد الله فيها وإن كان

لدنياك فكفاك الله ؟ وكان يقول النبي ﷺ : يافلان اقرأها منّي السلام وأخبرها أنّ لها نصف أجر الشهيد .

وعلامة الزوجة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله وغناها القناعة وحليّها العفّة وهي التكفّف عن الشرور والمفاسد وعبادتها بعد الفرائض حسن الخدمة للزوج .

قال رسول الله : ثلاثة من اُمّتي يكونون في جهنّم كعمر الدنيا سبع مرّات : أوّلهم متسنّمون مهزولون والثاني كاسون عارون والثالث عالمون جاهلون قيل : من هؤلاء يارسول الله ؟ قال : أمّا المتسنّمون المهزولون فالنساء متسنّمات باللحم مهزولات في اُمور الدين وأمّا الكاسون العارون فهنّ النساء كاسيات من الثياب عاريات من الحياء وأمّا العالمون الجاهلون فهم أهل الدنيا التاجرون الكاسبون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وفطنين باُمورها وهم عن الآخرة هم غافلون لايبالون من أين يجتمعون المال وهم لايشبعون من الحلال ولايبالون بالحرام .

قوله تعالى : ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً (٥) .

أي ولا تعطوا أيّها الأولياء [السفهاء] أي المبذّرين من الرجال والنساء والصبيان واليتامى وقال أبوجعفر عليه السلام : إنّهم النساء والصبيان . وروي عن أنس بن مالك جاءت امرأة جريئه المنطق ذات ملح إلى رسول الله فقالت : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله قل فينا خيراً مرّة واحدة فإنّه بلغني أنّك تقول فينا كلّ شرّ ، قال : أيّ شيء قلت ؟ قالت : سمّيتنا السفهاء ، قال : الله سمّا كنّ السفهاء في كتابه ، قالت : وسمّيتنا النواقص ، فقال : وكفى نقصاناً أن تدعن في كلّ شهر أيّاماً لاتصلّين فيها ، ثمّ قال : مايكفي إحدا كنّ أنّها إذا حملت كان لها كأجر المرابط في سبيل الله فإذا وضعت كانت كالمتشحّط بدمه في سبيل الله فإذا أرضعت كان لها بكلّ جرعة كعتق رقبة من ولد إسماعيل فإذا سهرت كان لها بكلّ سهرة تسهرها كعتق رقبة من ولد إسماعيل وذلك للمؤمنات الخاشعات الصابرات اللاتي لا يكفرن العشيرة . قال : قالت المرأة : ياله فضلاً لولا مايتبعه من الشرط !

وقيل : المراد من السفهاء كلّ من كان سفيهاً ومبذّراً من الرجال والنساء .

الأموال [الّتي جعل الله لكم قياماً] أي جعل الله شيئاً يقومون به وتنتعشون فلو ضيّعتموه لضيّعتم ، ولمّا كان المال سبباً للقيام والاستقلال سمّاه بالقيام إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب على سبيل المبالغة فكأنّها من فرط احتياجهم إليها نفس قيامهم .

وقيل : معنى الآية أنّها خطاب الأولياء أي أيّها الأولياء لاتؤتوا الّذين تحت ولايتكم وكانوا سفهاء أموالهم ، والدليل على هذا المعنى قوله : « وارزقوهم واكسوهم » وعلى هذا المعنى يحسن تعلّق الآية بما قبلها .

فإن قيل : فعلى هذا الوجه كان يجب أن يقال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالهم » فلمَ قال : « أموالكم » ؟

قيل في الجواب : إنّه أضاف المال إليهم لالأنّهم ملكوه لكن من حيث ملكوا التصرّف فيه ويكفي في حسن الإضافة أدنى سبب والوحدة بالنوع يجرى مجرى الوحدة بالتشخّص نحو قوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم[1] » وقوله : «فاقتلوا أنفسكم[2]» ومعلوم أنّ الرجل منهم ماكان يقتل نفسه ولكن كان يقتل بعضهم بعضاً وكان الكلّ من نوع واحد فكذا ههنا المال شيء واحد ينتفع به الإنسان فلأجل هذه الوحدة النوعيّة حسنت إضافة أموال السفهاء إليهم .

و القول الأوّل هو تسلّط السفيه على ماله مثل أن يسلّمه إلى ابنه السفيه أو امرأته السفيهة فيتلف المال فيبقى الأب صفر الكفّ فقيراً فيكون الخطاب للآباء بحفظ المال وعدم تضييعه وعلى هذا الوجه يكون إضافة المال حقيقة ؛ قال الطبرسيّ : والأولى حمل الآية على العموم .

[وارزقوهم فيها واكسوهم] الرزق من الله العطيّة من غير حدّ و من العباد إجراء موقّت محدودو ، المعنى : أطعموهم منها ولم يقل : « منها » لئلّا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتّجروا فيها ويثمروا فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لامن اُصول الأموال .

---

(١) التوبة : ١٢٩ .　(٢) البقرة : ٥٤ .

[وقولوا لهم قولاً معروفاً] أي كلاماً ليّناً يطيب به نفوسهم مثل أن يقول للصبيّ : المال مالك وأنا خازن لك وإذا زال صباك أردّ المال عليك ويعظه وينصحه ويحثّه على الصلاة و يأمره بترك التبذير و يعرّفه أنّ غاية التبذير الاحتياج والفقر و ما يشبه هذا النوع من الكلام .

وحفظ المال من السرف والتبذير أمر واجب و سلاح للمؤمن للفقر الّذي كاد أن يهلك دينه ، وكان السلف يقولون لطبقة من الناس : اتّجروا واكتسبوا فإنّكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أوّل ما يأكل دينه . وربّما رأوا رجلاً في جنازة فقالوا له : اذهب إلى دكّانك لأنّ أغلب طبقات الناس مالم يكونوا فارغي البال لا يمكنهم القيام بتحصيل الآخرة فمن أراد الدنيا لهذا الغرض كانت الدنيا له من الأسباب المعينة على اكتساب سعادة الآخرة أمّا من أرادها اللذّة نفسه فكانت من أعظم الخطايا وأكبر المعوّقات عن كسب سعادة الآخرة فخير المال ماكان متاع البلاغ .

قوله تعالى : وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا (٦) .

أي واختبروا أيّها الأولياء والأوصياء ، وجرّبوهم من أُمورهم مثل أن تعطوهم من المال ما يتصرّفون فيه بيعاً وابتياعاً وإن كانوا ممّن له ضياع وأهل و خدم بأن يباشروا في الجملة إلى نفقة عيالهم وخدمهم حتّى يتبيّن لكم كيفيّة أحوالهم .

[حتّى إذا بلغوا النكاح] شرط سبحانه في دفع أموالهم إليهم شرطين : أحدهما بلوغ النكاح مثل أن يحتلموا فحينئذ يصلحون عنده للنكاح ، والثاني إيناس الرشد وهو قوله :

[فإن آنستم منهم رشداً] أي شاهدتم وأحسستم اهتداءً إلى وجوه التصرّفات من غير تبذير [فادفعوا إليهم أموالهم] من غير تأخير إذا طالبوا .

[ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً] بغير ما أباحه الله لكم ، وقيل : معناه : لا تأكلوا من مال اليتيم فوق ما تحتاجون إليه فإنّ لوليّ اليتيم أن يتناول من ماله قدر القوت بشرط أن

يكون محتاجاً إلى وجه الأجرة على عمله في مال اليتيم .

وقيل : كلّ شيء أكل من مال اليتيم فهو الأكل على وجه الإسراف . والأوّل أليق بمذهبنا فقد روى محمّد بن مسلم عن أحدهما قال : سألته عن رجل بيده ماشية لابن أخيه يتيم في حجره أيخلط أمرها بأمر ماشيته قال : إن كان يليط حياضها ويقوم على خدمتها ويرد نادلها فليشرب من ألبانها غير مضرّ بالولد . وقوله : «وبداراً» أي لاتبادروا بأكل أموالهم قبل كبرهم ورشدهم حذراً من أن يكبروا فيلزمكم تسليم المال إليهم خوفاً من [أن يكبروا] ويقولون : ننفق كما نشتهي قبل أن يكبروا .

[ومن كان غنيّاً] من الأولياء والأوصياء [فليستعفف] و ليتنزّه عن أكلها و ليقنع بما آتاه الله من الغنى ولا يأخذ قليلاً ولا كثيراً ، يقال : استعفّ عن الشيء وعفّ عنه إذا امتنع منه وتركه .

[ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف] أي من كان فقيراً من الأولياء والأوصياء فليأخذ من مال اليتيم قدر الحاجة والكفاية .

[فإذا دفعتم إليهم أموالهم] بعد ماراعيتم الشرائط المذكورة [فأشهدوا عليهم] بأنّهم تسلّموها وقبضوها فيعلمون أنّه برئت ذممكم لما أنّ ذلك أبلغ من التهمة وأنفى للخصومة وأسلم في الأمانة [وكفى بالله حسيباً] وحافظاً لأعمال خلقه فاللائق للإنسان أن يحترز عن حقّ الغير خصوصاً اليتيم فإنّه يجرّه إلى نار الجحيم .

قال رسول الله ﷺ : من كانت عنده مظلمة لأخيه أو شيء فليستحلل منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح اُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات اُخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه . ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب منها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسرع ببعض الحسنات ويجتهد فيها غاية الإخلاص فعساه يقرّبه ذلك العمل الخالص إلى الله فينال به لطفه تعالى الّذي ادّخره لأهل الخلوص في دفع مظالم العباد عن المخلص بإرضائه تعالى إيّاهم .

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل أو كثر نصيباً مفروضاً (٧) .

قال الطبرسيّ :

النزول : كانت العرب في الجاهليّة يورّثون الذكوردون الإناث فنزلت الآية ردّاً لقولهم . قال قتادة وابن جريج وابن زيد : وقيل : كانوا لا يورّثون إلّامن طاعن بالرماح وذاد عن الحريم والمال ، فقال تعالى مبيّناً حكم أموال الناس بعدموتهم .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّ أوس بن صامت الأنصاريّ خلّف زوجته اُمّ كحة وثلاث بنات فزوى ابناعمّه سويد وعرفطة ميراثه عنهنّ على سنّة الجاهليّة فإنّهم ما كانوا يورّثون النساء ويقولون : إنّما يرث من يحارب ويذبّ عن الحوزة فجاءت اُمّ كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال ﷺ : ارجعي حتّى أنظر ما يحدث الله فنزلت الآية فبعث إليهما أن لايفرّقا من مال أوس شيئاً فإنّ الله قد جعل لهنّ نصيباً ولم يبيّن حتى بيّن ونزل «يوصيكم الله في أولادكم ، الآية[(١)]» .

المعنى : [للرجال] سهم وحظّ من تركة الوالدين والأقربين [وللنساء نصيب ممّا ترك الوالدان والأقربون] أي وللنساء أيضاً من قرابة الميّت حصّة وسهم من تركته قليلة كانت التركة أو كثيرة [نصيباً مفروضاً] فرض تسليمه إلى أهله ومستوجبه لامحالة ، والفرض يقتضي فارضاً فرضه والوجوب قد يجب الشيء في نفسه من غير إيجاب موجب ولذلك صحّ وجوب الثواب عليه تعالى فهذا هو الفرق بين الفرض والوجوب .

وهذه الآية تدلّ على أنّ ذوي الأرحام يرثون لأنّهم من جملة الرجال والنساء الّذين مات عنهم الأقربون .

وأيضاً تدلّ على بطلان القول بالعصبة ويدخل في عموم اللفظ الأنبياء وغير الأنبياء ، وتدلّ على أنّ الأنبياء وغير الأنبياء في الحكم سواء كما ذهبت إليه الفرقة الإماميّة .

وإذا حضر القسمة اولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً (٨) .

واختلف المفسّرون في هذه الآية على قولين :

---

(١) السورة : ١١ .

أحدهما أنّها محكمة غير منسوخة عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير وجماعة كالزهريّ والشعبيّ والسدّي وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام وأكثر المفسّرين .

والقول الثاني أنّها منسوخة بآي المواريث .

وأيضاً اختلف من قال : إنّها محكمة على قولين :

أحدهما أنّ الأمر فيها على الوجوب واللزوم عن مجاهد و قال : هو ما طابت به نفس الورثة .

وقال الآخرون : إنّ الأمر فيها على الندب .

قال الرازيّ في المفاتيح : إنّ القائلين بالوجوب منهم من قال : الوارث إن كان كبيراً وجب عليه أن يرضخ لمن حضر القسمة شيئاً من المال بقدر ما تطيب نفسه به وإن كان صغيراً وجب على الوليّ إعطاؤهم من ذلك المال ، ومنهم من قال : إن كان الوارث كبيراً وجب عليه الإعطاء من ذلك المال وإن كان صغيراً وجب على الوليّ أن يعتذر إليهم و يقول : إنّي لا أملك هذا المال وإنّما هو لهؤلاء الّذين لا يعقلون وإن يكبروا فسيعرفون حقّكم فهذا هو القول المعروف . وقال جماعةٌ مثل الحسن والنخعيّ : هذا الرضخ مختصٌّ بقسمة الأعيان فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين و الرقيق وما أشبه ذلك قال لهم قولاً معروفاً مثل أن يقول لهم : ارجعوا بارك الله فيكم .

وهذه الأقوال كلّها على قول من قال بالوجوب وأمّا على قول الاستحباب إنّما يكون الرضخ إذا كانت الورثة كباراً أمّا إذا كانوا صغاراً فليس إلّا القول المعروف واحتجّوا بأنّه لو كان لهؤلاء حقٌّ معيّنٌ لبيّن الله قدر ذلك الحقّ كما في سائر الحقوق وحيث لم يبيّن علمنا أنّه غير واجب و لو كان واجباً لتوفّرت الدواعي على نقله لشدّة حرص الفقراء والمساكين على تقديره ولو كان ذلك لنقل إلينا على سبيل التواتر .

وبالجملة فالمعنى في قوله : [وإذا حضر القسمة] أي إذا شهد الميراث وقسمته [اُولو القربى] أي فقراء قربة الميّت [واليتامى والمساكين] أي ويتاماهم ومساكينهم يرجون أن تعودوا عليهم [فارزقوهم منه] أي أعطوهم من التركة قبل القسمة شيئاً .

واختلف في المخاطبين بقوله : «فارزقوهم» قيل : إنّ المخاطب بذلك الورثة اُمروا

بأن يرزقوا المذكورين إذا كانوا لاسهم لهم في الميراث عن ابن عبّاس و ابن الزبير وسعيد ابن جبير وأكثر المفسّرين . وقيل : إنّ المخاطب بذلك من حضرته الوفاة وأراد الوصيّة فقد اُمر بأن يوصي لمن لا يرثه من المذكورين بشيء من ماله .

[وقولوا لهم قولاً معروفاً] أمر الله الوليّ أن يقول للّذي لا يرث من المذكورين قولاً معروفاً إذا كانت الورثة صغاراً .

قوله تعالى : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٩) .

في الآية أقوال : أحدها أنّه كان الرجل إذا حضرته الوفاة قعد عنده بعض المؤمنين فقالوا : انظر لنفسك فإنّ ولدك لا يغنون عنك من الله شيئاً فيقدّم جُلّ ماله فقال تعالى: وليخش الّذين تركوا من بعدهم أولاداً صغاراً خافوا عليهم الفقر ، وهذا نهيٌ عن الوصيّة بما يجحف بالورثة وأمرٌ لمن حضر الميّت عند الوصيّة أن يأمره بأن يبقي لورثته ولا يزيد وصيّته على الثلث ، وهذا قول ابن عبّاس و سعيد بن جبير والحسن و قتاده و الضحّاك و مجاهد .

و ثانيها أنّ الأمر في الآية لوليّ اليتيم يأمره بأداء الأمانة و القيام بحفظه كما لو خاف على مخلفيه إذا كانوا ضعافاً فيكون المعنى : من كان في حجره يتيم فليفعل به ما يحبّ أن يفعل بذرّيّته من بعده .

و حاصل المعنى [وليخش الّذين] صفتهم وحالهم أنّهم لو شارفوا أن يتركوا [من خلفهم] أي بعد موتهم [ذرّيّة ضعافاً] أولاداً عجزة لاغنى لهم وذلك عند احتضارهم [خافوا عليهم] الضياع بعدهم لذهاب كافلهم والفقر والتكفّف ، والمراد «بالّذين» هم الأوصياء على القول الثاني والمحتضرين على القول الأوّل .

[فليتّقوا الله] في ذراريهم أو ذراري غيرهم [وليقولوا قولاً سديداً] أي قولاً لاخلل فيه وعدلاً موافقاً للشرع ، وقيل : معناه فليخاطبوا اليتامى بخطاب حسن جميل .

ثمّ أوعد الله لآكلي مال اليتم نار جهنّم فقال :

ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارآ و سيصلون سعيرا (١٠) .

أي ينتفعون بأموال اليتامى ويأخذونها [ظلماً] ولم يرد قصر الحكم على الأكل وتخصيص الأكل في الذكر لما أنّه معظم منافع المقصودة فذكره الله تنبيهاً على وجوه الانتفاع كقوله : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[١]» وإنّما علّق الوعيد بكونه ظلماً لأنّه قد يكون يأكله الإنسان على وجه الاستحقاق بأن يأخذ منه اُجرة المثل أو يأكل منه بالمعروف على ما تقدّم القول فيه ؛ فلا يكون ظلماً . وسئل الرضا عليه السلام كم أدنى ما يدخل به أكل مال اليتيم تحت الوعيد في هذه الآية ؟ فقال عليه السلام : قليله و كثيره واحد إذا كان في نيّته أن لا يردّه إليهم .

[إنّما يأكلون في بطونهم ناراً] قيل : إنّ النار ستلتهب من أفواههم وأسماعهم و أنافيهم يوم القيامة ليعلم أهل الموقف أنّهم آكلة أموال اليتامى ؛ روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يبعث ناسٌ من قبورهم يوم القيامة تؤجّج أفواههم ناراً ، فقيل له : يارسول الله من هؤلاء ؟ فقرأ هذه الآية .

[وسيصلون سعيراً] أي سيلزمون النار المسعرة وإنّما ذكر « البطون» تأكيداً كما قال : نظرت بعيني ومشيت برجلي، ولمناسبة الأكل مع ذكر البطن .

وروى الحلبيّ عن الصادق عليه السلام قال : إنّ في كتاب عليّ عليه السلام : إنّ آكل مال اليتيم ظلماً سيدركه وبال ذلك من عقبه من بعده ويلحقه وبال ذلك في الآخرة .

وفي الحديث قال النبيّ صلى الله عليه وآله : رأيت ليلة اُسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل إحداهما قالصة على منخريه والاُخرى على بطنه وخزنة جهنّم يلقمونه جمر جهنّم وصخرها فقلت : ياجبرئيل من هؤلاء ؟ قال : «الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » .

قال رسول الله : تقبّلوا لي ستّاً أتقبّل لكم الجنّة : إذا حدّثتم فلا تكذبوا وإذا وعدتم فلا تخلفوا وإذا ائتمنتم فلا تخونوا وغضّوا أبصاركم واحفظوا فروجكم و كفّوا أيديكم عن الحرام و ادخلوا الجنّة[٢] .

قال رسول الله : لو صلّيتم حتّى تكونوا كالحنايا و صمتم حتّى تكونوا كالأوتار فما ينفعكم إلّا بالورع . والمراد من الورع الاحتراز عمّا نهى الله في شريعة محمّد بالنهي التحريميّ .

---

(١) البقرة : ١٨٨ . (٢) الخصال (١ : ١٥٦) .

قال علماء الأخلاق : الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض وزهد فضل وزهد سلامة ، فزهد الفرض هو الزهد في الحرام و زهد الفضل هو الزهد في الحلال و زهد السلامة هو الزهد في الشبهات .

قيل : إنّ حسّان ابن أبي سنان لاينام مضطجعاً ولا يأكل سميناً ولا يشرب بارداً ستّين سنة فرؤي في المنام بعد مامات فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : خيراً غير أنّي محبوس عن الجنّة بأبرة استعرتها فلم أردّها .

قوله تعالى : يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولا بويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها اودين آباؤكم وابناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما (١١) .

قال السدّيّ : نزلت الآية في عبدالرحمن أخي حسّان الشاعر و ذلك أنّه مات و ترك امرأة و خمس أخوات فجاءت الورثة فأخذوا ماله و لم يعطوا امرأته شيئاً فشكت إلى رسول الله فأنزل الله آية المواريث .

ولمّا ذكر سبحانه قبل «للرجال نصيبٌ ممّا ترك الوالدان ، الآية» بيّن في هذا الآية ما أجمله في الآية السابقة فقال :

[يوصيكم الله] أي يأمركم ويفرض عليكم لأنّ الوصيّة منه تعالى أمرٌ و فرضٌ ويدلّ على ذلك قوله : «ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ذلكم وصّاكم به[1]» وهذا من الفرض المحكم علينا [في أولادكم] أي في ميراث أولادكم أوفي توريث أولادكم أو في أمور أولادكم فبيّن سبحانه فيما وصّى وأمر به فقال : [للذّكر مثل حظّ الأُنثيين] أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين .

---

(١) الانعام: ١٥٢ .

ثمّ ذكر نصيب الأناث من الأولاد فقال : [فإن كنّ نساء فوق اثنتين] أي فإن كانت الأولاد نساء فوق اثنتين [فلهنّ ثلثا ماترك] من الميراث .

وظاهر هذا الكلام يقتضي أنّ البنتين لا تستحقّان الثلثين لكنّ الاُمّة اجتمعت على أنّ حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات لكن ذكروا في وجه المعنى أنّ المراد في الآية بيان حكم البنتين فما فوقهما لأنّ معناه فإن كنّ اثنتين فما فوقهما فلهنّ ثلثا ما ترك إلّا أنّه قدّم ذكر الفوق على الاثنتين كما روي عن النبيّ أنّه قال : لا تسافر المرأة سفراً فوق ثلاثة أيّام إلّا و معها زوجها أوذو محرم لها . فمعنى الحديث أنّه لا تسافر سفراً ثلاثة أيّام فما فوقها و كذلك في الآية فحكم البنتين كحكم مافوقهما .

[وإن كانت] الباقية والمولود [واحدة فلها النصف] أي نصف ما ترك الميّت ثمّ ذكر حكم ميراث الوالدين فقال : [ولأبويه] يعني الأب والاُمّ سمّي تغليباً ، والهاء في «أبويه» كناية عن غير مذكور أي ولأبوي الميّت [لكلّ واحد منهما السدس ممّا ترك إن كان له ولد] أي وللأب السدس مع الولد وكذلك الاُمّ لها السدس مع الولد ذكراً كان الولد أو اُنثى واحداً كان أو أكثر .

ثمّ إن كان الولد ذكراً كان الباقي له وإن كان ذكوراً فالباقي لهم بالسويّة و إن كانوا ذكوراً واُناثاً فللذكر مثل حظّ الاُنثيين وإن كانت بنتاً فلها النصف ولأحد الأبوين السدس أولهما السدسان والباقي عندنا الإماميّة يردّ على البنت و على أحد الأبوين أو عليهما على قدر سهامهم بدلالة قوله : «واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله [(١)]» لكن عند غيرنا أنّ الأب في صورة الاُنوثة بعدما أخذ فرضه المذكور يأخذ مابقي من ذوي الفروض بالعصوبة .

[فإن لم يكن له] أي للميّت [ولدٌ] أي ابنٌ ولا بنتٌ ولا أولادهما لأنّ اسم الولد يعمّ الجميع [وورثه أبواه فلاُمّه الثلث ممّا ترك] قال الطبرسيّ : وظاهر هذا يدلّ على أنّ الباقي للأب وفيه إجماعٌ فإن كان في الفريضة زوجٌ فإنّ له النصف و للاُمّ الثلث والباقي للأب وهو مذهب ابن عبّاس و أئمّتنا .

---

(١) الانفال : ٧٥ .

[فإن كان له إخوةٌ فلأُمّه السدس] والإخوة تقع على الاثنين فصاعداً أو الأخوات ، قال أصحابنا الإماميّة : إنّما يكون لها السدس إذا كان هناك أبٌ . ويدلّ عليه ما تقدّمه من قوله : «وورثه أبواه» فإنّ هذه الجملة معطوفة على قوله : «فإن لم يكن له ولدٌ وورثه أبواه فلأُمّه الثلث» وتقديره : فإن كان له إخوة وورثه أبواه فلأُمّه السدس .

قال الطبرسيّ : وقال بعض أصحابنا : إنّ لها السدس مع وجود الإخوة وإن لم يكن هناك أبٌ وقالوا : إنّ الأخوين يحجبان الأُمّ من الثلث إلى السدس . وقال ابن عبّاس : لا تحجب الأُمّ من الثلث إلى السدس بأقلّ من ثلاثة من الإخوة و الأخوات كما يقتضيه ظاهر الآية من لفظ الجمع وأصحابنا يقولون : لا تحجب الأُمّ عن الثلث إلى السدس إلّا بالأخوان أو أخٌ واُختين أو أربع أخوات من قبل الأب و الأُمّ أو من قبل الأب خاصّة دون الأُمّ .

وفي ذلك خلافٌ بين الفقهاء ومنشأ الخلاف قالوا : و العرب تسمّي الاثنين بلفظ الجمع في كلامهم قال تعالى : «و كنّا لحكمهم شاهدين [1]» يعنى حكم داود وسليمان .

قوله تعالى : [من بعد وصيّة يوصي بها أودين] أي تقسيم التركة على المذكور بعد قضاء الديون وإقرار الوصيّة ، ولا خلاف في أنّ الدين مقدّم على الوصيّة والميراث وإن أحاط بالمال ، وأمّا الوصيّة فقد قيل : إنّها مقدّمة على الميراث . وقيل : بل الموصى له شريك الوارث وله الثلث ولهم الثلثان . وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : إنّكم تقرؤون في هذه الآية الوصيّة قبل الدين و إنّ رسول الله وصّى بالدين قبل الوصيّة . والوجه في تقديم الذكر من الدين قبل الوصيّة في الآية أنّ لفظة «أو» إنّما هو لأحد الشيئين أو الأشياء ولا يوجب الترتيب فكأنّه قال : من بعد أحد هذين مفرداً أو مضموماً إلى الآخر وهذا كقولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين ، فالمعنى جالس أحدهما مفرداً أو مضموماً إلى الآخر . والحاصل أنّ الوصيّة ولو قدّمت على الدين في الذكر إلّا أنّها متأخّرة في الحكم و الدين مقدّم .

قوله : [آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً] ذكر فيه وجوه :

أحدها أنّ معناه أنتم لا تدرون أيّ هؤلاء أنفع لكم في الدنيا فتعطونه من الميراث

---

(١) الانبياء : ٧٨ .

مايستحق ولكن الله قد فرض الفرائض على ما هو عند حكمه وعلمه .

وقيل : إن معناه لاتدرون بأيهم أنتم أسعد في الدنيا والدين والله يعلمه فاقتسموه على ما بينه من المصلحة فيه ، عن الحسن . وهذا المعنى على معنى الأول وقد جعله الطبرسي وجهاً ثانياً وليس فيه معنى زائد من معنى الأول غير أنه فيه زيادة لفظ الدين .

وثالثها أن معناه لاتدرون أن نفعكم بتربية آبائكم لكم أكثر أم نفع أبنائكم و هذا المعنى أيضاً قريب من معنى الأول و الثاني .

والوجه الرابع عن ابن عباس أن المعنى : أطوعكم لله ـ من الآباء والأبناء ـ أرفعكم درجة يوم القيامة لأن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فإن كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله إليه ولده في درجته لتقر بذلك عينه وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته لتقر أعينهم .

وخامس الأقوال أن المراد لا تدرون أي الوارثين و المورثين أسرع موتاً فيرثه صاحبه فلا تتمنوا موتهم لترثوهم ، عن أبي مسلم .

[فريضة من الله] أي فرض الله ذلك فريضة [إن الله كان عليماً حكيماً] أي لم يزل عليماً بمصالحكم حكيماً فيما يحكم به عليكم في الأموال و غيرها . و استعمال « كان » في مثل هذه الموارد بالماضي كالخبر بالاستقبال والحال لأن الأشياء عند الله في حال واحدة مامضى ومايكون وما هو كائن .

قوله : ولكم نصف ماترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أودين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أواخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أودين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم (١٢) .

الكلالة أصلاً الإحاطة و منه الإكليل لإحاطته بالرأس و منه الكل لإحاطته

بالعدد فالكلالة تحيط بأصل النسب الّذي هوالوالد والولد .

المعنى : خاطب الله الأزواج فقال : [ولكم] أيّها الأزواج [نصف ما ترك أزواجكم] أي زوجاتكم [إن لم يكن لهنّ ولد] أي ولد وارث من بطنها أومن صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل ذكراً كان أو اُنثى واحداً كان أو متعدّداً منكم أو من غيركم و الباقي لورثتها .

[فإن كان لهنّ ولد] على نحو ما فُصّل [فلكم الربع ممّا تركن] أي تركت أزواجكم من المال والباقي لباقي الورثة [من بعد وصيّة يوصين بها أو دين] قدمرّ تفسيره .

[ولهنّ] أي ولزوجاتكم [الربع ممّا تركتم] من الميراث [إن لم يكن لكم ولدٌ] ذكراً أو اُنثى منهنّ أو من غيرهنّ أوولد ابن وإن سفل واحدةً كانت الزوجة أواثنين أو ثلاثاً أوأربعاً لم يكن لهنّ أكثر من ذلك .

[فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن ممّا تركتم] من الميراث واحدةً كانت الزوجة أو أكثر من ذلك [من بعد وصيّة توصون بها] أيّها الأزواج [أودين] وقد مرّ بيان الوصيّة والدين .

[وإن كان رجلٌ يورث كلالةً] اختلف في معنى الكلالة فقال جماعة من الصحابة والتابعين مثل عمر وأبي بكر وابن عبّاس : إنّ الكلالة من هو عدا الولد والوالد . و في رواية اُخرى عن ابن عبّاس أيضاً أنّه من عدا الوالد ، لكنّ المرويّ عن أئمّتنا حسبما نقل الطبرسيّ في المجمع أنّ الكلالة الإخوة والأخوات والمذكور في هذه الآية من كان من قبل الاُمّ منهم والمذكور في آخر السورة من كان منهم من قبل الأب والاُمّ أو من قبل الآباء .

قال الفيض في الصافي : لهذا الكلام وجوه من الإعراب فقرىء «يورث» بكسر الراء وبفتحها وكذلك قرىء «كلالةً» منصوبة على الحاليّة والمفعوليّة و«كان» تامّة وناقصة لكن باختلاف الإعراب لايتغيّر الحكم .

قال الفيض : والكلالة القرابة ويطلق على الوارث والمورّث و فُسّرت في الكافي عن الصادق عليه‌السلام بمن ليس بولد ولا والد والمراد القريب من جهة العرض لاالطول والمراد بها

في هذه الآية الإخوة والأخوات من الأم خاصة وفي الآية الأخرى في آخر السورة من الأب والأم أو الأب فقط ، كذا عن المعصومين كما بيّنه الطبرسي .

[أو امرأة] عطف على قوله : «وإن كان رجل» معناه : وإن كان رجل كلالة يورث ماله أو امرأة كلالة تورث مالها : على قول من قال : إنّ الميّت نفسها تسمّى كلالة ، و من قال : إنّه الحيّ الوارث ؛ فالمعنى : وإن كان رجل يورث في حال تكلّل نسبه به أو امرأة يورث كذلك ، وهذا المعنى قول أهل الكوفة ، ويؤيّده ما روي عن جابر أنّه قال : أتاني رسول الله ﷺ و أنا مريض فقلت : و كيف الميراث و إنّما يرثني كلالة ؟ فنزلت آية الفرائض .

فالكلالة في النسب من أحاط بالميّت وتكلّله من الإخوة والأخوات ، والولد والوالد ليسا بكلالة لأنّهما أصل النسب الّذي ينتهي إلى الميّت ومن سواهما خارج عنهما والوالد والولد طرفان للرجل فإذا مات الرجل ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه فسمّي ذهاب طرفيه كلالة .

وقوله تعالى : [وله أخ أو أخت] يعني الأخ و الأخت من الأم [فلكلّ واحد منهما السدس] جعل الذكر والأنثى ههنا سواء ولا خلاف بين الأمّة أنّ الإخوة والأخوات من قبل الأم متساوون في الميراث .

[فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث] وهذا الثلث يتوزّع عليهم بالسويّة [من بعد وصيّة يوصي] قرىء على المجهول [بها أو دين] مرّ بيانه [غير مضارّ] منصوب على الحال أي لم يكن قصده إضرار الورثة بأن يوصي زائداً عن الثلث لإضرارهم أو يقرّ بدين كاذب لحرمان الورثة ، و قد جاء في الحديث أنّ الضرار في الوصيّة من الكبائر .

[وصيّةً من الله] أي وصّاكم الله وصيّة بها لايجوز تغييرها ؛ قال ﷺ : من قطع ميراثاً فرضه الله قطع الله ميراثه من الجنّة [والله عليم] بالمضارّ [حليم] لايعاجل بالعقوبة فلا يغترّ الإنسان بالإمهال .

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله و

يتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيهاوله عذاب مهين(١٤) .

[تلك] أي الأحكام الّتي تقدّمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث [حدود الله] وشرائعه الّتي هي كالحدود المحدودة بحيث لايجوز مجاوزتها .

[ومن يطع الله ورسوله] في جميع الأوامر والنواهي الّتي من جملتها مافصّل ههنا .

[يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها] وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعيّة « من » بحسب المعنى .

[وذلك] أي هذا الثواب هو الفلاح العظيم والنجاة الوافرة يوم القيامة .

[ومن يعص الله ورسوله] ولو في بعض الأوامر والنواهي [ويتعدّ حدوده] وشرائعه المحدودة في جميع الأحكام [يدخله ناراً] عظيمةً هائلةً لايقادر قدرها [خالداً فيها وله عذاب مهين] سمّاه « مهين » لأنّ الله يعذّبه على وجه الإهانة كما أنّه يثيب المؤمن على وجه الكرامة .

واستدلّت المعتزلة بهذه الآية على أنّ صاحب الكبيرة من أهل الصلاة مخلّدٌ في النار ومعاقب فيها لامحالة .

قال الطبرسيّ : فقوله : « ويتعدّ حدوده » يدلّ على أنّ المراد به من تعدّى جميع حدوده وهذه صفة الكفّار ولأنّ صاحب الصغيرة بلا خلاف خارجٌ من عموم الآية والحالة أنّه فاعل للمعصية ومتعدّ حدّاً من حدود الله و إذا جاز إخراجه منه بدليل جاز لغيره أن يخرج من عمومها من يشفع له النبيّ أو يتفضّل الله عليه بالعفو بدليل آخر .

وأيضاً فإنّ التائب لابدّ من إخراجه من عموم الآية لقيام الدليل على وجوب قبول التوبة و كذلك يجب إخراج من يتفضّل الله بإسقاط العقوبة لقيام الدلالة على جواز وقوع التفضّل بالعفو .

على أنّ في المفسّرين من حمل الآية على من تعدّى حدود الله وعصاه مستحلاً لذلك ومن كان كذلك كان كافراً قطعاً .

قوله تعالى : واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفيهن الموت أويجعل الله

لهن سبيلا (١٥) واللذان ياتيانها منكم فآذوهما فان تاباواصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما (١٦) .

لمّا بيّن سبحانه حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث بيّن حكم الحدود في النساء إذا ارتكبن الحرام فقال : [واللاتي] جمع الّتي [يأتين الفاحشة] أي يفعلن الزنا [من نسائكم] أي الحرائر [فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم] أي من المسلمين يخاطب الحكّام والأئمّة فيأمرهم بطلب أربعة من الشهود في ذلك عندعدم الإقرار ، وقيل : هو خطاب للأزواج في نسائهم .

[فإن شهدوا] عليهنّ بذلك [فأمسكوهنّ] واحبسوهنّ [في البيوت] واجعلوها سجناً عليهنّ [حتّى يتوفّاهنّ الموت] أي يدركهنّ الموت فيمتن في البيوت ويستوفي أزواجهنّ . وكان في مبتدء الإسلام إذا فجرت المرأة وقام عليها أربعة شهود حبست في البيت أبداً حتّى تموت ثمّ نسخ ذلك بالرجم في المحصن والجلد في البكرين .

[أو يجعل الله لهنّ سبيلاً] قالوا : لمّا نزل قوله : «الزانية و الزاني فاجلدوا كلّ واحدمنهما مائة جلدة[(١)]» قال النبيّ صلى الله عليه وآله : خذوا عنّي خذوا عنّي قدجعل الله لهنّ سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتعذيب عامّ والثيّب بالثيّب جلدمائة والرجم وقال بعضٌ : إنّ من وجب عليه الرجم يجلد أوّلاً ثمّ يرجم ، وبه قال الحسن وقتادة وجماعةمن الفقهاء . وقال الطبرسيّ : قال أكثر أصحابنا : إنّ ذلك مختصٌّ بالشيخ والشيخه فأمّا غيرهما فليس عليه غير الرجم .

وحكم هذه الآية وهي « واللاتي ، الخ » منسوخ عندجمهور المفسّرين وهوالمرويّ عن الصادقين عليهما السلام ، وقال بعضهم : إنّه غيرمنسوخ لأنّ الحبس لم يكن مؤبّداً .

والصحيح عن الصادق : هي منسوخة . والسبيل هو الحدود وكان الحكم قبل السبيل أنّ المرأة إذا فجرت وقام عليها أربعة شهود دخلت بيتاً ولم تحدّث ولم تكلّم و لم تجالس واُوتيت بطعامها وشرابها حتّى تموت ثمّ جعل الله لهنّ السبيل الجلد والرجم .

وقال أبومسلم الإصفهاني : إنّ المراد بقوله ; « واللاتي يأتين الفاحشة » السحّاقات

---

(١) النور : ٢ .

وحدّ هنّ الحبس إلى الموت وبقوله : « واللّذان يأتيانها منكم » المراد أهل اللواط والمراد بالآية الّتي في سورة النور الزنى بين الرجل والمرأة وحدّه في البكر الجلد وفي المحصن الرجم .

واحتجّ بأنّ قوله : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم » مخصوص بالنسوان وقوله : « واللّذان يأتيانها منكم » مخصوصٌ بالرجال لأنّ كلمة « اللّذان » تثنية الذكور .

واحتجّوا على إبطال قول أبي مسلم : أنّ هذا قولٌ لم يقله أحدٌ من المفسّرين فكان باطلاً ، وقوله ﷺ قال : قدجعل الله لهنّ سبيلاً الثيّب ترجم والبكر تجلد يدلّ على أنّ هذه الآية نازلة في حقّ الزناة .

ثمّ إنّ الصحابة اختلفوا في أحكام اللواط ولم يتمسّك أحد منهم بهذه الآية . و أجاب أبو مسلم عن هذا الجواب فيطول شرحه و شرحه الرازيّ في المفاتيح من أراد فلينظر هناك .

ونقل الطبرسيّ قول أبي مسلم في الآية قال : وقال أبومسلم : هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينهما والفاحشة في الآية الأولى عنده السحق وفي الآية الثانية اللواط فحكم الآيتين عنده ثابت غير منسوخة وإلى هذا التأويل ذهب أهل العراق ، وهذا بعيد لأنّ الّذي عليه جمهور المفسّرين أنّ الفاحشة في الآية الزنا وأنّ الحكم في الآية منسوخة بالحدّ المفروض في سورة النور ذهب إليه الحسن ومجاهد وقتادة والسدّي والضحّاك والبلخيّ والجبّائيّ والطبريّ وجماعة .

وقوله : [فآذوهما] قيل : معناه التعيير باللسان والضرب بالنعال ، عن ابن عبّاس . وقيل : التوبيخ باللسان .

وقرىء « واللّذان » مشدّداً ومخفّفاً وقرأ ابن كثير مشدّداً قال ابن مقسم : إنّما شدّد ابن كثير في هذه النونات مثل « اللّذانّ » « وهذانّ » لأمرين : أحدهما الفرق بين تثنية الأسماء المتمكّنة وغير المتمكّنة ، والآخر أنّ « الّذي » و« هذا » مبنيّان على حرف واحد وهو الذال فأرادوا تقوية كلّ واحد منهما بأن زادوا على نونها نوناً آخر من جنسها . و قيل : زادوا النون تاكيداً كما زادوا اللام .

ثمّ ههنا مسألة وهي أنّه على قول المفسّرين ثبت أنّ الآية الأُولى والثانية في الزناة فما السبب في هذا التكرار ؟

قال الرازيّ : إنّ المراد من قوله : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم » الزواني والمراد من قوله : « واللّذان ياتيانها منكم » الزناة ثمّ إنّه تعالى خصّ الحبس في البيت بالمرأة وخصّ الإيذاء بالرجل إذ الإيذاء كان مشتركاً بينهما والحبس كان من خواصّ المرأة .

وقال الحسن : هذه الآية نزلت قبل الآية المتقدّمة والتقدير : واللّذان يأتيان الفاحشة من النساء والرجال فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، ثمّ نزل قوله : « فأمسكوهنّ في البيوت » يعنى إن لم يتوبا وأصرّا على هذا الفعل القبيح .

قال الرازيّ : وهذا القول عندي في غاية البعد ويوجب فساد الترتيب في هذه الآيات ، انتهى .

[فإن تابا] أي رجعا عن الفاحشة وأصلحا العمل فيما بعده [فأعرضوا عنهما] و كفّوا عن أذاهما [إنّ الله كان توّاباً رحيماً] يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم .

قال الحقّي في روح البيان : إنّ الرجل إذا زنى بامرأة و هما محصنان فحدّهما الرجم لاغير وإن كانا غير محصنين فحدّهما الجلد لا غير وإن كان أحدهما محصنا و الآخر غير محصن فعلى المحصن منهما الرجم وعلى الآخر الجلد ، والمحصن هو أن يكون عاقلاً بالغاً مسلماً حرّاً دخل بامرأة بالغة حرّة مسلمة بنكاح صحيح فالرجم كان مشروعاً في التوراة ثمّ نسخ بآية الإيذاء من القرآن ثمّ نسخ الإيذاء بآية الحبس،وآية الإيذاء وإن كانت متأخّرة في الترتيب إلّا أنّها سابقة على الأُولى نزولاً ثمّ صار الحبس منسوخاً بحديث عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام و الثيّب بالثيّب جلد مائة ورجم بالحجارة ثمّ نسخ هذا كلّه بآية الجلد بقوله : « الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة » وصار الحدّ هو الجلد في كلّ زان وزانية ثمّ صار هذا منسوخاً بالرجم في حقّ المحصن بحديث ماعز وبقي غير المحصن في حكم الجلد وهو الترتيب في الآيات والسنّة . انتهى كلام روح البيان .

قوله تعالى : انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (١٧) .

لمّا ذكر سبحانه في الآيتين أنّ المرتكبين للفاحشة إذا تابا وأصلحا زال الأذى عنهما ووعد سبحانه بقبول التوبة بقوله : « توّاباً رحيماً » ذكر في هذه الآية وقت التوبة وشرطها .

ولفظة [إنّما] يتضمّن النفي والإثبات فالمعنى : لاتوبة مقبولة [على الله] أي عندالله ، كما فسّره الطبرسيّ . وقيل : « على » بمعنى « من » وأتى بلفظ « على » للدلالة على التحقّق البتّة بحكم كأنّه من الواجبات الّتي أوجب على نفسه بالتفضّل على القبول .

واحتجّ القاضي عبد الجبّار الهمدانيّ على أنّه يجب على الله عقلاً قبول التوبة بهذه الآية من وجهين :

الاول : أنّ كلمة « على » للوجوب فقوله : « إنّما التوبة على الله للّذين » يدلّ على أنّه يجب عليه قبولها .

الثاني : لو حملنا قوله : « إنّما التوبة على الله » على مجرّد القبول لم يبق بينه وبين قوله : « فاُولئك يتوب الله عليهم » فرق لأنّ هذا أيضاً إخبار عن الوقوع أمّا إذا حملنا ذلك على وجوب القبول وهذا على الوقوع يظهر الفرق في بيان الآيتين ولا يلزم التكرار .

قال الرازيّ : إنّ القول بالوجوب على الله باطل لأنّ لازمة الوجوب استحقاق الذمّ عند الترك فهذه اللازمة إمّا أن يكون ممتنعة الثبوت في حقّ الله أو غير ممتنعة في حقّه والأوّل باطل لأنّ ترك ذلك الواجب لمّا كان مستلزماً لهذا الذمّ وهذا الذمّ محال الثبوت في حقّ الله وجب أن يكون ذلك الترك ممتنع الثبوت في حقّه وإذا كان الترك ممتنع الثبوت عقلاً كان الفعل واجب الثبوت فحينئذ يكون الله موجباً بالذات لافاعلاً بالاختيار وذلك باطل فثبت أنّ القول بالوجوب على الله باطل ، ثمّ إنّ التوبة فعل يحصل باختيار العبد على

قولهم ؛ فلوصار ذلك علّةً للوجوب على الله لصار فعل العبد مؤثّراً في صفاته وذاته وذلك لا يقوله عاقلٌ لكنّ الصحيح هو أنّه تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين فإذا وعدالله بشيء وكان الخلف في وعده محالاً كان ذلك شبيهاً بالواجب فبهذا التأويل صحّ إطلاق كلمة « على » .

فإن قيل : لمّا أخبر سبحانه بقبول التوبة و كلّ ما أخبر عن وقوعه كان واجب الوقوع فيلزم أن لايكون فاعلاً مختاراً .

فالجواب أنّ الإخبار عن الوقوع تبع للإيقاع فكان فاعلا مختاراً في ذلك الإيقاع أمّا أنتم تقولون بأنّ وقوع التوبة من حيث إنّها هي تؤثّر في وجوب القبول على الله وهذا ليس بصحيح فظهر الفرق ، انتهى كلام الرازيّ .

وبالجملة معنى قوله تعالى : « إنّما التوبة على الله » قبولها [للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب] فقيل : معنى « بجهالة » أنّ كلّ معصية يفعلها العبد جهالة وإن كان على سبيل العمد لأنّ الجهل يدعو إليها و يزيّنها للعبد ، عن ابن عبّاس وعطا ومجاهد وقتادة وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام قال : كلّ ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربّه ؛ فقد حكي قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته : « هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون (١) » فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله .

هذا أحد الوجوه في معنى « بجهالة » .

و القول الثاني أنّ معناه أنّهم لا يعلمون كنه مافيه من العقوبة كما يعلم الشيء ضرورة ، عن الفرّاء .

و ثالثها أنّهم يجهلون أنّها ذنوب فيفعلونها إمّا بتأويل يخطؤون فيه و إمّا بأن يفرطوا في الاستدلال على قبحها .

وهذا هو الشرط الأوّل في التوبة وأمّا الشرط الثاني في الآية وهو قوله : «ثمّ يتوبون عن قريب » وأجمع المفسّرون على أنّ المراد «من قريب» أي يتوبون قبل الموت لأنّ ما بين

---

(١) يوسف : ٨٩ .

الإنسان وبين الموت قريب ؛ فالتوبة مقبولة قبل اليقين بالموت . وقال الحسن و الضحّاك و ابن‌عمر : مالم يعاين الموت . وقال السدّي : هومادام في الصحّة قبل المرض والموت .

وفي المجمع قال الطبرسيّ : روي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قيل : له فإن عاد و تاب مراراً ؟ قال : يغفر الله له ، قيل : إلى متى ؟ قال عليه السلام : حتّى يكون الشيطان هو المحسور .

وفي كتاب من لايحضره الفقيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها : من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه ثمّ قال : وإنّ السنة لكثيرة من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه ثمّ قال : وإنّ الساعة لكثيرة من تاب قبل أن يغرغر بها [1] تاب الله عليه .

و روي أيضاً بإسناده عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لمّا هبط إبليس قال : وعزّتك وجلالك و عصمتك لا اُفارق ابن آدم حتّى يفارق روحه جسده فقال الله سبحانه : وعزّتي وجلالي لاأحجب التوبة عن عبدي حتّى يغرغر بها .

[فاُولئك يتوب الله عليهم] أي يقبل توبتهم [وكان الله عليماً] بمصالح العباد [حكيماً] فيما يعاملهم به .

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الان ولا الذين يموتون و هم كفار اولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً (١٨) .

لمّا ذكر شرائط التوبة المقبولة أردفها بشرح التوبة الّتي لايكون مقبولة و الآية دالّة على أنّ من حضره الموت وشاهد أهواله فإنّ توبته غير مقبولة كما قال سبحانه: «فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا [2]» و كذلك لمّا أدرك فرعون الغرق قال : « آمنت أنّه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * ءالآن وقد عصيت قبل [3]» وأمثال هذه الآيات الدالّة على عدم قبول التوبة بعد حال اليأس من الحياة « كثيرة » .

والحاصل أنّه [ليست التوبة] المقبولة الّتي ينتفع بها صاحبها [للّذين يعملون]

---

(١) غرغر بنفسه : جاد بها عند الموت . (٢) غافر : ٨٥ .

(٣) يونس : ٩٠ .

المعاصي ويصرّون عليها ويسوّفون التوبة [حتّى إذا حضرهم الموت] وأسبابها مثل معاينة ملك الموت وشواهد اليأس من الحياة [قال إنّي تبت الآن] ولعلّ السبب في عدم قبولها حينئذ أنّ الإيمان والعلم يقع ضروريّاً فيسقط التكليف فلا فائدة فيها .

قال الطبرسيّ في المجمع : وأجمع أهل التأويل على أنّ هذه الآية قد تناولت عصاة أهل الإسلام إلّا ماروي عن الربيع انّه قال : إنّها في المنافقين وهذا لايصحّ لانّ المنافقين من جملة الكفّار ؛ قال تعالى : « و الله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون (١)» .

وقد بيّن الله الكفّار بقوله : [ولا الّذين يموتون و هم كفّار] أي ليست التوبة أيضاً للذين يموتون على الكفر ثمّ يندمون بعد الموت [اُولئك أعتدنا] وهيّأنا [لهم عذاباً أليماً] موجعاً .

قال صاحب المجمع : ومن استدلّ بظاهر قوله : «أعتدنا لهم عذاباً أليما » على وجوب العقاب لمن مات من مرتكبي الكبائر من المؤمنين قبل التوبة فالانفصال عن استدلاله أن يقال : إنّ معنى إعداد العذاب لهم إنّما خلق النار الّتي هي مصيرهم فالظاهر يقتضي استيجابهم لدخولها وليس في الآية أنّ الله يفعل بهم مايستحقّونه لا محالة .

ويحتمل أن يكون «اُولئك» إشارة إلى الّذين يموتون وهم كفّار ؛ لأنّه أقرب إليه من قوله : «يعملون السيّئات» .

ويحتمل أن يكون التقدير من قوله : «أعتدنا لهم» أي إذا عاملناهم بالعدل و لم نشأ العفو عنهم ، وتكون الفائدة فيه إعلامهم ما يستحقّونه من العقاب وأن لايأمنوا من أن يفعل لهم ذلك فإنّ قوله : «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٢)» لايتناول المشيئة فيه إلّا المؤمنين من أهل الكبائر الّذين يموتون قبل التوبة لأنّ المؤمن المطيع خارجٌ عن هذه الجملة و كذلك التائب إذ لاخلاف في أنّ الله لايعذّب أهل الطاعات من المؤمنين ولاالتائبين من المعصية والكافر خارجٌ عن المشيئة لإخبار الله تعالى أنّه لا يغفر الكفر فلم يبق تحت المشيئة إلّا من مات مؤمناً موحّداً وقد ارتكب كبيرة لم يتب منها .

---

(١) المنافقون : ١ .

(٢) السورة : ٤٨ .

لكن قال الربيع : إنّ الآية منسوخة بقوله : «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» لأنّه حكم من الله والنسخ جائز في الأحكام وإنّما يمتنع النسخ في الأخبار .

قال الطبرسيّ : وهذا لا يصح لأنّ قوله : «أعتدنا» وارد مورد الخبر فلا يجوز النسخ فيه كما لا يجوز في سائر الأخبار .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا لايحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة و عاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه خيرا كثيرا (١٩) .

النزول : كان أهل الجاهليّة يؤذون النساء بأنواع كثيرة و بضروب من الظلم فالله تعالى نهاهم عنها مثل أنّ الرجل إذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال : ورثت امرأته كما ورثت ماله فصار أحقّ بها من سائر الناس ومن نفسها فإن شاء تزوّجها بغير صداق إلّا الصداق الأوّل الّذي أصدقها الميّت وإن شاء زوّجها من إنسان آخر وأخذ صداقها وأكله ولم يعطها شيئاً ؛ فأنزل الله الآية وبيّن أنّ ذلك حرام .

قال الطبرسيّ في المجمع : إنّ أباقيس بن الأسلت لمّا مات عن زوجته كبيشة بنت معن ألقى ابنه محصن بن أبي قيس ثوبه عليها فورث نكاحها ثمّ تركها و لم يقربها و لم ينفق عليها فجاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله و قالت : يا نبيّ الله لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح فنزلت الآية ، عن مقاتل وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وقيل : نزلت في الرجل تكون تحته امرأة بكرة صحبتها ولها عليه مهرٌ فيضارّها لتفتدي بالمهر ، فنهوا عن ذلك ، عن ابن عبّاس .

وقيل : نزلت في الرجل يحبس المرأة عنده ولا حاجة له إليها وينتظر موتها حتّى يرثها ، عن الزهريّ ، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً .

والحاصل : نهى الله عن الاستنان بسنّتهم أن تحبسوهنّ على كره منهنّ طمعاً في

ميراثهنّ وأن تسيئوا صحبتهنّ ليفتدين بمالهنّ أوبما أعطيتموهنّ من مهورهنّ أوليمتن فترثوهنّ، فنهى عن جميع هذه الأُمور .

[ولا تعضلوهنّ] أي لاتمنعوهنّ عن النكاح أوالمعنى لا تحبسوهنّ [لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ] واختلف في المعنيّ بهذا النهي على أربعة أقوال :

أحدها أنّه الزوج أمرالله بتخلية سبيلها إذا لم يكن له فيها حاجة وأن لايمسكها إضراراً بها حتّى يفتدي ببعض مالها ، عن ابن عبّاس وقتاده والسدّيّ والضحّاك وهوالمرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام .

وثانيها أنّ المخاطب بالنهي الوارث نهى عن منع المرأة عن التزويج كما يفعله أهل الجاهليّة ، كما ذكر قبل هذا .

وثالثها أنّه المطلّق أي لايمنع المطلّقة من التزويج كما كانت يفعله قريش في الجاهليّة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة فإذا لم توافقه فارقها على أن لا تتزوّج إلّا بإذنه ويشهد عليها بذلك ويكتب كتاباً فإذا خطبها خاطب فإن أرضته أذن لها و إن لم تعطه شيئاً عضلها ومنعها عن التزويج ، فنهى الله عن ذلك .

ورابعها أنّ المخاطب هو الوليّ بأنّه لايمنعها عن النكاح . قال الطبرسيّ : و القول الأوّل هو الأصحّ .

[إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة] قيل : المراد من الفاحشة الزنى **أي** يزنين أي إذا أتت بهذا الأمر القبيح فله أخذ الفدية ، عن السدّيّ وجماعة . وقيل : إنّ الفاحشة المراد منها ههنا النشوز عن ابن عبّاس ، والأولى حمل الآية على كلّ معصية وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام واختاره الطبريّ .

و اختلف **في** هذا الاستثناء ممّا ذا هو ؟ فقيل : هو من أخذ المال وهو قول أهل التفسير. وقيل : كان هذا قبل الحدود وكان الأخذ منهنّ على وجه العقوبة لهنّ ثمّ نسخ ، عن الأصمّ . وقيل : هو الحبس والإمساك فيكون استثناء من قوله : «ولا تعضلوهنّ» فالأولياء والأزواج نهوا عن حبسهنّ في البيوت إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة ظاهرة فعند ذلك يحلّ لهم

حبسهنّ ، أواستثناء من الحبس المذكور في قوله : «فأمسكوهنّ في البيوت » لكن يتمّ هذا الكلام على قول أبي مسلم حيث زعم أنّه غير منسوح .

[وعاشروهنّ بالمعروف] والمراد من العشرة المصاحبة بما أمركم الله به من أداء حقوقهنّ الّتي هي النصفة في القسم والنفقات والاجمال في القول والفعل . وقيل : المعروف أن لا يضرّبها ولا يضربها ولايسيء القول معها ويكون منسبط الوجه معها بل يتّضع لها كما تتّضع له .

[فإن كرهتموهنّ] أي كرهتم إمساكهنّ وصحبتهنّ [فعسى أن تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه] أي في ذلك الشيء وهو إمساكهنّ على كره منكم [خيراً كثيراً] من ولد يرزقكم أو عطف لكم عليهنّ بعدالكراهة .

وفي الآية حثّ للأزواج على حسن الصبر فيما يكرهون من الأزواج و ترغيبهم في إمساكهنّ مع كراهة صحبتهنّ إذا لم يخافوا في ذلك من ضرر على النفس والدين والمال لأنّه لمّا كره الرجل صحبتها ثمّ تحمّل ذلك المكروه طلباً لثواب الله وأنفق عليها وأحسن إليها على خلاف الطبع استحقّ الثواب الجزيل في العقبى .

قوله تعالى : وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احدىهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً اتاخذونه بهتاناً و اثما مبيناً (٢٠) و كيف تاخذونه وقدافضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقاً غليظاً (٢١) .

قيل : إنّ الرجل منهم إذا مال إلى التزوّج بإمرأة اُخرى رمى زوجته بالفاحشة حتّى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوّج المرأة الّتي يريدها فقال الله :

[وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج] خاطب الأزواج «وإن أردتم» أيّها الأزواج إقامة امرأة مقام امرأة وأعطيتم المطلّقة الّتي تستبدلون بها غيرها [قنطاراً] أي مالاً عظيماً كثيراً و «القنطر» يقال للداهية لأنّها كالقنطرة في عظم الصورة . و قيل : القنطار ملئي مسك ثور ذهباً أو أنّه دية الانسان .

[فلاتأخذوا منه] أي من المعطى[شيئاً] إذا كرهتموهنّ وأردتم طلاقهنّ [أتأخذونه

بهتاناً] هذا استفهامٌ إنكاريّ أي « أتاخذونه باطلاً وظلماً » كالظلم بالبهتان والبهتان كذب يحيّر الإنسان لعظمته ويبهته ، والبهتان مصدر وضع موضع الحال أي مباهتين وآثمين أو المعنى تصيبون بالأخذ بهتاناً [وإثماًمبيناً] ظاهراً لاشكّ فيه .

وليس معنى الآية أنّ حرمة الأخذ مختصّة بالاستبدال بأن يجوز له الأخذ بغير الاستبدال بل المعنى : إن أردتم تخلية المرأة سواءً استبدلتم مكانها اُخرى أم لم تستبدلوا فلا تأخذوا ممّا آتيتموها شيئاً . وإنّما خصّ حال الاستبدال بالنهي عن الأخذ لعدم التوهّم بجواز الاسترجاع مع الاستبدال .

[وكيف تأخذونه] وهذا تعظيمٌ في عجب هذا الفعل ، كيف تأخذون ذلك منهنّ ؟

[وقد أفضى بعضكم إلى بعض] وهو كناية عن الجماع ، وقيل : الإفضاء حصوله معها في فراش واحد ، عن الكلبيّ .

[وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً] والميثاق الغليظ هو العهد المأخوذ على الزوج من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، عن الحسن و ابن سيرين و الضحّاك و جماعة وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام . والقول الثاني : أنّ المراد بالميثاق كلمة النكاح الّتي يستحلّ بها الفرج . و القول الثالث : قول النبيّ صلى الله عليه وآله حيث قال : أخذتم بأمانة الله و استحللتم فروجهنّ بكلمة الله .

قال الطبرسيّ : وقد قيل في هاتين الآيتين ثلاثة أقوال :

أحدها أنّهما محكمتان غير منسوختين لكن للزوج أن يأخذ الفدية من المختلعة لأنّ النشوز حصل من جهتها فالزوج في حكم المكره لا المختار للاستبدال ولايتنافى حكم الآيتين وحكم آية الخلع فلا يحتاج إلى نسخهما بآية الخلع ، وهوقول الأكثرين .

والقول الثاني : أنّهما محكمتان و ليس للزوج أن يأخذ من المختلعة شيئاً ولا من غيرها بسبب ظاهر الآية ، وهذا القول عن بكر بن عبدالله المزنيّ .

و القول الثالث : أنّ حكمها منسوخ بقوله : « فإن خفتم ألّا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به [1] » عن الحسن . انتهى .

(١) البقرة : ٢٢٩ .

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا و ساء سبيلا (٢٢).

نزلت الآية في ماكان يفعله أهل الجاهليّة عن نكاح امرأة الأب ، عن ابن عبّاس وعطا وعكرمة وقتادة وقالوا : تزوّج صفوان بن اُميّة امرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلّب و تزوّج حصين بن أبي قيس امرأة أبيه كبيشة بنت معن و تزوّج منصور بن زياد امرأة أبيه مليكة بنت خارجة .

وقيل : توفّي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إنّك من صالحي قومك فأتى رسول الله واستأمره فأتته وأخبرته فقال لها رسول الله : ارجعي إلى بيتك ، فأنزل الله هذه الآية .

والنكاح اسمٌ يقع على العقد وعلى الوطء أمّا على العقد مثل «وأنكحوا الأيامى منكم [١]» وعلى الوطء مثل قوله : «الزاني لاينكح إلّا زانية أو مشركة [٢]» ومثل قوله ﷺ : ملعون من نكح يده وملعون من نكح بهيمة .

وقال آخرون : إنّ لفظ النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد ؛ لأنّ أصل اللغة عبارة عن الضمّ ومعنى الضمّ حاصل في الوطء لافي العقد فكان لفظ النكاح حقيقة في الوطء .

ثمّ إنّ العقد سمّي بهذا الاسم لأنّ العقد لمّا كان سبباً له أطلق المسبّب على السبب كما أنّ العقيقة اسم للشعر الّذي يكون على رأس الصبيّ حال مايولد ثمّ تسمّى الشاة الّتي تذبح عند حلق ذلك الشعر عقيقة ، فكذا ههنا .

فقوله :[ولاتنكحوا ما نكح آباؤكم] أي لاتتزوّجوا ماتزوّج آباؤكم. وقيل : ماوطىء آباؤكم من النساء حرم عليكم . وقيل : إنّ تقديره : و لا تنكحوا نكاح آبائكم أي مثل نكاح آبائكم فيكون «مانكح» بمنزلة المصدر و يكون النفي عن حلائل الآباء و كلّ نكاح كان لهم فاسد في الجاهليّة ، وهذا قول الطبريّ .

والإتيان «بما» فقد ذهب مذهب الجنس كما يقول القائل : لاتأخذ ماأخذ أبوك من الإماء فيذهب به مذهب الجنس ثمّ فسّره «بمن» في قوله : «من النساء» .

---

(١) النور : ٣٢ . (٢) النور : ٣٠ .

وههنا بيان وهو أنّ من الناس من ذهب أنّ لفظ المشترك يجوز استعماله في مفهوميه معاً فهذا القائل قال : دلّت الآية على أنّ لفظ النكاح حقيقة في الوطء وفي العقد معاً فكان قوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » نهياً عن الوطء وعن العقد معاً حملاً للّفظ على كلا مفهوميه .

و أمّا من قال بأنّ لفظ المشترك لا يجوز استعماله في مفهوميه معاً قال : إنّ لفظ النكاح قد استعمل في القرآن في الوطء تارة وفي العقد أُخرى ، قالوا : والقول بالاشتراك والمجاز خلاف الأصل و لابدّ من جعل حقيقة في القدر المشترك بينهما وهو معنى الضمّ حتّى يندفع الاشتراك والمجاز وإذا كان كذلك كان قوله : « ولا تنكحوا » نهياً عن القدر المشترك بين هذين القسمين و النهي عن القدر المشترك بين القسمين يكون نهياً عن كلّ واحد من القسمين لامحالة ؛ فإنّ النهي عن التزويج يكون نهياً عن العقد وعن الوطء معاً، انتهى .

قوله تعالى : [إلّا ما قد سلف] قيل : إنّ المعنى هذا الاستثناء على طريق المعنى أي لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سلف قبل نزول التحريم فإنّه معفوّ عنه . وقيل الاستثناء منقطع لأنّه لايجوز استثناء الماضي من المستقبل فالمعنى : لكن ما قد سلف فإنّ الله يجاوز عنه، واستثنى ما قد مضى ليعلم أنّه لم يكن مباحاً. وقيل : «إلّا» في الآية بمعنى «بعد» كقوله : « لايذوقون فيها الموت إلّا الموتة الأُولى » (١) أي بعد الموتة الأُولى .

[إنّه كان فاحشة] الضمير في «إنّه» قيل : راجع إلى هذا النكاح قبل النهي ؛ لأنّ هذا الّذي حرّمه عليهم كان منكراً لم يزل في قلوبهم ممقوتاً و كانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه : مقتى ، وذلك لأنّ زوجة الأب تشبه الأُمّ وكان نكاح الأُمّهات من أقبح الأشياء عند العرب فبيّن الله أنّ هذا النكاح أبداً كان ممقوتاً وقبيحاً. والقول الثاني : أنّ الضمير راجع إلى هذا النكاح بعد النهي فبيّن سبحانه أنّه فاحشة وزنى في الإسلام .

[ومقتاً] عند الله ، والمقت عبارة عن بغض مقرون باستحقار حصل بسبب أمر قبيح ارتكبه صاحبه [وساء سبيلاً] و«ساء» فعل لازم وفاعله مضمر وسبيلاً منصوب تفسير لذلك الفاعل .

ومراتب القبح ثلاثة في العقول وفي الشرائع وفي العادات فقوله : « إنّه كان فاحشة»

---

(١) الدخان : ٥٦ .

إشارة إلى القبح العقليّ وقوله : «مقتاً» إشارة إلى القبح الشرعيّ و قوله : « وساء سبيلاً » إشارة إلى القبح العرفيّ العاديّ، ومتى اجتمعت في الأمر هذه الوجوه قد بلغ الغاية في القبح .

قوله تعالى : حرمت عليكم امهاتكم و بناتكم و اخواتكم وعماتكم وخالاتكم و بنات الاخ و بنات الاخت وامهاتكم اللاتى ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة و امهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيماً (٢٣) .

ثمّ بيّن المحرّمات من النساء ولابدّ في الكلام من محذوف ؛ لأنّ التحريم لا يتعلّق بالأعيان وإنّما يتعلّق الحلال والحرام بأفعال المكلّف ويختلف المحذوف باختلاف ما اُضيف إليه فإذا اُضيف إلى مأكول نحو قوله : « حرّمت عليكم الميتة والدم » أي أكل الميتة وإذا اُضيف إلى النساء فالمراد العقد و النكاح فالتقدير في الآية : حرّم عليكم نكاح اُمّهاتكم ، فحذف المضاف واُقيم المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام مفهوماً عليه . و«الاُمّ» كلّ امرأة رجع نسبك إليها بالولادة .

فشرح الله سبحانه على تحريم أربعة عشر صنفاً من النساء سبعة منهنّ من جهة النسب وهنّ الاُمّهات والبنات والأخوات و العمّات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت . و سبعة اُخرى لا من جهة النسب بل بالسبب : الاُمّهات من الرضاعة ، و الأخوات من الرضاعة ، واُمّهات النساء ، وبنات النساء وهنّ الربائب ـ بشرط أن يكون قد دخل بالنساء ـ وأزواج الأبناء وأزواج الآباء (لأنّ أزواج الأبناء مذكورة ههنا وأزواج الآباء مذكورة في الآية المتقدّمة كما شرحت) والجمع بين الاُختين .

وذكر العلماء أنّ السبب لهذا التحريم أنّ الوطء إذلال وإهانة وأنّ الإنسان يستحيي من ذكره ، وإذا كان كذلك وجب صون الاُمّهات عنه لأنّ إنعام الاُمّ على الولد أعظم ولابدّ له عن صونها عن هذا الإذلال وكذا القول في البقيّة .

قوله : [حرّمت عليكم اُمّهاتكم] ولا شكّ أنّ «الجدّة» حكمها حكم الاُمّ وإن علت .

قال الرازيّ : إنّ لفظ الاُمّ لاشكّ أنّه حقيقة في الاُمّ الأصليّة فأمّا في الجدّات فإمّا أن يكون حقيقةً أو مجازاً فإن كان لفظ « الاُمّ » حقيقة في الاُمّ الأصليّة وفي الجدّات فإمّا أن يكون لفظاً متواطئاً أو مشتركاً فإن كان لفظاً متواطئاً يعنى أن يكون لفظاً موضوعاً بإزاء قدر مشترك بين الاُمّ الأصليّة وبين سائر الجدّات فعلى هذا التقدير يكون قوله : «حرّمت عليكم اُمّهاتكم» نصّاً في تحريم الاُمّ الأصليّة وفي تحريم جميع الجدّات وأمّا إن كان لفظ الاُمّ مشتركاً في الاُمّ الأصليّة وفي الجدّات فهذا يتفرّع على أنّ اللفظ المشترك بين أمرين هل يجوز استعماله فيهما معاً أم لا ؟ فمن جوّزه حمل اللفظ ههنا على الكلّ وحينئذ يكون تحريم الجدّات منصوصاً عليه ، ومن قال : لا يجوز فالحكم لهم في تحريم الجدّات غير مستفاد من هذا النصّ بل بدليل الإجماع و دلائل اُخرى .

النوع الثاني من المحرّمات : البنات وهي كلّ اُنثى يرجع نسبها إليك بدرجة أو درجات الصلبيّة ، وبنات الأولاد وإن سفلن .

النوع الثالث : الأخوات من قبل الأب والاُمّ أو من قبل أحدهما .

[وعمّاتكم] جمع « عمّة » وكلّ ذكر رجع نسبك إليه فاُخته عمّتك وقد تكون العمّة من جهة الاُمّ مثل اُخت أبي اُمّك و اُخت جدّ اُمّك فصاعداً .

[وخالاتكم] جمع « الخالة» وكلّ اُنثى رجع نسبك إليها بالولادة فاُختها خالتك وقد تكون الخالة من جهة الأب مثل اُخت اُمّ أبيك أو جدّة أبيك فصاعداً وقوله : «حرّمت عليكم اُمّهاتكم » ليس المقصود أنّه قد حرم على كلّ أحد جميع اُمّهاتهم وقابل الجمع بالجمع فيقتضي مقابلة الفرد أي حرّم على كلّ أحد بنته مثلاً أو اُخته فمعنى الآية حرّم الله على كلّ واحد منكم نكاح اُمّه ومن يقع عليها اسم الاُمّ فصاعداً مثل اُمّ الاُمّ ونكاح بنته ومن يقع عليها اسم البنت فنازلاً مثل بنت البنت وكذلك الجميع .

قوله تعالى : [وبنات الأخ وبنات الاُخت] فهذا أيضاً على ما ذكر جمعٌ بإزاء جمع فيقع على الآحاد بإزاء الآحاد والتحديد في هولاء كالتحديد في بنات الصاب وهؤلاء السبع هي المحرّمات بالنسب .

وأمّا السبع الّتي تحرم بالسبب فقال سبحانه : [وأُمّهاتكم اللاتي أرضعنكم] سمّاهنّ « أُمّهات » للحرمة و كلّ أُنثى انتسبت إليها باللبن فهي أُمّك فالّتي أرضعتك أوأرضعت امرأةً أرضعتك فهي أُمّك من الرضاعة و كذلك كلّ امرأة ولدت امرأةً أرضعتك أورجلاً فهي أُمّك من الرضاعة .

قال الواحديّ : المرضعات سمّاهنّ أُمّهات لأجل الحرمة كما سمّى أزواج النبيّ أُمّهات المؤمنين في قوله : « وأزواجه صلى الله عليه وآله أُمّهاتهم [١] » لأجل الحرمة وقوله صلى الله عليه وآله : ويحرم من الرضاع مايحرم من النسب بدلالة هذه الآية .

الصنف الثاني من المحرّمات بالسبب من الأصناف السبعة قوله : [وأخواتكم من الرضاعة] يعني بنات المرضعة وهنّ ثلاثة الصغيرة الأجنبيّة الّتي أرضعتها أُمّك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو مع ولد قبلك أو بعدك والثانية أُختك لأُمّك دون أبيك وهي الّتي أرضعتها أُمّك بلبان غير أبيك والثالثة أُختك لأبيك دون أُمّك وهي الّتي أرضعتها زوجة أبيك بلبن أبيك

والكلام في الرضاع يشتمل على ثلاثة فصول :

احدها : مدّة الرضاع فقد اختلف فيها فقال الأكثرون : لايحرم الرضاع إلّا ماكان في مدّة الحولين ، وهو مذهب أصحابنا واتّفقوا على أنّ رضاع الكبير لايحرم .

وأمّا قدر الرضاع فقال أبو حنيفة : إنّ قليله و كثيره يحرم . و قال الشافعيّ : يحرم خمس رضعات . وقال أصحابنا : لايحرم إلّا ما أنبت اللحم و شدّ العظم و يعتبر ذلك برضاع يوم و ليلة لايفصل بينه برضاع امرأة أُخرى أو بخمس عشر رضعة متواليات لايفصل بينها برضاع امرأة أُخرى . وقال بعض أصحابنا : المحرّم عشر رضعات متواليات .

وأمّا كيفيّة الارتضاع فعند أصحابنا لايحرم إلّا ماوصل إلى الجوف من الثدي في المجرى المعتاد الّذي هو الفم فأمّا ما يوجر أويسقط أويحقن به فلا يحرم بحال ولبن الميتة لا حرمة له في التحريم وفي منع ذلك خلاف .

والصنف الثالث [وأُمّهات نسائكم] أي وحرّم عليكم نكاحهنّ فلايجوز نكاح أُمّ

---

(١) الاحزاب : ٦.

الزوجة وجدّاتها قربن أوبعدن من أيّ وجه كنّ سواء كنّ من النسب أومن الرضاع وهنّ تحرمن بنفس العقد على البنت أوالثيّب سواء دخل بها أم لم يدخل .

[وربائبكم] أي نبات نسائكم من غيركم [اللاتي في حجوركم] أي في ضمانكم وتربيتكم . ولاخلاف بين العلماء أنّ كونهنّ في حجره ليس بشرط في التحريم وإنّماذكر ذلك لأنّ الغالب أنّها يكون كذلك بل تحرم بنت المرأة من غير زوجها على زوجها و كذلك بنت ابنها وبنت بنتها قربت أم بعدت لوقوع اسم الربيبة عليهنّ . وقال أبوعبيدة : «في حجوركم» أي في بيوتكم .

[من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ] وهذه نعت لاُمّهات الربائب لاغير ، لحصول الإجماع على أنّ الربيبة تحلّ إذا لم يدخل باُمّها .

قال الطبرسيّ : واختلف في معنى الدخول على قولين : أحدهما أنّ المراد به الجماع ، عن ابن عبّاس . والآخر أنّه الجماع ومايجري مجراه من المسّ والتجريد ، عن عطاء وهو مذهبنا وفي ذلك خلاف بين الفقهاء .

[فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ] فيما قبل أصلاً [فلاجناح عليكم] في نكاح الربائب إذا فارقتم اُمّهاتهنّ وطلّقتموهنّ أومتن .

[وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم] أي وحرّم عليكم نكاح أزواج أبنائكم حقيقة وأزال الشبهة في أمر زوجة المتبنّى به فقال : «الّذين من أصلابكم » لئلّا يظنّ أنّ زوجة المتبنّى به تحرم على المتبنّي . وروي عن عطا أنّ هذه نزلت حين نكح النبيّ ﷺ امرأة زيد بن حارثة فقال المشركون في ذلك فنزل : «وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم » وقوله تعالى : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم(١) »

قوله تعالى : [وأن تجمعوا بين الاُختين] أي وحرّم عليكم الجمع بين الاُختين لأنّ « أن » مع صلتها في حكم المصدر .

قال الطبرسيّ : وهذا يقتضي تحريم الجمع بين الاُختين على الحرائر و كذلك تحريم الجمع بينهما في الوطء بملك اليمين فإذا وطىء أحدهما فقد حرّمت عليه الاُخرى

---

(١) الاحزاب : ٤ .

حتّى تخرج تلك من ملكه وهوقول الحسن وأكثر المفسّرين والفقهاء .

قال الرازيّ في المفاتيح : وأمّا الجمع بين الاُختين بملك اليمين أوبأن ينكح أحدهما ويشتري الاُخرى فقد اختلف الصحابة فيه فقال عليّ عليه السلام وعمروابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عمر: لايجوز الجمع بينهما . والباقون جوّزوا ذلك .

أقول : والمنع صحيح بمقتضى ظاهر الآية لأنّ ظاهر الآية يقتضي التحريم على جميع الوجوه ولقوله صلى الله عليه وآله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايجمعنّ ماءه في رحم اُختين ، رواه أبوالسعود في تفسيره .

قوله تعالى : [إلّا ماقدسلف] استثناء منقطع أي لكن ماقد مضى لا تؤاخذون به قال أبوالسعود : لاسبيل إلى جعله متّصلاً وليس المراد أنّ ماسلف حال النهي يجوز استدامته بلاخلاف لأنّ قوله : [إنّ الله كان غفوراً رحيماً] يدلّ على المنع .

وقال عطاء والسدّي · معناه إلّا ماكان من يعقوب فإنّه قد جمع بين ليّا اُمّ يهودا وبين راحيل اُمّ يوسف ولا يساعده التعليل لأنّ مافعله يعقوب كان حلالاً في شريعته .

وقال ابن عبّاس : كان أهل الجاهليّة يحرّمون هذه الاُمور المذكورة إلّا امرأة الأب والجمع بين الاُختين وقد عقّب الله النهي على كلّ منهما بقوله : « إلّا ما قد سلف » .

واعلم أنّ كلّ ماحرّم الله في هذه الآية فإنّما هو على وجه التأبيد سواء كان مجتمعات أومتفرّقات إلّا الاُختين فإنّهما تحرّمان على وجه الجمع دون الانفراد .

قوله تعالى : والمحصنات من النساء الا ماملكت ايمانكم كتاب الله عليكم واحل لكم ماوراء ذلكم ان تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما (٢٤) .

[والمحصنات] بفتح العين قيل : أي وحرّمت عليكم النساء اللاتي اُحصنّ بالأزواج [إلّا ماملكت أيمانكم] من سبي من كان لها زوج عن عليّ عليه السلام وابن مسعود وابن عبّاس

ومكحول والزهري و استدل بعضهم على ذلك بخبر أبي سعيد الخدري أن الآية نزلت في سبي أوطاس(١) وأن المسلمين أصابوا نساء المشركين وكان لهن أزواج في دار الحرب فلما نزلت نادى منادي رسول الله ﷺ : ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن ولا غير الحبالى حتى يستبرئن بحيضة . ومن خالف فيه ضعف هذا الخبر بأن سبي أوطاس كانوا عبدة الأوثان ولم يدخلوا في الإسلام ولا تحل نكاح الوثنية ، وأجيب عن ذلك بأن الخبر محمول على ما بعد الإسلام .

قال أبو السعود : وقرىء «المحصنات» بصيغة الفاعل فإنهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن وقد ورد الإحصان في القرآن بإزاء أربعة معان : التزوج كما في هذه الآية الكريمة . الثاني : العفة كما في قوله « محصنين غير مسافحين » . الثالث : الحرية كما في قوله « ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات » و الرابع . الإسلام كقوله : « فإذا أحصن » أي أسلمن .

والمعنى الثاني في الآية أن المراد ذوات الأزواج [إلا ماملكت أيمانكم] فمن كان لها زوج لأن بيعها طلاقها ، عن أبي بن كعب وجابر بن عبدالله وأنس وابن المسيب و الحسن . وقال ابن عباس : طلاق الأمة تثبت بستة أشياء سبيها وبيعها وعتقها وهبتها و ميراثها وطلاق زوجها .

والقول الثالث في الآية أن المراد «بالمحصنات» العفائف «إلا ما ملكت أيمانكم» بالنكاح أو بالثمن ملك استمتاع بسبب المهر والنفقة أو ملك استخدام بالثمن ، عن سعيد بن جبير وأبي العالية وعطاء والسدي .

[كتاب الله عليكم] يعني كتب الله تحريم ما حرم و تحليل ما حلل عليكم كتاباً فلا تخالفوه وتمسكوا به .

قوله : [و أحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم] قيل : في معناه أربعة أقوال :

---

(١) هم بقية المشركين المنهزمين من حنين .

احدها : أُحلّ لكم ما وراء ذوات المحارم من أقاربكم ، عن عطاء .

وثانيها : أنّ معناه أُحلّ لكم مادون الخمس وهي الأربع فما دونها أن تبتغوا بأموالكم على وجه النكاح عن السدّيّ .

وثالثها : ماوراء ذلكم ممّا ملكت أيمانكم ، عن قتادة .

ورابعها : أُحلّ لكم ما وراء المذكورات من المحارم ، ومن الزيادة على الأربع وخرج منه بالسنّة ما في معنى المذكورات كسائر محرّمات الرضاع ومثل الجمع بين المرأة وعمّتها وخالتها بغير إذنها كما في الكافي عن الباقر عليه السلام في عدّة روايات .

[أن تبتغوا بأموالكم] و تصرفوا أموالكم في مهورهنّ أو أثمانهنّ [محصنين غير مسافحين] والمراد بالإحصان ههنا العقد والسفاح الزنى أي متزوّجين غير زانين أو معنى «الإحصان» العفّة أي أعفّة غير زناة .

قوله : [فما استمتعتم به] أي بالعقد [منهنّ فآتوهنّ أُجورهنّ فريضه] قيل :المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذّة ، عن الحسن ومجاهد وابن زيد . فيكون المعنى على هذا : فما استمتعتم و تلذّذتم من النساء بالنكاح فآتوهنّ مهورهنّ .

وقيل : المراد به نكاح المتعة وهو النكاح المنعقد بمهر معيّن إلى أجل معلوم ، عن ابن عبّاس والسدّيّ وجماعة من التابعين وهو مذهب أصحابنا الإماميّة ، وهو الصحيح الواضح لأنّ أصل الاستمتاع والتمتّع وإن كان واقعاً على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد المعيّن لاسيّما إذا اُضيف إلى النساء فيكون المعنى: فمتى عقدتم عليهنّ هذا العقد المسمّى متعة فآتوهنّ أُجورهنّ .

ويدلّ على ذلك أنّ الله علّق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضي أن يكون المراد والمعنيّ هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ لأنّ المهر لايجب إلّا به و قد علم أنّه لو طلّقها قبل الدخول لزمه نصف المهر ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد لأنّه قال تعالى : « فآتوهنّ أُجورهنّ » أي مهورهنّ ولا خلاف في أنّ ذلك غير واجب وإنّما يجب الاُجرة بكماله بنفس العقد في نكاح المتعة .

قال الفيض في الصافي : في الكافي عن الصادق عليه السلام : إنّما نزلت الآية «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى فآتوهن أُجورهنّ فريضة . والعيّاشيّ عن الباقر عليه السلام أنّه كان يقرؤها كذلك ، ورواية العامّة أيضاً عن جماعة من الصحابة منهم أُبيّ بن كعب وعبدالله بن عبّاس وعبدالله بن مسعود .

وفي هذه القراءة بأنّ المراد به عقد المتعة وقد أورد الثعلبيّ في تفسيره عن حبيب بن أبي ثابت قال : أعطاني ابن عبّاس مصحفاً فقال : هذا على قراءة أُبيّ فرأيت في المصحف: «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى» .

وبإسناده عن أبي نصرة قال : سألت ابن عبّاس عن المتعة فقال : أما تقرأ سورة النساء ؟ فقلت : بلى ، فقال : فما تقرأ «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى» قلت : لأقرؤها هكذا قال ابن عبّاس : هكذا والله أنزلها الله تعالى ، قالها ثلاث مرّات .

و بإسناده عن سعيد بن جبير أنّه قرأ « فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى » .

وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عتبة قال : سألت عليّاً عن هذه الآية : «فما استمتعتم به منهنّ» أمنسوخة ؟ قال عليّ : لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلّا شقيّ و روي « إلّا شفيّ» بالفاء يعني إلّا قليل .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : المتعة نزلت بها القرآن وجرت بها السنّة عن رسول الله وكان نهى عمر عنها تارةً يقول : متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا محرّمهما و معاقب عليهما : متعة الحجّ ومتعة النساء ، واُخرى بقوله : ثلاث كنّ في عهد رسول الله أنا محرّمهنّ متعة الحجّ ومتعة النساء و«حيّ على خير العمل» في الأذان .

قال الفيض : وفيه ـ أي الكافي ـ جاء عمر الليثيّ إلى أبي جعفر عليه السلام قال : يا أبا جعفر ما تقول في متعة النساء ؟ فقال عليه السلام : أحلّها الله في كتابه و على لسان رسوله فهي حلال إلى يوم القيامة ، فقال : يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرّمها عمر و نهى عنها ؟ فقال عليه السلام : وإن كان فعل ، قال : فإنّي أُعيذك بالله عن ذلك أن تحلّ شيئاً حرّمه عمر

فقال له عليه السلام : فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله فهلمّ اُلاعنك [١] أنّ القول ما قال رسول الله وأنّ الباطل ما قال صاحبك ، فأقبل عبدالله عمر فقال : أيسرّك أنّ نساءك وبناتك وأخواتك وبنات عمّك يفعلن ذلك ، قال : فأعرض عنه أبوجعفر عليه السلام حين ذكر نساءه وبنات عمّه .

وفيه : سأل أبوحنيفة أبا جعفر فقال : يا أبا جعفر ما تقول في المتعة ؟ فقال عليه السلام : إنّها حلال ، قال : فما يمنعك أن تأمر نساءك أن يستمتعن ؟ فقال أبوجعفر عليه السلام : ليس كلّ الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالاً وللناس أقدار و مراتب يعرفون أقدارهم ولكن ما تقول يا باحنيفة في النبيذ أتزعم أنّه حلال ؟ قال : نعم ، قال : فما يمنعك أن تقعد نساءك في الحوانيت نبّاذات فيكسبن عليك ؟ فقال أبو حنيفة : واحدة بواحدة .

ثمّ قال له : يا باجعفر إنّ الآية الّتي في «سأل سائل» نطق بتحريم المتعة والرواية عن النبيّ جاءك بنسخها ، فقال له : أبوجعفر يا با حنيفة سورة « سأل سائل » مكّيّة و آية المتعة مدنيّة وردّ منك رديئة شاذّة ، فقال أبوحنيفة : وآية المواريث إنّه تنطق بنسخ المتعة ، فقال له أبو جعفر : قد ثبت النكاح بغير ميراث ، فقال أبوحنيفة : من أين قلت ذلك ؟ فقال الباقر عليه السلام : لو أنّ رجلاً من المسلمين تزوّج بامرأة من أهل الكتاب ثمّ توفّي عنها ما تقول فيها ؟ قال : لاترث عنه ، قال : فقد ثبت النكاح بغير ميراث ثمّ افترقا .

قوله [و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة] فمن قال : إنّ المراد بالاستمتاع الانتفاع والجماع كما عليه العامّة قال : المراد به : لاحرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر أونقصانه أوحطّ أو إبراء أوتأخير وقال : معناه : لاجناح عليكم فيما تراضيتم به من استيناف عقد آخر بعد انقضاء مدّة الأجل المضروب في عقد المتعة يزيدها الرجل في الأجر ويزيده المرأة في المدّة .

وهذا القول مطابق لقول الإماميّة و تظاهرت به الروايات عن أئمّتهم المعصومين كما في الكافي والعيّاشي عن الباقر عليه السلام قال : لا بأس بأن تزيدها و تزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما ولا تحلّ لغيرك حتّى تنقضي عدّتها ، وعدّتها حيضتان .

---

(١) من الملاعنة .

[إنّ الله كان عليماً حكيماً] عليم بما يصلح أمر الخلق حكيم فيما فرض لهم من الأمور الّتي تحفظ الأموال والأنساب .

قوله تعالى : ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات والله اعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن اهلهن و آتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات و لا متخذات اخدان فاذا احصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت و ان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥) .

قرأ الكسائيّ «المحصنات» بكسر الصاد وكذلك «محصنات غير مسافحات» وكذلك «فعليهنّ نصف ما على المحصنات» كلّها بكسر الصاد و الباقون بالفتح ، فالفتح معناه ذوات الأزواج ، والكسر معناه العفائف و الحرائر .

المعنى : أي من لم يجد منكم غنى أن يتزوّج الحرائر من المهر والنفقة [فممّا ملكت أيمانكم] فلينكح ممّا ملكت أيمانكم [من فتياتكم المؤمنات] أي إمائكم فإنّ مهور الإماء أقلّ ومؤونتهنّ أخفّ في العادة والمراد به إماء الغير لأنّه لايجوز أن يتزوّج الرجل بأمة نفسه بالإجماع .

وفي الآية دلالة على أنّه لايجوز نكاح الأمة الكتابيّة لأنّه تعالى قيّد جواز العقد عليهنّ بالإيمان ، وهذا مذهب مالك والشافعيّ ، في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الرجل يتزوّج الأمة قال : لا إلّا أن يضطرّ إليه . وعن الصادق عليه السلام لاينبغي أن يتزوّج المملوكة اليوم إنّما كان ذلك حيث قال الله : « ومن لم يستطع منكم طولاً » والطول المهر ومهر الحرّة اليوم مهر الأمة . وعنه : يتزوّج الحرّة على الأمة ولا يتزوّج الأمة على الحرّة ونكاح الأمة على الحرّة باطل وإن اجتمعت عندك حرّة و أمة فللحرّة يومان و للأمة يوم ولايجوز نكاح الأمة إلّا بإذن مولاها .

[والله أعلم بإيمانكم] أراد سبحانه بيان أنّه إنّكم محكومون بالظاهر في هذا الحكم مالم يكن لكم علم بخلافه إذ لاسبيل إلى الوقوف على حقيقة الإيمان لأنّه سبحانه

المتفرّد بعلم ذلك وأنّه العالم بالسرائر .

قوله : [بعضكم من بعض] فيه قولان : أحدهما أنّ المراد كلّكم ولد آدم فلاتستنكفوا من نكاح الإماء فإنّهنّ من جنسكم كالحرائر . والآخر أنّ معناه كلّكم على الإيمان ودينكم واحد فلا ينبغي أن يعيّر بعضكم بعضاً بالهجنة . نهى الله عن عادة الجاهليّة في التعيير بالإماء .

[فانكحوهنّ] أي، تزوّجوا الإماء المؤمنات [بإذن] ساداتهنّ ومواليهنّ فلايجوز نكاح الأمة بغير إذن مالكها .

[وآتوهنّ اُجورهنّ] أي اُعطوا مالكهنّ مهورهنّ [بالمعروف] وبما لاينكره الشرع وهو ما يرضى به الأهلون ووقع عليه العقد من غير مطل[1] وضرار .

[محصنات غير مسافحات] حال من مفعول « فانكحوهنّ » أي حال كونهنّ عفائف عن الزناء « غير مسافحات » حال مؤكّد لمعنى العفّة أي غير الزواني [و لا متّخذات أخدان] عطف على « مسافحات» و الخدن الصاحب و الصديق و المراد : لايكن متّخذات أصدقاء على الفاحشة وأخلّاء في السرّ؛ روي عن ابن عبّاس أنّه قال : كان في الجاهليّة يحرّمون ماظهر من الزنى ويستحلّون ماخفي منه فنهى الله عن الزنى سرّاً وجهراً .

[فإذا اُحصنّ] من قرأ بضمّ الهمزة بمعنى تزوّجن ومن قرأ «أحصن» بفتح الهمزة أي أسلمن عن ابن مسعود وعمرو والشعبيّ وجماعة . وقال الحسن : تحصينها الزوج وتحصّنها الإسلام أي فإذا اُحصنّ بالتزويج .

[فإن أتين بفاحشة] وهي الزنا فعليهنّ بعد الثبوت [نصف ما على] الحرائر [من العذاب] أي الحدّ الّذي هو جلد مائة فعليها خمسون جلدة ، والمراد عدم تفاوت حدّهنّ بالإحصان وغير الإحصان ليس فيه التفاوت وليس حكمهنّ حكم الحرائر ولارجم عليهنّ لأنّ الرجم لاينتصف وكذلك العبد ، وفي الكافي عن الصادق والباقر عليهما السلام في الأمة تزني قال : تجلد نصف حدّ الحرّة كان لها زوج أولم يكن لها زوج .

[ذلك لمن خشي العنت منكم] « ذلك » إشارة إلى نكاح الإماء لمن خاف الإثم

(١) المطل : التسامح .

الّذي يؤدّي إليه علّة الشهوة وهو الزنى . والعنت في الأصل انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكلّ مشقّة عظيمة والزنى سبب المشقّة فالحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة .

[وأن تصبروا خير لكم] أي وصبركم عن نكاح الإماء حال كونكم متعفّفين خير لكم من نكاحهنّ و إن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرقّ ولأنّ حقّ المولى فيها فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأنّ المولى يستخدمها في السفر والحضر ولأنّها ممتهنة مبتذلة خرّاجة ولّاجة وذلك كلّه ذلّ ومهانة سارية إلى الناكح . ومهرها لمولاها فلا يقدر المتمتّع من المهر . في الحديث : الحرائر صلاح البيت و الإماء هلاك البيت .

[والله غفور] لذنوب عباده [رحيم] بهم . واستدلّت الخوارج بهذه الآية على بطلان الرجم قالوا : إنّ الرجم لا يمكن تبعيضه وقد قال سبحانه : «فعليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب» فعلمنا أنّ الرجم لا أصل له .

والجواب عن ذلك إذا كان المحصنات المراد بها الحرائر سقط هذا القول ، والرجم أجمعت الأمّة على أنّه من أحكام الشرع و تواتر المسلمون بأنّ النبيّ ﷺ رجم ماعز ابن مالك الأسلميّ ورجم يهوديّاً ويهوديّة ولم يختلف فيه الفقهاء من عهد الصحابة إلى يومنا هذا فخلاف الخوارج في ذلك خلاف الإجماع فلا يعتدّ به .

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) و الله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاعظيماً (٢٧) يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً (٢٨) .

أي يريد سبحانه [أن يبيّن لكم] ما خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم . واللام في «ليبيّن» مزيدة للتأكيد لمعنى الاستقبال اللازم للإرادة [ويهديكم] أي يدلّكم على مناهج من تقدّمكم من الصالحين لتقتدوا بهم [و يتوب عليكم] أي يرجع بكم عن معصيته إلى طاعته بالتوفيق للتوبة ممّا كنتم عليه من الخلاف .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة لأنه بيّن تعالى أنّه لا يريد إلّا الخير والصلاح .

[والله عليم حكيم] مرّ تفسيره [والله يريد أن يتوب عليكم] ويقوّي دواعيكم إلى

التوبة ويلطف في توبتكم إن وقع منكم . وهذا بيان لكمال ما أراده الله و كمال مضرّة ما يريد الفجرة بخلاف الأوّل فإنّه بيان إرادته تعالى لتوبته عليهم فلاتكرار .

[ويريد الّذين يتّبعون الشهوات] يعني الفجرة ، و قيل : يعني المجوس حيث كانوا يحلّون الأخوات من الأب و بنات الأخ وبنات الاُخت فلمّا حرّمهنّ الله قالوا : فإنّكم يحلّون بنت العمّة مع أنّ العمّة و الخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ و الاُخت فنزلت هذه الآية ، أوالمراد أنّهم اليهود خاصّة إذ قالوا : إنّ الاُخت من الأب حلال في التوراة ، والأقرب أنّ المراد بذلك جميع المبطلين .

[أن تميلوا ميلاً عظيماً] تعدلوا عن الاستقامة ، والعاصي يأنس بالعاصي و يألف به ويسكن الشكل بالشكل كما يأنس المطيع بالمطيع وعلى هذا جبلت القلوب .

[يريد الله أن يخفّف عنكم] في أمر النساء بإباحة نكاح الإماء ، أوالمعنى يريد سبحانه التخفيف بسبب قبول التوبة ، أوالمراد التخفيف على العموم وذلك أنّه خفّف عن هذه الاُمّة مالم يخفّف عن غيرها من الاُمم الماضية .

[وخلق الإنسان ضعيفاً] عاجزاً عن مخالفة هواه حيث لا يصبر عن اتّباع الشهوات ولا يستخدم هواه في مشاقّ الطاعات . قال الكلبيّ : أي لا يصبر عن النساء .

يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما (٢٩) ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) .

قرىء «تجارة» بالرفع فتقديره : إلّا أن تقع تجارة فحينئذ الاستثناء منقطع لأنّ التجارة عن تراض ليس من أفراد أكل المال بالباطل ، و من قرأ بنصب «تجارة» أي إلّا أن تكون التجارة تجارة عن تراض مثل قول الشاعر : «إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا» أي إذا كان اليوم يوماً ، أوالتقدير إلّا أن تكون الأموال تجارة .

ولمّا بيّن سبحانه تحريم النساء و تحليلهنّ على الوجه المشروحة عقّبه بتحريم الأموال وتحليلها في الآية فقال : [يا أيّها الّذين آمنوا] وصدّقوا الله و رسوله [لاتأكلوا أموالكم] ذكر الأكل وأراد سائر التصرّفات وإنّما خصّ الأكل لأنّه معظم المنافع

[بالباطل] أي بوجه غيرشرعي وبغير استحقاق كالغصب والسرقة والخيانة والربا و الرشوة واليمين الكاذبة وشهادة الزور والعقود الفاسده وما أشبهها .

[إلّاأن تكون تجارة عن تراض منكم] أي إلّا أن تكون التجارة تجارة يرضى كلّ واحد منكما بذلك على الوجه الّذي وردت الرخصة به من أسباب الملك كالهبة والصدقة و البيع وهذا التراضي يكون يقع للمتبايعين وقت الإيجاب والقبول .

[ولاتقتلواأنفسكم]أي لايقتل بعضكم لأنّكم بعضاًأهل دين واحدوأنتم كنفس واحدة . وقيل : المراد أنّه نهى سبحانه أن يقتل الإنسان نفسه في حال غضب أوضجر عن أبي القاسم البلخيّ . وقيل : معناه : لاتقتلواأنفسكم بأن تهلكوها بارتكاب الآثام في أكل المال بالباطل وغيره من المعاصي الّتي تستحقّون بهاالعذاب والهلاك . والقول الرابع : ماروي عن الصادق عليه السلام أنّ المعنى لاتخاطروابنفوسكم في القتال فتقاتلوا من لاتطيقونه .

[إنّ الله كان بكم رحيماً] أي لم يزل تعالى وكان من رحمته أن حرّم عليكم إفساد المال وقتل الأنفس .

[ومن يفعل ذلك] قيل : إنّ «ذلك» إشارة إلى أكل الأموال بالباطل وقتل النفس بغيرحقّ . وقيل : إشارة إلى المحرّمات في هذه السورة . وقيل : من قوله : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتحلّ لكم أن ترثواالنساء كرهاً» . وقيل : إشارة إلى قتل النفس المحرّمة خاصّة ، عن عطاء .

[عدواناً وظلماً] قيل : هما واحد وأتى بهما لاختلاف اللفظين مثل قول الشاعر : « وألفى قولها كذباً وميناً » وقيل : « العدوان» التعدّي على الغير ، و«بالظلم» الظلم على النفس لتعريضها للعقاب أي متعدّياً وظالماً .

[فسوف نصليه] أي عن قريب ندخله ونلازمه [ناراً] هائلة [وكان ذلك] أي إصلاء النار [على الله يسيراً] لتحقّق الدواعي وعدم الصارف لأنّ الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله على السويّة فحينئذ يمتنع أن يقال : إنّ بعض الأفعال أيسر على الله من بعض .

وهذا الكلام نزل على القول المتعارف بيننا ومعناه المبالغة في التهديد فالإنسان لابدّ و أن يجتنب عن الوقوع في المهالك ويبالغ في حفظ الحقوق ، وقدجمع الله في التوصية بين حفظ

النفس وحفظ المال لأنّه شقيقها من حيث إنّه سبب لقوامها و إن وفّقت للمال فاشكر له و إلّا فلا تتعب نفسك ولا تقتلها كما يفعل بعض الجهّال .

قال رسول الله ﷺ : من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذّب به يوم القيامة وقال ﷺ: كان فيمن قبلكم جرح برجل فجزع منه فأخرج سكّيناً فجزّ بها يده فما رقأ الدم حتّى مات فقال الله تعالى : بارزني عبدي بنفسه فحرّمت عليه الجنّة . و كذلك حكم من قتل نفسه لفقر أو غيره وحرمة مال المسلم كحرمة دمه .

قال ﷺ : كلّ المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ولا يحلّ مال امرىء مسلم إلّا بطيبة نفس منه . فالظلم حرامٌ شرعاً وعقلاً ولذلك وكان لبعض أجلاّء السلف دقّة عظيمة واهتمام تامّ في هذا الباب .

حكي أنّ بعض الملوك أهدى إلى شيخ ركن الدين غزالاً (والّذي بعثه أظنّه علاء الدولة) وقال للشيخ : إنّها حلال و كل منها فإنّي رميتها بسهم عملته بيدي على فرس ورثتها عن أبي ، فقال الشيخ له : إنّه خطر ببالي أنّ واحداً من الاُمراء جاء إلى اُستاذي باوزّتين (١) وقال له : كل منهما فإنّي قد أخذتهما ببازي فقال : ليس الكلام في الاوزّتين وإنّما الكلام في قوت البازي من دجاجة أيّة عجوز أكل حتّى قوي على الاصطياد فالغزال الّتي رميتها على فرسك وإن كان من الصيد لكن قوت الفرس من شعير أيّ مظلوم حصل فلم يأكل منها .

قوله تعالى : ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم و ندخلكم مدخلا كريماً (٣١) .

لمّا قدّم ذكر السيّئات عقّبه بالترغيب في اجتنابها فقال :

[إن تجتنبوا] أي تتركوا جانباً [كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم] اختلف في معنى الكبيرة ؛ قيل : كلّ ما أوعد الله عليه عقاباً وأوجب عليه حدّاً فهو كبيرة . وقيل : كلّ مانهى الله عنه فهو كبيرة ، عن ابن عبّاس . قال الطبرسيّ : وإلى هذا ذهب أصحابنا فإنّهم قالوا : المعاصي كلّها كبيرة من حيث كانت قبائح لكن بعضها أكبر من

---

(١) طائر مائي .

بعض وليس في الذنوب صغيرة وإنّما تكون بالإضافة إلى ماهو أكبر منه ويستحقّ العقاب عليه أكثر .

و روى الكلبيّ عن ابن عبّاس : إن تجتنبوا الذنوب الّتي أوجب الله فيها الحدّ وأوعد عليها النار نكفّر عنكم ما سوى ذلك من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة ومن رمضان إلى رمضان .

[وندخلكم مدخلاً كريما] «مدخلاً» بضمّ الميم اسم مكان هو الجنّة حسناً مرضيّاً قال أنس بن مالك : إنّكم تعملون ليوم هي في أعينكم أدقّ من الشعر كنّا نعدّها على رسول الله من الكبائر .

قال القشيريّ : الكبائر على لسان أهل الإشارة الشرك الخفيّ مطلقاً ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق واستجلاب قلوبهم والتوقّد إليهم والإغماض عن حقّ الله بعينهم .

وجملة الكبائر مندرجة في ثلاثة أشياء : **أحدها** اتّباع الهوى وهو ميلان النفس إلى ما يستلذّ به من الشهوات فقد يقع الإنسان بسببه في جملة الكبائر مثل البدعة والضلالة والشبهة وبحظوظ النفس من ترك الصلاة لأجل الراحة والطاعات وعقوق الوالدين وقذف المحصنات وقطع الرحم وأمثال ذلك ولهذا قال سبحانه : « ولاتتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله (١) » قال النبيّ صلى الله عليه وآله : ماعبد إله أبغض على الله من الهوى .

وثانيها : حبّ الدنيا فإنّه مطيّة كثير من الكبائر مثل القتل والنهب والغصب والظلم والسرقة وأكل مال اليتيم ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمانها واليمين الفاجرة والجنف في الوصيّة واستحلال الحرام وأمثالها ولهذا قال سبحانه : « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب (٢) » كما قال صلى الله عليه وآله : حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة ، وعنه صلى الله عليه وآله : أتاني جبرئيل عليه السلام وقال : إنّ الله عزّ وجلّ قال : وعزّتي وجلالي إنّه ليس من الكبائر هي أعظم عندي من حبّ الدنيا .

وثالثها رؤية الغير فإنّ منها ينشأ الشرك و النفاق والرياء قال صلى الله عليه وآله : اليسير من الرياء شرك .

(١) ص : ٢٦ . (٢) الشورى : ٢٠ .

قال الطبرسي في المجمع : روى عبدالعظيم بن عبدالله الحسني عن أبي جعفر محمد بن علي عن موسى بن جعفر عليه السلام قال : دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلما سلم وجلس تلا هذه الآية «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش (١)» ثم أمسك فقال أبوعبدالله : ما أسكتك ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله قال : نعم ياعمرو :

أكبر الكبائر الشرك بالله لقول الله عز وجل : « إن الله لايغفر أن يشرك به ، الآية (٢) » وقال تعالى : « ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار (٣) » .

وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول : « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (٤) » .

ثم الأمن من مكر الله لأن الله يقول : «ولايأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون (٥) » .

ومنها عقوق الوالدين لأن الله جعل العاق جباراً شقياً في قوله : « ولم يجعلني جباراً شقياً (٦) » .

ومنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأنه يقول : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها (٧) » .

وقذف المحصنات لأن الله يقول : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (٧) » .

وأكل مال اليتيم ظلماً لقوله تعالى : « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً (٨) » .

والفرار من الزحف لأن الله يقول : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال

---

(١) الشورى : ٣٧ . (٢) السورة : ٤٨ ، ١١٥ .
(٣) المائدة : ٧٢ . (٤) يوسف : ٨٧ .
(٥) الاعراف : ٩٨ . (٦) مريم : ٣٢ .
(٧) السورة : ٩٢ . (٨) النور : ٢٣ .
(٩) « « : ٩

أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (١) » .

وأكل الرباء لأن الله يقول : « إن الذين يأكلون الربى لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » (٢) ويقول سبحانه « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله (٣) » .

والسحر لأن الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق (٤) »

والزنى لأن الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٥) » .

واليمين الغموس (٦) لأن الله يقول : « الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة (٧) » .

والغلول (٨) قال الله : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة (٩) » .

ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم (١٠) » .

وشهادة الزور وكتمان الشهادة لأن الله يقول : ومن يكتمها فإنه آثم قلبه (١١) » .

وشرب الخمر لأنها « رجس من عمل الشيطان» (١٢) .

وترك الصلاة متعمداً لأن رسول الله ﷺ قال : من ترك الصلاة متعمداً فقد برأ من ذمة الله وذمة رسوله .

ونقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول : « أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار (١٣) » .

---

(١) الانفال : ١٦ .
(٢) البقرة : ٢٧٥ .
(٣) البقرة : ٢٧٩ .
(٤) البقرة : ١٠٢ .
(٥) الفرقان : ٦٨ .
(٦) اليمين الكاذبة التى يتعمدها صاحبها .
(٧) آل عمران : ٧٧ .
(٨) الغل : الخيانة .
(٩) آل عمران : ١٦١ .
(١٠) التوبة : ٣٦ .
(١١) البقرة : ٢٨٣ .
(١٢) المائدة : ٩٣ .
(١٣) الرعد : ٢٧ .

قال : فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم .

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : أعظم الكبائر سبع : الإشراك بالله وقتل النفس المؤمنة وأكل الرباء وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وعقوق الوالدين والفرار من الزحف فمن لقى الله وهو بريءٌ منهنّ كان معي في بحبوحة جنّة مصاريعها من ذهب .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه سأله رجلٌ كم الكبائر سبع هي ؟ قال ابن عبّاس : هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنّه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ، رواهما الواحديّ في تفسيره بالإسناد مرفوعاً .

قوله تعالى : ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا و للنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما (٣٢) .

النزول : قيل : أتت وافدة النساء إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله أليس الله ربّ الرجال والنساء وأنت رسول الله إليهم جميعاً فما بالنا يذكر الله الرجال ولا يذكرنا ؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة فنزلت الآية .

وقيل : إنّ أُمّ سلمة قالت : يارسول الله يغزو الرجال ولا تغزو النساء ولنا نصف الميراث فليتنا رجال فنغزو و نبلغ ما يبلغ الرجال ، فنزلت الآية .

وقيل : لمّا نزلت آية المواريث قال الرجال : نرجو أن نفضّل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضّلنا عليهنّ في الدنيا فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء . وقالت النساء : إنّا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف عن نصيبهم في الدنيا ، فنزلت الآية عن قتادة و السدّيّ .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه حكم الميراث وفضّل بعضهم على بعض في ذلك منعهم عن التمنّي الّذي هو سبب التباغض أي لا يقل أحدكم : ليت ما أُعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان لي فإنّ ذلك يكون حسداً ويوجب الكدورة ولكن يجوز أن يقول : اللّهم أعطني مثله ، عن ابن عبّاس وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام .

وقيل : إنّ المعنى لايجوز للرجل أن يتمنّى أن لوكان امرأةً ولاللمرأةأن يتمنّى أن لوكانت رجلاً ؛ لأنّ الله لايفعل إلّا ما هوالأصلح فيكون قدتمنّى ماليس بأصلح .

[للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن] قيل : معناه إنّ لكلّ فريق من الرجال والنساء نصيباً من أنواع نعيم الدنيا من الفوائد والتجارات والزراعات و غير ذلك من أنواع المكاسب فينبغي أن يقنع كلّ منهم و يرضى بما قسّم الله له . وقيل : إنّ المعنى لكلّ حظّ من الثواب على حسب ما كلّفه الله من الطاعات . وقيل : المعنى لكلّ منهما نصيب من الميراث على ماقسّمه الله ، عن ابن عبّاس . فعلى هذا القول « الاكتساب » بمعنى الإصابة والإحراز .

[و اسألوا الله من فضله] أي إن أعجبكم أن يكون لكم مثل مالغيركم فاسألوا الله أن يعطيكم مثل ذلك من فضله بشرط أن لايكون فيه مفسدة لكم ولا لغيركم لأنّ المسألة لا يجاب إلّا كذلك ؛ في الحديث عن ابن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : سلوا الله من فضله فإنّه تعالى يحبّ أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج . وقال سفيان بن عيينة : لم يأمر سبحانه بالمسألة إلّا ليعطي .

[إنّ الله كان بكلّ شيء عليماً] فيعلم ما تظهرون وما تضمرونه من التمنّي والحسد .

قوله تعالى : ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم ان الله كان على كل شيء شهيد (٣٣) .

أصل الموالي من ولي الشيء يليه ولايةً و « المولى » يقع على المعتِق والمعتَق وابن العمّ والورثة والحليف والسيّد المطاع والأولى بالشيء وهو الأصل في معنى الجميع لأنّ ابن العمّ أولى بنصرة ابن عمّه لقرابته والورثة أولى بميراث الميّت من غيرهم والحليف أولى بأمر محالفه للمحالفة الّتي جرت بينهما والوليّ أولى بنصرة من يواليه والسيّد أولى بتدبير من يسود من غيره .

معنى الآية : [ولكلّ] واحد من الرجال والنساء [جعلنا موالي] أي ورثة هم أولى بميراثه ، وقيل : أي عصبة . والأوّل أصحّ لقوله تعالى : « فهب لي من لدنك وليّاً

يرثني [1] » فجعله مولىً لما يرث ووليّاً له لما كان أولى به من غيره وما لكاً له كما يقال : لمالك العبد : مولاه [ممّا ترك الوالدان] أي أصحاب الفرائض يرثون ماترك الأبوان و الأقارب .

[والّذين عقدت أيمانكم] قال الجبّائيّ : معنى الآية أي ويرثون ممّا ترك الّذين عقدت أيمانكم . وقرىء « عاقدت » وقال الرازيّ : الاختيار « عاقدت » لدلالة المفاعلة على عقد الحلف .

والحاصل أنّ الآية على ما اختاره الجبّائيّ معناه أنّ الورثة يرثون ممّا ترك الّذين عقدت أيمانكم ؛ لأنّ طبقة الورثة هم أولى بميراثهم فيكون قوله : «والّذين عقدت » عطفاً على قوله : « الوالدان والأقربون» وقال : الحليف لم يؤمر له بشيء أصلاً ، فحاصل الكلام أنّ ماترك الّذين عقدت أيمانكم فله وارث هو أولى به .

لكن قال أكثر المفسّرين : إنّ قوله : «والّذين عقدت أيمانكم» مقطوع من الأوّل فكأنّه قال سبحانه : و الّذين عقدت أيمانكم أيضاً فآتوهم نصيبهم . ثمّ اختلفوا فيه على أقوال : أحدها أنّ المراد بهم الحلفاء وقالوا : إنّ الرجل في الجاهليّة كان يعاقد الرجل فيقول : دمي دمك وحربي حربك وسلمي سلمك وترثني وأرثك وتعقل عنّي وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف .

[فآتوهم نصيبهم] أي أعطوهم حظّهم من الميراث ثمّ نسخ ذلك بقوله : « و أُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض [2] » وقيل : معنى قوله : « نصيبهم» من النصر والعقل والرفد وليس المراد « الميراث » و على هذا القول : فالآية تكون غير منسوخة و يؤيّده قوله : « أوفوا بالعقود » .

وقيل : إنّ المراد بهم قوم آخا بينهم رسول الله من المهاجرين والأنصار حتّى قدموا المدينة كانوا يتوارثون بتلك المواخاة ثمّ نسخ الله ذلك بالفرائض ، عن ابن عبّاس وابن زيد .

---

(١) مريم : ٥ .

(٢) الانفال : ٧٥ .

وقيل : إنّهم الّذين كانوا يتبنّون أبناء غيرهم في الجاهليّة ومنهم زيد مولى رسول الله فأُمروا في الإسلام أن يوصوا لهم عند الموت بوصيّة شيء فذلك قوله : « فآتوهم نصيبهم» عن سعيد بن المسيّب .

[إنّ الله كان على كلّ شيء شهيداً] لم يزل عالماً بالأشياء جليّها وخفيها .

الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان علياً كبيراً (٣٤) .

[الرجال] قائمون بالأمر والنهي بالمصالح وعن الفضائح قيام الولاة على الرعيّة مسلّطون على تأديبهنّ وعلّل ذلك بأمرين : وهبيّ و كسبيّ فقال : [بما فضّل الله] بسبب تفضيله سبحانه الرجال على النساء بالحزم و القوّة والرمي والحماسة والسماحة والنيل ببعض السعادات الدينيّة [وبما أنفقوا من أموالهم] وبسبب إنفاقهم من أموالهم في نكاحهنّ وفي نفقاتهنّ .

في المجمع : قال مقاتل : نزلت الآية في سعد بن الربيع بن عمرو وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي وقّاص وهما من الأنصار وذلك أنّها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبيّ فقال : أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبيّ ﷺ : لتقتصّ من زوجها فانصرفت فقال النبيّ ﷺ : ارجعوا هذا جبرئيل أتاني وأنزل الله هذه الآية فقال النبيّ ﷺ : أردنا أمراً وأراد الله أمراً والّذي أراد الله خير، ورفع القصاص .

وقال الكلبيّ : نزلت في أسعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمّد بن مسلمة وذكر القصّة نحوها .

[فالصالحات قانتات] أي مطيعات ومقيمات لطاعة الله وطاعة أزواجهنّ، والقنوت دوام الطاعة ومنه القنوت في الوتر لطول القيام فيه، ومنه قوله سبحانه : «يا مريم اقنتي لربّك[1]» أي أقيمي على طاعته [حافظات للغيب] أي لأنفسهنّ وفروجهنّ وأموال أزواجهنّ في حال غيبتهم راعيات لحقوقهم .

---

(١) آل عمران : ٤٣ .

[بما حفظ الله] ما مصدريّة أي بالأمر بحفظ الغيب ، أو موصولة أي بالّذي حفظ الله لهنّ عليهم من المهر والنفقة والقيام بأُمورهنّ والذبّ عنهنّ ؛ قال النبيّ ﷺ : خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك ، وتلا الآية .

وقوله : [واللاتي تخافون نشوزهنّ] خطاب للأزواج وإرشادٌ لهم إلى طريق القيام عليهنّ ، والخوف حالة تحصل في القلب عندحدوث مكروه ظنّاً أو علماً بحدوثه أي النساء اللاتي تظنّون عصيانهنّ وترفّعهنّ عن مطاوعتكم أوعلمتم نشوزهنّ .

[فعظوهنّ] وانصحوهنّ بالترغيب والترهيب ، والعظة كلام يلين القلوب القاسية و يرغّب الطبائع النافرة بتذكير العواقب .

[و اهجروهنّ] بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والمراد من الهجرة الترك عن قلى [في المضاجع] أي في المراقد فلا تدخلوهنّ تحت اللحف ولا تباشروهنّ . و المضاجع جمع مضجع وهو موضع وضع الجنب للنوم .

[واضربوهنّ] إن لم ينفع الهجران ضرباً غير مبرّح ولاشائن ولاكاسر ولاخادش فالأُمور الثلاثة من الوعظ والهجرو الضرب مترتّبة ينبغي أن يدرّج فيها .

[فإن أطعنكم] بذلك [فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً] بالتوبيخ والأذيّة ، وأزيلوا عنهنّ التعرّض واجعلوا ماكان منهنّ كأن لم يكن [إنّ الله كان عليّاً] أعلى قدرةً منكم عليهنّ [كبيراً] أي أعظم حكماً منكم عليهنّ ، واعفوا عنهنّ إذا رجعن لأنّكم تعصونه على علوّ شأنه ثمّ تتوبون فيتوب عليكم .

في روح البيان : قال النبيّ ﷺ ـ مخاطباً لعائشة ـ : أيّما امرأة تؤذي زوجها بلسانها إلّا جعل الله لسانها يوم القيامة سبعين ذراعاً ثمّ عقد خلف عنقها .

ياعائشة وأيّما امرأة تصلّي لربّها وتدعو لنفسها ثمّ تدعو لزوجها إلّا ضرب بصلاتها وجهها حتّى تدعو لزوجها ثمّ تدعو لنفسها .

ياعائشة وأيّما امرأة جزعت على ميّتها فوق ثلاثة أيّام أحبط الله عملها .

ياعائشة وأيّما امرأة أصابتها مصيبة فلطمت وجهها ومزّقت ثيابها إلّا كانت مع امرأة

لوط ونوح في النار وكانت آيسة من كلّ خير و كل شفاعة شافع يوم القيامة .

ياعائشة وأيّما امرأة خرجت من بينها بغير إذن بعلها إلّا لعنها الله ولعنها كلّ رطب ويابس حتّى ترجع فإذا رجعت إلى منزلها كانت في غضب الله ومقته إلى الغد من ساعته فإن ماتت من وقتها كانت من أهل النار .

ياعائشة اجتهدي ثمّ اجتهدي فإنّكنّ صواحبات يوسف ومخرجات آدم من الجنّة وعاصيات نوح ولوط ، يا عائشة مازال جبرئيل يوصيني في أمر النساء حتّى ظننت أنّه سيحرم طلاقهنّ ياعائشة أنا خصم كلّ امرأة يطلّقها زوجها .

ثمّ قال : ياعائشة ومامن امرأة تحبل من زوجها حين تحبل إلّا ولها مثل أجر الصائم بالنهار والقائم بالليل الغازي في سبيل الله .

ياعائشة مامن امرأة أتاها الطلق إلّا ولها بكلّ طلقة عتق نسمة وبكلّ رضعة عتق رقبة .

يا عائشة أيّما امرأة خفّفت عن زوجها من مهرها إلّا كان لها من العمل حجّة مبرورة وعمرة متقبّلة وغفر لها ذنوبها كلّها حديثها وقديمها سرّها وعلانيتها عمدها وخطأها أوّلها وآخرها .

ياعائشة المرأة إذا كان لها زوج فصبرت على أذى زوجها فهي كالمتشحّطة في دمها في سبيل الله وكانت من القانتات المسلمات المؤمنات التائبات . والحديث طويل .

قوله تعالى : وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا (٣٥) .

لمّا قدّم الله الحكم عند مخالفة أحد الزوجين صاحبه عقّبه بذكر الحكم عند صعوبة الأمر في المخالفة [و إن خفتم] أي وإن خشيتم مخالفة شديدة وعداوة بين الزوجين فوجّهوا حكماً من قوم الزوج وحكماً من قوم المرأة لينظرا في ما بينهما ، والحكم القيّم بما يسند إليه .

واختلف في المخاطب بإنفاذ الحكمين من هو ؟ فقيل : هو السلطان الّذي يترافعان الزوجان إليه ، عن سعيد بن جبير وأكثر الفقهاء وهو الظاهر في الأخبار عن الصادق عليه السلام .

وقيل : المخاطب عموم المؤمنين . وقيل : إنّه الزوجان وأهل الزوجين .

واختلفوا أيضاً في أنّ الحكمين هل لهما أن يفرّقا بالطلاق إن رأياه أم لا ؟ فالّذي رواه أصحابنا أنّه ليس لهما ذلك إلّا بعد أن يستأمراهما ويرضيا بذلك . وقيل : إنّ لهما ذلك ، عن سعيد بن جبير والسدّي والشعبيّ ورووه عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام . ومن ذهب إلى هذا القول قال : إنّ الحكمين وكيلان .

قوله : [إن يريدا إصلاحاً] يعني الحكمين [يوفّق الله بينهما] والضمير في « يريدا » وفي « بينهما » قال الرازيّ : فيه وجوه :

الاول : إن يرد الحكمان خيراً و إصلاحاً يوفّق الله بين الحكمين حتّى يتّفقا على الخير .

الثاني : إن يرد الحكمان يوفّق الله بين الزوجين .

الثالث : إن يرد الزوجان إصلاحاً يوفّق الله بين الزوجين .

الرابع : إن يرد الزوجان إصلاحاً يوفّق الله بين الحكمين حتّى يعملا بالصلاح . واللفظ محتملٌ لكلّ هذه الوجوه .

وأصل معنى التوفيق اللطف الّذي يتّفق عنده فعل الطاعة ، وظاهر المعنى أنّه إن كانت نيّة الحكمين إصلاح ذات البين يوفّق الله بين الزوجين ماهو الصلاح .

[إنّ الله كان عليماً خبيرا] عليماً بمصالحكم خبيراً بأعمالكم .

قوله تعالى : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا (٣٦) .

لمّا أرشد الله كلّ واحد من الزوجين إلى المعاملة الحسنة مع الآخر وإزالة الخشونة والخصومة أرشد في هذه الآية إلى سائر الأخلاق الحسنة و ذكر منها أحد عشر نوعاً :

النوع الأوّل الأهمّ قوله : [واعبدوا الله] أي وحّدوه ، والعبادة عبارة عن كلّ فعل

وترك يؤتى به لمجرّد أمر الله بذلك فيدخل فيها جميع أفعال القلوب وأعمال الجوارح .

النوع الثاني [ولا تشركوا به شيئاً] لأنّ بعض الناس يعبدونه تعالى ويعبدون غيره معه كما كان لبعض المشركين آلهة متعدّدة يعبدون إلهاً لأمر وإلهاً لأمر وهكذا .

النوع الثالث [وبالوالدين إحساناً] أي أحسنوا إلى والديكم إحساناً كقوله : « فضرب الرقاب[1] » أي فاضربوها ضرب الرقاب ، وكفى لهذا البيان تعظيم حقّهما ووجوب برّهما حيث قرن سبحانه إلزام برّ الوالدين بتوحيده وعبادته . قال ﷺ : أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس . والإحسان إليهما أن يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ولا يخشن في الكلام معهما ويسعى في تحصيل مطالبهما حتّى روي أنّ النبيّ نهى حنظلة بن أبي عامر عن قتل أبيه وكان مشركاً .

النوع الرابع قوله : [وبذي القربى] وهو أمرٌ بصلة الرحم وإنّ الوالدين وإن كانا من الأقارب أيضاً إلّا أنّ قرابة الولادة لمّا كانت مخصوصة ميّزها في الذكر أوّلاً ثمّ أتبعها بقرابة الرحم .

النوع الخامس قوله تعالى : [واليتامى] واليتيم مخصوصة بنوعين من العجز : الصغر وعدم المنفق ، ومن هذا حاله كان في غاية العجز واستحقاق الرحمة .

النوع السادس قوله : [والمساكين] والإحسان إلى المسكين إمّا بالإجمال له إن أمكن أو بالردّ الجميل ، والمسكين من أسكنه الضرّ والفقر .

النوع السابع قوله : [والجار ذي القربى] هو الّذي قرب جواره ؛ قال النبيّ ﷺ : لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه ألا وإنّ الجوار أربعون داراً . وقال الزهريّ : أربعون يمنة وأربعون يسرة وأربعون أماماً وأربعون خلفاً . وفي حديث قيل : يا رسول الله إنّ فلانة تصوم النهار وتصلّي الليل وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها ، فقال ﷺ : لا خير فيها هي في النار . وروي أنّه ﷺ قال : والّذي نفس محمّد بيده لا يؤدّي حقّ الجار إلّا من رحمه الله وقليل ماهم ، أتدرون ما حقّ الجار ؟ إن افتقر أغنيته وإن استقرض أقرضته وإن أصابه خير هنّأته وإن أصابه شرّ عزّيته وإن مرض عدته وإن مات شيّعت جنازته . وقال آخرون : عنى

---

(١) محمد : ٥ .

سبحانه « بالجارذي القربى » في الآية الجار القريب النسيب و « بالجار الجنب » الجار الأجنبيّ. وقرىء « والجارذاالقربى » نصباً .

النوع الثامن قوله : [والجارالجنب] وقد ذكر تفسيره وهو البعيد منك في القرابة كما قال : « واجنبني وبنيّ[1] » أي بعّدني ، ومنه الجنابة لتباعده عن الطهارة وعن حضور المساجدمالم يغتسل . وقرأ عاصم « والجارالجنب » بفتح الجيم وسكون النون ويريد « بالجنب » الناحية و البعد أو وصفاً على سبيل المبالغة مثل زيدٌ عدلٌ .

النوع التاسع [والصاحب بالجنب] وهو الّذي صحبك إمّا رفيقاً في سفر وإمّا جاراً ملاصقاً وإمّا شريكاً في تعلّم وحرفة وإمّا قاعداً على جنبك في مجلس أو مسجد . وقيل : المراد من « الصاحب بالجنب » المرأة فإنّها تكون معك وتضجع معك إلى جنبك .

النوع العاشر [وابن السبيل] وهو المسافر الّذي انقطع عن بلده ، وقيل : الضيف .

النوع الحادى عشر قوله : [وماملكت أيمانكم] وهم المماليك والإحسان إلى المماليك طاعة عظيمة ؛ في الحديث : من ابتاع شيئاً من الخدم فلم يوافق شيمته شيمته فليبع وليشتر حتّى توافق شيمته شيمته فإنّ للناس شيماً ولاتعذّبوا عبادالله . وروي أنّه ﷺ كان آخر كلامه الصلاة وما ملكت أيمانكم . والإحسان إليهم بأن لايكلّفهم مالاطاقة لهم به و لا يؤذيهم بالكلام الخشن ويعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه وكانوا في الجاهليّة يسيؤون إلى الملوك فيكلّفون الإماء البغاء . وقال بعضهم : كلّ حيوان فهو مملوك .

ولمّا ذكر سبحانه هذه الأصناف قال : [إنّ الله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً] قال ابن عبّاس : يريد « بالمختال » العظيم في نفسه الّذي لايقوم بحقوق أحد . قال الزجّاج : وإنّما ذكر الاختيال ههنا لأنّ « المختال » يأنف من أقاربه إذاكانوا فقراء ولايحسن عشرتهم ومعنى الفخر التطاول ، و « الفخور » الّذي يعدّد مناقبه كبراً ويفخر على عبادالله بما أعطاه الله من أنواع نعمه .

---

(١) ابراهيم : ٣٥ .

قوله تعالى : الذين يبخلون ويامرون الناس بالبخل ويكتمون ماءاتيهم الله من فضله و اعتدنا للكافرين عذاباً مهينا (٣٧) .

وقرىء « بالبخل » بفتح الباء والخاء قرأه حمزة والكسائيّ [الّذين يبخلون] بدل من قوله : « من كان مختالاً فخوراً » والبخل عبارة عن منع الاحسان و في الشريعة المراد منع الواجب . وقال عليّ بن عيسى : معناه منع الإحسان ونقيضه بذل الإحسان ونقيض الجود والمعنى : الّذين يمنعون ما أوجب الله عليهم من الزكوات وغيرها . وقيل : المراد : الّذين يبخلون بإظهار ماعلموه من صفة النبيّ ، عن ابن عبّاس وجماعة .

[ويأمرون الناس بالبخل] ويأمرون غيرهم بالإمساك أو يأمرون الأنصار بترك الإنفاق على رسول الله وأصحابه أو يأمرون الناس بكتمان الحقّ من نعوت النبيّ ، على قول ابن عبّاس .

[ويكتمون ما آتاهم الله من فضله] ويجحدون ما أعطاهم من اليسار والثروة أو يكتمون ماعندهم من العلم ببعث النبيّ . قال الطبرسيّ : والأولى أن يكون الآية عامّة في كلّ من يبخل بأداء مايجب عليه أداؤه ويأمرون الناس به . وقد ورد في الحديث : إذا أنعم الله على عبده نعمة أحبّ أن يرى أثرها عليه .

[وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا] أي أعددنا للجاحدين عذاباً يهانون فيه وأضاف الإهانة إلى العذاب إذ كان يحصل به .

والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولاباليوم الاخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا (٣٨) وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الاخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩) .

إن شئت عطفت « الّذين » في هذه الآية على « الّذين » في الآية الّتي قبلها وإن شئت جعلته في موضع خفض عطفاً على قوله : « للكافرين عذاباً مهينا » .

قال الواحديّ : نزلت في المنافقين . وقيل : نزلت في مشركي قريش المنفقين على عداوة رسول الله ، أو المراد : والّذين ينفقون أموالهم لكن لا لغرض الطاعة بل لغرض الرياء والسمعة فقال : [الّذين ينفقون أموالهم] مراءاة [الناس ولا يؤمنون] ولايصدّقون [بالله

ولا باليوم الآخر] الّذي فيه الثواب والعقاب [ومن يكن الشيطان له قريناً] و صاحباً وخليلاً يتّبع أمره ويوافقه على الكفر ، وقيل : المراد يكون الشيطان قرينه في النار [فساء قريناً] وبئس القرين الشيطان وحاصل المعنى أنّ الشيطان قرين لأصحاب هذه الأفعال كقوله : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين (١) » .

[وما ذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر] الاستفهام إنكاريّ ويجوز أن يكون « ماذا » اسماً واحداً فيكون المعنى : و أيّ شيء عليهم ؟ ويجوز أن يكون « ذا » في معنى الّذي ويكون « ما » وحدها اسماً أي و ما الّذي عليهم لو آمنوا ؟ .

قال الكعبيّ : إنّ هذه الآية دليل على بطلان مذهب الجبر لأنّه لا يجوز أن يحدث فيه الكفر ثمّ يقول : ماذا عليه لو آمن ؟ كما لا يقال لمن جعله قصيراً : ماذا عليه لو كان طويلاً و لا يقال للمرأة : ماذا عليها لو كانت رجلاً ؟

و كذلك استدلّ القاضي عبدالجبّار بهذه الآية على بطلان الجبر وقال : إنّه لا يجوز أن يأمر العاقل و كيله بالتصرف في الصيغة ويحبسه من حيث لا يتمكّن من مفارقة الحبس ثمّ يقول له : ماذا عليك لو تصرّفت في الصيغة ؟

وأجاب الأشاعرة بجواب أضعف من حجّة نحويّ حيث قالوا : إنّ هذا قبيح إن كان من غيره لكنّه يحسن منه لأنّ الملك ملكه .

مثل أنّ الرازيّ تمسّك بالجبر وعارض المعتزلة بمسألتي العلم والداعي ، و كلامهما غير صحيح لأنّ علمك بفقر زيد لا يكون داعيه ولا يوجب فقره .

[وأنفقوا ممّا رزقهم الله] أي جمعوا مع إيمانهم الإنفاق في سبيل الله حتّى ينفعهم الإنفاق ويخلصون له ولا يجعلونه رياءً [وكان الله بهم عليماً] يجازيهم بما يسرّون وما يعلنون .

ان الله لا يظلم مثقال ذرة و ان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠) .

قرىء « حسنة » بالرفع فمن نصب معناه : إن تك زنة الذرّة حسنة ، ومن رفعها فمعناه :

---

(١) الزخرف : ٣٦ .

وإن تحدث حسنة ؛ فيكون « كان » تامّة لايحتاج إلى خبر ، المعنى : إنّ الله لايظلم أحداً قطّ زنة ذرّة وهي النملة الصغيرة الّتي لاتكاد ترى . و قيل : الذرّة جزء من أجزاء الهباء في الكوّة من أثر الشمس .

[وإن تك حسنة يضاعفها] أي إن تك الحسنة زنة الذرّة يقبلها و يجعلها ضعفين أو أضعافاً أو يديمها ولا يقطعها ، عن أبي عبيده [ويؤت من لدنه] سبحانه ثواباً [عظيماً] ومعنى « من لدنه » من قبله ، وفيه لغات : لد ولدن ولد ولدى ، والمعنى واحد .

قوله تعالى : فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٤١) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض ولايكتمون الله حديثا (٤٢) .

لمّا ذكر اليوم الآخر وصف حال المنكرين ، و « كيف » استفهام على سبيل التوبيخ وتقدير الكلام : كيف حال هؤلاء يوم القيامة و كيف حال الأمم و ماذا يصنعون [إذا جئنا من كلّ أمّة] من الأمم ؟ وإنّ الله يستشهد يوم القيامة كلّ نبيّ على أمّته فيشهد لهم وعليهم ويستشهد نبيّنا صلّى الله عليه وآله على أمّته .

وفي الآية حثّ على الطاعة ومنع عن المعصية لأنّ الشهود على الأعمال الأنبياء والكرام الكاتبون والجوارح والمكان والزمان كما قال : « ويوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (١) » روي أنّ عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله لي : اقرء القرآن عليّ ، قال فقلت : يارسول الله أنت الّذي علّمتنيه ، فقال صلّى الله عليه وآله : أحبّ أن أسمعه من غيري ، قال ابن مسعود : فافتتحت سورة النساء فلمّا انتهيت إلى هذه الآية بكى رسول الله ، قال ابن مسعود : فأمسكت عن القراءة . قال الطبرسيّ : فإذا كان الشاهد تفيض عيناه لهول هذه الحالة فماذا يصنع المشهود عليه ؟

ثمّ وصف سبحانه ذلك اليوم فقال : [يومئذ يودّ الّذين كفروا وعصوا الرسول لوتسوّى بهم الأرض] أي يودّون أن يجعلون والأرض سواء كما قال سبحانه : « يقول الكافر ياليتني كنت تراباً (٢) » والمراد أنّ الكفّار يوم القيامة يودّون أنّهم لم يبعثوا وأنّهم

---

(١) النور : ٢٤ .　(٢) النبأ : ٤٠ .

كانوا والأرض سواء لعلمهم بما يصيرون إليه من العذاب والخلود في النار ، قال ابن عبّاس : يودّون أن يمشي عليهم أهل الجمع يطؤونهم بأقدامهم كما يطؤون الأرض .

[ولا يكتمون الله حديثاً] قيل : عطف على ماقبله . وقيل : كلام مستأنف . فعلى الأوّل فالمعنى : يودّون لو تنطبق عليهم الأرض ولم يكونوا كفروا و لم يكونوا كتموا أمر محمّد ﷺ وهذا قول ابن عبّاس . وعلى أنّه كلام مستأنف فالمراد أنّهم لا يقدرون كتمان شيء من اُمورهم من الله لأنّ جوارحهم تشهد عليهم بمافعلوه فالتقدير : لاتكتمه جوارحهم وإن كتموه .

يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولاجنبا الاعابرى سبيل حتى تغتسلوا و ان كنتم مرضى أو على سفر أوجاء احدمنكم من الغائط اولامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله عفوا غفورا (٤٣) .

النزول : فيه وجهان :

الأوّل أنّ جماعة من الصحابة صنع لهم عبدالرحمن بن عوف طعاماً وشراباً ، ولم ينزل آية التحريم ، فأكلوا وشربوا فلمّا تملّوا حلّ وقت فريضة المغرب فقدّموا أحدهم ليصلّي بهم فقرأ : أعبد ماتعبدون وأنتم عابدون ماأعبد ، فنزلت الآية ؛ فكانوا لايشربون في أوقات الصلاة فإذا صلّوا العشاء شربوها فلايصبحون إلّا وقد ذهب عنهم السكر و علموا مايقولون ثمّ نزل تحريمها في سورة المائدة وهي «ياأيّها الّذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه [١]» .

وقيل : نزلت في جماعة من أكابر الصحابة قبل تحريم الخمر كانوا يشربونها ثمّ يأتون المسجد للصلاة مع الرسول فنهاهم الله عنه ، وهذا قول ابن عبّاس .

وفي لفظ « الصلاة » قيل : المراد منه المسجد ، فيكون المعنى : لاتقربوا موضع الصلاة ، وحذف المضاف مجاز شائع كما أنّ قوله : « لهدّمت صوامع وبيع وصلوات [٢] »

---

(١) المائدة : ٩٣ .

(٢) الحج ـ ٤٠ .

والمراد مواضع الصلوات فإطلاق لفظ الصلاة بالموضع جائز .

لكنّ الأكثرون على أنّ المراد بالصلاة في هذه الآية نفس الصلاة أي إذا كنتم سكارى لاتصلّوا لكن قوله : «ولاجنباً إلّا عابري سبيل» يعني الموضع والمسجد ؛ فإنّ العبور إنّما يكون في الموضع دون الصلاة ، لكن قوله : « حتّى تعلموا ما تقولون» يدلّ على أنّ المراد نفس الصلاة فكان حمل الآية على هذا أولى .

وحمل بعضٌ معنى السكر على النوم وهو قول الضحّاك ، فقال : ليس المراد سكر الخمر إنّما المراد منه سكر النوم . قالوا : وأصل السكر من السكر وهو سدّ مجرى الماء واسمٌ لموضع السكر لكن ماروي عن موسى بن جعفر عليه السلام أنّ المراد سكر الشراب . وقد يسأل ويقال : كيف يجوز نهي السكران في حال السكر مع زوال العقل ؟ فأُجيب بأنّه قد يكون الإنسان سكران من غير أن يخرج من نقصان العقل بحيث لايكون متعلّق التكليف أو أنّ النهي ورد عن التعرّض للسكر في حال أداء وجوب الصلاة . وقال أبوعليّ : جواباً آخر وهو أنّ النهي إنّما دلّ على أنّ إعادة الصلاة واجبة عليهم إن أدّوها في حال السكر .

[ولا جنباً إلّا عابري سبيل حتّى تغتسلوا] في معناه قولان :

أحدهما أنّ المراد : لاتقربوا الصلاة و أنتم جنباً إلّا أن تكونوا مسافرين فيجوز لكم حينئذ أداؤها بالتيمّم وإن كان التيمّم لايرفع الجنابة لكن يبيح الصلاة ، عن علي عليه السلام وابن عبّاس وجماعة .

والآخر أنّ المعنى : لاتقربوا مواضع الصلاة من المساجد وأنتم جنب إلّا مجتازين ، عن جابر وجماعة وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

قال الطبرسيّ : والقول الثاني أقوى لأنّه سبحانه بيّن حكم الجنب في آخر الآية إذا عدم الماء فإذا حملناه على ذلك لكان تكراراً وإنّما أراد أن يبيّن حكم الجنب في دخول المساجد في أوّل الآية ويبيّن حكمه في الصلاة عند عدم الماء في آخر الآية .

قال بعض البارعين في علم البلاغة من أصحابنا : إنّ في الآية الاستخدام وهو عبارة من أن يأتي المتكلّم بلفظ مشترك بين معنيين أو أكثر مقرون بقرينتين أو أكثر يستخدم

كل قرينة منها معنى من معاني تلك اللفظ ، فاستخدم سبحانه لفظة «الصلاة» في الآية لمعنيين أحدهما إقامة الصلاة بقرينة « حتّى تعلموا ما تقولون » والآخر موضع الصلاة بقرينة « ولا جنباً إلّا عابري سبيل » وهذا هو الصواب في معنى الآية .

[وإن كنتم مرضى] نزلت الآية في رجل من الأنصار كان مريضاً ولم يستطع أن يقوم ، قيل : المرض الّذي يجوز معه التيمّم مرض الجراح والكسر والقروح إذا خاف أصحابها من مسّ الماء . وقيل : هو المرض الّذي لا يستطيع معه استعمال الماء أو لا يستطيع معه تناول الماء ولا يكون هناك من يناوله ، لكنّ المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام جواز التيمّم في جميع ذلك .

[أو على سفر] أي إن كنتم في السفر [أو جاء أحد منكم من الغائط] وهو كناية عن قضاء الحاجة ، قيل : إنّ « أو » ههنا بمعنى الواو كقوله : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١) » فالمعنى « وجاء أحدٌ منكم من الغائط » وذلك لأنّ المجيء من الغائط ليس من جنس المرض والسفر حتّى يصحّ عطفه عليهما فإنّهما سبب لإباحة التيمّم والمجيء من الغائط سبب لإيجاب الطهارة .

[أو لامستم النساء] وقرىء « لمستم النساء » والمراد به الجماع ، عن عليّ وابن عبّاس والجبّائيّ وجماعة . وقيل : المراد به اللمس باليد والبدن وغيرها .

قال الطبرسيّ : والصحيح الأوّل لأنّ الله بيّن حكم الجنب في حال وجود الماء بقوله : « ولا جنباً إلّا عابري سبيل حتّى تغتسلوا » ثمّ بيّن عند عدم الماء حكم المحدث « أو جاء أحدٌ منكم من الغائط » فلا يجوز أن يدع بيان حكم الجنب عند عدم الماء فعلمنا أنّ المراد من قوله : « أو لامستم » الجماع ليكون بياناً لحكم الجنب عند عدم الماء .

والغائط المكان المطمئنّ من الأرض وجمعه «الغيطان» وكان الرجل إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطاً من الأرض يحجبه عن أعين الناس ثمّ سمّي الحدث بهذا الاسم تسميةً للشيء باسم مكانه .

واستعمل لفظ « اللمس » وأُريد به الجماع فإنّ اللمس حقيقة المسّ ، والمسّ

(١) الصافات : ١٤٧ .

ورد في القرآن بمعنى الجماع ؛ قال سبحانه : « وإن طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ[١] » وقال في آية الظهار « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا [٢] » قال ابن عبّاس : إنّ الله حيّ كريم بعفّ ويكنّي فيعبّر عن المباشرة بالملابسة .

قوله : [فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّباً] متعلّق بالجمل الأربع وهو يشمل عدم التمكّن عن استعماله لأنّ الممنوع منه كالمفقود أي اقصدوا تراباً طاهراً ، و الصعيد وجه الأرض تراباً كان أو غيره فيجوز التيمّم على الحجر الصلد . و قيل : المراد من الطيّب أن لا تكون الأرض سبخة الّتي لا تنبت .

[فامسحوا بوجوهكم وأيديكم] واختلف في كيفيّة التيمّم على أقوال :

أحدها : أنّه ضربة للوجه و ضربة لليدين إلى المرفقين وهو قول فقهاء العامّة مثل أبي حنيفة والشافعيّ وغيرهما وبعضٌ قليلٌ من أصحابنا .

وثانيها : أنّه ضربة للوجه و ضربة لليدين من الزندين و إليه ذهب عمّار بن ياسر ومكحول واختاره الطبرسيّ ، وهو مذهبنا إذا كان بدلاً من الجنابة ، فإذا كان بدلاً من الوضوء كفاه ضربةً واحدةً يمسح بها وجهه من قصاص شعره إلى طرف أنفه ويديه من زنديه إلى أطراف أصابعها ، وهو المرويّ عن سعيد بن المسيّب . وقال الزهريّ من العامّة : إنّه إلى الابطين .

قال الفيض : وعن الباقر عليه السلام في صفة التيمّم : أنّه عليه السلام وضع كفّيه في الأرض ثمّ مسح وجهه و كفّيه ولم يمسح الذراعين بشيء .

وعن الصادق عليه السلام أنّه وصف التيمّم فضرب بيديه على الأرض ثمّ رفعهما فنفضهما ثمّ مسح على جبينه و كفّيه مرّةً واحدة . وفي رواية : ثمّ مسح كفّيه إحداهما على ظهر الأُخرى .

وعن الرضا عليه السلام : التيمّم ضربة للوجه وضربة للكفّين . وعن الباقر عليه السلام هو ضربٌ واحد للوضوء والغسل عن الجنابة تضرب بيديك مرّتين ثمّ تنفضهما فمرّة للوجه ومرّةً لليدين ومتى أصبت ماءً فعليك الغسل إن كنت جنباً والوضوء إن لم تكن جنباً .

(١) البقرة : ٢٣٧ . (٢) المجادلة : ٣ .

قال الفيض : وفي الفقيه والتهذيب عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن التيمّم من الوضوء ومن الجنابة ومن الحيض للنساء سواء ؟ فقال : نعم .

[إنّ الله كان عفوّاً غفوراً] يقبل اليسير منكم لأنّ في التيمّم تيسيراً وتخفيفاً لكم ، وغفور أي كثير الستر لذنوبكم .

ألم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا (٤٥) .

اعلم أنّ العلم اليقينيّ يشبه الرؤية فيجوز جعل الرؤية استعارة عن مثل هذا العلم والمعنى : ألم ينته علمك إلى هؤلاء اليهود؟ نزلت الآية في رفاعة بن زيد بن السائب و مالك بن دخشم كانا إذا تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله لويا لسانهما وعاباه ، عن ابن عبّاس .

وصف سبحانه اليهود المذكورين وهما كانا من الأحبار ومن تبعهم بأمرين : الضلال والإضلال ، أمّا الضلال فهو قوله : « يشترون الضلالة » ويؤثرون تكذيب الرسول ليأخذوا الرشاء على ذلك ويحصل لهم الرياسة ، وفي الآية تقدير أي يشترون الضلالة بالهدى .

ثمّ وصفهم بالإضلال فقال سبحانه : [و يريدون أن تضلّوا السبيل] ويسعون إلى إضلال المؤمنين لكي يخرجوا عن الإسلام .

ثمّ قال : [والله أعلم بأعدائكم] أي هو سبحانه أعلم بكنه ما في قلوبهم [وكفى بالله وليّاً] للمسلمين وكفى نصره ، و الوليّ المتصرّف في الشيء أعمّ من أن يكون ناصراً أو لم يكن فأردفه بوقوع النصرة فتغنيكم نصرته عن عداوتهم فلا تبالوا بهم .

من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين و لو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا و اسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا (٤٦) .

قوله : [من الّذين] خبر مبتدء محذوف والتقدير : من الّذين هادوا قوم [يحرّفون

الكلم عن مواضعه] و « الكلم » اسم جنس ولذا ذكّر الضمير في « مواضع » وجمع المواضع لتكرّره في التوراة في مواضع شتّى وغيّروه ووضعوا مكانه غيره وأزالوه عن مواضعه الّتي وضعه الله فيها و أمالوه عنها .

والتحريف نوعان : أحدهما صرف الكلام إلى غير المراد بضرب من التأويل الباطل كما يفعل أهل البدعة في زماننا . والثاني تبديل الكلمة بأخرى كما فعلوا في نعته وكان نعته ﷺ في التوراة : أسمر ربعة ، فوضعوا مكانه أدم طوال ، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحدّ بدله .

[ويقولون] في كلّ أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبيّ ﷺ أم لا بلسان الحال و المقال [سمعنا] قولك [و عصينا] أمرك عناداً [واسمع] قولنا [غير مسمع] حال من المخاطب و هو كلامٌ ذو وجهين : أحدهما المدح بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروهاً ، و الثاني الذمّ بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاماً أصلاً بموت أوصمم أي ندعو عليك بلا سمعت . قالوا ذلك تمنّياً لإجابة دعائهم عليه وهم كانوا يخاطبونه (ﷺ) بهذا القول مظهرين له إرادة المعنى الأوّل ويضمرون في أنفسهم المعنى الأخير .

[وراعنا] كلمة ذات جهتين أيضاً محتملة للخير بحملها على معنى : ارقبنا و انتظرنا واصرف سمعك إلى كلامنا نكلّمك ، وللشرّ بحملها على السبّ بمعنى « الرعونة والحمق » أو بإجرائها مجرى شبهها من كلمة عبرانيّة أوسريانيّة كانوا يتسابّون بها وهي « راعنا » وكانوا يخاطبون به النبيّ ينوون الإهانة والشتيمة ويظهرون التوقير .

فإن قيل : كيف جاؤوا بالكلام المشكّك بعد ما صرّحوا وقالوا : سمعنا و عصينا ؟

فالجواب أنّ جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان والمخالفة لكن لا يواجهونه بالسبّ ودعاء السوء حشمةً وهيبةً منه ﷺ .

[ليّاً بألسنتهم] أصل « اللّيّ » اللوي فإنّهم كانوا يلوون ويفتلون ألسنتهم وأشداقهم عند

ذكر الكلام المشكك فيظهرون التوقير و يضمرون الشتم مثل أن يقولوا : « راعنا » وهم يقصدون « راعينا » يعني أنت راعي غنمنا [وطعناً في الدين] وإنـما يقدمون على مثل هذه الأشياء لطعنهم في الدين .

[ولو أنـّهم] عند ماسمعوا شيئاً من أوامر الله ونواهيه [قالوا] حقيقةً [سمعنا وأطعنا] بدل قولهم : «واسمع غير مسمع» لايلحقون به «غير مسمع» وبدل قولهم : «راعنا» : [وانظرنا] ولم يدسّوا تحت كلامهم شرّاً وفساداً .

[لكان] قولهم ذلك [خيراً لهم] ممّا قالوا [وأقوم] أي أسدّ وأصوب ، وصيغة التفضيل على زعمهم الفاسد وإلّا فليس في فعلهم ذلك سدادٌ وصوابٌ وهو كقوله : «آلله خيرٌ أم مايشركون [1]» .

[ولكن لعنهم الله بكفرهم] وأبعدهم عن رحمته بسبب كفرهم ذلك [فلايؤمنون] بعد ذلك [إلّا قليلاً] فلم ينسدّ عليهم باب الإيمان وقد آمن فريقٌ منهم من علمائهم و أحبارهم مثل كعب الأحبار وعبدالله بن سلام وأضرابهما . قال رسول الله ﷺ : من تعلّم علماً لايبتغي به وجه الله ولا يتعلّمه إلّا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنّة .

قال بعض المحقّقين : العلم النافع هو الّذي يستعان به على طاعة الله ويلزمك المخافة من الله ، والعلوم كالدنانير والدراهم تنفعك وتضرّك والعلم إن قارنته الخشية فلك أجره وثوابه وإلّا فعليك وزره وقيام الحجّة به ، وعلامة خشية الله ترك الدنيا .

يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله مفعولا (٤٧) .

خاطب الله سبحانه أهل الكتاب بالتخويف والتحذير فقال : [يا أيـّها الّذين] أعطوا علم الكتاب [آمنوا] وصدّقوا بما أنزلناه على محمّد من القرآن وأحكام الدين حال كون القرآن [مصدّقاً لما معكم] من التوراة و الإنجيل اللذين تضمّنتا فيهما صحّة ماجاء به محمّد في الدعوة إلى التوحيد والمواعيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش ، وأمّا مايتراءى من المخالفة في بعض الأحكام فبسبب تفاوت الأمم في الأخلاق

(١) النمل : ٥٩ .

بالأعصار ومتضمّنة للحكمة الّتي عليها يدور فلك التشريع حتّى لو تأخّر نزول المتقدّم لنزل على وفق المتأخّر ولو تقدّم نزول المتأخّر لوافق المتقدّم قطعاً ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله : لو كان موسى حيّاً لما وسعه إلّا اتّباعي .

قوله : [من قبل أن نطمس وجوهاً] « الطمس » محو الآثار وإزالة الأعلام أي آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم .

[فنردّها على أدبارها] فنجعلها على هيئة أدبارها وهي الأقفاء مطموسة مثلها ، قال ابن عبّاس : أي نجعلها كخفّ البعير و نمحو آثار الوجوه حتّى تصير كالأقفية و نجعل عيونها في أقفيتها فيمشي القهقرى .

وقيل : إنّ معناه أن نطمسها عن الهدى فنردّها على أدبارها في ضلالها ولا تفلح أبداً ، عن الحسن والضحّاك والسدّيّ ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام .

وقال الفرّاء : إنّ معناه نجعل في وجوههم الشعر كوجوه القرد .

ورابع الأقوال : أنّ المراد نمحو آثارهم من وجوههم أي نواحيهم الّتي هم بها وهو الحجاز الّذي مسكنهم ونردّها على أدبارها حتّى يعودوا إلى حيث جاؤوا وهو الشام ، وحمله على إجلاء بني النضير إلى أريحا وأذرعات الشام ، عن ابن زيد . قال الطبرسيّ : وهذا أضعف الوجوه لأنّه ترك الظاهر .

فإن قيل : على معنى قول الأوّل كيف أوعد سبحانه ولم يفعل ؟

فالجواب أنّ هذا الوعيد كان متوجّهاً إليهم إن لم يؤمنوا فلمّا آمن جماعة منهم مثل ثعلبة بن شعبة وأسد بن ربيعة وعبدالله بن سلام وأسعد بن عبيدة ومخيريق وغيرهم رفع العذاب عن الباقين ويفعل ذلك بهم في الآخرة .

وجوابٌ آخر وهو سبحانه قال : « أو نلعنهم » فالمعنى أنّه يفعل بهم أحد الأمرين وقد لعنهم ، ثمّ إنّه لم يذكر أنّه يفعل ذلك في الدنيا . وقيل وجه آخر وهو أنّ هذا الوعيد باق منتظر له ولا بدّ من أن يطمس الله وجوه اليهود قبل قيام الساعة بأن يمسخها ، عن المبرّد .

[أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت] مسخناهم قردة وخنازير [وكان أمر الله]

أي عذابه [مفعولاً] كائناً لامحالة وفي الآية تهديد شديد وإشارة بأنّ الإنسان يكون على حذر من الله ويسارع إلى الإيمان ويرجع عن المعاصي خصوصاً الكفر والكبائر بالتوبة والاستغفار نعوذ بالله من الجور بعد الكور[1] ومن الشرّ بعد الخير .

قال عبدالله بن أحمد المؤذّن . كنت أطوف حول البيت وإذاً أنا برجل متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول : اللّهم أخرجني من الدنيا مسلماً ، لايزيد على ذلك شيئاً ، فقلت له : لم لا تزيد على هذا الدعاء ؟ فقال : لوعلمت قصّتي كنت تعذرني ، فقلت : وماقصّتك ؟ قال : كان لي أخوان وكان الأكبر منهما مؤذّناً أذّن أربعين سنة احتساباً فلمّا حضره الموت دعا بالمصحف فظننّا أنّه يتبرّك به فأخذه بيده وأشهد على نفسه من حضر أنّه بريء ممّا فيه ثمّ تحوّل إلى دين النصرانيّة ، فلمّا دفن أذّن الآخر ثلاثين سنة فلمّا حضره الموت فعل كما فعل الأوّل فمات على النصرانيّة وإنّي أخاف على نفسي أن أصير مثلهما فأدعو الله تعالى أن يحفظ عليّ ديني ، فقلت : ما كان ذنبهما ؟ فقال : كانا يتّبعان عورات النساء وينظران المردان[2] . نعوذ بالله من دوام المعصية .

ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما (٤٨) .

النزول : قال الكلبيّ : نزلت في المشركين : وحشيّ وأصحابه وذلك أنّه لمّا قتل حمزة وكان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوّت له بذلك ، فلمّا قدم مكّة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله أنّا ندمنا على الّذي صنعنا وليس يمنعنا عن الإسلام إلّا أنّا سمعناك تقول وأنت بمكّة : «والّذين لاتدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ولايزنون[3] » وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس الّتي حرّم الله وزنينا ولولا هذه لاتّبعناك .

فنزلت الآية « إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً[4] » فبعث ﷺ بها إلى وحشيّ وأصحابه فلمّا قرؤوا الآية كتبوا إليه أنّ هذا شرط شديد نخاف أن لانعمل عملاً صالحاً فلانكون من أهل هذه الآية .

---

(١) مجتمع القرى . (٢) جمع الامرد .
(٣) الفرقان : ٦٨ . (٤) مريم : ٦٠ .

فنزلت « إنّ الله لايغفر أن يشرك به ، الآية » فبعث ﷺ بها ، فلمّا قرؤوها بعثوا إليه أنّا نخاف أن لانكون من أهل مشيئة الله .

فنزلت «قل ياعبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً» (١) فبعث ﷺ بها فلمّا قرؤوها دخل وحشيّ وأصحابه في الإسلام ورجعوا إلى النبيّ ﷺ فقبل منهم ثمّ قال لوحشيّ : أخبرني كيف قتلت حمزة ؟ فلمّا أخبره قال لوحشيّ : غيّب شخصك عنّي فلحق بعد ذلك بالشام وكان بها إلى أن مات .

وقال الطبرسيّ : عن أبي مجلز عن ابن عمر قال : نزلت في المؤمنين وذلك أنّه لمّا نزلت « قل ياعبادي الّذين أسرفوا ، الآية » قام النبيّ ﷺ على المنبر فتلاها على الناس فقام إليه رجل فقال : والشرك بالله ، فسكت ثمّ قام إليه مرّتين أو ثلاثاً فنزلت « إنّ الله لايغفر أن يشرك به ، الآية » .

و روى طرف بن الشخير عن عمر بن الخطّاب قال : كنّا على عهد رسول الله إذا مات الرجل منّا على كبيرة شهدنا بأنّه من أهل النار حتّى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات .

المعنى : إنّه سبحانه آيس الكفّار من رحمته فقال : [إنّ الله لايغفر أن يشرك به] أحد ولايغفر الشرك لأحد [ويغفر مادون] الشرك من الذنوب لمن يريد .

قال المحقّقون : هذه الآية أرجى آية في القرآن وقف الله المؤمنين الموحّدين بهذه الآية بين الخوف والرجاء وبين العدل والفضل ؛ قال الصادق عليه السلام : لووزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا . ويؤيّده قوله سبحانه : «ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضّالون» (٢) وقوله : «فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون (٣) » .

قال الطبرسيّ : قال ابن عبّاس : ثمان آيات نزلت في سورة النساء خيرٌ لهذه الأمّة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت قوله : «يريد الله ليبيّن لكم (٤)» و«يريد أن يخفّف عنكم (٥)»

---

(١) الزمر : ٥٣ .　(٢) الحجر : ٥٦ .
(٣) الاعراف : ٩٩ .　(٤) السورة : ٢٥ .
(٥) السورة : ٢٧ .

«إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه ، الآية»[١] «إنّ الله لايظلم مثقال ذرّة »[٢] « ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه »[٣] «إنّ الله لايغفر أن يشرك به » في الموضعين « ما يفعل الله بعذابكم »[٤]

وبيان وجه الاستدلال بهذه الآية على أنّ الله يغفر الذنوب من غير توبة أنّه تعالى نفى غفران الشرك ولم ينف غفرانه على كلّ حال بل نفى أن يغفر من غير توبة لأنّ الأمّة أجمعت على أنّ الله يغفره بالتوبة وإن كان الغفران مع التوبة عند المعتزلة على وجه الوجوب وعندنا على وجه التفضّل فعلى هذا يجب أن يكون المراد بقوله : « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » أنّه يغفر مادون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين غير الكافرين ؛ لأنّ موضع الكلام الّذي يدخله النفي والإثبات وينضمّ إليه « إلّا » و«دون» أن يخالف الثاني . ألاترى أنّه لايحسن أن يقول الرجل : أنا لا أدخل على الأمير إلّا إذا دعاني و أدخل على من دونه إذا دعاني . وإنّما يكون الكلام مفيداً إذا قال : وأدخل على من دونه وإن لم يدعني .

ولا معنى لقول من يقول من المعتزلة : إنّ في حمل الآية على ظاهرها وإدخال مادون الشرك في المشيئة إغراءً على المعصية لأنّ الإغراء إنّما يحصل بالقطع على الغفران فأمّا إذا كان الغفران معلّقاً بالمشيئة فلا إغراء فيه بل يكون العبد واقعاً بين الخوف والرجاء .

ومن قال : إنّ في غفران ذنوب البعض دون البعض ميلاً ومحاباة ولا يجوز الميل والمحاباة على الله ؛ فجوابه أنّ الله متفضّل بالغفران وللمتفضّل أن يتفضّل على قوم دون قوم وهو عادل في تعذيب من يعذّبه وليس يمنع العقل ولا الشرع عن الفضل .

ومن قال : إنّ لفظة « مادون ذلك » وإن كانت عامّة في الذنوب الّتي هي دون الشرك فإنّما نخصّها ونحملها على الصغائر ومايقع منه التوبة لأجل عموم ظاهر آيات الوعيد قال الطبرسيّ : فجوابه أنّا نعكس عليكم ذلك فنقول : بل قد خصّص ظاهر تلك الآيات لعموم هذه الآية وهذا أولى لما روي عن بعض السلف أنّه قال : إنّ هذه الآية استثناء على جميع القرآن يريد به،وأيضاً فإنّ الصغائر يقع عندكم محبطة و لايجوز المؤاخذة بها

(١) السورة : ٣٠ . (٢) السورة : ١٠٩ .
(٣) « : ٣٩ . (٤) « : ١٤٧ .

وماهذاحكمه فكيف يتعلّق بالمشيئة ؟ فإنّ أحداً لايقول : إنّي أفعل الواجب إن شئت و أردّ الوديعة إن شئت،انتهى .

[ومن يشرك بالله فقد افترى] أي اختلق ذنباً غيرمغفور يقال : افترى فلان الكذب إذا اعتمله واختلقه -وأصله من القطع- وأثم[إثماً عظيماً]لا يغفر . وجاءت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : مافي القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية .

الم ترالى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا (٤٩) انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا (٥٠) .

لمّا هدّد الله بقوله : « إنّ الله لايغفر أن يشرك به» قالت اليهود : لسنا من المشركين بل نحن من خواصّ الله وأهل الطهارة كما حكى سبحانه عنهم أنّهم قالوا : « نحن أبناء الله وأحبّاؤه (١)» وكانوا قد بالغوا في تزكية أنفسهم فقال سبحانه : لا عبرة بتزكية المرء نفسه ، وإنّما العبرة بتزكية الله فبيّن سبحانه أنّ التزكية إليه تعالى يزكّي من يشاء ويطهّر من الذنب ويقبل عمل المتّقي فيصير زكيّاً ولايزكّي اليهود وأهل التحريف بل يعذّبهم .

[ولايظلمون] في تعذيبهم [فتيلاً] وهومقدارما يكون في شقّ النواة ، وقيل : «الفتيل» مافي بطن النواة والنقير ماعلى ظهرها والقطمير قشرها . وفي الآية دلالة على تنزيهه سبحانه عن الظلم .

[اُنظر] يامحمّد [كيف يفترون على الله الكذب] هؤلاء اليهود في تحريفهم التوراة وادّعائهم بقولهم : « لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أونصارى (٢)» قال ابن عبّاس : إنّ قوماً من اليهود أتوا بأطفالهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وقالوا : يامحمّد هل على هؤلاء ذنب ؟ فقال صلّى الله عليه وآله : لا ، فقالوا : والله مانحن إلّا كهؤلاء ماعملناه بالنهار كفّر عنّا بالليل وما عملناه بالليل كفّر عنّا بالنهار فكذّبهم الله بهذه الآية .

الم ترالى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و

---

(١) المائدة : ٢٠ .

(٢) البقرة : ١١١ .

يقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا (٥١) اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا (٥٢).

النزول : إنّ كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكّة بعد وقعة اُحد ليتحالفوا قريشاً على رسول الله وينقضوا العهد الّذي كان بينهم وبين رسول الله فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكّة : إنّكم أهل كتاب ومحمّد صاحب كتاب ولا نأمن من أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل فذلك قوله : [يؤمنون بالجبت والطاغوت] والمراد من الجبت والطاغوت الصنمان اللّذان كانا لقريش وسجد لهما كعب بن الأشرف. و الجبت لاتصريف له في اللغة العربيّة قال سعيد بن جبير : إنّ الجبت هو السحر بلغة الحبشة أو أنّ العرب أدخلوها في لغتهم فصارت لغة لهم .

[ويقولون للّذين كفروا] وهم أبوسفيان وأصحابه [هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا] يعني محمّداً وأصحابه [سبيلاً] أي ديناً . قال القفّال : إنّ الجبت أصله جبس فاُبدلت السين تاءً والجبس هو الخبيث الرديء ، والطاغوت مأخوذ من الطغيان والإسراف في المعصية فكلّ من دعا إلى المعاصي الكبائر لزمه هذا الاسم ثمّ توسّعوا في هذا الاسم حتّى أوقعوه على الجماد . والمراد بالجبت الصنم . وقيل : «الجبت» الساحر «والطاغوت» الكاهن . وقيل : «الجبت» إبليس «والطاغوت» أولياؤه . وقيل : الطاغوت تراجمة الأصنام الّذين كانوا يتكلّمون بالأكاذيب عنها ، عن ابن عبّاس . وقيل : هما كلّ ماعبد من دون الله من حجر أو صورة أوشيطان ، عن أبي عبيدة وإنّما فسّر «السبيل» بالدين لأنّه كالطريق في الاستمرار عليه ليؤدّي إلى المقصود .

[اُولئك] إشارة إلى الّذين تقدّم ذكرهم [الّذين لعنهم الله] وأبعدهم من رحمته وأخزاهم وخذلهم [ومن يلعن الله] أي من يلعنه الله والعائد محذوف [فلن تجد له نصيراً] ومعيناً يدفع عنه عقاب الله الّذي أعدّه له .

قوله : أم لهم نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيرا (٥٣) ام يحسدون الناس على ما آتيهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب

والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٥٤) فمنهم من آمن ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (٥٥) .

لمّا وصف الله اليهود في الآية المتقدّمة بالجهل الشديد بسبب اعتقادهم الفاسد أنّ عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله وصفهم في هذه الآية بالبخل والحسد وبيّن سبحانه أنّ الحكم ليس إليهم إذ الملك ليس لهم فقال :

[أم لهم نصيب من الملك] وهذا استفهام معناه الإنكار أي ليس لهم نصيب من النبوّة حتّى يلزم الناس اتّباعهم وطاعتهم ، أو المراد بالملك ماكانت تدّعيه من أنّ الملك يعود إليهم في آخر الزمان وأنّه يخرج منهم من يجدّد ملّتهم ويدعو إلى دينهم فكذّبهم الله . و « أم » في الآية قيل : متّصلة وتقدير الكلام أنّ قولهم للمشركين : «أنّهم أهدى سبيلاً» أمن ذلك يتعجّب أم من قولهم : «لهم نصيب من الملك» مع أنّه لوكان لهم ملكٌ لبخلوا بأقلّ القليل و «النقير» ما في ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل في القلّة والحقارة .

وقوله تعالى : [فإذاً لايؤتون الناس نقيراً] بيان لعدم استحقاقهم للملك بل هم يستحقّون الحرمان من الملك بسبب أنّهم من الدناءة بحيث لو اُوتوا شيئاً لماأعطوا الناس منه أقلّ قليل . وفي تفسير ابن عبّاس : لوكان لهم نصيب من الملك لماأعطوا محمّداً وأصحابه شيئاً . وقيل : إنّهم كانوا أصحاب بساتين وأموال وكانوا لايعطون الفقراء شيئاً . فعلى هذا «أم» في الآية منقطعة بمعنى « بل » .

قوله : [أم يحسدون الناس] «أم » منقطعة أي بل يحسدون الناس ، واختلف في معنى الناس فقيل : أراد به النبيّ ﷺ حسدوه على ما آتاه الله من فضله من النبوّة وإباحة تسع نسوة وقالوا : لوكان نبيّاً لشغلته النبوّة عن ذلك ، فبيّن الله سبحانه أنّ النبوّة ليست ببدع في آل إبراهيم .

[فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً] وكان لداود تسع وتسعون امرأةً ولسليمان مائة امرأة - وقال بعضهم : كان لسليمان ألف امرأة سبعمائة سرّيّة وثلاثمائة امرأة - فلا معنى لحسدهم محمّداً على هذا وهو من أولاد إبراهيم وهم كانوا أكثر تزويجاً وأوسع مملكةً منه وكانوا أنبياء . و قيل : معنى الآية : لمّا كان قوام الدين به

صلى الله عليه وآله صار حسدهم له صلى الله عليه وآله كحسدهم لجميع الناس كقوله تعالى : «إنّ إبراهيم كان أُمّة قانتاً(١)» والقول الثاني : أنّ المراد هو الرسول ومن معه من المؤمنين وقالوا : إنّ لفظ «الناس» جمع فحمله على الجمع أولى .

ثمّ قال سبحانه : [فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنّم سعيراً] و اختلفوا في ضمير « به » في الآية فقال بعضهم : الضمير راجع بمحمّد صلى الله عليه وآله فيكون المعنى : إنّ هؤلاء القوم الّذين اُوتوا نصيباً من الكتاب آمن بعضهم و بقي بعضهم على الصدّ والإنكار . وقال آخرون : المراد من تقدّم من الأنبياء فيكون المعنى تسليةً للرسول .

والمعنى أنّ اُولئك الأنبياء مع ما خصصتهم به من النبوّة والملك جرت عادة اُممهم فيهم أنّ بعضهم آمن به وبعضهم بقوا على الكفر فأنت يا محمّد (صلى الله عليه وآله) لا تتعجّب ممّا عليه هؤلاء الأقوام فإنّ أحوال جميع الاُمم مع جميع الأنبياء هكذا كانت ، ثمّ هدّد الكافرين سبحانه بقوله : « وكفى بجهنّم » في عذابهم النار المسعرة الموقدة .

قوله تعالى : ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما (٥٦) .

لمّا تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين عقّبه بذكر الوعد والوعيد على الإيمان والكفر فقال :

[إنّ الّذين كفروا بآياتنا] وجحدوا حججنا و كذّبوا أنبياءنا بإنكارهم الآيات وردّها [سوف نصليهم ناراً] ونلزمهم ونحرقهم فيها ونعذّبهم بها ودخلت «سوف» للدلالة على أنّه يفعل بهم في المستقبل . يقال : شاة مصلية أي مشويّة .

ثمّ قال : [كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب] أي يجدّد الله لهم جلوداً غير جلود الّتي اُحرقت ، فلو قيل : إنّ هذا الجلد المجدّد لم يذنب فكيف يعذّب من لا يستحقّ العذاب ؟ فالجواب أنّ المعذّب هو الذات الحيّ والذات واحدة و المتبدّل هو الصفة و لا اعتبار بالأطراف و الجلود ، و المراد بالغيريّة التغاير في الصفة .

(١) النحل : ١٢٠ .

وقال عليّ بن عيسى : إنّ ما يزاد لا يولم ولا هو بعض لما يولم وإنّما هو شيءٌ يصل بواسطته الألم إلى المستحقّ له . وقال الزجّاج والبلخيّ والجبّائيّ : إنّ الله يجدّدها بأن يردّها إلى الحالة الّتي كانت عليها غير محترقة كما إذا انكسر خاتم فاتّخذ منه خاتم آخر يقال له : هذا غير الخاتم الأوّل وإن كان أصلهما واحداً ، فعلى هذا يكون الجلد واحداً وإنّما يتغيّر الأحوال عليه فالتعذيب يقع على العاصي .

وأمّا من قال : إنّ الإنسان غير هذه الجملة المشاهدة وأنّه المعذّب في الحقيقة فقد تخلّص من هذا السؤال ؛ لأنّ المعذّب هو الإنسان وذلك الجلد ما كان جزءاً من ماهيّة الإنسان بل كان كالشيء الملتصق به الزائد على ذاته فإذا جدّد الله الجلد وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيباً إلّا للعاصي .

وقيل : إنّ المراد بالجلود السرابيل قال : «سرابيلهم من قطران[1]» فتجديد الجلود إنّما هو تجديد السرابيل . وهذا خلاف الظاهر ؛ قال القاضي عبد الجبّار الهمدانيّ : إنّ السرابيل لا توصف بالنضج وإنّما توصف بالاحتراق .

قال الرازيّ : يمكن أن يقال : هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع كما يقال لما يراد وصفه بالدوام : كلّما انتهى فقد ابتدأ وكلّما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوّله ، فكذا قوله : « كلّما نضجت » يعني كلّما ظنّوا أنّهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم قوّةً جديدةً من الحياة بحيث ظنّوا أنّهم الآن حدثوا ووجدوا فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه . وقال السدّيّ : إنّه تعالى يبدّل الجلود من لحم الكافر فيخرج من لحمه جلداً آخر .

قوله : [ليذوقوا العذاب] أي ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز : أعزّك الله ، أي أدامك على العزّ وإلّا فهم ذائقون مستمرّون عليه .

وإنّما عبّر سبحانه العذاب بالذوق مع أنّه سبحانه وصف حال الكفّار في أشدّ العذاب والذوق إدراك قليل من الشيء ليبيّن أنّهم كالمبتدء عليهم العذاب في كلّ حال فيحسّون آناً فآناً ألماً لكن لا كمن يستمرّ به الشيء فإنّه يصير أخفّ عليه .

---

(١) ابراهيم : ٥٠ .

[إنّ الله كان عزيزاً] لايدافع ولايمانع غالب على أمره [حكيماً] في تقديره وتدبيره . وروى الكلبيّ عن الحسن قال : بلغنا أنّ جلود الكفّار تنضج كلّ يوم سبعين ألف مرّة .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة و ندخلهم ظلا ظليلا (٥٧) .

[والّذين آمنوا] بكلّ مايجب الإيمان به [وعملوا] الطاعات الصالحة الخالصة [سندخلهم جنّات تجري من تحت] قصورها وأشجارها ماء الأنهار دائمين فيها مؤبّدين. وفيه ردّ على جهم بن صفوان حيث يقول : إنّ نعيم الجنّة وعذاب النار ينقطعان .

[لهم فيها أزواج مطهّرة] من الحيض والنفاس والأدناس والأخلاق الدنيئة والطبائع الرديئة لايفعلن مايوحشن أزواجهنّ [وندخلهم ظلاًّ ظليلاً] والظلّ أصله الستر من الشمس قال رؤبة : كلّ موضع تكون فيه الشمس ويزول عنه فهو ظلّ وفيء وماسوى ذلك فظلّ ولايقال فيه : فيء .

والمراد من قوله : « ظلاًّ ظليلاً » أي ظلاًّ ليس فيه حرٌّ ولابرد بخلاف ظلّ الدنيا أو المعنى ظلاًّ دائماً لاتنسخه الشمس متمكّناً قويّاً كما يقال : يوم أيوم وليل أليل وداهية دهياء ، يصفون الشيء بمثل لفظه إذا أرادوا المبالغة .

ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيرا (٥٨) .

أمر الله سبحانه في هذه الآية بأداء الأمانات إلى أهلها فأمانة الله أوامره ونواهيه وأمانات عباده ما يأتمن بعضهم بعضاً من المال وغيره ، عن ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة وهو المرويّ عن الصادقين عليهما السلام .

وقيل : المراد به ولاة الأمر أمرهم أن يقوموا برعاية الرعيّة وحملهم على موجبات الدين والشريعة ، عن زيد بن أسلم ومكحول وشهر بن حوشب وهو اختيار الجبّائيّ ورواه أصحابنا عن أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق عليهما السلام قالا : أمر الله كلّ واحداً من الأئمّة

أن يسلم الأمر إلى من بعده . ويؤيّد هذا المعنى أنّه أمر الرعيّة بعد هذه الآية بطاعة ولاة الأمر وقال : « يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله ، الآية » .

وقيل : إنّ الآية نزلت خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وآله بردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بعد أخذه صلى الله عليه وآله منه .

قال الرازيّ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا دخل مكّة يوم الفتح أغلق عثمان بن طلحة ابن عبدالدار - وكان سادن الكعبة - باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : لو علمت أنّه رسول الله لم أمنعه فلوى عليّ بن أبي طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وصلّى ركعتين فلمّا خرج سأله العبّاس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية و السدانة فنزلت الآية فأمر عليّاً عليه السلام أن يردّه إلى عثمان فقال عثمان : أكرهت ثمّ جئت ترفقني فقال : لقد أنزل الله قرآناً وقرأ عليه فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، عن سعيد بن المسيّب و محمّد بن إسحاق .

وقال أبو روق : قال النبيّ لعثمان : أعطني المفتاح ، فقال : هاك بأمانة الله فلمّا أراد أن يتناوله ضمّ يده فقال الرسول ذلك مرّةً ثانية : إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فأعطني المفتاح فقال عثمان : هاك بأمانة الله فلمّا أراد أن يتناوله ضمّ يده فقال الرسول مرّة ثالثة فقال عثمان : هاك بأمانة الله ودفعه إليه .

قال الطبرسيّ : والمعوّل على ما تقدّم في معنى الآية وإن صحّ قول الأخير والرواية فيه فقد دلّ الدليل على أنّ الأمر إذا ورد على سبب لا يجب قصره عليه بل يكون على عمومه والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الرازيّ : إنّ نزول هذه الآية عند هذه القصّة لا يوجب كونها مخصوصة بهذه القضيّة بل يدخل فيه جميع أنواع الأمانات من معاملات الإنسان مع ربّه في العبادات و مع سائر العباد ومع نفسه .

قوله تعالى : [وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل] أمر الله سبحانه الولاة والحكّام بالنصفة والعدل قال النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : سوّ بين الخصمين في لحظك ولفظك .

وورد في الآثار أنّ صبيّين ارتفعا إلى الحسن بن عليّ بن أبي طالب في خطّ كتباه وحكّماه في ذلك ليحكم أيّ الخطّين أجود فبصر به عليّ عليه السلام فقال : يا بنيّ أنظر كيف تحكم؟فإنّ هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

[إنّ الله نعمّا يعظكم به] أي نعم الشيء مايوصيكم به من الأمر بردّ الأمانات والنهي عن الخيانة والحكم بالعدل . ومعنى الوعظ الأمر بالخير والنهي عن الشرّ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وآله : لاتزال هذه الأمّة بخيرما إذاقالت صدقت وإذاحكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت . [إنّ الله كان سميعاً بصيراً] عالماً بأقوالكم وأفعالكم من جميع المسموعات والمبصرات .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول و اولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير وأحسن تاويلا (٥٩) .

لمّا بدأ سبحانه في الآية المتقدّمة بحثّ الولاة على تأدية حقوق الرعيّة والنصفة والتسوية بين البريّة ثنّاه في هذه الآية بحثّ الرعيّة على طاعة الولاة فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله] أي الزموا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه والزموا طاعة رسوله،وإنّما أفرد الأمر بطاعة الرسول مع أنّ طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله قطعاً ودفعاً لتوهّم أنّه لايجب لزوم ماليس في القرآن من السنّة وقيل : معناه ـ والقائل الكلبيّ ـ : أطيعوا الله في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن .

قال الطبرسيّ : والأوّل أصحّ لأنّ طاعة الرسول هي طاعة الله ومانطق عن الهوى وطاعته صلى الله عليه وآله واجبة في حياته وبعد وفاته على جميع العالمين إلى يوم القيامة كما علم أنّه رسول الله إليهم أجمعين .

[وأولي الأمر منكم] قيل : إنّهم الأمراء عن أبي هريرة وابن عبّاس وميمون بن مهران واختاره الجبّائيّ والطبريّ والبلخيّ . وقيل : إنّهم العلماء عن جابر بن عبدالله وابن عبّاس في رواية أخرى ومجاهد وعطا والحسن وجماعة ، قال بعضهم : لأنّ العلماء يراجع إليهم في الأحكام فيجب الرجوع إليهم عند التنازع دون الولاة .

وأمّا أصحابنا الإماميّة فإنّهم رووا عن الباقر والصادق عليهما السلام أنّ أولي الأمر

الأئمّة من آل محمد عليهم السلام أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلّا من ثبت عصمته وعلم أنّ باطنه كظاهره وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء سواهم جلّ الله تعالى أن يأمر الله بطاعة من يعصيه وهذه صفة أئمّة الهدى من آل محمّد الّذين ثبت إمامتهم وعصمتهم واتّفقت الأُمّة على علوّ رتبتهم .

[فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول] فإن اختلفتم في شيء من أُمور دينكم فردّوا المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنّة الرسول وهذا قول العامّة ، لكنّ الإماميّة يقولون : الردّ إلى الأئمّة القائمين مقام الرسول بعد وفاته هو مثل الردّ إلى الرسول في حياته لأنّهم الحافظون لشريعته وخلفاؤه في أُمّته .

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله : [إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر] هذا الوعيد يحتمل أن يكون إلى قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » وإلى قوله : « فردّوه إلى الله والرسول » .

ثمّ قال : [ذلك] إشارة إلى طاعة الله وطاعة رسوله وأُولي الأمر [خير وأحسن تأويلاً] أي أحمد عاقبةً ومرجعاً .

قوله تعالى : ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا (٦٠) و اذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنافقين يصدون عنك صدودا (٦١) .

ذكروا في سبب النزول وجوهاً:قال بعض المفسّرين : إنّه نازع رجل من المنافقين رجلاً من اليهود فقال اليهوديّ : بيني وبينك أبوالقاسم،وقال المنافق : بيني وبينك كعب بن الأشرف،والسبب في ذلك أنّ الرسول كان يقضي بالحقّ ولايلتفت إلى الرشوة وكعب كان شديد الرغبة في الرشوة واليهوديّ كان محقّاً والمنافق كان مبطلاً فلهذا المعنى كان اليهوديّ يريد التحاكم إلى الرسول والمنافق إلى كعب،ثمّ أصرّ اليهود على قوله : فذهبا إلى النبيّ

صلى الله عليه وآله فحكم الرسول لليهودي على المنافق فقال المنافق : لا أرضى انطلق بنا إلى أبي بكر فحكم أبوبكر لليهودي فلم يرض المنافق وقال المنافق : بيني وبينك عمر، فصارا إلى عمر فأخبره اليهودي أن الرسول وأبابكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال للمنافق : أهكذا؟ فقال : نعم، فقتله عمر .

وقيل في سبب النزول أنه أسلم ناس من اليهود ونافق بعضهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل قريظي نضيرياً قتل به وأُخذ منه دية مائة وسق من تمر وإذا قتل نضيري قريظياً لم يقتل به ولكن أُعطي ديته ستين وسقاً من التمر ، وكان بنو النضير أشرف وهم حلفاء الأوس، وقريظة حلفاء الخزرج فلما هاجر الرسول إلى المدينة قتل نضيري قريظياً فاختصما فيه فقالت بنو النضير : لاقصاص علينا إنما علينا ستون وسقاً من التمر على ما اصطلحنا عليه من قبل، وقالت الخزرج : هذا حكم الجاهلية ونحن وأنتم اليوم إخوة ولا فضل بيننا، فأبى بنو النضير ذلك، فقال المنافقون : انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي ، وقال المسلمون : بل إلى رسول الله. فأبى المنافقون وانطلقوا إلى الكاهن ليحكم بينهم فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول السدي . فعلى هذا القول الطاغوت هو الكاهن .

والقول الثالث في النزول : قال الحسن : إن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حق فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن فالمراد بالطاغوت هو ذلك الرجل المترجم .

والقول الرابع : كانوا يتحاكمون إلى الأوثان وكان طريقهم أنهم يضربون القداح بحضرة الوثن فما خرج على القداح عملوا به وعلى هذا فالطاغوت هو الوثن ، هذا تمام الكلام في النزول .

قال أبومسلم : ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقاً من أهل الكتاب مثل أنه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النفاق لأن قوله تعالى تعالى : « يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك» إنما يليق بمثل هذا القسم من المنافق .

وحاصل معنى الآية [ألم] تتعجب يا محمد من صنيع هؤلاء [الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك] من القرآن [وما أُنزل من قبلك] من التوراة و الإنجيل .

[يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت] يعني كعب بن الأشرف أو غيره حسبما شرّح من الأوثان أو الكهّان . قال الصادق و الباقر عليهما السلام : إنّ المعنيّ به من الطاغوت كلّ من يتحاكم إليه ممّن يحكم بغير الحقّ وقد اُمروا أن يكفروا به [ويريد الشيطان] بما زيّن لهم [أن يضلّهم ضلالاً بعيداً] عن الحقّ .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة حيث نسب سبحانه إضلالهم إلى الشيطان فلو كان الله قد أضلّهم بخلق الضلالة فيهم على ما يقوله المجبّرة لنسب إضلالهم إلى نفسه دون الشيطان ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

قوله تعالى : [وإذا قيل لهم] أي المنافقين [تعالوا إلى ما أنزل الله] في القرآن من الأحكام [وإلى] حكم [الرسول] [رأيت] يا محمّد [المنافقين يصدّون عنك] ويعرضون عن المصير إليك إلى غيرك [صدوداً] وإعراضاً .

فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت ايديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا الا احساناً وتوفيقا (٦٢) اولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى انفسهم قولا بليغاً (٦٣) .

موضع « كيف » رفع بأنّه خبر مبتدء محذوف والتقدير : [فكيف] صنيع هؤلاء إذا نالتهم من الله عقوبة بما كسبت [أيديهم] من النفاق وإظهار السخط لحكم النبيّ وعدم القبول لحكمه .

[ثمّ جاؤوك] يا محمّد يقسمون [بالله] ما [أردنا] بالتحاكم إلى غيرك [إلّا] التخفيف عنك فإنّا نحتشمك برفع الصوت في مجلسك ونقتصر على ما يتوسّط لنا برضى الخصمين ، ومعنى التوفيق الجمع والتأليف وطلباً لما يوافق الحقّ قالوا : إنّ المعنيّ بالآية عبدالله بن اُبيّ .

والمصيبة ما أصابه من الذلّ برجعتهم من غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع حتّى نزلت سورة المنافقين واضطرب إلى الخشوع والاعتذار ، أو مصيبة الموت لمّا تضرّع إلى رسول الله و استوهبه ثوبه صلّى الله عليه وآله ليتّقي به النار قالوا : ما أردنا بالكلام بين الفريقين المتنازعين في غزوة بني المصطلق إلّا الإصلاح ، وهذا قول حسين بن عليّ المغربيّ .

[أُولئك] أي المنافقون [الّذين يعلم الله مافي قلوبهم] من النفاق فلايغني عنهم الحلف الكاذب والكتمان من العذاب [فأعرض عنهم] أي لاتقبل عذرهم [وعظهم] أي ازجرهم عن النفاق [وقل لهم في أنفسهم] أي في حقّ أنفسهم الخبيثة ، أو المراد من قوله : « في أنفسهم » أي خالياً بهم ليس معهم غيرهم مشاراً بالنصيحة لأنّها في السرّ أنجح [قولاً بليغاً] مؤثراً واصلاً إلى كنه المراد مثل أن تقول : إنّ الله يعلم سرّكم ولايغني عنكم إخفاؤه فطهّروا قلوبكم من الشرك والنفاق وإلّا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين .

قوله تعالى : وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً (٦٤) .

ثمّ لامهم سبحانه على ردّهم أمر الرسول وذكر أنّ غرضه من البعثة الطاعة أي لم نرسل رسولاً من رسلنا [إلّا ليطاع] الرسول بسبب إذنه سبحانه وأمره بطاعة الرسل لأنّه مؤدّ عنه وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله .

وهذه الآية دالّة على أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصي والذنوب لأنّها دلّت على وجوب طاعتهم مطلقاً فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الإطاعة لهم و الاقتداء بهم في تلك المعصية فيصير تلك المعصية واجبةً علينا وكونها معصية يوجب كونها محرّمة علينا فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد وإنّه محال .

وأيضاً في الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة ؛ قال أبو عليّ الجبّائيّ : معنى الآية : وما أرسلت من رسول إلّا وأنا مريد أن يصدّق ويطاع ولم أُرسله ليعصى ، فلو لم تكن في في القرآن مايدلّ على بطلان قولهم إلّا هذه الآية لكفى لأنّ معصيتهم للرسل غير مرادة لله .

قوله : [ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم] وعرضوها للعذاب بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك [جاؤوك] تائبين من النفاق [فاستغفروا الله] بالتوبة والإخلاص [واستغفر لهم الرسول] بأن يسأل الله أن يغفر لهم عند توبتهم .

فإن قيل : لو تابوا على وجه صحيح لقبلت توبتهم فما الفائدة في ضمّ استغفار الرسول إلى استغفارهم .

فالجواب أنّ التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله وإساءة إلى الرسول و إدخال الغمّ إلى قلبه الشريف ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الغير .

[لوجدوا الله] وصادفوه حال كونه تعالى [توّاباً رحيماً] مبالغاً في قبول التوبة وفي الترحّم بفضله عليهم .

فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥) .

سبب النزول : قال عطا ومجاهد و الشعبيّ : إنّ هذه بقيّة قصّة اليهوديّ والمنافق الّذي مرّ شرحه و متّصلة بماقبلها .

وقيل : نازلة في قصّة اُخرى وهوماروي عن عروة بن الزبير أنّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في ماء يسقى به النخل فقال النبيّ صلى الله عليه وآله للزبير اسق أرضك ثمّ أرسل الماء إلى أرض جارك.فقال الأنصاريّ : لأجل أنّه ابن عمّتك.فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال : للزبير اسق أرضك يازبير إلى أن يبلغ الماء الجدر واستوف حقّك ثمّ أرسل إلى جارك .

والحكم في المسألة كما حكم به العدل صلى الله عليه وآله لأنّ من كان أرضه أقرب إلى فم الوادي والماء فهو أولى بالماء وحقّه تمام السقي فالرسول صلى الله عليه وآله أذن للزبير وأشار برأي فيه السعة له ولخصمه فلمّا ردّ الرجل - واسمه حاطب بن أبي بلتعة - قوله صلى الله عليه وآله ولوى شدقيه وأساء الأدب ولم يعرف حقّ ما أمر به الرسول من المسامحة أمر النبيّ الزبير باستيفاء حقّه على سبيل التمام وحمل خصمه على مرّ الحقّ حتّى يهتدي للحقّ ويرضى به .

قال الراوي : ثمّ خرجا فمرّا على المقداد فقال : لمن كان القضاء ياأبابلتعة[1]؟ قال : قضى لابن عمّته ولوى شدقه ففطن لذلك يهوديّ كان مع المقداد فقال : قاتل الله هؤلاء يشهدون أنّه رسول الله ثمّ يتّهمونه وأيم الله لقد أذنبنا مرّةً واحدةً في حياة موسى فدعانا

(١) كذا في الاصل .

موسى إلى التوبة فقال : «اقتلوا أنفسكم» ففعلنا فبلغ قتلنا سبعين ألفاً في طاعة ربّنا حتّى رضي عنّا .

المعنى : [فلاوربّك] معناه :فوربّك ، فحينئذ «لا » مزيدة لتأكيد معنى القسم كما زيدت في قوله تعالى : «لئلاّ يعلم أهل الكتاب[1]» لتأكيد وجوب العلم وقوله : [لايؤمنون] جواب القسم والقول الثاني : أنّ « لا » مفيدة والتقدير : ليس الأمر كما يزعمون أنّهم آمنوا ثمّ استأنف القسم بقوله : « فلاوربّك لايؤمنون حتّى يحكّموك» لأنّ الإيمان إنّما هو بالتزام حكم الرسول والرضاء به ولايدخلون في الإيمان حتّى يجعلوك حاكماً [فيما شجر بينهم] من الخصومة والتبس عليهم من أحكام الشريعة .

[ثمّ لايجدوا في أنفسهم] وقلوبهم شكّاً [وحرجاً] في أنّ ماقلته حقّ [ممّاقضيت] وحكمت [ويسلّموا تسليماً] أي ينقادون لحكمك ويقبلوه خاضعين لأمرك ؛ قال الصادق عليه السلام : لو أنّ قوماً عبدوا الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا رمضان وحجّوا البيت ثمّ قالوا لشيء صنعه رسول الله : هلاّ صنع خلاف ماصنع ؟ أووجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم لكانوا مشركين ، ثمّ تلا هذه الآية .

قوله : ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم ولو انهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتاً (٦٦) واذا لاتيناهم من لدنا اجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما (٦٨) .

« لو » يمتنع بها الشيء لامتناع غيره ؛ تقول : لوأتاني زيد لأكرمته ، فالمعنى أنّ إكرامي امتنع لامتناع إتيان زيد .

المعنى : أخبر سبحانه عن سرائر القوم فقال : [ولوأنّا كتبنا] وأوحينا وفرضنا على هؤلاء القوم الّذين تقدّم ذكرهم [أن اقتلوا أنفسكم أواخرجوا من دياركم] كما أوحينا إلى قوم موسى ذلك فقتلوا أنفسهم وخرجوا إلى التيه [مافعلوه] هؤلاء للمشقّة الّتي لايتحمّلها إلاّالمخلصون .

(١) الحديد : ٢٩ .

[إلّا قليلٌ منهم] قيل : إنّ القليل الّذي استثنى الله هو ثابت بن قيس بن شماس فإنّه قال : أما والله إنّ الله ليعلم منّي الصدق فلو أمرني محمّد أن أقتل نفسي لفعلت وقيل: المستثنون جماعة معدودة من أصحاب رسول الله قالوا : لو أمرنا سبحانه لفعلنا فالحمد لله الّذي عفانا ، فمنهم عبدالله بن مسعود وعمّار فقال النبيّ ﷺ : إنّ من اُمّتي لرجالاً الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي .

[ولو أنّهم فعلوا مايوعظون به] ويؤمرون به وامتثلوا [لكان] الامتثال [خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً] أي أدعى له إلى الثبات في الدين وأقوى في اعتقاد الحقّ .قال البلخيّ : معنى الآية : لو فرض عليهم القتل أوالخروج من أوطانهم ولم يفعلوا فإذاً لم يفرض عليهم ذلك فليفعلوا ما فرض عليهم و أسهل عليهم منه فإنّ ذلك خير لهم و أشدّ تثبيتاً لهم على الإيمان كما في الدعاء اللهمّ ثبّتنا على دينك ومعناه : الطف لنا مانثبت عليه معه .

[وإذاً لآتيناهم] متّصل بما قبله أي ولو فعلوا ذلك لأعطيناهم [من لدنّا] أي من عندنا [أجراً عظيماً] لايبلغ أحدٌ كنهه ومنتهاه وإنّما ذكر « من لدنّا» تأكيداً بأنّه لايقدر عليه غيره ودلالةً على التشريف والاختصاص فإنّ الأجر يجوز أن يصل إلى المثاب على يد بعض العباد .

[ولهديناهم صراطاً مستقيماً] أي أثبتناهم مع ذلك على الطريق المستقيم ويلزمون الاستقامة و وفّقناهم الهداية إلى طريق الجنّة .

قوله تعالى : ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما (٧٠) .

نزلت الآية في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحبّ لرسول الله قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه فقال ﷺ : ياثوبان ماغيّر لونك ؟ فقال : يارسول الله مابي من مرض ولا وجع غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك حتّى ألقاك ثمّ ذكرت الآخرة فأخاف أنّي لا أراك هناك لأنّي عرفت أنّك ترفع مع النبيّين وإنّي إن اُدخلت الجنّة كنت في منزل أدنى من منزلك وإن لم أدخل الجنّة فذاك حين لا أراك أبداً فنزلت

الآية ثمّ قال ﷺ : والّذي نفسي بيده لايؤمننّ عبد حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين .

وقيل : إنّ أصحاب رسول الله قالوا : مثل هذا الكلام فنزلت الآية .

المعنى : بيّن سبحانه حال المطيعين فقال : [ومن يطع الله] بالانقياد لأمره ونهيه [والرسول] باتّباع شريعته والرضا بحكمه [فاُولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين] الصدّيق المداوم على التصديق بما أوجبه الحقّ أوعادته الصدق والمراد أنّهم يتمتّعون برؤية النبيّين والصدّيقين وزيارتهم والحضور معهم فلاينبغي أن يتوهّم من أجل أنّهم في أعلى علّيين أنّه لايراهم .

لكن من المعلوم أنّه ليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيّين و الصدّيقين كون الكلّ في درجة واحدة لأنّ هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل و المفضول بل المراد كونهم في الجنّة بحيث يتمكّن كلّ واحد منهم من رؤية الآخر وإن بعد المكان فيزول الحجاب فيشاهد بعضهم بعضاً متى شاؤوا فهذا هو المراد من هذه المعيّة .

[و الشهداء و الصالحين] أي المقتولين في الجهاد و إنّما سمّي الشهيد شهيداً لقيامه بشهادة الحقّ على جهة الإخلاص وإقراره به ودعائه إليه حتّى قتل . وقيل : إنّما سمّي شهيداً لأنّه من شهداء الآخرة على الناس و هم عدول الآخرة ، و الصالحين صلحاء المؤمنين الّذين لم تبلغ درجتهم درجة النبيّين و الصدّيقين والشهداء ، و الصالح الفاعل للصلاح الملازم له المتمسّك به .

[وحسن اُولئك رفيقاً] أي من كان هؤلاء رفقاءه فما أحسنهم من رفيق ، و معنى الرفيق ليّن الجانب و اللطف و الرفيق الصاحب الموصوف بالرفق ؛ قال الواحديّ إنّما وحّد « الرفيق » وهو صفة الجمع لأنّ الرفيق والبريد والرسول تذهب به العرب إلى الواحد والجمع قال الله : « إنّا رسول ربّ العالمين[1] » وقيل : معنى « وحسن اولئك رفيقاً » أي حسن كلّ واحد منهم رفيقاً .

وروى أبو بصير عن الصادق أنّه قال : يا أبا محمّد لقد ذكركم الله في كتابه ثمّ تلا هذه

---

(١) الشعراء : ١٦ .

الآية قال : فالنبيّ رسول الله ونحن الصدّيقون والشهداء وأنتم الصالحون فاتّسموا بالصلاح كما سمّاكم الله .

[ذلك] إشارة إلى أنّ الكون مع النبيّين والصدّيقين فضل [من الله] تفضّل به على من أطاعه [وكفى بالله عليماً] بالمطيعين والعاصين والمنافقين والمخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ومن لا يصلح .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً (٧١) .

لمّا أمر الله الناس بطاعته وطاعة رسوله رغّبهم في الجهاد لدينه لأنّه أعظم الأُمور الّتي بها يحصل تقوية الدين فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا خذوا حذركم] الحذر و الحذر بمعنى واحد كالمثل ومثل والإثر والأثر . يقال : أخذ حذره إذا تيقّظ واحترز من المخوف كأنّه جعل الحذر آلته الّتي بها يقي نفسه وحاصل المعنى : احذروا من العدوّ ولا تمكّنوه من أنفسكم .وقيل : المراد من الحذر في الآية السلاح أو أنّ الأمر بالحذر يتضمّن الأمر بأخذ السلاح فأخذ السلاح معنى مدلول عليه بفحوى الكلام .

فإن قيل : ذلك الّذي أمر الله تعالى بالحذر عنه إن كان مقضيّ الوجود لم ينفع الحذر وإن كان مقضيّ العدم لا حاجة إلى الحذر فالأمر بالحذر حينئذ عبث والمقدور كائن ، وقيل أيضاً : الحذر لا يغني عن القدر .

فالجواب أنّ تعطيل الأسباب أيضاً مناف للقدر ولمّا كان الكلّ بقدر كان الأمر بالحذر وتهيّؤ الأسباب أيضاً داخلاً في القدر و إلّا بطل القول بالشرائع فإنّه يقال : إن كان الإنسان من أهل السعادة في قضاء الله وقدره فلا حاجة إلى الإيمان وإن كان من أهل الشقاوة لم ينفعه الإيمان والطاعة فهذا يفضي إلى سقوط التكليف بالكلّيّة .

قوله تعالى : [فانفروا ثبات] يقال : نفر القوم نفراً ونفيراً إذا نهضوا لقتال العدوّ و استنفر الإمام الناس إذا حثّهم على الجهاد و دعاهم إلى النفير ، و معنى الآية : فانفروا إلى قتال عدوّ الدين ثبات أي إمّا جماعات متفرّقة ثبة بعد ثبة وسريّة بعد سريّة فرقة في جهة

وفرقة في جهة أُخرى وإمّا كلّكم مجتمعين كوكبة واحدة [أوانفروا جميعاً] إذا أوجب الرأي والصلاح . وروي عن أبي جعفر عليه السلام في معنى الآية أنّ المراد بالثبات السير بجميع العسكر .

قوله تعالى : وان منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله عليّ اذ لم اكن معكم شهيدا (٧٢) ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فافوز فوزا عظيما (٧٣) .

اللام في قوله : « لمن » لام الابتداء ، واللام الثانية في « ليبطئنّ » لام القسم بدلالة دخولها على الفعل مع نون التأكيد .

المعنى : ولمّا حثّ الله على الجهاد بيّن حال المتخلّفين عنه فقال : [وإنّ منكم] والخطاب لعسكر رسول الله كلّهم المؤمنين منهم والمنافقين والمبطّئون منافقوهم وقد جعل المنافقين داخلاً فيهم لأنّهم منهم في حكم الظاهر من أحكام الشريعة من حقن الدم والموارثة والمناكحة، أو الخطاب للجميع من باب الاختلاط في النسب والاتّحاد في الجنس. قرىء «يبطّئنّ» بالتشديد و « يبطئنّ » بالتخفيف والمعنى واحد أي من أعدادكم من يتأخّر عن الخروج مع النبيّ صلى الله عليه وآله .

[فإن أصابتكم مصيبة] من قتل أو هزيمة [قال] قول الشامت المسرور بتخلّفه : [قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً] حاضراً في القتال فكان يصيبني ما أصابهم ، قال الصادق عليه السلام : لو أنّ أهل السماء و الأرض قالوا : قد أنعم الله علينا إذ لم نكن مع رسول الله ، لكانوا بذلك مشركين .

[و لئن أصابكم فضل من الله] أي فتحٌ أو غنيمة ليقولنّ ياليتني كنت معهم وقوله : [كأن لم تكن بينكم وبينهم مودّة] اعتراض متّصل بما قبله مؤكّد لقولهم : « قد أنعم الله علينا » والتقدير قال : « قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً كأن لم يكن بينكم وبينه مودّة ، وحاصل الكلام أنّه لا يعاضدكم على قتال عدوّكم ولا يرعى الذمام الّذي بينكم .

وقوله : [ليقولنّ ياليتني كنت معهم فأفوز] من الغنيمة [فوزاً عظيماً] هذا التمنّي من قول المبطّئين القاعدين .

قوله تعالى : فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيوة الدنيا بالاخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيماً (٧٤) .

لمّا وبّخ الله المبطّئين في الآية السابقة حثّ المؤمنين في هذه الآية على القتال فقال : [فليقاتل في سبيل الله] هذا أمرٌ من الله و ظاهر أمره يقتضي الوجوب أي فليجاهد في طريق دين الله [الّذين يشرون] أي يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية بتوطين أنفسهم على القتال في طاعتة يقال : شريت بمعنى بعت واشتريت بمعنى ابتعت .

[ومن يقاتل في سبيل الله] أي يجاهد في طريق دين الله وطاعة ربّه بأن يبذل نفسه ابتغاء مرضات الله [فيقتل] بأن يستشهد [أو يغلب] و يظفر بالعدوّ فكأنّه قال : هو فائز باحدى الحسنيين إن غلب أوغلب [فسوف نؤتيه أجراً عظيماً] أي نعطيه ثواباً لا يقادر قدره .

وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء و الولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك نصيراً (٧٥) .

المراد منه تعالى إنكاره لتركهم القتال و تأكيداً في الأمر بالجهاد أي لا عذر لكم في ترك المقاتلة وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان من المسلمين إلى ما بلغ في الضعف ، وفي القتال تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة وفي الجهاد إعزاز دين الله و نصرته .

والمراد من الرجال والمستضعفين قوم من المسلمين بقوا بمكّة ولم يستطيعوا الهجرة منهم سلمة بن هشام و الوليد بن الوليد و عياش بن أبي ربيعة وأبو جندب بن سهيل و كانوا جماعة يدعون الله أن يخلصهم من أيدي المشركين و يخرجهم من مكّة وهم [الّذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها] أي كانوا يقولون في دعائهم : ربّنا سهّل

علينا الخروج من مكّة . و المراد بقوله «الظالم أهلها» أي الّتي ظلم أهلها بافتتان المؤمنين عن دينهم و منعهم الهجرة .

[واجعل لنا] بألطافك [من لدنك] أي من عندك وليّاً يلي أمرنا حتّى ينقذنا من أيدي الظلمة [نصيراً] ينصرنا على من ظلمنا فاستجاب الله دعاءهم وفتح رسول الله مكّة وجعل الله نبيّه لهم وليّاً فاستعمل ﷺ على مكّة عتاب بن اسيد فكان ينصف الضعيف من القويّ فصار المستضعفون أعزّ فيها من الظلمة .

وفي الآية دلالة على تعظيم موقع الدعاء من الله وإبطال قول من زعم أنّ العبد لا يستفيد بالدعاء شيئاً . قال صاحب الكشّاف : و يجوز أن يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر و بالولدان العبيد والإماء ؛ لأنّ العبد و الأمة يقال لهما الوليد و الوليدة وجمعهما الولدان والولائد إلّا أنّه جعل ههنا الولدان جمعاً للذكور والإناث تغليباً للذكور على الإناث .

فإن قيل : إنّ القرية مؤنّثة وقوله : « الظالم أهلها » صفة للقرية و لذلك خفض فكان ينبغي أن يقال : الظالمة أهلها .

فالجواب أنّ النحويّين يسمّون مثل هذه الصفة الصفة المشبّهة باسم الفاعل فالأصل في هذا الباب أنّك إذا أدخلت الألف واللام في الأخير لابدّ من المطابقة وإذا لم تدخل الألف و اللام في الأخير حملتها على الثاني فحينئذ إذا أدخلت الألف و اللام على الأهل لقلت : من هذه القرية الظالمة الأهل . ثمّ إنّ نسبة الظلم في المعنى إلى الأهل لا إلى القرية النهاية أنّ الأهل منتسبون إلى القرية .

قوله تعالى : الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله و الذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦) .

ثمّ رغّبهم سبحانه في الجهاد بشرط أن يكون الغرض فيه رضى الله فالمؤمنون يقاتلون لغرض نصرة دين الله وإعلاء كلمته والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت وطاعته ، ولمّا ذكر سبحانه هذه القسمة أنّ القتال إمّا أن يكون في سبيل الله أوفي سبيل الطاغوت

وجب أن يكون ماسوى قصد الله طاغوتاً .

ثمّ أمر الله بأن يقاتلوا أولياء الشيطان و قال : [إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً] لأنّ الله ينصر أولياءه ، والكيد السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال .

قال الرازيّ : وفائدة إدخال «كان» في قوله : «كان ضعيفاً» تأكيد الضعف بمعنى أنّه قدكان موصوفاً بالضعف و الذلّة ، النهاية أنّ أولياءه يقوّونه بإطاعته .

قوله : الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب قل متاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا (٧٧) .

النزول : قال الكلبيّ : نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهريّ و المقداد بن أسود الكنديّ و قدامة بن مظعون الجمحيّ وسعد بن أبي وقّاص كانوا يلقون من المشركين أذىً شديداً وهم بمكّة قبل أن يهاجروا إلى المدينة فيشكون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و يقولون : ائذن لنا في قتال هؤلاء فإنّهم قدآذونا فلمّا اُمروا بالقتال وبالمسير إلى بدرشقّ على بعضهم فنزلت الآية ، فقال :

[ألم تر إلى الّذين قيل لهم] وهم بمكّة [كفّوا أيديكم] و أمسكوا عن قتال الكفّار فإنّي لم اُومر بقتالهم و اشتغلوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة [فلمّا كتب]وفرض [عليهم القتال] وهم بالمدينة [إذا فريق منهم] و جماعة [يخشون] ويخافون القتل من الناس [كخشية الله] أي كمايخافون الموت من الله أو المعنى : يخافون الناس أن يقتلوهم كمايخافون الله أن يتوفّاهم ويخافون عقوبة الناس بالقتل كما يخافون عقوبة الله .

[أو أشدّ خشية] قيل : إنّ «أو» في الآية بمعنى الواو . و قيل : إنّ «أو» في مثل هذه الموارد لإبهام الأمرعلى المخاطب مثل قوله : «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون[1]» كذلك ههنا يعنى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشدّ من خشية الله .

[وقالوا ربّنا لمَ كتبت علينا القتال] قيل : لم يقولوا ذلك كراهية لأمر الله و

(١) الصافات : ١٤٧ .

اعتراضاً ولكن لدخول الخوف عليهم بذلك على مايكون من طبع البشر ، أو قالوا ذلك استفهاماً لاإنكاراً . وعلى كلّ حال فلو لم يقولوا ذلك لكان خيراً لهم [لولا أخّرتنا] أي هلاّ أخّرتنا [إلى أجل قريب] وهو إلى أن نموت بآجالنا .

فبيّن الله سبحانه أنّ الدنيا بما فيها من المنافع قليل فقال : [قل] يا محمّد لهؤلاء : متاع الدنيا وجميع مايستمتع بها من منافع الدنيا [قليل]لايبقى [والآخرة خير لمن اتّقى ولا تظلمون فتيلاً] أي لايبخسون هذا القدر القليل فكيف ما زاد عليه ؟ و«الفتيل » ماتفتله بيدك من الوسخ ثمّ تلقيه ، عن ابن عبّاس . وقيل : مافي شقّ النواة وهو يشبه الخيط الرقيق المفتول .

قوله تعالى : اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عندالله و ان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٧٨) .

و «أينما» في هذه الآية تكتب موصولة وفي «أين ما كنتم توعدون » تكتب مفصولة لأنّ «ما» ههنا مزيدة وهنالك بمعنى الّذي فوصلت هذه كما توصل الحروف وفصلت تلك كما تفصل الأسماء .

[أينما تكونوا يدرككم الموت] المقدّر أو العذاب وفي لفظ الإدراك إشعار بأنّهم في الهرب منه وهو مجدّ في طلبهم .

[وإن كنتم في] قصور عالية محكمة بالشيد و هو الجصّ بحيث لا يصعد إليها بنو آدم .

قال مجاهد في هذه الآية : كان فيمن قبلكم امرأة و كان لها خادم فولدت جارية فقالت لخادمها: اقتبس لنا ناراً فخرج فوجد بالباب رجلاً فقال له الرجل : ماولدت هذه المرأة ؟ قال : جارية ، قال الرجل : أمّا هذه الجارية لاتموت حتّى تزني بمائة ويتزوّجها خادمها و يكون موتها بالعنكبوت ، فقال الخادم عند نفسه : فأنا اُريد هذه بعد أن تفجر بمائة حاشا لأقتلنّها البتّة فأخذ شفرة فدخل وشقّ بطن الصغيرة وخرج على وجهه و ركب البحر فخيط بطن

الصبيّة وعولجت وبرئت وشبّت فكانت تزني فأتت ساحلاً من سواحل البحر فأقامت عليه تزني و لبث الرجل الخادم ماشاء الله ثم بعد مدة قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل الساحل اطّلعي لي امرأة من أجمل النساء أتزوّجها ، فقالت : ههنا امرأة من أجمل النساء ولكنّها تفجر ، فقال : ايتيني بها، فأتتها فقالت : قد قدم رجل له مال كثير و قال لي كذا ،و كذا فقالت : إنّي تركت الفجور ولكن إن يتزوّجني تزوّجته.قال : فتزوّجها فوقعت منه موقعاً فبينما هو عندها إذا أخبرها بأمره فقالت : أنا تلك الجارية وأرته الشقّ في بطنها ، وقد كنت أفجر فما أدري بمائة أو أقلّ أو أكثر فقال زوجها في نفسه : إنّ الرجل الّذي كان خارج الباب قال : يكون موتها بالعنكبوت ثمّ أخبرها بذلك. قال : فبنى لها برجاً في الصحراء و شيّد بأحكم بناء فبينما هي يوماً في ذلك البرج إذاً عنكبوت في السقف فقالت : هذا يقتلني لأقتلنّه إذ لايقتله أحد غيري فحرّكته فسقط فأتته فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته فساح سمّه بين ظفرها و اللحم فاسودّت رجلها فماتت ، وفي ذلك نزلت هذه الآية .

وأجمعت الاُمّة على أنّ الموت أجله غير معلوم وذلك ليكون المرء على اُهبة من ذلك مستعدّاً ليومه قال ﷺ : أكثروا ذكر هادم اللذّات.

والمراد من الآية تبكيت للّذين قالوا : «ربّنا لمَ كتبت علينا القتال» فبيّن سبحانه أنّه لاخلاص من الموت لكم و الجهاد موت مستعقب لسعادة الآخرة فإذا كان لابدّ من الموت فبأن يقع على وجه يكون مستعقباً للسعادة كان أولى.والبروج في أصل اللغة الظهور و القصور العالية حيث إنّها ظاهرة سمّيت بروجاً ، يقال : تبرّجت المرأة إذا أظهرت محاسنها .

[وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله] أي إنّ هؤلاء المنافقين المتثاقلين عن الجهاد خوفاً من الموت فيهم خصلة قبيحة اُخرى وهي : إن أصابوا راحة أو غنيمة قالوا : «هذه من عند الله» وإن أصابهم مكروه قالوا : هذه من شؤم مصاحبة محمّد ﷺ . قال المفسّرون : كانت المدينة وقت مقدم رسول الله ﷺ مملوءة من النعم فلمّا علا أمر رسول الله ﷺ ظهر عناد اليهود والمنافقين و اشتغلوا بالإفساد في أمر محمّد ﷺ فأمسك الله عنهم بعض الإمساك فعند ذلك قال المنافقون واليهود : مارأينا أعظم شؤماً من هذا الرجل نقصت ثمارنا وغلت

أسعارنا كما حكى سبحانه عن قوم موسى «وإن تصبهم سيّئة يطّيّروا بموسى [١]» و المراد بالحسنة و السيّئة السرّاء و الضرّاء و البؤس والنعيم .

[قل] يا محمّد . [كلّ من عند الله] أي جميع ما مضى ذكره من الموت و الحياة و الخصب والجدب من عنده وبقضائه لايقدر أحد على ردّه ودفعه ابتلى بذلك عباده ليعترضهم لثوابه بالشكر عند العطيّة والصبر على البليّة [فما لهؤلاء القوم] أي ماشأن هؤلاء المنافقين [لايكادون يفقهون حديثاً] أي، لا يقربون فقه معنى الحديث الّذي هو القرآن لأنّهم يبعدون عنه بإعراضهم و كفرهم به .

فإن قيل : إنّ الطاعات والمعاصي داخلتان تحت اسم الحسنة و السيّئة فالآية دالّة على أن جميع الطاعات والمعاصي من الله .

فالجواب أنّه باتّفاق الأئمّة على أنّ هذهالآية مفسّرة و نازلة في معنى السرّاء و الضرّاء و الخصب والجدب فكانت مختصّة بهما ولمّا كان لفظ الحسنة واقعاً بالاشتراك على الطاعة وعلى المنفعة .

و قد أجمع المفسّرون على أنّ المنفعة مرادة فيمتنع كون الطاعة مرادة ضرورة أنّه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه فدليل الجبريّة في هذه الآية فاسد ، انتهى .

ثمّ إنّه سبحانه وصف القرآن بأنّه حديث والحديث فعيل بمعنى مفعول فيلزم منه أن يكون القرآن محدثاً .

قوله : ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك وارسلناك للناس رسولا و كفى بالله شهيداً (٧٩) .

الخطاب للرسول و المراد الاُمّة . وقيل : للإنسان أي ماأصابك أيّها الإنسان من نعمة في الدين أو الدنيا فإنّها من الله [وما أصابك من سيّئة] من المعاصي [فمن نفسك] وقيل : الحسنة النعمة والرخاء و السيّئة القحط و البلاء والمكاره و الأذاة و الشدائد الّتي تصيبهم في الدنيا بسبب المعاصي الّتي يفعلونها فيكون المعنى على هذا: ما أصابك من الصحّة

(١) الاعراف : ١٣٠ .

و السلامة و سعة الرزق و النعم ديناً و دنياً فمن الله وما أصابك من المحن و الآلام و المصائب فبسبب ما تكسب من الذنوب كما قال الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم[١] » .

وفسّره أبو القاسم البلخيّ فقال : ما أصاب المكلّف من مصيبة فهي كفّارة ذنب صغير أو عقوبة ذنب كبير أو تأديب وقع لأجل تفريطها وقد قال النبيّ ﷺ : مامن خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلّا بذنب ومايعفو الله عنه أكثر .

وقيل : معنى «فمن نفسك » أي فمن فعلك ، وفي نظم الآية مايوافق المعنى لأنّهم كانوا يقولون : إنّ هذه الشدائدبشؤم الرسول ، فأجاب الله أنّ ماأصابهم فبشؤم ذنوبهم و أنت يا محمّدرسول طاعتك طاعة الله ومعصيتك معصية الله لايطيّر بك ، بل الخير كلّه فيك .

[و أرسلناك للناس رسولاً] أي رسولاً للناس جميعاً لست برسول العرب كمايزعمه بعض اليهود بل أنت رسول العجم والعرب كقوله : «وماأرسلناك إلّا كافّة للناس[٢]» فرسولاً حال قصدبها التعميم في الرسالة والجارمتعلّق بها قدّم عليها للاختصاص [و كفى بالله شهيداً] على رسالتك بنصب المعجزات .

وقوله : [وما أصابك من سيّئة فمن نفسك] لاينا في قوله : « كلّ من عند الله » فإنّ الكلّ منه إيجاداً غير أنّ الحسنة إحسان و السيّئة مجازاة وانتقام و للأعمال أربع مراتب:منهامرتبتان لله وليس للعبد فيهما مدخل وهما التقدير والخلق ، ومنها مرتبتان للعبد الكسب والفعل فإنّ الله منزّه عن الكسب وفعل السيّئة وإنّ هذين المرتبتين متعلّقتان بالعبد لكنّ العبد قدرته على الكسب من الله فقوله : « قل كلّ من عند الله » أي خلقاً وتقديراً بسبب سابقة علمه تعالى بفعل العبد لا كسباً وفعلاً من الله،تعالى الله عن ذلك .

من يطع الرسول فقداطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظاً (٨٠)

روي أنّه ﷺ قال : من أحبّني فقد أحبّ الله ومن أطاعني فقد أطاع الله فقال المنافقون : لقدقارف الشرك وهوينهى عنه مايريد إلّا أن نتّخذه ربّاً كما اتّخذت النصارى عيسى فنزلت الآية فبيّن سبحانه أنّ طاعة النبيّ ﷺ من حيث و افقت إرادته تعالى

(١) الشورى : ٣٠ . (٢) السبأ : ٢٨ .

فإنّها طاعة الله على الحقيقة إذكانت بأمره وإرادته .

[ومن تولّى] وأعرض ولم يطع [فما أرسلناك عليهم حفيظاً] وحافظاً لهم من التولّي والإعراض حتّى يسلموا وكان هذا أوّل ما بعث كما قال في موضع آخر : « إن عليك إلّا البلاغ [(١)] »ثمّ اُمر فيما بعد بالجهاد . و قيل : المعنى فما أرسلناك حافظاً لأعمالهم الّتي يقع الجزاء عليها فتخاف أن لاتقوم بها . وقيل : المعنى حافظاً لهم من المعاصي .

وفي الآية تسلية للنبيّ في تولّي النّاس عنه مع مافي الآية من تعظيم شأنه بكون طاعته طاعة الله .

ثمّ بيّن أنّ المنافقين أظهروا طاعته و أضمروا خلافه بقوله :

ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فاعرض عنهم وتوكل على الله و كفى بالله وكيلا (٨١) .

أي [يقولون] إذا أمرتهم بشيء [طاعة] بالرفع أي شأننا طاعة وإجابة لأمرك ، وقرىء بالنصب أي أطعناك طاعة ، لكنّ الرفع يدلّ على الاستقرار والثبات .

[فإذا برزوا من عندك] وخرجوا من مجلسك [بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول] والتبييت في الأمر هو أن يتفكّر ويتفكّر فيه كثير واشتقاقه من البيتوتة ولمّا كان أصلح الأوقات للفكر أن يجلس الإنسان في بيته بالليل ويعمل فكره فيه سمّي الفكر المستقصى مبيّتاً أو مأخوذ من بيت الشعر لأنّ الشاعر يبالغ في التفكّر إذا أراد أن ينشد في القريض ونسجه ، والمراد أنّهم غيّروا بالليل وبدّلوا ما قالوه بأن أضمروا الخلاف عليك فيما أمرتهم به و نهيتهم عنه أو المعنى دبّروا ليلاً غير ما أطاعوا نهاراً ، وهو قريب من معنى الأوّل .

[والله يكتب ما يبيّتون] في اللوح ليجازيهم به أو المراد من « يكتب » ينزله إليك في الكتاب [فأعرض عنهم] فأمر نبيّه بالإعراض عنهم وأن لايسمّيهم بأعيانهم إلى أن يستقرّ الإسلام و يعلو أمره وفوّض أمرك إليه تعالى [وكفى بالله وكيلاً] فثق به .

قوله : افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٨٢) واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول و

(١) الشورى : ٤٨ .

الى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان الا قليلا (٨٣) .

ولمّا كان المنكرون نبوّته ﷺ يعتقدون أنّه متخرّص فلا جرم أمرهم الله بأن يتفكّروا في صحّة نبوّته بالدليل فقال : [أفلا يتدبّرون القرآن] والتدبّر عبارة عن النظرفي عاقبة الأمور وأدبارها .

ودلالة القرآن على صحّة نبوّته وصدق محمّد ﷺ من ثلاثة أوجه : أحدهافصاحته وثانيها : اشتماله على الأخبار عن الغيوب والثالث : سلامته عن الاختلاف ؛ وكان المنافقون يتواطئون في السرّ على أنواع من المكر والكيدو الله سبحانه يطّلع الرسول حالاً فحالاً ويخبره فذلك لولم يحصل بأخبار الله وإلّا لما اطّرد الصدق وكان يظهرفي قول محمّد ﷺ أنواع الاختلاف فلمّا لم يظهر ذلك علم أنّ ذلك بإخبارالله إيّاه .

والقرآن كتابٌ كبيرٌ ومشتمل على أنواع كثيرة من العلوم فلوكان من عند غيرالله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ، والقرآن يصدّق بعضه بعضاً .

فإن قيل : أليس قوله مثلاً : «فوربّك لنسألنّهم أجمعين[(١)]» كالمناقض لقوله : «فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنسٌ ولاجانّ[(٢)]» وكذلك آيات الجبر كالمناقضة لآيات القدر ؟

فالجواب أنّ هذا كلام من لايعلم علم التفسير وإلّا فمعلوم عند أهل العلم أنّه لا منافاة ولا مناقضة بين شيء منها البتّة .

قال أبومسلم الإصفهانيّ : إنّ عدم الاختلاف حاصل أيضاً في الفصاحة بحيث لايكون في جملته مايعدّ في الكلام الركيك بل بقيت الفصاحة فيه من أوّله إلى آخره على نهج واحد ومن المعلوم أنّ الإنسان وإن كان في غاية البلاغة و نهاية الفصاحة إذا كتب كتاباً طويلاً مشتملاً على المعاني الكثيرة فلابدّ و أن يظهر التفاوت في كلامه بحيث كان بعضه قويّاً محكماً وبعضه منحلاً نازلاً ، ولمّا لم يكن القرآن كذلك علمنا أنّه المعجزو من عندالله .

وحاصل المعنى : أفلا يتفكّر اليهود والمنافقون في القرآن إذ ليس فيه خللٌ ولاتناقض ليعلموا أنّهم لايقدرون على مثله وأنّه حجّة وليس من كلام أحد من الخلق وهو مشتمل على أنواع من الحكم من أمر بحسن ونهي عن قبيح وخبر صادق ودعوة إلى مكارم الأخلاق

(١) الحجر : ٩٢ . (٢) الرحمن ٣٩ .

فإنّ من تدبّر فيه علم جميع ذلك

[ولوكان من عند غيرالله] أي لوكان من عند النبيّ أوكان يعلمه بشرٌ كما زعموا [لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] والاختلاف في الكلام يكون على ثلاثة أُضرب : اختلاف تناقض واختلاف تفاوت واختلاف تلاوة ، فاختلاف التفاوت يكون في الحسن و القبيح و الخطأ والصواب و نحو ذلك فهذا الجنس من الاختلاف لا يوجد في القرآن كما أنّه لايوجد اختلاف التناقض وأمّا اختلاف التلاوة مثل اختلاف مقادير الآيات والسور واختلاف الأحكام في الناسخ والمنسوخ بماتقتضية المصلحة فذلك موجود في القرآن فإنّ الناسخ ثابت مقرّر إلى يوم القيامة فليس فيه تناقض وتفاوت بعد تقريره وثبوته .

قال أبوعليّ الجبّائيّ : دلّت الآية على أنّ أفعال العباد غير مخلوقة لله لأنّ قوله : « ولو كان من عند غيرالله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » يقتضي أنّ فعل العباد لاينفكّ عن الاختلاف وفعل الله لايوجد فيه التفاوت لقوله : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت [1] » فهذا يقتضي أنّ فعل العبد لايكون فعلاً لله، انتهى .

[وإذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا به] حكى سبحانه عن المنافقين وضعفة المسلمين نوعاً آخر من القبائح وهو أنّه إذا جاءهم الخبر بأمر من الأُمور سواء كان ذلك الخبر من باب الأمن مثل ظهور المؤمنين و غلبتهم على عدوّهم أومن باب الخوف مثل إرجافهم بأنّ العدوّ قصدوهم وأضرّوا بالمؤمنين أذاعوا و أفشوا من هذه الأراحيف في المدينة وكانت إذاعتهم مفسدة .

[ولو ردّوه] ذلك الخبر [إلى الرسول] وسكتوا إلى أن يظهر الرسول [وإلى أُولي الأمر منهم] قال أبوجعفر عليه السلام : هم الأئمّة المعصومون . وقال السدّيّ وأبوزيد و أبو عليّ الجبّائيّ: هم أُمراء السرايا والولاة . وقال الحسن وقتادة وغيرهم : إنّهم أهل العلم والفقه الملازمون للنبيّ .

[لعلمه الّذين يستنبطونه منهم] قيل : إنّ الضمير في «منهم» يعود إلى « أُولي

---

(١) الملك : ٣ .

الأمر» وهو الأظهر . وقيل : يعود إلى المنافقين والضعفة من المسلمين أي لعلم ذلك الأمر وتدبيره الرسول واُولي الأمر الّذين يستخرجون صدقه عن كذبه وصلاحه عن فساده بعلمهم وأنظارهم الصحيحة وبالوحي والتجارب . وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أوّل ما تحفر يقال : أنبط الحفّار إذا بلغ الماء ، وسمّي القوم الّذين ينزلون بالبطائح من العراق نبطاً لاستنباطهم الماء من الأرض .

وفي الآية إشعار بالنهي عن إفشاء السرّ . قيل لبعض العقلاء : كيف حفظك للسرّ ؟ قال : أناقبره . ومن هذا قيل : صدور الأبرار قبور الأسرار .

[ولولا فضل الله عليكم ورحمته] أي ولولا إيصال موادّ الألطاف من جهة الله . وقيل : المراد من فضل الله الإسلام ، والمراد من الرحمة القرآن ، عن ابن عبّاس . و قيل : فضل الله النبيّ صلى الله عليه وآله ورحمته القرآن ، عن الضحّاك والجبّائيّ والسدّيّ ، وروي عن الصادقين عليهما السلام فضل الله ورحمته محمّد وعليّ صلوات الله عليهما .

[لاتّبعتم الشيطان إلّا قليلاً] بالكفر والضلال أي إلّا قليلاً منكم فإنّ من خصّه بعقل راجح وقلب مطمئنّ مثل زيد بن نفيل وورقة بن نوفل وأمثالهم المعدودين مثل قسّ ابن ساعدة ومن كان على دين المسيح صحيحاً ومعترفون بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله قبل بعثته ، وهذا المعنى على ظاهر الآية أوفق .

وقيل : إنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً والاستثناء من قوله : « أذاعوا به » فيكون المعنى : أذاعوا به إلّا قليلاً ، عن ابن عبّاس وجماعة كالبلخيّ والفرّاء و الطبريّ و المبرّد و الكسائيّ . وقيل : الاستثناء من قوله : «لعلمه الّذين يستنبطونه منهم إلّا قليلاً» .

أو المراد في معنى الآية : ولولا فضل الله عليكم بالنصرة والفتح مرّة بعد اُخرى لاتّبعتم الشيطان فيما يلقي إليكم من الوساس والخواطر الفاسدة إلى الجبن والفشل الموجبة لضعف النيّة والبصيرة إلّا قليلاً من أصحاب الرسول الّذين هم أهل البصائر النافذة و النيّات الخالصة ولا يشكّون في نصرة الله وإنجاز وعده وإن أبطأ بعض الإبطاء .

فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك و حرض المؤمنين على القتال عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأساً و اشد تنكيلا (٨٤) .

أمر سبحانه بالقتال فقال : [فقاتل في سبيل الله] والفاء جواب لقوله : « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً فقاتل في سبيل الله » فيكون المعنى إن أردت الأجر العظيم فقاتل في سبيل الله ؛ ويجوز أن يكون متّصلاً بقوله : « و مالكم لا تقاتلون في سبيل الله فقاتل في سبيل الله » والخطاب للنبيّ خاصّة أمره الله أن يقاتل في سبيل الله وحده بنفسه .

[لا تكلّف إلّا نفسك] وأنت مكلّف بفعل نفسك لأنّه لا ضرر عليك في فعل غيرك فلا تهتمّ بتخلّف المنافقين على الجهاد فإنّ ضرر ذلك عليهم .

[وحرّض المؤمنين على القتال] وحثّهم عليه وقد اُمر صلى الله عليه وآله بالجهاد ولو وحده ، وكان أبو سفيان واعد الرسول اللقاء في بدر الصغرى فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت هذه الآية فخرج ومامعه إلّا سبعون رجلاً ولم يلتفت إلى أحد ولو لم يتّبعوه لخرج وحده ودلّت الآية على أنّه صلى الله عليه وآله كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفيّة القتال لأنّه ماكان يأمره بذلك إلّا وهو صلى الله عليه وآله أشجع الناس وأقدرهم .

قال الزمخشريّ : قرىء «لاتكلّف» بالجزم على النهي و«لانكلّف» بالنون وكسر اللام . ونصب «نفسك» على مفعول مالم يسمّ فاعله .

[عسى أن يكفّ بأس الّذين كفروا] وعسى من الله جزم ، و عسى حرف من حروف المقاربة وفيه ترجّ وطمع وذلك على الله محال ، ولكن إطماع الكريم إيجاب . والبأس أصله المكروه يقال : بئس الشيء هذا ، إذا وصف بالرداءة وقد كفّ سبحانه بأسهم فقد بدا لأبي سفيان و قال : هذا عام مجدب وماكان معهم زاد إلّا السويق فترك إلى محاربة رسول الله .

ثمّ قال : [والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً] يقال : نكلت فلاناً إذا عاقبته عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله أي إنّ عذاب الله و تنكيله أشدّ من عذاب غيره ومن تنكيله ، وقيل في معنى التنكيل : الشهرة بالاُمور الفاضحة أو الانتقام والإهلاك .

قوله تعالى : من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا (٨٥) .

الشفاعة من الشفع الّذي هو ضدّ الوتر فإنّ الرجل إذا شفع بصاحبه صار ثانيه...

ووجه تعلّق الآية بماقبلها أنّه ﷺ لمّا كان يرغّبهم في القتال ويبالغ في تحريضهم عليه فكان بعض المنافقين يشفع إلى النبيّ ﷺ في أن يأذن لبعضهم في التخلّف عن الغزو فنهى الله عن مثل هذه الشفاعة وبيّن أنّ الشفاعة إنّما تحسن إذا كانت وسيلة إلى إقامة طاعة الله فإذا كانت وسيلة إلى معصية كانت محرّمة منكرة فبيّن سبحانه أنّ النبيّ ﷺ لمّا حرّضهم على الجهاد فقد استحقّ بذلك التحريض أجراً عظيماً .

و حاصل المعنى أنّ الشفاعة الحسنة هي أن يشفّع إيمانه بالله بقتال الكفّار ، و الشفاعة السيّئة أن يشفّع كفره بالمحبّة للكفّار والشفاعة الحسنة هي الّتي روعي بها حقّ مسلم ودفع بها عنه شرّ أو جلب إليه خير وابتغي بها وجه الله وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود الله ولا في حقّ من الحقوق [يكن له نصيب منها] وهو ثواب الشفاعة .

[ومن يشفع شفاعة سيّئة] وهي ماكانت بخلاف الحسنة [يكن له كفل منها] أي نصيب من وزرها مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء ، والشفاعة في الحدود لاتجوز والحدود عقوبة مقدّرة يجب على الإمام إقامتها بعد الثبوت حقّاً لله .

قال الزمخشريّ : شيئان شينان في الإسلام : الشفاعة في الحدود و الرشوة في الأحكام .

قال ﷺ : مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان ،قيل : و كيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم ويجرّ بها المنفعة إلى مسلم ويدفع بها المكروه عن آخر .

قال الغزاليّ : إنّ الشفاعة هي التوسّط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من المنافع المباحة الدنيويّة أو الاُخرويّة وخلاصه من مضرّة ما كذلك .

ومن حقوق الإسلام على المسلمين أن يشفع المسلم لكلّ من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه ، ومن الشفاعة الحسنة الدعاء للمسلم فإنّه شفاعة إلى الله .

وعن النبيّ ﷺ : من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك : ولك مثل ذلك . وذلك لأنّ الدعاء بظهر الغيب بعيد عن شائبة الطمع والرياء بخلاف دعاء الحاضر للحاضر فإنّه قلّما يسلم من ذلك فالغائب لا يدعو للغائب إلّا لله خالصاً فيكون مقبولاً .

[وكان الله على كلّ شيء مقيتا] قيل : في معنى المقيت أقوال : أحدها أنّه المقتدر . وقيل : الحفيظ الّذي يعطي الشيء قدرالحاجة وقيل : معناه الشهيد . وقيل : الحسيب . و قيل : المجازي أي يجازي على كلّ شيء من الحسنات والسيّئات. وعلى المعاني يؤول المعنى إلى أنّه تعالى قادرٌ على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع إن خيراً فخير إن شرّاً فشرّ .

واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها اوردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا (٨٦) .

لمّا أمر المؤمنين بالجهاد أمرهم أيضاً بأنّ الأعداء لورضوا بالمسالمة فكونوا أنتم أيضاً راضين بذلك . و«التحيّة» تفعلة من حيّيت وكان في الأصل «تحيية» مثل توصية والتسمية و كان عادة العرب قبل الإسلام أنّه إذا لقي بعضهم بعضاً قالوا : «حيّاك الله» و اشتقاقه من الحياة كأنّه يدعو له بالحياة فكانت التحيّة عندهم عبارة عن قول بعضهم لبعض : حيّاك الله ، فلمّا جاء الإسلام أبدل ذلك بالسلام فجعلوا التحيّة اسماً للسلام قال تعالى : «تحيّتهم يوم يلقونه سلام » (١) ومنه قولهم : «إنّا محيّوك ياسلمى فحيّينا» وقال عنترة : «حيّيت من طلل تقادم عهده » .

وكلمة «السلام عليك» أتمّ وأكمل من قوله : «حيّاك الله» لأنّ الحيّ إذا كان سليماً كان حيّاً لا محالة وليس إذا كان حيّاً كان سليماً فقد تكون حياته مقرونة بالآفات فثبت أنّ قوله : «السلام عليك» أتمّ وأكمل من قوله : حيّاك الله .

على أنّ السلام اسم من أسماء الله فالابتداء بذكر الله أكمل وقد وصف ذاته المقدّس بالملك القدّوس السلام وأمر محمّداً على سبيل المشافهة فقال : «وإذا جاء الّذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (٢)» .

قيل : إنّ ملك الموت يقول في إذن المؤمن : السلام يقرؤك السلام ، ويقول : أجبني فإنّي مشتاق إليك واشتاقت الجنّات والحور العين إليك ، فإذا سمع المؤمن البشارة يقول

---

(١) الاحزاب : ٤٤ .
(٢) الانعام : ٥٤ .

لملك الموت : للبشير منّي هديـة ولا هديـة أعزّ من روحي فاقبض روحي هديـة لك .

ويروى في التفسير أنّ اليهود كانوا إذا دخلوا قالوا : «السام عليك» فحزن الرسول لهذا المعنى فبعث الله جبرئيل وقال إن كان اليهود يقولون : «السام عليك» فأنا أقول : «السلام عليك» وأنزل قوله : «إنّ الله و ملائكته يصلّون ، الآية (١)» .

روي أنّ عبدالله بن سلام قال : لمّـا سمعت بقدوم رسول الله دخلت في غمار الناس فأوّل ماسمعت منه : ياأيـها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام و صلوا الأرحام و صلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنّـة بسلام . وكان تحيّـة النصارى وضع اليد على الفم وتحيّـة اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع و تحيّـة المجوس الانحناء و تحيّـة العرب بعضهم لبعض أن يقولوا : حيّـاك الله ، وللملوك أن يقولوا : أنعم صباحاً ، فصار تحيّـة المسلمين «السلام عليك ورحمة الله و بركاته» . والسلام سنّـة والجواب واجب بين المسلمين، وترك الجواب إهانة والإهانة ضرر والضرر حرام .

[فحيّـوا بأحسن منها أوردّوها] روي أنّ رجلاً قال للرسول ﷺ : السلام عليك يارسول الله ، فقال ﷺ : وعليك السلام ورحمة الله ، وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله ، فقال ﷺ : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، وجاء ثالث فقال : السلام عليك ورحمة الله و بركاته فقال ﷺ : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال الرجل : فأين قول الله : «فحيّـوا بأحسن منها» ؟ فقال ﷺ : إنّـك ماتركت لي فضلاً فرددت عليك ماذكرت .

قال الرازي : إنّ المبتدىء يقول السلام عليك ، والمجيب يقول : و عليكم السلام ، فكان الابتداء بذكر اسم الله ؛ فإذا قال المجيب : وعليكم السلام ، كان الاختتام بذكر الله ، و هذا الترتيب حسن .

قيل : إذا استقبلك رجل واحد فابتدء وقل : سلام عليكم ، واقصد الرجل والملكين فإنّـك إذا سلّمت عليهما ردّا السلام عليك ومن سلّم الملك عليه فقد سلم من عذاب الله ، والأمر بردّ السلام على المسلم إن كان مسلماً وإلّا فليقل : وعليكم ، لايزيد على ذلك .

---

(١) الاحزاب : ٥٦ .

قال ابن عبّاس : في قوله «أوردّوها» لأهل الكتاب . وروى الواحديّ بإسناده عن أبي أمامة عن مالك بن التيّهان قال : قال رسول الله ﷺ : من قال : السلام عليكم، كتب له عشر حسنات ، ومن قال : السلام عليكم و رحمة الله وبركاته ، كتب له عشرون حسنة و من قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب له ثلاثون .

[إنّ الله كان على كلّ شيء حسيباً] أي حفيظاً أو كافياً و مجازياً .

قوله تعالى : الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيمة لاريب فيه ومن اصدق من الله حديثا (٨٧) .

قوله : [الله] مبتدأ وخبره [لاإله إلّا هو] أي لا إله في الأرض و لا في السماء غيره [ليجمعنّكم] جواب قسم محذوف أي والله ليحشرنّكم من قبوركم [إلى] حساب [يوم القيامة] «والقيامة» بمعنى القيام و التاء للمبالغة لشدّة ما يقع فيه من الهول * .

[لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً] أي موعداً لاخلاف لوعده . وقيل : معناه لأحد أصدق من الله في الخبر الّذي يخبر به .

النظم : لمّا أمر تعالى ونهى فيما قبل بيّن بعده أنّه الإله الّذي لا يستحقّ العبادة سواه أي فاعلموا على حسب ما أوجبه عليكم فإنّه يجازيكم به ثمّ بيّن وقت الجزاء، وقيل: إنّما اتّصل بقوله : « حسيباً » أي إنّما الحسيب هو الله .

فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا اتريدون ان تهدوا من اضل الله ومن يضلل الله فلن تجدله سبيلا (٨٨) .

النزول : اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه، فقيل : نزلت في قوم قدموا المدينة من مكّة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثمّ رجعوا إلى مكّة لأنّهم استوخموا[1] المدينة فأظهروا الشرك ثمّ سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال

(*) هنا سقط من النسخة عدة اوراق اوردنا مكانها من نص الطبرسى فى المجمع . ولم نتعرض لما ذكره فى وجه الاعراب و القراءة و الحجة عليها صوناً لسرد الكتاب و سنشير عند اختتام ما فقد .

(١) لم يوافق هواؤها ابدانهم .

بعضهم : لا نفعل فإنّهم مؤمنون. وقال آخرون : إنّهم مشركون، فأنزل الله فيهم الآية ، عن مجاهد والحسن وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وقيل : نزلت في الّذين تخلّفوا عن اُحد وقالوا : «لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم ، الآية » فاختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال فريق منهم : نقتلهم ، وقال آخرون : لا نقتلهم. فنزلت الآية ، عن زيد بن ثابت .

المعنى : ثمّ عاد الكلام إلى ذكر المنافقين فقال تعالى : [فمالكم] أيّها المؤمنون صرتم [في] أمر هؤلاء [المنافقين فئتين]؛ أي فرقتين مختلفتين فمنكم من يكفّرهم ومنكم من لا يكفّرهم [والله أركسهم بما كسبوا] أي ردّهم إلى حكم الكفّار بما أظهروا من الكفر، عن ابن عبّاس. وقيل : معناه أهلكهم بكفرهم، عن قتادة وقيل : خذ لهم فأقاموا على كفرهم وتردّدوا فيه فأخبر عن خذلانه إيّاهم بأنّه أركسهم ، عن أبي مسلم .

[أتريدون أن تهدوا] أي تحكموا بهداية [من أضلّ الله] أي حكم الله بضلاله وسمّاه ضالاً . وقيل : معنى «أضلّه الله» خذله ولم يوفّقه كما وفّق المؤمنين ، لأنّهم لمّا عصوا و خالفوا استحقّوا هذا الخذلان عقوبةً لهم على معصيتهم أي أتريدون الدفاع عن قتالهم مع أنّ الله حكم بضلالهم وخذلهم ووكلهم إلى أنفسهم ؟

وقال أبو عليّ الجبّائيّ : معناه أتريدون أن تهدوا إلى طريق الجنّة من أضلّه تعالى عن طريق الجنّة والثواب ، وطعن على القول الأوّل : بأنّه لو أراد التسمية والحكم لقال : من ضلّل الله، وهذا لا يصحّ لأنّ العرب تقول : أكفرته و كفّرته قال الكميت :

وطائفة قد أكفروني بحبّكم * و طائفة قالوا : مسيء ومذنب

وأيضاً فإنّه تعالى إنّما وصف المؤمنون بهدايتهم بأن سمّاهم مهتدين لأنّهم كانوا يقولون : إنّهم مؤمنون ، فقال تعالى : لا تختلفوا فيهم و قولوا بأجمعكم : إنّهم منافقون .

[ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً] معناه ومن نسبه الله إلى الضلالة فلن ينفعه أن يحكم غيره بهدايته كما يقال : من جرحه الحاكم فلا ينفعه تعديل غيره .

وقيل : معناه من يجعله الله في حكمه ضالاً فلن تجد له في ضلالته حجّة، عن جعفر

ابن حرث قال : ويدلّ على أنّهم هم الّذين اكتسبوا ماصاروا إليه من الكفر دون أن يكون الله تعالى اضطرّهم إليه قوله على أثر ذلك : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا » فأضاف الكفر إليهم .

قوله تعالى : ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلاتتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوافخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً (٨٩) .

المعنى : ثمّ بيّن تعالى أحوال هؤلاء المنافقين فقال : [ودّوا] أي ودّ هؤلاء المنافقون الّذين اختلفتم في أمرهم يعني تمنّوا [لو تكفرون] أنتم بالله ورسوله [كما كفروا] هم [فتكونون سواء] أي فتستوون أنتم وهم وتكونون مثلهم كفّاراً ، ثمّ نهى تعالى المؤمنين أن يودّوهم فقال :

[لا تتّخذوا منهم أولياء] أي فلا تستنصروهم ولاتستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور [حتّى يهاجروا] أي حتّى يخرجوا من دار الشرك ويفارقوا أهلها المشركين بالله [في سبيل الله] أي في ابتغاء دينه وهو سبيله فيصيروا عند ذلك مثلكم لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وهذا قول ابن عبّاس . وإنّما سمّي الدين سبيلاً وطريقاً لأنّ من يسلكه أدّاه إلى النعمة وساقه إلى الجنّة [فإن تولّوا] أي أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله، عن ابن عبّاس .

[فخذوهم] أيّها المؤمنون [واقتلوهم حيث وجدتموهم] أي أين أصبتموهم من أرض الله من الحلّ والحرم [ولا تتّخذوا منهم وليّاً] أي خليلاً [ولا نصيراً] أي ناصراً ينصركم على أعدائكم .

قوله تعالى : الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق اوجاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم او يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٩٠) .

المعنى : لمّا أمر تعالى المؤمنين بقتال الّذين لا يهاجرون عن بلاد الشرك وأن لا يوالوهم استثنى من جملتهم فقال :

[إلّا الّذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق] معناه إلّا من وصل من هؤلاء إلى قوم بينكم وبينهم موادعة وعهد فدخلوا فيهم بالحلف أو الجوار فحكمهم حكم اُولئك في حقن دمائهم .

واختلف في هؤلاء فالمرويّ عن أبي جعفر عليه‌السلام أنّه قال : المراد بقوله تعالى : «قوم بينكم وبينهم ميثاق» هو هلال بن عويمر السلميّ واثق عن قومه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال في موادعته : على أن لا تحيف يا محمّد من أتانا ولا نحيف من أتاك فنهى الله أن يتعرّض لأحد عهد إليهم ، وبه قال السدّيّ وابن زيد .

وقيل : هم بنو مدلج وكان سراقة بن مالك بن خثعم المدلجيّ جاء إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد اُحد فقال : أنشدك الله والنعمة وأخذ منه ميثاقاً أن لا يغزو قومه فإن أسلم قريش أسلموا لأنّهم كانوا في عقد قريش فحكم الله فيهم ما حكم في قريش ففيهم نزلت ، هذا ذكره عمر ابن شيبة .

ثمّ استثنى لهم حالة اُخرى فقال : [أو جاؤوكم حصرت صدورهم] أي ضاقت قلوبهم من [أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم] يعني من قتالكم وقتال قومهم فلا عليكم ولا عليهم و إنّما عني به أشجع فإنّهم قدموا المدينة في سبعمائة يقودهم مسعود بن دخيلة فأخرج إليهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله أحمال التمر ضيافة وقال : نعم الشيء الهديّة أمام الحاجة ، وقال : لهم ما جاء بكم ؟ قالوا : لقرب دارنا منك وكرهنا حربك وحرب قومنا (يعنون بني ضمرة الّذين بينهم وبينهم عهد) لقلّتنا فيهم فجئنا لنوادعك فقبل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ذلك منهم ووادعهم فرجعوا إلى بلادهم ، ذكره عليّ بن إبراهيم في تفسيره ، فأمر الله تعالى المسلمين أن لا يتعرّضوا لهؤلاء .

[ولو شاء الله لسلّطهم عليكم] بتقوية قلوبهم فيجترئون على قتالكم . وقيل : هذا إخبار عمّا في المقدور وليس فيه أنّه يفعل ذلك بأن يأمرهم به أو يأذن لهم فيه ومعناه أنّه يقدر على ذلك لو شاء لكنّه لا يشاء ذلك بل يلقي في قلوبهم الرعب حتّى يفزعوا ويطلبوا الموادعة ويدخل بعضهم في حلف من بينكم وبينهم ميثاق [فلقاتلوكم] أي لو فعل ذلك لقاتلوكم .

[فإن اعتزلوكم] يعني هؤلاء الّذين أمر بالكفّ عن قتالهم بدخولهم في عهدكم

أو بمصيركم إليهم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم [فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم] يعني صالحوكم و استسلموا لكم كما يقول القائل : ألقيت إليك قيادي وألقيت إليك زمامي ، إذا استسلم له وانقاد لأمره ، والسلم الصلح [فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً] يعني إذا سالموكم فلا سبيل لكم إلى نفوسهم وأموالهم .

قال الحسن وعكرمة : نسخت هذه الآية و لّتي بعدها والآيتان في سورة الممتحنة «لاينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدين» إلى قوله : « الظالمون » الآيات الأربع بقوله : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . الآية[1] »

قوله تعالى : ستجدون آخرين يريدون ان يأمنوكم و يأمنوا قومهم كلماردوا الى الفتنة اركسوا فيهافان لم يعتزلوكم و يلقوا اليكم السلم و يكفوا ايديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا (٩١) .

النزول : اختلف في من عني بهذه الآية فقيل : نزلت في اُناس كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وآله فيسلمون رئاء ثمّ يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا قومهم ويأمنوا نبيّ الله فأبى الله ذلك عليهم ، عن ابن عبّاس ومجاهد . وقيل : نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعيّ كان ينقل الحديث بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين المشركين ، عن السدّيّ وقيل : نزلت في أسد وغطفان ، عن مقاتل . وقيل : نزلت في عيينة بن حصين الفزاري ؛ وذلك أنّه أجدبت بلادهم فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ووادعه على أن يقيم ببطن نخل ولا يتعرّض له وكان منافقاً ملعوناً وهو الّذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله الأحمق المطاع في قومه . وهو المرويّ عن الصادقين عليهما السلام .

المعنى : ثمّ بيّن تعالى طائفة اُخرى منهم فقال : [ستجدون آخرين] يعني قوماً آخرين غير الّذين وصفتهم قبل [يريدون أن يأمنوكم] فيظهرون الإسلام [ويأمنوا قومهم] فيظهرون لهم الموافقة في دينهم [كلّما ردّوا إلى الفتنة اُركسوا فيها] المراد بالفتنة هناك الشرك أي كلّما دعوا إلى الكفر أجابوا ورجعوا إليه والفتنة في اللغة الاختبار والإركاس

(١) التوبة : ٦ .

الردّ؛ قال الزجّاج : «أُركسوا فيها» انتكسوا في عقدهم ؛ فالمعنى: كلّما ردّوا إلى الاختبار ليرجعوا إلى الكفر رجعوا إليه .

[فإن لم يعتزلوكم] أيّها المؤمنون أي فإن لم يعتزل قتالكم هؤلاء الّذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم [ويلقوا إليكم السلم] يعني ولم يستسلموا لكم فيعطوكم المقادة ويصالحوكم [و] لم [يكفّوا أيديهم] عن قتالكم [فخذوهم] أي فأسروهم [واقتلوهم حيث ثقفتموهم] أي وجدتموهم و أصبتموهم .

[وأُولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً] أي حجّة ظاهرة ، وقيل : عذراً بيّناً في القتال. وسمّيت الحجّة سلطاناً لأنّه يتسلّط بها على الخصم كما يتسلّط بالسلطان .

قوله تعالى : وماكان لمؤمن ان يقتل مومناً الاخطأ و من قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم و هو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة و ان كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله و تحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان عليماً حكيما (٩٢) .

النزول : نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزوميّ أخي أبي جهل لأُمّه لأنّه كان أسلم وقتل بعد إسلامه رجلاً مسلماً وهو لايعلم إسلامه ، والمقتول الحارث بن يزيد بن أبي نبشة العامريّ ، عن مجاهد وعكرمة والسدّيّ قال : قتله بالحرّة بعد الهجرة وكان من أحد من ردّه عن الهجرة وكان يعذّب عيّاشاً مع أبي جهل وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وقيل : نزلت في رجل قتله أبو الدرداء كان في سريّة فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة فوجد رجلاً من القوم في غنم له فحمل عليه بالسيف فقال : لا إله إلّا الله ، فبدر بضربة ثمّ جاء بغنمه إلى القوم ثمّ وجد في نفسه شيئاً فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فذكر ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا شققت عن قلبه وقد أخبرك بلسانه فلم تصدّقه ؟ قال : كيف بي يارسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : فكيف بلا إله إلّا الله؟ قال أبو الدرداء : فتمنّيت أنّ ذلك اليوم مبتدأ إيماني، فنزلت الآية عن ابن زيد .

المعنى : [وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً] معناه ما أذن الله ولا أباح لمؤمن

فيما عهد إليه أن يقتل مؤمناً إلّا أن يقتله خطأً ، عن قتادة وغيره . و قيل : ما كان له كما ليس له الآن قتل مؤمن إلّا أن يقع القتل خطأ . و قيل : تقديره وما كان لمؤمن ليقتل مؤمناً إلّا خطأً كقوله : « ما كان لله أن يتّخذ من ولد (١) » معناه ماكان الله ليتّخذ ولداً . و قوله : « ماكان لكم أن تنبتوا شجرها (٢) » أي ما كنتم لتنبتوا شجرها . و إنّما قلنا : إنّ معناه ماذكرنا لأنّ الله لايلحقه الأمر و النهي و إنبات الشجر لا يدخل تحت قدرة العبد فلايصحّ النهي عنه فمعنى الآية على ماوصفناه : ليس من صفة المؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً ، وعلى هذا يكون الاستثناء متّصلاً .

ومن قال : إنّ الاستثناء منقطع قال : قدتمّ الكلام عند قوله : « أن يقتل مؤمناً » ثمّ قال : فإن كان القتل خطأً فحكمه كذا ، وإنّما لم يحمل قوله : « إلّا خطأً » على حقيقة الاستثناء لانّ ذلك يؤدّي إلى الأمر بقتل الخطأ أوإباحته ولايجوزواحد منهما . والخطأ هو أن يريد شيئاً فيصيب غيره مثل أن يرمي إلى غرض أو إلى صيد فيصيب إنساناً فيقتله و كذلك لوقتل رجلاً ظنّه كافراً كماظنّ عيّاش بن أبي ربيعة وأبو الدرداء على ماقلناه قبل .

[ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة] أي فعليه إعتاق رقبة مؤمنة في ماله خاصّة على وجه الكفّاره حقّاً لله و الرقبة المؤمنة هي البالغة الّتي آمنت وصلّت وصامت فلا يجزي في كفّارة القتل الطفل ولا الكافر ، عن ابن عبّاس والشعبيّ وإبراهيم والحسن و قتادة وقيل : تجزي كلّ رقبة ولدت على الإسلام ، عن عطا . والأوّل أقوى لأنّ لفظ المؤمن لايطلق إلّا على البالغ الملتزم للفرائض إلّا أنّ من ولد بين مؤمنين فلاخلاف أنّه يحكم له بالإيمان .

[ودية] أي و عليه وعلى عاقلته دية [مسلّمة إلى أهله] أي إلى أهل القتيل ، والمسلّمة هي المدفوعة إليهم موفّرة غير منقّصة حقوق أهلها منها تدفع إلى أهل القتيل فتقسّم بينهم على حسب حساب الميراث [إلّا أن يصّدّقوا] يعني إلّا أن يتصدّق أولياء القتيل بالدية على عاقلة القاتل ويتركوها عليهم .

[فإن كان من قوم عدوّ لكم وهومؤمن] معناه فإن كان القتيل من جملة قوم هم أعداء لكم يناصبونكم الحرب وهو في نفسه مؤمن ولم يعلم قاتله أنّه مؤمن فقتله وهو

(١) مريم : ٣٥ . (٢) النمل : ٦٠ .

يظنّه مشركاً [فتحرير رقبة] أي فعلى قاتله تحرير رقبة [مؤمنة] كفّارة وليس فيه دية ، عن ابن عبّاس .

وقيل : إنّ معناه إذا كان القتيل في عداد قوم أعداء وهو مؤمن بين أظهرهم ولم يهاجر فمن قتله فلا دية له وعليه تحرير رقبة مؤمنة فقط ؛ لأنّ الدية ميراث وأهله كفّار لا يرثونه ، عن ابن عبّاس في رواية اُخرى وإبراهيم والسدّي وقتادة وابن زيد .

[وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق] أي عهد وذمّة وليسوا أهل حرب لكم [فدية مسلّمة إلى أهله] تلزم عاقلة قاتله [وتحرير رقبة مؤمنة] أي يلزم قاتله كفّارة لقتله ، وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام .

واختلف في صفة هذا القتيل أهو مؤمن أم كافر ؟ فقيل : إنّه كافر إلّا أنّه يلزم قاتله ديته بسبب العهد ، عن ابن عبّاس والزهريّ والشعبيّ وإبراهيم النخعيّ وقتادة وابن زيد .
وقيل : بل هو مؤمن يلزم قاتله الدية يؤدّيها إلى قومه المشركين لأنّهم أهل ذمّة ، عن الحسن وإبراهيم ورواه أصحابنا أيضاً إلّا أنّهم قالوا : تعطى ديته ورثته المسلمين دون الكفّار ، ولفظ الميثاق يقع على الذمّة والعهد جميعاً .

[فمن لم يجد] أي لم يقدر على عتق الرقبة بأن لا يجد العبد ولا ثمنه [فصيام شهرين] أي فعليه صيام شهرين [متتابعين توبة من الله] أي ليتوب الله به عليكم فتكون التوبة من فعل الله ، وقيل : إنّ المراد بالتوبة هنا التخفيف من الله لأنّ الله إنّما جوّز للقاتل العدول إلى الصيام تخفيفاً عليه ، ويكون كقوله تعالى : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم (١) » .

[وكان الله عليماً] أي لم يزل عليماً بكلّ شيء [حكيماً] فيما يأمر به وينهى عنه ، وأمّا الدية الواجبة في قتل الخطأ فمائة من الإبل إن كانت العاقلة من أهل الإبل بلا خلاف ، وإن اختلفوا في أسنانها فقيل : هي أرباع : عشرون بنت مخاض وعشرون ابن لبون ذكر ، و ثلاثون بنت لبون و ثلاثون حقّة ، و روي ذلك عن عثمان وزيد بن ثابت و رواه أصحابنا أيضاً .

---

(١) المزمل : ٢٠ .

وقدروي أيضاً في أخبارنا خمس وعشرون بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس وعشرون حقّة وخمس وعشرون جذعة ، وبه قال الحسن و الشعبي ّ.

وقيل : إنّها أخماس :عشرون حقّة وعشرون جذعة وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون بنت مخاض ، وهذا قول ابن مسعود وابن عبّاس والزهري ّ والثوري ّ وإليه ذهب الشافعي ّ. وقال أبوحنيفة : هي أخماس أيضاً إلّا أنّه جعل مكان ابن لبون ابن مخاض، وبه قال النخعي ّ، ورووه أيضاً عن ابن مسعود .

قال الطبري ّ : هذه الروايات متكافئة والأولى التخيير .

فأمّا الدية من الذهب فألف دينار ، ومن الورق عشرة آلاف درهم و هو الأصح ّ ، و وقيل : اثنا عشر ألفاً ودية الخطأ تتأدّى في ثلاث سنين .

ولو خلّينا وظاهر الآية لقلنا : إنّ دية الخطأ على القاتل لكن علمنا بسنّة الرسول والإجماع أنّ الدية في الخطأ على العاقلة وهم الإخوة و بنو الإخوة و الأعمام وبنو الأعمام وأعمام الأب و أبناؤهم و الموالي و به قال الشافعي ّ. وقال أبوحنيفة : يدخل الوالد والولد فيها ويعقل القاتل ، وقد روى ابن مسعود عن النبي ّ ﷺ أنّه قال : لا يؤخذ الرجل بجريرة ابنه ولا الابن بجريرة أبيه . وليس إلزام الدية للعاقلة على سبيل مؤاخذة البريء بالسقيم لأنّ ذلك ليس بعقوبة بل هو حكم شرعي ّ تابع للمصلحة ، وقد قيل : إنّ ذلك على سبيل المواساة والمعاونة .

قوله تعالى : ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما (٩٣) .

النـزول : نزلت في مقيس بن صبابه الكناني ّ وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجّار فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل معه قيس بن هلال الفهري ّ وقال له : قل لبني النجّار : إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلى أخيه ليقتصّ منه وإن لم تعلموا فادفعوا إليه ديته ،فبلّغ الفهري ّ الرسالة فأعطوه الدية ، فلمّا انصرف ومعه الفهري ّ وسوس إليه الشيطان فقال :ما صنعت شيئاً أخذت دية أخيك فيكون سبة عليك ، اقتل الّذي معك لتكون نفس بنفس والدية فضل ، فرماه بصخرة فقتله وركب بعيراً ورجع إلى مكّة كافراً وأنشد يقول :

قتلت به فهراً و حمّلت عقله * سراة بني النجّار أرباب فارع
فأدركت ثأري واضطجعت موسّداً * وكنت إلى الأوثان أوّل راجع

فقال النبيّ ﷺ : لا اُومنه في حلّ ولا حرم فقتل يوم الفتح ، رواه الضحّاك و جماعة من المفسّرين .

المعنى : لمّا بيّن تعالى قتل الخطأ و حكمه عقّبه ببيان القتل العمد و حكمه فقال : [ومن يقتل مؤمناً متعمّداً] أي قاصداً إلى قتله عالماً بإيمانه وحرمة قتله وعصمة دمه . وقيل : معناه مستحلاً لقتله ، عن عكرمة وابن جريح وجماعة . وقيل : معنى التعمّد أن يقتله على دينه ، رواه العيّاشيّ بإسناده عن الصادق عليه السلام .

[فجزاؤه جهنّم خالداً] مقيماً [فيها وغضب الله عليه ولعنه] وأبعده من الخير وطرده عنه على وجه العقوبة [وأعدّ له عذاباً عظيماً] ظاهر المعنى ، وصفة قتل العمد أن يقصد قتل غيره بما جرت العادة بأن يقتل مثله سواء بحديدة حادّة كالسلاح أو بخنق أو سمّ أو إحراق أو تغريق أو موالاة ضرب بالعصا أو بالحجارة حتّى يموت ، فإنّ جميع ذلك عمد يوجب القود ، وبه قال إبراهيم والشافعيّ وأصحابه .

وقال قوم : لا يكون قتل العمد إلّا بالحديد ، وبه قال سعيد بن المسيّب وطاوس و أبو حنيفة وأصحابه . وأمّا القتل شبيه العمد فهو أن يضرب بعصا أو غيرها ممّا لم تجر العادة بحصول الموت عنده فيموت ففيه الدية مغلظة تلزم القاتل خاصّة في ماله دون العاقلة .

وفي هذه الآية وعيد شديد لمن قتل مؤمناً متعمّداً حرّم الله به قتل المؤمن وغلظ فيه ، وقال جماعة من التابعين : الآية الليّنة وهي «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء» (١) نزلت بعد الشديدة وهي «ومن يقتل مؤمناً متعمّداً» .

وقال أبو مجلز : في قوله : «فجزاؤه جهنّم خالداً فيها» فهي جزاؤه إن جازاه . ويروى هذا أيضاً عن أبي صالح ، ورواه أيضاً العيّاشيّ بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام وقد روي أيضاً مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ أنّه قال : هو جزاؤه إن جازاه .

---

(١) السورة : ٤ و ٤٧ و ١١٥ .

وروى عاصم بن أبي النجود عن ابن عبّاس في قوله : «فجزاؤه جهنّم» قال : هي جزاؤه فإن شاء عذّبه وإن شاء غفر له ، وروي عن أبي صالح وبكر بن عبدالله وغيره أنّه كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمره : إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب ، ثمّ إن لم يجاوز بذلك لم يكن ذلك منه كذباً .

واعترض على هذا أبوعليّ الجبّائيّ فقال : مالا يفعل لا يسمّى جزاء ألا ترى أنّ الأجير إذا استحقّ الأجرة فالدراهم الّتي مع مستأجره لاتسمّى بأنّها جزاء عمله ، و هذا لايصحّ لأنّ الجزاء عبارة عن المستحقّ سواء فعل ذلك أولم يفعل ، و لهذا يقال : جزاء المحسن الإحسان وجزاء المسيء الإساءة وإن لم يتعيّن المحسن والمسيء حتّى يقال : إنّه فعل ذلك به أولم يفعل . ويقال لمن قتل غيره : جزاء هذا أن يقتل، وإنّما لايقال للدراهم : إنّها جزاء الأجير لأنّ الأجير إنّما يستحقّ الأُجرة في الذمّة لافي دراهم معيّنة ، فللمستأجر أن يعطيه منها ومن غيرها .

ومن تعلّق بهذه الآية من أهل الوعيد في أنّ مرتكب الكبيرة لابدّ أن يخلّد في النار فإنّا نقول له : ماأنكرت أن يكون المراد به من لاثواب له أصلاً بأن يكون كافراً أويكون قتله مستحلاً لقتله أو قتله لإيمانه ، فإنّه لاخلاف أنّ هذا صفة من يخلّد في النار ، ويعضده من الرواية ما تقدّم ذكره في سبب نزول الآية وأقوال الأئمّة في معناها ، وبعد فقد وافقنا على أنّ الآية مخصوصة بمن لايتوب وأنّ التائب خارج عن عمومها .

وأمّا ماروي عن ابن عبّاس أنّه قال : لاتوبة لقاتل المؤمن إذا قتله في حال الشرك ثمّ أسلم وتاب ، وبه قال ابن مسعود وزيد بن ثابت ، فالأولى أن يكون هذا القول منهم محمولاً على سلوك سبيل التغليظ في القتل ، كماروي عن سفيان الثوريّ أنّه سئل عن توبة القاتل فقال : كان أهل العلم إذا سألوا قالوا : لا توبة له وإذا ابتلى الرجل قالوا له : تب .

وروى الواحديّ بإسناده مرفوعاً إلى عطاء عن ابن عبّاس أنّ رجلاً سأله ألِقاتل المؤمن توبة ؟ فقال : لا ، وسأله آخر ألِقاتل المؤمن توبة ؟ فقال : نعم . فقيل له في ذلك فقال جاءني ذلك ولم يكن قتل فقلت لا توبة لك لكي لايقتل ، و جاءني هذا وقد قتل قلت : لك توبة لكي لايلقي نفسه بيده إلى التهلكة .

ومن قال من أصحابنا : إنّ قاتل المؤمن لايوفّق للتوبة لاينافي ماقلناه ، لأنّ هذا

القول إن صحّ فإنّما يدلّ على أنّه لا يختار التوبة مع أنّها لوحصلت لأزالت العقاب . و إذا كان لابدّ من تخصيص الآية بالتوبة جاز أن يختصّ أيضاً بمن تفضّل عليه بالعفو .

وروى الواحديّ بإسناده مرفوعاً إلى الأصمعيّ قال : جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال : ياأباعمرو أيخلف الله ماوعده ؟ فقال : لا !، قال : أفرأيت من أوعده على عمل عقاباً أيخلف الله وعده فيه ؟ فقال أبوعمرو : من العجمة أتيت ياأباعثمان ؟ إنّ الوعد غير الوعيد ، إنّ العرب لاتعدّ عاراً ولاخلفاً أن تعد شرّاً ثمّ لا تفعله يرى ذلك كرماً وفضلاً وإنّما الخلف في أن تعد خيراً ثمّ لاتفعله ، قال : فأوجدني هذا في كلام العرب ؟ قال : نعم سمعت قول الاوّل :

و إنّي وإن أوعدته أووعدته * لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

ووجد في الدعاء المرويّ بالرواية الصحيحة عن الصادقين عليهما السلام : «يامن إذا وعدوفى وإذا توعّد عفا» وهذا يؤيّد ماتقدّم ، وقد أحسن يحيى بن معاذ في هذا المعنى حيث قال : الوعد حقّ والوعيد حقّ ، فالوعد حقّ العباد على الله ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا ومن أولى بالوفاء من الله ؟ والوعيد حقّه على العباد قال : لاتفعلوا كذا فاُعذّبكم ففعلوا ، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب لأنّه حقّه ، و أولاهما بربّنا العفو والكرم إنّه غفور رحيم .

وروى إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت قيس بن أنس يقول : كنت عند عمرو بن عبيد في بيته فأنشأ يقول : يؤتى بي يوم القيامة فاُقام بين يدي الله فيقول : قلت : إنّ القاتل في النار فأقول : أنت قلت : «ومن يقتل مؤمناً الآية » . فقلت له : - وما في البيت أصغر سنّاً منّي- أرأيت أن لوقال لك فإنّي قلت : «فإنّ الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» من أين علمت أنّي لاأشاء أن أغفر لهذا ؟ قال : فما استطاع أن يردّ عليّ شيئاً .

قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحيوة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بماتعملون خبيراً (٩٤) .

النزول : قيل : نزلت في اُسامة بن زيد وأصحابه بعثهم النبيّ في سريّة فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له إلى جبل ، وكان قد أسلم فقال لهم : السلام عليكم ! لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ، فبدر إليه اُسامة فقتله واستاقوا غنمه، عن السدّيّ.

وروي عن ابن عبّاس وقتادة أنّه لمّا نزلت الآية حلف اُسامة أن لا يقتل رجلاً قال لا إله إلّا الله ، وبهذا اعتذر إلى عليّ عليه السلام لمّا تخلّف عنه ، وإن كان عذره غير مقبول لأنّه قد دلّ الدليل على وجوب طاعة الإمام في محاربة من حاربه من البغاة لاسيّما وقد سمع النبيّ صلى الله عليه وآله يقول : حربك يا عليّ حربي وسلمك سلمي .

وقيل : نزلت في محلم بن جثامة الليثيّ وكان بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله في سريّة فلقيه عامر ابن الأضبط الأشجعيّ فحيّاه بتحيّة الإسلام ، وكان بينهما إحنة فرماه بسهم فقتله ، فلمّا جاء إلى النبيّ جلس بين يديه وسأله أن يستغفر له ، فقال صلى الله عليه وآله : لا غفر الله لك ، فانصرف باكياً فما مضت عليه سبعة أيّام حتّى هلك فدفن فلفظته الأرض ، فقال صلى الله عليه وآله ـ لمّا اُخبر به ـ: إنّ الأرض تقبل من هو شرّ من محلم صاحبكم ، ولكنّ الله أراد أن يعظم من حرمتكم ثمّ طرحوه بين صدفي جبل وألقوا عليه الحجارة.فنزلت الآية ، عن الواقديّ ومحمّد بن إسحاق ابن يسار رواية عن ابن عمر وابن مسعود وأبي حدرد .

وقيل : كان صاحب السريّة المقداد ، عن سعيد بن جبير.وقيل : أبو الدرداء ، عن ابن زيد .

المعنى : لمّا بيّن تعالى أحكام القتل وأنواعه عقّب ذلك بالأمر بالتثبّت والتأنّي حتّى لا يفعل ما يعقّب الندامة فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم] أي سرتم وسافرتم [في سبيل الله] للغزو و الجهاد [فتبيّنوا] أي ميّزوا بين الكافر والمؤمن ـ وبالثاء والتاء ـ توقّفوا وتأنّوا حتّى تعلموا من يستحقّ القتل، والمعنيان متقاربان ، و المراد بهما لا تعجلوا في القتل لمن أظهر السلام ظنّاً منكم بأنّه لا حقيقة لذلك .

[ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام] أي حيّاكم بتحيّة أهل الإسلام أو من استسلم

إليكم فلم يقاتلكم مظهراً أنّه من أهل ملّتكم [لست مؤمناً] أي ليس لإيمانك حقيقة وإنّما أسلمت خوفاً من القتل أولست بآمن .

[تبتغون] أي تطلبون [عرض الحياة الدنيا] يعني الغنيمة و المال و المتاع الحياة الدنيا الّذي لابقاء له [فعندالله مغانم كثيرة] أي في مقدوره فواضل ونعم ورزق إن أطعتموه فيما أمركم به ، وقيل : معناه: ثواب كثير لمن ترك قتل المؤمن .

[كذلك كنتم من قبل] اختلف في معناه فقيل : كما كان هذا الّذي قتلتموه مستخفياً في قومه بدينه خوفاً على نفسه كنتم أنتم مستخفين بأديانكم من قومكم حذراً على أنفسكم، عن سعيدبن جبير . وقيل : كما كان هذا المقتول كافراً فهداه الله كذلك كنتم كفّاراً فهداكم الله ، عن ابن زيدوالجبّائي . وقيل : كذلك كنتم أذلّاء وأُحاد إذا سار الرجل منكم وحده خاف أن يختطف، عن المغربي .

[فمنّ الله عليكم] فيه قولان : أحدهما فمنّ الله عليكم بإظهار دينه و إعزاز أهله حتّى أظهرتم الإسلام بعدما كنتم تكتمونه من أهل الشرك ، عن سعيد بن جبير . وقيل : معناه : فتاب الله عليكم .

[فتبيّنوا] أعاد هذا اللفظ للتأكيد بعدماطال الكلام ، وقيل : الأوّل معناه : تبيّنوا حاله. والثاني معناه: تبيّنوا هذه الفوائد بضمائر واعرفوها وابتغوها [إنّ الله كان] أي لم يزل [بما تعملون] أي بما تعملونه [خبيراً] عليماً قبل أن تعملوه .

قوله تعالى : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر و المجاهدون فى سبيل الله باموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعدالله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما (٩٦) .

النزول : نزلت الآية في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن ربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أُميّة من بني واقف ، تخلّفوا عن رسول الله يوم تبوك وعذّر الله أُولي الضرر

وهو عبدالله بن أُمّ مكتوم ، ورواه أبو حمزة الثمالي في تفسيره .

و قال زيد بن ثابت : كنت عند النبيّ حين نزلت عليه « لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » ولم يذكر «أُولي الضرر» فقال ابن أُمّ مكتوم : فكيف وأنا أعمى لا أبصر ؟ فتغشّى النبيّ صلى الله عليه وآله الوحي ثمّ سري عنه فقال : اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضرر» فكتبتها .

المعنى : لمّا حثّ سبحانه على الجهاد عقّبه بما فيه من الفضل والثواب فقال : [لا يستوي القاعدون من المؤمنين] أي لايعتدل المتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله والمؤثرون الدعة والرفاهية على مقاساة الحرب والمشقّة بلقاء العدوّ [غير أُولي الضرر] أي إلّا أهل الضرر منهم بذهاب أبصارهم وغير ذلك من العلل الّتي لا سبيل لأهلها إلى الجهاد للضرر الّذي بهم .

[والمجاهدون في سبيل الله] ومنهاج دينه لتكون كلمة الله هي العليا و المستفرغون جهدهم ووسعهم في قتال أعداء الله وإعزاز دينه [بأموالهم] إنفاقاً لها فيما يوهن كيد الأعداء [وأنفسهم] حملاً لها على الكفاح في اللقاء .

[فضّل الله المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة] معناه فضيلة و منزلة .

[و كلاًّ وعدالله الحسنى] معناه و كلا الفريقين من المجاهدين والقاعدين عن الجهاد وعدالله الجنّة ، عن قتادة وغيره من المفسّرين .

وفي هذه دلالة على أنّ الجهاد فرضٌ على الكفاية لأنّه لوكان فرضاً على الأعيان لما استحقّ القاعدون بغير عذر أجراً ، وقيل : لأنّ المراد بالكلّ هنا المجاهد والقاعد من أُولي الضرر المعذور ، عن مقاتل .

[وفضّل الله المجاهدين على القاعدين] من غير أُولي الضرر [أجراً عظيماً * درجات منه] أي منازل بعضها أعلى من بعض من منازل الكرامة ، وقيل : هي درجات الأعمال كما يقال : الإسلام درجة والفقه درجة والهجرة درجة والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة ، عن قتادة .

وقيل : معنى الدرجات هي الدرجات التسع التي درجها في سورة براءة في قوله : «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولانصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطأ يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ـ إلى قوله ـ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون[1]» فهذه الدرجات التسع ، عن عبدالله بن زيد .

[ومغفرة ورحمة] هذا بيان خلوص النعيم بأنه لايشوبه غم بماكان منه من الذنوب بل غفرله ذلك ثم رحمه بإعطائه النعم والكرامات [وكان الله غفوراً] لم يزل الله غفاراً للذنوب صفوحاً لعبيده من العقوبة عليها رحيماً بهم متفضلاً عليهم .

وقد يسأل فيقال : كيف قال في أول الآية : «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » ثم قال في آخرها : «و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات » و هذا متناقض الظاهر ؟

و أجيب عنه بجوابين : أحدهما أن في أول الآية فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة وفي آخرها فضلهم على القاعدين غير أولي الضرر درجات فلا تناقض ؛ لأن قوله : « و كلاً وعد الله الحسنى » يدل على أن القاعدين لم يكونوا عاصين وإن كانوا تاركين للفضل .

و ثانيها ماقاله أبو علي الجبائي وهو أنه أراد بالدرجة الأولى علو المنزلة و ارتفاع القدر على وجه المدح لهم كما يقال : فلان أعلى درجة عند الخليفة من فلان يريدون بذلك أنه أعظم منزلة ، وبالثانية الدرجات في الجنة التي يتفاضل بها المؤمنون بعضهم على بعض على قدر استحقاقهم .

وقال المغربي : إنما كرر لفظ التفضيل ، لأن بالأول أراد تفضيلها في الدنيا و أراد بالثاني تفضيلهم في الآخرة . وجاء في الحديث : إن الله فضل المجاهدين على القاعدين سبعين درجة بين كل درجتين مسيرة سبعين خريفاً للفرس الجواد المضمر .

قوله تعالى : ان الذين توفيهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا

(١) الاية : ١٢١ .

فيها فاولئك مأويهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فاولئك عسى الله أن يعفوعنهم وكان الله عفوا غفورا (٩٩) .

النزول : قال أبو حمزة الثماليّ : بلغنا أنّ المشركين يوم بدر لم يخلفوا إذا خرجوا أحداً إلّا صبيّاً أوشيخاً كبيراً أومريضاً فخرج معهم ناسٌ ممّن تكلّم بالإسلام ، فلمّا التقى المشركون ورسول الله نظر الّذين كانوا قدتكلّموا بالإسلام إلي قلّة المسلمين فارتابوا واُصيبوا فيمن اُصيب من المشركين ، فنزلت فيهم الآية وهوالمرويّ عن ابن عبّاس والسدّيّ وقتادة .

وقيل : إنّهم قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود وقيس بن الوليد ابن المغيرة وأبو العاص بن منبّه بن الحجّاج وعليّ بن اُميّة بن خلف عن عكرمة ، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام . قال ابن عبّاس : كنت أنا من المستضعفين و كنت غلاماً صغيراً . وذكر عنه أيضاً أنّه قال : كان أبي من المستضعفين من الرجال واُمّي كانت من المستضعفات من النساء و كنت أنا من المستضعفين من الولدان .

المعنى : ثمّ أخبر تعالى عن حال من قعد عن نصرة النبيّ صلى الله عليه وآله بعد الوفاة فقال : [إنّ الّذين توفّاهم] أي قبض أرواحهم أو تقبض أرواحهم [الملائكة] ملك الموت أوهو وغيره فإنّ الملائكة تتوفّى وملك الموت يتوفّى والله يتوفّى وما يفعله ملك الموت أوالملائكة يجوز أن يضاف إلى الله إذ فعلوه بأمره ، وما تفعله الملائكة جاز أن يضاف إلى ملك الموت إذ فعلوه بأمره [ظالمي أنفسهم] أي في حال هم فيها ظالمو أنفسهم إذ بخسوها حقّها من الثواب وأدخلوا عليها العقاب بفعل الكفر .

[قالوا فيمَ كنتم] أي قالت لهم الملائكة : فيمَ كنتم ؟ أي في أيّ شيء كنتم من دينكم ؟ على وجه التقرير لهم أو التوبيخ لفعلهم [قالوا كنّا مستضعفين في الأرض] يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوّتهم ويمنعونا من الإيمان بالله واتّباع رسوله على جهة الاعتذار .

[قالوا] : أي قالت الملائكة لهم : [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] أي فتخرجوا من أرضكم و دوركم و تفارقوا من يمنعكم من الإيمان بالله و رسوله إلى أرض يمنعكم أهلها من أهل الشرك فتوحدوه و تعبدوه وتتبعوا رسوله ، و روي عن سعيد بن جبير أنه قال في معناه : إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها .

ثمّ قال تعالى : [فأولئك مأواهم جهنّم] أي مسكنهم جهنّم [وساءت] هي أي جهنّم [مصيراً] لأهلها الّذين صاروا إليها .

ثمّ استثنى من ذلك فقال : [إلّا المستضعفين] الّذين استضعفهم المشركون [من الرجال والنساء والولدان] وهم الّذين يعجزون عن الهجرة لإعسارهم و قلّة حيلتهم وهو قوله : [لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً] في الخلاص من مكّة وقيل : معناه لا يهتدون لسوء معرفتهم بالطريق طريق الخروج منها أي لا يعرفون طريقاً إلى المدينة ، عن مجاهد و قتادة وجماعة من المفسّرين .

[فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم] معناه : لعلّ الله أن يعفو عنهم لما هم عليه من الفقر و يتفضّل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة من حيث لم يتركوها اختياراً [و كان الله عفوّاً] أي لم يزل الله ذا صفح بفضله عن ذنوب عباده بترك عقوبتهم على معاصيهم [غفوراً] أي ساتراً عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها . قال عكرمة : و كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يدعو عقيب صلاة الظهر : اللّهم خلّص الوليدين وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة و ضعفة المسلمين من أيدي المشركين .

قوله تعالى : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفورا رحيما (١٠٠) .

النزول : قيل : لمّا نزلت آيات الهجرة سمعها رجلٌ من المسلمين وهو جندع أو جندب بن ضمرة وكان بمكّة فقال : والله ما أنا ممّا استثنى الله إنّي لأجد قوّة وإنّي لعالم بالطريق وكان مريضاً شديد المرض فقال لبنيه : والله لا أبيت بمكّة حتّى أخرج منها فإنّي أخاف أن أموت فيها ، فخرجوا يحملونه على سرير حتّى إذا بلغ التنعيم مات ، فنزلت

الآية ، عن أبي حمزة الثمالي وعن قتادة وعن سعيد بن جبير .

وقال عكرمة : وخرج جماعة من مكّة مهاجرين فلحقهم المشركون وفتنوهم عن دينهم فافتتنوا فأنزل الله فيهم « ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله (١) » فكتب بها المسلمون إليهم ، ثمّ نزلت فيهم « ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثمّ جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم (٢) » .

المعنى : ثمّ قال سبحانه : [ومن يهاجر] يعني يفارق أهل الشرك ويهرب بدينه من وطنه إلى أرض الإسلام [في سبيل الله] أي في منهاج دين الله وطريقه الّذي شرعه لخلقه [يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة] أي متحوّلاً من الأرض وسعةً في الرزق ، عن ابن عبّاس والضحّاك والربيع . وقيل : مزحزحاً عمّا يكره وسعةً من الضلالة إلى الهدى ، عن مجاهد وقتادة . وقيل : مهاجراً فسيحاً متّسعاً ممّا كان فيه من تضييق المشركين عليه .

[ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله] أخبر سبحانه أنّ من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فارّاً بدينه إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت قبل بلوغه دار الهجرة وأرض الإسلام [فقد وقع أجره على الله] أي ثواب عمله وجزاء هجرته على الله تعالى [وكان الله غفوراً] أي ساتراً على عباده ذنوبهم بالعفو عنهم [رحيماً] بهم رفيقاً .

وممّا جاء في معنى الآية من الحديث ما رواه الحسن عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنّة وكان رفيق إبراهيم ومحمّد صلى الله عليه وآله ، وروى العيّاشيّ بإسناده عن محمّد بن أبي عمير ، حدّثني محمّد بن حكيم قال : وجّه زرارة بن أعين ابنه عبيداً إلى المدينة ليستخبر له خبر أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وعبدالله فمات قبل أن يرجع إليه عبيد ابنه ، قال محمّد بن أبي عمير : حدّثني محمّد بن حكيم قال : ذكرت لأبي الحسن عليه السلام زرارة وتوجيهه عبيداً ابنه إلى المدينة فقال : إنّي لأرجو أن يكون زرارة ممّن قال الله فيهم : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ، الآية » .

---

(١) العنكبوت : ٩ . (٢) النحل : ١١٢ .

قوله تعالى : واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١) .

المعنى : [وإذا ضربتم في الأرض] معناه سرتم فيها إذا سافرتم [فليس عليكم جناحٌ] أي حرج وإثم [أن تقصروا من الصلاة] فيه أقوال :

احدها أنّ معناه أن تقصروا من عدد الصلاة فتصلّوا الرباعيّات ركعتين ، عن مجاهد وجماعة من المفسّرين وهو قول أكثر الفقهاء وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام . وقيل : تقصر صلاة الخائف من المسافر ، وهما قصران قصر الأمن من أربع إلى ركعتين وقصر الخوف من ركعتين إلى ركعة واحدة ، عن جابر ومجاهد وقد رواه أيضاً أصحابنا .

وثانيها أنّ معناه القصر من حدود الصلاة ، عن ابن عبّاس وطاوس وهو الّذي رواه أصحابنا في صلاة شدّة الخوف وأنّها تصلّى إيماءً والسجود أخفض من الركوع ، فإن لم يقدر على ذلك فالتسبيح المخصوص كاف عن كلّ ركعة .

وثالثها أنّ المراد بالقصر الجمع بين الصلاتين . والصحيح الأوّل .

[إن خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا] يعني خفتم فتنة الّذين كفروا في أنفسكم أو دينكم ، وقيل : معناه إن خفتم أن يقتلكم الّذين كفروا في الصلاة ، عن ابن عبّاس . ومثله قوله تعالى : «على خوف من فرعون وملائه أن يفتنهم (١)» أي يقتلهم . وقيل : معناه أن يعذّبكم الّذين كفروا بنوع من أنواع العذاب .

[إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً] أي ظاهري العداوة . وفي قراءة اُبيّ بن كعب « فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الّذين كفروا » من غير أن يقرأ « إن خفتم » وقيل : إنّ معنى هذه القراءة : أن لا يفتنكم أو كراهة أن يفتنكم ، كما في قوله : « يبيّن الله لكم أن تضلّوا (٢) » .

وظاهر الآية يقتضي أنّ القصر لا يجوز إلّا عند الخوف لكنّا قد علمنا جواز القصر عند الأمن ببيان النبيّ ، ويحتمل أن يكون ذكر الخوف في الآية قد خرج مخرج الأعمّ والأغلب عليهم في أسفارهم ؛ فإنّهم كانوا يخافون الأعداء في عامّتها و مثله في القرآن كثير .

---
(١) يونس : ٨٣ . (٢) السورة : ١٧٥ .

واختلف الفقهاء في قصر الصلاة في السفر ؛ فقال الشافعيّ : هي رخصة، واختاره الجبّائيّ . وقال أبو حنيفة : هو عزيمةٌ وفرضٌ، وهذا مذهب أهل البيت عليهم السلام قال زرارة ومحمّد بن مسلم : قلنا لأبي جعفر : ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي ؟ قال : إنّ الله يقول : « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة » فصار التقصير واجباً في السفر كوجوب التمام في الحضر .

قالا : قلنا : إنّه قال « لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة» ولم يقل : افعل فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام ؟ قال : أوليس قال تعالى في الصفا والمروة : «فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما(١)» ، ألا ترى أنّ الطواف واجب مفروض لأنّ الله تعالى ذكرهما في كتابه وصنعهما نبيّه ؟ وكذا التقصير في السفر شيء صنعه رسول الله وذكره الله في الكتاب .

قال : قلت : فمن صلّى في السفر أربعاً أيعيد أم لا ؟ قال : إن كان قرئت عليه آية التقصير وفسّرت له فصلّى أربعاً أعاد ، وإن لم يكن قرئت عليه ولم يعلمها فلا إعادة عليه ، والصلاة في السفر كلّ فريضة ركعتان إلّا المغرب فإنّها ثلاث ليس فيها تقصير تركها رسول الله في السفر والحضر ثلاث ركعات .

وفي هذا الخبر دلالة على أنّ فرض المسافر مخالف لفرض المقيم ، وقد اجتمعت الطائفة على ذلك وعلى أنّه ليس بقصر ، وقد روي عن النبيّ أنّه قال : فرض المسافر ركعتان غير قصر ، وعندهم أنّ الخوف بانفراده موجب للقصر ، وفيه خلاف بين الفقهاء .

وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أنّ الله عنى بالقصر في الآية قصر صلاة الخوف من صلاة السفر لا من صلاة الإقامة ، لأنّ صلاة السفر عندهم ركعتان تمام غير قصر ، فمنهم جابر بن عبدالله وحذيفة اليمان وزيد بن ثابت وابن عبّاس وأبو هريرة وكعب ـ وكان من الصحابة قطعت يده يوم اليمامة ـ وابن عمر وسعيد بن جبير والسدّيّ .

وأمّا حدّ السفر الّذي يجب عنده القصر فعندنا ثمانية فراسخ ، وقيل : مسيرة ثلاثة أيّام بلياليها وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه . وقيل : ستّة عشر فرسخاً ثمانية وأربعين ميلاً

(١) البقرة : ١٥٨ .

وهو مذهب الشافعيّ .

النظم : وجه اتّصال الآية بما قبلها أنّه لمّا أمر بالجهاد و الهجرة بيّن صلاة السفر و الخوف رحمة منه و تخفيفاً لعباده

قوله تعالى : واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتات طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة فلاجناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذاباً مهينا (١٠٢) .

المعنى : ثمّ ابتدأ تعالى ببيان صلاة الخوف في جماعة فقال : [فإذا كنت] يامحمّد [فيهم] يعني في أصحابك الضاربين في الأرض الخائفين عدوّهم أن يغزوهم [فأقمت لهم الصلاة] بحدودها و ركوعها و سجودها ، عن الحسن . و قيل معناه : أقمت لهم الصلاة بأن تؤمّهم [فلتقم طائفة منهم] أي من أصحابك الّذين أنت فيهم [معك] في صلاتك و ليكن سائرهم في وجه العدوّ وتقديره : ولتقم طائفة منهم تجاه العدوّ ، ولم يذكر ماينبغي أن تفعله الطائفة غير المصلّية لدلالة الكلام عليه .

[وليأخذوا أسلحتهم] اختلف في هذا فقيل : المأمور بأخذ السلاح الطائفة المصلّية مع رسول الله يأخذون من السلاح مثل السيف يتقلّدون به والخنجر يشدّونه إلى دروعهم و كذلك السكّين ونحوذلك ، وهوالصحيح . وقيل : هم الطائفة الّتي بإزاء العدوّ دون المصلّية ، عن ابن عبّاس .

[فإذا سجدوا] يعني الطائفة الّتي تصلّي معه وفرغوا من سجودهم [فليكونوا من ورائكم] يعني فليصيروا بعد فراغهم من سجودهم مصافّين العدوّ .

واختلف في الطائفة الأُولى إذا رفعت رؤوسهم من السجود وفرغت من الركعة كيف يصنعون ؟ فعندنا أنّهم يصلّون ركعة أُخرى ويتشهّدون ويسلّمون والإمام قائم في الثانية ، ثمّ ينصرفون إلى مواقف أصحابهم ويجيء الآخرون فيستفتحون الصلاة ويصلّي بهم الإمام

الركعة الثانية حسب ، ويطيل تشهّده حتّى يقوموا فيصلّوا بقيّة صلاتهم ، ثمّ يسلّم بهم الإمام فيكون للطائفة الأُولى تكبيرة الافتتاح وللثانية التسليم ، وهومذهب الشافعيّ أيضاً .

وقيل : إنّ الطائفةالأُولى إذا فرغت من ركعة يسلّمون ويمضون إلى وجه العدوّ ، وتأتي الطائفة الأُخرى ويصلّي بهم ركعة ، وهو مذهب مجاهد وجابر ومن يرى أنّ صلاة الخوف ركعة واحدة .

وقيل : إنّ الإمام يصلّي بكلّ طائفة ركعتين فيصلّي بهم مرّتين بكلّ طائفة مرّة ، عن الحسن .

وقيل : إنّه إذا صلّى بالطائفة الأُولى ركعة مضوا إلى وجه العدوّ وتأتي الطائفة الأُخرى فيكبّرون ويصلّي بهم الركعة الثانية ويسلّم الإمام ويعودون إلى وجه العدوّ ، وتأتي الطائفة الأُولى فيقضون ركعة بغير قراءة لأنّهم لاحقون ويسلّمون ويرجعون إلى وجه العدوّ ، وتأتي الطائفة الثانية فيقضون ركعة بغيرقراءة لأنّهم مسبوقون ، عن عبدالله ابن مسعود وهو مذهب أبي حنيفة .

[ولتات طائفة أُخرى لم يصلّوا] وهم الّذين كانوا بإزاء العدوّ [فليصلّوا معك و ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم] يعني وليكونوا حذرين من عدوّهم متأهّبين لقتالهم بأخذ الأسلحة أي آلات الحرب ، وهذا يدلّ على أنّ الفرقة المأمورة بأخذ السلاح في الأوّل هم المصلّون دون غيرهم [ودّ الّذين كفروا] معناه تمنّى الّذين كفروا [لوتغفلون] لو تعتزلون [عن أسلحتكم] وتشتغلون عن أخذها تأهّباً للقتال [وأمتعتكم] أي وعن أمتعتكم الّتي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها [فيميلون عليكم ميلة واحدة] أي يحملون عليكم حملة واحدة وأنتم متشاغلون بصلاتكم فيصيبون منكم غرّة فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم ومامعكم .

المعنى : لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة عند مواقفة العدوّ فيمكّن عدوّكم من أنفسكم وأسلحتكم ولكن أقيموها على ما أُمرتم به ، ومن عادة العرب أن يقولوا : ملنا عليهم

بمعنى حملنا ، قال العبّاس بن عبادة بن فضلة الأنصاريّ لرسول الله ليلة العقبة الثانية : و الّذي بعثك بالحقّ إن شئت لنميلنّ غداً على أهل منى بأسيافنا ، فقال رسول الله : لم نؤمر بذلك يعني في ذلك الوقت .

[ولاجناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر] معناه لاحرج عليكم ولا إثم ولاضيق إن نالكم أذىً من مطرو أنتم موافقو عدوّكم [أو كنتم مرضى] يعني أعلّاء أوجرحى [أن تضعوا أسلحتكم] إذا ضعفتم عن حملها لكن إذا وضعتموها فاحترسوا منهم [وخذوا حذركم] لئلّا يميلوا عليكم وأنتم غافلون [إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً] مذلّاً يبقون فيها أبداً .

وفي الآية دلالة على صدق النبيّ وصحّة نبوّته وذلك أنّها نزلت والنبيّ بعسفان والمشركون بضجنان فتواقفوا فصلّى النبيّ وأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع والسجود ، فهمّ المشركون بأن يغيروا عليهم فقال بعضهم : إنّ لهم صلاة اُخرى أحبّ إليهم من هذه -يعنون صلاة العصر- فأنزل الله عليه هذه الآية فصلّى بهم العصر صلاة الخوف ، وكان ذلك سبب إسلام خالد بن الوليد ، القصّة .

وفيها دلالة اُخرى ذكر أبو حمزة في تفسيره أنّ النبيّ غزا محارباً لبني أنمار فهزمهم الله وأحرزوا الذراري والمال ، فنزل رسول الله والمسلمون ولايرون من العدوّ واحداً فوضعوا أسلحتهم ، وخرج رسول الله ليقضي حاجته وقد وضع سلاحه فجعل بينه وبين أصحابه الوادي إلى أن يفرغ من حاجته ، وقد درأ الوادي و السماء ترش ، فحال الوادي بين رسول الله وبين أصحابه وجلس في ضلّ شجرة ، فبصر به غورث بن الحارث المحاربيّ ، فقال له أصحابه : يا غورث هذا محمّد قد انقطع من أصحابه ، فقال : قتلني الله إن لم أقتله وانحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله إلّا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سلّه من غمده ، وقال : يا محمّد من يعصمك الآن ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله : الله ! فانكبّ عدوّ الله لوجهه فقام رسول الله فأخذ سيفه وقال : ياغورث من يمنعك منّي الآن ؟ قال : لا أحد ، قال : أتشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي عبدالله ورسوله ؟ قال : لا ، و لكنّي أعهد أن لا اُقاتلك أبداً و لا أعين عليك عدوّاً ، فأعطاه رسول الله سيفه ، فقال له غورث : والله لأنت خير منّي قال

صلى الله عليه وسلم : إنّي أحقّ بذلك وخرج غورث إلى أصحابه ، فقالوا : ياغورث لقد رأيناك قائماً على رأسه بالسيف فما منعك منه ؟ فقال : أهويت له بالسيف لأضربه فما أدري من زلخني (١) بين كتفي فخررت لوجهي وخرّ سيفي وسبقني إليه محمّد وأخذه . ولم يلبث الوادي أن سكن فقطع رسول الله إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، وقرأ عليهم : «إن كان بكم أذىً من من مطر ، الآية كلّها» .

قوله تعالى : فاذا قضيتم الصلاة فاذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فأقيموا ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (١٠٣) .

المعنى : [فإذا قضيتم الصلاة] معناه فإذا فرغتم من صلاتكم أيّها المؤمنون وأنتم موافقو عدوّكم [فاذكروا الله قياماً وقعوداً] أي في حال قيامكم وقعودكم [وعلى جنوبكم] أي مضطجعين فقوله : « وعلى جنوبكم » في موضع نصب عطفاً على ماقبله من الحال أي ادعوا الله في هذه الأحوال لعلّه ينصركم على عدوّكم ويظفركم بهم ، مثل قوله : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون (٢)» عن ابن عبّاس وأكثر المفسّرين .

وقيل : معناه فإذا أردتم الصلاة فصلّوا قياماً إذا كنتم أصحّاء وقعوداً إذا كنتم مرضى لاتقدرون على القيام ، وعلى جنوبكم إذا لم تقدروا على القعود عن ابن مسعود ، وروي أنّه قال : عقيب تفسير الآية لم يعذر الله أحداً في ترك ذكره إلّا المغلوب على عقله .

[فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة] اختلف في تأويله فقيل : معناه إذا استقررتم في أوطانكم وأقمتم في أمصاركم فأتمّوا الصلاة الّتي أذن لكم في قصرها عن مجاهد وقتادة وقيل : معناه إذا استقررتم بزوال خوفكم فأتمّوا حدود الصلاة عن السدّي وابن زيد ومجاهد في رواية اُخرى .

[إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً] اختلف في تأويله فقيل : معناه إنّ الصلاة كانت على المؤمنين واجبة مفروضة عن ابن عبّاس وعطيّة العوفيّ والسدّيّ ومجاهد

(١) الزلخة وجع ياخذ فى الظهر لايتحرك الانسان من شدته . (٢) الانفال : ٤٦ .

وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام وقيل : معناه فرضاً موقوفاً أي منجّماً تؤدّونها في أنجمها عن ابن مسعود وقتادة والقولان متقاربان .

قوله تعالى : ولاتهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون و ترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤) .

النزول : قيل : نزلت في الذهاب إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان يوم اُحد ، وقيل : نزلت يوم اُحد في الذهاب خلف أبي سفيان و عسكره إلى حمراء الأسد عن عكرمة .

المعنى : عاد الكلام إلى الحثّ على الجهاد فقال تعالى :

[ولاتهنوا] أي ولا تضعفوا [في ابتغاء القوم] أي في طلب القوم الّذين هم أعداء الله وأعداء المؤمنين من أهل الشرك [إن تكونوا] أيّها المؤمنون [تألمون] ممّا ينالكم من الجراح منكم [فإنّهم] يعني المشركون [يألمون] أيضاً ممّا ينالهم منكم من الجراح والأذى [كما تألمون] أي مثل ماتألمون أنتم من جراحهم وأذاهم .

[وترجون] أنتم أيّها المؤمنون [من الله] الظفر عاجلاً والثواب آجلاً على ماينالكم منهم [مالايرجون] هم على ماينالهم منكم أي فأنتم إن كنتم موقنين من ثواب الله لكم على مايصيبكم منهم بماهم مكذّبون به أولى وأحرى أن تصبروا على حربهم وقتالهم منهم على حربكم وقتالكم عن ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والسدّيّ .

[وكان الله عليماً] بمصالح خلقه [حكيماً] في تدبيره إيّاهم وتقديره أحوالهم

القصة : قال ابن عبّاس وعكرمة : لمّا أصاب المسلمين ما أصابهم يوم اُحد و صعد النبيّ صلى الله عليه وآله الجبل قال أبو سفيان : يامحمّد لنا يوم ولكم يوم ، فقال صلى الله عليه وآله : أجيبوه ؛ فقال المسلمون : لاسواء ؛ قتلانا في الجنّة و قتلاكم في النار . فقال أبوسفيان : « لنا عزّى و لا عزّى لكم » . فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : قولوا : « الله مولانا و لا مولى لكم » فقال أبوسفيان : « اُعل هبل » فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : قولوا : « الله أعلى وأجلّ » : فقال أبوسفيان : موعدنا و موعدكم بدر الصغرى . و نام المسلمون و بهم الكلوم ، وفيهم نزلت « إن يمسسكم قرح

فقد مسّ القوم قرح مثله . الآية» و فيهم نزلت « إن تكونوا تألمون ، الآية » لأنّ الله أمرهم ـ على ما بهم من الجراح ـ أن يتبعوهم ، وأراد بذلك إرهاب المشركين ، وخرجوا إلى حمراء الأسد وبلغ المشركين ذلك فأسرعوا حتّى دخلوا مكّة .

قوله تعالى : انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥) واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما (١٠٦) .

النزول : نزلت في بنيأُ بيرق وكانوا ثلاثة إخوة : بشر و بشير ومبشّر ، وكان بشير يكنّى أباطعمة وكان يقول الشعر يهجوبه أصحاب رسول الله ﷺ ثمّ يقول : قاله فلان، وكانوا أهل حاجة في الجاهليّة والإسلام ، فنقب أبوطعمة على علية رفاعة بن زيد وأخذله طعاماً وسيفاً ودرعاً ، فشكا ذلك إلى ابن أخيه قتادة بن النعمان ، وكان قتادة بدريّاً فتجسّسا في الدار وسألا أهل الدار في ذلك ، فقال بنوأُ بيرق : والله ماصاحبكم إلّا لبيد بن سهل رجلٌ ذو حسب ونسب ، فأصلت عليهم لبيد بن سهل سيفه وخرج إليهم وقال : يابني أُبيرق أترمونني بالسرق وأنتم أولى به منّي ؟ وأنتم منافقون تهجون رسول الله وتنسبون ذلك إلى قريش لتبيّننّ ذلك أو لأضعنّ سيفي منكم فداروه .

وأتى قتادة رسول الله فقال : يا رسول الله إنّ أهل بيت منّا أهل بيت سوء عدوا على عمّي فخرقوا علية له من ظهرها وأصابوا له طعاماً وسلاحاً ، فقال رسول الله : انظروا في شأنكم فلمّا سمع بذلك رجلٌ من بطنهم الّذي هم منه يقال له أُسيد بن عروة : جمع رجالاً من أهل الدار ثمّ انطلق إلى رسول الله فقال : إنّ قتادة بن النعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيت منّا لهم حسب ونسب وصلاح وأنّبوهم بالقبيح وقالوا لهم مالا ينبغي وانصرف ، فلمّا أتى قتادة رسول الله بعد ذلك ليكلّمه جبّهه رسول الله جبهاً شديداً وقال : عمدت إلى أهل بيت حسب ونسب تأتيهم بالقبيح وتقول لهم مالا ينبغي ؟ قال : فقام قتادة من عند رسول الله ورجع إلى عمّه وقال : ياليتني متّ ولم أكن كلّمت رسول الله ! فقد قال لي ما كرهت . فقال عمّه رفاعة : الله المستعان ، فنزلت الآيات : «إنّا أنزلنا إليك الكتاب ـ إلى قوله : ـ إنّ لا يغفر أن يشرك به » .

فبلغ بشيراً مانزلت فيه من القرآن فهرب إلى مكّة وارتدّ كافراً فنزل على سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت امرأة من الأوس من بني عمرو بن عوف نكحت في بني عبدالدار فهجاها حسّان فقال :

فقد أنزلته بنت سعد و أصبحت * ينازعها جلد استها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الّذي قد صنعتموا * وفينا نبيّ عنده الوحي واضعه

فحملت رحله على رأسها فألقته بالأبطح وقالت ، ما كنت تأتيني بخير ، أهديت إليّ شعر حسّان ، هذا قول مجاهد وقتادة بن النعمان وعكرمة وابن جريح ، إلّا أنّ عكرمة قال : إنّ بني اُبيرق طرحوا ذلك على يهوديّ يقال له : زيد بن السهين ، فجاء اليهوديّ إلى رسول الله وجاء بنو اُبيرق إليه و كلّموه أن يجادل ، فهمّ رسول الله أن يفعل وأن يعاقب اليهوديّ فنزلت الآية وبه قال ابن عبّاس .

وقال الضحّاك : نزلت في رجل من الأنصار استودع درعاً فجحد صاحبها فخوّنه رجال من أصحاب النبيّ ، فغضب له قومه فقالوا : يا نبيّ الله خوّن صاحبنا وهو مسلم أمين فعذّره النبيّ صلّى الله عليه وآله و كذب عنه وهو يرى أنّه بريء مكذوب عليه ، فأنزل الله فيه الآيات واختار الطبريّ هذا الوجه قال : لأنّ الخيانة إنّما تكون في الوديعة لا في السرقة .

المعنى : ثمّ خاطب الله نبيّه فقال :

[إنّا أنزلنا إليك] يا محمّد [الكتاب] يعني القرآن [بالحقّ] الّذي يجب الله على عباده وقيل : معناه إنّك به أحقّ [لتحكم] يا محمّد [بين الناس بما أراك الله]أي أعلمك الله في كتابه [ولا تكن للخائنين خصيماً] نهاه أن يكون لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله «خصيماً» يدافع من طالبه عنه بحقّه الّذي خانه فيه ويخاصم .

ثمّ قال : [واستغفر الله] أمره بأن يستغفر الله في مخاصمته عن الخائن [إنّ الله كان غفوراً رحيماً] يصفح عن ذنوب عباده المسلمين ويترك مؤاخذتهم بها والخطاب وإن توجّه إلى النبيّ من حيث خاصم عمّن رآه على ظاهره الإيمان والعدالة وكان في الباطن بخلافه ، فالمراد بذلك اُمّته ، وإنّما ذكر ذلك على وجه التأديب له في أن لا يبادر بالخصام والدفاع

عن خصم إلّا بعد أن تبيّن وجه الحقّ فيه ، جلّ نبيّ الله عن جميع المعاصي و القبائح ، و قيل : إنّه لم يخاصم عن الخصم وإنّما همّ بذلك فعاتبه الله عليه .

النظم : وجه اتّصال الآية بما قبلها أنّه لمّا تقدّم ذكر المنافقين و الكافرين و الأمر بمجانبتهم عقّب ذلك بذكر الخائنين و الأمر باجتناب الدفع عنهم . و قيل : إنّه تعالى لمّا بيّن الأحكام و الشرائع في السورة عقّبها بأنّ جميع ذلك اُنزل بالحقّ .

قوله تعالى : ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً (١٠٧) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً (١٠٨) ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحيوة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيمة أم من يكون عليهم وكيلا (١٠٩) .

النزول : نزلت الآيات في القصّة الّتي ذكرناها قبل .

المعنى : ثمّ نهى تعالى عن المجادلة والدفع عن أهل الخيانة مؤكّداً لمّا تقدّم فقال :

[ولا تجادل] قيل : الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله حين همّ أن يبرىء أبا طعمة لمّا أتاه قوم ينفون عنه السرقة . وقيل : الخطاب له والمراد قومه . وقيل : تقديره : ولا تجادل أيّها الإنسان [عن الّذين يختانون أنفسهم] أي يخونون أنفسهم ويظلمونها أراد من سرق الدرع و من شاركه في السرقة و الخيانة ، و قيل : إنّه أراد به قومه الّذين مشوا معه إلى النبيّ وشهدوا له بالبراءة عمّا نسب إليه من السرقة . وقيل : أراد به السارق وقومه ومن هو في معناهم ، و إنّما قال : « يختانون أنفسهم » وإن خانوا غيرهم لأنّ ضرر خيانتهم كأنّه راجع إليهم لاحق بهم كما تقول لمن ظلم غيره : ما ظلمت إلّا نفسك ، و كقوله تعالى : «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم (١)» .

[إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً] هو فعّال من الخيانة أي من كان كثير الخيانة وقد ألفها واعتادها ، وقد يطلق الخوّان على الخائن في شيء واحد إذا عظمت تلك الخيانة ، و

(١) الاسراء : ٧ .

الأثيم فاعل الإثم ، وقيل : معناه لا يحبّ من كان خوّاناً إذا سرق الدرع وأثيماً إذا رمى به اليهوديّ .

وقال ابن عبّاس في معنى الآية : لاتجادل عن الّذين يظلمون أنفسهم بالخيانة و يرمون بالخيانة غيرهم يريد به سارق الدرع ، سرق الدرع ورمى بالسرقة إلى اليهوديّ فصار خائناً بالسرقة وأثيماً في رميه غيره بها .

[يستخفون من الناس] أي يكتمون عن الناس [ولا يستخفون من الله وهو معهم] يعني الّذين مشوا في الدفع عن ابن اُبيرق ومعناه يتستّرون عن الناس معاصيهم في أخذ الأموال لئلّا يفتضحوا في الناس ولا يتستّرون من الله وهو مطّلع عليهم .

وقيل : معناه يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله و علمه معهم فيكون معناه : يخفون الخيانة عن الناس ويطلبون إخفاءها حياءً منهم ولا يتركونها حياءً من الله وهو عالم بأفعالهم .

[إذ يبيّتون مالا يرضى من القول] أي يدبّرون بالليل قولاً لا يرضاه الله ، وقيل : يغيّرون القول من جهته ويكذبون فيه . و قيل : إنّه قول ابن اُبيرق في نفسه بالليل : أرمي بهذا الدرع في دار اليهوديّ ثمّ أحلف أنّي بريء منه فيصدّقني المسلمون لأنّي على دينهم ولا يصدّقون اليهوديّ لأنّه ليس على دينهم . وقيل : إنّه رمى بالدرع إلى دار لبيد بن سهل .

[وكان الله بما يعملون محيطاً] قال الحسن : حفيظاً لأعمالهم . وقال غيره : عالماً بأعمالهم لا يخفى عليه شيء منها .

و في هذه الآية تقريع بلغ لمن يمنعه حياء الناس وحشمتهم عن ارتكاب القبائح ولا يمنعه خشية الله عن ارتكابها وهو سبحانه أحقّ أن يراقب وأجدر أن يحذر ، وفيها أيضاً توبيخ لمن يعمل قبيحاً ثمّ يقذف غيره به سواء كان ذلك الغير مسلماً أو كافراً .

[ها أنتم] خطاب للذابّين عن السارق [هؤلاء] يعني الّذين [جادلتم] أي خاصمتم ودافعتم [عنهم] عن الخائنين [في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة] استفهام يراد به النهي لأنّه في معنى التقريع والتوبيخ أي لا مجادل عنهم ولا شاهد على براءتهم

بين يدي الله يوم القيامة ، وفي هذه الآية النهي عن الدفع عن الظالم والمجادلة عنه .

[أم من يكون عنهم وكيلاً] أي من يحفظهم ويتولّى معونتهم يعنى لايكون يوم القيامة عليهم وكيل يقوم بأمرهم ويخاصم عنهم ، وأصل الوكيل من جعل إليه القيام بالأمر ، والله يسمّى وكيلاً بمعنى أنّه القائم بالأمر ، ويقال : إنّه يسمّى وكيلاً بمعنى الحافظ ، ولا يقال : إنّه وكيل لنا وإنّما يقال : إنّه وكيل علينا .

قوله تعالى : ومن يعمل سوء او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً (١١٠) ومن يكسب اثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيماً (١١١) ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتانا واثماً مبيناً (١١٢) .

المعنى : ثمّ بيّن تعالى طريق التلافي والتوبة ممّا سبق منهم من المعصية فقال :

[ومن يعمل سوءاً] أي معصيةً أو أمراً قبيحاً [أو يظلم نفسه] بارتكاب جريمة ، وقيل : يعمل سوءاً بأن يسرق الدرع أويظلم نفسه بأن يرمي بها بريئاً . وقيل : المراد بالسوء الشرك وبالظلم مادون الشرك [ثمّ يستغفرالله] أي يتوب إليه ويطلب منه المغفرة [يجد الله غفوراً رحيماً] ثمّ بيّن الله تعالى أنّ جريمتهم وإن عظمت فإنّها غير مانعة من المغفرة وقبول التوبة إذا استغفروا وتابوا .

[ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه] ظاهر المعنى ونظيره : «لاتكسب كلّ نفس إلّا عليها»[1] «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها [2]» [وكان الله عليماً] بكسبه [حكيماً] في عقابه ، وقيل : عليماً في قضائه فيهم . وقيل : عليماً بالسارق حكيماً في إيجاب القطع عليه . ثمّ بيّن أنّ من ارتكب إثماً ثمّ قذف به غيره كيف يعظم عقابه فقال :

[ومن يكسب خطيئة] أي يعمل ذنباً على عمد أوغير عمد [أو إثماً] أي ذنباً تعمّده ،

---

(١) الانعام : ١٦٤ .

(٢) فصلت : ٤٦ . الجاثية : ١٤ .

وقيل : الخطيئة الشرك والإثم مادون الشرك [ثمّ يرم به بريئاً] ثمّ ينسب ذنبه إلى بريء . وقيل : البريء هو اليهودي الّذي طرح عليه الدرع ، عن الحسن وغيره . وقيل : هو لبيد بن سهل (سهين خ) وقد مضى ذكرهما قبل ، وقوله : «ثمّ يرم به بريئاً » اختلف في الضمير الّذي هو الهاء في « به » فقيل : يعود إلى الإثم أي بالإثم . وقيل : إلى واحد منهما . و قيل : يعني بكسبه [فقد احتمل بهتاناً] كذباً عظيماً يتحيّر من عظمه [وإثماً مبيناً] أي ذنباً ظاهراً بيّناً .

وفي هذه الآيات دلالة على أنّه تعالى لايجوز أن يخلق أفعال خلقه ثمّ يعذّبهم عليها ، لأنّه إذا كان الخالق لها فهم برآء منها ، فلو قيل : إنّ الكسب مضاف إلى العبد ؛ فجوابه أنّ الكسب لو كان مفهوماً وله معنى لم يخرج العبد بذلك من أن يكون بريئاً ، لأنّه إذا قيل : إن الله تعالى أوجد الفعل وأحدثه وأوجد الاختيار في القلب والفعل لا يتجزّأ فقد انتفى عن العبد من جميع جهاته .

قوله تعالى : ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء و أنزل الله عليك الكتاب و الحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١١٣) لاخير فى كثير من نجويهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس و من يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما (١١٤) .

النزول : قيل : نزلت في بني اُبيرق وقد مضت قصّتهم عن أبي صالح عن ابن عبّاس . وقيل : نزلت في وفد من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمّد جئناك نبايعك على أن لانكسر أصنامنا بأيدينا وعلى أن نتمتّع بالعزّى سنة فلم يجبهم إلى ذلك وعصمه الله منه ، عن جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه لطفه برسوله وفضله عليه إذ صرف كيدهم عنه وعصمه من الميل إليهم فقال :

[ولولا فضل الله عليك ورحمته] قيل : فضل الله النبوّة ورحمته نصرته إيّاه بالوحي .

وقيل : فضله تأييده بألطافه ورحمته نعمته ، عن الجبّائي . وقيل : فضله النبوّة ورحمته العصمة [لهمّت طائفة منهم] لقصدت وأضمرت جماعة من هؤلاء الّذين تقدّم ذكرهم [أن يضلّوك] فيه أقوال :

احدها : أنّ المعنيّ بهم الّذين شهدوا للخائنين من بني اُبيرق بالبراءة ، عن ابن عبّاس والحسن والجبّائي فيكون المعنى : همّت طائفة منهم أن يزيلوك عن الحقّ بشهادتهم للخائنين حتّى اطّلعك الله على أسرارهم .

وثانيها : أنّهم وفد ثقيف الّذين التمسوا من رسول الله مالا يجوز ، وقد مضى ذكرهم عن ابن عبّاس أيضاً .

وثالثها : أنّهم المنافقون الّذين همّوا بإهلاك النبيّ و المراد بالإضلال القتل والإهلاك كما في قوله تعالى : «أإذا ضللنا في الأرض (١)» ، فيكون المعنى : لولا حفظ الله تعالى لك وحراسته إيّاك لهمّت طائفة من المنافقين أن يقتلوك ويهلكوك ومثله « وهمّوا بما لم ينالوا (٢)» عن أبي مسلم .

[ومايضلّون إلّا أنفسهم] أي ومايزيلون عن الحقّ إلّا أنفسهم ، وقيل : مايهلكون إلّا أنفسهم ومعناه : أنّ وبال ماهمّوا به من الإهلاك والإزلال يعود عليهم حتّى استحقّوا العذاب الدائم [ومايضرّونك من شيء] أي لايضرّونك بكيدهم ومكرهم شيئاً فإنّ الله حافظك وناصرك ومسدّدك ومؤيّدك .

[وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] أي القرآن والسنّة ، واتّصاله بما قبله أنّ المعنى كيف يضلّونك وهو ينزل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام ؟ [وعلّمك مالم تكن تعلم] أي مالم تعلمه من الشرائع وأنباء الرسل الأوّلين وغير ذلك من العلوم [وكان فضل الله عليك عظيماً] قيل : فضله عليك منذ خلقك إلى أن بعثك عظيم إذ جعلك خاتم النبيّين وسيّد المرسلين وأعطاك الشفاعة وغيرها .

ثمّ قال . [لاخير في كثير من نجواهم] أي أسرارهم ومعنى النجوى لا يتمّ إلّا بين

(١) الم السجدة : ١٠ .

(٢) التوبة : ٧٥ .

اثنين فصاعداً كالدعوى [إلّا من أمر بصدقة] فإنّ في نجواه خيراً [أو معروف] يعني بالمعروف أبواب البرّ لاعتراف العقول بها ، وقيل : لأنّ أهل الخير يعرفونها [أو إصلاح بين الناس] أي تأليف بينهم بالمودّة ، وقال عليّ بن إبراهيم في تفسيره : حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الله فرض التحمّل في القرآن فقال : قلت : وما التحمّل في القرآن جعلت فداك ؟ قال : أن يكون وجهك أعرض من وجه أخيك فتحمل له ، وهو قوله : «لاخير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقة أو معروف ، الآية » قال : و حدّثني أبي رفعه إلى أمير المؤمنين أنّه قال : إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم .

[ومن يفعل ذلك] يعني ما تقدّم ذكره [ابتغاء مرضات الله] أي طلب رضاء الله [فسوف نؤتيه] أي نعطيه [أجراً عظيماً] أي مثوبة عظيمة في الكثرة والمنزلة والصفة ؛ أمّا الكثرة فلأنّه دائم ، و أمّا المنزلة فلأنّه مقارن للتعظيم والإجلال ، وأمّا الصفة فلأنّه غير مشوب بما ينغّصه .

وفي الآية دلالة على أنّ فاعل المعصية هو الّذي يضرّ بنفسه لما يعود عليه من وبال فعله ، وفيها دلالة أيضاً على أنّ الّذي يدعو إلى الضلال هو المضلّ ، و على أنّ فاعل الضلال مضلّ لنفسه ، وعلى أنّ الدعاء إلى الضلال يسمّى إضلالاً .

قوله تعالى : ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى و نصله جهنم وساءت مصيراً (١١٥) .

النزول : قيل : نزلت في شأن ابن أبي اُبيرق سارق الدرع ، ولمّا أنزل الله في تقريعه وتقريع قومه الآيات كفر وارتدّ ولحق بالمشركين من أهل مكّة ، ثمّ نقب حائطاً للسرقة فوقع عليه الحائط فقتله ، عن الحسن . وقيل : إنّه خرج من مكّة نحو الشام فنزل منزلاً وسرق بعض المتاع وهرب فاُخذ ورمي بالحجارة حتّى قتل ، عن الكلبيّ .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه التوبة عقّبه بذكر حال الإصرار فقال :

[ومن يشاقق الرسول] أي من يخالف محمّداً ويعاده [من بعد ما تبيّن له الهدى] أي

ظهر له الحق والإسلام وقامت له الحجة وصحت الأدلة بثبوت نبوته ورسالته [ويتبع] طريقاً [غير سبيل المؤمنين] أي غير طريقتهم الذي هو دينهم [نوله ما تولى] أي نكله إلى من انتصر به واتكل عليه من الأوثان وحقيقته نجعله يلي ما اعتمده من دون الله أي يقرب منه ، وقيل : معناه نخلي بينه وبين ما اختاره لنفسه [ونصله] أي نلزمه دخول [جهنم] عقوبةً له على ما اختاره من الضلالة بعد الهدى [وساءت مصيراً] قد مر معناه .

وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة لأنه توعد على مخالفة سبيل المؤمنين كما وعد على مشاقة الرسول صلى الله عليه وآله .

والصحيح أنه لا يدل على ذلك لأن ظاهر الآية يقتضي إيجاب متابعة من هو مؤمن على الحقيقة ظاهراً وباطناً ، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازاً فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعة من أظهر الإيمان ؟ وليس كل من أظهر الإيمان مؤمناً، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله على أن ظاهر الآية يقتضي أن الوعيد إنما يتناول من جمع بين مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين ، فمن أين لهم أن من فعل أحدهما يتناوله الوعيد ؟ ونحن إنما علمنا يقيناً أن الوعيد إنما يتناول بمشاقة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية فيجب أن يسندوا لتناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر .

قوله تعالى : ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً (١١٦) .

قد مر تفسيره فيما تقدم وقوله : [قد ضل ضلالاً بعيداً] أي ذهب عن طريق الحق ، والغرض المطلوب وهو النعيم المقيم في الجنة ذهاباً بعيداً لأن الذهاب عن نعيم الجنة يكون على مراتب أبعدها الشرك بالله .

قوله تعالى : ان يدعون من دونه الا اناثاً و ان يدعون الا شيطان مريدا (١١٧) لعنه الله و قال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً (١١٨) و

لاضلنهم ولامنينهم ولامرنهم فليبتكن آذان الانعام ولامرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً (١١٩) يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الا غرورا (١٢٠) اولئك ماويهم جهنم ولايجدون عنها محيصا (١٢١) .

المعنى : لمّا ذكر في الآية المتقدّمة أهل الشرك وضلالهم ذكر في هذه الآية حالهم وفعالهم فقال :

[إن يدعون] أي ما يدعون هؤلاء المشركون وما يعبدون [من دونه] أي من دون الله [إلّا إناثاً] فيه أقوال :

أحدها : إلّا أوثاناً و كانوا يسمّون الأوثان بإسم الإناث اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى وأساف ونائلة ، عن أبي مالك والسدّي ومجاهد وابن زيد ، وذكر أبو حمزة الثماليّ في تفسيره قال : كان في كلّ واحدة منهنّ شيطانة اُنثى تتراءى للسدنة وتكلّمهم وذلك من صنع إبليس وهو الشيطان الّذي ذكره الله فقال : لعنه الله . قالوا : واللات كان اسماً لصخرة ، و العزّى كان اسماً لشجرة إلّا أنّهم نقلوهما إلى الوثن و جعلوهما علماً عليهما . وقيل : العزّى تأنيث الأعزّ ، واللات تأنيث لفظ الله . وقال الحسن : كان لكلّ حيّ من العرب وثن يسمّونه باسم الاُنثى .

وثانيها : أنّ المعنى إلّا أمواتاً ، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة ، فعلى هذا يكون تقديره : مايعبدون من دون الله إلّا جماداً وأمواتاً لاتعقل ولا تنطق ولا تضرّ ولا تنفع ، فدلّ ذلك على غاية جهلهم وضلالهم ، وسمّاها إناثاً لاعتقاد مشركي العرب الاُنوثة في كلّ ما اتّضعت منزلته ، ولأنّ الإناث من كلّ جنس أرذله . وقال الزجّاج : لأنّ الموات يخبر عنها بلفظ التأنيث تقول : الأحجار تعجبني ، ولاتقول : يعجبونني ، ويجوز أن يكون إناثاً سمّاها لضعفها وقلّة خيرها وعدم نصرها .

و ثالثها : أنّ المعنى : إلّا ملائكة لأنّهم كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات الله و كانوا يعبدون الملائكة ، عن الضحّاك .

[وإن يدعون إلّا شيطاناً مريداً] أي مارداً شديداً في كفره وعصيانه متمادياً في شركه وطغيانه ، يسأل عن هذا فيقال : كيف نفى في أوّل الكلام عبادتهم لغير الأوثن ثمّ أثبت في آخره عبادتهم الشيطان فأثبت في الآخر ما نفاه في الأوّل ؟ وأجاب الحسن عن هذا فقال : إنّهم لم يعبدوا إلّا الشيطان في الحقيقة لأنّ الأوثان كانت مواتاً مادعت أحداً إلى عبادتها ، بل الداعي إلى عبادتها الشيطان فاُضيفت العبادة إلى الشيطان بحكم الدعاء ، وإلى الأوثان لأجل أنّهم كانوا يعبدونها ويدلّ عليه قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ[1] » ، أضافت الملائكة عبادتهم إلى الجنّ حتّى قيل : إنّ الجنّ دعتهم إلى عبادة الملائكة . و قال ابن عبّاس : كان في كلّ واحد من أصنامهم الّتي كانوا يعبدونها شيطان مريدٌ يدعو المشركين إلى عبادتها فلذلك حسن إضافة العبادة إلى الأصنام وإلى الشيطان . وقيل : ليس في الآيات إثبات المنفيّ بل ما يعبدون إلّا الأوثان وإلّا الشيطان وهو إبليس .

[لعنه الله] بعّده الله عن الخير بإيجاب الخلود في نارجهنّم [وقال] يعني الشيطان لمّا لعنه الله [لأتّخذنّ من عبادك نصيباً] أي حظّاً [مفروضاً] أي معلوماً ، عن الضحّاك . و قيل : مقدّراً محدوداً . وأصل الاتّخاذ أخذ الشيء على وجه الاختصاص ؛ فكلّ من أطاعه فإنّه من نصيبه وحزبه كماقال سبحانه : « كتب عليه أنّه من تولّاه فأنّه يضلّه[2] » . وروي أنّ النبيّ قال في هذه الآية : من بني آدم تسعة وتسعون في النار و واحد في الجنّة . وفي رواية اُخرى من كلّ ألف واحدٌ لله وسائرهم للنار ولإبليس ، أوردهما أبوحمزة الثمالي في تفسيره .

ويقال : كيف علم إبليس أنّ له أتباعاً يتابعونه ؟ و الجواب علم ذلك من قوله : «لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك[3] » . وقيل : إنّه لمّا نال من آدم ما نال طمع في ولده وإنّما

---

(١) سبأ : ٤١ .

(٢) الحج : ٤ .

(٣) ص : ٨٤ .

قال ذلك ظناً ، ويؤيده قوله تعالى : «ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه (١)» .

[ولأضلّنّهم] هذا من مقالة إبليس يعني لأضلّنّهم عن الحقّ والصواب ، و إضلاله دعاؤه إلى الضلال وتسبيبه له بحبائله وغروره ووساوسه [ولأمنّينّهم] يعني اُمنّينّهم طول البقاء في الدنيا فيؤثرون بذلك الدنيا ونعيمها على الآخرة ، وقيل : معناه أقول لهم : ليس وراءكم بعثٌ ولا نشرٌ ولا جنّةٌ ولا نارٌ ولا ثوابٌ ولا عقاب فافعلوا ماشئتم ، عن الكلبيّ . وقيل : معناه : اُمنّينّهم بالأهواء الباطلة الداعية إلى المعصية واُزيّن لهم شهوات الدنيا و زهراتها وأدعو كلاً منهم إلى نوع يميل طبعه إليه فأصدّه بذلك عن الطاعة و اُلقيه في المعصية .

[ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام] تقديره : ولآمرنّهم بتبتيك آذان الأنعام فليبتّكنّ أي ليشقّقنّ آذانهم ،عن الزجّاج وقيل : ليقطعنّ الآذان من أصلها ،وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام وهذا شيء قد كان مشركو العرب يفعلونه ، يجدعون آذان الأنعام . ويقال : كانوا يفعلونه بالبحيرة والسائبة ، وسنذكر ذلك في سورة المائدة إن شاء الله .

[ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق الله] أي لآمرنّهم بتغيير خلق الله فليغيّرنّه ، واختلف في معناه فقيل : يريد دين الله وأمره ، عن ابن عبّاس وإبراهيم ومجاهد و الحسن و قتادة و جماعة وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام . ويؤيده قوله سبحانه وتعالى : «فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله (٢)» وأراد بذلك تحريم الحلال وتحليل الحرام ، و قيل : أراد معنى الخصاء ، عن عكرمة وشهر بن حوشب وأبي صالح عن ابن عبّاس ، و كرهوا الإخصاء في البهائم . وقيل : إنّه الوشم ، عن ابن مسعود . وقيل : إنّه أراد الشمس والقمر والحجارة عدلوا عن الانتفاع بها إلى عبادتها ، عن الزجّاج .

[ومن يتّخذ الشيطان وليّاً] أي ناصراً وقيل : ربّاً يطيعه [من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً] أي ظاهراً ، وأيّ خسران أعظم من استبدال الجنّة بالنار ؟ و أيّ صفقة أخسر من استبدال رضاء الشيطان برضاء الرحمن ؟

(١) سبأ : ٢٠ .
(٢) الروم : ٣٠ .

[يعدهم الشيطان] أن يكون لهم ناصراً [ويمنّيهم] الأكاذيب والأباطيل ، وقيل: معناه يعدهم الفقر إن أنفقوا مالهم في أبواب البرّ ويمنّيهم طول البقاء في الدنيا ودوام النعيم فيها ليؤثروها على الآخرة [ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً] أي لايكون لما يعدهم ويمنّيهم أصل وحقيقة ، والغرور إيهام النفع فيما فيه ضرر .

[أُولئك] إشارة إلى الّذين اتّخذوا الشيطان وليّاً من دون الله فاغترّوا بغروره وتابعوه فيمادعاهم إليه [مأواهم] مستقرّهم جميعاً [جهنّم ولايجدون عنها محيصاً] أي مخلصاً ولا مهرباً ولامعدلاً .

قوله تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن اصدق من الله قيلا (١٢٢)

قدّمرّ تفسير صدر الآية في هذه السورة . وقوله : «ومن أصدق من الله قيلاً ، ومن أصدق من الله حديثاً (١) » ونحوه بإشمام الزاي كوفيّ غير عاصم ورويس و الباقون بالصاد وقدذكرنا الوجه عند ذكر الصراط في الفاتحة ، و قوله : « وعدالله » نصب على المصدر و تقديره : وعدالله ذلك وعداً ،فهومصدر دلّ معنى الكلام الّذي تقدّم على فعله الناصب له ، « حقّاً » أيضاً مصدرمؤكّد لما قبله كأنّه قال : أحقّه حقّاً . و«قيلاً» منصوب على التمييز كما يقال : هو أكرم منك فعلاً ،ومعناه وعدالله ذلك وعداً حقّاً لاخلف فيه « ومن أصدق» استفهام فيه معنى النفي أي لا أحد أصدق من الله قولاً فيما أخبره ووعداً فيما وعده .

قوله تعالى: ليس بأمانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوء يجز ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣) ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١٢٤) .

النزول : قيل : تفاخر المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم ، فقال المسلمون : نبيّنا خاتم النبيّين و كتابنا يقضي على الكتب وديننا الإسلام فنزلت الآية . فقال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء فأنزل الله

(١) السورة : ٨٧ .

الآية الّتي بعدها : «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن» ، ففلج المسلمون، عن قتادة والضحّاك ، وقيل : لمّا قالت اليهود : «نحن أبناء الله و أحبّاؤه» ، و قال أهل الكتاب : «لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى» نزلت الآية، عن مجاهد .

المعنى : لمّا ذكر الله سبحانه الوعد والوعيد قال عقيب ذلك :

[ليس بأمانيّكم] معناه ليس الثواب والعقاب بأمانيّكم أيّها المسلمون، عن مسروق والسدّي . وقيل : الخطاب لأهل الشرك من قريش لأنّهم قالوا : لا نبعث ولا نعذّب، عن مجاهد وابن زيد [ولا أمانيّ أهل الكتاب] أي ولا بأمانيّ أهل الكتاب في أنّه لا يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى ، وهذا يقوّي القول الأخير على أنّه لم يجر للمسلمين ذكرٌ في الأمانيّ وذكر أمانيّ الكفّار قد جرى في قوله : «ولأمنّينّهم» هذا وقد وعد الله المؤمنين فيما بعد بما هو غاية الأمانيّ .

[من يعمل سوءاً يجزبه] اختلف في تأويله على أقوال :

احدها أنّه يريد بذلك جميع المعاصي صغائرها و كبائرها وأنّ من ارتكب شيئاً منها فإنّ الله سبحانه يجازيه عليها إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ، عن عائشة وقتادة ومجاهد. وروي عن أبي هريرة أنّه قال : لمّا نزلت هذه الآية بكينا وحزنّا و قلنا يارسول الله : ما أبقت هذه الآية من شيء ، فقال : أما والّذي نفسي بيده إنّها لكما اُنزلت ، ولكن ابشروا وقاربوا وسدّدوا إنّه لا تصيب أحداً منكم مصيبة إلّا كفّر الله بها خطيئته حتّى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه ، رواه الواحديّ في تفسيره مرفوعاً .

وقال القاضي أبوعاصم القارىء العامريّ : في هذا قطع لتوهّم أنّ المعصية لا تضرّ مع الايمان كما أنّ الطاعة لاتنفع مع الكفر .

و **ثانيها** أنّ المراد به مشركو قريش وأهل الكتاب، عن الحسن و الضحّاك و ابن زيد قالوا : وهو كقوله : «وهل نجازي إلّا الكفور» .

و **ثالثها** أنّ المراد بالسوء هنا الشرك ، عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير .

[ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً] معناه : ولايجد هذا الّذي يعمل سوءاً من معاصي الله و خلاف أمره وليّاً يلي أمره ينصره و يحامي عنه ويدفع عنه ما ينزل به من

عقوبة الله ، و لا نصيراً أي ناصراً ينصره وينجيه من عذاب الله .

ومن استدلّ بهذه الآية على المنع من جواز العفو عن المعاصي فإنّا نقول له : إنّ من ذهب إلي أنّ العموم لاينفرد في اللغة بصيغة مختصّة به لايسلّم أنّها تستغرق جميع من فعل السوء ، بل يجوز أن يكون المراد بها بعضهم على ماذكره أهل التأويل كابن عبّاس وغيره على أنّهم قد اتّفقوا على أنّ الآية مخصوصة ، فإنّ التائب و من كان معصيته صغيرة لايتناوله العموم فإذا جازلهم أن يخصّصوا العموم في الآية بالفريقين جازلنا أن نخصّها بمن يتفضّل الله عليه بالعفو وهذا بيّن والحمدلله .

وقوله سبحانه : [ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو اُنثى وهو مؤمن] وإنّما قال «وهو مؤمن» ليبيّن أنّ الطاعة لاتنفع من دون الإيمان [فاُولئك يدخلون الجنّة ولا يظلمون نقيراً] وعدالله تعالى بهذه الآية جميع المكلّفين من الرجال و النساء إذا عملوا الأعمال الصالحة أي الطاعات الخالصة ، وهم مؤمنون موحّدون مصدّقون نبيّه بأن يدخلهم الجنّة ويثبتهم فيها ولا يبخسهم شيئاً ممّا يستحقّونه من الثواب و إن كان مقدار نقير في الصغر .

وقد قابل سبحانه الوعيد العامّ في الآية الّتي قبل هذه الآية بالوعد العامّ في هذه الآية ليقف المؤمن بين الخوف والرجاء .

قوله تعالى : ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن و اتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذالله ابراهيم خليلا (١٢٥) ولله ما فى السموات وما فى الارض وكان الله بكل شيء محيطاً (١٢٦) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه من يستحقّ الوعد الّذي ذكره قبل فقال : [ومن أحسن ديناً] وهو في صورة الاستفهام والمراد به التقرير و معناه من أصوب طريقاً و أهدى سبيلاً ؛ أي لاأحد أحسن اعتقاداً [ممّن أسلم وجهه لله] أي استسلم وجهه ، والمراد بقوله : «وجهه » هنا ذاته ونفسه كما قال تعالى : « كلّ شيء هالك إلّاوجهه[١] » و المعنى : انقاد لله سبحانه بالطاعة و لنبيّه صلى الله عليه وآله بالتصديق . وقيل : معنى «أسلم وجهه لله» قصده بالعبادة

(١) القصص : ٨٨ .

وحده كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض[1]» وقيل: معناه أخلص أعماله لله أي أتى بها مخلصاً لله فيها.

[وهو محسن] أي فاعل للفعل الحسن الذي أمره الله تعالى، وقيل: معناه وهو محسن في جميع أقواله وأفعاله، وقيل: إن المحسن هنا الموحد. و روي أن النبي صلى الله عليه وآله سئل عن الإحسان فقال: أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

[واتبع ملة إبراهيم] أي اقتدى بدينه و سيرته و طريقته يعني ما كان عليه إبراهيم وأمر به بنيه من بعده، وأوصاهم به من الإقرار بتوحيده وعدله، و تنزيهه عما لا يليق به، ومن ذلك الصلاة إلى الكعبة والطواف حولها و سائر المناسك [حنيفاً] أي مستقيماً على منهاجه وطريقه، وقد مر معنى الحنيف في سورة البقرة.

[واتخذ الله إبراهيم خليلاً] أي محباً لاخلل في مودته لكمال خلته، والمراد بخلته لله أنه كان موالياً لأولياء الله ومعادياً لأعداء الله، والمراد بخلة الله تعالى له نصرته على من أراده بسوء كما أنقذه من نار نمرود وجعلها عليه برداً وسلاماً، و كما فعله بملك مصر حين راوده عن أهله، وجعله إماماً للناس وقدوة لهم، قال الزجاج: جائز أن يكون سمي خليل الله بأنه الذي أحبه الله بأن اصطفاه محبة تامة كاملة، وأحب الله هو محبة تامة كاملة. وقيل سمي خليلاً لأنه افتقر إلى الله وتوكل عليه وانقطع بحوائجه إليه، وهو اختيار الفراء و أبي القاسم البلخي. و إنما خصه الله بهذا الاسم و إن كان الخلق كلهم فقراء إلى رحمته تشريفاً له بالنسبة إليه من حيث إنه فقير إليه لا يرجو لسد خلته بسواه، كما خص موسى عليه السلام بأنه كليم الله، وعيسى عليه السلام بأنه روح الله، ومحمداً صلى الله عليه وآله بأنه حبيب الله. وقيل إنما سمي خليلاً لأنه سبحانه خصه بما لم يخص به غيره من إنزال الوحي عليه وغير ذلك من خصائصه.

وإنما خصه من بين سائر الأنبياء بهذا الاسم على المعنيين اللذين ذكرناهما و إن كان كل واحد من الأنبياء خليل الله في زمانه، لأنه سبحانه خصهم بالنبوة، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: قد اتخذ الله صاحبكم خليلاً - يعني نفسه - وهذا الوجه اختيار أبي علي الجبائي قال: و كل ما تعبد الله به إبراهيم فقد تعبد به نبينا صلى الله عليه وآله وزاده أشياء لم يتعبد به إبراهيم عليه السلام.

---

(١) الانعام: ٧٩.

وممّا قيل : في وجه خلّة إبراهيم ما روي في التفسير أنّ إبراهيم كان يضيف الضيفان ويطعم المساكين ، وأنّ الناس أصابهم جدب فارتحل إبراهيم إلى خليل له بمصر يلتمس منه طعاماً لأهله فلم يصب ذلك عنده ، فلمّا قرب من أهله بمفازة ذات رمل ليّنة ملأ غرائره (١) من ذلك الرمل لئلّا يغتمّ أهله برجوعه من غير ميرة (٢) ، فحوّل الله ما في غرائره دقيقاً فلمّا وصل إلى أهله دخل البيت و نام استحياءً منهم ، ففتحوا الغرائر و عجنوا من الدقيق و خبزوا و قدّموا إليه طعاماً طيّباً ، فسألهم من أين خبزوا ؟ قالوا : من الدقيق الّذي جئت به من عند خليلك المصريّ . فقال : أما إنّه من خليلي ليس بمصريّ ، فسمّاه الله سبحانه خليلاً ، رواه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه اتّخذ إبراهيم خليلاً لطاعته و مسارعته إلى رضاه لا لحاجة منه سبحانه إلى خلّته فقال : [ولله ما في السماوات وما في الأرض] مُلكاً ومِلكاً فهو مستغن عن جميع خلقه والخلق محتاجون إليه [وكان الله بكلّ شيء محيطاً] يعني لم يزل سبحانه عالماً بجميع ما يفعله عباده ، ومعنى المحيط بالشيء أنّه العالم به بجميع وجوهه .

قوله تعالى : ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما (١٢٧) .

المعنى : ثمّ عاد كلام الله تعالى إلى ذكر النساء واليتامى وقد جرى ذكرهم في أوّل السورة فقال :

[ويستفتونك] أي يسألونك الفتوى وهو تبيين المشكل من الأحكام [في النساء] يستخبرونك يا محمّد عن الحكم فيهنّ وعمّا يجب لهنّ وعليهنّ وإنّما حذف ذلك لإحاطة

(١) جمع الغرارة ـ بالكسر ـ : الجوالق .

(٢) الطعام الذى يدخر .

العلم بأنّ السؤال في أمر الدين إنّما يقع عمّا يجوز وعمّا لايجوز و عمّا يجب و عمّا لايجب .

[قل الله يفتيكم فيهنّ] معناه قل يا محمّد : يبيّن لكم ماسألتم في شأنهنّ [ومايتلى عليكم في الكتاب] أي ويفتيكم أيضاً مايقرأ عليكم في الكتاب أي القرآن وتقديره : و كتابه يفتيكم أي يبيّن لكم الفرائض المذكورة [في يتامى النساء] أي الصغار اللاتي لم يبلغن وقوله : [اللاتي لاتؤتونهنّ] أي لاتعطونهنّ [ما كتب لهنّ] و اختلف في تأويله على أقوال :

اولها : أنّ المعنى ومايتلى عليكم في توريث صغار النساء وهو آيات الفرائض الّتي في أوّل السورة ، وكان أهل الجاهليّة لايورّثون المولود حتّى يكبر ولا يورّثون المرأة ، وكانوا يقولون : لانورّث إلّا من قاتل ودفع عن الحريم ، فأنزل الله آية المواريث في أوّل السورة وهو معنى قوله : « لاتؤتونهنّ ما كتب لهنّ » أي من الميراث عن ابن عبّاس وسعيد ابن جبير ومجاهد وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

و ثانيها : أنّ المعنى : اللّاتي لاتؤتونهنّ ما وجب لهنّ من الصداق ، وكانوا لايؤتون اليتامى اللّاتي يلون عليهنّ من الصداق فنهى الله عن ذلك بقوله : «فإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا -من غيرهنّ- ماطاب لكم [(١)]» ، وقوله : « ومايتلى عليكم» هوماذكره في أوّل السورة من قوله : « فإن خفتم ألّا تقسطوا ، الآية» عن عائشة وهو اختيار أبي عليّ الجبّائيّ ، واختار الطبريّ القول الأوّل ، واعترض على هذا القول بأن قال : ليس الصداق ممّا كتب الله للناس إلّا بالنكاح فمن لم تنكح فلاصداق لها عند أحد .

و ثالثها : أنّ المراد بقوله : « لاتؤتونهنّ ما كتب لهنّ» النكاح الّذي كتب الله لهنّ في قوله : «وأنكحوا الأيامى ، الآية» ، فكان الوليّ يمنعهنّ من التزويج ، عن الحسن وقتادة والسدّيّ وابن مالك و إبراهيم قالوا : كان الرجل يكون في حجره اليتيمة بهادمامة ولها مال وكان يرغب أن يتزوّجها ويحبسها طمع أن تموت فيرثها ، قال السدّيّ : وكان جابر

(١) السورة : ٣ .

ابن عبدالله الأنصاري له بنت عم عمياء دميمة وقد ورثت عن أبيها مالاً ، فكان جابر يرغب عن نكاحها ولاينكحها مخافة أن يذهب الزوج بمالها ، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فنزلت الآية .

وقوله : [وترغبون أن تنكحوهن] معناه على القول الأول والثالث : وترغبون عن أن تنكحوهن أي عن نكاحهن ولاتؤتونهن نصيبهن من الميراث فيرغب فيهن غيركم فقد ظلمتموهن من وجهين . وفي قول عائشة معناه : و ترغبون في أن تنكحوهن أي في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن .

[والمستضعفين من الولدان] معناه : ويفتيكم في المستضعفين من الصبيان الصغار أن تعطوهم حقوقهم ، وكانوا لايورثون صغيراً من الغلمان ولامن الجواري ، لأن مايتلى عليكم في باب اليتامى من قوله : «وآتوا اليتامى أموالهم[1]» يدل على الفتيا في إعطاء حقوق الصغار من الميراث .

[وأن تقوموا لليتامى بالقسط] أي ويفتيكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط في أنفسهم وفي مواريثهم وأموالهم وتصرفاتهم وإعطاء كل ذي حق منهم حقه صغيراً كان أو كبيراً ذكراً كان أو انثى ، وفيه إشارة إلى قوله سبحانه : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، الآية »[2].

[وماتفعلوا من خير] أي مهما فعلتم من خير أيها المؤمنون من عدل وبر في أمر النساء واليتامى وانتهيتم في ذلك إلى أمر الله وطاعته [فإن الله كان به عليماً] أي لم يزل به عالماً ولايزال كذلك يجازيكم به ولايضيع عنه شيء منه .

قوله تعالى : وان امرأة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلاجناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا و تتقوا فان الله كان بماتعملون خبيرا (١٢٨) .

النزول : كانت بنت محمد بن سلمة عند رافع بن خديج ، وكانت قد دخلت في السن ، وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسير قال : إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة وإن شئت تركتك ، قالت : بلى راجعني وأصبر على الأثرة ،

(١) السورة : ٢ . (٢) السورة : ٣ .

فراجعها ، فذلك الصلح الّذي بلغنا أنّ الله تعالى أنزل فيه هذه الآية عن أبي جعفر عليه السلام وسعيد بن المسيّب . وقيل : خشيت سودة بنت زمعة أن يطلّقها رسول الله فقالت : لا تطلقني وأجلسني مع نسائك ولا تقسم لي واجعل يومي لعائشة ، فنزلت الآية عن ابن عبّاس .

المعنى : لمّا تقدّمت حكم نشوز المرأة بيّن سبحانه تعالى نشوز الرجل فقال :

[وإن امرأة خافت] أي علمت وقيل : ظنّت [من بعلها] أي من زوجها [نشوزاً] أي استعلاء وارتفاعاً بنفسه عنها إلى غيرها إمّا لبغضه وإمّا لكراهته منها شيئاً إمّا دمامتها وإمّا علوّ سنّها أو غير ذلك [أو إعراضاً] يعني انصرافاً بوجهه أو ببعض منافعه الّتي كانت لها منه ، وقيل : يعني بإعراضه عنها هجرانه إيّاها وجفاها وميله إلى غيرها .

[فلا جناح عليهما] أي لا حرج ولا إثم على كلّ واحد منهما من الزوج والزوجة [أن يصلحا بينهما صلحاً] بأن تترك المرأة له يومها أو تضع عنه بعض ما يجب لها من نفقة أو كسوة أو غير ذلك لتستعطفه بذلك وتستديم المقام في حباله [والصلح خير] معناه والصلح بترك بعض الحقّ [خيرٌ] من طلب الفرقة بعد الإلفة هذا إذا كان بطيبة من نفسها فإن لم يكن كذلك فلا يجوز له إلّا ما يسوغ في الشرع من القيام بالكسوة والنفقة و القسمة وإلّا طلّقها ، وبهذه الجملة قالت الصحابة والتابعون منهم عليّ عليه السلام وابن عبّاس وعائشة وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد وغيرهم .

[وأُحضرت الأنفس الشحّ] اختلف في تأويله فقيل : معناه وأُحضرت أنفس النساء الشحّ على أنصبائهنّ من أنفس أزواجهنّ وأموالهنّ وأيّامهنّ منهم ، عن ابن عبّاس وسعيد ابن جبير وعطاء والسدّي . وقيل : معناه : وأُحضرت أنفس كلّ واحد من الرجل والمرأة الشحّ بحقّه قبل صاحبه ، فشحّ المرأة يكون بترك حقّها من النفقة والكسوة والقسمة و غيرها ، وشحّ الرجل بإنفاقه على الّتي لا يريدها وهذا أعمّ ، وبه قال ابن وهب وابن زيد .

[وإن تحسنوا] خطاب للرجال أي إن تفعلوا الجميل بالصبر على ما تكرهون من النساء [وتتّقوا] من الجور عليهنّ في النفقة والكسوة والعشرة بالمعروف ، وقيل : بأن تحسنوا في أقوالكم وأفعالكم وتتّقوا معاصي الله [فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً]

أي هو سبحانه خبير بما يكون منكم في أمرهنّ بحفظه لكم و عليكم حتّى يجازيكم بأعمالكم .

قوله تعالى : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة و ان تصلحوا و تتقوا فان الله كان غفورا رحيما (١٢٩) و ان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما (١٣٠) .

المعنى : لمّا تقدّم ذكر النشوز والصلح بين الزوجين عقّبه سبحانه بأنّه لايكلّف من ذلك ما لايستطاع فقال :

[ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم] أي لن تقدروا أن تسوّوا بين النساء في المحبّة والمودّة بالقلب ولو حرصتم على ذلك كلّ الحرص ، فإنّ ذلك ليس إليكم ولا تملكونه فلا تكلّفونه ولا تؤاخذون به ، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة . وقيل : معناه لن تقدروا أن تعدلوا بالتسوية بين النساء في كلّ الاُمور من جميع الوجوه من النفقة والكسوة والعطيّة والمسكن والصحبة والبرّ والبشر وغير ذلك ، والمراد به أنّ ذلك لايخفّف عليكم بل يثقل ويشقّ لميلكم إلى بعضهنّ .

[فلاتميلوا كلّ الميل] أي فلا تعدلوا بأهوائكم عن من لم تملكوا محبّة منهنّ كلّ العدول حتّى يحملكم ذلكم على أن تجوروا على صواحبها في ترك أداء الواجب عليكم من حقّ القسمة والنفقة والكسوة والعشرة بالمعروف .

[فتذروها كالمعلّقة] أي تذروا الّتي لاتميلون إليها كالّتي هي لا ذات زوج ولا أيّم ، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم ، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّه سأل رجل من الزنادقة أبا جعفر الأحول عن قوله سبحانه : «فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة» ثمّ قال : «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» ، وبين القولين فرق ، قال : فلم يكن عندي جواب ذلك حتّى قدمت المدينة فدخلت على أبي عبدالله عليه السلام فسألته عن ذلك فقال : أمّا قوله : « فإن خفتم ألّا تعدلوا» فإنّه عنى في النفقة ، وأمّا قوله : « و لن تستطيعوا أن تعدلوا » فإنّه عنى في المودّة ، فإنّه لايقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودّة ، قال : فرجعت إلى الرجل

فأخبرته فقال : هذا ما حملته من الحجاز . و روى أبو قلابة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يقسم بين نسائه ويقول : اللّهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك .

قوله : [وإن تصلحوا] يعني في القسمة بين الأزواج والتسوية بينهن في النفقة وغير ذلك [وتتّقوا] الله في أمرهن وتتركوا الميل الّذي نهاكم الله عنه في تفضيل واحدة على الأُخرى [فإن الله كان غفوراً رحيماً] يستر عليكم ما مضى منكم من الحيف في ذلك إذا تبتم ورجعتم إلى الاستقامة والتسوية بينهن و يرحمكم بترك المؤاخذة على ذلك ، و كذلك كان يفعل فيما مضى مع غيركم ، وروي عن جعفر الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله كان يقسم بين نسائه في مرضه فيطاف به بينهن ، وروي أن علياً كان له امرأتان فكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الأُخرى . وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا في الطاعون فأقرع بينهما أيهما تدفن قبل الأُخرى .

وقوله : [وإن يتفرّقا يغن الله كلاً من سعته] يعني إذا أبى كل واحد من الزوجين مصلحة الآخر بأن تطالب المرأة بنصيبها من القسمة والنفقة والكسوة وحسن العشرة ويمتنع الرجل من إجابتها إلى ذلك ويتفرّقا حينئذ بالطلاق فإنه سبحانه يغني كل واحد منهما من سعته أي من سعة فضله ورزقه .

[وكان الله واسعاً حكيماً] أي لم يزل واسع الفضل على العباد حكيماً فيما يدبّرهم به . وفي هذه الآية دلالة على أن الأرزاق كلّها بيد الله وهو الّذي يتولّاها بحكمته و إن كان ربّما أجراها على يدي من يشاء من بريّته .

قوله تعالى : ولله ما فى السموات وما فى الارض ولقد وصينا الذين او توا الكتاب من قبلكم و اياكم ان اتقوا الله و ان تكفروا فان لله ما فى السموات و ما فى الارض وكان الله غنيا حميداً (١٣١) ولله ما فى السموات و ما فى الارض و كفى بالله وكيلا (١٣٢) .

المعنى : ثمّ ذكر سبحانه بعد إخباره بإغناء كلّ واحد من الزوجين بعد الافتراق من سعة فضله ما يوجب الرغبة إليه في ابتغاء الخير منه فقال :

[ولله ما في السماوات وما في الأرض] إخباراً عن كمال قدرته وسعة ملكه ، أي فإنّ

من يملك ما في السماوات وما في الأرض لايتعذّر عليه الإغناء بعد الفرقة والإيناس بعد الوحشة .

ثمّ ذكر الوصيّة بالتقوى فإنّ بها ينال خير الدنيا والآخرة فقال : [ولقد وصّينا الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم] من اليهود والنصارى وغيرهم [وإيّاكم] أي وأوصيناكم أيّها المسلمون في كتابكم [أن اتّقوا الله] وتقديره : بأن اتّقوا الله أي اتّقوا عقابه باتّقاء معاصيه ولا تخالفوا أمره ونهيه [وإن تكفروا] أي تجحدوا وصيّته إيّاكم و تخالفوها [فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض] لايضرّه كفرانكم وعصيانكم ، وهذه إشارة إلى أنّ أمره جميع الاُمم بطاعته و نهيه إيّاهم عن معصيته ليس استكثاراً بهم عن قلّة و لا استنصاراً بهم عن ذلّة ولا استغناء بهم عن حاجة ، فإنّ له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً ومُلكاً وخلقاً لايلحقه العجز ولا يعتريه الضعف و لاتجوز عليه الحاجة ، وإنّما أمرنا ونهانا نعمة منه علينا ورحمة بنا [وكان الله غنيّاً] أي لم يزل سبحانه غير محتاج إلى خلقه بل الخلائق كلّهم محتاجون إليه [حميداً] أي مستوجباً للحمد عليكم بصنائعه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم فاستديموا ذلك باتّقاء معاصيه والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به.

ثمّ قال : [ولله ما في السماوات وما في الأرض و كفى بالله وكيلاً] أي حافظاً لجميعه لايعزب عنه علم شيء منه ولا يؤوده حفظه وتدبيره ولا يحتاج مع سعة ملكه إلى غيره .

وأمّا وجه التكرار لقوله : «ولله ما في السماوات والأرض» في الآيتين ثلاث مرّات فقد قيل : إنّه للتأكيد والتذكير . وقيل : إنّه للإبانة عن علل ثلاث : أحدها : بيان إيجاب طاعته فيما قضى به لأنّ له ملك السماوات والأرض . والثاني : بيان غناه عن خلقه وحاجتهم إليه واستحقاقه الحمد على النعم لأنّ له ما في السماوات وما في الأرض .والثالث : بيان حفظه إيّاهم وتدبيره لهم لأنّ له ملك السماوات والأرض .

قوله تعالى : ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت بآخرين و كان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعندالله ثواب الدنيا و الاخرة و كان الله سميعا بصيرا (١٣٤) .

المعنى : لمّا ذكر سبحانه غناه عن الخلق بأنّ له ملك السماوات والأرض عقّب

ذلك بذكر كمال قدرته على خلقه و أنّ له الإهلاك والإنجاء و الاستبدال بعد الإفناء فقال :

[إن يشأ يذهبكم] يعني إن يشأ الله يهلككم [أيّها الناس] ويفنكم ، وقيل : فيه محذوف أي إن يشأ أن يذهبكم يذهبكم أيّها الناس [ويأت بآخرين] أي بقوم آخرين غيركم ينصرون نبيّه ويوازرونه . ويروى أنّه لمّا نزلت هذه الآية ضرب النبيّ ﷺ يده على ظهر سلمان وقال : هم قوم هذا يعني عجم الفرس [وكان الله على ذلك قديراً] أي لم يزل سبحانه ولا يزال قادراً على الإبدال والإفناء والإعادة .

ثمّ ذكر سبحانه عظم ملكه و قدرته بأنّ جزاء الدارين عنده فقال : [من كان يريد ثواب الدنيا] أي الغنيمة و المنافع الدنيويّة ، أخبر سبحانه عمّن أظهر الإيمان بمحمّد ﷺ من أهل النفاق يريد عرض الحياة الدنيا بإظهار ما أظهره من الإيمان بلسانه [فعند الله ثواب الدنيا والآخرة] أي يملك سبحانه الدنيا والآخرة فيطلب المجاهد الثواب من عند الله ، عن أبي عليّ الجبّائي . وقيل : إنّه وعيد للمنافقين وثوابهم في الدنيا ما يأخذونه من الفيء والغنيمة إذا شهدوا الحرب مع المسلمين وأمّنهم على نفوسهم و أموالهم وذراريهم وثوابهم في الآخرة النار .

[وكان الله سميعاً بصيراً] أي لم يزل على صفة يجب لأجلها أن يسمع المسموعات و يبصر المبصرات عند الوجود ، وهذه الصفة هي كونه حيّاً لا آفة به ، وقيل : إنّما ذكر هذا ليبيّن أنّه يسمع ما يقول المنافقون إذا خلوا إلى شياطينهم ويعلم ما يسرّون من نفاقهم .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلاتتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً (١٣٥) .

المعنى : لمّا ذكر سبحانه أنّ عنده ثواب الدنيا والآخرة عقبّه بالأمر بالقسط والقيام بالحقّ وترك الميل والجور فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط] أي دائمين على القيام بالعدل ومعناه :

ولتكن عادتكم القيام بالعدل في القول والفعل [شهداء] وهو جمع شهيد ، أمر الله تعالى عباده بالثبات والدوام على قول الحقّ والشهادة بالصدق تقرّباً إليه وطلباً لمرضاته ، وعن ابن عبّاس : كونوا قوّامين بالحقّ في الشهادة على من كانت ولمن كانت من قريب أو بعيد .

[ولو على أنفسكم] أي ولو كانت شهادتكم على أنفسكم [أو الوالدين والأقربين] أي على والديكم وعلى أقرب الناس إليكم فقوموا فيها بالقسط والعدل وأقيموها على الصحّة والحقّ ولا تميلوا فيها لغنى غنيّ أو لفقر فقير ، فإنّ الله قد سوّى بين الغنيّ و الفقير فيما ألزمكم من إقامة الشهادة لكلّ واحد منهما بالعدل .

وفي هذا دلالة على جواز شهادة الولد لوالده والوالد لولده وعليه وشهادة كلّ ذي قرابة لقرابته وعليه ، وإليه ذهب ابن عبّاس في قوله : أمر الله سبحانه المؤمنين أن يقولوا الحقّ ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم ، ولا يحابّوا غنيّاً لغناه ولا مسكيناً لمسكنته . وقال ابن شهاب الزهريّ : كان سلف المسلمين على ذلك حتّى دخل الناس فيما بعدهم وظهرت منهم أُمور حملت الولاة على اتّهامهم فتركت شهادة من يتّهم ، وأمّا شهادة الإنسان على نفسه فيكون بإقرار الخصم ، فإقراره له شهادة منه على نفسه وشهادته لنفسه لا تقبل .

[إن يكن غنيّاً أو فقيراً] معناه إن يكن المشهود عليه غنيّاً أو فقيراً أو المشهود له غنيّاً أو فقيراً فلا يمنعكم ذلك عن قول الحقّ والشهادة بالصدق ، وفائدة ذلك أنّ الشاهد ربّما امتنع عن إقامة الشهادة للغنيّ على الفقير لاستغناء المشهود له وفقر المشهود عليه ، فلا يقيم الشهادة شفقة على الفقير ، وربّما امتنع عن إقامة الشهادة للفقير على الغنيّ تهاوناً للفقير و توقيراً للغنيّ أو خشية منه أو حشمة له فبيّن سبحانه بقوله : [فالله أولى بهما] أنّه أولى بالغنيّ و الفقير وأنظر لهما من سائر الناس أي فلا تمتنعوا من إقامة الشهادة على الفقير شفقة عليه و نظراً له ، ولا من إقامة الشهادة للغنيّ لاستغنائه عن المشهود به ؛ فإنّ الله تعالى أمركم بذلك مع علمه بغناء الغنيّ و فقر الفقير ، فراعوا أمره فيما أمركم به فإنّه أعلم بمصالح العباد منكم .

[فلا تتّبعوا الهوى] يعني هوى الأنفس في إقامة الشهادة فتشهدوا على إنسان لإحنة بينكم وبينه أو وحشة أو عصبيّة ، وتمنعوا الشهادة له لأحد هذه المعاني ، و تشهدوا

للإنسان بغير حقّ لميلكم إليه بحكم صداقة أو قرابة [أن تعدلوا] أي لأن تعدلوا يعني لأجل أن تعدلوا في الشهادة ، قال الفرّاء : هذا كقولهم : لاتتّبع هواك لترضي ربّك ، أي كيما ترضي ربّك . وقيل : إنّه من العدول الّذي هو الميل والجور ، ومعناه : ولا تتّبعوا الهوى في أن تعدلوا عن الحقّ أو لأن تعدلوا عن الحقّ .

[وإن تلووا] أي تمطلوا في أداء الشهادة [أو تعرضوا] عن أدائها ، عن ابن عبّاس ومجاهد . وقيل : إنّ الخطاب للحكّام أي وإن تلووا أيّها الحكّام في الحكم لأحد الخصمين على الآخر وتعرضوا عن أحدهما إلى الآخر ، عن ابن عبّاس والسدّي . وقيل : معناه إن تلووا أي تبدّلوا الشهادة أو تعرضوا أي تكتموها ، عن ابن زيد والضحّاك وهو المرويّ عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ .

[فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً] معناه إنّه كان عالماً بما يكون منكم من إقامة الشهادة أو تحريفها والإعراض عنها .

وفي هذه الآية دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسلوك طريقة العدل في النفس والغير ، وقد روي عن ابن عبّاس في معنى قوله : « وإن تلووا أو تعرضوا » أنّهما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون ليّ القاضي وإعراضه لأحدهما عن الآخر .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١٣٦) .

المعنى : [يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله] قيل فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ـ وهو الصحيح المعتمد عليه ـ أنّ معناه : يا أيّها الّذين آمنوا في الظاهر بالإقرار بالله و رسوله آمنوا في الباطن ليوافق باطنكم ظاهركم ، و يكون الخطاب للمنافقين الّذين كانوا يظهرون خلاف مايبطنون [والكتاب الّذي نزّل على رسوله] وهو القرآن [والكتاب الّذي أنزل من قبل] هو التوراة والإنجيل ، عن الزجّاج و غيره .

وثانيها : أن يكون الخطاب للمؤمنين على الحقيقة ظاهراً وباطناً فيكون معناه : أثبتوا على هذا الإيمان في المستقبل وداوموا عليه ولا تنتقلوا عنه ، عن الحسن واختاره الجبّائيّ ، قال : لأنّ الإيمان الّذي هو التصديق لا يبقى وإنّما يستمرّ بأن يجدّده الإنسان حالاً بعد حال .

وثالثها : أنّ الخطاب لأهل الكتاب أُمروا بأن يؤمنوا بالنبيّ والكتاب الّذي أنزل عليه كما آمنوا بما معهم من الكتب ، ويكون قوله : « والكتاب الّذي أنزل من قبل » إشارة إلى مامعهم من التوراة والإنجيل ، ويكون وجه أمرهم بالتصديق بهما وإن كانوا مصدّقين بهما أحد أمرين : إمّا أن يكون لأنّ التوراة والإنجيل فيهما صفات نبيّنا وتصديقه وتصحيح نبوّته ، فمن لم يصدّقه ولم يصدّق القرآن لا يكون مصدّقاً بهما لأنّ في تكذيبه تكذيب التوراة والإنجيل ، وإمّا أن يكون الله تعالى أمرهم بالإقرار بمحمّد صلى الله عليه وآله وبالقرآن وبالكتاب الّذي أنزل من قبله وهو الإنجيل وذلك لا يصحّ إلّا بالإقرار بعيسى أيضاً وهو نبيّ مرسل .

ويعضد هذا الوجه ماروي عن عبدالله بن عبّاس أنّه قال : إنّ الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب : عبدالله بن سلام و أسد واسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس و ابن اُخت عبدالله سلام ويامين بن يامين ، وهؤلاء من كبار أهل الكتاب قالوا : نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بماسواه من الكتب وبمن سواهم من الرسل ، فقيل لهم : بل آمنوا بالله ورسوله الآية ، فآمنوا كما أمرهم الله .

[ومن يكفر بالله] أي يجحده أو يشبهه بخلقه أو يردّ أمره ونهيه [وملائكته] أي ينفيهم أو ينزّلهم منزلة لا يليق بهم كما قالوا : إنّهم بنات الله [وكتبه] فيجحدها [ورسله] فينكرهم [واليوم الآخر] أي يوم القيامة [فقد ضلّ ضلالاً بعيداً] أي ذهب عن الحقّ وبعد قصد السبيل ذهاباً بعيداً ، وقال الحسن : الضلال البعيد هو ما لا ائتلاف له والمعنى أنّ من كفر بمحمّد وجحد نبوّته فكأنّه جحد جميع ذلك لأنّه لا يصحّ إيمان أحد من الخلق بشيء ممّا أمر الله به إلّا بالإيمان به وبما أنزل الله عليه .

وفي هذا تهديد لأهل الكتاب وإعلام لهم أنّ إقرارهم بالله ووحدانيّته وملائكته

و كتبه و رسله و اليوم الآخر لا ينفعهم مع جحدهم بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله و يكون وجوده و عدمه سواء .

النظم : وجه اتّصال هذه الآية بما قبلها أنّ الله سبحانه لمّا بيّن الإسلام عقّبه بالدعاء إلى الإيمان و شرائطه . و قيل : إنّها متّصل بقوله : « كونوا قوّامين بالقسط » و القيام بالسقط هو الإيمان على وجه المذكور .

قوله تعالى : ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا (١٣٧) بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا (١٣٩) .

المعنى : ثمّ قال تعالى [إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا] قيل في معناه أقوال :

احدها : أنّه عنى به الّذين آمنوا بموسى ثمّ كفروا بعبادة العجل و غير ذلك [ثمّ آمنوا] يعني النصارى بعيسى [ثمّ كفروا] به [ثمّ ازدادوا كفراً] بمحمّد صلى الله عليه وآله ، عن قتادة .

وثانيها : أنّه عنى به الّذين آمنوا بموسى ثمّ كفروا بعد موسى ثمّ آمنوا بعزيز ثمّ كفروا بعيسى ثمّ ازدادوا كفراً بمحمّد صلى الله عليه وآله عن الفرّاء والزجّاج .

وثالثها : أنّه عنى به طائفة من أهل الكتاب أرادوا تشكيك نفر من أصحاب رسول الله فكانوا يظهرون الإيمان بحضرتهم ثمّ يقولون قد عرضت لنا شبهة اُخرى فيكفرون ، ثمّ ازدادوا كفراً بالثبات عليه إلى الموت ، عن الحسن ؛ وذلك معنى قوله تعالى : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالّذي اُنزل على الّذين آمنوا وجه النهار وا كفروا آخره لعلّهم يرجعون» .(١)

و رابعها : أنّ المراد به المنافقون آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ ماتوا على كفرهم ، عن مجاهد وابن زيد . وقال ابن عبّاس : دخل في هذه الآية كلّ منافق

(١) آل عمران : ٧٢ .

كان في عهد النبيّ في البحر والبرّ .

[لم يكن الله ليغفر لهم] بإظهارهم الإيمان ، فلو كانت بواطنهم كظواهرهم في الإيمان لما كفروا فيما بعد [ولا ليهديهم سبيلاً] معناه : ولا يهديهم إلى سبيل الجنّة كما قال فيما بعد «ولا ليهديهم طريقاً إلّا طريق جهنّم[1]» ويجوز أن يكون المعنى أنّه يخذلهم ولا يلطف بهم عقوبة لهم على كفرهم المتقدّم .

ثمّ قال : [بشّر المنافقين] أي أخبرهم يا محمّد [بأنّ لهم] في الآخرة [عذاباً أليماً] أي وجيعاً إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم . وفي هذه الآية دلالة على أنّ الآية المتقدّمة نزلت في شأن المنافقين وأنّه الأصحّ من الأقوال المذكورة .

ثمّ وصف هؤلاء المنافقين فقال : [الّذين يتّخذون الكافرين] أي مشركي العرب ، و قيل : اليهود [أولياء] أي ناصرين ومعينين وأخلّاء [من دون المؤمنين] أي من غيرهم [أيبتغون عندهم العزّة] أي أيطلبون عندهم القوّة والمنعة باتّخاذهم هؤلاء أولياء من دون الإيمان بالله تعالى ، ثمّ أخبر سبحانه أنّ العزّة و المنعة له فقال : [فإنّ العزّة لله جميعاً] يريد سبحانه أنّهم لو آمنوا مخلصين له وطلبوا الاعتزاز بالله تعالى وبدينه ورسوله والمؤمنين لكان أولى بهم من الاعتزاز بالمشركين ، فإنّ العزّة جميعاً لله سبحانه ومن عنده يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء .

قوله تعالى : وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا (١٤٠) .

النزول : كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن فنهاهم الله عن ذلك ، عن ابن عبّاس .

المعنى : لمّا تقدّم ذكر المنافقين وموالاتهم الكفّار عقّب ذلك بالنهي عن مجالستهم ومخالطتهم فقال :

[وقد نزّل عليكم في الكتاب] أي في القرآن [أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها و يستهزأ بها] أي يكفر بها المشركون والمنافقون ويستهزؤن بها [فلا تقعدوا معهم] أي مع

(١) السورة : ١٦٧ .

هؤلاء المستهزئين الكافرين [حتّى يخوضوا في حديث غيره] أي حتّى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بالدين ، وقيل : حتّى يرجعوا إلى الإيمان ويتركوا الكفر والاستهزاء . والمنزل في الكتاب هو قوله سبحانه في سورة الأنعام : «وإذا رأيت الّذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا في حديث غيره» (١) .

وفي هذا دلالة على تحريم مجالسة الكفّار عند كفرهم بآيات الله واستهزائهم بها و على إباحة مجالستهم عند خوضهم في حديث غيره .

وروي عن الحسن أنّ إباحة القعود مع الكفّار عند خوضهم في حديث آخر غير كفرهم و استهزائهم بالقرآن منسوخ بقوله تعالى : « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٢) » .

[إنّكم إذاً مثلهم] يعني إنّكم إذا جالستموهم على الخوض في كتاب الله والهزء به فأنتم مثلهم ، وإنّما حكم بأنّهم مثلهم لأنّهم لم ينكروا عليهم مع قدرتهم على الإنكار ولم يظهروا الكراهة لذلك ، و متى كانوا راضين بالكفر كانوا كفّاراً لأنّ الرضا بالكفر كفرٌ .

وفي الآية دلالة على وجوب إنكار المنكر مع القدرة وزوال العذر ، وأنّ من ترك ذلك مع القدرة عليه فهو مخطىء آثم .

وفيها أيضاً دلالة على تحريم مجالسة الفسّاق و المبتدعين من أيّ جنس كانوا و به قال جماعة من أهل التفسير ، وذهب إليه عبدالله بن مسعود وإبراهيم وأبو وائل ، قال إبراهيم: من ذلك إذا تكلّم الرجل في مجلس يكذب فيضحك منه جلساؤه فيسخط الله عليهم ، و به قال عمر بن عبدالعزيز ، وروي أنّه ضرب رجلاً صائماً كان قاعداً مع قوم يشربون الخمر .

وروى العيّاشيّ بإسناده عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية قال : إذا سمعت الرجل يجحد الحقّ ويكذب به ويقع في أهله فقم من عنده ولا تقاعده . وروي عن ابن عبّاس أنّه قال : أمر الله تعالى في هذه الآية بالاتّفاق ونهى عن الاختلافات والفرقة والمراء والخصومة .

---

(١) الاية : ٦٨ .

(١) الانعام : ٦٨ .

وبه قال الطبرّي والبلخيّ والجبّائيّ وجماعة من المفسّرين .

وقال الجبّائيّ : وأمّا الكون بالقرب منهم بحيث يسمع صوتهم ولا يقدر على إنكارهم فليس بمحظور ، وإنّما المحظور مجالستهم من غير إظهار كراهية لما يسمعه أويراه ، قال: وفي الآية دلالة على بطلان قول نفاة الأعراض وقولهم ليس ههنا شيء غير الأجسام لأنّه قال : «حتّى يخوضوا في حديث غيره » فأثبت غيراً لما كانوا فيه و ذلك هو العرض .

[إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً] أي إنّ الله يجمع الفريقين من أهل الكفر والنفاق في القيامة في النار والعقوبة فيها كما اتّفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين والمظاهرة عليهم .

قوله تعالى : الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم و ان كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيمة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (١٤١) .

المعنى : قد وصف الله سبحانه المنافقين والكافرين فقال :

[الّذين يتربّصون بكم] أي ينتظرون لكم أيّها المؤمنون لأنّهم كانوا يقولون : سيهلك محمّد صلى الله عليه وآله وأصحابه فنستريح منهم ويظهر قومنا وديننا .

[فإن كان لكم فتح من الله] أي فإن اتّفق لكم فتح و ظفر على الأعداء [قالوا ألم نكن معكم] نجاهد عدوّكم و نغزوهم معكم ؟ فأعطونا نصيبنا من الغنيمة فقد شهدنا القتال .

[وإن كان للكافرين نصيب] أي حظّ بإصابتهم من المؤمنين [قالوا] يعني المنافقين أي قال المنافقون للكافرين : [ألم نستحوذ عليكم] أي ألم نغلب عليكم ، عن السدّيّ ، ومعناه : ألم نغلبكم على رأيكم بالموالاة لكم [ونمنعكم من] الدخول في جملة [المؤمنين] و قيل : معناه ألم نبيّن لكم أنّا على ما أنتم عليه أي ألم نضمّكم إلى أنفسنا ونطّلعكم على أسرار محمّد صلى الله عليه وآله وأصحابه ونكتب إليكم بأخبارهم حتّى غلبتم عليهم ؟ فاعرفوا لنا هذا الحقّ عليكم ، عن الحسن وابن جريح . ونمنعكم من المؤمنين أي ندفع عنكم صولة المؤمنين بتحديثنا

إيّاهم عنكم و كوننا عيوناً لكم حتّى انصرفوا عنكم وغلبتموهم .

[فالله يحكم بينكم يوم القيامة] هذا إخبار منه سبحانه عن نفسه بأنّه الّذي يحكم بين الخلائق يوم القيامة ويفصل بينهم بالحقّ .

[ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً] قيل فيه أقوال :

أحدها أنّ المراد لن يجعل الله لليهود على المؤمنين نصراً و لاظهوراً ، عن ابن عبّاس .

وقيل : لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالحجّة و إن جاز أن يغلبوهم بالقوّة لكنّ المؤمنين منصورون بالدلالة والحجّة ، عن السدّي و الزجّاج و البلخيّ ، قال الجبّائيّ : ولو حملناه على الغلبة لكان ذلك صحيحاً لأنّ غلبة الكفّار للمؤمنين ليس ممّا فعله الله فإنّه لايفعل القبيح وليس كذلك غلبة المؤمنين للكفّار فإنّه يجوز أن ينسب إليه سبحانه .

وقيل : لن يجعل لهم في الآخرة عليهم سبيلاً لأنّه مذكور عقيب قوله : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة» بيّن الله سبحانه أنّه لن يثبت لهم سبيل على المؤمنين في الدنيا بالقتل والقهر والنهب والأسر وغير ذلك من وجوه الغلبة فلن يجعل لهم يوم القيامة عليهم سبيلاً بحال .

قوله تعالى : ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله الا قليلا (١٤٢) مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء و لا الى هؤلاء و من يضلل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه أفعالهم القبيحة فقال :

[إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم] قد ذكرنا معناه في أوّل البقرة وعلى الجملة خداع المنافقين لله إظهارهم الإيمان الّذي حقنوا به دماءهم وأموالهم . وقيل : معناه يخادعون النبيّ كما قال : «إنّما يبايعون الله[1]» فسمّى مبايعة النبيّ مبايعة الله للإختصاص و لأنّ

(١) الفتح : ١٠.

ذلك بأمره عن الحسن والزجّاج ، ومعنى خداع الله إيّاهم أن يجازيهم على خداعهم كما قلنا في قوله : «الله يستهزىء بهم»(١) . وقيل : هو حكمه بحقن دمائهم مع علمه بباطنهم . و قيل : هو أن يعطيهم الله نوراً يوم القيامة يمشون به مع المسلمين ثمّ يسلبهم ذلك النور و يضرب بينهم بسور ، عن الحسن والسدّي وجماعة من المفسّرين .

[وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى] أي متثاقلين [يراؤون الناس] يعني إنّهم لا يعملون شيئاً من أعمال العبادات على وجه القربة إلى الله ، وإنّما يفعلون ذلك إبقاءً على أنفسهم وحذراً من القتل وسلب الأموال وإذا رآهم المسلمون صلّوا ليروهم أنّهم يدينون بدينهم ، وإن لم يرهم أحدٌ لم يصلّوا ، وبه قال قتادة و ابن زيد .

وروى العيّاشي بإسناده عن مسعدة بن زياد عن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل فبمَ النجاة غداً ؟ قال صلى الله عليه وآله : النجاة أن لاتخادعوا الله فيخدعكم فإنّه من يخادع الله يخدعه ونفسه يخدع لو شعر ، فقيل له : كيف يخادع الله ؟ قال صلى الله عليه وآله : يعمل بما أمر الله ثمّ يريد به غيره فاتّقوا الرياء فإنّه شرك بالله . إنّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء : ياكافر يا فاجر يا غادر ياخاسر ، حبط عملك وبطل أجرك ولاخلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له .

[ولا يذكرون الله إلّا قليلاً] أي ذكراً قليلاً ومعناه : لايذكرون الله عن نيّة خالصة ولو ذكروه مخلصين لكان كثيراً ، وإنّما وصف بالقلّة لأنّه لغير الله ، عن الحسن وابن عبّاس . وقيل : لايذكرون إلّا ذكراً يسيراً نحو التكبير والأذكار الّتي يجهر بها ويتركون التسبيح وما يُخافت به من القراءة وغيرها ، عن أبي عليّ الجبّائيّ . وقيل : إنّما وصف الذكر بالقلّة لأنّه سبحانه لم يقبله وكلّ ما ردّه الله قليل .

[مذبذبين بين ذلك] أي مردّدين بين الكفر والإيمان يريد كأنّه فعل بهم ذلك و كان الفعل لهم على الحقيقة ، وقيل : معنى مذبذبين مطرودين من هؤلاء و من هؤلاء ، من الذبّ الّذي هو الطرد ، وصفهم سبحانه بالحيرة في دينهم وأنّهم لايرجعون إلى صحّة نيّة لا مع المؤمنين

---

(١) البقرة : ١٦ .

على بصيرة ولامع الكافرين على جهالة ، وقال رسول الله ﷺ : إنّ مثلهم مثل الشاة العابرة بين الغنمين تتحيّر فتنظر إلى هذه وهذه لاتدري أيّهما تتبع .

[لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء] أي لا مع هؤلاء في الحقيقة ولا مع هؤلاء ؛ يظهرون الإيمان كما يظهره المؤمنون ويضمرون الكفر كما يضمره المشركون فلم يكونوا مع أحد الفريقين في الحقيقة ، فإنّ المؤمنين يضمرون الإيمان كما يظهرون والمشركون يظهرون الكفر كما يضمرونه .

[ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً] أي طريقاً ومذهباً وقد مضى ذكر معنى الإضلال مشروحاً في سورة البقرة عند قوله : «وما يُضلّ به إلّا الفاسقين[1]» فلا معنى لإعادته .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين اتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً (١٤٤) ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً (١٤٥) الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يوت الله المؤمنين أجرا عظيماً (١٤٦) .

المعنى : ثمّ نهى سبحانه عن موالاة المنافقين فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الكافرين أولياء] أي أنصاراً [من دون المؤمنين] فتكونوا مثلهم [أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً] أي حجّة ظاهرة وهو استفهام يراد به التقرير .

وفيه دلالة على أنّ الله لايعاقب أحداً إلّا بعد قيام الحجّة عليه والاستحقاق به وإنّه لايعاقب الأطفال بذنوب الآباء ، وأنّه كان لاحجّة له على الخلق لولا معاصيهم ، قال الحسن: معناه : أتريدون أن تجعلوا لله سبيلاً إلى عذابكم بكفركم وتكذيبكم .

[إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار] أي في الطبق الأسفل من النار فإنّ للنار طبقات ودركات كما أنّ للجنّة درجات فيكون المنافق على أسفل طبقة منها لقبح عمله ، عن ابن كثير وأبي عبيدة وجماعة . وقيل : إنّ المنافقين في توابيت من حديد مغلقة عليهم في النار ، عن عبدالله بن مسعود وابن عبّاس . وقيل : إنّ الأدراك يجوز أن يكون منازل بعضها

(١) البقرة : ٢٦ .

أسفل من بعض بالمسافة ، ويجوز أن يكون ذلك إخباراً عن بلوغ الغاية في العقاب كما يقال : إنّ السلطان بلّغ فلاناً الحضيض وبلّغ فلاناً العرش ، يريدون بذلك انحطاط المنزلة وعلوّها لا المسافة ، عن أبي القاسم البلخيّ .

[ولن تجد لهم نصيراً] ولا تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم فينقذهم من عذاب الله إذ جعلهم في أسفل طبقة من النار .

ثمّ استثنى تعالى فقال : [إلّا الّذين تابوا] من نفاقهم [و أصلحوا] نيّاتهم ، وقيل : ثبتوا على التوبة في المستقبل [واعتصموا بالله] أي تمسّكوا بكتاب الله وصدّقوا رسله ، و قيل : وثقوا بالله [وأخلصوا دينهم لله] أي تبرّؤوا من الآلهة والأنداد . وقيل : طلبوا بإيمانهم رحمة الله ورضاه مخلصين ، عن الحسن [فأُولئك مع المؤمنين] أي فإنّهم إذا فعلوا ذلك يكونون في الجنّة مع المؤمنين و محلّ الكرامة [و سوف يؤتي الله المومنين أجراً عظيماً] «سوف» كلمة ترجئة وعدة و إطماع و هي من الله إيجاب لأنّه أكرم الأكرمين و وعد الكريم إنجاز .

ولم يشرط على غير المنافقين في التوبة من الإصلاح و الاعتصام ما شرطه عليهم ، ثمّ شرط عليهم بعد ذلك الإخلاص لأنّ النفاق ذنب القلب ، والإخلاص توبة القلب ، ثمّ قال : فأُولئك مع المؤمنين ، ولم يقل فأُولئك المؤمنون أو من المؤمنين غيظاً عليهم ، ثمّ أتى بلفظ «سوف» في أجر المؤمنين لانضمام المنافقين إليهم هذا إذا عنى به جميع المؤمنين من تقدّم منه الكفر ومن لم يتقدّم ، ويحتمل أن يكون المراد به زيادة الثواب لمن لم يسبق منه كفر ولا نفاق .

قوله تعالى : ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧) .

المعنى : خاطب سبحانه بهذه الآية المنافقين الّذين تابوا وآمنوا و أصلحوا أعمالهم فقال :

[ما يفعل الله بعذابكم] أي ما يصنع الله بعذابكم ؟ و المعنى لا حاجة لله إلى عذابكم وجعلكم في الدرك الأسفل من جهنّم لأنّه لا يجتلب بعذابكم نفعاً ولا يدفع به عن نفسه

ضرراً إذ هما يستحيلان عليه [إن شكرتم] أي أدّيتم الحقّ الواجب لله عليكم وشكرتموه على نعمه [وآمنتم] به وبرسوله وأقررتم بما جاء به من عنده .

[وكان الله شاكراً] يعني لم يزل سبحانه مجازياً لكم على الشكر فسمّي الجزاء باسم المجزيّ عليه [عليماً] بما يستحقّونه من الثواب على الطاعات فلا يضيّع عنده شيء منها ، عن قتادة وغيره . وقيل : معناه : إنّه يشكر القليل من أعمالكم ويعلم ما ظهر وما بطن من أفعالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها . وقال الحسن : معناه : إنّه يشكر خلقه على طاعتهم مع غناه عنهم فيعلم بأعمالهم .

قوله تعالى : لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعاً عليما (١٤٨) ان تبدوا خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا (١٤٩) .

المعنى : [لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول] قيل في معناه أقوال :

احدها : لايحبّ الله الشتم في الانتصار [إلّا من ظلم] فلا بأس له أن ينتصر ممّن ظلمه بما يجوز الانتصار به في الدين ، عن الحسن والسدّي وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام ونظيره : «وانتصروا من بعد ما ظلموا»(١) قال الحسن : ولا يجوز للرجل إذا قيل له : «يازاني» أن يقابل له بمثل ذلك من أنواع الشتم .

وثانيها : أنّ معناه لايحبّ الله الجهر بالدعاء على أحد إلّا أن يظلم إنسان فيدعو على من ظلمه فلا يكره ذلك ، عن ابن عبّاس ، وقريب منه قول قتادة : ويكره رفع الصوت بما يسوء الغير إلّا المظلوم يدعو على من ظلمه .

وثالثها : أنّ المراد لايحبّ أن يذمّ أحداً أحد أو يشكوه أو يذكره بالسوء إلّا أن يظلم فيجوز له أن يشكو من ظلمه ويظهر أمره ويذكره بسوء ما قد صنعه ليحذره الناس ، عن مجاهد .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه الضيف ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فلا جناح عليه في أن يذكره بسوء ما فعله .

---

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

[وكان الله سميعاً] لما يجهر به من سوء القول [عليماً] بصدق الصادق و كذب الكاذب فيجازي كلاً بعمله . وفي هذه الآية دلالة على أنّ الرجل إذا هتك ستره و أظهر فسقه جاز إظهار ما فيه ، وقد جاء في الحديث : قولوا في الفاسق ما فيه يعرفه الناس ، ولا غيبة لفاسق . و فيها ترغيب في مكارم الأخلاق و نهي عن كشف عيوب الخلق و إخبار بتنزيه ذاته تعالى عن إرادة القبائح ، فإنّ المحبّة إذا تعلّقت بالفعل فمعناها الإرادة .

ثمّ خاطب سبحانه جميع المكلّفين فقال : [إن تبدوا] أي تظهروا [خيراً] أي حسناً جميلاً من القول لمن أحسن إليكم شكراً على إنعامه عليكم [أوتخفوه] أي تتركوا إظهاره . وقيل : معناه إن تفعلوا خيراً أوتعزموا عليه . وقيل : يريد بالخير المال أي تظهروا صدقة أوتخفوها [أو تعفوا عن سوء] معناه أو تصفحوا عمّن أساء إليكم مع القدرة على الانتقام منه فلا تجهروا له بالسوء من القول الّذي أذنت لكم في أن تجهروا به [فإنّ الله كان عفوّا] أي صفوحاً عن خلقه يفصح لهم عن معاصيهم [قديراً] أي قادراً على الانتقام منهم ، وهذا حثّ منه سبحانه لخلقه على العفو عن المسيء مع القدرة على الانتقام و المكافاة فإنّه تعالى مع كمال قدرته يعفو عنهم ذنوباً أكثر من ذنب من يسيء إليهم ، و قد تضمّنت الآية الّتي قبلها إباحة الانتصاف من الظالم بشرط أن يقف فيه على حدّ الظلم وموجب الشرع .

النظم : الوجه في اتّصال هذه الآية بما قبلها أنّه لمّا سبق ذكر أهل النفاق وهو الإظهار خلاف الإبطان بيّن سبحانه أنّه ليس كلّما يقع في النفس يجوز إظهاره فإنّه ربّما يكون ظنّاً فإذا تحقّق ذلك جاز إظهاره ، عن عليّ بن عيسى .

قوله تعالى : ان الذين يكفرون بالله و رسله و يريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) اولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا (١٥١) والذين آمنوا بالله و رسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجورهم و كان الله غفوراً رحيما (١٥٢) .

المعنى : لمّا قدّم سبحانه ذكر المنافقين عقّبه بذكر أهل الكتاب و المؤمنين فقال :

[إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله] من اليهود والنصارى [ويريدون أن يفرّقوا بين الله و رسله] أي يكذّبوا رسل الله الّذين أرسلهم إلى خلقه وأوحى إليهم ، و ذلك معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله [و يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض] أي يقولون : نصدّق بهذا و نكذّب بذاك كما فعل اليهود صدّقوا بموسى ومن تقدّمه من الأنبياء و كذّبوا بعيسى و محمّد ، وكما فعلت النصارى صدّقوا عيسى و من تقدّمه من الأنبياء و كذّبوا بمحمّد [ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلاً] أي طريقاً إلى الضلالة الّتي أحدثوها والبدعة الّتي ابتدعوها يدعون جهّال الناس إليه .

[اُولئك هم الكافرون حقّاً] أي هؤلاء الّذين أخبرنا عنهم بأنّهم يؤمنون ببعض و يكفرون ببعض الكافرون حقيقة ، فاستيقنوا ذلك ولا ترتابوا بدعوتهم أنّهم يقرّون بما زعموا أنّهم مقرّون به من الكتب والرسل ، فإنّهم لو كانوا صادقين في ذلك لصدّقوا جميع رسل الله ، وإنّما قال تعالى : «اُولئك هم الكافرون حقّاً» على وجه التأكيد لئلاّ يتوهّم متوهّم أنّ قولهم : «نؤمن ببعض» يخرجهم من جنس الكفّار و يلحقهم بالمؤمنين .

[وأعتدنا] أي أعددنا وهيّأنا [للكافرين عذاباً مهيناً] يهينهم ويذلّهم .

[والّذين آمنوا بالله ورسله] أي صدّقوا الله ووحّدوه وأقرّوا بنبوّة رسله [ولم يفرّقوا بين أحد منهم] بل آمنوا بجميعهم [اُولئك سوف نؤتيهم] أي سنعطيهم(١) [أجورهم] وسمّى الله الثواب أجراً دلالة على أنّه مستحقّ أي نعطيهم ثوابهم الّذي استحقّوه على إيمانهم بالله ورسله [وكان الله غفوراً رحيماً] أي لم يزل كان غفوراً لمن هذه صفتهم ماسلف لهم من المعاصي والآثام رحيماً متفضّلاً عليهم بأنواع الأنعام هادياً لهم إلى دار السلام .

قوله تعالى : يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سالوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات فعفونا عن ذلك و آتينا موسى سلطانا مبينا (١٥٣) و رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنالهم ادخلوا الباب سجداوقلنا لهم لاتعدوا فى السبت واخذنا منهم ميثاقا غليظا (١٥٤) .

النزول : روي أن كعب بن الأشرف و جماعة من اليهود قالوا : يا محمّد إن كنت

---
(١) على قراءة النون .

نبيّاً فأتنا بكتاب من السماء جملة ، أي كما أتى موسى بالتوراة جملة فنزلت الآية ، عن السدّيّ .

المعنى : لمّا أنكر سبحانه على اليهود التفريق بين الرسل في الإيمان عقّبه بالإنكار عليهم في طلبهم المحالات مع ظهور الآيات والمعجزات فقال :

[يسألك] يا محمّد [أهل الكتاب] يعني اليهود [أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء] واختلف في معناه على أقوال :

احدها : أنّهم سألوا أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً كما كانت التوراة مكتوبة من عند الله في الألواح ، عن محمّد بن كعب و السدّيّ .

وثانيها : أنّهم سألوه أن ينزّل على رجال منهم بأعيانهم كتباً يأمرهم الله تعالى فيها بتصديقه واتّباعه ، عن ابن جريح واختاره الطبريّ .

وثالثها : أنّهم سألوا أن ينزّل عليهم كتاباً خاصّاً بهم ، عن قتادة . و قال الحسن : إنّما سألوا ذلك للتعنّت والتحكّم في طلب المعجزات لا لظهور الحقّ ، ولو سألوه ذلك استرشاداً لاعناداً لأعطاهم الله ذلك .

[فقد سألوا موسى أكبر من ذلك] أي لايعظمنّ عليك يا محمّد مسألتهم إيّاك إنزال الكتب عليهم من السماء ، فإنّهم يعني اليهود سألوا موسى أعظم من ذلك بعد ما أتاهم بالآيات الظاهرة والمعجزات القاهرة الّتي يكفي الواحد منها في معرفة صدقه وصحّة نبوّته فلم يقنعهم ذلك .

[فقالوا أرنا الله جهرة] أي معاينة [فأخذتهم الصاعقة بظلمهم] أنفسهم بهذا القول وقد ذكرنا قصّة هؤلاء وتفسيراً كثر ما في الآية في سورة البقرة عند قوله : « لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ، الآية [1]» وقوله : « و إذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور ، الآية [2]» .

[ثمّ اتّخذوا العجل] أي عبدوه واتّخذوه إلهاً [من بعد ماجاءتهم البيّنات] أي الحجج الباهرات ، قد دلّ الله بهذا على جهل القوم وعنادهم .

---

(١) الاية : ٥٥ . (٢) الاية : ٦٣ .

[فعفونا عن ذلك] مع عظم جريمتهم وخيانتهم ، وقد أخبرالله بهذا عن سعة رحمته و مغفرته وتمام نعمته وأنّه لا جريمة تضيق عنها رحمته ولاخيانة تقصر عنها مغفرته [وآتينا موسى] أي أعطيناه [سلطاناً مبيناً] أي حجّة ظاهرة تبين عن صدقه وصحّة نبوّته .

[ورفعنا فوقهم الطور] أي الجبل لمّا امتنعوا من العمل بما في التوراة و قبول ما جاءهم به موسى [بميثاقهم] أي بما أعطوا الله سبحانه من العهد ليعملنّ بما في التوراة ، وقيل : معناه : ورفعنا الجبل فوقهم بنقضهم ميثاقهم الّذي أُخذ عليهم بأن يعملوا بما في التوراة ، و إنّما نقضوه بعبادة العجل وغيرها ، عن أبي عليّ الجبّائيّ . وقال أبومسلم : إنّما رفع الله الجبل فوقهم إظلالاً لهم من الشمس بميثاقهم أي بعهدهم جزاءً لهم على ذلك ، وهذا القول يخالف أقوال المفسّرين .

[وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً] يعني باب حطّة ، و قد مرّ بيانه هناك .

[وقلنا لهم لاتعدوا في السبت] أي لاتتجاوزوا في يوم السبت ما اُبيح لكم إلى ما حرّم عليكم ، عن قتادة ، قال : أمرهم الله أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت و أجازلهم ماعداه [وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً] أي عهداً وثيقاً وكيداً بأن يأتمروا بأوامره وينتهوا عن مناهيه وزواجره .

قوله تعالى : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله و قتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون الاقليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١٥٦) و قولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم و ان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وماقتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً (١٥٨) .

المعنى : ثمّ ذكر سبحانه أفعالهم القبيحة ومجازاته إيّاهم بها فقال :

[فبما نقضهم] أي فبنقض هؤلاء الّذين تقدّم ذكرهم ووصفهم [ميثاقهم] أي عهودهم الّتي عاهدوا الله عليها أن يعملوا بما في التوراة [وكفرهم بآيات الله] أي جحودهم بأعلام الله وحججه وأدلّته الّتي احتجّ بها عليهم في صدق أنبيائه ورسله .

[وقتلهم الأنبياء] بعد قيام الحجّة عليهم بصدقهم [بغير حقّ] أي بغير استحقاق منهم لذلك بكبيرة أتوها أوخطيئة استوجبوا بها القتل ، وقد قدّمنا القول في أمثال هذا و أنّه إنّما يذكر على سبيل التوكيد ، فإنّ قتل الأنبياء لايمكن إلّا أن يكون بغيرحقّ وهو مثل قوله : «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به [(١)]» و المعنى أنّ ذلك لايكون البتّة عليه برهان

[وقولهم قلوبنا غلف] مضى تفسيره في سورة البقرة .

[بل طبع الله عليها بكفرهم] قدشرحنا معنى الختم والطبع عند قوله : «ختم الله على قلوبهم [(٢)]» [فلا يؤمنون إلّاقليلاً] أي لايصدّقون قوله إلّا تصديقاً قليلاً ، وإنما وصفه بالقلّة لأنّهم لم يصدّقوا بجميع ماكان يجب عليهم التصديق ، و يجوز أن يكون الاستثناء من الّذين نفى عنهم الإيمان فيكون المعنى : إلّا جمعاً قليلاً ، فكأنّه سبحانه علم أنّه يؤمن من جملتهم جماعة قليلة فيما بعد فاستثناهم في جملة من أخبرعنهم أنّهم لا يؤمنون ، و به قال جماعة من المفسّرين مثل قتادة وغيره .

و ذكر بعضهم أنّ الباء في قوله : «فبما نقضهم» يتّصل بما قبله ، والمعنى : فأخذتهم الصاعقة بظلمهم وبنقضهم ميثاقهم وبكفرهم وبكذا وبكذا فتبع الكلام بعضه بعضاً .

وقال الطبريّ : إنّ معناه منفصل ممّا قبله يعني فبهذه الأشياء لعنّاهم و غضبنا عليهم ، فترك ذكر ذلك لدلالة قوله : «بل طبع الله عليها بكفرهم » على معنى ذلك ، لأنّ من طبع على قلبه فقد لعن وسخط عليه قال : و إنّما قلنا ذلك لأنّ الّذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى والّذين قتلوا الأنبياء و الّذين رموا مريم بالبهتان العظيم و قالوا : «قتلنا عيسى» كانوا بعد موسى عليه السلام بزمان طويل ، ومعلوم أنّ الّذين أخذتهم الصاعقة لم يكن ذلك عقوبة على رميهم مريم بالبهتان ولا على قولهم : «إنّا قتلنا » فبان بذلك أنّ الّذين قالوا هذه المقالة غير الّذين عوقبوا بالصاعقة .

وهذا كلام إنّما يتّجه على قول من قال : إنّه يتّصل بما قبله ، ولا يتّجه على قول

(١) المؤمنون : ١١٨ .
(٢) الاية : ٧ .

الزجّاج ، و هذا أقوى لأنّه إذا أمكن إجراء الكلام على ظاهره من غير تقدير حذف فالأولى أن يحمل عليه .

وقوله : [و بكفرهم] أي بجحود هؤلاء لعيسى [وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً] أي أعظم كذب وأشنعه وهو رميهم إيّاها بالفاحشة ، عن ابن عبّاس والسدّي . قال الكلبيّ مرّ عيسى برهط فقال بعضهم لبعض : قد جاءكم الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه بأمّه ، فسمع ذلك عيسى فقال : اللهمّ أنت ربّي خلقتني ولم آتهم من تلقاء نفسي اللّهمّ العن من سبّني وسبّ والدتي ، فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير .

[وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله] يعني قول اليهود : إنّا قتلنا عيسى بن مريم رسول الله ، حكاه الله تعالى عنهم أي رسول الله في زعمه ، وقيل : إنّه من قول الله سبحانه على وجه الحكاية عنهم وتقديره : الّذي هو رسولي .

[وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم] واختلفوا في كيفيّة التشبيه فروي عن ابن عبّاس أنّه قال : لمّا مسخ الله تعالى الّذين سبّوا عيسى وأمّه بدعائه بلغ ذلك يهودا وهو رأس اليهود ، فخاف أن يدعو عليه فجمع اليهود فاتّفقوا على قتله ، فبعث الله تعالى جبرائيل يمنعه منهم ويعينه عليهم وذلك معنى قوله : «وأيّدناه بروح القدس(١)» فاجتمع اليهود حول عيسى فجعلوا يسألونه فيقول لهم : يا معشر اليهود إنّ الله تعالى يبغضكم ، فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبرائيل في خوخة البيت الداخل لها روزنة في سقفها فرفعه جبرائيل إلى السماء ، فبعث يهودا رأس اليهود رجلاً من أصحابه اسمه طيطانوس ليدخل عليه الخوخة فيقتله فدخل فلم يره ، فأبطأ عليهم فظنّوا أنّه يقاتله في الخوخة ، فألقى الله عليه شبه عيسى فلمّا خرج على أصحابه قتلوه وصلبوه ، وقيل : ألقي عليه شبه وجه عيسى ولم يلق عليه شبه جسده ، فقال بعض القوم : إنّ الوجه وجه عيسى والجسد جسد طيطانوس . و قال بعضهم : إن كان هذا طيطانوس فأين عيسى وإن كان هذا عيسى فأين طيطانوس ؟ فاشتبه الأمر عليهم .

وقال وهب بن منبّه : أتى عيسى ومعه سبعة من الحواريّين في بيت فأحاطوا بهم ، فلمّا دخلوا عليهم صيّرهم الله كلّهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتمونا ، ليبرزنّ لنا عيسى

---

(١) البقرة : ٨٧ .

أو لنقتلنّكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشري نفسه منكم اليوم بالجنّة ، فقال رجل منهم اسمه سرجس : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى . فأخذوه وقتلوه وصلبوه ورفع الله عيسى من يومه ذلك ، وبه قال قتادة ومجاهد وابن إسحاق وإن اختلفوا في عدد الحواريّين . ولم يذكر أحد غير وهب أنّ شبهه اُلقي على جميعهم بل قالوا : اُلقي شبهه على واحد ورفع عيسى عليه‌السلام من بينهم .

قال الطبريّ : وقول وهب أقوى لأنّه لو اُلقي الشبه على واحد منهم مع قول عيسى : أيّكم يلقى عليه شبهي فله الجنّة ، ثمّ رأوا عيسى رفع من بينهم ، لما اشتبه عليهم ولما اختلفوا فيه وإن جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الّذين ما عرفوه لكن اُلقي الشبه على جميعهم و كانوا يرون كلّ واحد منهم بصورة عيسى ، فلمّا قتل أحدهم اشتبه الحال عليهم .

وقال أبو عليّ الجبّائيّ : إنّ رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عال ولم يمكّنوا أحداً من الدنوّ إليه ، فتغيّرت حليته وقالوا : قد قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامّهم لأنّهم كانوا أحاطوا بالبيت الّذي فيه عيسى عليه‌السلام فلمّا دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم فخافوا أن يكون ذلك سبباً لإيمان اليهود به ففعلوا ذلك ، والّذين اختلفوا فيه هم غير الّذين صلبوه و إنّما هم باقي اليهود .

وقيل : إنّ الّذي دلّهم عليه وقال «هذا عيسى» أحد الحواريّين أخذ على ذلك ثلاثين درهماً وكان منافقاً ، ثمّ إنّه ندم على ذلك واختنق حتّى قتل نفسه ، و كان اسمه بودس زكريّا بوطا ، وهو ملعون في النصارى ، وبعض النصارى يقول : إنّ بودس زكريّا بوطا هو الّذي شبّه لهم فصلبوه ، وهو يقول : لست بصاحبكم أنا الّذي دللتكم عليه .

وقيل : إنّهم حبسوا المسيح مع عشرة من أصحابه في بيت ، فدخل رجل من اليهود فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ورفع عيسى فقتلوا الرجل ، عن السدّيّ .

[وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه] قيل : يعني بذلك عامّتهم لأنّ علماءهم علموا أنّه غير مقتول ، عن الجبّائيّ . وقيل : أراد بذلك جماعة اختلفوا فقال بعضهم : قتلناه ، و قال بعضهم : لم نقتله [ما لهم به من علم إلّا اتّباع الظنّ] أي لم يكن لهم بمن قتلوه علم لكنّهم اتّبعوا ظنّهم فقتلوه ظنّاً منهم أنّه عيسى ولم يكن به .

و إنّما شكّوا في ذلك لأنّهم عرفوا عدّة من في البيت ، فلمّا دخلوا عليهم و فقدوا واحداً منهم التبس عليهم أمر عيسى وقتلوا من قتلوه على شكّ منهم في أمر عيسى ، هذا على قول من قال : لم يتفرّق أصحابه حتّى دخل عليهم اليهود ، وأمّا من قال : تفرّق أصحابه عنه فإنّه يقول : كان اختلافهم في أنّ عيسى هل كان فيمن بقي أو كان فيمن خرج اشتبه الأمر عليهم . وقال الحسن : معناه فاختلفوا في عيسى فقالوا مرّة : هو عبدالله ، ومرّة : هو ابن الله ، ومرّة : هو الله . وقال الزجّاج : معنى اختلاف النصارى فيه أنّ منهم من ادّعى أنّه إله لم يقتل ومنهم من قال : قتل .

[وما قتلوه يقيناً] اختلف في الهاء في «قتلوه» فقيل : إنّه يعود إلى الظنّ أي ما قتلوا ظنّهم يقيناً كما يقال : ما قتلته علماً ، عن ابن عبّاس وجويبر ، ومعناه : ما قتلوا ظنّهم الّذي اتّبعوه في المقتول الّذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى يقيناً أنّه عيسى ولا أنّه غيره ، لكنّهم كانوا منه على شبهة . وقيل : إنّ الهاء عائد إلى عيسى يعني ما قتلوه يقيناً أي حقّاً فهو من باب تأكيد الخبر ، عن الحسن ، أراد أنّ الله تعالى نفى عن عيسى القتل على وجه التحقيق و اليقين .

[بل رفعه الله إليه] يعني بل رفع الله عيسى إليه ولم يصلبوه و لم يقتلوه ، و قد مرّ تفسيره في سورة آل عمران عند قوله : «إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك و رافعك إليّ[(١)]»

[وكان الله عزيزاً حكيماً] معناه لم يزل الله سبحانه منتقماً من أعدائه حكيماً في أفعاله و تقديراته ، فاحذروا أيّها السائلون محمّداً أن ينزّل عليكم كتاباً من السماء حلول عقوبة بكم كما حلّ بأوائلكم في تكذيبهم رسله ، عن ابن عبّاس .

وما مرّ في تفسير هذه الآية من أنّ الله ألقى شبه عيسى على غيره فإنّ ذلك من مقدور الله بلا خلاف بين المسلمين فيه ، ويجوز أن يفعله الله سبحانه على وجه التغليظ للمحنة و التشديد في التكليف ، وإن كان ذلك خارقاً للعادة فإنّه يكون معجزاً للمسيح ، كما روي أنّ جبرائيل كان يأتي نبيّنا صلى الله عليه وآله في صورة دحية الكلبي .

وممّا يسأل عن هذه الآية أن يقال : قد تواترت اليهود والنصارى مع كثرتهم و

---

(١) آل عمران : ٥٥ .

اجتمعت على أنّ المسيح قد قتل وصلب ، فكيف يجوز عليهم أن يخبروا عن النبيّ بخلاف ما هو به ؟ ولو جاز ذلك فكيف يوثق بشيء من الأخبار ؟

والجواب أنّ هؤلاء دخلت عليهم الشبهة كما أخبر الله سبحانه عنهم بذلك ، فلم يكن اليهود يعرفون عيسى بعينه وإنّما أخبروا أنّهم قتلوا رجلاً قيل لهم : إنّه عيسى ، فهم في خبرهم صادقون ، وإن لم يكن المقتول عيسى عليه السلام وإنّما اشتبه الأمر على النصارى لأنّ شبه عيسى اُلقي على غيره ، فرأوا من هو على صورته مقتولاً مصلوباً فلم يخبر أحد من الفريقين إلّا عمّا رآه وظنّ أنّ الأمر على ما أخبر به فلا يؤدّي ذلك إلى بطلان الأخبار بحال .

قوله تعالى : وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيداً (١٥٩) .

المعنى : ثمّ أخبر تعالى أنّه لايبقى أحد منهم إلّا ويؤمن به فقال :

[وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته] اختلف فيه على أقوال :

احدها : أنّه كلا الضميرين يعودان إلى المسيح أي ليس يبقى أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلّا ويؤمننّ بالمسيح قبل موت المسيح إذا أنزله الله إلى الأرض وقت خروج المهديّ عليه السلام في آخر الزمان لقتل الدجّال ، فتصير الملل كلّها ملّة واحدة وهي ملّة الإسلام الحنيفيّة دين إبراهيم ، عن ابن عبّاس وأبي مالك والحسن وقتادة وابن زيد ، وذلك حين لاينفعهم الإيمان ، واختاره الطبريّ قال : والآية خاصّة لمن يكون منهم في ذلك الزمان .

وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّ أباه حدّثه عن سليمان بن داود المنقريّ عن أبي حمزة الثماليّ عن شهر بن حوشب قال : قال الحجّاج بن يوسف : آية من كتاب الله قد أعيتني قوله : «وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته ، الآية» والله إنّي لآمر باليهوديّ والنصرانيّ فيضرب عنقه ثمّ أرمقه بعيني فما أراه يحرّك شفتيه حتّى يخمل ، فقلت : أصلح الله الأمير ليس على ما أوّلت ! قال : فكيف هو ؟ قلت : إنّ عيسى بن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ولايبقى أهل ملّة يهوديّ أو نصرانيّ أو غيره إلّا وآمن به قبل موت عيسى ويصلّي خلف المهديّ عليه السلام ، قال : ويحك أنّى لك هذا ومن أين جئت به ؟ قال قلت :

حدّثني به الباقر محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليهم السلام) قال : جئت والله بها من عين صافية . فقيل لشهر : ما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أغيظه .

وذكر أبو القاسم البلخيّ مثل ذلك ، وضعّف الزجّاج هذا الوجه قال : إنّ الّذين يبقون إلى زمن عيسى من أهل الكتاب قليل ، والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب ، إلّا أنّ جميعهم يقولون : إنّ عيسى الّذي ينزل في آخر الزمان نحن نؤمن به .

وثانيها : أنّ الضمير في «به» يعود إلى المسيح ، والضمير في «موته» يعود إلى الكتابيّ ، ومعناه : لا يكون أحد من أهل الكتاب يخرج من الدنيا إلّا و يؤمن بعيسى قبل موته إذا زال تكليفه وتحقّق الموت ، ولكن لا ينفعه الإيمان حينئذ ، وإنّما ذكر اليهود والنصارى لأنّ جميعهم مبطلون : اليهود بالكفر به والنصارى بالغلوّ في أمره ، وذهب إليه ابن عبّاس في رواية اُخرى ومجاهد والضحّاك وابن سيرين وجويبر قالوا : ولو ضربت رقبته لم تخرج نفسه حتّى يؤمن .

وثالثها : أن يكون المعنى ليؤمننّ بمحمّد صلّى الله عليه وآله قبل موت الكتابيّ ، عن عكرمة ورواه أيضاً أصحابنا ، وضعّف الطبريّ هذا الوجه بأن قال : لو كان ذلك صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفّار عليهم إذا ماتوا ، وهذا لا يصحّ لأنّ إيمانهم بمحمّد صلّى الله عليه وآله إنّما يكون في حال زوال التكليف فلا يعتدّ به ، وإنّما ضعّف هذا القول من حيث لم يجر ذكرٌ لنبيّنا صلّى الله عليه وآله ههنا ، ولا ضرورة توجب ردّ الكناية إليه و قد جرى ذكر عيسى فالأولى أن يصرف ذلك إليه .

[ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً] يعني عيسى يشهد عليهم بأنّه قد بلّغ رسالات ربّه وأقرّ على نفسه بالعبوديّة ، ولم يدعهم إلى أن يتّخذوه إلهاً ، عن قتادة وابن جريج . وقيل : يشهد عليهم بتصديق من صدّقه وتكذيب من كذّبه ، عن أبي عليّ الجبّائيّ . و في هذه الآية دلالة على أنّ كلّ كافر يؤمن عند المعاينة وعلى أنّ إيمانه ذلك غير مقبول كما لم يقبل إيمان فرعون في حال اليأس عند زوال التكليف .

ويقرب من هذا ما رواه الإماميّة أنّ المحتضرين من جميع الأديان يرون رسول الله صلّى الله عليه وآله

وخلفاءه عندالموت ، ويروون في ذلك عن عليّ عليه السلام أنّه قال للحارث الهمدانيّ :(١)

يا حار همدان من يمت يرني * من مؤمن أو منافق قبلاً
يعرفني طرفه و أعرفه * بعينه و اسمه و ما فعلا

فإن صحّت هذه الرواية فالمراد برؤيتهم في تلك الحال العلم بثمرة ولايتهم وعداوتهم على اليقين بعلامات يجدونها من نفوسهم ، ومشاهدة أحوال يدركونها كما قد روي أنّ الإنسان إذا عاين الموت اُري في تلك الحالة ما يدلّه على أنّه من أهل الجنّة أو من أهل النار .

قوله تعالى : فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٦٠) واخذهم الربوا وقد نهوا عنه و اكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما (١٦١) .

المعنى : ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم بقوله :

[فبظلم من الّذين هادوا] أي من اليهود معناه : فبما ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي الّتي تقدّم ذكرها ، و قد مضى فيما تقدّم عن الزجّاج أنّه قال : « فبظلم من الّذين هادوا » بدل من قوله : « فبنقضهم ميثاقهم » وما بعده ، و العامل في الباء قوله : [حرّمنا عليهم طيّبات] ولكنّه لمّا طال الكلام أجمل في قوله : « فبظلم » ما ذكره قبل ، وأخبر أنّه حرّم على اليهود الّذين نقضوا ميثاقهم الّذي واثقوا الله عليه و كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً وفعلوا ما وصفه الله ، طيّبات من المآكل وغيرها [اُحلّت لهم] أي كانت حلالاً لهم قبل ذلك فلمّا فعلوا ما فعلوا اقتضت المصلحة تحريم هذه الأشياء عليهم ، عن مجاهد وأكثر المفسّرين . وقال أبو عليّ الجبّائيّ : حرّم الله سبحانه هذه الطيّبات على الظالمين منهم عقوبة لهم على ظلمهم وهي ما بيّن في قوله تعالى : « و على الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر ومن البقر والغنم ، الآية» .(٢)

[وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً] أي وبمنعهم عباد الله عن دينه و سبيله الّتي شرعها

---

(١) الابيات للحميرى نظم بها حديثا جرى بين امير المؤمنين عليه السلام وحارث و اول القطعة : قول على لحارث عجب .

(٢) الانعام : ١٤٦ .

لعباده صداً كثيراً ، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل وادعائهم أن ذلك عن الله وتبديلهم كتاب الله وتحريفهم معانيه عن وجوهه ، وأعظم من ذلك كله جحدهم نبوة محمد ﷺ وتركهم بيان ما علموه من أمره لمن جهله من الناس ، عن مجاهد وغيره .

[وأخذهم الربى] أي ما فضل على رؤوس أموالهم بتأخيرهم له عن محلّه إلى أجل آخر [وقد نهوا عنه] أي عن الرباء [وأكلهم أموال الناس بالباطل] أي بغير استحقاق ولا استيجاب وهو ما كانوا يأخذونه من الرشى في الأحكام ، كقوله : «وأكلهم السحت[1]» و ما كانوا يأخذونه من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم ويقولون : هذا من عند الله ، وما أشبه ذلك من المآكل الخبيثة ، عاقبهم الله تعالى على جميع ذلك بتحريم ما حرم عليهم من الطيبات .

[وأعتدنا للكافرين منهم] أي هيأنا يوم القيامة لمن جحد الله أو الرسل من هؤلاء اليهود [عذاباً أليماً] أي مولماً موجعاً .

واختلف في أن التحريم هل كان على وجه العقوبة أم لا ؟ فقال جماعة من المفسرين: إن ذلك كان عقوبة . وإذا جاز التحريم ابتداء على جهة المصلحة جاز أيضاً عند ارتكاب المعصية على جهة العقوبة ، وقال أبو علي : كان تحريمه عقوبة فيمن تعاطى ذلك الظلم و مصلحة في غيرهم . وقال أبو هاشم : إن التحريم لا يكون إلا للمصلحة ، ولما صار التحريم مصلحة عند إقدامهم على هذا الظلم جاز أن يقال : حرم عليهم بظلمهم ، قال : لأن التحريم تكليف يستحق الثواب بفعله و يجب الصبر على أدائه فهو معدود في النعم بخلاف العقوبات .

قوله تعالى : لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلوة والمؤتون الزكوة و المؤمنون بالله واليوم الاخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما (١٦٢) .

المعنى : ثم ذكر سبحانه مؤمني أهل التوراة فقال :

[لكن الراسخون في العلم] والدين . ذلك أن عبدالله بن سلام وأصحابه قالوا للنبي ﷺ : إن اليهود لتعلم أن الذي جئت به حق وأنك لعندهم مكتوب في التوراة ، فقالت

(١) المائدة : ٦٥-٦٦ .

اليهود : ليس كما يقولون إنّهم لايعلمون شيئاً وإنّهم يغرّونك ويحدّثونك بالباطل ، فقال الله تعالى : لكن الراسخون الثابتون المبالغون في العلم المدارسون بالتوراة [منهم] أي من اليهود يعنى ابن سلام وأصحابه من علماء اليهود [والمؤمنون] يعني أصحاب النبيّ من غير أهل الكتاب [يؤمنون بما اُنزل إليك] يا محمّد من القرآن والشرائع أنّه حقّ [و بما اُنزل من قبلك] من الكتب على الأنبياء والرسل .

وقيل : إنّما استثنى الله تعالى من وصفهم ممّن هداه الله لدينه ووفّقه لرشده من اليهود الّذين ذكرهم فيما مضى من قوله : «يسألك أهل الكتاب» إلى ههنا فقال : لكنّهم لايسألونك مايسأل هؤلاء الجهّال من إنزال الكتب من السماء لأنّهم قد علموا مصداق قولك بما قرؤوا في الكتب المنزلة على الأنبياء ووجوب اتّباعك عليهم ، فلاحاجة لهم إلى أن يسألوك معجزة اُخرى و لا دلالة غير ما علموا من أمرك بالعلم الراسخ في قلوبهم ، عن قتادة وغيره .

[والمقيمين الصلاة] إذا كان نصباً على الثناء و المدح على تقدير و اذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة ، ويكون على هذا عطفاً على قوله : «والراسخون في العلم منهم و المؤمنون» والمعنى والّذين يؤدّون الصلاة بشرائطها . وإذاكان جرّاً عطفاً على «ما اُنزل » أي يؤمنون بما اُنزل إليك وما اُنزل من قبلك والمقيمين الصلاة ؛ فقيل : إنّ المراد بهم الأنبياء أي ويؤمنون بالأنبياء المقيمين للصلاة . وقيل : المراد بهم الملائكة و إقامتهم للصلاة تسبيحهم ربّهم واستغفارهم لمن في الأرض أي وبالملائكة ، واختاره الطبريّ قال : لأنّه في قراءة اُبيّ و كذلك هو في مصحفه . وقيل : المراد بهم الأئمّة المعصومون .

[والمؤتون الزكاة] أي والمعطون زكاة أموالهم [والمؤمنون بالله] بأنّه واحد لاشريك له [واليوم الآخر] وبالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال [اُولئك] أي هؤلاء الّذين وصفهم الله [سنؤتيهم] أي سنعطيهم [أجراً] أي ثواباً وجزاءً على ماكان منهم من طاعة الله واتّباع أمره [عظيماً] أي جزيلاً وهو الخلود في الجنّة .

قوله تعالى : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسمعيل و اسحق ويعقوب والاسباط و عيسى وايوب

ويونس وهرون وسليمان وآتيناداود زبوراً (١٦٣).

المعنى : ثمّ خاطب سبحانه نبيّه بقوله : [إنّا أوحينا إليك] يا محمّد . قدّمه في الذكر وإن تأخرت نبوّته لتقدّمه في الفضل [كما أوحينا إلى نوح] وقدّم نوحاً لأنّه أبوالبشر كما قال : « وجعلنا ذرّيّته هم الباقين[1] »وقيل : لأنّه كان أطول الأنبياء عمراً و كانت معجزته في نفسه لبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً لم يسقط له سنّ ولم تنقص قوّته ولم يشب شعره . و قيل : لأنّه لم يبالغ أحدمنهم في الدعوة مثل مابالغ فيها ولم يقاس أحد من قومه ماقاساه وهو أوّل من عذّبت اُمّته بسبب أن ردّت دعوته [و النبيّين من بعده] أي وأوحينا إلى النبيّين من بعد نوح .

[و أوحينا إلى] النبيّين [إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب] أعاد ذكر النبيّين تعظيماً لأمرهم وتفخيماً لشأنهم [والأسباط] وهم أولاد يعقوب ، وقيل : إنّ الأسباط في ولد إسحاق كالقبائل في ولد إسماعيل ، وقد بعث منهم عدّة رسل كيوسف وداود وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام ، فيجوز أن يكون أراد بالوحي إليهم الوحي إلى الأنبياء منهم كما تقول : أرسلت إلى بني تميم ، إذا أرسلت إلى وجوههم ، و لم يصحّ أنّ الأسباط الّذين هم إخوة يوسف كانوا أنبياء .

[وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان] وقدّم عيسى عليه السلام على أنبياء كانوا قبله لشدّة العناية بأمره لغلوّ اليهود في الطعن فيه ، والواو لا يوجب الترتيب [وآتينا داود زبوراً] أي كتاباً يسمّى زبوراً واشتهر به كما اشتهر كتاب موسى بالتوراة و كتاب عيسى بالإنجيل .

النظم : هذه الآية تتّصل بما قبلها من قوله « يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء » و هذا يدلّ على أنّهم قد سألوا ما يدلّ على نبوّته فأخبر سبحانه أنّه أرسله كما أرسل من تقدّمه من الأنبياء و أظهر بعد موسى على أيديهم .

وقيل : إنّ اليهود لمّا تلا النبيّ صلّى الله عليه وآله عليهم تلك الآيات قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى ، فكذّبهم بهذه الآيات إذ أخبر أنّه قد أنزل على من بعد موسى من الّذين سمّاهم و ممّن لم يسمّهم ، عن ابن عبّاس .

---

(١) الصافات : ٧٧ .

قوله تعالى : و رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك و كلم الله موسى تكليماً (١٦٤) رسلا مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزا حكيما (١٦٥) .

المعنى : ثمّ أجمل ذكر الرسل بعد تسمية بعضهم فقال :

[ورسلاً] أي ورسلاً آخرين [قد قصصناهم عليك] أي ماحكينا لك أخبارهم و عرّفناك شأنهم واُمورهم [من قبل] قال بعضهم : قصّهم عليه بالوحي في غير القرآن من قبل ثمّ قصّهم عليه من بعد في القرآن . وقال بعضهم : قصّهم عليه من قبل هؤلاء بمكّة في سورة الأنعام وفي غيرها لأنّ هذه السورة مدنيّة .

[ورسلاً لم نقصصهم عليك] هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه أرسل رسلاً كثيرة لم يذكرهم في القرآن وإنّما قصّ بعضهم على النبيّ لفضيلتهم على من لم يقصصهم عليه .

[و كلّم الله موسى تكليماً] فائدته أنّه سبحانه كلّم موسى عليه السلام بلاواسطة إبانةً له بذلك من سائر الأنبياء ؛ لأنّ جميعهم كلّمهم الله سبحانه بواسطة الوحي ، وقيل : إنّما قال : «تكليماً» ليعلم أنّ كلام الله عالاذكره من جنس هذا المعقول الّذي يشتقّ من التكليم بخلاف ماقاله المبطلون ، وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا قرأ الآية الّتي قبل هذه على الناس قالت اليهود فيما بينهم : ذكر محمّد النبيّين و لم يبيّن لنا أمر موسى ، فلمّا نزلت هذه الآية وقرأها عليهم قالوا : إنّ محمّداً قد ذكره وفضّله بالكلام عليهم .

[رسلاً مبشّرين] بالجنّة والثواب لمن آمن وأطاع [ومنذرين] بالنار و العقاب لمن كفر وعصى [لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل] فيقولوا : لم ترسل إلينا رسولاً ولو أرسلت لآمنّا بك ، كما أخبر سبحانه في آية اُخرى بقوله : «لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً(١)» .

وفي هذه الآية دلالة على فساد قول من زعم أنّ عند الله تعالى من اللطف ما لو فعله بالكافر لآمن ؛ لأنّه لو كان كذلك لكان للكفّار الحجّة بذلك على الله تعالى قائمة ، فأمّا من لم يعلم من حاله أنّ له في إنفاذ الرسل إليه لطفاً فالحجّة قائمة عليه بالعقل ، وأدلّته الدالّة على توحيده وعدله ولو لم يقم الحجّة إلّا بإنفاذ الرسل لفسد ذلك من وجهين :

أحدهما : أنّ صدق الرسول لا يمكن العلم به إلّا بعد تقدّم العلم بالتوحيد والعدل

---

(١) طه : ١٣٤ .

فإن كانت الحجّة عليه غير قائمة فلا طريق له إلّا معرفة النبيّ صلى الله عليه وآله وصدقه .

و الثاني : أنّه لو كانت الحجّة لاتقوم إلّا بالرسل لاحتاج الرسول أيضاً إلى رسول آخر حتّى تكون الحجّة عليه قائمة ، والكلام في رسوله كالكلام فيه حتّى يتسلسل وذلك فاسد ، فمن استدلّ بهذه الآية على أنّ التكليف لا يصحّ بحال إلّا بعد إنفاذ الرسل فقد أبعد لما قلناه .

[وكان الله عزيزاً] أي مقتدراً على الانتقام ممّن يعصيه ويكفر به [حكيماً] فيما أمر به عباده وفي جميع أفعاله .

قوله تعالى : لكن الله يشهد بما أنزل اليك انزله بعلمه و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيدا (١٦٦) .

النزول : وقيل : إنّ جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال النبيّ لهم : إنّي أعلم أنّكم تعلمون أنّي رسول الله ، فقالوا : لا نعلم ذلك ولا نشهد به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

المعنى : ثمّ قال سبحانه بعد إنكارهم وجحودهم : [لكن الله يشهد بما أنزل إليك] معناه : إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوّة فالله يشهد لك بذلك ، قال الزجّاج : و الشاهد هو المبيّن لما يشهد به والله سبحانه يبيّن ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وآله بنصب المعجزات له و يبيّن صدقه بما يغني عن بيان أهل الكتاب .

[أنزله بعلمه] معناه : أنزل القرآن وهو عالم بأنّك موضع لإنزاله عليك لقيامك فيه بالحقّ ودعائك الناس إليه ، وقيل : معناه أنزل القرآن الّذي فيه علمه ، عن الزجّاج .

[والملائكة يشهدون] بأنّك رسول الله وأنّ القرآن نزل من عنده [و كفى بالله شهيداً] معناه : أنّ شهادة الله تكفي في تثبيت المشهود ولا يحتاج معها إلى شهادة .

وفي هذه الآية تسلية النبيّ صلى الله عليه وآله على تكذيب من كذّب به ولا يصحّ قول من استدلّ على أنّ الله سبحانه عالم بعلم غير ذاته بما في هذه الآية من قوله : «أنزله بعلمه» لأنّه لو أراد بالعلم ما ذهبوا إليه من كونه ذاتاً سواه لوجب أن يكون آلة له في الإنزال كما يقال : كتبت بالقلم و عمل النجّار بالقدوم ، و لا خلاف أنّ العلم ليس بآية في الإنزال .

قوله تعالى : ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا (١٦٧) ان الذين كفروا و ظلموا لم يكن الله ليغفر لهم و لا ليهديهم طريقا (١٦٨) الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا (١٦٩) .

المعنى : [إنّ الّذين كفروا] بأنفسهم [وصدّوا] غيرهم [عن سبيل الله] عن الدين الّذي بعثك الله به إلى خلقه [قد ضلّوا ضلالاً بعيداً] يعني جاوزوا عن قصد الطريق جوازاً شديداً ، وزالوا عن الحجّة الّتي هي دين الله الّذي ارتضاه لعباده ، وبعثك به إلى خلقه زوالاً بعيداً عن الرشاد .

[إنّ الّذين كفروا] جحدوا رسالة محمّد [وظلموا] محمّداً بتكذيبهم إيّاه ومقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم أولياء الله حسداً لهم وبغياً عليهم [لم يكن الله ليغفر لهم] أي لم يكن الله ليغفر لهم عن ذنوبهم بترك عقابهم عليها [ولا ليهديهم طريقاً] أي لا يهديهم إلى طريق الجنّة لأنّ الهداية إلى طريق الإيمان قد سبقت وعمّ الله بها جميع المكلّفين [إلّا طريق جهنّم] معناه لكن يهديهم طريق جهنّم جزاء لهم على ما فعلوه من الكفر و الظلم [خالدين فيها] أي مقيمين فيها [أبداً] .

[وكان ذلك] أي تخليد هؤلاء الّذين وصفهم في جهنّم [على الله يسيراً] لأنّه إذا أراد ذلك لم يقدر على الامتناع منه أحد .

النظم : و اتّصال هذه الآية بما قبلها اتّصال النقيض على جهة المقابلة ؛ لأنّ ما قبلها يتضمّن الشهادة له بالنبوّة تسلية له عمّا لحقه من تكذيب الكفّار ، و هذه الآيات تتضمّن تحيّر الكفّار بذهابهم من الرشد .

قوله تعالى : يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فان لله ما فى السموات و الارض و كان الله عليما حكيما (١٧٠) .

المعنى : ثمّ عاد سبحانه إلى العظة وعمّ الخلق بذلك فقال :

[ياأيّها الناس] خطاب لجميع المكلّفين وقيل : خطاب للكفّار [قد جاءكم الرسول] يعني محمّداً صلّى الله عليه وآله [بالحقّ] أي بالدين الّذي ارتضاه الله لعباده ، وقيل : بولاية من أمر الله

تعالى بولايته عن أبي جعفر عليه السلام [من ربّكم] أي من عند ربّكم .

[فآمنوا] أي صدّقوه وصدّقوا ما جاءكم به عند ربّكم [خيراً لكم] أي ائتوا خيراً لكم ممّا أنتم عليه من الجحود والتكذيب .

[وإن تكفروا] أي تكذّبوه فيما جاءكم به من عندالله [فإنّ لله ما في السماوات والأرض] أي فإنّ ضرر ذلك يعود عليكم دون الله فإنّه يملك ما في السماوات والأرض لاينقص كفركم فيما كذّبتم به نبيّه شيئاً من ملكه وسلطانه .

[وكان الله عليماً] بما أنتم صائرون إليه من طاعته أو معصيته [حكيماً] في أمره و نهيه إيّاكم وتدبيره فيكم وفي غيركم .

قوله تعالى : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم و لا تقولوا على الله الاالحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله و كلمته ألقها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله و رسله و لاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرالكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما فى السموات و ما فى الارض و كفى بالله وكيلا (١٧١) .

المعنى : ثمّ عاد سبحانه إلى حجاج أهل الكتاب فقال :

[يا أهل الكتاب] قيل : إنّه لليهود و النصارى عن الحسن قال : لأنّ النصارى غلت في المسيح فقالت : هو ابن الله ، وبعضهم قال : هو الله ، وبعضهم قال : هو ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس . واليهود غلت فيه حتّى قالوا ولد لغير رشده ، فالغلوّ لازم للفريقين . و قيل : للنصارى خاصّة ، عن أبي عليّ وأبي مسلم وجماعة من المفسّرين .

[لاتغلوا في دينكم] أي لاتفرطوا في دينكم ولا تجاوزوا الحقّ فيه [ولا تقولوا على الله إلّا الحقّ] أي قولوا : إنّه جلّ جلاله واحد لاشريك له ولاصاحبة ولا ولد ، ولاتقولوا في عيسى : إنّه ابن الله أو شبهه فإنّه قول بغير الحقّ .

[إنّما المسيح] وقد ذكرنا معناه ، وقيل : سمّي بذلك لأنّه كان يمسح الأرض

مشياً [عيسى ابن مريم] هذا بيان لقوله : «المسيح» يعني إنّه ابن مريم لا ابن الله كما يزعمه النصارى ،و لا ابن أب كما تزعمه اليهود [رسول الله] أرسله الله إلى الخلق لا كما زعم الفرقتان المبطلتان .

[و كلمته] يعني أنّه حصل بكلمته الّتي هي قوله : «كن» عن الحسن و قتادة . و قيل : معناه إنّه يهتدي به الخلق كما اهتدوا بكلام الله ووحيه ، عن أبي عليّ الجبّائيّ . وقيل : معناه بشارة الله الّتي بشّر بها مريم على لسان الملائكة كما قال : «وإذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة[1]» وهو المراد بقوله : [ألقاها إلى مريم] كما يقال : ألقيت إليك كلمة حسنة أي قلت ، وقيل : معنى «ألقاها إلى مريم» خلقها في رحمها عن الجبّائيّ .

[وروح منه] فيه أقوال :

أحدها أنّه إنّما سمّاه روحاً لأنّه حدث عن نفخة جبرائيل في درع مريم بأمر الله تعالى وإنّما نسبه إليه لأنّه كان بأمره ، وقيل : إنّه أضافه إلى نفسه تفخيماً لشأنه كما قال : الصوم لي وأنا اُجزى به . وقد يسمّى النفخ روحاً و استشهد على ذلك ببيت ذي الرمّة يصف ناراً :

فقلت له ارفعها إليك و أحيها * بروحك و اقتته لها قتية قدراً

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن * عليه الصبا واجعل يديك لها ستراً

و معنى أحيها بروحك أي بنفخك ، ويقال : اقتتّ النار إذا أطعمتها حطباً .

والثاني أنّ المراد به : يحيي به الناس في دينهم كما يحيون بالأرواح عن الجبّائيّ فيكون المعنى : إنّه جعله نبيّاً يقتدى به و يستنّ بسنّته ويهتدى بهداه .

و الثالث أنّ معناه إنسان أحياه الله بتكوينه بلاواسطة من جماع أو نطفة كما جرت العادة بذلك ، عن أبي عبيدة .

والرابع أنّ معناه : ورحمة منه كما قال في موضع آخر : « وأيّدهم بروح منه[2]» أي برحمة منه ، فجعل الله عيسى رحمة على من آمن به و اتّبعه لأنّه هداهم إلى سبيل الرشاد .

(١) آل‌عمران : ٤٥ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

والخامس أنّ معناه روح الله من الله خلقهافصوّرها ثمّ أرسلها إلى مريمفدخلت في قلبها فصيّرها الله تعالىعيسى ، عن أبي العالية عن اُبيّ بن كعب .

والسادس أنّ معنىالروح ههنا جبرائيل عليه السلام فيكونعطفاً على مافي ألقاها من من ضمير ذكر الله وتقديره : ألقاها الله إلى مريم و روحمنه أي من الله أي جبرائيلألقاها أيضاً إليها .

[فآمنوا بالله ورسله] أمرهم الله بتصديقه والاقرار بواحدانيّته وتصديق رسلهفيما جاؤوا به من عنده ، و فيما أخبروهم به من أنّ الله سبحانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد .

[ولا تقولوا ثلاثة] هذا خطاب للنصارى أيلاتقولوا : إلهناثلاثة ، عنالزجّاج . وقيل : هذا لا يصحّ لانّ النصارىلم يقولوا بثلاثةآلهة و لكنّهم يقولون : إله واحدثلاثة أقانيم أب وابن و روح القدس ، ومعناه لاتقولوا : الله ثلاثة أب و ابن وروح القدس ، وقد شبّهوا قولهم : جوهر واحد ثلاثة أقانيمبقولنا : سراجواحد ، ثمّ نقول : ثلاثةأشياء : دهن وقطن و نار ، وشمس واحدة ، وإنّما هي جسموضوء وشعاع ، وهذاغلط بعيد ؛ لأنّـالانعني بقولنا «سراج واحد» أنّه شيء واحد بل هوأشياء علىالحقيقة ، وكذلك الشمس كماتقول عشرة واحدة ، وإنسان واحد ، ودار واحدة ، و إنّما هيأشياء متغايرة . فإن قالوا : إنّ الله شيء واحد وإله واحدحقيقة فقولهم «ثلاثة» متناقضة ، وإن قالوا : إنّه فيالحقيقة أشياء مثل ماذكرناه في الانسان والسراج وغيرهما فقد تركواالقول بالتوحيدوالتحقوابالمشبّهة و إلّا فلا واسطة بين الأمرين .

[انتهوا]عن هذه المقالة الشنيعة أيامتنعوا عنها [خيراً لكم] أي ائتوا بالانتهاء عن قولكم خيراً لكم ممّا تقولون [إنّما الله إله واحد] أي ليس كما تقولون : إنّهثالث ثلاثة ؛ لأنّ من كان له ولد أو صاحبة لايجوزأن يكون إلهاً معبوداً و لكنّ الله الّذي له الالهيّة و تحقّ له العبادة إله واحد لاولد له و لاشبه له ولا صاحبة له ولا شريك له .

ثمّ نزّه سبحانه نفسهعمّا يقوله المبطلونفقال : [سبحانه أن يكون له ولد] و لفظة «سبحانه» تفيدالتنزيه عمّا لايليق به أيهو منزّه عنأن يكون له ولدٌ [لهمافيالسماوات

وما في الأرض] ملكاً وملكاً وخلقاً وهو يملكهما وله التصرّف فيهما و فيما بينهما ، ومن جملة ذلك عيسى وأُمّه ، فكيف يكون المملوك و المخلوق ابناً للمالك و الخالق .

[وكفى بالله وكيلا] أي حسب مافي السماوات وما في الأرض بالله قيّماً ومدبّراً و رازقاً ، وقيل : معناه : وكفى بالله حافظاً لأعمال العباد حتّى يجازيهم عليها ، فهو تسلية للرسول ووعيد للقائلين فيه سبحانه بما لايليق به .

قوله تعالى : لن يستنكف المسيح أن يكون عبداًلله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً (١٧٢) فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً (١٧٣) .

النزول : روي أنّ وفد نجران قالوا ، لنبيّنا يا محمّد ! لم تعيب صاحبنا ؟ قال:ومن صاحبكم ؟ قالوا : عيسى عليه السلام قال : وأيّ شيء أقول فيه ؟ قالوا : تقول إنّه عبدالله ورسوله ، فنزلت الآية .

المعنى : لمّا تقدّم ذكر النصارى و الحكاية عنهم في أمر المسيح عقّبه سبحانه بالردّ عليهم فقال :

[لن يستنكف] أي لن يأنف ولم يمتنع [المسيح] يعني عيسى عليه السلام من [أن يكون عبداً لله [ولا الملائكة المقرّبون] أي ولاالملائكة المقرّبون يأنفون ويستكبرون عن الإقرار بعبوديّته والإذعان له بذلك ، والمقرّبون الّذين قرّبهم تعالى ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه .

[ومن يستنكف عن عبادته] أي من يأنف عن عبادته و يستكبر أي يتعظّم بترك الإذعان لطاعته [فسيحشرهم] أي فسيبعثهم [إليه] يوم القيامة [جميعاً] يجمعهم لموعدهم عنده ومعنى قوله : «إليه» أي إلي الموضع الّذي لا يملك التصرّف فيه سواه ، كما يقال : صار أمر فلان إلى الأمير أي لايملكه غير الأمير ، ولايراد بذلك المكان الّذي فيه الأمير .

واستدلّ بهذه الآية من قال بأنّ الملائكة أفضل من الأنبياء قالوا: إنّ تأخير ذكر الملائكة في مثل هذا الخطاب يقتضي تفضيلهم لأنّ العادة لم تجر بأن يقال : لن يستنكف الأمير أن يفعل كذا ولا الحارس ، بل يقدّم الأدون ويؤخّر الأعظم فيقال : لن يستنكف

الوزير أن يفعل كذا ولا السلطان ، وهذا يقتضي فضل الملائكة على الأنبياء .

وأجاب أصحابنا عن ذلك بأن قالوا : إنّما أخّر ذكر الملائكة عن ذكر المسيح لأنّ جميع الملائكة أفضل وأكثر ثواباً من المسيح ، وهذا لايقتضي أن يكون كلّ واحد منهم أفضل من المسيح عليه السلام و إنّما الخلاف في ذلك .

وأيضاً فإنّا وإن ذهبنا إلى أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة فإنّا نقول مع قولنا بالتفاوت : إنّه لاتفاوت في الفضل بين الأنبياء والملائكة ومع التقارب و التداني يحسن أن يقدّم ذكر الأفضل ، ألا ترى أنّه يحسن أن يقال : ما يستنكف الأمير فلان من كذا ولا الأمير فلاناً إذا كانا متساويين في المنزلة أو متقاربين وإنّما لا يحسن أن يقال : ما يستنكف الأمير فلان من كذا ولاالحارس لأجل التفاوت .

[فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفّيهم اُجورهم] ويؤتيهم جزاء أعمالهم وعدالله الّذين يقرّون بوحدانيّته و يعملون بطاعته أنّه يوفّيهم اُجورهم ويؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافياً تامّاً [و يزيدهم من فضله] أي يزيدهم على ماكان و عدهم به من الجزاء على أعمالهم الحسنة و الثواب عليها من الفضل والزيادة مالم يعرّفهم مبلغه ، لأنّه وعد على الحسنة عشر أمثالها من الثواب إلى سبعين ضعفاً وإلى سبعمائة و إلى الأضعاف الكثيرة و الزيادة على المثل تفضّل من الله تعالى عليهم .

[وأمّا الّذين استنكفوا] أي أنفوا عن الافرار بوحدانيّته [و استكبروا] أي تعظّموا عن الإذعان له بالطاعة والعبوديّة [فيعذّبهم عذاباً أليماً] أي مولماً موجعاً [و لا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً] أي ولا يجد المستنكفون المستكبرون لأنفسهم وليّاً ينجيهم من عذابه و ناصراً ينقذهم من عقابه .

قوله تعالى : ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا (١٧٤) فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً (١٧٥) .

المعنى : لمّا فصّل الله ذكر الأحكام الّتي يجب العمل بها ذكر البرهان بعد ذلك ليكون الإنسان على ثقة ويقين فقال :

[يا أيّها الناس] وهو خطاب للمكلّفين من سائر الملل الّذين قصّ قصصهم في هذه السورة [قد جاءكم برهان من ربّكم] أي أتاكم حجّة من الله يبرهن لكم عن صحّة ما أمركم به محمّد لما معه من المعجزات القاهرة الشاهدة بصدقه ، و قيل : هو القرآن .

[وأنزلنا إليكم] معه [نوراً مبيناً] يبيّن لكم الحجّة الواضحة و يهديكم إلى مافيه النجاة لكم من عذابه وأليم عقابه ، و ذلك النور هو القرآن ، عن مجاهد و قتادة و السدّي . و قيل : النور ولاية علي عليه السلام عن أبي عبدالله عليه السلام .

[فأمّا الّذين آمنوا بالله] أي صدّقوا بوحدانيّة الله واعترفوا ببعث محمّد صلى الله عليه وآله [و اعتصموا به] أي تمسّكوا بالنور الّذي أنزله على نبيّه [فسيدخلهم في رحمة منه] أي نعمة منه هي الجنّة ، عن ابن عبّاس [وفضل] يعني مايبسط لهم من الكرامة و تضعيف الحسنات وما يزاد لهم من النعم على مايستحقّونه .

[ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً] أي يوفّقهم لإصابة فضله الّذي يتفضّل به على أوليائه و يسدّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته و اقتفاء آثارهم و الاهتداء بهداهم و الاستنان بسنّتهم و اتّباع دينهم وهو الصراط المستقيم الّذي ارتضاه الله منهجاً لعباده .

قوله تعالى : يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرء هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ماترك و هو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك و ان كانوا اخوة رجالا و نساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا و الله بكل شيء عليم (١٧٦) .

النزول : اختلف في سبب نزول الآية فروي عن جابر بن عبد الله أنّه قال : اشتكيت و عندي تسعة أخوات لي أوسبع فدخل عليّ النبيّ فنفخ في وجهي فأفقت فقلت يارسول الله صلّى الله عليك ألا اُوصي لأخواتي بالثلثين ؟ قال أحسن . قلت : الشطر ؟ قال أحسن ، ثمّ خرج وتركني ورجع إليّ فقال : ياجابر إنّي لا أراك ميّتاً من وجعك هذا ، وإنّ الله تعالى قد أنزل في الّذي لأخواتك فجعل لهنّ الثلثين ، قالوا : وكان جابر يقول:

اُنزلت هذه الآية فيّ. وعن قتادة قال : إنّ الصحابة كان همّهم شأن الكلالة فأنزل الله فيها هذه الآية .

و قال البراء بن عازب : آخر سورة نزلت كاملة براءة ، و آخر آية نزلت خاتمة سورة النساء : « يستفتونك ، الآية» أورده البخاريّ و مسلم في صحيحهما . و قال جابر : نزلت بالمدينة . و قال ابن سيرين : نزلت في مسير كان فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله و أصحابه .

و تسمّى هذه الآية آية الصيف ، و ذلك أن الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي الّتي في أوّل هذه السورة ، واُخرى في الصيف وهي هذه الآية . وروي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال : سألت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن الكلالة فقال : يكفيك أو يجزيك - آية الصيف .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه في أوّل السورة بعض سهام الفرائض ختم السورة ببيان ما بقي من ذلك فقال :

[يستفتونك] يا محمّد أي يطلبون منك الفتيا في ميراث الكلالة [قل الله يفتيكم] أي يبيّن لكم الحكم في الكلالة ، و هو اسم للإخوة و الأخوات ، عن الحسن و هو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام . وقيل : هي ماسوى الوالد والولد عن أبي بكر وجماعة من المفسّرين .

[إن امرؤ هلك ليس له ولد] قال السدّيّ : يعني ليس له ولد ذكر واُنثى ، وهو موافق لمذهب الإماميّة فمعناه : إن مات رجل ليس له ولد ولا والد ، و إنّما أضمرنا فيه الوالد للإجماع ، ولانّ لفظ الكلالة ينبيء عنه فانّ الكلالة اسم للنسب المحيط بالميّت دون اللصيق و الوالد لصيق الولد كما أنّ الولد لصيق الوالد ، و الإخوة و الأخوات المحيطون بالميّت .

[وله اُخت] يعني وللميّت اُخت لأبيه و اُمّه أولأبيه ؛ لأنّ ذكر أولاد الاُمّ قد سبق في أوّل السورة [فلها نصف ماترك و هو يرثها إن لم يكن لها ولد] عنى به أنّ الاُخت إذا كانت هي الميّتة و لها أخ من أب و اُمّ أومن أب فالمال كلّه له بلا خلاف إذا لم

يكن هناك ولد ولا والد .

[فإن كانتا اثنتين] يعني إن كانت الأُختان اثنتين [فلهما الثلثان ممّا ترك] الأخ أو الأُخت من التركة .

[وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً] أي إخوة وأخوات مجتمعين لأُب وأُمّ أو لأب [فللذكر مثل حظّ الأُنثيين] .

وفي قوله سبحانه : « إن امرؤ هلك ليس له ولد و له أُخت فلها نصف ماترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » دلالة على أنّ الأخ أو الأُخت لا يرثان مع البنت لأنّه سبحانه شرط في ميراث الأخ و الأُخت عدم الولد ، و الولد يقع على الابن و البنت بلا خلاف فيه بين أهل اللغة ، وما روي من الخبر في أنّ الأخوات مع البنات عصبة خبر واحد يخالف نصّ القرآن ، وإلى هذا الّذي ذكرناه ذهب ابن عبّاس وهو المرويّ عن سادة أهل البيت عليهم السلام .

[يبيّن الله لكم] أُمور مواريثكم [أن تضلّوا] معناه : كراهة أن تضلّوا أو لئلاّ تضلّوا أي لئلاّ تخطؤوا في الحكم فيها . وقيل : معناه يبيّن الله لكم جميع الأحكام لتهتدوا في دينكم ، عن أبي مسلم [والله بكلّ شيء عليم] فائدته هنا بيان كونه سبحانه عالماً بجميع مايحتاج إليه عباده من أمر معاشهم ومعادهم على ماتوجبه الحكمة .

وقد تضمّنت الآية الّتي أنزلها الله في أوّل هذه السورة بيان ميراث الولد والوالد والآية الّتي بعدها بيان ميراث الأزواج والزوجات والإخوة والأخوات من قبل الأُمّ ، وتضمّنت هذه الآية الّتي ختم بها السورة بيان ميراث الأخوة والأخوات من الأب والأُمّ والإخوة و الإخوات من قبل الأب عند عدم الإخوة والإخوات من الأب و الأُمّ ، وتضمّن قوله سبحانه : « وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » أنّ تداني القربى سبب في استحقاق الميراث ، فمن كان أقرب رحماً وأدنى قرابة كان أولى بالميراث من الأبعد ، والخلاف بين الفقهاء في هذه المسائل وفروعها مذكور في كتب الفقه .

سورة المائدة

هي مدنيّة في قول ابن عبّاس و مجاهد ، و قال جعفر بن مبشّر و الشعبيّ : هي مدنيّة كلّها إلّا قوله : «اليوم أكملت لكم دينكم » فإنّه نزل والنبيّ (صلى الله عليه وآله) واقف على راحلته في حجّة الوداع .

عدد آيها : هي مائة وعشرون آية كوفيّ ، ثلاث وعشرون آية بصريّ ، و اثنان و عشرون في الباقين . اختلافها ثلاث : «بالعقود» و «يعفو عن كثير » غير الكوفيّ «فإنّكم غالبون» بصريّ .

فضلها : اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأ سورة المائدة اُعطي من الأجر بعدد كلّ يهوديّ ونصرانيّ يتنفّس في دار الدنيا عشر حسنات و محا عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات .

وروى العيّاشيّ بإسناده عن عيسى بن عبدالله عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً ، و إنّما يؤخذ من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ماقبلها : ولم ينسخها شيء ، لقد نزلت عليه و هو على بغلة شهباء ، و ثقل عليه الوحي حتّى وقفت و تدلّى بطنها حتّى رئيت سرّتها تكاد تمسّ الأرض ، واُغمي على رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى وضع يده على رأس شيبة بن وهب الجمحيّ ثمّ رُفع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأ علينا سورة المائدة فعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وعملنا .

و بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال : من قرأ سورة المائدة في كلّ يوم خميس لم يلبس إيمانه بظلم و لا بشرك أبداً .

وبإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال : سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول : نزلت المائدة كملاً ونزل معها سبعون ألف ملك .

تفسيرها : لمّا ختم الله سورة النساء بذكر أحكام الشريعة افتتح سورة المائدة أيضاً ببيان الأحكام و أجمل ذلك بقوله : « أوفوا بالعقود » ثمّ أتبعه بذكر التفصيل فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد و أنتم حرم ان الله يحكم ما يريد (١) .

المعنى : خاطب الله سبحانه المؤمنين فقال :

[يا أيّها الّذين آمنوا] وتقديره : يا أيّها المؤمنون و هو اسم تكريم وتعظيم [أوفوا بالعقود] أي بالعهود ، عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين .

ثمّ اختلف في هذه العهود على أقوال :

أحدها : أن المراد بها العهود الّتي كان أهل الجاهليّة عاهد بعضهم بعضاً فيها على النصرة و المؤازرة و المظاهرة على من حاول ظلمهم أو بغاهم سوءاً وذلك هو معنى الحلف ، عن ابن عبّاس ومجاهد و الربيع بن أنس و الضحّاك و قتادة و السدّيّ .

و ثانيها : أنّها العهود الّتي أخذ الله سبحانه على عباده بالإيمان به وطاعته فيما أحلّ لهم أو حرّم عليهم ، عن ابن عبّاس أيضا ، وفي رواية اُخرى قال : هو ما أحلّ وحرّم وما فرض وما حدّ في القرآن كلّه أي فلا تتعدّوا فيه ولا تنكثوا ، ويؤيّده قوله « والّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ـ إلى قوله ـ سوء الدار[١] » .

و ثالثها : أنّ المراد بها العقود الّتي يتعاقدها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الأيمان وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الحلف ، عن ابن زيد وزيد بن أسلم .

و رابعها : أنّ ذلك أمر من الله لأهل الكتاب بالوفاء بما اُخذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة و الإنجيل في تصديق نبيّنا و ما جاء به من عند الله ، عن ابن جريج و أبي صالح .

و أقوى هذه الأقوال قول ابن عبّاس : إنّ المراد بها عقود الله الّتي أوجبها الله على

---

(١) الرعد : ٢٥ .

العباد في الحلال و الحرام و الفرائض و الحدود ، و يدخل في ذلك جميع الأقوال الأُخر فيجب الوفاء بجميع ذلك إلّا ما كان عقداً في المعاونة على أمر قبيح فإنّ ذلك محظور بلا خلاف .

ثمّ ابتدأ سبحانه كلاماً آخر فقال : [اُحلّت لكم بهيمة الأنعام] و اختلف في تأويله على أقوال :

أحدها أنّ المراد به الأنعام ، و إنّما ذكر البهيمة للتأكيد كما يقال : نفس الإنسان ، فمعناه : اُحلّت لكم الأنعام الإبل و البقر والغنم ، عن الحسن وقتادة و السدّيّ و الربيع و الضحّاك .

و ثانيها أنّ المراد بذلك أجنّة الأنعام الّتي توجد في بطون اُمّهاتها إذا أشعرت و قد ذكيت الاُمّهات و هي ميتة ، فذكاتها ذكاة اُمّهاتها ، عن ابن عبّاس و ابن عمر وهو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام

و ثالثها أنّ بهيمة الأنعام وحشيّها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش ، عن الكلبيّ والفرّاء . والأولى حمل الآية على الجميع .

[إلّا ما يتلى عليكم] معناه : إلّا ما يقرأ عليكم تحريمه في القرآن و هو قوله : « حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، الآية(١) »عن ابن عبّاس و الحسن و مجاهد و قتادة و السدّيّ [غير مُحلّي الصيد و أنتم حرمٌ] من قال : إنّه حال من «أوفوا» فمعناه : أوفوا بالعقود غير محلّي الصيد و أنتم محرمون أي في حال الإحرام ، و من قال : إنّه حال من « اُحلّت لكم» فمعناه : اُحلّت لكم بهيمة الأنعام أي الوحشيّة من الظباء و البقر والحمر غير مستحلّين اصطيادها في حال الإحرام ، و من قال : إنّه حال من « يتلى عليكم» فمعناه : اُحلّت لكم بهيمة الأنعام كلّها إلّا ما يتلى عليكم من الصيد في آخر السورة غير مستحلّين اصطيادها في حال إحرامكم .

[إنّ الله يحكم ما يريد] معناه : إنّ الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما يريد تحليله و تحريم ما يريد تحريمه و إيجاب ما يريد إيجابه ، و غير ذلك من أحكامه و قضاياه فافعلوا ما أمركم به و انتهوا عمّا نهاكم عنه . و في قوله : « اُحلّت لكم بهيمة

(١) السورة : ٤ .

الأنعام » دلالة على تحليل أكلها و ذبحها و الانتفاع بها .

قوله تعالى : ياايها الذين آمنوا لاتحلوا شعائرالله ولاالشهرالحرام و لاالهدى ولاالقلائد ولاآمين البيت الحرام يبتغون فضلامن ربهم ورضوانا واذا حللتم فاصطادوا ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا و تعاونوا على البر و التقوى و لاتعاونوا على الاثم و العدوان و اتقوا الله ان الله شديد العقاب (٢) .

النزول : قال أبوجعفر الباقر عليه‌السلام : نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له : الحطم ، وقال السدّي : أقبل الحطم بن هند البكري حتّى أتى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وحده و خلّف خيله خارج المدينه فقال : إلى ما تدعو ؟ و قد كان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : لأصحابه يدخل عليكم اليوم رجل من بني ربيعة يتكلّم بلسان شيطان فلمّا أجابه النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : أنظرني لعلّي أسلم ولي من اُشاوره فخرج من عنده فقال رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : لقد دخل بوجه كافر ، و خرج بعقب غادر فمرّ بسرح من سروح المدينة فساقه و انطلق به و هو يرتجز و يقول :

قد لفّها الليل بسوّاق حطم * ليس براعي إبل و لا غنم
ولا بجزّار على ظهر و ضم * باتوانياماً وابن هند لم ينم (١)
بات يقاسيها غلام كالزلم * خدلّج الساقين ممسوح القدم (٢)

ثمّ أقبل من عام قابل حاجّاً قد قلّد هدياً فأراد رسول‌الله أن يبعث إليه فنزلت هذه الآية : «و لاآمّين البيت الحرام» و هو قول عكرمة و ابن جريج .

وقال ابن زيد : نزلت يوم الفتح في ناس يؤمّون البيت من المشركين يهلّون بعمرة فقال المسلمون : يا رسول‌الله إنّ هولاء مشركون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم فأنزل الله تعالى الآية .

المعنى : ثمّ ابتدأ سبحانه بتفصيل الأحكام فقال :

---

(١) الوضم خشبة يقطع عليها الجزار اللحم .
(٢) الزلم قداح الميسر وخدلج الساقين سمينهما .

[يا أيّها الّذين آمنوا] أي صدّقوا الله ورسوله فيما أوجب عليهم [لاتحلّوا شعائر الله] اختلف في معنى شعائر الله على أقوال :

أحدها أنّ معناه : لاتحلّوا حُرمات الله و لاتعتدوا حدود الله ، و حملوا الشعائر على المعالم أي معالم حدود الله وأمره ونهيه وفرائضه ، عن عطاء وغيره .

وثانيها أنّ معناه : لاتحلّوا حُرم الله ، وحملوا الشعائر على المعالم أي معالم حُرم الله من البلاد ، عن السدّيّ .

و ثالثها أنّ معنى شعائر الله مناسك الحجّ أي لاتحلّوا مناسك الحجّ فتضيّعوها ، عن ابن جريج و ابن عبّاس .

و رابعها ما روي عن ابن عبّاس أنّ المشركين كانوا يحجّون البيت و يهدون الهدايا ويعظمون حُرمة المشاعر و ينحرون في حجّهم ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك .

وخامسها أنّ شعائر الله هي الصفا والمروة و الهدي من البدن وغيرها ، عن مجاهد . وقال الفرّاء : كانت عامّة العرب لاترى الصفا و المروة من شعائر الله و لا يطوفون بينهما فنهاهم الله عن ذلك . وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

وسادسها أنّ المراد لاتحلّوا ما حرّم الله عليكم في إحرامكم ، عن ابن عبّاس في رواية اُخرى .

و سابعها أنّ الشعائر هي العلامات المنصوبة للفرق بين الحلّ والحرم ، نهاهم الله سبحانه أن يتجاوزوها إلى مكّة بغير إحرام ، عن أبي عليّ الجبّائيّ .

و ثامنها أنّ المعنى : لاتحلّوا الهدايا المشعرة أي المعلمة لتهدى إلى بيت الله الحرام ، عن الزجّاج و الحسين بن عليّ المغربيّ و اختاره البلخيّ .

و أقوى الأقوال هو القول الأوّل ، لأنّه يدخل فيه جميع الأقوال من مناسك الحجّ و غيرها ، و حمل الآية على ماهو الأعمّ أولى .

[ولا الشهر الحرام] معناه : ولاتستحلّوا الشهر الحرام بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من

المشركين كما قال تعالى : «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير[1]» عن ابن عبّاس و قتادة .

و اختلف في معنى الشهر الحرام هنا فقيل : هو رجب وكانت مضر تحرّم فيه القتال . و قيل : هو ذوالقعدة ، عن عكرمة . وقيل : هي الأشهر الحرم كلّها نهاهم الله عن القتال فيها ، عن الجبّائيّ و البلخيّ ، وهذا أليق بالعموم . و قيل : أراد به النسيء زيادة في الكفر ، عن القتيبيّ .

[ولا الهدي] أي و لا تستحلّوا الهدي و هو ما يهديه الإنسان من بعير أو بقرة أو شاة إلى بيت الله تقرّباً إليه و طلباً لثوابه فيكون المعنى : ولا تستحلّوا ذلك فتغصبوه أهله و لا تحولوا بينهم و بين أن يبلغوه محلّه من الحرم ، و لكن خلّوهم حتّى يبلغوا به المحلّ الّذي جعله الله له .

و قوله : [و لا القلائد] معناه : ولا تحلّوا القلائد ، وفيه أقوال :

أحدها أنّه عنى بالقلائد الهدي المقلّد ، و إنّما كرّر لأنّه أراد المنع من حلّ الهدي الّذي لم يقلّد و الهدي الّذي قلّد ، عن ابن عبّاس و اختاره الجبّائيّ .

وثانيها أنّ المراد بذلك القلائد الّتي كان المشركون يتقلّدونها إذا أرادوا الحجّ مقبلين إلى مكّة من لحاء السمر وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها إلى المشعر ، عن قتادة قال : كان في الجاهليّة إذا خرج الرجل من أهله يريد الحجّ يقلّد من السمر فلا يتعرّض له أحد ، و إذا رجع يقلّد قلادة شعر فلا يتعرّض له أحد . و قال عطاء : إنّهم كانوا يتقلّدون من لحاء شجر الحرم يأمنون به إذا خرجوا من الحرم . و قال الفرّاء : أهل الحرم كانوا يتقلّدون بلحاء الشجر و أهل غير الحرم كانوا يتقلّدون بالصوف و الشعر و غيرهما .

و **ثالثها** أنّه عنى به المؤمنين نهاهم أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم يتقلّدون به كما كان المشركون يفعلونه في جاهليّتهم . عن عطاء في رواية اُخرى و الربيع بن أنس .

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

و رابعها أنّ القلائد ما يقلّد به الهدي ، نهاهم عن حلّها لأنّه كان يجب أن يتصدّق بها ، عن أبي عليّ الجبّائيّ قال : هو صوف يفتل ويعلّق به على عنق الهدي . وقال الحسن : هو نعل يقلّد به الإبل و البقر و يجب التصدّق بها إن كانت لها قيمة . والأولى أن تكون نهياً عن استحلال القلائد فيدخل فيه الإنسان والبهيمة ، أو يكون نهياً عن استحلال حرمة المقلّد هدياً كان ذلك أو إنساناً .

[ولا آمّين البيت] أي و لا تحلّوا قاصدين البيت [الحرام] أي لا تقاتلوهم لأنّه من قاتل في الأشهر الحرم فقد أحلّ فقال : لا تحلّوا قتال الآمّين البيت الحرام أي القاصدين . و البيت الحرام بيت الله بمكّة وهو الكعبة سمّي حراماً لحرمته ، وقيل : لأنّه يحرم فيه ما يحلّ في غيره .

و اختلف في المعنيّ بذلك فمنهم من حملهم على الكفّار و استدلّ بقوله فيما بعد : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم ، الآية » و منهم من حمله على من أسلم فكأنّه نهى أن يؤخذ بعد الإسلام بذحل الجاهليّة لأنّ الإسلام يجبّ ماقبله .

[يبتغون] أي يطلبون يعني الّذين يأمّون البيت [فضلاً من ربّهم و رضواناً] أي أرباحاً في تجاراتهم من الله و أن يرضى عنهم بنسكهم على زعمهم فلا يرضى الله عنهم و هم مشركون . و قيل : يلتمسون رضوان الله عنهم بأن لا يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم من الاُمم من العقوبة في عاجل دنياهم ، عن قتادة و مجاهد . وقيل : فضلاً من الله في الآخرة و رضواناً منه فيها . وقيل : فضلاً في الدنيا و رضواناً في الآخرة . وقال ابن عبّاس : إنّ ذلك في كلّ من توجّه حاجّاً ، و به قال الضحّاك و الربيع .

و اختلف في هذا فقيل : هو منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[1] » عن أكثر المفسّرين . و قيل : لم ينسخ من هذه السورة شيء و لا من هذه الآية لأنّه لا يجوز أن يبتدأ المشركون في الأشهر الحرم بالقتال إلّا إذا قاتلوا ، عن ابن جريح و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام و روي نحوه عن الحسن . وذكر أبومسلم أنّ المراد به الكفّار

---

(١) التوبة : ٦ .

الّذين كانوا في عهد النبيّ ﷺ فلمّا زال العهد بسورة براءة زال ذلك الحظر و دخلوا في حكم قوله تعالى : « فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

و قيل : لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية «لا تحلّوا شعائر الله و لا الشهر الحرام و لا الهدي و لا القلائد » عن الشعبيّ و مجاهد و قتادة و الضحّاك و ابن زيد .

وقيل : إنّما نسخ منها قوله : « ولا الشهر الحرام ـ إلى ـ آمّين البيت الحرام» ذكر ذلك ابن أبي عروبة عن قتادة قال : نسخها قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » و قوله : «ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله »(١) وقوله : « إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (٢) » في السنة الّتي نادى فيها عليّ بالأذان ، وهو قول ابن عبّاس .

وقيل : لم ينسخ من هذه الآية إلّا «القلائد» عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

[وإذا حللتم فاصطادوا] معناه : إذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا فيها الصيد الّذي نهيتم أن تحلّوه فاصطادوه إن شئتم حينئذ ؛ لأنّ السبب المحرّم قد زال عند جميع المفسّرين .

[ولا يجرمنّكم] أي ولا يحملنّكم ، وقيل: لا يكسبنّكم [شنآن قوم] أي بغضاء قوم [أن صدّوكم] أي لأن صدّوكم أي لأجل أنّهم صدّوكم [عن المسجد الحرام] يعني النبيّ و أصحابه لمّا صدّوكم عام الحديبيّة [أن تعتدوا] ومعناه : لا يكسبنّكم بغضكم قوماً الاعتداء عليهم بصدّهم إيّاكم عن المسجد الحرام . قال أبوعليّ الفارسيّ : معناه لا تكتسبوا لبغض قوم عدواناً ولا تقترفوه .

هذا فيمن فتح «أن» ويوقع النهي في اللفظ على «الشنآن» والمعنيّ بالنهي المخاطبون كما قالوا : لا أرينّك ههنا «ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون» . ومن جعل شنآن صفة فقد أقامت الصفة مقام الموصوف ويكون تقديره : ولا يحملنّكم بغض قوم، والمعنى على الأوّل . ومن قرأ «إن صدّوكم» بكسر الألف فقد مرّ ذكر معناه . و«أن تعتدوا» معناه أن تتجاوزوا حكم الله فيكم إلى

---

(١) التوبة : ١٨ .
(٢) « : ٢٩ .

مانهاكم عنه ، نهى الله المسلمين عن الطلب بذحول الجاهليّة عن مجاهد ، وقال : هذا غير منسوخ ، وهو الأولى . وقال ابن زيد : وهو منسوخ .

[وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان] وهو استئناف كلام وليس بعطف على «تعتدوا» فيكون في موضع نصب ، أمر الله عباده بأن يعين بعضهم بعضاً على البرّ والتقوى و هو العمل بما أمرهم الله تعالى به و اتّقاء مانهاهم عنه ، ونهاهم عن أن يعين بعضهم بعضاً على الإثم وهو ترك ما أمرهم به و ارتكاب مانهاهم عنه من العدوان ، و هو مجاوزة ماحدّ الله لعباده في دينهم و فرض لهم في أنفسهم ، عن ابن عبّاس و أبي العالية و غيرهما من المفسّرين .

[واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب] هذا أمر منه تعالى بالتقوى و وعيد و تهديد لمن تعدّى حدوده و تجاوز أمره . يقول : اُحذروا معصية الله فيما أمركم الله به و نهاكم عنه فتستوجبوا عقابه وتستحقّوا عذابه ، ثمّ وصف تعالى عقابه بالشدّة لأنّه نار لايطفأ حرّها ولا يخمد جمرها نعوذ بالله منها .

قوله تعالى : حرمت عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ذكيتم وما ذبح على النصب و أن تستقسموا بالازلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم (٣) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه مااستثناه في الآية المتقدّمة بقوله : «إلّا مايتلى عليكم» فقال مخاطباً للمكلّفين :

[حرّمت عليكم الميتة] أي حرّم عليكم أكل الميتة و الانتفاع بها ، و هو كلّ ماله نفس سائلة من دوابّ البرّ وطيره ممّا أباح الله أكله أهليهما و وحشيهما فارقة روحه من غير تذكية ، فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه سمّى الجراد و السمك ميتاً فقال : ميتتان مباحتان الجراد و السمك .

[والدم] أي وحرّم عليكم الدم ، وكانوا يجعلونه في المباعر ويشوونه و يأكلونه ، فأعلم الله سبحانه أنّ الدم المسفوح أي المصبوب حرام فأمّا المتلطّخ باللحم فإنّه كاللحم ، وماكان كاللحم مثل الكبد فهو مباح ، وأمّا الطحال فقدرووا الكراهية فيه عن علي عليه السلام و ابن مسعود و أصحابهما ، و اجتمعت الإماميّة على أنّه حرام و ذهب سائر الفقهاء إلى أنّه مباح .

[ولحم الخنزير] و إنّما ذكر لحم الخنزير ليبيّن أنّه حرام بعينه لالكونه ميتة حتّى أنّه لايحلّ تناوله وإن حصل فيه ما يكون ذكاة لغيره ، وفائدة تخصيصه بالتحريم مع مشاركة الكلب إيّاه في التحريم حالة وجود الحياة وعدمها ، و كذلك السباع والمسوخ وما لايحلّ أكله من الحيوانات أنّ كثيراً من الكفّار اعتادوا أكله وألفوه أكثر مما اعتادوا في غيره .

[وما أُهلّ لغير الله به] موضع «ما» رفع وتقديره : وحرّم عليكم ما أهل لغير الله به ، وقد ذكرنا معناه في سورة البقرة . وفيه دلالة على أنّ ذبائح من خالف الإسلام لا يجوز أكله لأنّهم يذكرون عليه إسم غير الله لأنّهم يعنون به من أيّد شرع موسى أو اتّحد بعيسى أو اتّخذه إبناً ، وذلك غير الله ؛ فأمّا من أظهر الإسلام ودان بالتجسّم والتشبيه و الجبر و خالف الحقّ فعندنا لايجوز أكل ذبيحته وفيه خلاف بين الفقهاء .

[والمنخنقة] وهي الّتي يدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتخنق وتموت، عن السدّيّ . وقيل : هي الّتي تخنق بحبل الصائد فتموت ، عن الضحّاك وقتادة . وقال ابن عبّاس : كان أهل الجاهليّة يخنقونها فيأكلونها .

[والموقوذة] و هي الّتي تضرب حتّى تموت ، عن عبّاس وقتادة والسدّيّ .

[والمتردّية] وهي الّتي تقع من جبل أومكان عال أو تقع في بئر فتموت ، عن ابن عبّاس وقتادة والسدّيّ . ومتى وقع في بئر ولا يقدر على تذكيته جاز أن يطعن و يضرب بالسكّين في غير المذبح حتّى يبرد ثمّ يؤكل .

[والنطيحة] وهي الّتي ينطحها غيرها فتموت .

[وما أكل السبع] أي وحرّم عليكم ما أكله السبع بمعنى قتله السبع ، و هي

فريسة السبع ، عن ابن عبّاس وقتاده والضحّاك .

[إلّا ما ذكّيتم] يعني إلّا ما أدركتم ذكاته فذكّيتموه من هذه الأشياء ، وموضع «ما» نصب بالاستثناء ، و روي عن السيّدين الباقر و الصادق عليهما السلام أنّ أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه يتحرّك اُذنه أو ذنبه أو تطرف عينه ، وبه قال الحسن وقتادة و إبراهيم وطاوس والضحّاك و ابن زيد .

واختلف في الاستثناء إلى ماذا يرجع ؟ فقيل : إلى جميع ما تقدّم ذكره من المحرّمات سوى ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم ، عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس . وقيل : هو استثناء من التحريم لا من المحرّمات لأنّ الميتة لا ذكاة لها ، ولا الخنزير فمعناه : حرّمت عليكم سائر ما ذكر إلّا ما ذكّيتم ممّا أحلّه الله لكم بالتذكية فإنّه حلال لكم ، عن مالك وجماعة من أهل المدينة واختاره الجبّائيّ .

ومتى قيل : ما وجه التكرار في قوله : « و المنخنقة و الموقوذة » إلى آخر ما عدّد تحريمه مع أنّه افتتح الآية بقوله : « حرّمت عليكم الميتة » و الميتة تعمّ جميع ذلك و إن اختلف أسباب الموت من خنق أو تردّ أو نطح أو إهلال لغير الله به أو أكل سبع ؟

فالجواب أنّ الفائدة في ذلك أنّهم كانوا لا يعدّون الميتة إلّا ما مات حتف أنفه من دون شيء من هذه الأسباب فأعلمهم الله سبحانه أنّ حكم الجميع واحد ، وأنّ وجه الاستباحة هو التذكية المشروع فقط ؛ قال السدّيّ : إنّ ناساً من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك ولا يعدّونه ميّتاً إنّما يعدّون الميّت الّذي يموت من الوجع .

[وما ذبح على النصب] يعني الحجارة الّتي كانوا يعبدونها وهي الأوثان ، عن مجاهد وقتادة وابن جريح يعني وحرّم عليكم ما ذبح على النصب أي على اسم الأوثان . و قيل : معناه ما ذبح للأوثان تقرّباً إليها ، و اللام و « على » متعاقبان ألا ترى إلى قوله تعالى : « فسلام لك من أصحاب اليمين (١) » بمعنى عليك ، و كانوا يقرّبون و يلطّخون أوثانهم بدمائها .

قال ابن جريح : ليست النصب أصناماً إنّما الأصنام ما تصوّر و تنقش بل كانت

(١) الواقعة : ٩١ .

أحجاراً منصوبة حول الكعبة ، وكانت ثلاثمائة و ستّين حجراً ، و قيل كانت ثلاثمائة منها لخزاعة فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت ، وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة فقال المسلمون : يارسول الله كان أهل الجاهليّة يعظّمون البيت بالدم فنحن أحقّ بتعظيمه ، فأنزل الله سبحانه « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، الآية [1] » .

[وأن تستقسموا بالأزلام] موضعه رفع أي و حرّم عليكم الاستسقام بالأزلام ، و معناه طلب قسم الأرزاق بالقداح الّتي كانوا يتفأّلون بها في أسفارهم وابتداء اُمورهم وهي سهام كانت للجاهليّة مكتوب على بعضها «أمرني ربّي» وعلى بعضها «نهاني ربّي» وبعضها غفل لم يكتب عليه شيء فإذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتمّون به ضربوا على تلك القداح فإن خرج السهم الّذي عليه «أمرني ربّي» مضى الرجل في حاجته ، وإن خرج الّذي عليه «نهاني ربّي» لم يمض ، وإن خرج الّذي ليس عليه شيء أعادوها فبيّن الله تعالى أنّ العمل بذلك حرام ، عن الحسن وجماعة من المفسّرين .

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره عن الصادقين عليهما السلام أنّ الأزلام عشرة سبعة لها أنصباء ، و ثلاثة لا أنصباء لها فالّتي لها أنصباء : الفذّ والتوأم و المسبل و النافس والحلس والرقيب و المعلّى ، فالفذّ له سهم والتوأم له سهمان و المسبل له ثلاثة أسهم و النافس له أربعة أسهم و الحلس له خمسة أسهم و الرقيب له ستّة اسهم والمعلّى له سبعة أسهم ، والّتي لا أنصباء لها : الفسيح و المنيح و الوغد ، و كانوا يعمدون إلى الجزور فيجزئونه أجزاء ثمَّ يجتمعون عليه فيخرجون السهام فيدفعونها إلى رجل ، وثمن الجزور على من تخرج له الّتي لا أنصباء لها ، وهو القمار فحرّمه الله تعالى .

و قيل : هي كعاب فارس و الروم الّتي كانوا يتقامرون بها ، عن مجاهد .

وقيل : هي الشطرنج ، عن أبي سفيان بن و كيع .

[ذلكم فسق] معناه : أنّ جميع ماسبق ذكره فسق أي ذنب عظيم ، وخروج من طاعة الله إلى معصية ، عن ابن عبّاس . وقيل : إنّ « ذلكم » إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أي إنّ ذلك الاستقسام فسق ، و هو الأظهر .

---

(١) الحج : ٣٧ .

[اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم] ليس يريد يوماً بعينه بل معناه : الآن يئس الكافرون من دينكم كما يقول القائل : اليوم قد كبرت ، يريد أنّ الله تعالى حوّل الخوف الّذي كان يلحقكم من الكافرين اليوم إليهم ، ويئسوا من بطلان الإسلام و جاءكم ما كنتم توعدون به في قوله : « ليظهره على الدين كلّه » و الدين اسم لجميع ما تعبّد الله به خلقه وأمرهم بالقيام به ، ومعنى «يئسوا» انقطع طمعهم من دينكم أن تتركوه و ترجعوا منه إلى الشرك ، عن ابن عبّاس والسدّيّ وعطاء .

وقيل : إنّ المراد باليوم يوم عرفة من حجّة الوداع بعد دخول العرب كلّها في الإسلام ، عن مجاهد و ابن جريح وابن زيد ، وكان يوم جمعة ونظر النبيّ صلى الله عليه وآله فلم ير إلّا مسلماً موحّداً ولم ير مشركاً .

[فلا تخشوهم] خطاب للمؤمنين نهاهم الله أن يخشوا ويخافوا من الكفّار أن يظهروا على دين الإسلام ، و يقهروا المسلمين ويردّوهم عن دينهم [واخشون] أي ولكن اخشوني أي خافوني إن خالفتم أمري وارتكبتم معصيتي أن اُحلّ بكم عقابي ، عن ابن جريح وغيره .

[اليوم أكملت لكم دينكم] قيل فيه أقوال :

أحدها أنّ معناه : أكملت لكم فرائضي وحدودي وحلالي و حرامي بتنزيلي ما أنزلت وبياني ما بيّنت لكم فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ، و كان ذلك يوم عرفة عام حجّة الوداع ، عن ابن عبّاس و السدّيّ واختاره الجبّائيّ والبلخيّ قالوا : ولم ينزل بعد هذا على النبيّ صلى الله عليه وآله شيء من الفرائض في تحليل ولا تحريم ، و إنّه مضى بعد ذلك بإحدى وثمانين ليلة .

فإن اعترض معترض فقال : أكان دين الله ناقصاً وقتاً من الأوقات حتّى أتمّه في ذلك اليوم ؟ فجوابه أنّ دين الله لم يكن إلّا كاملاً في كلّ حال ، و لكن لمّا كان معرضاً للنسخ والزيادة فيه ونزول الوحي بتحليل شيء أو تحريمه لم يمتنع أن يوصف بالكمال إذا أمن من جميع ذلك فيه كما توصف العشرة بأنّها كاملة ، ولا يلزم أن توصف بالنقصان لمّا كانت المائة أكثر منها وأكمل .

و ثانيها أنّ معناه : اليوم أكملت لكم حجّكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجّونه

دون المشركين ولا يخالطكم مشرك ، عن سعيد بن جبير و قتادة و اختاره الطبري قال: لأنّ الله سبحانه أنزل بعده « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » قال الفرّاء : و هي آخر آية نزلت . وهذا الّذي ذكره لوصحّ لكان لهذا القول ترجيح لكن فيه خلاف .

و ثالثها أنّ معناه : اليوم كفيتكم الأعداء وأظهرتكم عليهم كما تقول : الآن كمل لنا الملك و كمل لنا ما نريد بأن كفينا ما كنّا نخافه ، عن الزجّاج .

والمرويّ عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّه إنّما اُنزل بعد أن نصب النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم منصرفه عن حجّة الوداع ، قالا : وهو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثمّ لم ينزل بعدها فريضة .

وقد حدّثنا السيّد العالم أبو الحمد مهديّ بن نزار الحسينيّ قال : حدّثنا أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله الحسكانيّ قال : أخبرنا أبو عبدالله الشيرازيّ قال : أخبرنا أبو بكر الجرجانيّ قال : حدّثنا أبو أحمد البصريّ قال : حدّثنا أحمد بن عمّار بن خالد قال : حدّثنا يحيى بن عبدالحميد الحمانيّ قال : حدّثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبديّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآية قال : الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضا الربّ برسالتي و ولاية عليّ بن أبي طالب من بعدي و قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه و انصر من نصره واخذل من خذله .

وقال عليّ بن إبراهيم في تفسيره : حدّثني أبي عن صفوان عن العلاء عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان نزولها بكراع الغميم [1] فأقامها رسول الله صلى الله عليه وآله بالجحفة . وقال الربيع بن أنس : نزلت في المسير في حجّة الوداع .

[وأتممت عليكم نعمتي] خاطب سبحانه المؤمنين بأنّه أتمّ النعمة عليهم بإظهارهم على المشركين ونفيهم عن بلادهم ، عن ابن عبّاس وقتادة . وقيل : معناه أتممت عليكم نعمتي بأن أعطيتكم من العلم والحكمة ما لم يؤت قبلكم نبيّ ولا اُمّة . وقيل: إنّ تمام النعمة دخول الجنّة .

[و رضيت لكم الإسلام ديناً] أي رضيت لكم الإسلام لأمري و الانقياد لطاعتي على ما شرعت لكم من حدوده وفرائضه ومعالمه «ديناً» أي طاعة منكم لي ، و الفائدة في هذا أنّ الله

(١) جبل اسود فى وادى الغميم منه الى مكة نحو ٢٠ ميلا .

سبحانه لم يزل يصرف نبيّه محمّداً وأصحابه في درجات الإسلام ومراتبه درجة بعد درجة ومنزلة بعد منزلة حتّى أكمل لهم شرائعه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه ، ثمّ قال : رضيت لكم الحال الّتي أنتم عليها اليوم فالزموها ولا تفارقوها .

ثمّ عاد الكلام إلى القضيّة المتقدّمة في التحريم والتحليل ، وإنّما ذكر قوله : « اليوم يئس الّذين كفروا ـ إلى قوله ـ ورضيت لكم الإسلام ديناً » اعتراضاً .

[فمن اضطرّ في مخمصة] معناه : فمن دعته الضرورة في مجاعة حتّى لا يمكنه الامتناع من أكله ، عن ابن عبّاس وقتادة والسدّيّ [غير متجانف لإثم] أي غير مائل إلى إثم وهو نصب على الحال يعني فمن اضطرّ إلى أكل الميتة وماعدّ الله تحريمه عند المجاعة الشديدة غير متعمّد لذلك ولا مختار له ولا مستحلّ له ، فإنّ الله سبحانه أباح تناول ذلك له قدر ما يمسك به رمقه بلا زيادة عليه ، عن ابن عبّاس وقتادة ومجاهد ، وبه قال أهل العراق . وقال أهل المدينة : يجوز أن يشبع منه عند الضرورة . وقيل : إنّ معنى قوله : «غير متجانف لإثم» غير عاص بأن يكون باغياً أو عادياً أو خارجاً في معصية ، عن قتادة .

[فإنّ الله غفور رحيم] في الكلام محذوف دلّ عليه ما ذكر ، والمعنى : فمن اضطرّ إلى ما حرّمت عليه غير متجانف لإثم فأكله فإنّ الله غفور لذنوبه ، ساتر عليه أكله لا يواخذه به ، وليس يريد أنّه يغفر له عقاب ذلك الأكل لأنّه أباحه له ، ولا يستحقّ العقاب على فعل المباح ، وهو رحيم أي رفيق بعباده ، ومن رحمته أباح لهم ما حرّم عليهم في حال الخوف على النفس

قوله تعالى : يسئلونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم و اذكروا اسم الله عليه و اتقوا الله ان الله سريع الحساب (٤) .

النزول : عن أبي رافع قال : جاء جبرائيل إلى النبيّ ﷺ يستأذن عليه فأذن له وقال : قد أذنّا لك يارسول الله ، قال : أجل ولكنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ، قال أبورافع : فأمرني رسول الله أن أقتل كلّ كلب بالمدينة فقتلت حتّى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها وجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني فرجعت

و قتلت الكلب فجاؤوا فقالوا : يا رسول الله صلّى الله عليك ما ذا يحلّ لنا من هذه الاُمّة الّتي أمرت بقتلها ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فاُنزل الآية فأذن رسول الله في إقتناء الكلاب الّتي يقنص بها ، و نهى عن إمساك مالا نفع فيها ، وأمر بقتل العقور ومايضرّ ويؤذي .

و عن أبي حمزة الثماليّ و الحكم بن ظهير أنّ زيد الخيل وعديّ بن حاتم الطائيّين أتيا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالا : إنّ فينا رجلين لهما ستّة أكلب تأخذ بقرة الوحش و الظباء فمنها ما يدرك ذكاته و منها ما يموت ، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحلّ لنا من هذا ؟ فأنزل الله « فكلوا ممّا أمسكن عليكم » و سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله زيد الخير .

المعنى : لمّا قدّم سبحانه ذكر المحرّمات عقّبه بذكر ما اُحلّ فقال :

[يسألونك] يا محمّد [ماذا اُحلّ لهم] معناه : أيّ شيء اُحلّ لهم ؟ أي يستخبرك المؤمنون ما الّذي اُحلّ لهم من المطاعم و المآكل ؟ وقيل : من الصيد و الذبائح [قل] يا محمّد [اُحلّ لكم الطيّبات] منها وهي الحلال الّذي أذن لكم ربّكم في أكله من المأكولات والذبائح و الصيد ، عن أبي عليّ الجبّائيّ و أبي مسلم . وقيل : ممّا لم يرد بتحريمه كتاب ولاسنّة ، و هذا أولى لما ورد أنّ الأشياء كلّها على الإطلاق و الإباحة حتّى يرد الشرع بالتحريم . وقال البلخيّ : الطيّبات ما يستلذّ .

[وما علّمتم من الجوارح] أي و اُحلّ لكم أيضاً مع ذلك صيد ما علّمتم من الجوارح أي الكواسب من سباع الطير و البهائم ، فحذف المضاف لدلالة قوله : « ممّا أمسكن عليكم» عليه ، ولأنّه جواب عن سؤال السائل عن الصيد .

وقيل : الجوارح هي الكلاب فقط ، عن ابن عمر والضحّاك و السدّيّ و هو المروي عن أئمّتنا عليهم السلام فإنّهم قالوا : هي الكلاب المعلّمة خاصّة أحلّه الله إذا أدركه صاحبه وقد قتله لقوله : « فكلوا ممّا أمسكن عليكم » .

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره بإسناده عن أبي بكر الحضرميّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن صيد البزاة والصقور والفهود والكلاب ، فقال : لاتأكل إلّا ما ذكّيت إلّا الكلاب ، فقلت : فإن قتله ؟ قال : كل فإنّ الله يقول «وما علّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله فكلوا ممّا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » ثمّ قال عليه السلام :

كلّ شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها إلّا الكلاب المعلّمة فإنّها تمسك على صاحبها ، وقال : إذا أرسلت الكلب المعلّم فاذكر اسم الله عليه فهو ذكاته و هو أن تقول : بسم الله و الله أكبر .

ويؤيّد هذا المذهب ما يأتي بعد من قوله : [مكلّبين] أي أصحاب الصيد بالكلاب ، وقيل : أصحاب التعليم للكلاب [تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله] أي تؤدّبونهنّ حتّى يصرن معلّمة ممّا ألهمكم الله بعقولكم حتّى ميّزتم بين المعلّم وغير المعلّم ، و في هذا دلالة أيضاً على أنّ صيد الكلب غير المعلّم حرام إذا لم يدرك ذكاته ، و قيل : معناه تعلّمونهنّ كما علّمكم الله ، عن السدّي . وهذا بعيد لأنّ «من» بمعنى الكاف لا يعرف في اللغة ولا تقارب بينهما لأنّ الكاف للتشبيه ومن للتبعيض .

و اختلف في صفة الكلب المعلّم فقيل : هو أن يستشلي [١] لطلب الصيد إذا أرسله صاحبه ، ويمسك عليه إذا أخذه ويستجيب له إذا دعاه ولا يفرّ منه ، فإذا توالى منه ذلك كان معلّماً ، عن سعد بن أبي وقّاص وسلمان و ابن عمر . وقيل : هو ما ذكرناه كلّه و أن لا يأكل منه ، عن ابن عبّاس و عديّ بن حاتم وعطاء والشعبيّ وطاووس و السدّيّ ، فروى عديّ بن حاتم عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إذا أكل الكلب من الصيد فلا تأكل منه فإنّما أمسك على نفسه . و قيل : حدّ التعليم أن يفعل ذلك ثلاث مرّات ، عن أبي يوسف و محمّد . و قيل : لا حدّ لتعليم الكلاب و إذا فعل ما قلناه فهو معلّم ، و يدلّ على ذلك ما رواه أصحابنا أنّه إذا أخذ كلب المجوسيّ فعلّمه في الحال فاصطاد به جاز أكل ما يقتله .

وقد تقدّم أن عند أهل البيت لا يحلّ أكل الصيد غير الكلب إلّا ما أدرك ذكاته ، ومن أجاز ذلك قال : إنّ تعلّم البازي هو أن يرجع إلى صاحبه و تعلّم كلّ جارحة من البهائم و الطير هو أن يشلى على الصيد فيستشلي و يأخذ الصيد ويدعوه صاحبه فيجيب فإذا كان كذلك كان معلّماً أكل منه أو لم يأكل ، روي ذلك عن سلمان و سعد بن أبي وقّاص و

(١) اشلى الكلب على الصيد : اغراه .

ابن عمر . و قال آخرون : ماأكل منه فلايؤكل ، رواه عن عليّ عليه السلام و الشعبيّ و عكرمة .

وقوله : [فكلوا ممّا أمسكن عليكم] أي ممّا أمسك الجوارح عليكم و هذا يقوّي قول من قال : ما أكل منه الكلب لا يجوز أكله لأنّه أمسك على نفسه ، ومن شرط في استباحة مايقتله الكلب أن يكون صاحبه قد سمّى عند إرساله فإذا لم يسمّ لم يجز له أكله إلّا إذا أدرك ذكاته وأدنى ما يدرك به ذكاته أن يجده تتحرّك عينه أو اُذنه أوذنبه ، فتذكيته حينئذ بفري الحلقوم و الأوداج .

[واذكروا اسم الله عليه] أي قبل الإرسال ، عن ابن عبّاس و الحسن و السدّيّ . وقيل : معناه اذكروا اسم الله على ذبح ماتذبحونه ، و هذاصريح في وجوب التسمية ، والقول الأوّل أصحّ .

[واتّقوا الله] أي اجتنبوا مانهاكم الله عنه فلا تقربوه واحذروا معاصيه الّتي منها أكل صيد الكلب غير المعلّم أو مالا يمسكه عليكم أوما لم يذكر اسم الله عليه من الصيد و الذبائح [إنّ الله سريع الحساب] قد مرّ تفسيره .

قوله تعالى : اليوم احل لكم الطيبات و طعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله و هو في الاخرة من الخاسرين (٥) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه في هذه الآية ما يحلّ من الأطعمة و الأنكحة إتماماً لما تقدّم فقال :

[اليوم اُحلّ لكم الطيّبات] وقدمرّ معناه ، وهذا يقتضي تحليل كلّ مستطاب من الأطعمة إلّا ماقام الدليل على تحريمه .

[و طعام الّذين اُوتوا الكتاب حِلّ لكم] اُختلف في الطعام المذكور في الآية :

فقيل : المراد به ذبائح أهل الكتاب عن أكثر المفسّرين وأكثر الفقهاء ، وبه قال جماعة من أصحابنا ، ثمّ اختلفوا فمنهم من قال : أراد به ذباحة كلّ كتابيّ ممّن اُنزل عليه التوراة و الإنجيل ، ومن دخل في ملّتهم و دان بدينهم ، عن ابن عبّاس و الحسن و عكرمة و سعيدبن المسيّب و الشعبيّ و عطاء و قتادة وأجازوا ذبائح نصارى بني تغلب . ومنهم من قال : عنى به من اُنزلت التوراة و الإنجيل عليهم أوكان من أبنائهم فأمّا من كان دخيلاً فيهم من سائر الاُمم و دان بدينهم فلا تحلّ ذبائحهم ، حكى ذلك الربيع عن الشافعيّ ، و حرّم ذبائح بني تغلب من النصارى و رووا ذلك عن عليّ عليه السلام و سعيد ابن جبير .

و قيل : المراد بطعام الّذين اُوتوا الكتاب ذبائحهم و غيرها من الأطعمة عن أبي الدرداء و عن ابن عبّاس و ابراهيم و قتادة والسدّيّ والضحّاك ومجاهد وبه قال الطبريّ و الجبّائيّ والبلخيّ وغيرهم .

وقيل : إنّه مختصّ بالحبوب ومالايحتاج فيه إلى التذكية ، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام وبه قال جماعة من الزيديّة فأمّا ذبائحهم فلا تحلّ .

[وطعامكم حلّ لهم] معناه : وطعامكم يحلّ لكم أن تطعموهم [و المحصنات من المؤمنات] معناه : واُحلّ لكم العقد على المحصنات أي العفائف من المؤمنات ، عن الحسن والشعبيّ و إبراهيم . وقيل : أراد الحرائر ، عن مجاهد واختاره أبو عليّ . فعلى هذا القول لاتدخل الإماء في الإباحة مع القدرة على طول الحرّة .

[والمحصنات من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم] وهم اليهود و النصارى واختلف في معناه فقيل : هنّ العفائف حرائر كنّ أو إماء حربيّات كنّ أو ذمّيّات ، عن مجاهد و الحسن والشعبيّ وغيرهم . وقيل : هنّ الحرائر ذمّيّات كنّ أو حربيّات .

وقال أصحابنا : لايجوز عقد نكاح الدوام على الكتابيّة لقوله تعالى : «ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمنّ (١)» و لقوله : «و لا تمسكوا بعصم الكوافر (٢)» و أوّلوا هذه

(١) البقرة : ٢٢١ .

(٢) الممتحنة : ١٠ .

الآية بأنّ المراد بالمحصنات من الّذين اُوتوا الكتاب اللاتي أسلمن منهنّ ، و المراد بالمحصنات من المؤمنات اللاتي كنّ في الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام ؛ و ذلك أنّ قوماً كانوا يتحرّجون من العقد على من أسلمت عن كفر فبيّن سبحانه أنّه لا حرج في ذلك فلهذا أفردهنّ بالذكر ، حكى ذلك أبوالقاسم البلخيّ ، قالوا : ويجوز أن يكون مخصوصاً أيضاً بنكاح المتعة و ملك اليمين ، فإنّ عندنا يجوز وطؤهنّ بكلا الوجهين على أنّه قد روى أبو الجارود عن أبي‌جعفر عليه‌السلام أنّه منسوخ بقوله : «ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمنّ» وبقوله : «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» .

وقوله : [إذا آتيتموهنّ اُجورهنّ] أي مهورهنّ و هو عوض الاستمتاع بهنّ ، عن ابن عبّاس وغيره [محصنين غيرمسافحين] يعني أعفّاء غير زانين بكلّ فاجرة ، وهومنصوب على الحال [ولا متّخذي أخدان] أي ولامتفرّدين ببغية واحدة ، خادنهاوخادنته اتّخذها لنفسه صديقة يفجر بها ، و قد مرّ معنى الإحصان و السفاح و الأخدان في سورة النساء .

[ومن يكفر بالإيمان] أي ومن يجحد ما أمر الله بالإقرار به و التصديق له من توحيد الله وعدله ونبوّة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله [فقد حبط عمله] الّذي عمله و اعتقده قربة إلى الله تعالى ، و إنّما تحبط الأعمال بأن‌لايستحقّ عليها ثواب [وهو في الآخرة من‌الخاسرين] أي الهالكين .

وقيل : المعنيّ بقوله : «ومن يكفر بالإيمان» أهل الكتاب و يكون معناه : ومن يمتنع عن الإيمان ولم‌يؤمن . وفي‌قوله : «فقدحبط عمله» هنا دلالة على أنّ حبوط الأعمال لايترتّب على ثبوت الثواب ، فإنّ الكافر لايكون له عمل‌قد ثبت عليه ثواب وإنّمايكون له عمل في الظاهر لولا كفره لكان يستحقّ الثواب عليه ، فعبّر سبحانه عن هذا العمل بأنّه حبط فهو حقيقة معناه .

قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا و ان كنتم مرضى أوعلى سفر أوجاء احد منكم من الغائط أولا

مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج و لكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦) .

المعنى : لمّا تقدّم الأمر بالوفاء بالعقود و من جملتها إقامة الصلاة و من شرائطها الطهارة بيّن سبحانه ذلك بقوله :

[يا أيّها الّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة] معناه : إذا أردتم القيام إلى الصلاة و أنتم على غير طهر ، و حذف الإرادة لأنّ في الكلام دلالة على ذلك ، ومثله قوله : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» (١) « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة (٢) » و المعنى : إذا أردت قراءة القرآن ، وإذا كنت فيهم فإذا أردت أن تقيم لهم الصلاة ، و هو قول ابن عبّاس و أكثر المفسّرين .

و قيل : معناه : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعليكم الوضوء ، عن عكرمة و إليه ذهب داود قال : و كان عليّ عليه السلام يتوضّأ لكلّ صلاة و يقرأ هذه الآية ، و كان الخلفاء يتوضّؤون لكلّ صلاة .

و القول الأوّل هو الصحيح و إليه ذهب الفقهاء كلّهم و مارووه من تجديد الوضوء فمحمول على الندب و الاستحباب .

و قيل : إنّ الفرض كان في بدء الإسلام التوضّؤ عند كلّ صلاة ثمّ نسخ بالتخفيف ، و به قال ابن عمر قال : حدّثتني الأسماء بنت زيد بن الخطّاب أنّ عبدالله بن حنظلة ابن أبي عامر الغسيل حدّثها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر بالوضوء عند كلّ صلاة فشقّ ذلك عليه فأمر بالسواك و رفع عنه الوضوء إلّا من حدث فكان عبدالله يرى أنّ فرضه على ما كان عليه فكان يتوضّأ . و روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوضّأ لكلّ صلاة فلمّا كان عام الفتح صلّى الصلاة كلّها بوضوء واحد فقال عمر بن الخطّاب : يارسول الله صنعت شيئاً ما كنت تصنعه ، قال : عمداً فعلته يا عمر .

---

(١) النحل : ٩٨ .

(٢) النساء : ١٠١ .

وقيل : إنّ هذا إعلام بأنّ الوضوء لايجب إلّا للصلاة لأنّه روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلّها حتّى أنّه لايردّ جواب السلام حتّى يتطهّر للصلاة ، ثمّ يجيب حتّى نزلت هذه الآية .

[فاغسلوا وجوهكم] هذا أمرٌ منه سبحانه بغسل الوجه ، و الغسل هو إمرار الماء على المحلّ حتّى يسيل والمسح أن يبلّ المحلّ بالماء من غير أن يسيل .

و اختلف في حدّ الوجه فالمرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام أنّه من قصاص الشعر إلى محادر شعر الذقن طولاً ، و ما دخل بين الإبهام و الوسطى عرضاً .

و قيل : حدّه ما ظهر من بشرة الإنسان من قصاص شعر رأسه منحدراً إلى منقطع ذقنه طولاً ، و ما بين الأذنين عرضاً دون ما غطّاه الشعر من الذقن و غيره ، أوكان داخل الفم و الأنف و العين فإنّ الوجه عندهم ماظهر لعين الناظر و يواجهه دون غيره كما قلناه ، و هو المرويّ عن ابن عبّاس و ابن عمرو الحسن و قتادة و الزهريّ و الشعبيّ و غيرهم ، و إليه ذهب أبوحنيفة و أصحابه .

و قيل : الوجه كلّ مادون منابت الشعر من الرأس إلى منقطع الذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ماظهر من ذلك لعين الناظر من منابت شعر اللحية و العارض ، و ما بطن و ما كان منه داخل الفم و الأنف ، و ما أقبل من الأذنين على الوجه ، عن أنس ابن مالك و أمّ سلمة و عمّار و مجاهد و سعيد بن جبير و جماعة و إليه ذهب الشافعيّ .

[وأيديكم إلى المرافق] أي و اغسلوا ذلك أيضاً ، والمرافق جمع مرفق و هو المكان الّذي يرتفق به أي يتّكأ عليه من اليد . قال الواحديّ : كثير من النحويّين يجعلون «إلى» هنا بمعنى «مع» ويوجبون غسل المرفق وهو مذهب أكثر الفقهاء . وقال الزجّاج : لو كان معناه مع المرافق ، لم يكن في المرافق فائدة وكانت اليد كلّها يجب أن تغسل ، لكنّه لمّا قيل : «إلى المرافق» اقتطعت في الغسل من حدّ المرفق فالمرافق حدّ ما ينتهى إليه في الغسل منها ، والظاهر على ماذكره .

لكنّ الأمّة أجمعت على أنّ من بدأ من المرفقين في غسل اليدين صحّ وضوؤه

و اختلفوا في صحّة وضوء من بدأ من الأصابع إلى المرافق .

و أجمعت الأُمّة أيضاً على أنّ من غسل المرفقين صحّ وضوؤه و اختلفوا في من لم يغسلها هل يصحّ وضوؤه ؟ وقال الشافعيّ : لا أعلم خلافاً في أنّ المرافق يجب غسلها .

و ممّا جاء في القرآن «إلى» بمعنى «مع» قوله تعالى : « من أنصاري إلى الله » (١) أي مع الله ، و قوله : « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » (٢) أي مع أموالكم ، و نحوه قول امرىء القيس :

له كفل كالدعص بلّله الندى * إلى حارك مثل الرتاج المضبّب

وفي أمثال ذلك كثرة .

[وامسحوا برؤوسكم] وهذا أمرٌ بمسح الرأس والمسح أن تمسح شيئاً بيدك كمسح العرق عن جبينك ، و الظاهر لا يوجب التعميم في مسح الرأس لأنّ من مسح البعض يسمّى ماسحاً ، و إلى هذا ذهب أصحابنا قالوا : يجب أن يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح ، و به قال ابن عمرو إبراهيم و الشعبيّ ، و هو مذهب الشافعيّ . وقيل : يجب مسح جميع الرأس ، و هو مذهب مالك . و قيل : يجب مسح ربع الرأس فإنّ رسول الله كان يمسح على ناصيته و هي قريب من ربع الرأس ، عن أبي حنيفة ، ورويت عنه روايات في ذلك لا نطول بذكرها .

[وأرجلكم إلى الكعبين] اُختلف في ذلك فقال جمهور الفقهاء : إنّ فرضهما الغسل . و قالت الإماميّة : فرضهما المسح دون غيره ، وبه قال عكرمة . و قد روي القول بالمسح عن جماعة من الصحابة و التابعين كابن عبّاس وأنس و أبي العالية والشعبيّ ، و قال الحسن البصريّ بالتخيير بين المسح و الغسل و إليه ذهب الطبريّ و الجبّائيّ إلّا أنّهما قالا : يجب مسح القدمين و لا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم . قال ناصر الحقّ ـ من جملة أئمّة الزيديّة ـ : يجب الجمع بين المسح و الغسل .

و روي عن ابن عبّاس أنّه وصف وضوء رسول الله ﷺ فمسح على رجليه . وروي عنه أنّه قال : إنّ في كتاب الله المسح و يأبى الناس إلّا الغسل ، و قال : الوضوء غسلتان و

(١) آل عمران : ٥٢ . الصف : ١٤ .
(٢) النساء : ٢ .

مسحتان . وقال قتادة : فرض الله غسلتين و مسحتين . وروى ابن عليّة عن حميد عن موسى ابن أنس أنّه قال لأنس ونحن عنده : إنّ الحجّاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال : اغسلوا وجوهكم و أيديكم و امسحوا برؤوسكم ، و إنّه ليس شيء من بني آدم أقرب من خبثه من قدميه فاغسلوا بطونهما و ظهورهما و عراقيبهما ؛ فقال أنس : صدق الله و كذب الحجّاج قال الله تعالى : « وامسحوا برؤوسكم و أرجلكم إلى الكعبين » قال : فكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما . و قال الشعبيّ : نزل جبرائيل عليه السلام بالمسح ثمّ قال : إنّ في التيمّم يمسح ما كان غسلاً و يلقي ما كان مسحاً . و قال يونس : حدّثني من صحب عكرمة إلى واسط قال : فما رأيته غسل رجليه إنّما كان يمسح عليهما .

و أمّا ما روي عن سادة أهل البيت عليهم السلام في ذلك فأكثر من أن يحصى فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازيّ عن فضالة عن حمّاد بن عثمان عن غالب بن هذيل قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن المسح على الرجلين ، فقال : هو الّذي نزل به جبرائيل . و عنه عن أحمد بن محمّد قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن المسح على القدمين كيف هو ؟ فوضع بكفّه على الأصابع ثمّ مسحها إلى الكعبين فقلت له : لو أنّ رجلاً قال بإصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين ؟ قال : لا إلّا بكفّه كلّها .

أمّا وجه القراءتين في « أرجلكم » فمن قال : بالغسل حمل الجرّ فيه على أنّه عطف على « برؤوسكم » و قال : المراد بالمسح هو الغسل . و روي عن أبي زيد أنّه قال : المسح خفيف الغسل ، فقد قالوا : تمسّحت للصلاة ، وقوّى ذلك بأنّ التحديد و التوقيت إنّما جاء في المغسول و لم يجئ في الممسوح ، فلمّا وقع التحديد في المسح علم أنّه في حكم الغسل لموافقته الغسل في التحديد ، وهذا قول أبي عليّ الفارسيّ . و قال بعضهم : هو خفض على الجوار كما قالوا : جحر ضبّ خرب ، و «خرب» من صفات الجحر لا الضبّ و كما قال امرؤ القيس :

كأنّ ثبيراً في عرانين وبله * كبير أناس في بجاد مزمّل

و قال الزجّاج : إذا قرئ بالجرّ يكون عطفاً على الرؤوس فيقتضي كونه ممسوحاً ،

و ذكر عن بعض السلف أنّه قال : نزل جبرائيل بالمسح والسنّة الغسل،قال : و الخفض على الجوار لايجوز في كتاب الله تعالى ، و لكنّ المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل.
و قال الأخفش : هو معطوف على «الرؤوس» في اللفظ مقطوع عنه في المعنى كقول الشاعر : «علّفتها تبناً و ماءً بارداً» المعنى : و سقيتها ماء بارداً .

و أمّا القراءة بالنصب فقالوا فيه : إنّه معطوف على «أيديكم» لأنّا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح و لما روي أنّ النبيّ ﷺ رأى قوماً توضّؤوا و أعقابهم تلوح ، فقال : ويلٌ للعراقيب من النار ، ذكره أبوعليّ الفارسيّ .

و أمّا من قال : بوجوب مسح الرجلين حمل الجرّ و النصب في « و أرجلكم » على ظاهره من غير تعسّف؛ فالجرّ للعطف على الرؤوس والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور و أمثال ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى قالوا : «ليس بقائم ولا ذاهباً » و أنشد :

معاوي إنّنا بشر فأسجح * فلسنا بالجبال و لا الحديدا

و قال تأبّط شرّاً :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا * أوعبد رب أخاعوف بن مخراق

فعطف بعبد على موضع «دينار» فإنّه منصوب على المعنى .

وأبعد من ذلك قول الشاعر :

جئني بمثل بني بدر لقومهم * أو مثل إخوة منظور بن سيّار

فإنّه لمّا كان معنى جئني هات أو اُحضر لي مثلهم عطف بالنصب على المعنى .

و أجابوا الأوّلين عمّا ذكروه في وجه الجرّ و النصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجاز ، قالوا : ما ذكروه أوّلاً من أنّ المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه :

أحدها أنّ فائدة اللفظين في اللغة و الشرع مختلفة في المعنى و قد فرّق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاءِ المسوحه ، فكيف يكون معنى المسح و الغسل واحداً ؟

وثانيها أنّ «الأرجل» إذا كان معطوفة على «الرؤوس» ، و كان الفرض في الرؤوس المسح الّذي ليس بغسل بلا خلاف فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك لأنّ حقيقة العطف تقتضي ذلك .

وثالثها أنّ المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بمارووه عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه توضّأ و غسل رجليه ؛ لأنّ على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسمّوا المسح غسلاً ، و في هذا مافيه .

فأمّا استشهاد أبي زيد بقولهم : « تمسّحت للصلاة » فالمعنى فيه أنّهم لمّا أرادوا أن يخبروا عن الطهور بلفظ موجز ، ولم يجز أن يقولوا : تغسّلت للصلاة،لأنّ ذلك تشبيه بالغسل قالوا بدلاً من ذلك : «تمسّحت» لأنّ المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً ، فتجوّزوا لذلك تعويلاً على أنّ المراد مفهوم ؛ و هذا لا يقتضي أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل .

و أمّا ما قالوه في تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى رحمه‌الله في الجواب عنه أنّ ذلك لايدلّ على الغسل ؛ وذلك لأنّ المسح فعل قد أوجبته الشريعة كالغسل فلاينكر تحديده كتحديد الغسل ، و لو صرّح سبحانه فقال : و امسحوا أرجلكم و انتهوا بالمسح إلى الكعبين ، لم يكن منكراً .

فإن قالوا : إنّ تحديد اليدين لمّا اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضي الغسل .

قلنا : إنّا لم نوجب الغسل في اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما ، و ليس كذلك في الرجلين .

و إن قالوا : عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام .

قلنا : هذا لايصحّ لأنّ الأيدي محدودة و هي معطوفة على الوجوه الّتي ليست في الآية محدودة فإذاجاز عطف الأرجل وهي محدودة على الرؤوس الّتي ليست محدودة ، وهذا أشبه ممّا ذكرتموه لأنّ الآية تضمّنت ذكر عضو مغسول غير محدود و هو الوجه و عطف

عضو مغسول محدود عليه ثمّ استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود فيجب أن يكون الأرجل ممسوحة و هي محدودة معطوفة على الرؤوس دون غيره ليتقابل الجملتان في عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود ، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود .

و أمّا من قال : إنّه عطف على الجوار ، فقد ذكرنا عن الزجّاج أنّه لم يجوّز ذلك في القرآن ، و من أجاز ذلك في الكلام فإنّما يجوّز مع فقد حرف العطف . و كلّ ما استشهد به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذلك ، وأيضاً فإنّ المجاورة إنّما وردت في كلامهم عند ارتفاع اللبس و الأمن من الاشتباه فإنّ أحداً لايشتبه عليه أنّ «خرباً» لايكون من صفة الضبّ ولفظة «مزمّل» لا يكون من صفة البجاد ، وليس كذلك «الأرجل» فإنّها تجوز أن تكون ممسوحة كالرؤوس، وأيضاً فإنّ المحقّقين من النحويّين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزاً في كلام العرب ، و قالوا في «جحر ضبّ خرب» : إنّهم أرادوا خرب جحره فحذف المضاف الّذي هو جحر و اُقيم المضاف إليه ـ وهو الضمير المجرور ـ مقامه وإذا ارتفع الضمير استكن في خرب ، و كذلك القول في «كبير اُناس في بجاد مزمّل» فتقديره: مزمّل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة ، و هذا واضح لمن تدبّره .

و أمّا من جعله مثل قول الشاعر : «علّفتها تبناً و ماءً بارداً» كأنّه قدّر في الآية «اغسلوا أرجلكم» فقوله أبعد من الجميع لأنّ مثل ذلك لو جاز في كتاب الله تعالى على ضعفه و بعده في سائر الكلام فإنّما يجوز إذا استحال حمله على ظاهره ، و أمّا إذا كان الكلام مستقيماً و معناه ظاهراً فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذّ البعيد ؟

وأمّا ماقاله أبو عليّ في القراءة بالنصب على أنّه معطوف على «الأيدي» فقد أجاب عنه المرتضى رحمه‌الله بأن قال : جعل التأثير في الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد فنصب «الأرجل» عطفاً على الموضع أولى من عطفها على «الأيدي» و«الوجوه» على أنّ الجملة الاُولى المأمور فيها بالغسل قد نقضت و بطل حكمها باستئناف الجملة الثانية ، و لا يجوز بعد انقطاع حكم جملة الاُولى أن تعطف على ما قبلها؛ فإنّ ذلك يجري مجرى قولهم: «ضربت زيداً و عمراً و أكرمت خالداً و بكراً» فإنّ ردّ بكر إلى خالد في الإكرام هو الوجه في

الكلام الّذي لا يسوغ سواه و لايجوز ردّه إلى الضرب الّذي قد انقطع حكمه و لوجاز ذلك أيضاً لترجّح ماذكرناه لتطابق معنى القراءتين و لايتنافيان .

فأمّا ما روي في الحديث أنّه ﷺ قال : ويل للعراقيب من النار، و غير ذلك من الأخبار الّتي رووها عن النبيّ ﷺ أنّه توضّأ وغسل رجليه،فالكلام في ذلك أنّه لايجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الّذي لا يوجب علماً ، و إنّما يقتضي الظنّ .

على أنّ هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت في كتبهم و نقلت عن شيوخهم مثل ما روي عن أوس بن أوس أنّه قال : رأيت النبيّ ﷺ توضّأ و مسح على نعليه ثمّ قام فصلّى . و عن حذيفة قال : أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال عليها ثمّ دعا بماء فتوضّأ و مسح على قدميه ، وذكره أبوعبيدة في غريب الحديث،إلى غير ذلك ممّا يطول ذكره . وقوله : ويل للعراقيب من النار،فقد روي فيه أنّ قوماً من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام فيتشرشر البول على أعقابهم و أرجلهم فلا يغسلونها و يدخلون المسجد للصلاة ، وكان ذلك سبباً لهذا الوعيد .

و أمّا الكعبان فقد اختلف في معناهما فعند الإماميّة هما العظمان الناتئان في ظهر القدم عند مقعد الشراك و وافقهم في ذلك محمّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة و إن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع . وقال جمهور المفسّرين والفقهاء : الكعبان هما عظما الساقين . قالوا: ولو كان كما قالوه لقال سبحانه : وأرجلكم إلى الكعاب ، و لم يقل : إلى الكعبين؛ لأنّ على ذلك القول يكون في كلّ رجل كعبان .

[و إن كنتم جنباً فاطّهروا] معناه : إن كنتم جنباً عند القيام إلى الصلاة فتطهّروا بالاغتسال ، و هو أن تغسلوا جميع البدن . و الجنابة إنّما تكون بإنزال الماء الدافق على كلّ حال أو بالتقاء الختانين وحدّه غيبوبة الحشفة في الفرج سواء كان معه إنزال أو لم يكن .

[وإن كنتم مرضى أو على سفر[١] أو جاء أحد منكم من الغائط] والغائط هو المكان الغائر المطمئنّ وهو كناية عن الحدث ، لأنّ المعتاد عندهم أنّ من يريده يذهب إليه ليواري شخصه عن أعين الناس .

[أو لا مستم النساء] وملامسة النساء مماسّة بشرة الرجل بشرة المرأة وهي كناية عن الجماع و مثل هذه الكنايات من الآداب القرآنيّة ؛ إذ التصريح في مثل هذه الموارد مستهجن و مراعاة الأدب من محسّنات الكلام والمتكلّم ؛ قال أيّوب : « ربّ إنّي مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين [٢] » فقد تأدّب من وجهين : أحدهما أنّه لم يقل : أمسستني بالضرّ ، والآخر لم يقل : ارحمني ، بل عرّض تعريضاً فقال : « أنت أرحم الراحمين » قال إبراهيم : « وإذا مرضت فهو يشفين [٣] » ولم يقل : إذا مرضتني ، حفظاً للأدب .

و كما أنّه يلزم حفظ الأدب في الأقوال كذا يلزم مراعاته في الأفعال والأعمال والحركات ، وحقيقة الأدب حفظ السرّ وقبول سنّة صاحب الشريعة ، ولمّا كان حبّ الدنيا الّذي هو الداء المهلك غلب على الطباع قلّ المؤدّب و المتأدّب ، و اصطلحا في الدهنة كي لا ينكشف فضائحهم فامتنعوا عن تأديب بعضهم بعضاً ، فقلّ الدواء و الطبيب و كثر المرض والمرضى .

[فلم تجدوا ماءً] والمراد عدم التمكّن من استعماله ؛ لأنّ ما لا يتمكّن من استعماله كالمفقود .

[فتيمّموا صعيداً طيّباً] أي اقصدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً . والصعيد هو وجه الأرض تراباً أو غيره ، سمّي صعيداً لكونه صاعداً ، والطيّب بمعنى الطاهر .

[فامسحوا بوجوهكم و أيدكم منه] أي من ذلك الصعيد ، والمعنى : بعد وضعهما على الصعيد إلى الوجوه والأيدي من غير أن يتخلّلها ما يوجب الفصل ، و عند الجماعة

---

(١) هنا ينتهى الساقط من الاصل .

(٢) الانبياء : ٧٣ ، ولفظ الاية هكذا : «وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين » :

(٣) الشعراء : ٨٠ .

مسح الأيدي إلى المرفقين ؛ قالوا : لأنّه بدل من الوضوء فيقدّر بقدره . وعندنا مسح الأيدي من الزندين .

[ما يريد الله] بالأمر بالطهارة [ليجعل عليكم من حرج] ويضيق عليكم في الدين [ولكن يريد ليطهّركم] لتكونوا منظّفون و مطهّرون ، أو المراد : يريد ليطهّركم من الذنوب ؛ فإنّ الطهارة و الوضوء مكفّرة لها كما روي أنّ رسول الله قال : أيّما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثمّ غسل كفّيه نزلت خطيئة كفّيه مع أوّل قطرة فإذا تمضمض نزلت خطيئة لسانه و شفتيه مع أوّل قطرة وإذا غسل وجهه و يديه سلم من كلّ ذنب هو عليه .

أقول : ـ إن صحّ الخبر ـ لعلّ المراد من الذنوب الصغائر .

و قيل . المعنى في قوله : «ولكن يريد ليطهّركم» أي يريد أن يطهّركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء .

[وليتمّ] بشرعه وحكمه [نعمته عليكم] في الدين وبرخصه وعزائمه ـ والرخصة ما شرّع نباءً على الاختيار والعزيمة ما شرّع إصالة ـ مثل أن تمّم سبحانه نعمته بإباحته لكم التيمّم و جعله سبحانه الصعيد لكم طهوراً عوض الوضوء و الغسل رخصة لكم منه تعالى [لعلّكم تشكرون] أي لتشكروا الله على نعمته وهي ما أمركم به ونهاكم عنه .

قال الطبرسيّ : وتضمّنت هذه الاية أحكام الوضوء والغسل والتيمّم ومسائلها المتفرّعة منها مبسوطة في كتب الفقه .

واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور (٧) .

قال سبحانه : «نعمة الله » ولم يقل : نعم الله ، لأنّه ذهب مذهب الجنس في ذلك وجملة النعم تسمّى نعمة كما أنّ قطاعاً من الأرض تسمّى أرضاً .

وقوله : [واذكروا] مشعر لسبق النسيان فكيف نسيانها مع كثرتها وهي متوالية و متواترة علينا ؛ وذلك أنّها بكثرتها و تعاقبها صارت كالأمر المعتاد فصارت غلبة ظهورها

و كثرتها من الحياة والصحّة والعقل والهداية و الصون عن الآفات سبباً لوقوعها في محلّ النسيان وهو مثل قولهم : سبحان من احتجب عن العقول لشدّة ظهوره و اختفى عنها بكمال نوره ، فالنعمة موجبة للانقياد والقبول لمراتب التكليف و العبوديّة والسبب الآخر بكونهم منقادين بأوامر الله .

قوله تعالى : [وميثاقه الّذي واثقكم به] والمواثقة : المعاهدة .

و للمفسّرين في تفسير هذا الميثاق وجوه قيل : المراد هو المواثيق الّتي جرت بين رسول الله وبينهم على البيعة والسمع و الطاعة في المحبوب و المكروه ، مثل مبايعته مع الأنصار في أوّل الأمر ومبايعته عامّة المؤمنين تحت الشجرة ، وأضاف الميثاق مع الرسول إلى نفسه سبحانه و ذلك مثل قوله : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله(١) » ومثل قوله : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله » (٢) .

قيل ـ والقائل ابن عبّاس ـ : هو الميثاق الّذي أخذه الله على بني إسرائيل حين أخذ منهم العهد بالعمل بالتوراة وبكلّ مافيها ، فلمّا كان من جملتها البشارة بمقدم محمّد صلى الله عليه وآله لزمهم الإقرار بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله .

وقال الكلبيّ ومجاهد ومقاتل : هو الميثاق الّذي أخذه الله منهم حين أخرجهم من ظهر آدم و أشهدهم على أنفسهم : « ألست بربّكم » ؟

فإن قيل : إنّ بني آدم لايذكرون هذا العهد و الميثاق فكيف يؤمرون بحفظه ؟ فإنّه لمّا أخبر الله بأنّه كان ذلك حاصلاً فقد حصل القطع بحصوله فحينئذ يحسن أن يأمرهم بالوفاء بذلك العهد .

وقال السدّيّ : المراد بالميثاق الدلائل العقليّة والشرعيّة الّتي نصبها الله تعالى على التوحيد و الشرائع ، وهو اختيار أكثر المتكلّمين .

[إذ قلتم سمعنا وأطعنا] ظرف «لواثقكم به» وفائدة التقييد به وجوب مراعاته بتذكير قولهم [واتّقوا الله] من المخالفة [إنّ الله عليم بذات الصدور] من الصدور المنشرحة والصدور

---

(١) النساء : ٨٠ .

(٢) الفتح : ١٩ .

المريضة فاعرض بنفسك على كتاب الله قال الله : « ونهى النفس عن الهوى [1] » فهل انتهيت ؟ قال الله : « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة [2] » فهل تداركت لذلك اليوم ؟ وليس هذا الإهمال إلّا لضعف الداعي فإنّ الباعث القويّ هو الخوف من الله وذلك قليل .

قال صلى الله عليه وآله : رأس الحكمة مخافة الله قال الله : وعزّتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإذا أمنني في الدنيا أخفته في القيامة وإذا خافني في الدنيا أمنته في القيامة . والخوف سوط يسوق العبد إلى السعادة وعلاج قلّة الخوف مشاهدة أحوال الأنبياء والكمّلين بسماع ذلك مثل أنّ داود بسبب ترك أولى ضلّ أربعين يوماً أبداً باكياً لا يرفع رأسه حتّى نبت المرعى من دموعه فحينئذٍ العاقل يعلم أنّه أحقّ بالخوف منهم فيقوى خوفه وكلّنا نزعم و ندّعي أنّنا خائفين ولكن لسنا بصادقين لانّ للخوف آثاراً فمن آثاره الزهد وعدم علاقة الدنيا ، وللزهد أيضاً درجات :

أحدها أن يزهد ونفسه مائلة إلى الدنيا ولكنّه يجاهدها فهذا بداية الزهد وهو متزهّد .

الثاني أن يتنفّر عن الدنيا ولا يميل إليها لعلمه بأنّ الجمع بينها وبين نعم الآخرة غير ممكن ، وهذا هو الزهد .

أي بما تضمرونه في صدوركم و المراد بالصدور ههنا القلوب و إنّما قال : ذات الصدور ، على لفظ التأنيث لأنّ المراد بذلك المعاني الّتي تحلّ القلوب ولم يقل : ذوات ، لينبىء عن التفصيل في كلّ ذات .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ان لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (٨) وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر عظيم (٩) و الذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٠) .

---

(١) النازعات : ٤٠ .

(٢) البقرة : ٢٥٤ .

لمّا ذكر سبحانه الوفاء بالعهود و الميثاق بيّن مايلزم الوفاء به فقال :

[يا أيّها آمنوا كونوا قوّامين لله] مقيمين لأوامره مراعين لحقوقها [شهداء بالقسط] و العدل و الحقّ مبيّنين دين الله وحججه لانّ الشاهد يبيّن ماشهد عليه.وقيل : معناه كونوا من أهل العدل الّذين حكم الله بأنّ مثلهم يكونون شهداء علي الناس يوم القيامة .

[ولا يجرمنّكم شنآن قوم] قال الزجّاج : من حرّك النون من شنآن أراد بغض قوم ومن سكّن أراد بغيض قوم على أنّ الشنآن محرّكة مصدر و الشنآن بالسكون صفة .

[على أن لاتعدلوا]أي لايحملنّكم بغضكم إيّاهم،وعلى القول الآخر لايحملنّكم بغيض قوم و عدوّ قوم على أن تجوروا عليهم في حكمكم فيهم ولا تعدلوا في اُمورهم فتجوروا في سيرتكم عليهم .

[اعدلوا] و اعملوا بالعدل أيّها المؤمنون في أوليائكم و أعدائكم [هو أقرب للتقوى] أي العدل أقرب للتقوى .

[و اتّقوا الله] وخافوا عقابه بفعل الطاعات و اجتناب السيّئات [إنّ الله خبير]و عالم [بما تعملون] أي بأعمالكم فيجازيكم عليها .

[وعدالله الّذين آمنوا] وصدّقوا بوحدانيّة الله وأقرّوا بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله [وعملوا الصالحات] من الواجبات والمندوبات [لهم مغفرة] لذنوبهم و المراد به التغطية والستر [وأجر عظيم] يريد ثواباً عظيماً .

ووعد الله لايقع فيه الخلف لأنّ دخول الخلف إنّما يكون إمّا للجهل حيث ينسى وعده و إمّا للعجز حيث لايقدر على الوفاء بوعده وإمّا للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء وإمّا للحاجة فإذا كان الله منزّهاً عن كلّ هذه الوجوه كان دخول الخلف في وعده محالاً فالإخبار بالوعد مثل الإتيان بالموعود به بل أوكد،وهذا الوعد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت .

ثمّ ذكر وعيد الكفّار فقال : [و الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا اُولئك أصحاب الجحيم] .

قال الرازيّ : هذه الآية نصّ قاطع في أنّ الخلود ليس إلّا للكفّار لانّ قوله : «اُولئك أصحاب الجحيم» يفيد الحصر والمصاحبة يقتضي الملازمة .

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذهم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم و اتقوا الله و على الله فليتوكل المؤمنون (١١)

النزول : قيل : إنّ المشركين في أوّل الأمر كانوا غالبين و المسلمين كانوا مقهورين وكان المشركون أبداً يريدون إيقاع البلاء والنهب بالمسلمين والله تعالى كان يمنعهم عن مطلوبهم إلى أن قوي الإسلام و عظمت شوكة المسلمين فقال :

[اذكروا نعمة الله عليكم إذهمّ قوم] و هم المشركون [أن يبسطو إليكم أيديهم] بالايذاء و القتل [فكفّ] الله بلطفه أيدي الكفّار [عنكم] أيّها المسلمون و مثل هذه الإنعام يوجب عليكم أن تتّقوا معاصيه .

ثمّ قال : [و اتّقوا الله وعلى الله فليتوكّل المؤمنون] أي كونوا مواظبين على طاعته .

و قيل في وجه النزول : إنّ الآية نزلت في وقعة خاصّة قال ابن عبّاس والكلبيّ و مقاتل : كان النبيّ ﷺ بعث سريّة إلى بني عامر فقتلوا ببئر معونة إلّا ثلاثة نفر أحدهم عمرو بن اُميّة الضمريّ، وانصرف هو و آخر معه إلى النبيّ ﷺ ليخبراه خبر القوم فلقيا رجلين من بني سليم معهما أمان من النبيّ ﷺ فقتلاهما و لم يعلما أنّ معهما أماناً فجاء قومهما يطلبون الدية فخرج النبيّ ﷺ ومعه عليّ عليه السلام و بعض الأصحاب حتّى دخلوا على بني النضير ـ و قد كانوا عاهدوا النبيّ على ترك القتال و على أن يعينوه في الديات ـ فقال النبيّ ﷺ: رجل من أصحابي أصاب رجلين و معهما أمان منّي فلزمني ديتهما فاُريد أن تعينوني فقالوا : اجلس حتّى نطعمك و نعطيك ما تريد . ثمّ همّوا بالفتك به وبأصحابه. فنزل جبرئيل و أخبر بذلك فقام رسول الله ﷺ في الحال مع أصحابه و خرجوا فقال اليهود : إنّ قدورنا تغلي. فأعلمهم الرسول بما نزل من الوحي ، و قيل : بل ألقوا حجراً عليه فأخذه جبرئيل .

و قيل : إنّ الرسول نزل منزلاً وتفرّق الناس عنه وعلّق رسول الله سيفه بشجرة فجاء أعرابيّ وسلّ سيف رسول الله فأقبل عليه و قال: من يمعنك منّي؟ قال ﷺ : الله، قالها ثلاثاً فأسقطه جبرئيل من يده فأخذه رسول الله ﷺ و قال : من يمنعك منّي؟ فقال : لا أحد .

و قيل : إنّ المسلمين قاموا إلى صلاة الظهر بالجماعة و ذلك بعسفان غزوة ذي أنمار فلمّا صلّوا ندم المشركون و قالوا : ليتنا أوقعنا بهم في أثناء الصلاة! فقيل لهم : إنّ للمسلمين بعدها صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم و آبائهم ـ يعنون صلاة العصر ـ فهمّوا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها فنزل جبرئيل بصلاة الخوف .

[واتّقوا الله] أي راعوا حقوق شكر النعم عطف على «اُذكروا» [وعلى الله] لا على غيره [فليتوكّل المؤمنون] فإنّه يكفيهم في إيصال كلّ خير و دفع كلّ شرّ، و التوكّل هو الإعتصام بالله في جميع الاُمور و محلّه القلب و الحركة بالظاهر لاتنافي توكّل القلب بعد ماتحقّق للعبد أنّ التقدير من قبل الله .

و أعلى مراتب التوكّل أن يكون بين يدي الله كالميّت بين يدي الغاسل تحرّكه القدرة الأزليّة و هو الّذي قوي يقينه ، ألاترى إلى قصّة إبراهيم ونمرود ؟ حين أراد أن يلقاه في النار فلمّا رموه في النار جاءه جبرئيل و هو في الهواء فقال : ألك حاجة؟ قال إبراهيم : أمّا إليك فلا ، وفاه بقوله : «حسبي الله ونعم الوكيل» .

و من يكن الله حسبه و كافيه فقد فاز فوزاً عظيماً و قد قال الله : « أليس الله بكاف عبده [1] » فطالب الكفاية بغيره مكذّب بالآية .

قال ﷺ : لو أنّ العبد يتوكّل على الله حقّ توكّله لجعله كالطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً ؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام : أيّها الناس لا يشغلكم المضمون في الرزق عن المعروض عليكم من العمل .

و المتوكّل لا يسأل ولا يردّ و لا يمسك خوف الفقر ويجعل نفسه بين يدي الله كالميّت

(١) الزمر : ٣٦ .

بين يدي الغاسل يقلّبه حيث يشاء سواء كان شدّة أو رخاء فإنّ ما قضاه الله له خير له. و يكفيك في تفاوت الدرجة حال إبراهيم وهو في كفّة المنجنيق وحال يوسف و هو في السجن حيث قال : اُذكرني عند ربّك ، فلبث في السجن بضع سنين، وقد جعل الله النار على إبراهيم برداً و سلاماً والأرض ورداً ورياحين .

و التوكّل من أعلى درجة المقرّبين و هو صعب بسبب تخليص الذهن والخاطر بأنّ الأسباب غير مؤثّر في إيجاد الأمر مشكل بل الغالب يزعمون بالاشتراك كما يقولون : لولا فلان لقتلني فلان . وتخليص الذهن عن هذه المشاركة أمر صعب .

و التفويض أوسع معنى من التوكّل فإنّ المفوّض أسلم وجوده لله يفعل به ما يشاء من غير أن يخطر بباله مراده بخلاف المتوكّل فإنّه يطالب من الله أن يقوم بمراده فيجعله وكيلاً في إصلاح أمره و مراده فالتوكّل من أعلى درجات المقرّبين و المؤمن لا يكون كاملاً إلّا أن يتحلّى بهذه الحلية و يسير في طريق الحقّ بسيرة هذه الفضيلة و السالك الّذي هو في السلوك إذا كان عارياً عن هذه السيرة فهو ناقص في كلّ فضيلة بل خال عنها طالب للشهرة .

قيل : إنّه دخل حكيم على رجل فرأى داراً متجدّدة و فرشاً مبسوطاً و رأى صاحبها خالياً من الفضل و الأخلاق الحسنة فتنحنح الحكيم و بزق على وجه الرجل فقال الرجل : ماهذا السفه أيّها الحكيم؟ فقال : بل هو عين الحكمة لأنّ البصاق لزق إلى أخسّ ما كان في الدار ولم أرفي دارك أخسّ منك فجعلته مكانه لخلوّك عن الفضائل الباطنة .

ولقد اخذالله ميثاق بنى اسرائيل و بعثنا منهم اثنى عشر نقيباً و قال الله انى معكم لئن أقمتم الصلوة واتيتم الزكوة و آمنتم برسلى وعزرتموهم و أقرضتم الله قرضاً حسناً لاكفرن عنكم سيئاتكم و لادخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢) .

و لمّا أمر الله سبحانه في الآيات السابقة المؤمنين بتذكّر نعمه وحفظ الميثاق وذكر أنّ بني إسرائيل نقضوه و تركوا الوفاء به فلا تكونوا أيّها المؤمنون مثل اُولئك في هذا

الخلق الذميم فشرح سبحانه قبح عادات اليهود في خيانة الرسل فقال :

[ولقد أخذالله] أي بالله قدأخذالله عهد طائفة اليهود بإخلاص العبادة له و الإيمان برسله و ما يأتون به من الشرائع [و بعثنا منهم اثني عشر نقيباً] أي أمرنا موسى بأن يبعث من الأسباط الاثني عشر اثنيعشر رجلاً كالطلائع يتجسّسون أخبار أرض الشام و الجبابرة ، ونقيب القوم هو الّذي ينقب عنالأسرار و مكنون الضمائر و يعلم دخيلة اُمور القوم و يعرف مناقبهم و هو الطريق إلى معرفة اُمورهم ؛ فاختار موسى من كلّ سبط رجلاً يكون لهم نقيباً كفيلاً زعيماً أميناً فرجعوا ينهون قومهم عن قتالهم لما رأوامن شدّة بأس الجبابرة وعظم خلقهم إلّا رجلين منهم : كالب بن يوفنا و يوشع بن نون .

وقيل : معناه أخذنا من كلّ سبط منهم ضميناً بما عقدنا عليهم من الميثاق في أمر دينهم .

قال البلخيّ : يجوز أن يكونوا رسلاً و يجوز أن يكونوا قادة . و قال أبو مسلم : بعثوا أنبياء ليقيموا الدين و يعلّموا الأسباط التوراة و يأمروهم بمافرض الله عليهم .

[وقال الله إنّي معكم] قيل : الخطاب لبني إسرائيل . وقيل : إنّه خطاب للنقباء . ويجوز للنقباء و بني إسرائيل . وقال الله لهم فحذف كلمة « لهم» لدلالة قوله : «إنّي معكم» بالنصر و الغلبة إن قاتلتمو أعدائي و أعداءكم .

ثمّ قال : [لئن أقمتم الصلاة] معشر بني إسرائيل ، و ذكر سبحانه جملة شرطيّة مركّباً من اُمور خمسة و هي قوله : «لئن أقمتم الصلاة» [و آتيتم الزكاة] أي أعطيتموها [وآمنتم برسلي] و تصدّقون بما أتوا به من شرائع ديني [و عزّرتموهم] و التعزير التوقير و التعظيم و النصرة و التقوية [و أقرضتم الله قرضاً حسناً] أي أنفقتم في سبيل الله و أعمال البرّ من أموالكم نفقة حسنة فكأنّه قرض من هذا الوجه . و معنى « حسناً » أي طيّبة النفس بها وأن لايتبعه منّ ولا أذى ، أوالمراد حلالاً [لاُكفّرنّ عنكم سيّئاتكم] واُسقط عنكم سيّئاتكم ، جواب للقسم المدلول عليه باللام سادّ مسدّ جواب الشرط [ولاُدخلنّكم جنّات] أي بساتين [تجري من تحتها] و تحت أشجارها و مساكنها [الأنهار] الأربعة ، و أخّر ذكر الإدخال لضرورة تقدّم التخلية على التحلية .

[فمن كفر] برسلي و بما عدّ في حيّز الشرط [بعد ذلك] الشرط المعلّق به الوعد العظيم [منكم فقد ضلّ سواء السبيل] أي وسط الطريق الواضح ضلالاً بيّناً و أخطأ خطاء فاحشاً لاعذرمعه أصلاً. فإن قيل : إنّ من كفرقبل ذلك أيضاًفقد ضلّ سواء السبيل ، نعم كذلك الأمر ولكنّ الضلال بعده أعظم لأنّ الكفر بعدالنعمة أقبح فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر و بلغ النهاية القصوى .

قوله : فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم و جعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم و اصفح ان الله يحب المحسنين (١٣) .

[فبما نقضهم] «ما» زائدةمؤكّدةأي فبنقضهم [ميثاقهم لعنّاهم] وطردناهم عن رحمتنا ، و في الكلام حذف اكتفي بدلالة الظاهر عليه و التقدير : فنقضوا عهدهم فلعنّاهم بنقضهم ذلك الميثاق و العهد و أبعدناهم من رحمتنا على وجه العقوبة . وقيل : معناه : مسخناهم قردة وخنازير . وقيل : عذّبناهم وذلّلناهم بالجزية .

[وجعلنا قلوبهم قاسية] يابسة غليظة لاتلين لقبول الحقّ فسلبناهم اللطف والتوفيق الّذي تنشرح به صدورهم حتّى ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ، وهذا كمايقول الإنسان لغيره : أفسدت سيفك ، إذا تركت تعاهده . وقيل : معناه أخبرنا وبيّنا عن حال قلوبهم وما هي عليها من القساوة و حكمنا بأنّهم لايؤمنون ولاتنجع فيهم موعظة كما يقال : فلان جعل فلاناً فاسقاً و فلاناً عدلاً ، أي أخبر و بيّن عن حالهما .

[يحرّفون الكلم عن مواضعه] ويفسّرونه على غير ما اُنزل فيكون التحريف بسوء التأويل و بالتغيير والتبديل كما غيّروا نعوت النبيّ ﷺ .

[ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به] أي تركوا نصيباً ممّا اُمروا به في كتابهم و هو الإيمان بمحمّد ﷺ وضيّعوا ما ذكره الله في كتابهم ممّا فيه رشدهم .

[و لاتزال تطّلع على خائنة منهم] الخائنة أي خيانة على أنّها مصدر كاللاغية

والكاذبة مثل قوله : « لاتسمع فيها لاغية» [١] أي لغواً ، والمعنى : أنّ الغدر والخيانة عادة مستمرّة لهم و لأسلافهم بحيث لايكادون يتركونها فلاتزال ترى ذلك منهم . و يجوز أن يكون «الخائنة» صفة فالمعنى : لاتزال تطّلع على نفس خائنة أوذات خيانة إلّا قليلاً منهم لم يخونوا وهم الّذين آمنوا منهم كعبدالله بن سلام و أضرابه ،[٢] و هو استثناء من الضمير المجرور في «منهم» .

[فاعف عنهم و اصفح] أي أعرض عنهم ولاتتعرّض لهم بالمعاقبة إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا و التزموا الجزية . وقيل : الحكم مطلق فنسخ بآية السيف و هو قوله : «قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر[٣]» .

[إنّ الله يحبّ المحسنين] تعليل للأمر بالصفح ، و قيل : المراد بهؤلاء المحسنين هم المعنيّون بقوله «إلّا قليلاً منهم» وهم الّذين مانقضوا العهد .

ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة و البغضاء الى يوم القيمة و سوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤) .

المراد من الآية أنّ سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في بعض المواثيق من عندالله .

[ومن الّذين قالوا] أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممّن قبلهم من اليهود و«من» متعلّقة «بأخذنا» والتقديم للإهتمام وإنّما قال سبحانه : «قالوا إنّا نصارى» و لم يقل : و من النصارى ، تنبيهاً على أنّهم نصارى بنسبتهم أنفسهم بهذه الأمم إدّعاء لنصرة الله بقولهم لعيسى «نحن أنصارالله» والميثاق المأخوذ منهم هو ما أخذالله عليهم في الإنجيل من الأمر المؤكّد و العهد باتّباع محمّد صلّى الله عليه وآله و إظهار صفته و نعوته.

---

(١) الغاشية : ١١ .

(٢) لايخلو من شيء فان عبدالله بن سلام اسلم قبل نزول الاية بمدة فالظاهر ان المراد به بعض اليهود الذين لم يسلموا حين نزول الاية . الميزان

(٣) التوبة : ٢٩ .

[فنسوا حظاً مما ذكروا به] مرّ تفسيره [فأغرينا] أي ألصقنا و ألزمنا من غري بالشيء إذا لزمه [بينهم] ظرف متعلّق بأغرينا بين اليهود و النصارى ، وقيل : بين فرق النصارى فإنّ بعضهم يكفّر بعضاً إلى يوم القيامة [العداوة و البغضاء] و هي تباعد القلوب و النيّات[إلى يوم القيامة] غاية للإغراء أو للعداوة و البغضاء .

[وسوف ينبّئهم الله] و يخبرهم في الآخرة بما عملوا ، قيل : السبب في وقوع العداوة و الاختلاف بين النصارى هو رجل يقال له يونس و كان بينه و بين النصارى قتال قتل منهم خلقاً كثيراً فأراد أن يحتال بحيلة يلقي بينهم القتال فيقتل بعضهم بعضاً فجاء إلى النصارى و جعل نفسه أعور وقال لهم : ألا تعرفونني ؟ فقالوا : أنت الّذي فعلت ما فعلت و قتلت ماقتلت ، فقال : قدفعلت ذلك كلّه و الآن تبت لأنّي رأيت عيسى في المنام نزل من السماء فلطم وجهي لطمة فقأ عيني و قال : أيّ شيء تريد من قومي ؟ تبت على يده ثمّ جئتكم لأكون بين ظهرانيكم و أعلّمكم شرائع دينكم كما علّمني عيسى في المنام .

فاتّخذوا له غرفة فصعد تلك الغرفة و فتح كوّة إلى الناس في الحائط و كان يتعبّد في الغرفة و ربّما كانوا يجتمعون إليه و يسألونه و يجيبهم من تلك الكوّة وربّما يأمرهم بأن يجتمعوا و ينادي لهم من تلك الكوّة و يقول لهم بقول كان في الظاهر منكراً وينكرون عليه فكان يفسّر ذلك القول تفسيراً يعجبهم ذلك فانقادوا كلّهم له و كانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به .

فقال يوماً من الأيّام : اجتمعوا عندي فقد حضرني علم ، فاجتمعوا فقال لهم : أليس خلق الله هذه الأشياء في الدنيا لمنفعة بني آدم ؟ قالوا : نعم ، فقال : لم تحرّمون على أنفسكم هذه الاشياء يعني الخمر والخنزير وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً ؟ فأخذوا قوله فاستحلّوا الخمر و الخنزير .

فلمّا مضى على ذلك أيّام دعاهم و قال : قد حضرني علم ، فاجتمعوا فقال لهم : من أيّ ناحية تطلع الشمس ؟ فقالوا : من قبل المشرق ، فقال : و من أيّ ناحية تطلع القمر و النجوم ؟ فقالوا : من قبل المشرق ، فقال : ومن يرساهم من المشرق ؟ قالوا : الله تعالى ، فقال :

اعلموا أنّه تعالى في قبل المشرق فإن صلّيتم له فصلّوا إليه ، فحوّل صلاتهم إلى المشرق .

فلمّا مضى على ذلك أيّام دعا بطائفة منهم وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة فقال لهم : إنّي اُريد أن أجعل نفسي الليلة قرباناً لأجل عيسى وقد حضرني علم فاُريد أن اُخبركم في السرّ لتحفظوا عنّي وتدعوا الناس إلى ذلك بعدي ـ ويقال أيضاً : إنّه أصبح يوماً وفتح عينه الاُخرى ثم دعاهم وقال لهم : جاءني عيسى الليلة وقال : قد رضيت عنك فمسح يده على عيني فبرئت والآن اُريد أن أجعل نفسي قرباناً له ـ ثمّ قال : هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص إلّا الله ؟ فقالوا : لا ، فقال : إنّ عيسى قد فعل هذه الأشياء فاعلموا أنّه هو الله ، فخرجوا من عنده .

ثمّ دعا بطائفة اُخرى فأخبرهم بذلك أيضاً وقال : إنّه كان ابنه .

ثمّ دعا بطائفة ثالثة وأخبرهم بذلك أيضا وقال لهم : إنّه ثالث ثلاثة . وأخبرهم أنّه يريد أن يجعل نفسه الليلة قرباناً .

فلمّا كان بعض الليالي خرج من بين الناس فأصبحوا وجعل كلّ فريق يقول : علّمني كذا وكذا . وقال الفريق الآخر : أنت كاذب بل علّمني كذا وكذا . فوقع بينهم الجدال والقتال فاقتتلوا فقتلوا خلقاً كثيراً وبقيت العداوة بينهم .

وهم ثلاث فرق منهم النسطوريّة قالوا : المسيح ابن الله . والثانية الملكائيّة ـ وهم الروم ـ قالوا : إنّ الله تعالى ثالث ثلاثة المسيح واُمّه والله . والفرقة الثالثة اليعقوبيّة قالوا : إنّ الله هو المسيح . انتهى كلام صاحب روح البيان .

وبالجملة فعلى العاقل أن يلاحظ قوله فإن الرجل يقتل ما بين فكّيه .

والوجه في نسبة الإغراء إليه تعالى معناه : أنّا بسبب تركهم الميثاق أخطرنا على بال كلّ منهم ما يوجب الوحشة والمباينة عن صاحبه عقوبة لهم .

قوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير (١٥) قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم (١٦) .

ثمّ خاطب اليهود والنصارى فقال :

[يا أهل الكتاب] والكتاب جنس شامل للتوراة و الانجيل .

[قد جاءكم رسولنا] يعني محمّد ﷺ الاضافة للتشريف والايذان بوجوب اتّباعه [يبيّن لكم] حال كونه ﷺ مبيّناً لكم على التدريج [كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب] وذلك أنّهم أخفوا صفة محمّد في التوراة وأخفوا أمر الرجم ، ثمّ إنّ الرسول بيّن ذلك لهم و أخبرهم ﷺ بأسرار ما في كتابهم مع أنّه لم يتلمّذ عند أحد ولم يقرأ وهذه معجز له ﷺ .

[ويعفو عن كثير] و هذه أيضاً صفته ﷺ أي لا يظهره إذا لم يضطرّ إليه بسبب أمر دينيّ صيانة لكم عن زيادة الافتضاح .

[قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين] قيل : المراد من النور والكتاب هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشكّ وإبانة ما خفي على الناس من الحقّ ، و العطف يلزم المغايرة وههنا التنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات . وقيل : المراد من النور الرسول وسمّي الرسول نوراً لأنّ أوّل شيء أظهره الحقّ بنور قدرته من ظلمة العدم كان نور محمّد ﷺ قال ﷺ : كنت نوراً بين يدي ربّي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام . و قيل : المراد القرآن .

[يهدي به الله] وحّد الضمير لأنّهما في حكم الواحد فإنّ المقصود منهما دعوة الحقّ إلى الحقّ فكلاهما هاديان أي يهدي الله بمحمّد أو بالقرآن . كلامكم نور وأمركم رشد ووصيّتكم التقوى وفعلكم الخير وعادتكم الإحسان [من اتّبع رضوانه] أي اتّبع برضاء الله في تصديق النبيّ وقبول شريعته [سبل السلام] قيل : المراد من السلام هو الله أي شرائع الله وسبله الّتي شرعها لعباده وهو الدين . وقيل : المراد من السلام السلامة من كلّ ضرّ فمعنى الآية : يهدي إلى طرق السلامة من اتّبعه . والسلام و السلامة كالضلال و الضلالة و يهدي أي يفعل اللطف المؤدّي إلى سلوك طريق السلامة و الحقّ .

[ويخرجهم من الظلمات إلى النور] لأنّ الكفر يتحيّر فيه صاحبه كما يتحيّر في الظلام و يهتدى بالإيمان إلى النجاة كما يهتدى بالنور [بإذنه] و توفيقه وتيسيره تعالى .

[ويهديهم إلى صراط مستقيم] و هو طريق الجنّة ؛ قال الحقّي" في تفسيره : و هذه الهداية عين الهداية إلى سبل السلام و إنّما عطف عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي" منزلة التغاير الذاتي" كما في قوله : « فلمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً و الّذين آمنوا معه برحمة منّا ونجّيناهم من عذاب غليظ [(١)] » .

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعا ولله ملك السموات و الارض و ما بينهما يخلق ما يشاء و الله على كل شيء قدير (١٧) وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله و أحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و لله ملك السموات والارض وما بينهما و اليه المصير (١٨) .

اللام في «لقد كفر» جواب القسم والتقدير : اُقسم بالله لقد كفر الّذين قالوا . كفّرهم الله لهذا القول لأنّهم قالوا على وجه التديّن والاعتقاد ووصفوا المسيح وهو محدث بصفات القديم و قالوا : إله ، و كلّ من كان كذلك كان كافراً البتّة فإنّهم جعلوا مخلوقه وعبده هو تعالى .

وههنا مسئله وهي أنّ أحداً من النصارى لا يقول : «إنّ الله هو المسيح» إذا سألتهم فكيف يكون ذلك ؟

والجواب أنّهم وإن كانوا لا يصرّحون بعضهم بهذا القول الشنيع إلّا أنّ حاصل مذهبهم ليس إلّا ذلك .

وبيان ذلك أنّ اليعقوبيّة منهم يقولون بأنّ عيسى حلّ فيه جزء من الإلهيّة و كثيراً من الحلوليّة يقولون : إنّ الله يحلّ في بدن إنسان معيّن أو في روحه وبعض النصارى بل الكلّ يقولون : إنّ اُقنوم الكلمة اتّحد بعيسى عليه السلام . فاُقنوم الكلمة إمّا أن يكون ذاتاً أو صفة فإن كان ذاتاً فذات الله قد حلّت في عيسى و اتّحدت بعيسى ؛ فيكون عيسى هو

---

(١) هود : ٥٨ .

الإله على هذا القول . وإن قلنا : إنّ الاُقنوم عبارة عن الصفة فانتقال الصفة من ذات إلى ذات اُخرى لو فرضنا أنّه معقول فانتقال اُقنوم العلم مثلاً عن ذات الله إلى عيسى يلزم خلوّ ذات الله عن العلم ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً فحينئذٍ يكون الإله عيسى فثبت أنّ النصارى قالوا : إنّ الله هو المسيح بن مريم . والحلول و الإتّحاد باطل .

قال الشيخ سديد الدين محمود الحمصيّ أو أبوه في فساد القول بوحدة الوجود و تحريره وبيانه بأنّه تعالى لوكان وجوده عين وجود خلقه ولا شكّ في قعود أفراد الممكنات يوم انقسام ذاته تعالى وحينئذ إمّا أن يكون كلّ واحد من أجزائه تعالى إلهاً فيلزم تعدّدالآلهة وهو كفروشرك أولايكون فتوقّف إلهيّته تعالى على اجتماع الأجزاء والاجتماع يحتاج إلى جامع ومؤلّف وهو إمّا ذاته تعالى فيلزم كونه إلهاً قبل كونه إلهاً هذا خلف ، وإمّا غيره فيلزم توقّفه في إلهيّته على غيره فيكون ممكناً مع كونه واجباً و هذا خلف ؛ فلمّا أدّى القول بالإتّحاد إلى واحد هذه المحالات وجب كونه فاسداً ومحالاً .

[قل فمن يملك من الله شيئاً]فاحتجّ سبحانه على فساد هذا القول بقوله : « قل » يا محمد : « فمن يملك من الله » وهذه جملة شرطيّة قدّم فيها الجزاء على الشرط والتقدير : إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم واُمّه و من في الارض جميعاً فمن ذا الّذي يقدر على دفعه ويمنعه عن إرادته ؟

و المراد من قوله : [ومن في الأرض جميعاً] يعني إنّ عيسى مشاكل لمن في الأرض في الصورة والخلقة والتركيب و التغيّر ، و لمّا كان الله خالقاً للكلّ وجب أن يكون خالقاً لعيسى أيضاً .

[ولله ملك السماوات و الأرض ومابينهما] وقال : «وما بينهما» بعد ذكر السماوات و الأرض ولم يقل : بينهنّ، أراد الصنفين [يخلق مايشاء] أن يخلقه فإن شاء خلق من ذكر واُنثى وإن شاء خلق من اُنثى بغير ذكر ولايلزم بكون المسيح خلق من غير ذكر أن يكون إلهاً .

[والله على كلّ شيء قدير] فقول النصارى : «إنّ الله اتّحد بالمسيح فصار الناسوت لاهوتاً يجب أن يتّخذ إلهاً ويعبد» غلط .

ثمّ حكى سبحانه عن الفريقين من أهل الكتاب [و قالت اليهود و النصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه] فقالت اليهود : نحن أشياع ابنه عزير . وقالت النصارى : نحن أشياع ابنه المسيح . وحاصل المعنى : نحن من الله بمنزله الأبناء للآباء وقريناً منه كقرب الولد لوالده وغضب الله علينا كغضب الرجل على ولده و يدّعون أنّ لهم فضلاً و مرتبة عند الله على سائر الخلق .

فردّ سبحانه عليهم ذلك [قل] يا محمّد إلزاماً لهم [فلمَ يعذّبكم بذنوبكم] أي إن صحّ مازعمتم فلأيّ شيء يعذّبكم في الدنيا بالقتل و الأسر و المسخ ؟ وقد اعترفتم بأنّه سيعذّبكم في الآخرة أيّاماً معدودة بعدد أيّام عبادتكم العجل .

[بل] لستم كذلك [أنتم بشر ممّن خلق] من جنس ماخلق الله كسائر الناس من غير مزيّة لكم عليهم [يغفر لمن يشاء] أن يغفر له من أولئكم المخلوقين وهم الّذين آمنوا بالله و برسله [ويعذّب من يشاء] أن يعذّب به منهم وهم الّذين كفروا به وبرسله .

[ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما]من الموجودات لاينتمي إليه تعالى شيء منها إلّا بالمملوكيّة والعبوديّة يتصرّف في ملكه كيف يشاء إيجاداً وإعداماً و إماتة وإثابة وتعذيباً فأنّى لهم إدّعاء مازعموا ؟ [وإليه المصير] في الآخرة خاصّة لا إلي غيره فيجازي المحسن و المسيء بما يستدعيه عمله وليست المحبّة بالدعوى بل لها علامات .

تعصي الإله و أنت تظهر حبّه هذا لعمري في الفعال بديع
لوكان حبّك صادقاً لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

فإذا كان المصير إليه في الثواب و العقاب فطوبى لعبد تفكّر في عاقبة أمره فرغب في الزهد والطاعة قبل مضيّ الوقت ، قال المولويّ :

ز ابتداى كار آخر را ببين تا نباشى تو پشيمان يوم دين

حكي أنّ رجلاً أتى إلى صائغ يسأله الميزان ليزن رضاض ذهب له فقال الصائغ : إذهب فإنّه ليس لي غربال ، فقال الرجل : لاتسخر بي ائت الميزان ، فقال : إنّما قلت الصحيح ليس بي مكنة ، قال الرجل : أطلب منك الميزان وأنت تجيبني بما يضحك منه ، فقال : قلت الصحيح لأنّك شيخ مرتعش فعند الوزن يتفرّق رضاضك من يدك بسبب إرتعاشك فيسقط

إلي التراب فتحتاج إلي المكنة و الغربال للتخليص فقلت لك ما تحتاج إليه و يؤول أمرك .

قل يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩) .

خاطب سبحانه أهل الكتاب لالزامهم الحجّة برسول الله و استعطافهم فقال :

[يا أهل الكتاب قدجاءكم رسولنا] يعني محمّد صلى الله عليه وآله يوضح لكم الشريعة و أعلام الدين ، وفيه دلالةعلى أنّه سبحانه اختصّه من العلم بما ليس مع غيره [على فترة من الرسل] أي على انقطاع و دروس من الأنبياء و الكتب .

وفيه دلالة على أنّ زمان الفترة لم تكن فيه نبيّ . وكان الفترة بين عيسى ومحمّد صلى الله عليه وآله وكانت النبوّة متّصلة قبل ذلك في بني إسرائيل وسمّيت المدّة فترة لفتور الدواعي في العمل بتلك الشرائع ، وفتر الشيء فتوراً إذا سكنت حركته .

[أن تقولوا] تعليل لمجيء الرسول على تقدير حذف المضاف أي كراهة أن تقولوا عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين [ماجاءنا من بشير] يبشّرنا بالجنّة [ولا نذير] بالعقاب على المعصية فقطع عنهم عذرهم بإرسال رسوله وهو محمّد يبشّر كلّ مطيع بالثواب ويخوّف كل عاص بالعقاب .

[والله على كلّ شيء قدير] فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى حيث كان بينهما ألف و سبعمائة سنة وألف نبيّ و على الإرسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمّد حيث كان بينهما ستّمائة وتسعون سنة أوخمسمائة و ستّ وأربعون سنة[1] وأربعة أنبياء -على قول- ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب اسمه خالد بن سنان العبسيّ . و

---

(١) الفترة بينهما عليهما السلام بناء على التاريخين المشهورين بالميلادى و الهجرى يقرب من ستمائة و عشر سنين . و فى رواية الربيع فيما ساله نافع مولى عمر عن ابى جعفر عليه السلام فقال : اخبرنى كم بين عيسى ومحمد من سنة ؟ فقال : اخبرك بقولى او بقولك ؟ قال : اخبرنى بالقولين جميعاً ؛ قال اما فى قولى فخمسمائة سنة و اما فى قولك فستمائة سنة . البرهان (ج١ :٤٥٥) .

قيل : لم يكن بعد عيسى إلّا محمّد صلى الله عليه وآله وهو الأنسب بما يظهر من معنى الفترة من التنوين من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأنّ الرسول قد بعث إليهم عند كمال حاجتهم إليه بسبب مضيّ دهر طويل بعد انقطاع الوحي ليعدّ وه أعظم نعمة من الله .

قوله تعالى : واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا و آتكم مالم يؤت أحداً من العالمين (٢٠) ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولاترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) .

بيّن سبحانه صنع اليهود في المخالفة لنبيّهم تسلية لنبيّنا صلى الله عليه وآله فقال :

واذكر يا محمّد لأهل الكتاب ماحدث وقت قول موسى لبني إسرائيل ناصحاً لهم : [ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم] وإنعامه [إذ جعل فيكم أنبياء] من أقربائكم فأرشدكم وشرّفكم بهم ولم يبعث في اُمّة من الاُمم مابعث في بني إسرائيل من الأنبياء ولا شرف أعظم من النبوّة .

[وجعلكم ملوكاً] أي جعل فيكم أو منكم ملوكاً كثيرة ، وقيل : معناه و جعلكم أحرار تملكون أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط في مملكة فرعون بمنزلة أهل الجزية . قال ابن عبّاس : يعني أصحاب خدم وحشم وكانوا أوّل من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم .

[وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين] من فلق البحر و إغراق العدوّ و تظليل الغمام و إنزال المنّ و السلوى و غير ذلك من الاُمور العظام ، والمراد بالعالمين الاُمم الخالية إلى زمانهم .

[ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة] هي أرض بيت المقدّس قدّست وطهرت من الشرك وأصل التقدّس التطهّر ومنه قيل للسطل الّذي يتطهّر به : القدس ، ومنه تقديس الله وهو تنزيهه عمّا لا يليق به [الّتي كتب الله لكم] في اللوح المحفوظ أنّها يكون سكناً لكم إن آمنتم و أطعتم لقوله تعالى لهم بعد ما عصوا : « فإنّها محرّمة عليهم [1]» .

---

(١) السورة : ٢٦ .

[ولا ترتدّوا] أي لاترجعوا [على أدباركم] أي مدبرين خوفاً من الجبابرة فهو حال من «فاعل ترتدّوا» [فتنقلبوا] وتنصرفوا حالكونكم [خاسرين] مغبونين بفوات ثواب الدارين .

ومجمل القصّة أنّه لمّا عبر موسى وبنو إسرائيل البحر وهلك الفرعون أمرهم الله بدخول الأرض المقدّسة وكان الأمرعزيمة كما أُمروا بالصلاة فلمّا نزلوا على نهر الاُردن خافوا عن الدخول فبعث من كلّ سبط رجلاً وهم الّذين ذكرالله في قوله : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » .

فعاينوا من عظم شأن الجبابرة و قوّتهم و أجسامهم شيئاً عجيباً فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسى بذلك فأمرهم موسى أن يكتموا ذلك فوفى و نصح اثنان منهم وهما يوشع بن نون من سبط ابن يامين أوسبط يوسف و الثاني كالب ابن يوفنا من سبط يهودا وعصى العشرة وأخبروا بذلك ـ وقيل : كتم الخمسة منهم و أظهر الباقون ـ و فشى الخبر في الناس فقالوا : إن دخلنا عليهم تكون نساؤنا وأهلينا غنيمة لهم وهمّوا بالانصراف إلى مصر وهمّوا بيوشع وكالب وأرادوا أن يرجموهما بالحجارة فاغتاظ لذلك موسى و قال : « ربّ إنّي لاأملك إلّا نفسي وأخي » .

فأوحى الله إليه أنّهم سيتيهون في الأرض أربعين سنة و إنّما يخرج منهم من لم يعص الله في ذلك فبقوا في التيه أربعين سنة في ستّة عشر فرسخاً أو تسعة فراسخ وهم ستّمائة ألف مقاتل لاتنخرق ثيابهم و نزل عليهم المنّ والسلوى .

و ماتت النقباء غير يوشع بن نون و كالب و مات أكثرهم و نشأ ذراريهم فخرجوا إلى حرب أريحا و فتحوها .

واختلفوا فيمن فتحها ؛ فقيل : فتحها موسى ويوشع على مقدّمته . وقيل : فتحها يوشع بعد موت موسى وكان قد توفّي وبعثه الله نبيّاً .

روي أنّهم كانوا في المحاربة فغابت الشمس فدعا يوشع فردّ الله عليهم الشمس حتّى فتحوا أريحا قبل أن تدخل ليلة السبت.

وقيل : كانت وفات موسى وهارون في التيه وتوفّي هارون قبل موسى بسنة وكان عمر

موسى مائة وعشرين سنة في ملك أفريدون ومنوچهر وكان عمر يوشع مائة وستّة وعشرين سنة وبقي بعد وفات موسى مدبّراً لأمر بني إسرائيل سبعاًو عشرين سنة .

قالوا ياموسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين(٢٣) قالوا ياموسى انا لن ندخلها ابدآماداموا فيهافاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون (٢٤) .

ذكر سبحانه جواب القوم [قالوا] يعني بني إسرائيل [يا موسىإنّ فيها] أي في الأرض المقدّسة [قوماً] و جماعة [جبّارين] شديدي البطش و البأس . و الجبّارهوالّذي لايبال بالقهر و الاستيلاء و أصله في النخل وهوماطال وفات اليد ولمتنله ، قالابن‌عبّاس : بلغ من جبريّة هؤلاء القوم أنّه لمّا بعث موسى من قومه اثني عشر نقيباً ليخبروه خبرهم رآهم رجل من الجبّارين يقال له عوج فأخذهم في كمّه مع فاكهة كان يحملهامن بستانه وأتى بهم إلى الملك فنشرهم بين يديه وقال للملك تعجّباً منهم : هؤلاء يريدون قتالنا ! فقال الملكلهم : ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا .

قال مجاهد : وكان فاكهتهم لا يقدر على حمل عنقود منها خمسة رجال من غيرهم بالخشب ويدخل فيقشر رمّانة خمسة رجال .

أقول : إن‌صحّ ماقاله مجاهد فلعلّ ثمار أشجارهم غير متدلّية بل‌منبسطةعلى الأرض كالقرع و البطّيخ و إلّا كيف يتحمّل الغصن الناعم هذا الحمل الثقيل ولو كان الغصن في غاية الغلظ ؟ وكان طولسرير عوج الّذي ينام عليه ثمانمائة ذراع(١) .

[و إنّالن‌ندخلها] لقتالهم [حتّى‌يخرجوا منها فإن يخرجوا] يعني جبّارين فإنّه لاطاقة لنابإخراجهم‌منهافإن خرجوا منها بسبب من الأسباب الّتي لا تعلّق لنا بها [فإنّا داخلون] حينئذ .

---

(١) هذا و اشباهه مما يقال فى العمالقة مما يصعب على الطبع السليم ان يقبلها و التاريخ لايساعدها الميزان .

[قال رجلان] كأنّه قيل : هل اتّفقوا على ذلك أوخالفهم البعض فقيل قال : رجلان وهما كالب و يوشع [من الّذين يخافون] الله و يتّقونه في مخالفة أمره و هو صفة لرجلان [أنعم الله عليهما] بالنشب و الوقوف و الثقة بوعده و هو صفة ثانية لرجلان [ادخلوا عليهم الباب] أي باب بلد الجبّارين و هو أريحا أي باغتوهم و امنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلّا يجدوا للحرب مجالاً [فإذا دخلتموه] أي باب بلدهم و هم فيه [فإنّكم غالبون] من غير حاجة إلى القتال فإنّا شاهدناهم أنّ قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة فلا تخشوهم و اهجموا عليهم .

[وعلى الله] خاصّة [فتوكّلوا] في نصرة الله عليهم [إن كنتم مؤمنين] به تعالى مصدّقين بوعده .

[قالوا] غير مبالين بقول ذينك الرجلين مصرّين على القول الأوّل [يا موسى إنّا لن ندخلها] أي أرض الجبابرة [أبداً] دهراً طويلاً [ماداموا فيها] أي في أرضهم ، وإنّما قالوا ذلك لأنّهم جبنوا و خافوا من قتالهم و لم يثقوا بوعد الله بالنصرة عليهم .

[فاذهب] الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر كذلك فاذهب [أنت و ربّك فقاتلا] أي فقاتلاهم [إنّا ههنا قاعدون] إلى أن تظفر بهم و ترجع إلينا ، قيل : إنّهم قالوا هذا القول لعدم الوثوق بمواعيد الله أو أنّهم كانوا مشبّهة و لذلك عبدوا العجل .

قال رب انى لا أملك الا نفسى و اخى فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين (٢٥) قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦) .

قال موسى لمّا رأى منهم من المخالفة على طريقة البثّ و الشكوى إلى الله مع رقّة القلب الّتي بمثلها يستجلب الرحمة و تستنزل النصرة [ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي و أخي]من حيث الطاعة [فافرق بيننا] يريد نفسه وأخاه [وبين القوم الفاسقين] يريد الّذين عصوه و خالفوه .

[قال] الله تعالى [فإنّها] أي الأرض المقدّسة [محرّمة عليهم] لا يدخلونها ولا يملكونها [أربعين سنة] ظرف لمحرّمة أي التحريم موقّت بهذه المدّة لا مؤبّداً فلا

يكون مناف لقوله « كتب الله لكم » ولا بمعنى أنّ كلّهم يدخلونها بعد المدّة بل يدخلها من بقي منهم بعد هذه المدّة لأنّ أكثرهم ماتوا في التيه [يتيهون في الأرض] أي يتحيّرون في البرّيّة ، والتيهاء من الأرض الّتي لا يهتدى فيها .

[فلا تأس على القوم الفاسقين] و لا تحزن روي أنّ موسى ندم على دعائه عليهم فقيل : لا تندم ولا تحزن عليهم فإنّهم أحقّاء بذلك . فلبثوا أربعين سنة في ستّة فراسخ و هم ستّمائة ألف مقاتل و كانوا يسرون جادّين كلّ يوم فإذا أمسوا كانوا في الموضع الّذي ارتحلوا منه وكان الغمام يظلّهم من حرّ الشمس و يطلع بالليل عمود من نور يضيء لهم وينزل عليهم المنّ و السلوى و لا تطول شعورهم وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله وماؤهم من الحجر الّذي يحملونه ، وهذه الإنعامات عليهم مع أنّهم معاقبون لما أنّ عقابهم كان بطريق العزل و التأديب .

واختلف في أنّ موسى و هارون هل كانا في التيه مع بني إسرائيل أم لا ؟ فقال الأكثر : إن كانا في التيه لكن كان لهما روح وسلامة كالنار لإبراهيم و ملائكة العذاب مع أنّ شأن النار الإحراق و لا نقول : إنّهما عذّبا في التيه حتّى يقال : إنّ الأنبياء لا يعذّبون بعذاب الله .

ثمّ إنّه قيل : إنّ موسى خرج من التيه بعد أربعين سنة وسار بمن بقي من بني إسرائيل إلى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدّمته فحارب الجبابرة وفتحها و أقام بها ماشاء الله ثمّ قبضه الله و لا يعلم قبره ، و هذا أصحّ الأقوال لاتّفاق العلماء على أنّ عوج قتله موسى .

و أمّا القول في هارون قال السدّي : إنّ الله أوحى إلى موسى أنّي متوفّي هارون فائت به جبل كذا و كذا ، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذاً هما بشجرة لم ير مثلها فإذاً بيت مبنيّ وفيه سرير عليه فرش و إذا فيه ريح طيبة فلمّا نظر هارون إلى ذلك أعجبه فقال : ياموسى إنّي أحبّ أن أنام على هذا السرير، قال : نم ، فلمّا نام هارون جاء ملك الموت فقال هارون : ياموسى خدعتني ، فلمّا قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة و رفع السرير به إلى السماء فلمّا رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا : إنّ موسى قتل هارون وحسده على حبّ بني إسرائيل إيّاه . فقال لهم موسى : ويحكم كان أخي أفترونى

أقتل أخي ؟ فلمّا كثروا عليه صلّى ركعتين ثمّ دعا فنزل السرير حتّى نظروا إليه بين السماء و الأرض فصدّقوه .

قال الحقّي في روح البيان : وعن عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : صعد موسى وهارون الجبل فقال بنو إسرائيل : أنت قتلته ، فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتّى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلّمت الملائكة بموته حتّى عرفت بنو إسرائيل أنّه قدمات فبرّأه الله ممّا قالوا : ثمّ إنّ الملائكة حملوه و دفنوه فلم يطّلع على موضع قبرة إلّا الرخم فجعله الله أصمّ و أبكم .

و قال عمرو بن ميمونة : مات هارون وموسى في التيه مات هارون قبل موسى ، و أمّا وفات موسى قال وهب بن منبّه : خرج موسى لبعض حاجاته فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير شيئاً قطّ أحسن منه من البهجة والنضرة ، فقال لهم : ياملائكة الله لمن تحفر هذا القبر ؟ فقالوا لعبد كريم على ربّه ، فقال موسى : إنّ لهذا العبد عند الله منزلة فما رأيت مضجعاً أحسن من هذا ، قالوا : يا كليم الله أتحبّ أن يكون لك ، قال : وددت ، قالوا : فأنزل و اضطجع فيه وتوجّه إلى ربّك . قال : فاضطجع فيه وتوجّه إلى ربّه ثمّ تنفّس أسهل نفس قبض الله روحه ثمّ سوّت الملائكة عليه التراب . وقيل : إنّ ملك الموت أتاه بتفّاحة من الجنّة فشمّها فقبض روحه .

و روي أن يوشع بن نون رآه بعد موته في المنام فقال : كيف وجدت الموت ؟ قال موسى : كشاة تسلخ وهي حسبه . وبالجملة فبعد مضيّ الأربعين أمر يوشع بقتال الجبابرة فتوجّه ببني إسرائيل إلى أريحا معه تابوت العهد فأحاط بمدينة أريحا ستّة أشهر فلمّا كان السابع نفخوا في القرون و ضجّ صيحة واحدة فسقط سور المدينة و دخلوا فقاتلوا الجبّارين فهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم و كان القتال يوم الجمعة فبقيت بقيّة منهم و كادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال يوشع بن نون : اللهمّ اردد الشمس عليّ ، و قال للشمس : إنّك في طاعة الله و أنا في طاعة الله فسأل الله الشمس أن يقف و القمر أن يقيم حتّى ننتقم من أعداء الله قبل دخول السبت ، فردّت عليه الشمس و زيد في النهار ساعة حتّى قتلهم أجمعين و يتّبع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً و ثلاثين ملكاً حتّى غلب على جميع

أرض الشام و صارت لبني إسرائيل و فرّق عمّاله في نواحيها و جمع الغنائم فلم تنزل النار
فأوحى الله إلى يوشع أنّ فيها غلولاً فمرهم أن يبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل
منهم بيده فقال : هلمّ ما عندك. فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالجواهر
الثمنة وكان قد غلّه فجعله في القربان وجعل الرجل معه
فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان ، ثمّ
مات يوشع و دفن في جبل إفرائيم .

هنا ينتهي الجزء الثالث من الكتاب . وهو مشتمل على ٣٧ آية
من سورة آل عمران (١٦٣ ـ ٢٠٠) وتمام سورة النساء
و ٢٦ آية من سورة المائدة
و لله الحمد و المنّة

* * *
* *
*

الجزء الرابع

من كتاب التفسير
المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

أعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي
مدير
دار الكتب الإسلامية
بازار سلطاني - طهران
مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٧ هـ ش .

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله الذى نزّل القرآن نوراً و سراجاً وقمراً و منيراً . و الصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس وهدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن ، و تبيين لغاته و مشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه . و جمع جمعوا أحكامه و بينوا حلاله و حرامه وطائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ، و كيفما كان ما و صلوا الا الى مبلغ علمهم ، و منتهى هممهم ؛ و انى لهم الوصول الى حقائق التنزيل ودقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذى أنزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وآله .

الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى ، المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً ، وغاصوا فيها و اقتنوا منها درراً ؛

وها هى «مقتنيات الدرر» قد اقتناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، والنخبة من السلالة الطاهرة : «الحاج الميرسيد على الحائرى» تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه . قد اقتنى من الدرر أغلاها ، و من الغرر أسناها ؛ فحقيق أن يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تعالى تلميذه المستضىء بنور علمه المقتفى أثره الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم.

هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء وارومة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه و شرفه با عطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين واتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و نشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد كاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل أوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل ، وتخريج الايات المنثورة فى ثناياه ، واسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه ، و نسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله .

محمد الاخوندى

بسم الله الرحمن الرحيم

واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين (٢٧) .

واقرء يا محمد على أهل الكتاب خبر ابني آدم وهما قابيل وهابيل [بالحقّ] أي ملتبّسة بالصدق والحقّ . قيل : إنّ حوّاء كانت تلد في كلّ بطن ولدين ذكراً وأُنثى إلّا شيثاً فانّها ولدته منفرداً ، فولدت أوّل بطن قابيل - وقيل : قايين - [١] و توأمته إقليما بنت آدم ، والبطن الثاني هابيل وتوأمته ليوذا ، فلمّا أدركوا جميعاً أمر الله أن ينكح آدم قابيل توأمة هابيل وهابيل توأمة قابيل[٢] فرضي هابيل وأبى قابيل لأنّ اُخته كانت أحسن منها، وقال : ما أمر الله بهذا ولكن هذا من رأيك . فأمرهما آدم أن يقرّبا قرباناً فرضيا بذلك فغدا هابيل وكان صاحب ماشية فأخذ من خيار غنمه غنماً وزبداً ولبناً ، وكان قابيل صاحب زرع فأخذ من أدون زرعه وأخسّه ثمّ صعدا فوضعا القربانين على الجبل ، فأتت النار فأكلت قربان هابيل و تجنّبت قربان قابيل ، وكان آدم غائباً عنهما بمكّة ؛ خرج إليها ليزور البيت فقال قابيل : لاعشت يا هابيل في الدنيا وقد تقبّل قربانك ولم يتقبّل قرباني وتريد أن تأخذ اُختي الحسناء وآخذ اُختك القبيحة ! فقال له هابيل ما

---

(١) لعل مراده قدس سره انه قول في الملبين ؛ فانه لم يقل به احد من اهل الاسلام ، وانما جاء في التوراة الدائرة اليوم في الاصحاح الرابع من سفر التكوين ، وهذا نصه : «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين » الخ .

(٢) تظافرت الاخبار بتشنيع هذا الامر وانه من فعال المجوس ويقبح صدوره من نبى ، راجع تفسير البرهان « ج ١ : ٣٣٧ » في اول سورة النساء . وفي رواية سليمان بن خالد : قال : قلت لابي عبدالله عليه السلام : انهم يزعمون ان قابيل انما قتل هابيل لانهما تغايرا على اختهما فقال : يا سليمان تقول هذا اما تستحيي ان تروى هذا على نبى الله آدم ؟ فقلت : جعلت فداك ففيم قتل قابيل هابيل ؟ فقال : في الوصية ' الحديث ؛ البرهان «ج ١ : ٤٦٣»

حكاه الله ، فشدخه بحجر فقتله ؛ روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام وغيره من المفسرين .(١)

وكان سبب قبول قربان هابيل أنّ قابيل قرّب بشرّ ماله ، وهابيل بخير ماله و أضمر هابيل الرضى بحكم الله . وكان سبب أكل النار القربان أنّه لم يكن ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرّب به إلى الله فكان ينزل نار من السماء فتأكله . و عن إسماعيل ابن رافع أنّ قربان هابيل كان يرتع في الجنّة حتّى فدي به إسماعيل بن إبراهيم !.

[قال] الّذي تقبّل قربانه وهو هابيل : وما ذنبي ؟ [إنّما يتقبّل الله] أي القربان [من المتّقين] لا من غيرهم ، والتقوى من صفات القلب : قال صلى الله عليه وآله : التقوى ههنا وأشار إلى القلب . وحقيقة التقوى أن يكون العاقل على خوف ووجل من تقصير نفسه فيما أتى به من الطاعات وأن يكون دائماً في غاية الاحتراز من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوى طلب مرضاة الله ، وأن يكون فيه شركة لغير الله ، ويتفكّر في معرفة خالقه وتفريط نفسه في جنب الله . ولا يحصل التقوى مع الهوى وطلب الجاه ، والمال والجاه ركنا الدنيا فاقطع سلسلة نمروديّة شهواتك ، وكن صالحاً وإبراهيم وقتك .

لئن بسطت الیّ یدك لتقتلنی ما أنا بباسط یدی الیك لاقتلك انی اخاف الله رب العالمین (٢٨) انی ارید أن تبوء باثمی و اثمك فتکون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمین (٢٩) فطوعت له نفسه قتل أخیه فقتله فأصبح من الخاسرین (٣٠) .

أخبر سبحانه عن هابيل أنّه قال لأخيه حين هدّده بالقتل : [لئن بسطت إليّ يدك] أي لئن مددت إليّ يدك لأن تقتلني [ماأنا بباسط يدي إليك لأقتلك] أي لأن أقتلك .

قال أهل التفسير : إنّ القتل على سبيل المدافعة لم يكن مباحاً في ذلك الوقت وكان الصبر عليه هو المامور به ليكون الله هو المتولّي للانتصاف ؛ قال ابن عبّاس و جماعة : إنّه قتله غيلة [إنّي أخاف الله ربّ العالمين ☆ إنّي اُريد أن تبوء بإثمي وإثمك] أي إنّي اُريد باستيلامى لك وامتناعى عن التعرّض لك أن ترجع بإثم قتلي - إن قتلتني - وإثمك الّذي كان من قبل قتلي ، عن ابن عبّاس وجماعة - وذلك الإثم هو الّذي من أجله

(١) ورُوی غیر هذا الوجه مماهو اولی بالقبول .

لم يتقبّل قربانك ـ وقيل : المعنى : بإثم قتلي و إثمك الّذي هو قتل جميع الناس ، حيث سبّب القتل .

فإن قيل : كما لايجوز للإنسان أن يريد في نفسه أن يعصي الله فكذلك لايجوز أن يريد من غيره أن يعصي الله ، فكيف قال : إنّي اُريد أن تبوء بإثمي وإثمك ؟ . فالجواب أنّ هذا الكلام إنّما دار بينهما عندما غلب على ظنّ هابيل أنّه يريد قتله ويقتله فوعظه ونصحه فقال له : إن كنت لا تنزجر عن قصدك فلا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلّا إذا قتلتك ابتداءً بمجرّد الظنّ وهذا منّي لايجوز ومعصية ، فإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذا المعصية أنا وبين أن يكون أنت فأنا اُريد واُحبّ أن تحصل لك لالي ؛ ومن المعلوم أنّ إرادة صدور الذنب من الغير في مثل هذه الحالة على هذا الشرط لا يكون حراماً بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص ولاشكّ أنّه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه .

[فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين] أي سهّلت له نفسه و شجّعته ، وإذا أوردت النفس أنواع وساوسها و عداوتها صار الفعل سهلاً عند الفاعل . وفي الآية دلالة على بطلان مذهب الجبريّة ؛ لأنّه لو كان خالق الكلّ هو الله لكان ذلك التزيين والتطويع مضافاً إلى الله لا إلى النفس ولا ينافي مع القدر .

قيل : لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فظهر له إبليس وأخذ طيراً وضرب راسه بحجر فتعلّم قابيل ذلك منه ، ثمّ أنّه وجد هابيل نائماً يوماً فضرب راسه بحجر فمات .

قال صلى الله عليه وآله : لا يقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل ـ أي نصيب ـ من دمها وذلك أنّه أوّل من سنّ القتل فخسر دنياه و آخرته ، فأسخط والديه و بقي مذموماً إلى يوم القيامة ، وأمّا الآخرة فهو العقاب العظيم .

قيل : إنّ قابيل لمّا قتل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس وقال : إنّما أكلت النار قربان هابيل لأنّه كان يخدم النار و يعبدها ؛ فإن عبدت النار أيضاً حصل مقصودك ، فبنى بيت نار وهو أوّل من عبد النار . وقتل هابيل وهو ابن عشرين سنة ، وكان قتله عند عقبة حراء أو بالبصرة في موضع المسجد الأعظم .

روي أنّه لمّا قتله أسودّ جسده ـ و كان أبيض ـ فسأله آدم عن أخيه فقال : ما كنت عليه وكيلاً فقال : بل أنت قتلته ولذلك أسودّ جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لم يضحك قطّ . يروى أنّه رثّاه بشعر وهو :

تغيّرت البلاد ومن عليها

قال الزمخشريّ : و هو كذب بحت ، وما الشعر إلّا منحول ملحون ، و الأنبياء معصومون عن الشعر ؛ قال الرازيّ : و صدق صاحب الكشّاف فيما قال ؛ فإنّ ذلك الشعر في غاية الركاكة لايليق بالحمقى من المعلّمين فكيف نسبت إلى من جعل الله علمه حجّة على الملائكة ؟

فبعث الله غراباً يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين (٣١) .

لمّا قتله تركه لايدري مايصنع به ، ثمّ خاف عليه السباع فحمله في جراب[1] على ظهره مدّة حتّى تغيّر فبعث الله غراباً . قيل : بعث الله غراباً يحثو التراب على المقتول . وقيل : بعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ، ثمّ ألقاه في الحفرة فتعلّم قابيل ذلك من الغراب . قال أبو بحر : عادة الغراب دفن الأشياء ، فجاء غراب فدفن شيئاً فرآه قابيل فتعلّم ذلك منه .

[ليريه] الله أو الغراب ، فكأنّه قصد تعليمه على سبيل المجاز[2] [كيف يواري سوأة أخيه] قيل : المعنى جيفة أخيه أو عورة أخيه ـ وهو مالا يجوز أن ينكشف من جسده ـ والسوأة : الفضيحة لقبحها [قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي] و« ياويلتى » كلمة يستعمل العرب عند وقوع الداهية والنداء ، يعني ياويلتى تعالي واحضري فإنّه من أوقات حضورك ؛ وقد لزمني الويل . و كذلك ياعجباه ومعناه : يا أيّها العجب احضر فقد حان وقتك . والألف في ويلتى بدل عن ياء المتكلّم ، و النداء وإن كان أصله للعقلاء لكنّ العرب تستعمل وتجوّز النداء لما لا يعقل إظهاراً للتحسّر

---

(١) الجراب : وعاء من جلد .

(٢) فان التعليم بحسب الحقيقه بيدالله و ماسواه وسائط ووسائل .

مثل : «ياحسرة على العباد»[١] قوله : «أعجزت أن أكون» تعجّب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب [فأصبح من النادمين] على قتله ، لما وقع في الحيرة في أمره و حمله على رقبته أربعين يوماً حتّى أروح ،[٢] ولم ينتفع بقتله ، ولمّا كان ندمه لأجل هذه الأسباب لا للخوف من الله بارتكاب المعصية لم تنفعه الندامة .

قال مجاهد : عقّلت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها ، وعلّقت من يومئذ إلى يوم القيامة ، وجهه إلى الشمس حيثما دارت ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وفي الشتاء حظيرة من ثلج . وهو أوّل من عصى الله من ولد آدم وأوّل من يساق إلى النار وهو أب يأجوج ومأجوج (شرّ أولاد توالدوا من شرّ والد) .

واتّخذ أولاد قابيل آلات اللّهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير ، وانهمكوا في اللّهو وعبادة النار و الخمر والزناء والفواحش حتّى غرقهم الله بالطوفان أيّام نوح وبقي نسل شيث .

قال أهل التاريخ : لمّا ذهب قابيل إلى سمت اليمن كثروا و خلفوا و طفقوا يتحاربون مع أولاد آدم ، يسكنون الجبال والمغارات والغياض[٣] إلى زمن مهلائيل بن قينان ابن أنوش بن شيث ففرّقهم مهلائيل إلى أقطار الأرض ، وسكن هو في أرض بابل ، وكان كيومرث أخاه الصغير[٤] وهو أوّل السلاطين في العالم فأخذوا يبنون المدن و الحصون و استمرّ الحرب بينهم إلى آخر الزمان .

من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك فى الارض لمسرفون (٣٢) .

ثمّ بيّن سبحانه التكليف في باب القتل فقال : [من أجل ذلك] الفساد الّذي

---

(١) يس : ٢٩ .

(٢) اى انتن وصار ذاريح . وهذا غريب .

(٣) جمع الغيضة : الاجمة ، ومجتمع الشجر .

(٤) لم يعهد فيما بايدينا من كتب التاريخ ظهور سلطان فى العالم قبل الطوفان و مهلائيل من اجداد نوح ، بل ينسبون كيومرث الى سام بن نوح .

وقع في أحد ابني آدم . وروي عن نافع أنّه كان يقف على قوله : من أجل ذلك ويجعله من تمام الكلام الأوّل لكن عامّة المفسّرين قالوا : إنّ قوله : «من أجل ذلك» ابتداء كلام وليس بمتّصل بما قبله .

[كتبنا على بني إسرائيل] أي حكمنا عليهم وفرضنا [أنّه من قتل نفساً] ظلماً [بغير نفس] أي بغير قود ، فإنّ القتل قد يكون بحقّ كالقود [أو فساد في الأرض] أي من قتل منهم نفساً بغير فساد كان منها في الأرض فاستحقّت بذلك قتلها . وفسادها في الأرض مثل إخافة السبيل أو بالحرب لله ولرسوله مثل قوله : «إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله» الآية [1] [فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً] وفي تأويله أقوال :

أحدها أنّ معناه هو أنّ الناس كلّهم خصماؤه في قتل ذلك الإنسان فكأنّه قد وترهم [2] ومن استنقذها من غرق أو حرق أو هدم أو ما يميت أو استنقذها من ضلالة فكأنّما أحيا الناس جميعاً ، أي أجره على الله أجر من أحياهم جميعاً . وهذا المعنى مرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ثمّ قال : وأفضل ذلك أن يخرجها من ضلال إلى هدى . [3]

وثانيها أنّ من قتل نبيّاً أو إمام عدل فكأنّما قتل الناس جميعاً أي يعذّب عليه كما لو قتل الناس كلّهم ، ومن شدّ على عضد نبيّ أو إمام عدل فكأنّما أحيا الناس جميعاً في استحقاق الثواب ، عن ابن عبّاس .

وثالثها أنّ معناه من قتل نفساً بغير حقّ فعليه مأثم كلّ قاتل من الناس ؛ لأنّه سنّ القتل وسهّله لغيره فكان بمنزلة المشارك كما وقع لقابيل . ومن زجر عن قتلها بما فيه حياته على وجه يقتدى به فيه ، ويعظّم تحريم قتلها كما حرّمه الله فلم يقدم على قتلها لذلك فقد أحيا الناس بسلامتهم من القتل فذلك إحياؤها . ويؤيّده قوله صلى الله عليه وآله : من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيّئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

---

(١) الاية التالية . (٢) وتره : افزعه ، اصابه بظلم او مكروه .

(٣) والروايات فى هذا المعنى مستفيضة اوردها فى البرهان « ج ١ : ٤٦٣ - ٤٦٥ » وفى أكثرها ان الاخراج من الضلالة الى الهداية هو التاويل الاعظم .

وقيل : إنّ معناه : يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الّذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ومن عفى عن دمها وقد وجب القوَد عليها كان كمن عفى عن الناس جميعاً والله سبحانه هو المحيي لا يقدر على خلق الحياة غيره وإنّما قال : «أحياها» على سبيل المجاز .

فإن قيل : إنّ وجوب القصاص حكم ثابت في جميع الاُمم فما فائدة تخصيصه بني إسرائيل ؟ فالجواب أنّ قوله : من أجل ذلك ليس إشارة إلى قصّة هابيل و قابيل بل هو إشارة إلى مامرّ من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام الّذي أصبح من الخاسرين وأصبح من النادمين وقدّ سنّ هذه السنّة الملعونة ، ووجوب القصاص في حقّ القاتل وإن كان عامّاً في جميع الأديان ، ولمّا كان اليهود مع علمهم بهذا النهي الصريح الّذي كتبنا عليهم أقدموا على قتل الأنبياء والرسل والمقصود بيان قساوتهم ، و نهاية بعدهم عن طاعة الله ، ولمّا كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول في عزم اليهود على الفتك برسول الله فتخصيص بني إسرائيل في هذه القصّة مناسب للكلام .

فإن قيل : إنّ قتل النفس الواحدة كيف يكون مساوياً لقتل جميع الناس ؟ فإنّ من الممتنع أن يكون الجزء مساوياً للكلّ ؛ فالجواب أنّ تشبيه أحد الشيئين بالآخر لايقتضي الحكم بمشابهتهما من كلّ الوجوه ؛ لأنّ قولك : هذا يشبه ذلك أعمّ من أن يشبهه من كلّ الوجوه أومن بعض الوجوه ؛ فالمقصود من الآية مشاركتهما في الاستعظام لا بيان مشاركتهما في مقدار الاستعظام ، والمقصود أنّه كما أنّ قتل كلّ الخلق أمر مستعظم عند كلّ أحد فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظماً مهيباً محترزاً عنه .

[ولقد جاءتهم رسلنا بالبيّنات] أي ولقد أتت بني إسرائيل الّذين ذكرنا أخبارهم رسلنا بالبيّنات الواضحة والمعجزات الدالّة على صحّة نبوّتهم [ثمّ إنّ كثيراً منهم] من بني إسرائيل [بعد ذلك في الأرض لمسرفون] ومجاوزون الحدّ قال : أبو جعفر عليه السلام : المسرفون هم الّذين يستحلّون المحارم ويسفكون الدّماء .(١)

---

(١) رواه الطبرسى مرسلا وعنه فى البرهان «ج١ : ٤٦٥» .

انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم (٣٣) الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم (٣٤) .

اختلف في سبب النزول ؛ فقيل : نزلت في قوم كان بينهم وبين النبيّ صلّى الله عليه وآله موادعة فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ؛ عن ابن عبّاس . وقيل : نزلت في قوم من عرينة لمّا نزلوا المدينة مظهرين الإسلام واستوخموها (١) واصفرّت ألوانهم ، فأمرهم النبيّ أن يخرجوا إلى إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها (٢) ففعلوا ذلك فصحّوا ثمّ مالوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل وارتدّوا عن الإسلام . فأخذهم النبيّ وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم (٣) عن سعيد بن جبير وقتادة والسدّيّ . وقيل : نزلت في قطّاع الطريق ، عن أكثر المفسّرين ؛ قال الطبرسيّ : وعليه جلّ الفقهاء .

المعنى : لمّا ذكر سبحانه في الآية الأولى تغليظ الإثم في قتل النفس بغير قتل نفس ولا فساد في الأرض بيّن أنّ الفساد في الأرض الّذي يوجب القتل ما هو ؛ فإنّ بعض أقسام الفساد في الأرض لا يوجب القتل فقال : [إنّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله] أي يحاربون أولياء الله [ويسعون في الأرض فساداً] المرويّ عن أهل البيت أنّ المحارب هو كلّ من شهر السلاح وأخاف الطريق سواء كان في المصر أو خارج المصر . (٤) وقيل : إنّ المحارب هو قاطع الطريق في غير المصر ، عن عطاء الخراسانيّ .

---

(١) اى لم يوافق هواؤها بدنهم .

(٢) شربوا البول للتداوى فانهم كانوا مرضى على ما فى رواية الكلينى باسناده عن صالح عن ابى عبدالله عليه السلام ، فروع الكافى «ج١ : ٣٠٦» .

(٣) ليس فى روايات الخاصة من سمل العين اثر وانما ورد فى روايات الجمهور .

(٤) فى رواية العياشى عن محمد بن مسلم عن ابى جعفر عليه السلام ورواية الكلينى عن محمد بن يحيى ، عن احمد بن محمد ، عن ابى ايوب ، عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام قال : من شهر السلاح فى مصر من الامصار فعقر اقتص منه ونفى من تلك البلدة ، ومن شهر السلاح فى غير الامصار ضرب وعقر واخذ المال ولم يقتل فهو محارب ، البرهان «ج١ : ٤٦٧» ، وفروع الكافى «ج١ : ٣٠٧» .

قال الرازيّ : ومن الناس من قال : إنّ هذا الوعيد مختصّ بالكفّار والمرتدّين عن الإسلام حسبما شرح في نزول الآية . و منهم من قال : إنّ هذا الحكم في قطّاع الطريق من المسلمين ، قالوا : والّذي يدلّ على أنّه لا يجوز حمل الآية على المرتدّين أنّ قطع المرتدّ لايتوقّف على المحاربة ولا على إظهار الفساد في دار الإسلام ، و الآية تقتضي ذلك ، وإنّما على المرتدّ القتل دون القطع ولا عليه النفي والآية تقتضي ذلك . وأيضاً الآية تقتضي سقوط الحدّ بالتوبة قبل القدرة و هو قوله : « إلّا الّذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم » والمرتدّ يسقط حدّه بالتوبة قبل القدرة و بعدها و الصلب غيرمشروع في حقّ المرتدّ وهومشروع ههنا ، فوجب أن لاتكون الآية مختصّة بالمرتدّ فقوله : «إنّ الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً » يتناول كلّ من كان موصوفاً بهذه الصفة سواءٌ كان كافراً أو مرتدًّا أو مسلماً .

وأقصى ما في الباب أن يقال : إنّ الآية نزلت في المرتدّين لكنّك تعلم أنّ العبرة بعموم اللّفظ دون خصوص السبب .

فإن قيل : إنّ المحاربة مع الله غير ممكنة و مع الرسل ممكنة ؛ فلفظ المحاربة إذا نسبت إلى الله كان مجازاً ؛ لأنّ المراد منه محاربة أوليائه ، وإذا نسبت إلى الرسول كانت حقيقة ؛ فلفظ يحاربون في الآية يلزم أن يكون محمولاً على المجاز و الحقيقة معاً و ذلك ممتنع ! فالجواب أنّ المراد من المحاربة مخالفة الشرع والتكليف .

فمعنى الآية : إنّما يكون جزاء من يخالف أحكام الله وأحكام رسوله و يسعون في الأرض فساداً كذا وكذا [أن يقتّلوا أو يصلّبوا أوتقطّع] وفي «أو» في الآية قولان : الأوّل : الإباحة والتخيير أي إن شاء الإمام قتل و إن شاء صلب وإن شاء نفى . والقول الثاني أنّها ليست للتخيير بل للترتيب وبيان أنّ الأحكام تختلف باختلاف الجنايات ؛ فمن اقتصر على القتل قتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف ، ومن أخاف السبل ولم ياخذ المال نفي من الأرض . وهذا قول الأكثرين وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام (١) .

---

(١) الروايات واردة على طبق كلا القولين فمما يدل على الاول رواية العياشي والشيخ عن محمد بن *

فصار التقدير : أن يقتّلوا إن قتلوا ، أو يصلّبوا ثمّ يقتّلوا إن جمعوا القتل و أخذ المال ، أو تقطّع [أيديهم] اليمنى من الرسغ[١] [وأرجلهم] اليسرى من الكعب إن اقتصروا على أخذ مال من مسلم أمّا أيديهم فلأخذ المال وأمّا قطع أرجلهم فلإخافة الطريق [أو ينفوا من الأرض] إن لم يفعلوا غير الإخافة . والمراد من النفي فيه أقوال : قال الطبرسيّ : والّذي يذهب إليه أصحابنا الإماميّة أن ينفى من بلد[٢] حتّى يتوب ويرجع . وقال أهل الجماعة : المراد بالنفي الحبس فإنّه نفي عن وجه الأرض ، قالوا : المسجونون بمنزلة المخرجون من الدنيا وممنوعون من التصرّف ؛ قال الشاعر :

خرجنا من الدنيا و نحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السجّان يوماً لحاجة عجبنا و قلنا جاء هذا من الدنيا !

واختلفوا أيضاً في كيفيّة الصلب فقيل : يصلب حيّاً ثمّ يزجّ بطنه برمح أو غيره حتّى يموت : وقال الشافعيّ يقتل ويصلّى عليه ثمّ يصلب [ذلك] أي إجراء هذه الأمور [لهم خزي] وفضيحة وهوان [في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم] لا يقادر قدره لغاية عظم جنايتهم . فقوله : لهم خبر مقدّم ، وعذاب مبتدأ مؤخّر . وفي الآخرة متعلّق بمحذوف وقع حالاً من عذاب لأنّه في الأصل صفة له فلمّا قدّم انتصب حالاً أي كائناً في الآخرة .

[إلّا الّذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم] استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله كما ينبىء عنه قوله : [فاعلموا أنّ الله غفور رحيم] فأمّا ما هو من حقوق الآدميّين فإنّه لا يسقط بهذه التوبة ؛ فإنّ قطّاع الطريق إن قتلوا إنساناً ثمّ تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بهذه التوبة وجوب قتلهم جدّاً لكن وليّ الدم على حقّه من القصاص و العفو ، و إن أخذوا مالاً ثمّ تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بالتوبة وجوب قطع أيديهم

* مسلم عن ابى جعفر عليه السلام قال : من شهر السلاح ... وامره الى الامام ان شاء قتله وصلبه وان شاء قطع يده ورجله ، الاستبصار « ج ٤ : ٢٥٧ » ومما يدل على الثانى مارواه الشيخ مسندا عن عبيدالله المدائنى عن ابى عبدالله عليه السلام قال : .. فعقده بيده ثم قال : يا عبدالله خذها اربعا باربع ، الاستبصار « ج ٤ : ٢٥٦ » .

(١) الرسغ : مفصل ما بين الساعد والكف .

(٢) وهو المروى عن جميل بن دراج عن ابى عبدالله عليه السلام ، فروع الكافى « ج ١ : ٣٠٧ »

و أرجلهم من خلاف و كان صاحب المال باقياً في ماله وجب عليهم ردّه ، و أمّا إذا تاب بعد القدرة فظاهر الآية أنّ التوبة لاتنفعه ويقام الحدود عليه .

قال الطبرسيّ : وفي هذه الآية حجّة على من قال : لايصحّ التوبة عن معصية مع الإقامة على معصية اُخرى يعلم صاحبها أنّها معصية ؛ لأنّه علّق بالتوبة حكماً لايحلّ به الإقامة على معصية . قال الشافعيّ : ويحتمل أن يسقط كلّ حدّ لله بالتوبة ؛ لأنّ ماعزاً[1] لمّا رجم أظهر توبته فلمّا تمّموا رجمه ذكروا ذلك لرسول الله فقال : هلّا تركتموه ؟ ـ أو لفظ هذا معناه ـ وذلك يدلّ على أنّ التوبة يسقط عن المكلّف كلّ مايتعلّق بحكم الله .

يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٣٥) .

لمّا تقدّم ذكر القتل و أحكام المحاربين شرح بالموعظة و الأمر بالتقوى أي اتّقوا معاصيه و اجتنبوها [و ابتغوا إليه الوسيلة] أي اطلبوا إليه القربة بالطاعات . وقيل : الوسيلة أفضل درجات الجنّة ، عن عطاء . وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : سلوا الله لي الوسيلة فإنّها درجة في الجنة لاينالها إلّا عبد واحد و أرجو أن أكون أنا هو[2] .

و روى سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قال : في الجنّة لؤلؤتان إلى بطنان العرش أحدهما بيضاء والآخر صفراء في كلّ واحدة منها سبعون ألف غرفة فالبيضاء : الوسيلة لمحمّد وأهل بيته والصفراء لإبراهيم وأهل بيته عليهم السلام .

و في الحديث : من قال حين يسمع الدعوة والأذان : اللّهم ربّ هذه الدعوة التامّة و الصلاة القائمة آت سيّدنا محمّداً الوسيلة و الفضيلة وابعثه المقام المحمود الّذي وعدته حلّت له شفاعتي يوم القيامة [وجاهدوا في سبيله] أي في طريق دينه مع أعدائه [لعلّكم تفلحون] لكي تظفروا بنعيم الأبد . وقيل : «لعلّ وعسى» من الله محقّق الوقوع ، فكأنّه سبحانه قال : اعملوا وجاهدوا في الدين لتفلحوا والجهاد في سبيل الله له مراتب قد يكون

---

(١) هو ماعز بن مالك الاسلمى معدود فى المدنيين كتب له رسول الله صلى الله عليه وآله كتابا باسلام قومه ، وهو الذى اعترف على نفسه بالزناء تائبا وكان محصناً فرجمه رسول الله ، وقيل ان اسمه : غريب وماعز لقبه . ترجمه فى الاصابة « ج٣ : ٣١٧ » والاستيعاب « ج٣ : ص٤١٨ »

(٢) رواه مرسلا فى المجمع وعنه فى البرهان «ج١ : ٤٢٠» وكذا الرواية التى بعدها .

باليد واللّسان والقلب وبالسيف والقول والكتاب وكلّها من درجات الجهاد .

واعلم أنّ مجامع التكليف محصورة في نوعين لاثالث لهما أحدهما ترك المنهيّات وإليه الإشارة بقوله : « اتّقوا الله » و ثانيهما فعل المأمورات و إليه الإشارة بقوله تعالى : « وابتغو إليه الوسيلة » و لمّا كان ترك المنهيّات مقدّماً على فعل المأمورات بالذات لاجرم قدّمه في الذكر ؛ لأنّ الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصليّ . والفعل هو الإيقاع و التحصيل ولاشكّ أنّ عدم جميع المحدثات سابق على وجودها فكان الترك قبل الفعل لامحالة .

فإن قيل : لم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنّا نعلم أنّ ترك المعاصي قد يتوسّل به إلى الله ؛ لأنّ الترك كما قيل : إبقاء الشيء على عدمه الأصليّ وذلك العدم المستمرّ لايمكن التوسّل به إلى شيء بل إنّما يحصل التوسّل إذا دعا داعي الشهوة إلى فعل قبيح فتركه لطلب رضاء الله فيحصل التوسّل بذلك الامتناع و ذلك الامتناع من باب الأفعال ؛ فإنّ ترك الشيء عبارة عن فعل ضدّه فالفعل هو الاستغراق في الطاعة والترك هو الإعراض عن نهيه فإعراض المنهيّ عنه هو فعل أيضاً ، وأهل الرياضة يسمّون الفعل والترك بالتحلية والتخلية ، وبالمحو والصحو ، وبالنفي والإثبات ، وبالفناء والبقاء ، ولذلك قدّم النفي على الإثبات في قولنا : لاإله إلّا الله .

قوله تعالى : ان الذين كفروا لوان لهم مافي الارض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيمة ماتقبل منهم ولهم عذاب اليم(٣٦) يريدون ان يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم(٣٧) .

الجملة المذكورة مع كلمة «لو» خبر إنّ . فإن قيل : لم وحّد الضمير في «به» مع أنّ المذكور السابق بيان مافي الأرض جميعاً ومثله ؟ فالمعنى : ليفتدوا بذلك المذكور ، أي أنّ الكفّار لاسبيل لهم إلى الخلاص منه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : يقال للكافر يوم القيامة : لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت [يريدون أن يخرجوا من النار] ويتمنّون الخروج منها . قالوا : الإرادة هنا بمعنى التمنّي وقيل : معناه الإرادة

على الحقيقة ؛ لأنّ النار إذا رفعتهم بلهبها رجوا أن يخرجوا منها كقوله : «كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أُعيدوا فيها »[١] وقيل : معنى يريدون : يكادون أن يخرجوا منها ويقاربون الخروج إذا رفعتهم النار بلهبها . فإن قيل : كيف يجوز أن يريدوا الخروج مع علمهم بأنّهم لا يخرجون منها ؟ فالجواب أنّ العلم بأنّ الشيء لا يكون لا يصرف عن إرادته ، وإنّما الداعي إلى الإرادة الحاجة إليها [وماهم بخارجين منها] يعني من جهنّم [ولهم عذاب مقيم] دائم ثابت لا يزول ولا يحول ؛ في الحديث : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيغمس فيها مرّة ثمّ يقال له : يا بن آدم هل رأيت خيراً قطّ ؟ هل مرّ بك نعيم قطّ ؟ فيقول : لا والله يا ربّ و يؤتى بأشدّ الناس بؤساً من أهل الجنّة فيصبغ صبغة من الجنّة فيقال له : هل رأيت بؤساً قطّ ؟ فيقول : لا والله مامرّ بي بؤس قطّ .

قال الرازيّ : واحتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّه يخرج من النار من قال : لا إله إلّا الله على سبيل الإخلاص ، قالوا : لأنّه تعالى جعل هذا المعنى من تهديدات الكفّار ولولا أنّ هذا المعنى مختصّ بالكفّار لم يكن لتخصيص الكفّار به معنى ، ومؤيّد هذا الّذي قلناه قوله : «ولهم عذاب مقيم» وهذا يفيد الحصر فكان المعنى : ولهم عذاب مقيم لا لغيرهم كقوله : «لكم دينكم[٢]» أي لكم لا لغيركم .

اقول : لعلّ ما قاله الرازيّ صحيح لكن بشر وطها وهي الولاية .

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٣٨) فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم (٣٩) الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شى قدير (٤٠) .

لمّا أوجب سبحانه في الآية السابقة قطع الأيدي والأرجل عند أخذ المال على سبيل المحاربة بيّن في هذه الآية أنّ قطع الأيدي عند السرقة أيضاً يوجب .

واختلف النحويّون في رفع السارق ونصبها ؛ قال الزجّاج والأخفش : هو مبتدأ محذوف الخبر أي حكم السارق والسارقة ثابت فيما يتلى عليكم [فاقطعوا أيديهما]

---
(١) الحج : ٢٢ . (٢) الكافرون : ٦ .

بيان لذلك الحكم المتقدّم ، فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها وإنّما قدّر الخبر لأنّ الأمر إنشاء لا يقع خبراً إلّا باضمار وتأويل والمراد بأيديهما أيمانهما ووضع الجمع موضع المثنّى بتثنية المضاف إليه كما في قوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما[١] » وقرأ عيسى بن عمرو السارق والسارقة بالنصب و هو اختيار سيبويه قال : هو مثل قول القائل : زيداً فاضربه ، لكنّ الفرّاء عنده الرفع أولى من النصب قال : إنّ الألف واللّام في قوله : « والسارق والسارقة » يقومان مقام «الّذي» فيكون المعنى : الّذي سرق فاقطعوا أيديه و على هذا البيان حسن إدخال الفاء على الخبر لأنّه صار جزاءً .

و بالجملة فالألف واللّام في السارق للجنس أي كلّ من سرق رجلاً كان أو امرأة و بدأ بالسارق هنا لأنّ الغالب وجود السرقة في الرجال كما بدأ في آية الزناء بالنساء فقال : « الزانية[٢] » لأنّ الغالب وجود ذلك في النساء . فاقطعوا أيديهما أي أيمانهما عن ابن عبّاس والحسن والسدّيّ و عامّة التابعين ؛ قال الطبرسيّ : قال أبو عليّ في تخطّي المسلمين إلى قطع الرجل اليسرى بعد قطع اليد اليمنى وتركهم قطع اليد اليسرى دلالة على أنّ اليد اليسرى لم يرد بقوله : فاقطعوا أيديهما ألا ترى أنّها لو اُريدت بذلك لم يكونوا ليدعوا نصّ القرآن إلى غيره ؟ و قال العلماء : إنّ هذه الآية مجملة في كيفيّة إيجاب القطع على السارق والسارقة ، وبيان ذلك مأخوذ من السنّة .

قال الطبرسيّ : واختلف في القدر الّذي يقطع به يد السّارق فقال أصحابنا : يقطع في ربع دينار فصاعداً[٣] وهو مذهب الشّافعيّ والأوزاعيّ و أبي الثور و رووا عن عائشة عن النبيّ أنّه قال : لا يقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً . وذهب أبو حنيفة و أصحابه أنّه يقطع في عشر دراهم فصاعداً واحتجّوا بما روي عن عطاء عن ابن عبّاس : إنّ أدنى ما يقطع فيه ثمن المجنّ[٤] قال : وكان ثمن المجنّ في عهد رسول الله

---

(١) التحريم : ٤ . (٢) النور : ٢ .

(٣) وهو المروى ، ففى رواية الشيخ عن احمد بن محمد ، عن ابن محبوب ، عن ابى ايوب، عن محمد بن سالم قال : قلت لابى عبدالله عليه السلام فى كم تقطع يد السارق ؟ فقال : فى ربع دينار . قال : قلت له : فى درهمين ؟ قال : فى ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ الخ ، الاستبصار «ج ٤ : ٢٣٨»

(٤) المجن والجنة : الترس .

عشرة دراهم . وذهب مالك إلى أنّه يقطع في ثلاثة دراهم فصاعداً و روى عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله قطع سارقاً بثمن مجنّ في ثلاثة دراهم[1] وقال : بعضهم لا يقطع الخمس إلّا في خمس دراهم و اختاره أبو عليّ الجبائيّ و قال : إنّه بمنزلة من منع خمس دراهم من الزكاة وقيل : يقطع يد السارق في القليل والكثير ؛ وإليه ذهب الخوارج و احتجّوا بعموم الآية و بما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فيقطع يده ويسرق الحبل يقطع يده . وهذا الخبر قد طعن أصحاب الحديث في سنده إلّا أن يكون المراد من البيضة الحديد وهي المغفر والحبل من حبال السفينة .

واختلف أيضاً في كيفيّة القطع فقال : أكثر الفقهاء : إنّه إنّما يقطع من الرسغ وهو مفصل بين الكفّ والساعد . ثمّ إنّ عند الشافعيّ يقطع يده اليمنى في المرّة الاُولى ، ورجله اليسرى في المرّة الثانية ، ويده اليسرى في المرّة الثالثة ورجله اليمنى في المرّة الرابعة ويحبس في المرّة الخامسة وعند أبي حنيفة لا تقطع في الثالثة وعند أصحابنا أنّه تقطع من اُصول الأصابع ويترك له الإبهام والكفّ وفي المرّة الثانية تقطع رجله اليسرى من أصل الساق ويترك عقبه يعتمد عليه في الصلاة فإن سرق بعد ذلك خلّد في السجن وهو المشهور عن عليّ عليه السلام وأجمعت الإماميّة عليه وقد استدلّ على ذلك بقوله تعالى : « فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم[2] » ولا شكّ في أنّهم يكتبونه بالأصابع[3] .

ولا خلاف أنّ السارق إنّما يجب عليه الحدّ إذا سرق من حرز إلّا ما روي عن داود أنّه قال : يقطع السارق وإن سرق من غير حرز . وحدّه عندنا كلّ موضع لم

---

(١) وعلى هذا فيكون الاختلاف بين ابى حنيفة ومالك لفظيا يرجع الى الاختلاف فى ثمن المجن فى زمن رسول الله . (٢) البقرة : ٧٩ .

(٣) ومن الطف ما استدل له ما افاده الامام الجواد فى مجلس المعتصم حيث سأل الفقهاء عن موضع قطع يد السارق فقال بعضهم : يقطع من الكرسوع ـ اى الزند ـ و بعضهم : من المرفق و واستدلا بايتى التيمم والوضوء فاستدعى رأى الامام فاعتذر فلم يقبل وانشده أن يجيب فقال عليه السلام : انهم اخطؤوا السنة ، والقطع يجب من مفصل اصول الاصابع لقول رسول الله : السجود على سبعة اعضاء ـ فعدها ومنها اليدين ـ وقوله تعالى : « وأن المساجد لله » وما كان لله فلا يقطع ، الحديث بطوله ؛ البرهان « ج١ : ٤٧١ » .

يكن لغير مالكه الدخول إليه والتصرّف فيه إلّا بإذنه .

[جزاءً بما كسبا نكالاً] أي افعلو ذلك بهما مجازاة بكسبهما و فعلهما ، عقوبة من الله [فمن تاب من بعد ظلمه] أي أقلع وندم على ماكان منه من فعل الظلم بالسرقة [وأصلح] أي و فعل الفعل الصلاح [فإنّ الله يتوب عليه] أي يقبل توبته بإسقاط العقاب بها عن المعصية الّتي تاب منها . وفي الآية ترغيب للعاصي في فعل التوبة [إنّ الله غفور رحيم] وإنّ في قبول التوبة تفضّلاً من الله تعالى لعبيده [ألم تعلم] خطاب للنبيّ والمراد اُمّته وقيل : هو و المكلّفين . واتّصال هذا الخطاب بما قبله اتّصال الحجاج والبيان عن صحّة ما تقدّم من الوعد والوعيد والأحكام ، والمعنى : ألم تعلم يا إنسان [أنّ الله له ملك السموات والأرض] أي له التصرّف فيها بلا مانع ولا منازع [يعذّب من يشاء] إذا كان مستحقّاً للعقاب [ويغفر لمن يشاء] يعذّب إذا عصاه ولم يتب ؛ لأنّه إذا تاب فقد وعده بأنّه لا يؤاخذه بذلك بعد التوبة [والله على كلّ شيء قدير] لا يمتنع عليه أمر إذا أراد .

يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم ياتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان اوتيم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الاخرة عذاب عظيم (٤١) .

لمّا بيّن سبحانه بعض التكاليف والشرائع وكان قد علم من بعض الناس كونهم مسارعين إلى الكفر صبّر رسوله على تحمّل ذلك و أمره بأن لا يحزن و يتصبّر . و خاطب محمّداً ﷺ : يا أيّها النبيّ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله : «يا أيّها الرسول» إلّا في موضعين في القرآن أحدهما ههنا والثاني بقوله : «يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك»[1] ولاشكّ أنّه خطاب تشريف وتعظيم .

---

(١) المائدة : ٧١ .

النزول: قال الباقر عليه السلام وجماعة من المفسّرين : إنّ امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت برجل من أشرافهم وهما محصنان فكرهوا رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك طمعاً أن يأتي لهم برخصة فانطلق قوم منهم : كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وجماعة قالوا : يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا اُحصنا ما حدّهما ؟ فقال : وهل ترضون بقضاي في ذلك ؟ قالوا : نعم فنزل جبرئيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به ، فقال جبرئيل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا ؟ قالوا : نعم ؛ قال : فأيّ رجل هو فيكم ؟ قالوا : أعلم يهوديّ على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى ؛ قال : فأرسلوا إليه ففعلوا ، فأتاهم ابن صوريا فقال : له النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّي اُنشدك الله الّذي لا إله إلّا هو الّذي أنزل التوراة على موسى وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن ؟ قال ابن صوريا : نعم والّذي ذكرتني به ولولا خشية أن يحرقني ربّ التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك ، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمد ؟ قال صلى الله عليه وآله : إذا شهد أربعة عدول أنّه قد أدخله فيها كالميل في المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا : هكذا أنزل الله في التوراة على موسى .

فقال له النبيّ : فماذا كان أوّل ما ترخّصتم به أمر الله ؟ قال ابن صوريا : كنّا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ فكثر الزنى في أشرافنا حتّى زنى ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه حتّى زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فقال له قومه : لا حتّى ترجم فلاناً ـ يعنون ابن عمّه ـ فقلنا : تعالوا نجمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم (١) وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ تسودّ وجوههما ثمّ تحملان على حمارين وتجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما ، فجعلوا هذا مكان الرجم .

---

(١) من حمم الشيء : اذا صيره اسود .

فقالت اليهود لابن صوريا : ما أسرع ما أخبرته به ؛ فقال ابن صوريا : إنّه أنشدني بالتوراة ولولا ذلك ما أخبرته .

فأمر صلى الله عليه وآله بهما فرجما عند باب المسجد ، فأنزل الله فيه : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » .

فقام ابن صوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله ثمّ قال : هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الّذي اُمرت أن تعفو عنه فأعرض النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك .

ثمّ سأله ابن صوريا عن نومه فقال : تنام عيناي ولا ينام قلبي فقال : صدقت . وأخبرني عن شبه الولد بأبيه ليس فيه شبه من اُمّه أو باُمّه ليس فيه شبه بأبيه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : أيّهما علا وسبق ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له قال : قد صدقت ، فأخبرني ما للرجل من الولد وما للمرأة منه ؟ قال : فاُغمي على رسول الله صلى الله عليه وآله طويلاً ثمّ خلّي عنه محمرّاً وجهه تفيض عرقاً فقال : اللّحم والدم والظفر والشحم للمرأة ، والعظم والعصب والعروق للرجل قال له : صدقت أمرك أمر نبيّ ، فأسلم ابن صوريا عند ذلك ثمّ قال : يا محمّد من يأتيك من الملائكة ؟ قال : جبرئيل ، قال : صفه لي فوصفه النبيّ فقال : أشهد أنّه في التوراة كما قلت وأنّك رسول الله حقّاً . فلمّا أسلم ابن صوريا وقعت فيه اليهود وشتموه .

فلمّا أرادوا أن ينهضوا تعلّقت بنو قريظة ببني النضير فقالوا : يا محمّد إخواننا بنو النضير ؛ أبونا واحد وبطننا واحد ونبيّنا واحد إذا قتلوا منّا قتيلاً لم يقتدونا وأعطونا ديته سبعين وسقاً[1] من تمر وإذا قتلنا منهم قتيلاً قتلوا القاتل وأخذوا منّا مائة وأربعين وسقاً من تمر ، وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منّا و بالرجل منهم رجلين منّا ، وبالعبد منهم الحرّ منّا ، وجراحاتنا على النصف من جراحاتهم ، فاقض بيننا و بينهم فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات ، انتهى .

المعنى : [يا أيّها الرسول] خطاب التعظيم والتشريف [لا يحزنك الّذين] أي صنع الّذين [يسارعون في الكفر] أي يقعون سريعاً في الكفر وإظهاره إذا وجدوا منه

---

(١) قال الخليل : الوسق ستون صاعاً وهو حمل البعير ، والوقر حمل البغل و الحمار . منه رحمه الله .

فرصة ، ولا تبال بتهافتهم في الكفر [من الّذين] بيان للمسارعين [قالوا آمنّا بأفواههم] متعلّق بقالوا ، والفائدة من بيان تعلّقه بالأفواه مع أنّ القول لايكون إلّا بالفم واللّسان إشارة إلى أنّ ألسنتهم ليست معبّرة بما في قلوبهم ، وأنّ مايجرون على ألسنتهم لايجاوز أفواههم فينطقوا به غير معتقدين بقلوبهم [ولم تؤمن قلوبهم] جملة حاليّة من ضمير «قالوا» مؤكّدة عن بيان خلوّ قلوبهم عن الايمان .

[ومن الّذين هادوا] عطف على قوله : «من الّذين قالوا» وبيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم إلى قسمين : المنافقين واليهود [سمّاعون للكذب] أي هم سمّاعون يعني المنافقين واليهود مبالغون في سماع الكذب ، و قبول ماتفتريه أحبارهم ورؤساؤهم من الكذب على الله وتحريف كتابهم ؛ أوسمّاعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بالزيادة والتبديل ؛ فإنّ منهم من يسمع من الرسول ثمّ يخرج ويقول : سمعت منه كذا وكذا ولم يسمع ذلك منه ، وعلى المعنى الثاني فاللّام يكون لام الغرض [سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك] أي هم سمّاعون كلامك لقوم آخرين الّذين لم يحضروا مجلسك أرسلوا السمّاعين في قصّة زان محصن فقالوا لهم : إن أفتاكم محمّد بالجلد فخذوه و إن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه لأنّهم كانوا حرّفوا حكم الرجم الّذي في التوراة و قيل : إنّما كان ذلك في قتل منهم قالوا : إن أفتاكم بالدية فاقبلوه و إن أفتاكم بالقود فاحذروه .

[يحرّفون الكلم] أي كلام الله وأحكامه [من بعد مواضعه] أي من بعد أن وضعه مواضعه ، وفرض فروضه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ؛ يعني بذلك ماغيّروه من حكم الله في أمر الزناء فنقلوه من الرجم إلى أربعين جلدة ، أو نقلوا حكم القتل من القود إلى الدية حتّى كثر القتل فيهم . وقيل : المراد : يحرّفون كلام النبيّ صلى الله عليه وآله بعد سماعه ويكذبون عليه و كانوا يكتبون بذلك إلى خيبر .

[يقولون إن اُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا] أي يقول يهود خيبر ليهود مدينة ـ ويهود مدينة كانوا جواسيس وعيوناً ليهود خيبر ـ : إن اُعطيتم هذا أي أمر كم محمّد بالجلد فاقبلوا حكمه وإن اُوتيتم بالرجم فلاتقبلوه واحذروا عن قبول قوله

أو إن اُوتيتم الدية فاقبلوه و إن اُوتيتم القصاص فاحذروه .

[ومن يرد الله فتنته] قيل : معنى الفتنة العذاب أي من يرد الله عذابه مثل قوله : «على النار يفتنون»(١) أي يعذّبون وقوله : «ذوقوا فتنتكم»(٢) أي عذابكم عن الحسن وقتادة والجبّائيّ وأبومسلم . وقيل : إنّ معناه من يرد الله إهلاكه ، عن السدّيّ والضحّاك . وثالثها أنّ المراد : من يرد الله خزيه و فضيحته بسبب ما ينطوي عليه . و رابعها أنّ المراد : من يرد الله اختباره بما يبتليه به من القيام بحدوده فيدع ذلك و يحرّفه . قال الطبرسيّ : والأصحّ الأوّل .

[فلن تملك له من الله شيئاً] أي فلن تستطيع أن تدفع عنه من أمر الله الّذي هو العذاب أو الفضيحة أو الهلاك شيئاً [اُولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم] أي اُولئك اليهود لم يرد الله أن يطهّرهم من عقوبات الكفر الّتي هي الختم والطبع بسبب سوء اختيارهم وعنادهم ولعلمه تعالى بأنّه لا ينفع لهم العظة والذكرى وغلب عليهم السفه ؛ فإنّ البلوغ بلوغان فبلوغ الأطفال بخروج المنيّ وبلوغ الرجال بخروج المُنى ؛ فخذوا من ممرّكم لمقرّكم ، كما طهّر قلوب المؤمنين بأن شرح صدورهم للإسلام بسبب متابعتهم للرسول وعدم العناد منهم .

وقيل : المعنى : لم يرد الله أن يطهّرها من الكفر بالحكم عليها بأنّها بريئة من الكفر ، ممدوحة بالإيمان والسبب انهماكهم في الكفر وتماديهم في العناد فقوله : «لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم» استعارة عن سقوط وقعهم عند الله وأنّه غير ملتفت إليهم بسبب قبح أفعالهم وأعمالهم ونيّاتهم . قال العاصي : وهذا لا يدلّ على أنّه سبحانه لم يرد منهم الإيمان ، بل أراد منهم الايمان ولكن لمّا لم يقبلوه خلّاهم وشأنهم وما زكّاهم .

[لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم] أمّا خزي المنافقين بظهور فضيحتهم بين المسلمين ، وأمّا خزي اليهود فبالذلّ والجزية وظهور كذبهم في كتمان نصّ التوراة ، وأمّا في الآخرة هو الخلود في النار .

---

(١) الذاريات : ١٣ .

(٢) « : ١٤ .

قوله تعالى : سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين (٤٢) وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين (٤٣)

السحت : الرشوة في الحكم ومهر البغيّ وعسيب الفحل وثمن الكلب و ثمن الخمر وثمن الميتة وحلوان(١) الساحر والكاهن والاستئجار في المعصية ، وأصله يرجع إلى الحرام الخسيس الّذي يكون في حصوله عار بحيث يخفي آخذه عن أعين الناس لا محالة . وكان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلاً في دعواه برشوة سمع كلامه ولا يلتفت إلى خصمه فكان يسمع الكذب ويأكل السحت . وقيل : كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالاً ليقيموا على ما هم عليه من اليهوديّة ، فالفقراء كانوا يسمعون أكاذيب الأغنياء ، ويأكلون السحت ؛ أو كانوا سمّاعين للأكاذيب الّتي كان أحبارهم ينسبونها إلى التوراة ويأخذون عليها الرشى وأكّالون للربا لقوله : «وأخذهم الربا»(٢)

قوله : [سمّاعون للكذب] تكرير لماقبله [أكّالون للسحت] أي الحرام حسبما شرح [فإن جاؤوك] الفاء فصيحة أي إذا كان حالهم كما شرح إن جاؤوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات [فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] أراد به اليهود الّذين تحاكموا إلى النبيّ ﷺ في حدّ الزناء . وقيل : أراد بني قريظة وبني النضير لمّا تحاكموا إليه فقد خيّره الله بين أن يحكم بينهم وبين أن يعرض عنهم وفي بعض الروايات أنّ هذا التخيير ثابت في الشرع للأئمّة والحكّام . و قيل : إنّه منسوخ بقوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » .

قوله : [وإن تعرض عنهم] أي عن الحكم بينهم [فلن يضرّوك شيئاً] ولا يقدرون لك على ضرر [وإن حكمت] أي وإن اخترت أن تحكم بينهم [فاحكم بينهم بالقسط] والعدل وقيل : بما في القرآن وشريعة الإسلام [إنّ الله يحبّ المقسطين] أي العادلين فيحفظهم من كلّ مكروه ومحذور ؛ وفي الحديث : المقسطون عندالله على منابر من

(١) الحلوان ـ بالضم ـ عطاء للدلال اوالمستخدم لحاجة .

(٢) النساء : ١٥٩ .

نور [وكيف يحكّمونك] أي يحكّمك يا محمد هؤلاء اليهود على أنفسهم فيرضوا بك حكماً [وعندهم التوراة فيها حكم الله].

وحاصل المعنى من الآية تعجيب من الله لنبيّه محمد ﷺ بتحكيم اليهود إيّاه بعد علمهم بما في التوراة من حدّ الزاني ثمّ تركهم ذلك الحكم فعدلوا عمّا يعتقدونه حكماً حقّاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة، فعدولهم عن حكم كتابهم إلى حكمك أمر عجيب. وفي الآية بيان جهلهم وعنادهم لئلاّ يفتري مفتر بأنّهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله [ثمّ يتولّون من بعد ذلك] عطف على قوله: «يحكّمونك» وذلك إشارة إلى حكم الله الّذي في التوراة أو إشارة إلى التحكيم.

وقوله: [وما أُولئك بالمؤمنين] أي وما هم بالمؤمنين بالتوراة وإن كانوا يظهرون الإيمان بها؛ أو إخبار بأنّهم لايؤمنون أبداً و يكون إخباراً عن المستأنف؛ أو المعنى أنّهم وإن طلبوا الحكم منك لكنّهم ماهم بمؤمنين بك ولا بمعتقدين في صحّة حكمك ومقصودهم تحصيل منافع الدنيا فقط.

قوله تعالى: انا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون (٤٤)

تنبيه من الله لليهود عن المخالفة و ترغيب لهم في أن يكونوا كمتقدّميهم من مسلمي أحبارهم والأنبياء المبعوثين إليهم قال: [إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى] تهدي شرائعها و أحكامها إلى الحقّ، وترشد الناس إلى الخير، ونور يكشف ما أُبهم عليهم من الأحكام المستورة عليهم بظلمات الجهل، وضياء لكلّ ما تشابه عليهم [يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا] وأذعنوا بحكم الله وأقرّوا به ونبيّنا ﷺ داخل فيهم وقيل: هو ﷺ المفتي بذلك لما حكم في رجم المحصن و هذا لايدلّ على أنّه كان متعبّدا بشرع موسى لأنّ الله هو الّذي أوجب عليه ذلك بوحي أنزله عليه لا بالرجوع إلى التوراة فصار ذلك شرعاً له وإن وافق ما في التوراة. وقيل: يريد بالنبيّين الأنبياء الّذين

كانوا من بعد موسى ، وذلك لأنّه كان في بني إسرائيل اُلوف من الأنبياء بعثهم الله لإقامة التوراة يحلّلون حلالها ويحرّمون حرامها .

فالمعنى : يقضي بالتوراة الّذين أسلموا من وقت موسى إلى وقت عيسى ووصفهم بالإسلام لأنّ الاسلام دين الله فكلّ نبيّ مسلم وليس كلّ مسلم نبيّاً ؛ ولا يقال : إنّ النبوّة أعظم من الإسلام فكيف يمدح نبيّ بأنّه مسلم وما الوصف به بعد الوصف بالنبوّة إلّا تنزّل من الأعلى إلى الأدنى ؟ فإنّه ليس الأمر كذلك بل شرف النبيّ بالإسلام والعبوديّة ، كما أنّ محمّداً ﷺ يوصف بالعبوديّة ثمّ بالرسالة . على أنّه قد يذكر الوصف مدحاً للوصف وتنويه شأن الصفة وعظم قدرها ، كما وصف الأنبياء بالصلاح والملائكة بالإيمان ؛ وقد قيل : أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف ؛ قال الشاعر :

ما إن مدحت محمّداً بمقالتي   لكن مدحت مقالتي بمحمّد

قوله : [للّذين هادوا] متعلّق بيحكم أي يحكمون للّذين تابوا عن الكفر . و قيل : المعنى : يحكمون لليهود بالتوراة لهم وفيما بينهم ؛ قال الزجّاج : و يجوز أن يكون المعنى على التقديم والتاخير ، وتقدير الكلام : إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور للّذين هادوا يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا [والربّانيّون] الّذي علت درجاتهم في العلم [والأحبار] وهم العلماء [بما استحفظوا من كتاب الله] أي بما اُمروا بحفظ ذلك والقيام به و ترك تضييعه فيكون المعنى : يحكمون بما حفظوه من التوراة وبالّذي استحفظوه من جهة النبيّين وتلقّوا منهم وهو استخلاف لهم في إجراء أحكامها من غير إخلال بشيء ؛ فالباء سببيّة متعلّقة بيحكم أي ويحكم الربّانيّون والأحبار أيضاً بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصّاهم به أنبياؤهم .

قال الفرّاء : مفرد الأحبار حبر بكسر الحاء ؛ يقال ذلك للعالم ، وإنّما سمّي بهذا الاسم لمناسبة الحبر الّذي يكتب به ، وذلك أنّه يكون صاحب كتب وحبر . وقيل : حَبر و حِبر بالفتح و الكسر من الحاء . و قال قوم : اشتقاقه من التحبير وهو التحسين في الحديث ؛ يخرج من النار ذهب حبره وسبره أي ذهب جماله و بهاؤه ، ولمّا كان العلم أحسن أقسام الفضيلة لا جرم سمّي العالم به .

[وكانوا عليه شهداء] أي كان هؤلاء النبيّون والربّانيّون والأحبار شهداء على أنّ كلّ ما في التوراة حقّ من عند الله ، ورقباء بحيث لا يتركونهم أن لا يراعوا حقّه [فلا تخشوا الناس] يا علماء اليهود في أمر الرجم وفي عدم إظهار نعوت محمّد صلى الله عليه وآله [واخشون] في كتمان ذلك وقيل : الخطاب للنبيّ - و المراد اُمّته - لا تخشوا في إقامة الحدود وإمضائها على أهلها كائناً من كان [ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً] أي لا تأخذوا لأجل الطمع والاشتراء : استبدال السلعة بالثمن و أخذها بدلاً منه أي لا تستبدلوا بآياتي بأن تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلاً منها من الرشوة والجاه و سائر الحظوظ الدينويّة فإنّها وإن جلّت فهي قليلة .

أقول : وهذا البيان في آخر الآية يدلّ على أنّ المخاطب في قوله : « فلا تخشوا الناس» علماء اليهود وقول القائل : إنّ الخطاب للنبيّ والمراد منه اُمّته بمعزل عن القبول .

[ومن لم يحكم بما أنزل الله فاُولئك هم الكافرون] قال الطبرسيّ : اختلف في ذلك فمنهم من أجراه على ظاهره على العموم ، عن ابن مسعود و الحسن و إبراهيم النخعيّ ؛ ومنهم من خصّه بالجاحد لحكم الله والمستهين به ، عن ابن عبّاس ؛ ومنهم من قال : هم اليهود خاصّة ، عن الجبّائيّ فإنّه قال : لا حجّة للخوارج في هذه الآية فإنّهم احتجّوا بهذه الآية فقالوا : إنّها نصّ في أنّ كلّ من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر وكلّ من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافراً . وأجاب المتكلّمون أنّ هذه الآية نزلت في اليهود فتكون مختصّة بهم . وهذا ضعيف ؛ لأنّ العبرة بعموم اللّفظ وقوله : «ومن لم يحكم» كلام اُدخل فيه كلمة «من» في معرض الشرط فيكون للعموم وقول من يقول : « المراد : ومن لم يحكم بما أنزل الله من الّذين سبق ذكرهم » فهو زيادة في النصّ وذلك غير جائز ؛ قال عطا : هو كفر دون كفر . وقال طاوس : ليس بكفر ينقل عن الملّة ، كأنّهم حملوا الكفر على كفر النعمة لا على كفر الدين وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأنّ لفظ الكفر إذا اُطلق انصرف إلى الكفر في الدين . قال عكرمة : قوله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله» إنّما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أمّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقرّ بلسانه كونه حكمه إلّا أنّه أتى بما يضادّه فهو غير حاكم بما

أنزل الله ولكنّه تارك له فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية ؛ لأنّها خاصّة في اليهود . واختار عليّ بن عيسى القول الثاني ، ومن المعلوم أنّ من حكم بغير ما أنزل الله مستحلاً لذلك فهو كافر .

قوله تعالى : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس و العين بالعين و الانف بالانف و الاذن بالاذن و السن بالسن و الجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون (٤٥)

المعنى : شرح سبحانه حكم التوراة في القصاص والمراد بيان هذا الأمر أنّه تعالى بيّن في التوراة أنّ حكم الزاني المحصن هو الرجم واليهود غيّروه و بدّلوه ، و بيّن في هذه الآية أيضاً أنّه تعالى بيّن في التوراة أنّ النفس بالنفس و هؤلاء اليهود غيّروا هذا الحكم أيضاً ، ففضّلوا بني النضير على بني قريظة ، وخصّصوا إيجاب القود ببني قريظة دون بني النضير فهذا هو وجه النظم في الآية فقال :

[وكتبنا] أي فرضنا [عليهم] على اليهود الّذين تقدّم ذكرهم [فيها] أي في التوراة [أنّ النفس بالنفس] معناه إذا قتلت نفس نفساً أخرى عمداً فإنّه يستحقّ عليه القود إذا كان القاتل عاقلاً مميّزاً وكان المقتول مكافئاً للقاتل إمّا بأن يكونا مسلمين حرّين أو كافرين أو مملوكين فأمّا إذا كان القاتل حرّاً مسلماً و المقتول كافراً أو مملوكاً ففي وجوب القصاص هناك خلاف بين الفقهاء و لكن عند الإماميّة لا يجب القصاص و به قال الشافعيّ . قال الضحّاك : لم يجعل في التوراة دية في النفس (١) [والعين بالعين و الأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص] قرأ الكسائيّ : العين والأنف والأذن و السنّ و الجروح كلّها بالرفع عطفاً على محلّ أنّ النفس أو على الاستئناف ؛ تقديره أنّ النفس مقتولة بالنفس و العين مفقوأة بالعين نظير قوله : «إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصابئون والنصارى» (٢) وقرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر بنصب الكلّ سوى الجروح فإنّه بالرفع فالعين والأنف والأذن منصوب عطفاً

---

(١) بل ولاجرح وانما كان العفو اوالقصاص ، على ما في المجمع .

(٢) المائدة : ٧٣ .

على النفس ، ثمّ الجروح مبتدأ و قصاص خبره . وقرأ نافع وعاصم وحمزة كلّها بالنصب عطفاً لبعض ذلك على بعض و خبر الجميع قصاص . و قرأ نافع الأُذن بسكون الذال حيث وقع ، والباقون بالضمّ وهما لغتان .

وبالجملة لمّا ذكر الله تعالى بعض الأعضاء عمّم الحكم في كلّها فقال : «والجروح قصاص» والقصاص ههنا مصدر يراد به المفعول أي والجروح متقاصّة بعضها ببعض وهو يقع بكلّ ما يمكن أن يقتصّ منه بشرط وقوع المماثلة مثل الشفتين والأنثيين واليدين والرجلين وغيرهما ، ويقتصّ الجراحات بمثلها ؛ الموضحة بالموضحة والهاشمة بالهاشمة والمنقّلة بالمنقّلة إلّا في المأمومة والجائفة[١] فإنّه لاقصاص فيهما ، وما لا يمكن المماثلة مثل رضّة العظم[٢] او اللّحم أو فكّة عظم أوجراحة يخاف منها التلف فالحكم فيها أُروش مقدّرة ، وتفاصيلها مذكورة في كتب الفقه .

[فمن تصدّق به] أي بالقصاص الّذي وجب له فتصدّق به على صاحبه بالعفو وأسقط عنه [فهو كفّارة له] أي للمتصدّق الّذي هو المجروح أوولّي الدم . قال الرازيّ : الضمير في له يحتمل أن يكون راجعاً إلى العافي وهو المجروح أوالوليّ ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المعفوّ عنه يعني كفّارة للقاتل أي أنّ المجنيّ عليه إذا عفا عن الجاني صار ذلك العفو كفّارة للجاني لا يؤاخذه الله بعد ذلك العفو و أمّا المجنيّ عليه الّذي عفا فأجره على الله . وعن عبادة بن الصامت أنّ رسول الله قال : من تصدّق من جسده بشيء كفّر الله عنه بقدره من ذنوبه ؛ وفي الحديث : من أُصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفّارة له ؛ قال الحقّي في تفسيره : في الحديث من عفا عن قاتله ومن قرأ عقيب كلّ صلاة مكتوبة قل هو الله أحد عشر مرّات ومن أدّى ديناً خفيّاً وجاء بهنّ يوم القيامة و هو مؤمن دخل الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شاء وتزوّج عن الحور العين حيث شاء .

---

(١) الموضحة من الشجاج مابلغ العظم فاوضح عنه ولم يكسره والهاشمة ما بلغه وكسره . و المنقلة ماكسره ونقله من مكانه الى مكان آخر . و المامومة ما بلغ ام الراس . و الجائفة مابلغ جوف البدن .

(٢) رض الشيء : دقه .

قوله : [ومن لم يحكم بما أنزل الله] من الأحكام و الشرائع [فأُولئك هم الظالمون] المتعدّون لحدوده الواضعون للشيء في غير موضعه فإن قيل : إنّ الكفر أعظم من الظلم وهو سبحانه هدّدهم بقوله : «فأُولئك هم الكافرون» أولاً فأيّ فائدة في ذكر الأخفّ بعده ؟ فالجواب أنّ الظالم يطلق على الكافر ؛ قال : «والكافرون هم الظالمون»[1] و «إنّ الشرك لظلم عظيم»[2] و أنّ الكفر من حيث إنّه إنكار لنعمة الربّ فهو كفر ومن حيث إنّه يقتضي إبقاء النفس في العقاب الدائم الشديد فبهذا الاعتبار هو ظلم على النفس ففي الآية الأولى ذكر الله ما يتعلّق بتقصيره في حقّ الخالق وفي هذه الآية ذكر ما يتعلّق بالتقصّر في حقّ نفسه .

وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التورية وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التورية وهدى وموعظة للمتقين (٤٦) وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون (٤٧)

لمّا قدّم سبحانه ذكر اليهود أتبعه بذكر النصارى فقال : [وقفّينا على آثارهم] أي وأتبعنا على آثار النبيّين الّذين أسلموا . يقال : قفيّته إذا تبعته بفلان فتعديته إلى المفعول الثاني بزيادة الباء ؛ فإن قيل : فأين المفعول الأوّل ؟ قلنا : هو محذوف والظرف وهو قوله : «على آثارهم» سادّ مسدّه . والضمير في آثارهم للنبيّين في قوله : «يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا» قوله : [مصدّقاً لما بين يديه من التوراة] وصف عيسى بكونه مصدّقاً لما بين يديه وإنّما يكون كذلك إذا كان عمله على شريعة التوراة ومعلوم أنّه لم يكن كذلك ؛ فإنّ شريعة عيسى كانت مغايرة لشريعة موسى فلذلك قال في آخر هذه الآية : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه» فكيف طريق الجمع ؟ فمعنى كون عيسى مصدّقاً للتوراة أنّه أقرّ بأنّه كتاب منزل من عند الله وأنّه كان حقّاً واجب العمل به قبل ورود النسخ . على أنّه ليس بينهما في الأصول اختلاف أبداً .

---

(١) البقرة : ٢٥٥ . (٢) لقمان : ١٢ .

وإنّما قال : «بين يديه» مع أنّه قدمضى ؟ لأنّه إذا كان يأتي كتاب بعده وخلفه فالّذي مضى قبله يكون قدّامه وبين يديه .

فإن قيل : لم كرّر قوله : «مصدّقاً لما بين يديه» ؟ فالجواب أنّه ليس بتكرار ؛ لأنّ في الأوّل معناه أنّ عيسى مصدّق التوراة و في الثاني أنّ الإنجيل مصدّق التوراة .

و ذكر [هدى] مرّة أخرى لاشتمال الإنجيل على الإشارة بمقدم محمّد صلى الله عليه وآله فيكون سبباً لاهتداء الناس إلى نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله و لمّا كان أشدّ وجوه المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى في ذلك أعاده الله تنبيهاً على أنّ الإنجيل كان هدى في هذه المسألة الّتي هي أشدّ المسائل احتياجاً إلى البيان .

وإنّما خصّها [للمتّقين] لأنّهم هم المنتفعون بها دون غيرهم[١] [وليحكم أهل الإنجيل] هذا أمر لهم . قيل في معناه قولان : أحدهما أنّ تقديره وقلنا : ليحكم أهل الإنجيل وحذف القول لدلالة ما قبله عليه من قوله : «وقفّينا» وذلك مثل : «والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب ٭ سلام عليكم»[٢] أي يقولون : سلام عليكم . والثاني أنّه كلام مستأنف أمر أهل الإنجيل لأنّ أحكامه لم ينسخ بعد وكانوا مأمورين بحكم الإنجيل في ذلك الوقت [بما أنزل الله فيه] أي في الإنجيل [ومن لم يحكم بما أنزل الله] قيل: إنّ «من» في الآية بمعنى «الّذي» وهو إخبار عن قوم معروفين وهم اليهود والّذين تقدّم ذكرهم عن الجبّائيّ . وقيل : إنّ «من» للجزاء أي من لم يحكم من المكلّفين بما أنزل الله فهو فاسق [فأولئك هم الفاسقون] فيكون معنى الفاسقين الخارجين عن الدين والكفر والظلم والفسق صفة لموصوف واحد وقيل : إنّ الأوّل في الجاحد و الثاني والثالث في المقرّ التارك . قال العقال : وليس في أفراد هذه الثلاثة بلفظ يوجب

(١) فان المراد بالمتقين ههنا وفيما اشبهه من الموارد ليس من يعمل بوظائفه الدينية حتى يتوهم توقف تاثير الدين على نفسه بل المراد من يكون عقله مستضيئا عن نور التقوى ، غيرمحجوب باستار اللجاج و العناد مع الحق كما فى امثال ابى جهل الذين جحدوا بايات الله و استيقنتها انفسهم .

(٢) الرعد : ٢٣ ـ ٢٤ .

القدح في المعنى كما يقال : من أطاع الله فهو المؤمن ، من أطاع الله فهو البرّ ، من أطاع الله فهو المتقي ؛ لأنّ كلّ ذلك صفات مختلفة حاصلة لموصوف واحد : و قال الأصمّ : الأوّل والثاني في اليهود والثالث في النصارى .

قوله تعالى : و أنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولوشاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨)

هذا خطاب لمحمّد ﷺ فقوله : «وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ» أي القرآن وقوله : «مصدّقاً لمّا بين يديه من الكتاب» أي كلّ كتاب نزل من السماء سوى القرآن فاللّام في قوله : «وأنزلنا إليك الكتاب» للعهد أي الفرد الكامل الحقيق بأن يسمّى كتاباً على الإطلاق لحيازة جميع الأوصاف الكماليّة وتفوّقه على بقيّة أفراده ملبّساً [بالحقّ] والصدق ، حال مؤكّدة من الكتاب . وقيل : من فاعل أنزلنا وقيل : من الكاف في إليك وقوله : [مصدّقاً لما بين يديه] حال من الكتاب أي حال كونه مصدّقاً لما تقدّمه موافقاً له في القصص والدعوة إلى التوحيد والمواعيد والعدل بين الناس وقوله : [من الكتاب] بيان لما واللّام للجنس [ومهيمناً عليه] قال الخليل وأبو عبيدة : هيمن الرجل يهيمن إذا كان رقيباً على الشيء وحافظاً وشاهداً عليه . و قيل : الأصل في آمن يؤمن فهو مؤمن : أءمن يؤأمن فهو مؤأمن ـ بهمزتين ـ ثمّ قلبت الأولى هاءً كما في هرقت و أرقت، وقلبت الثانية ياءً فصار مهيمناً . و إنّما كان القرآن مهيمناً على الكتب ، لأنّه الكتاب الّذي لا يصير منسوخاً ولا يتطرّق إليه التبديل بعد أبداً وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أنّ التوراة و الزبور و الصحف و الإنجيل حقٌّ باقية فكانت حقيقة هذه الكتب بشهادة القرآن معلومة أبداً .

[فاحكم بينهم بما أنزل الله] أي فاحكم بين اليهود وأهل الكتاب بما في القرآن عن ابن عبّاس قال : إذا ترافع أهل الكتاب إلى الحكّام يجب أن يحكموا بينهم بحكم

القرآن و شريعة الإسلام لأنّه أمر الله بأن يحكم بينهم و الأمر يقتضي الإيجاب به . وقال جماعة من المفسّرين : إنّ هذا ناسخ للتخيير في الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم (١) [ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ] أي ولا تنحرف عمّا جاءك من الحقّ متّبعاً أهواءهم ولذلك عدّاه بعن روي أنّ جماعة من اليهود قالوا : تعالوا نذهب إلى محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ لعلّنا نفتنه عن دينه ثمّ دخلوا عليه وقالوا : يا محمّد قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم و أنّا إن اتّبعناك اتّبعك كلّ اليهود و إنّ بيننا و بين خصومنا حكومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا ونحن نؤمن بك فأنزل الله الآية .

وتمسّك من طعن في عصمة الأنبياء بهذه الآية و قال : لولا جواز المعصية عليهم لما قال : « ولا تتّبع أهواءهم » والجواب أنّ ذلك مقدور له ولكن لا يفعله ولمّا كان مقدوراً له فجاز النهي وقيل : الخطاب له والمراد اُمّته كقوله : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » (٢) .

[لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً] الخطاب للاُمم الثلاث : اُمّة موسى و اُمّة عيسى واُمّة محمّد ؛ لأنّ ذكر هؤلاء قد تقدّم في قوله : « إنّا أنزلنا التوراة ، الآية » ثم : « وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم » ثمّ قال : « وأنزلنا إليك الكتاب » ومعنى شرع : بيّن و أوضح ؛ يقال : شرعت الأهاب إذا شققته و سلخته إذ الشروع في الشيء هو الدخول فيه . والشريعة : المشرعة الّتي يشرعها الناس يشربون منها فالشريعة فعيلة بمعنى المفعول وهي الأشياء الّتي أوجب الله على المكلّفين أن يشرعوا فيها . والمنهاج : الطريق الواضح ؛ قال بعضهم : الشرعة و المنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما الدين . و قال آخرون : بينهما فرق : فالشرعة عبارة عن مطلق

---

(١) قاله الجبائى على ما فى المجمع . و يمكن ان يقال بعدم التنافى بين الحكمين لامكان حمل هذه الاية على ما اذا شاء الرسول ان يحكم بينهم فيكون التخيير اقدم رتبة من وجوب الحكم بالقرآن كما اوضح عنه فيما تقدم بقوله : « فان جاؤوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم ـ وهذا هو التخيير ـ ... وان حكمت ـ وهو اختيار احد طرفى التخيير ـ فاحكم بينهم بالقسط » .

(٢) الزمر : ٦٥ .

الشريعة ، والطريقة عبارة عن مكارم الأخلاق وهي المراد بالمنهاج ؛ فالشريعة أوّل ، والطريقة آخر . وقال المبرّد : الشريعة ابتداء الطريقة ، والطريقة المنهاج المستمرّ .

و في قوله تعالى : « لكلّ جعلنا منكم شرعة » دلالة على جواز النسخ و على أنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله كان متعبّداً بشريعته فقط و كذلك اُمّته و يقوّي ذلك قوله : [ولو شاء الله لجعلكم اُمّة واحدة] أي جماعة متّفقة على شريعة واحدة لا اختلاف فيها والمراد بالمشيئة في الآية مشيئة الإلجاء خلاف ما قالته الأشاعرة .

قال الرازيّ : إن قيل : إنّه قد وردت آيات دالّة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل و آيات دالّة على حصول التباين فيها فالنوع الأوّل مثل قوله : « شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً إلى قومه أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا »[1] وقال : «اُولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده »[2] وأمّا النوع الثانى فمثل هذه الآية ؛ فحينئذ كيف طريق الجمع ؟ نعم ، فالنوع الأوّل من الآيات مصروف إلى مايتعلّق باُصول الدين و النوع الثاني مصروف إلى مايتعلّق بفروع الدين ، انتهى .

قوله : [ولكن ليبلوكم فيما آتاكم] أي لكن جعلكم على شرائع مختلفة للامتحان والتمييز بين المطيع و العاصي لترتّب الثواب والعقاب . قال الحسين بن عليّ المغربيّ : معنى الآية : لوشاء الله لم يبعث إليكم نبيّاً فتكونون متعبّدين بما في العقل وتكونون اُمّة واحدة ولكن ليختبركم فيما كلّفكم من العبادات وهو عالم بما يؤول إليه أمركم [فاستبقوا الخيرات] وبادروا في التقدّم بالخير وما أمرتكم به ؛ فإنّي ما آمركم إلّا بما هو خير لكم [إلى الله مرجعكم جميعاً] استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات وفي قوله : « فاستبقوا » دلالة على وجوب المبادرة إلى أفعال الخير ، و يكون محمولاً على الواجبات و من قال : إنّ الأمر على الندب حمله على جميع الطاعات [فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون] فيخبركم بما يرتفع الاختلاف والشكوك معه من الجزاء بين محقّكم و مبطلكم وموفيكم و مقصّركم في العمل .

---

(١) الانعام : ٩٠ .

(٢) الشورى : ١١ .

و أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون(٤٩) أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠) .

[وأن احكم] عطف على قوله : « وأنزلنا إليك الكتاب أن احكم » وأُعيد ذكر الحكم والأمر بعد ذكره في الآية الأُولى إمّا للتاكيد وإمّا لأنّهما حكمان أمر بهما لأنّ اليهود احتكموا إليه في زنى المحصن أوّلاً ثمّ احتكموا في قتيل كان فيهم [واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك] أي مايهوون من الأحكام ويطمعوك منهم من الإجابة إلى الإسلام . وقيل : المعنى : احذرهم أن يضلّوك بالكذب على التوراة بأن يقولوا : هذا الحكم كذا في التوراة ، وليس ذلك الحكم فيها بل يريدون أن تحكم لهم حسب مايهوون والفتنة هنا صرف من الحقّ إلى الباطل وفي الآية دلالة على وجوب مجانبة أهل البدع والضلال و ذوي الأهواء .

[فإن تولّوا] و أعرضوا عن حكمك [فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم] ويعاقبهم ببعض أجرامهم . وذكر البعض والمراد الكلّ كما يذكر العموم ويراد به الخصوص ، عن الجبّائيّ . أو أنّه ذكر البعض تغليظ للعقاب والمراد أنّه يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم في إهلاكهم . وقيل : إنّه أراد تعجيل بعض العقاب بما كان من التمرّد ؛ فإنّ عذاب الدنيا يختصّ ببعض الذنوب دون بعض وعذاب الآخرة يعمّ . ولعلّ المراد في الآية بنو قريظة لمّا انقضوا العهد يوم الأحزاب عوقبوا بالقتل [وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون] تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله عن امتناع القوم من الإقرار بنبوّته ولازال كان أهل الإيمان قليلاً وأهل الفسق كثيراً [أفحكم الجاهليّة يبغون] وقرء بالخطاب تبغون . و قرء حكمُ بالرفع على الابتداء وتبغون خبره والعائد محذوف من الخبر للدلالة ؛ و المعنى : أحكم الجاهليّة تبغون ، و المراد أنّ هذا الحكم الّذي تبغونه إنّما يحكم به حكّام الجاهليّة فأراد هؤلاء اليهود المتحاكمين إلى الرسول في أمر الرجم والدية أن يحكم رسول الله بموجب هواهم كما كان أهل الجاهليّة يحكمون عن هوى أنفسهم .

قال مقاتل : كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ فلمّا بعث تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة : بنو النضير إخواننا ؛ أبونا واحد و ديننا واحد فإن قتل بنو النضير منّا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر ، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منّا مائة وأربعين وسقاً من تمر ، وأُروش جراحاتنا على النصف من أُروش جراحاتهم ؛ فاقض بيننا وبينهم فقال ﷺ : فإنّي أحكم أنّ دم القرظيّ وفاء من دم النضيريّ ، ودم النضيريّ وفاء من دم القرظيّ ؛ ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل ولا جراحة . فغضب بنو النضير و قالوا : لا نرضى بحكمك فإنّك عدوّ لنا فأنزل الله : « أفحكم الجاهليّة يبغون ، الآية » يعني حكمهم الأوّل يطلبون و ذلك أنّهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إيّاه ، و إذا وجب على أقويائهم لم يأخذوهم به فمنعهم الله عن ذلك بهذه الآية .

ثمّ قال : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» فإنّهم هم الّذين يعرفون أنّه لا أحد أعدل من الله حكماً و بياناً . قال الرازيّ : اللاّم في قوله : « لقوم » للبيان كاللاّم في «هيت لك» أي هذا الخطاب وهذا البيان لهؤلاء . وقال الجبّائيّ : اُقيمت اللاّم مقام عند وهو جائز إذا تقاربت المعاني وارتفع اللّبس ؛ قال بعضهم : إنّ الحروف يقوم بعضها مقام بعض .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين (٥١) فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن ياتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين (٥٢) و يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين (٥٣) .

النزول : قيل : إنّ عبادة بن الصامت جاء إلى رسول الله ﷺ فتبرّأ عنده من موالاته اليهود فقال عبدالله بن اُبيّ : لكنّي لا أتبرّء منهم لأنّي أخاف الدوائر فنزلت الآية .

ومعنى [لاتتّخذوهم أولياء] أي لاتعتمدوا على الاستنصار بهم، ولا تتودّدوا إليهم وتمّ الكلام عند قوله :«أولياء» ثمّ ابتدأ سبحانه فقال : [بعضهم أولياء بعض] ثمّ قال : [ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم] قال ابن عبّاس : يريد كأنّه مثلهم وهذا تغليظ وتشديد من الله في وجوب مجانبة المخالف في الدين [إنّ الله لايهدي القوم الظالمين] وخصّ اليهود والنصارى بالذكر ، لأنّ سائر الكفّار بمنزلتهما في وجوب معاداتهم ؛ فإنّ الكفر ملّة واحدة والله لايهدي إلى طريق الجنّة الكفّار لكفرهم واستحقاقهم العذاب الدائم . فترى يامحمّد [الّذين في قلوبهم مرض] أي شكّ ونفاق يعني عبدالله بن اُبيّ وأضرابه [يسارعون فيهم] أي في موالاة اليهود ومناصحتهم و معاونتهم على المسلمين قال الكلبيّ : كانوا يميرونهم [يقولون] أي قائلين وهو في موضع الحال ؛ عبدالله وأصحابه كانوا يقولون [نخشى أن تصيبنادائرة] أي نخاف أن يدور الدهر علينا بمكروه ـ يعنون الجدب ـ فلا يميروننا ، وذلك أنّ اليهود ونصارى نجران كانوا أهل ثروة و كانوا يعينون المنافقين على مهمّاتهم ويقرضونهم والمراد من الدائرة الحوادث الهائلة .

وقيل : المراد أنّا نخشى أن لايتمّ الأمر لمحمّد صلى الله عليه وآله فيدور الأمر كما كان قبل ذلك فقال سبحانه : [فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده] أي يقرب أن يأتي بالفتح لرسول الله على أعدائه وإظهار المسلمين على أعدائهم والمراد من عنده تعالى يقطع أصل اليهود أو يخرجهم من بلادهم [فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين] أي فيصبح أهل النفاق من ولايتهم لليهود والنصارى ودسّ الأخبار إليهم نادمين إذا فتح الله على المؤمنين وكذلك إذا ما ماتوا وتحقّقوا دخول النار ندموا على مافعلوه في الدنيا من الكفر والنفاق [ويقول الّذين آمنوا] أي صدقوا الله ورسوله ظاهراً وباطناً تعجّباً من نفاق المنافقين وجرأتهم على الله بالإيمان الكاذبة .

وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والشام . والباقون بالواو وكذلك هي في مصاحف أهل العراق ؛ قال الواحديّ : وحذف الواو ههنا كإثباتها وذلك لأنّ في الجملة ذكراً من المعطوف عليها فإنّ الموصوف بقوله : « يسارعون » هم الّذين قال فيهم المؤمنون : [أهؤلاء الّذين أقسموا بالله] فلمّا حصل

في كلّ واحدة من الجملتين ذكر من الأُخرى حسن العطف بالواو وبغير الواو .

ونظيره قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم »(١) لمّا كان في كلّ واحدة من الجملتين ذكر ما تقدّم أغنى ذلك عن ذكر الواو ثمّ قال : «ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم»(٢) فأُدخل الواو يدلّ ذلك على أنّ حذف الواو وذكرها جائز وبالجملة أنّ المؤمنين يقولون متعجّبين من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى وقالوا : إنّهم كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم إنّهم معنا ومن أنصارنا فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا ؟ وانتصب «جهد» لأنّه مصدر أي جهدوا جهد أيمانهم .

فقوله : أهؤلاء الّذين أقسموا بالله [جهد أيمانهم أنّهم لمعكم] الاستفهام إنكار ما فعلوه واستبعاد المؤمنين من فعل المنافقين واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبره فأقسموا بأغلظ الأيمان أنّهم لمعكم أي أنّهم مؤمنون ومعكم في معاونتكم على أعدائكم [حبطت أعمالهم] وضاعت أعمالهم الّتي عملوها وبطل ما أظهروه من الإيمان فلم تستحقّوا به الثواب يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين ويحتمل أن يكون من كلام الله فأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة ؛ أمّا الدنيا فليسوا من أنصار الله وأمّا الآخرة فقرنهم الله مع الكفّار وورث المؤمنون منازلهم .

يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٤)

قرء يرتدد بدالين ويرتدّ بدال مشدّدة .

قال صاحب الكشّاف : إنّه كان أهل الردّة إحدى عشر فرقه :

ثلاث في عهد رسول الله : بنو مدلج «ورئيسهم» ذو الخمار وهو الأسود العنبسيّ وكان كاهناً ادّعى النبوّة في اليمن واستولى على بلادها وأخرج عمّال رسول الله فكتب إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن فأهلكه الله على يد فيروز الديلميّ فقتله وأخبر جبرئيل

(١و٢) الكهف : ٢٢ .

رسول الله بقتله ليلة قتل فسرّ المسلمون وقبض رسول الله من الغد ، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأوّل .(١)

وبنو حنيفة قوم مسيلمة ادّعى النبوّة و كتب إلى رسول الله : من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله ؛ أمّا بعد فإنّ الأرض نصفها لي و نصفها لك فأجابه الرسول من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب : أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتّقين . فحاربه أبو بكر بجنود المسلمين وقتل على يد وحشيّ قاتل حمزة ، وكان وحشيّ يقول : قتلت خير الناس في الجاهليّة و شرّ الناس في الإسلام ، أراد : في جاهليّتي و في إسلامي .

وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ادّعى النبوّة فبعث إليه رسول الله خالداً فانهزم بعد القتال إلى الشام ثمّ أسلم .

وسبع في عهد أبي بكر : «فزارة» قوم عيينة بن حصن . و«غطفان» قوم قرّة بن سلمة العشيريّ . و« بنو سليم» قوم الفجأة بن عبد ياليل . و«بنو يربوع » قوم مالك بن نويرة . و «بعض بني تميم » قوم سجاح بنت المنذر الّتي ادّعت النبوّة وزوّجت نفسها من مسيلمة الكذّاب . و« كندة »قوم أشعث بن قيس .و«بنو بكر بن وائل» بالبحرين قوم الحطم بن زيد و كفى الله جميعاً .

و فرقة في عهد عمر : «غسّان» قوم جبلة بن الأيهم وذلك أنّ جبلة أسلم على يد عمر وكان يطوف ذات يوم جارًّا رداءه فوطىء رجل طرف ردائه فغضب فلطمه فتظلّم الرجل إلى عمر فقضى له بالقصاص عليه إلّا أن يعفو عنه فقال جبلة أنا أشتريها بألف فأبى الرجل فلم يزل يزيد في الفداء إلى أن بلغ عشرة ألف فأبى الرجل إلّا القصاص فاستنظر جبلة من عمر فأنظره فهرب إلى الروم وارتدّ ؛ قال الشاعر :

تنصّرت الأشراف من أجل لطمة

قوله : [يا أيّها الّذين آمنوا] لمّا بيّن حال المنافقين و علم أنّ قوماً منهم يرتدّون بعد وفاته ظاهراً أخبر بأنّه [من يتولّ منكم] الكفّار [ويرتدّ عن دينه]

---

(١) هذا على مذهب الجمهور من وقوع رحلته صلى الله عليه وآله في شهر الربيع .

فليعلم أنّ الله يأتي بقوم آخرين ينصرون هذا الدين على أبلغ الوجوه وأنّه تعالى لا يخلّي دينه من أنصار يحمونه [فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم و يحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين] أي رحماء على المؤمنين ، غلاظ شداد على الكافرين قال ابن عبّاس : تراهم للمؤمنين كالولد لوالده و كالعبد لسيّده وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع لفريسته ؛ يجاهدون في سبيل الله بالقتال لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه [لا يخافون لومة لائم] في طاعة الله و اختلف في من وصف بهذه الأوصاف ؛ قيل : هم أبوبكر وأصحابه الّذين قاتلوا أهل الردّة ، عن الحسن و قتادة والضحاك . و قال السدّيّ : هم الأنصار . وقال مجاهد : هم أهل اليمن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً و أرقّ أفئدة ؛ الإيمان يمانيّ والحكمة يمانيّة . وقال عياض بن غنم الأشعريّ لمّا نزلت هذه الآية أومأ رسول الله إلى أبي موسى الأشعريّ فقال : هم قوم هذا . وقيل : إنّهم الفرس روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق سلمان فقال : هذا وذووه ثمّ قال : لو كان الدين معلّقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس .(١)

وقيل : هم أمير المؤمنين عليّ وأصحابه حين قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين و هذه الرواية عن عمّار وحذيفة و ابن عبّاس . وقال الطبرسيّ : وهو المرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله و يؤيّد هذا القول أنّ النبيّ وصفه بهذه الصفات المذكورة في الآية فقال فيه - وقد ندبه لفتح خيبر - : لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله كرّاراً غير فرّار ولا يرجع حتّى يفتح الله على يده ؛ ثمّ أعطاها إيّاه . فأمّا الوصف باللّين لأهل الإيمان والشدّة على الكفّار والجهاد في سبيل الله مع أنّه لا يخاف لومة لائم لا يمكن لعاقل أن ينكر هذا الأمر عنه عليه السلام لمّا ظهر من شدّته على أهل الشرك والكفر ومقاماته المشهورة في تشديد الدين .

و يؤيّد ذلك إنذار رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بقتال عليّ عليه السلام لهم من بعده حيث جاءه سهيل بن عمرو في جماعة منهم فقالوا له : يا محمّد إنّ أرقّائنا لحقوا بك فارددهم علينا فقال رسول الله : لتنتهنّ يا معاشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل

---

(١) رواه وما قبله مرسلا في الجمع .

القرآن كما ضربتكم على تنزيله ؟ فقال له بعض أصحابه : من هو يارسول الله ؟ أبو بكر؟ قال : لا . قال : فعمر؟ قال : لا ، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة و كان عليّ يخصف نعل رسول الله .

و روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال يوم البصرة : والله ماقوتل أهل هذه الآية حتّى اليوم .

و روى أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره بالإسناد عن الزهريّ عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : يرد عليّ قوم من أصحابي يوم القيامة فيمنعون عن الحوض ؛ فأقول : أصحابي أصحابي فيقال : إنّك لاعلم لك بما أحدثوا من بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى . وقيل : أنّ الآية عامّة في كلّ من استجمع هذه الخصال إلى يوم القيامة .

و ذكر عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره أنّها نزلت في مهديّ الاُمم وأصحابه و أنّها خطاب لمن ظلم آل محمّد وقتلهم وغصبهم حقّهم ويمكن أن يكون قوله : « فسوف يأتي الله بقوم » أن يكون ذلك القوم غير موجودين في وقت نزول الخطاب فهو يتناول من يكون بعدهم و بهذه الصفة إلى قيام الساعة .

قوله : [ذلك فضل الله] أي هذا الأمر من محبّتهم لله ولين جانبهم للمؤمنين وشدّتهم على الكافرين بفضل و توفيق و لطف منه تعالى [يؤتيه من يشاء] يعطيه من يعلم أنّه محلّ له [والله واسع] جواد لايخاف نفاد ما عنده [عليم] بمن يكون من أهله ولايبذله إلّا لمن يقتضي حكمته .

قال الرازيّ في تفسيره : و قال جماعة : إنّ الآية نزلت في عليّ و يدلّ عليه وجهان : الأوّل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا دفع الراية إلى عليّ عليه السلام يوم خيبر وقال : لأدفعنّ الراية غداً إلى رجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله و هذا هو الصفة المذكورة في الآية . والوجه الثاني أنّه تعالى ذكر بعد هذه قوله : « إنّما وليّكم الله و رسوله و الّذين آمنوا ، الآية » وهذه الآية نزلت في حقّ عليّ فكان الأولى جعل ما قبلها أيضاً في حقّه ، انتهى كلامه .

قوله تعالى : انما وليكم الله و رسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون (٥٥) ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون (٥٦) .

الوليّ : الّذي يلي تدبير الأمر ؛ يقال : فلان وليّ المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها ، وفلان وليّ الدم : من كان إليه المطالبة بالقود . والسلطان وليّ أمر الرعيّة . ويقال لمن يعيّنه لخلافته عليهم بعده : وليّ عهده ، والوليّ هو الّذي يلي النصرة والمعونة ولفظة «إنّما» كلمة مخصّصة لما أثبت بعده ونافية لما لم يثبت ؛ يقول القائل لغيره : إنّما لك عندي درهم فيكون مثل أن يقول له : ليس لك عندي إلّا درهم .

النزول : قال الطبرسيّ في المجمع : حدّثنا السيّد أبو الحامد مهديّ بن نزار الحسينيّ القاينيّ ، قال : حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ ، قال : حدّثني أبو الحسن محمّد بن القاسم الفقيه الصيدلانيّ ، قال : أخبرنا أبو محمّد عبدالله بن محمّد الشعرانيّ قال : حدّثنا أبو عليّ أحمد بن عليّ بن رزين البياشانيّ قال : حدّثنا المظفّر بن الحسنيّ الأنصاريّ قال : حدّثنا السنديّ بن عليّ الورّاق قال : حدّثنا يحيى بن عبدالحميد الحمانيّ عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن عباية بن ربعيّ قال :

بينا عبدالله بن عبّاس جالس على شفير زمزم يقول : «قال رسول الله» إذ أقبل رجل متعمّم بعمامة فجعل ابن عبّاس لا يقول : «قال رسول الله» إلّا قال الرجل : «قال رسول الله» فقال ابن : عبّاس سألتك بالله من أنت فكشف العمامة عن وجهه وقال : أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدريّ أبو ذرّ الغفاريّ سمعت رسول الله بهاتين و إلّا صمّتا ورأيته بهاتين و إلّا عميتا يقول : عليّ قائد البررة و قاتل الكفرة ؛ منصور من نصره ومخذول من خذله .

أما إنّي صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء فقال : اللّهم اُشهدك أنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً وكان عليّ راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه وكان يتختّم بها ، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين رسول الله

فلمّا فرغ النبيّ من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال : اللّهمّ إنّ أخي موسى سألك فقال : « ربّ اشرح لي صدري و يسّرلي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي و اجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري و أشركه في أمري » فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : « سنشدّ عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطاناً » اللّهم وأنا محمّد نبيّك وصفيّك اللّهمّ فاشرح لي صدري و يسّرلي أمرى و اجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به ظهري . قال أبوذرّ : فوالله ما استتمّ كلامه حتّى نزل عليه جبرئيل من عندالله فقال : يا محمّد اقرأ قال : وما أقرء ؟ قال :اقرأ : « إنّما وليّكم الله و رسوله ، الآية » و روى هذاالخبر أبوإسحاق الثعلبيّ في تفسيره بهذالإسناد بعينه .

و روى أبوبكر الرازيّ في كتاب أحكام القرآن على ماحكاه المغربيّ عنه و الرمّانيّ والطبريّ أنّها نزلت في عليّ حين تصدّق بخاتمه و هوراكع ، قاله مجاهد والسدّيّ والمرويّ عن أبي جعفر و أبي عبدالله وجميع علماء أهل البيت و قال الكلبيّ : نزلت في عبدالله بن سلام و أصحابه لمّا أسلموا فقطعت اليهود موالتهم نزلت الآية وفي رواية عطا : قال عبدالله بن سلام : يا رسول الله أنا رأيت عليّا يتصدّق بخاتمة وهو راكع ونحن نتولّاه .

وقد رواه السيّد أبوالحامد عن أبي القاسم الحسكانيّ بالإسناد المتّصل المرفوع إلى أبي صالح عن ابن عبّاس قال : أقبل عبدالله سلام ومعه نفر من قومه ممّن قد آمنوا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله فقالوا يا رسول الله إنّ منازلنا بعيدة وليس لنا مجلس ولا متحدّث دون هذا المجلس و إنّ قومنا لمّا رأونا آمنّا بالله و رسوله وصدّقناه رفضونا و آلوا على نفوسهم أن لايجالسونا ولاينا كحونا ولا يكلّمونا فشقّ ذلك علينا فقال لهم النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إنّما وليّكم الله و رسوله ، الآية » ثمّ إنّ النبيّ خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع فبصر بسائل فقال صلّى الله عليه وآله : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ فقال : نعم خاتم من فضّة فقال النبيّ : من أعطاكه ؟ قال : ذلك القائم ـ و أشار بيده إلى عليّ ـ فقال النبيّ : على أيّ حال أعطاك ؟ قال : أعطاني وهوراكع فكبّر النبيّ صلّى الله عليه وآله ثمّ قرأ « ومن يتولّ الله و رسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون » .

وفي حديث إبراهيم بن الحكم من ظهير ما يقرب هذا ولا حاجة إلى الإطالة .

المعنى : بيّن سبحانه بقوله : [إنّما وليّكم الله ورسوله] من له الولاية على الخلق والقيام بأمورهم ويجب طاعته عليهم فقال : وليّكم الّذي ينبغي أن يتولّى مصالحكم هوالله و رسوله يفعله بأمره [والّذين آمنوا] ثمّ وصف الّذين آمنوا فقال : [الّذين يقيمون الصلاة] بشرائطها [و يؤتون] أي و يعطون [الزكاة و هم راكعون] أي في حال الركوع و قوله : « وهم راكعون » لايجوز جعله عطفاً على ماتقدّم ؛ لأنّ الصلاة قدتقدّمت والصلاة مشتملة على الركوع فكانت إعادة ذكر الركوع تكراراً فوجب جعله حالاً أي يؤتون الزكاة حال كونهم راكعين . وأجمعوا على أنّ إيتاء الزكاة حال الركوع لايكون إلّا في حقّ عليّ و تظاهرت الروايات على أنّ الآية نزلت في حقّ عليّ .

ولفظ الوليّ في هذه الآية لايجوز أن يكون بمعنى الناصر؛ لأنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامّة في كلّ المؤمنين بدليل أنّه تعالى ذكر بكلمة إنّما و كلمة إنّما للحصر لقوله : «إنّما الله إله واحد » والولاية بمعنى النصرة عامّة لقوله : « والمؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض » و هذا يوجب القطع بأنّ الولاية المذكورة في هذه الآية ليست بمعنى النصرة و كانت بمعنى التصرّف في الأمور فصار معنى الآية : إنّما المتصرّف في أُموركم أيّها المؤمنون هوالله ورسوله والمؤمنون الموصوفون بالصفة الفلانيّة ويجب أن يكون الموصوف بهذه الصفة إمام الأُمّة ومتصرّفاً في كلّ الأمور ؛ فثبت بهذه الآية إمامة شخص موصوف بهذه الصفة وقدتظاهرت الروايات على أنّ الآية نزلت في عليّ فكانت الآية مخصوصة به ودالّة على إمامته .

قال الطبرسيّ : وفي الآية دلالة على أنّ الولاية مختصّة به عليه السلام قال سبحانه: «إنّما وليّكم الله» فخاطب جميع المؤمنين ودخل في الخطاب النبيّ صلى الله عليه وآله وغيره ثمّ قال: «ورسوله» فأخرج النبيّ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته ثمّ قال : «الّذين آمنوا» فوجب أن يكون الّذي خوطب بالآية غير الّذي جعلت له الولاية و إلّا أدّى إلى أن يكون المضاف هوالمضاف إليه بعينه وإلى أن يكون كلّ واحد من المؤمنين وليّ نفسه

وذلك باطل، قاله الواحديّ : انتهى .

واستدلّ أهل العلم بهذه الآية على أنّ العمل القليل لا يقطع الصلاة ، و أنّ دفع الصدقة الى السائل في الصلاة جائز مع نيّة القربة .

[ومن يتولّ الله] بالقيام بطاعته [و رسوله] باتّباع أو امره [والّذين آمنوا] باتّخاذهم أولياء [فإنّ حزب الله هم الغالبون] كأنّه قيل:ومن يتولّ هؤلاء فهو حزب الله وجنده وحزب الله هم الغالبون . و إضافتهم إليه تعالى تشريف لهم وتعريض بأنّ من يوالي غير هؤلاء فإنّه حزب الشيطان . والحزب : الطائفة يجتمعون لأمر .

روي أنّ الله تعالى شكا من هذه الأمّة ليلة المعراج شكايات : منها : إنّي لم أكلّفهم عمل الغد وهم يطلبون منّي رزق الغد .

ومنها : إنّي لا أرفع أرزاقهم إلى غيرهم وهم يرفعون عملهم إلى غيري .

والثالثة أنّهم يأكلون رزقي و يشكرون غيري ويخونون معي و يصالحون خلقي .

والرابعة أنّ العزّة لي وأنا المعزّ وهم يطلبون العزّة من سواي .

والخامسة أنّي خلقت النار لكلّ كافر وهم يجتهدون أن يوقعوا أنفسهم فيها .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين (٥٧) واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (٥٨)

نهى سبحانه بالنهي العامّ عن اتّخاذ الكفار أولياء . قرأ أبو عمرو والكسائيّ الكفّار في الآية بالجرّ عطفاً على قوله : «من الّذين أوتوا الكتاب» أي ومن الكفّار و الباقون بالنصب عطفاً على قوله : «الّذين اتّخذوا» بتقدير و لا الكفّار .

النزول : قيل : كان رفاعة بن زيد و سويد بن الحرث أظهر الإيمان ثمّ نافقا و كان رجال من المسلمين يوادّونهما فأنزل الله فيهم الآية . و هذه الآية تقضي امتياز أهل الكتاب عن الكفّار ؛ لأنّ العطف يقتضي المغايرة وقوله : «لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب» (١) صريح في كونهم كفّاراً ؛ وطريق التوفيق بينهما أنّ كفر المشركين

(١) البينة : ١ .

أعظم وأغلظ ولهذا تخصّصوا باسم الكفر .

[لاتتّخذوالّذين اتّخذوا دينكم هزواً و لعباً] و معنى اتّخاذهم دين المسلمين مهزوءاً به إظهارهم باللّسان مع الاصرار على الكفر بالقلب و قدرتّب النهي عن موالاتهم فإنّ من هذا شأنه ينبغي أن يعاديه لاأن يواليه .

قيل : كان المنافقون يتضاحكون عندالقيام إلى الصلاة لتنفرالناس عنها وكان بعض الكفّاريقولون : يامحمّد لقدأبدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى فإن كنت نبيّاً فقد خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير ؟[1] فأنزل الله : «وإذا ناديتم، الآية » ولمّا كان منادي رسول الله ينادي للصلاة و قيام المسلمون إليها قالت اليهود : قاموا لاقاموا ، صلّوا لا صلّوا على طريق الاستهزاء .

قوله : [من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم] يعني اليهود والنصاري[والكفّار] من سائر طبقات أهل الكفر [أولياء] أي أخلاّء وبطانة [واتّقوالله] في موالاتهم بعد النهي عنها [إن كنتم مؤمنين] بوعده ووعيده فكيف يرضى المؤمن موالاة من يطمع في الدين ؟ بل لابدّ وإن يكافيه بالمقت والعداوة .

[وإذا ناديتم إلى الصلاة اتّخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون] أي لو كان لهم عقل كامل لعلموا أنّ تعظيم الخالق المنعم و امتثال أو امره من أحسن الأعمال وأشرف الأفعال كما قيل : أشرف الحركات الصلاة وأنفع السكنات الصيام .

قال السدّيّ : كان رجل من النصارى بالمدينة وكلّما سمع المؤذّن ينادي أشهد أن لاإله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله يقول : اُحرق الكاذب فدخلت خادمته بنار ذات ليلة فتطايرت شرارة منها في البيت فأحرقت البيت واحترق هو وأهله .

قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان أكثركم فاسقون (٥٩)

ولمّا حكى سبحانه عنهم أنّهم اتّخذوا دين الإسلام لعباً وهزواً قال سبحانه : [قل] يا محمّد ما الّذي تنقمون من هذا الدين وتجدون فيه ممّا يوجب اتّخاذه هزواً ؟

---

(١) العير بالفتح فالسكون : الحمار الاهلى والوحشى .

يقال : نقمت الشيء إذا كرهته وأنكرته بكسر القاف وفتحها والفصيح : الكسر .

النزول : روي أنّ نفراً من اليهود سألوا رسول الله عن دينه فقال صلى الله عليه وآله : أومن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فحين سمعوا ذكر عيسى قالوا : لانعلم أهل دين أقلّ حظّاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شرّاً من دينكم فأنزل الله هذه الآية بأنّ الإيمان بالله والإيمان بجميع الأنبياء ليس ممّا ينقم فلم تنقموه علينا ؟ [وإنّ أكثركم فاسقون] عطف على «أن آمنّا» أي خارجون أنتم عن الدين لأنكم لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحّة كتابنا وديننا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم مع أن كلّهم فاسقون لأنّهم الحاملون لأعقابهم على التمرّد والفساد [1] أو أنّ قليلاً منهم آمنوا .

واعلم أنّ قرأة العامّة : أنّ بفتح الألف . وقرأ نعيم بن ميسرة : «إنّ» بالكسر فقوله : «إنّ أكثركم فاسقون» يدلّ على سبيل التعريض إنّهم لم يتّبعوهم فكان المعنى : وما تنقمون منّا إلّا أن آمنّا وما فسقنا مثلكم أو يكون المراد أنّه لمّا ذكر تعالى ماينقم اليهود عليهم من الإيمان بجميع الرسل وليس ذلك ممّا ينقم ذكر في مقابلته فسقهم وهو ممّا ينقم ، ومثل هذا حسن في صنعة الازدواج كقول القائل : هل تنقم منّي إلّا أنّي عفيف وأنّك فاجر وأنّي فقير وأنّك غنيّ ، ويحسن هذا المعنى على سبيل المقابلة . ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع أي وماتنقمون منّا إلّا الإيمان بالله مع أنّ أكثركم فاسقون أو يكون التقدير : وما تنقمون منّا إلّا بأن آمنّا بالله وبسبب فسقكم نقمتم الإيمان علينا ، ولأجل أنّ أكثركم فاسقون تنقمونا فيكون تعليل معطوف على تعليل محذوف ، ويكون التقدير : وما تنقمون منّا إلّا الإيمان لقلّة إنصافكم ولأجل أنّ أكثركم فاسقون ، والمعاني كلّها متقاربة وحاصل التقادير أنّ السبب في نقمتكم إيّانا إيماننا وفسقكم .

---

(١) فالاعقاب قبل انحرافهم عن الحق - بسبب اغواء سالفيهم اياهم - ليسوا بفاسقين ، فهم الاقلون في مقابل هذه الاكثرين الفاسقين . هذا ولاريب ان الوجه الثاني اقرب .

قوله تعالى : قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عندالله من لعنه الله و غضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل(٦٠) .

أمر سبحانه نبيّه أن يخاطب المستهزئين من اليهود والكفّار فقال : [قل] يا محمد : [هل] أخبركم [بشرّ من] أهل [ذلك] الدين وممّا ينقم في إيماننا [مثوبة] أي ثواباً وجزاءً والتقدير : إن كان ذلك عندكم شرّاً فأنا أخبركم بشرّ منه عاقبة عند الله ولابدّ من حذف المضاف فمعنى «بشرّ من ذلك» أي بشرّ من أهل ذلك لأنّه قال : «من لعنه الله» ولا يقال : الملعون شرّ من ذلك الدين بل يقال : إنّه شرّ ممّن له ذلك الدين .

فإن قيل : فهذا يقتضي كون الموصوفين بذلك الدين محكوماً عليهم بالشرّ و معلوم أنّه ليس كذلك . فالجواب أنّه إنّما خرج الكلام على حسب زعمهم واعتقادهم فإنّهم حكموا بأنّ دينهم شرّ فقيل لهم : هب أنّ الأمر كذلك ولكن من لعنه الله و غضبه ومسخه شرّ من ذلك كقوله : «وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين »[١] ومثوبة نصب على التمييز ، ووزنها مفعلة مثل مقولة وهو بمعنى جزاء وقد جاءت مصادر على مفعول كالميسور .

فإن قيل : المثوبة مختصّة بالإحسان فكيف جاءت في الإساءة ؟ فالجواب أنّه بطريق قوله : «فبشّرهم بعذاب أليم»[٢] ومثل قولهم : تحسنه بينهم ضرب وجيع .

قوله : [من لعنه الله] في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف فإنّه لمّا قال : «هل أنبّئكم بشرّ من ذلك » فكأنّ قائلاً قال : من ذلك ؟ فقيل : هو من لعنه الله ؛ ونظيره قوله تعالى : قل : «أفأنبّئكم بشرّ من ذلكم النار »[٣] معناه هو النار فكذلك هنا ويجوز أن يكون في محلّ الخفض بدلاً من شرّ والمعنى أنبّئكم بمن لعنه الله [وغضب عليه] بفسقه وكفره والمراد من غضبه عليه : أراده العقوبة به أو الاستخفاف بأن ضرب عليهم الذلّة والجزية [وجعل منهم القردة والخنازير] أي مسخهم قردة وخنازير . قال

---

(١) سبأ : ٢٤ .

(٢) التوبة : ٣٤ .

(٣) الحج : ٧٢ .

المفسّرون : يعني بالقردة أصحاب السبت ، و بالخنازير : كفّار مائدة عيسى. قال ابن عبّاس : إنّ الممسخين من أصحاب السبت لأنّ شبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير .

[وعبد الطاغوت] قال الزّجاج : هو عطف نسق على «لعنه الله» أي من لعنه الله ومن عبد الطاغوت . ذكر صاحب الكشّاف في قوله : «وعبد الطاغوت» أنواعاً من القراآت و كذلك صاحب المجمع الطبرسيّ قال : قرأ حمزة : وعبُد الطاغوت بضمّ الباء وجرّ التاء في طاغوت ، والباقون من القرّاء السبع و عبد الطاغوت بفتح الباء ونصب التاء . و قرأ اُبيّ : وعبدوا الطاغوت . وقرأ ابن مسعود : ومن عبدوا الطاغوت وعابد الطاغوت عطفاً على القردة .وقرء : وعابدي الطاغوت . وقرء : وعبّاد الطاغوت . ورواية عكرمة عن ابن عبّاس: وعبّد الطاغوت بتشديد الباء وفتح الدال وخفض التاء . وقرأ أبوجعفر الرواسيّ : وعُبد الطاغوت على المجهول ، ورواية علقمة عن ابن مسعود : وعبد الطاغوت على وزن صرد والمشهور منها : وعبد الطاغوت بفتح الباء ونصب التاء في الطاغوت . وقرء غير هذه القراآت لاحاجة في الإطالة بذكرها .

وفي قوله : «وجعل منهم القردة والخنازير» احتجّت الأشاعرة بهذه الآية على أنّ الكفر بقضاء الله ؛ قالوا : هو الّذي جعل فيهم تلك العبادة . لكنّ هذا القول بمعزل عن القبول ولا تعلّق لهم بهذه الآية بل معنى الآية حكم عليهم بذلك ووصفهم به مثل قوله: « وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمن إناثاً » (١) و لا شبهة في أنّه تعالى غير ظالم لعباده وأكثر ما تضمّنته الأخبار أنّ معنى جعل : خلق ، أي خلق من يعبد الطاغوت وهو على قراءة حمزة وغيره ممّن قرأ عباداً وعباد ولا شبهة في أنّه خلق الكافر وأنّه لا خالق للكافر سواه غير أنّه لا يوجب أن يكون خلق كفره وجعله كافراً وليس لهم أن يقولوا : إنّا نستفيد من قوله : وجعل منهم من عبد الطاغوت أنّه خلق ما به كان عابداً كما نستفيد من قوله : « وجعل منهم القردة والخنازير» أنّه جعل ما به كانوا كذلك بل لأنّ الدليل قد دلّ على أنّ ما به يكون القردة قردة والخنزير خنزيراً لا يكون إلّا من فعل الله وليس كذلك ما به يكون الكافر كافراً فإنّه قد ثبت أنّه سبحانه يتعالى عن ذلك فافترق الأمران ثمّ قال : [اُولئك شرّ مكاناً] أي هؤلاء الّذين وصفهم الله باللّعنة والغضب شرّ

(١) الزخرف : ١٩ .

مكاناً لأنّ مكانهم سقر ولا شرّ في مكان المؤمنين و هذا نظير قوله : «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرّاً»[1] [وأضلّ عن سواء السبيل] أي هم أبعد من النجاة والطريق المستقيم قال المفسّرون : لمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون أهل الكتاب وقالوا : يا إخوان القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم .

قوله تعالى : وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦١) وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون (٦٢) لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون (٦٣) .

النزول : نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول و يظهرون له الإيمان نفاقاً فأخبره الله تعالى بشأنهم بأنّهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلّق بقلبهم شيء من دلائلك وتذكيراتك والباء في قوله : «دخلوا بالكفر» وخرجوا به تفيد بقاء الكفر معهم حالتي الدخول والخروج من غير نقصان ولا تغيّر فيه البتّة كما تقول : دخل زيد بثوبه وخرج به .

والفائدة في ذكر كلمة «قد» تقريب الماضي من الحال والفائدة في ذكر كلمة «هم» بيان إضافة الكفر إليهم ونفي أن يكون من النبيّ في ذلك فعل ولم يسمعوا منك يا محمّد عند جلوسهم معك ما يوجب كفراً بل هم الّذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم .

قالت المعتزلة : أنّه تعالى أضاف الكفر إليهم حالتي الدخول والخروج على سبيل الذمّ وبالغ في تقرير تلك الإضافة بقوله : «وهم قد خرجوا به» فدلّ هذا على أنّه من العبد لا من الله قال الرازيّ : والجواب المعارضة بالعلم والداعي .

أقول : هذا الجواب منه أضعف من حجّة نحويّ ؛ لأنّه من أين ثبت أنّ العلم من الله بكفرهم يوجب ويستلزم كفرهم ؟ ومن أين ثبت هذه الملازمة ؟ فلو كان العلم مستلزماً لوقوع الأمر فلابدّ أن نقول : إنّ من يعلم أنّ زيداً يموت غداً أو يبرء من مرضه فيقول : إنّ زيداً هو الّذي أماته أو أبرأه من مرضه فلذلك علمه تعالى بحال خلقه . وأمّا مسألة الداعي فلو كان الداعي غير مقدور الترك فالأمر كذلك لكنّ الداعي مقدور الترك

(١) الفرقان : ٢٤ .

فوجود الداعي غير مستلزم للفعل فلم يقع الملازمة وبقي الاختيار وبطل الجبر فتأمّل.

المعنى: أخبر الله عن هؤلاء المنافقين بقوله : [وإذا جاؤوكم] أيّها المؤمنون [قالوا آمنّا] أي صدقنا [وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به] أي دخلوا وخرجوا كافرين والكفر معهم في كلتا الحالتين . أكّد الكلام بالضمير تمييزاً لهم عن غيرهم بهذه الصفة [والله أعلم بما كانوا يكتمون] من نفاقهم إذ أظهروا بألسنتهم ما أضمروا خلافه في قلوبهم ثمّ بيّن الله خصالاً أُخر ذميمة فقال : [وترى] يا محمّد [كثيراً] منهم قيل : المراد بالكثير رؤساؤهم وعلماؤهم [يسارعون] ويبادرون [في الإثم والعدوان] والفرق بين الإثم والعدوان أنّ الإثم الجرم كائناً ما كان، والعدوان الظلم وقيل : الإثم: الكذب ، والعدوان : ما يتعدّى إلى الغير [وأكلهم السحت] أي الحرام والرشوة وقدمرّ تفسير السحت .(١)

قال أهل المعاني : إنّ لفظ المسارعة يستعمل في أكثر الأمر في الخير فكان اللّائق بهذا الموضع لفظ العجلة لأنّها من الشيطان إلّا أنّه تعالى ذكر لفظ المسارعة لبيان أنّهم يقدمون على هذه المنكرات كأنّهم محقّون فيه ثمّ قال : [لبئس ما كانوا يعلمون] أي بئس العمل عملهم [لولا ينهاهم الربّانيّون] أي هلّا ينهاهم والكناية في ضمير «هم» يعود إلى الكثير . قال الحسن : الربّانيّون علماء أهل الإنجيل ، والأحبار علماء أهل التوراة والنسبة إلى الربّ من حيث اتّصافهم وتخلّقهم بأخلاق الله كما تقول: روحانيّ بالنسبة إلى الروح وبحرانيّ بالنسبة إلى البحر ؛ وبخّهم الله بتركهم النهي عن منكر قومهم [والأحبار عن قولهم الإثم] وهو كلّ قول قالوه بخلاف الحقّ من الخرافات وغيرها أو قولهم : آمنّا وليسوا بمؤمنين [وأكلهم السحت] أي الحرام مع علمهم بقبحها [لبئس ما كانوا يصنعون] هو أبلغ من قوله : لبئس ما كانوا يعملون لأنّ الصنع أقوى من العمل فإنّ العمل إنّما يسمّى صناعة إذا صار مستقرّاً راسخاً متمكّناً .

قال الحقّي : جعل سبحانه معصية من عمل الإثم والعدوان وأكل السحت ذنباً غير راسخ وذنب التاركين للنهيّ عن المنكر ذنباً راسخاً . وفي الآية ما ينبغي على بعض العلماء من توانيهم عن المنكرات ما لا يخفى قال أمير المؤمنين في النهج : لعن الله الآمرين

---

(١) في ص : ٢١ .

بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به. وقيل: إنّ الله لايعذّب العامّة بعمل الخاصّة ولكن إذاأظهروا المعاصي فلم ينكروا استحقّ القوم جميعاً للعقوبة. و لولا حقيقة هذا الأمر في التوبيخ على العلماء والمشائخ في ترك النصيحة ثابتة لما اشتغل الأخصّون المخلصون بدعوة الخلق و تربيتهم فليكن المربّي متربّياً في الأُمور، بصيراً بالطريق، لا أن يكون هو أضلّ من المهتدين و يحسب أنّه يحسن صنعاً و هو من الأخسرين.

قال الطبرسيّ: و في هذه الآية دلالة على أنّ تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه بل أسوأ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّه تعالى ذمّ الفريقين في هذه الآية بلفظ بئس ولكن قال في المقدمين على الإثم: لبئس العمل عملهم وقال في التاركين: لبئس الصنع صنعهم وقد شرحنا الفرق بين العمل والصنع قبل هذا.

قوله تعالى: وقالت اليهود يدالله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ماانزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة كلما أو قدوا نارا للحرب أطفاءها الله ويسعون فى الارض فسادا والله لايحب المفسدين (٦٤)

إنّ الله حكى عنهم أنّهم قالوا هذا الكلام الركيك الفاسد، وترى اليهود أنّهم متّفقون على أنّا لا نقول ذلك وهو أصدق القائلين في كلّ ما أخبر عنه فكيف يكون هذ الإشكال؟ قال المفسّرون: إنّ الله قدبسط على اليهود حتّى كانوا أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية، فلمّا عصوا الله في أمر محمّد صلّى الله عليه وآله و كذّبوه، كفّ الله عليهم مابسط عليهم من السعة فقال عند ذلك فنحاص بن عازورا: يدالله مغلولة؛ قال أهل المعاني: إنّما قاله فنحاص ولم ينهه الآخرون فلمّا رضوا بقوله فأشركهم الله في ذلك، عن ابن عبّاس. و قيل: معناه: يدالله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذّبنا إلّا بما يبرّ به قسمه قدر ماعبد آباؤنا العجل، عن الحسن. وقيل: إنّه استفهام وتقديره: أيدالله مغلولة عنّا حيث قتر المعيشة علينا؟

قال الرازيّ : لعلّ القوم إنّما قالوا هذا على سبيل الإلزام فإنّهم لمّا سمعوا قوله : « من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً »[١] قالوا : لو احتاج إلى القرض لكان فقيراً عاجزاً والإله الّذي يستقرض شيئاً من عباده لاجرم مغلول اليدين ممسكة فحكى الله عنهم هذا الكلام .

و قال البلخيّ : ولعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلاسفة و هو أنّه موجب لذاته و أنّ حدوث الحوادث عنه لايمكن إلّا على نهج واحد وسنن واحد ، و أنّه غير قادر على إحداث الحوادث على غير الوجوه الّتي عليها يقع ؛ مثل قولهم : الواحد لايصدر منه إلّا الواحد ، فعبّر اليهود عن عدم الاقتدار على التغيّر والتبديل بغلّ اليد . فثبت أنّ هذه الحكاية صحيحة على كلّ هذه الوجوه وغلّ اليد مجاز مشهور عن البخل و بسطها عن الجود و منه قوله تعالى : « و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط »[٢] والسبب والعلاقة فيه أنّ اليد آلة لدفع المال فأطلقوا اسم السبب على المسبّب .

وقوله : [غلّت أيديهم] دعاء عليهم بعدم القدرة والمكنة علّمنا الله أن ندعو عليهم بهذا الدعاء ، أي أمسكت أيديهم عن الإنفاق في الخير . واليهود أبخل الناس ولا اُمّة أبخل منهم . وقال الحسن : هذا الكلام إخبار من الله أي غلّت أيديهم في نار جهنّم على الحقيقة و شدّت إلى أعناقهم جزاءً لهم على هذا القول . و حذف فاء التعقيب مثل قوله : « و إذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتّخذنا هزواً »[٣] ولم يقل : فقالوا أتتّخذنا هزواً ، والحذف لفائدة وهي أنّه لمّا حذف كان قوله : « غلّت أيديهم » كالكلام المبتدأ به وكون الكلام مبتدأ به يزيده قوّة و وثاقة ؛ لأنّ الابتداء بالشيء يدلّ على قوّة الاهتمام والاعتناء بتقريره [ولعنوا] أي ابعدوا من رحمة الله [ب]سبب [ما قالوا] كلمة الشنعاء [بل يداه مبسوطتان] أي ليس شأنه تعالى كما وصفتموه بل هو موصوف بغاية الجود والإحسان ، وهذا المعنى يستفاد من تثنية اليد ؛ فإنّ غاية ما يبذله السخيّ من ماله أن يعطيه بيديه جميعاً ، ويد الله من المتشابهات وليس المراد أنّ له عضواً

---

(١) البقرة : ٢٤٥ . (٢) الاسراء : ٢٩ .
(٣) البقرة : ٦٧ .

ويداً تعالى عن ذلك ؛ بل هي صفة من صفاته كالسمع والبصر والوجه . ويداه في الحقيقة عبارة عن صفاته الجماليّة والجلاليّة . وفي الحديث : كلتا يديه يمين [ينفق كيف يشاء] مختار في إيقاعه يوسّع تارة ويضيّق أُخرى على حسب مشيّته وحكمته .

قال الرازيّ : وقالت المجسّمة في معنى يدالله : أنّها عضو جسمانيّ كما في حقّ كلّ أحد ، و احتجّوا عليه بقوله تعالى : «ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها »(١) وجه الاستدلال أنّه تعالى قدح في إلهيّة الأصنام لأجل أنّها ليس لها شيء من هذه الأعضاء فلو لم يحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلهاً ولمّا بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء ، وقالوا أيضاً : اسم اليد موضوع لهذه العضو فحمله على شيء آخر ترك اللّغة و إنّه لا يجوز فالجواب في إبطال هذا القول السخيف مبنيّ على أنّه تعالى ليس بجسم والدليل عليه أنّ الجسم لاينفكّ عن الحركة والسكون ولأنّ كلّ جسم مؤلّف من الأجزاء وكلّ ما كان كذلك يكون قابلاً للتركيب والانحلال ومفتقر إلى ما يركّبه ويؤلّفه وكلّ ما كان كذلك فهو محدث والحركة والسكون محدثان وما لاينفكّ عن المحدث فهو محدث فثبت أنّه يمتنع كونه جسماً فيمتنع أن تكون يده عضواً جسمانيّا انتهى .

قال الطبرسيّ : و إنّما قال : يداه على التثنية في الآية مبالغة في معنى الجود و الإنعام لأنّ ذلك أبلغ من أن يقول : بل يده مبسوطة أو المراد باليد النعمة فيكون الوجه في تثنية النعمة أنّه أراد نعمة الدنيا ونعم الآخرة فمن حيث اختصّ كلّ منهما بصفة يخالف صفة الأُخرى كأنّهما جنسان أو أُريد بهما النعم الظاهرة والباطنة .

قوله تعالى : [وليزيدنّ كثيراً منهم] وهم علماؤهم و رؤساؤهم و«كثيراً» مفعول أوّل ليزيدنّ [ما أُنزل إليك من ربّك] وهو القرآن وما فيه من الأحكام وهو فاعل يزيدنّ [طغياناً و كفراً] مفعول ثان للزيادة أي ليزيدنّهم طغياناً على طغيانهم وكفراً على كفرهم القديمين إمّا من حيث الشدّة والغلوّ وإمّا من حيث الكمّ والكثرة ؛ إذ كلّما نزلت آية كفروا بها فيزدادوا في الطغيان والعناد كما أنّ الطعام الصالح للأصحّاء يزيد

---

(١) الاعراف : ١٩٥ .

المرضى مرضاً [وألقينا بينهم] أي بين اليهود فإنّ بعضهم جبريّة وبعضهم قدريّة وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبّهة أمّا الجبريّة فهم الّذين ينسبون فعل العبد إلى الله ويقولون لافعل للعبد أصلاً ولا اختيار وحركته حركة الجمادات . وأمّا القدريّة فهم الّذين يزعمون أنّ كلّ عبد خالق لفعله والمرجئة هم الّذين لا يقطعون على أهل الكبائر بشيء من العفو أو العقوبة بل يرجعون[1] في ذلك ويؤخرونه إلى يوم القيامة والمشبّهة هم الّذين شبّهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثّلوه بالمحدثات وقيل : المراد من قوله : وألقينا بينهم أي بين اليهود والنصارى من العداوة لأنّه جرى ذكرهم في قوله : لاتتّخذوا اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد . وكذلك بين فرق النصارى كالملكائيّة والنسطوريّة واليعقوبيّة ومعنى ألقينا أي خلّينا بينهم وبين اختياراتهم الفاسدة حيث لم يقبلوا الصلاح فوقعت [العداوة والبغضاء] بينهم باستحقاقهم ذلك [إلى يوم القيامة] .

ثمّ قال سبحانه : [كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله] وهذا شرح آخر من انواع محن اليهود وهوانّهم كلّما همّوا بأمر من الأمور ، رجعوا خائبين ، مقهورين وكلّما قصدوا لحرب محمّد صلى الله عليه وآله ، عن الحسن ومجاهد وفي هذا دلالة ومعجزة لأنّ الله أخبرهم فوافق خبره المخبر ، وقد كانت اليهود أشدّ أهل الحجاز بأساً وأمنعهم داراً حتّى أنّ قريشاً كانت تعتضد بهم والأوس والخزرج لايستبق إلى مخالفتهم وتتكثّر بنصرتهم فأبادهم الله واجتثّ أصلهم واستأصل شافتهم فأجلى النبيّ صلى الله عليه وآله بني النضير وبني قينقاع وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادي القرى [ويسعون في الأرض فساداً] أي ليس يحصل في أمرهم منفعة وقوّة إلّا أنّهم يسعون في الأرض بالفساد وذلك بأن يتّخذوا عضواً ضعيفاً ويستخرجوا نوعاً من المكر والكيد على سبيل الخفية قيل : أنّهم لمّا خالفوا حكم التورة سلّط عليهم بخت نصّر ثمّ أفسدوا فسلّط عليهم بطرس الرومي ثمّ أفسدوا فسلّط عليهم المسلمين [والله لايحبّ المفسدين] ومعلوم أنّ الساعي في الأرض بالفساد ممقوت عندالله .

قوله تعالى : ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم(٦٥) ولو أنهم أقاموا التوريةو الانجيل وما انزل اليهم

---

(١) كذا في الاصل ، و الظاهر : يرجؤون

من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم امة مقصدة وكثير منهم ساء مايعملون(٦٦) .

لمّا بالغ في تهجين طريقتهم و ذمّهم بيّن أنّهم لو آمنوا واتّقوا أي آمنوا بمحمّد واتّقوا الكفر والمعاصي لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا ، أمّا سعادات الآخرة محصورة في نوعين : رفع العقاب والثاني إيصال الثواب ؛ أمّا رفع العقاب فهو المراد بقوله: «لكفّرنا عنهم سيّئاتهم» وأمّا إيصال الثواب فهو المراد بقوله : «ولأ دخلناهم جنّات النعيم» أي ذوات النعمة . قال الحقّي : وفي الآية تنبيه على أنّ الإسلام يجبّ ما قبله و إن جلّ وأنّ الكتابيّ لايدخل الجنّة مالم يسلم .

قوله : [ولو أنّهم أقاموا التّوراة] لمّا ذكر سبحانه أنّهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الآخرة بيّن في هذه الآية أنّهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا و وجدوا طيّباتها و خيراتها . والمراد من إقامة التوراة الّتي كلّفهم الله بها أن يعملوا بما فيها من أحكامها وممّا يشتمل على الدلائل الدالّة على نبوّة محمّد وبعثته وقيل : المراد إقامة أحكامها وحدودها كما يقال : أقام الصلاة إذا قام بحقوقها ولايقال لمن لم يوف بشرائطها أنّه أقامها أو المعنى : أقاموها نصب أعينهم لئلاّ يزلّوا في شيء منها . وهذه المعاني متقاربة ويرجع إلى معنى واحد وأمّا قوله : [وما أُنزل إليهم من ربّهم] قيل : المراد منه القرآن وكتب سائر الأنبياء مثل كتاب شعيا ، ومثل كتاب حيقوق و كتاب دانيال وكلّ ما دلّ الله عليه من أُمور دينهم فإنّها مملوءة من البشارة بمقدم محمّد ﷺ [لأكلوا من فوقهم] بإرسال السماء عليهم مدراراً [ومن تحت أرجلهم] بإعطاء الأرض خيرها وبركتها ، أو المراد لأكلوا أثمار النخيل والأشجار من فوقهم والزرع من تحت أرجلهم . وقيل : المعنى : لتركوا في ديارهم ولم يجلوا من بلادهم ولم يقتلوا وكانوا يتمتّعون بأموالهم وثمارهم وزروعهم . وإنّما خصّ الأكل لأنّ ذلك معظم الانتفاع وقيل معنى آخر في قوله : «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» وهو التوسعة كما يقال : فلان في النعمة والخير من قرنه إلى قدمه أي يأتيه الخير من كلّ جهة يلتمسه منها . قال الرازي : إنّ اليهود لمّا أصرّوا على تكذيب محمّد ﷺ أصابهم القحط والشدّة إلى حيث قالوا : « يد الله

مغلولة » فالله تعالى بيّن أنّهم لو تركوا الكفر لا نقلب الأمر و حصل الخصب والسعة
قوله : [منهم اُمّة مقتصدة] أي من هؤلاء قوم معتدلون في العمل من غير غلوّ ولا تقصير وانحراف ؛ يعرفون موضع مقصوده ليس بمتحيّر حتّى يذهب تارة يميناً وتارة شمالاً قال أبو عليّ الجبّائيّ : هم الّذين أسلموا منهم مثل عبدالله بن سلام وأصحابه و بايعوا النبيّ صلى الله عليه وآله وهو المرويّ في تفسير أهل البيت . وقيل : يريد بهم النجاشيّ وأصحابه . وقيل : إنّهم قوم لم يناصبوا النبيّ مناصبة هؤلاء . قال الطبرسيّ : ويحتمل أن يكون أراد بهم من يقرّ منهم بأنّ المسيح عبدالله ولا يدّعي فيه الإلهيّة ويكون عدلاً في دينه ولو أنّه كان كافراً لكن لا يكون فيه غلظة كاملة وعناد [وكثير منهم ساء ما يعملون] والمراد الأخلاف المذمومون المبغوضون منهم . وفي الآية معنى التعجّب كأنّه قيل : وكثير منهم ما أسوأ عملهم ! وهم الّذين يقيمون على الكفر والجحود بمحمّد صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : ياايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لايهدى القوم الكافرين (٦٧) .

قرأ نافع رسالاته على الجمع و ابن عامر و أبو بكر بن عاصم أيضاً على الجمع والباقون على الإفراد . حجّة مَن قال بالجمع أنّه أنّ الرسل يبعثون بضروب من الرسالات وأحكام مختلفة في الشريعة وكلّ آية أنزلها الله على رسوله فهي رسالة فحسن لفظ الجمع . وأمّا مَن أفرد فقال : القرآن كلّه رسالة واحدة ، وأيضاً فإنّ لفظ الواحد قد يدلّ على الكثرة وإن لم يجمع كقوله : « و ادعوا ثبوراً كثيراً » فوقع الاسم الواحد على الجمع و كذا ههنا لفظ الرسالة و إن كان واحداً إلّا أنّ المراد هو الجمع .

وذكر المفسّرون في سبب النزول وجوهاً ، قال الحسن : إنّ الله بعث النبيّ صلى الله عليه وآله برسالته ضاق بها ذرعاً وكان يهاب قريشاً فأزال الله بهذه الآية تلك الهيبة عن قلبه . و ذكر الرازيّ في تفسيره عشرة وجوهاً إلى أن قال : العاشر : نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب قال : ولمّا نزلت هذه الآية أخذ صلى الله عليه وآله بيد عليّ وقال : مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه ، اللّهم وال مَن والاه وعاد مَن عاداه فلقيه عمر فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي

طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، قال الرازي : وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي ، قال الرازي : واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمله على أنه تعالى أمنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالات منه بهم وذلك لأن ماقبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه يكون أجنبية عما قبلها وما بعدها ، انتهى كلامه .

أقول : ما أبعد هذا الاستحسان الذي استحسنه هذا الفاضل عن القبول ! حيث يقول: «لما كان ماقبل هذه الآية وما بعدها كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية » والحال أن هذه نزلت في حجة الوداع وقد كان أمره صلى الله عليه وآله قد تم مع اليهود والنصارى لا يهابهم أصلاً بل كانوا جميعاً يهابونه وكان يأخذ منهم الجزية ، فلو كان خائفاً من اليهود والنصارى ولم يك مأموناً منهم فكيف حملهم على الجزية والذل والاستصغار ؟ فهذا الكلام من مثل هذا الفاضل بمعزل عن القبول ، نعم كان صلى الله عليه وآله خائفاً من التهمة من قومه حيث أمر صلى الله عليه وآله بنصب علي بالخلافة وهو ابن عمه أن يتهموه في هذا الأمر بسبب القرابة ويعادوه ولم يقبلوا منه فوعده الله بالعصمة من كيد قومه .

وقال الطبرسي في المجمع : روى العياشي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي عمير عن ابن اُذينة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر بن عبدالله قال : أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس فيخبرهم بولايته فتخوف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقولوا جافى ابن عمه وأن يطعنوا في ذلك عليه فأوحى الله إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير . وهذا الخبر بعينه قد حدثنا السعيد أبو الحامد أحمد بن محمد عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن أبي عمير في كتاب شواهد التنزيل في قواعد التفضيل ، وفيه أيضاً بالإسناد المرفوع إلى الحسان بن علي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في علي فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد أورد هذا الخبر بعينه أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النخعيّ الثعلبيّ في تفسيره بإسناده مرفوعاً إلى ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عليّ ؛ أُمر النبيّ أن يبلّغ فيه فأخذ رسول الله بيد عليّ فقال : من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه . وقد اشتهرت الروايات عن أبي جعفر وأبي عبدالله أن الله أوحى إلى نبيّه أن يستخلف عليّاً فكان يخاف أن يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه فأنزل الله هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه .

والمعنى : إن تركت تبليغ ما أُنزل إليك وكتمته كنت كأنّك لم تبلّغ شيئاً من رسالات ربّك [فما بلّغت رسالته] أي لم تكن ممتثلاً للأمر [والله يعصمك من النّاس] ويمنعك من أن ينالوك بسوء [إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين] ومعنى الهداية هنا أنّه سبحانه لا يهديهم بالمعونة والألطاف إلى الكفر بل إنّما يهديهم إلى الإيمان أن يقبلوا لأنّ من هداه إلى غرضه فقد أعانه على بلوغه وهو سبحانه يتعالى عن ذلك ، عن عليّ بن عيسى قال : ولا يجوز أن يكون المعنى : إنّ الله لا يهديهم إلى الإيمان بل أنّه هداهم إلى الإيمان بأن دلّهم عليه ورغّبهم فيه وحذّرهم من خلافه . وقيل : إنّ المعنى : لا يهديهم إلى الجنّة والثواب ، عن الجبّائيّ .

قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التورية والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك طغيانا وكفرا فلا تاس على القوم الكافرين (٦٨) .

[قل] يا محمد مخاطباً لليهود والنصارى : [لستم على شيء] أي دين يعتدّ به ويليق أن يسمّى شيئاً لوضوح فساده ، وظهور بطلانه [حتّى تقيموا التورية والإنجيل] ومن إقامتها الإذعان بحكمها ومن حكمها الإيمان بمحمّد فإنّ الكتب الإلهيّة بأسرها آمرة بالإيمان بما صدّقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة . والمراد أقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها [وما أُنزل إليكم من ربّكم] أي الإيمان بالقرآن المجيد ونسب الإنزال إليهم لأنّهم كانوا يدّعون عدم نزوله إلى بني اسرائيل «وليزيدنّ كثيراً منهم» وهم علماؤهم ورؤساؤهم [ما أُنزل إليك من ربّك] أي القرآن [طغياناً وكفراً] طغيانهم وكفرهم وهذا

مذكور فيما قبل والتكرير للتأكيد ، ثمّ قال سبحانه : [فلا تأس على القوم الكافرين] أي لاتحزن عليهم لزيادة طغيانهم فإنّ ضرر ذلك راجع إليهم أولاتتأسّف بسبب نزول اللّعن والعذاب عليهم فإنّهم من الكافرين المستحقّين لذلك . قال ابن عبّاس : جاء جماعة من اليهود وقالوا : يامحمّد ألست تقرّ أنّ التورية حق من الله ؟ قال : بلى قالوا : فإنّا مؤمنون بها ولانؤمن بغيرها فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى و الصابؤن من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحافلاخوف عليهم ولاهم يحزنون(٦٩)

والمراد من [الّذين آمنوا] في هذه الآية المنافقون قال الزجّاج : الّذين آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم [والّذين هادوا] أي دخلوا في اليهوديّة [النصارى] جمع نصران معطوف على الّذين هادوا «والصابؤون» أي الّذين صبت ومالت قلوبهم إلى الجهل والخروج من الدين قيل : هم صنف من النصارى يقال لهم الصائحون يحلقون أوساط رؤوسهم و قيل : هم الّذين يعبدون الكواكب .

وههنا مسألة وهي أنّ ظاهر الإعراب يقتضي أن يقال : والصابئين و هكذا قرأ أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن كثير ، و للنحويّين في علّة القراءة المشهورة وجوه نذكر وجهاً منها ولا حاجة إلى الإطالة وهو الوجه الّذي ذهب إليه الخليل وسيبويه : ارتفع الصابؤون بالابتداء وهو محذوف الخبر وهو في التقدير : والصابؤون كذلك ، ولم يعطفوا على ما قبله لفائدة في الكلام كأنّه قيل : إنّ الّذين آمنوا اتّفاقاً والّذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون والصابؤون كذلك .

والفائدة في عدم العطف أنّ الصابئين أشدّ الفرق المذكورين في هذه الآية ضلالاً فكأنّه قيل : كلّ هذه إن آمنوا بالعمل الصالح حقيقة قبل الله توبتهم وأزال ذنبهم حتّى الصابئين فإنّهم إن آمنوا كذلك لاخوف عليهم ؛ والخوف يتعلّق بالمستقبل والحزن يتعلّق بالماضي ، فلاخوف عليهم بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة ولا هم يحزنون بسبب مافاتهم من طيّبات الدنيا لأنّهم وجدوا أعظم منها وأطيب .

مسألة قالت المعتزلة : إنّه تعالى شرط عدم الخوف والحزن بالإيمان و العمل الصالح ، و المشروط بشيء عدم عند عدم الشرط ، فلزم أنّ من لم يأت مع الإيمان و العمل الصالح ؛ فإنّه يحصل له الخوف والحزن و ذلك يمنع من العفو عن صاحب الكبيرة . والجواب أنّ صاحب الكبيرة لايقطع بأنّ الله يعفو عنه فكان الخوف والحزن حاصلاً قبل إظهار العفو . والإيمان يدخل تحته أقسام وأشرفها الإيمان بالله و معرفة الخالق ؛ لأنّ أعظم المعارف شرفاً معرفته و كمال معرفته إنّما يحصل بكونه قادراً على الحشر فلاجرم شرح سبحانه في الآية بقوله : «من آمن بالله واليوم الآخر» .

قوله تعالى : لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل و أرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون (٧٠) .

اللاّم في «لقد» لام القسم أي بالله قد أخذنا العهد من بني إسرائيل يريد الأيمان المؤكّدة الّتي أخذها أنبياؤهم عليهم بالتوحيد والعمل بما أمر الله به والإقرار ببعثة محمّد و نبوّته والبشارة بمقدمه وخلقنا الدلائل بالعقل الهادي إلى الاستدلال والمقصود من الآية بيان عتوّهم و تمرّدهم عن الوفاء بعهدالله والبيان متعلّق بما افتتح الله به السورة وهو قوله «أوفوا بالعقود » و وجه الاحتجاج عليهم بذلك و إن كان أخذ الميثاق على آبائهم أنّهم عرفوا ذلك في كتبهم وسمعوا بذلك وأقرّوا بصحّته في كتابهم فالحجّة لازمة لهم و عتب المخالفة يلحقهم كما يلحق آباءهم .

[و أرسلنا إليهم رسلاً كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم] ولا يوافق مرادهم و ميلهم والكلام جواب لسؤال محذوف كأنّه قيل : فماذا فعلوا بالرسل ؟ فقيل : «كلّماجاءهم» من اُولئك الرسل بما يخالف هواهم من مشاقّ التكليف عصوه و عادوه وكأنّه قيل : كيف عصوهم ؟ فقيل : [فريقاً كذّبوا] أي طائفة منهم كذّبوا الرسل من غير أن يتعرّضوا لهم بشيء آخر من المضارّ [وفريقاً يقتلون] أي وفريقاً منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوا رسلهم أيضاً مثل زكريّا ويحيى .

فإن قيل : لمَ عطف المستقبل على الماضي ؟ ليدلّ على أنّ ذلك من شأنهم وعادتهم .

فإن قيل : أنّ الرسول الواحد لا يمكن أن يكونوا فريقين لكن قوله :« كلّما جاءهم رسول» يدلّ على كثرة الرسل فصحّ جعلهم فريقين .

و حسبوا ألا تكون فتنة فعموا و صموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا و صموا كثيراً منهم والله بصير بما يعملون (٧١) .

أي وظنّ اليهود أن لا يكون فيه عقوبة وأنّ الله لا يعذّب والآية دالّة على أن عماهم وصممهم عن الهداية حصل مرّتين قيل : المراد بهاتين المرّتين أنّهم عموا وصمّوا في زمان زكريّا و يحيى وعيسى ثمّ تاب الله على بعضهم حيث آمن بعضهم ثمّ عموا وصمّوا كثير منهم في زمان محمد صلى الله عليه وآله بأن أنكروا رسالته . وقيل : عموا و صمّوا حين عبدوا العجل ثمّ تابوا عنه فتاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم بالتعنّت وهو طلبهم رؤية الله و نزول الملائكة .

وقال المولى أبو السعود في تفسيره : المراد من المرّة الأولى حين خالف بنو إسرائيل أحكام التوراة و ركبوا المحارم ، وقتلوا شعيا ، وحبسوا أرميا ثمّ تاب الله عليهم حين تابوا ورجعوا عمّا كانوا عليه من الفساد وبعدما كانوا ببابل دهراً طويلاً تحت قهر بخت نصّر أُسارى في غاية الذلّ والوهن فوجّه الله ملكاً عظيماً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمّره وينجي بقايا بني إسرائيل من أسر بخت نصّر وردّهم إلى وطنهم وتراجع من تفرّق منهم الأكناف ، فعمّروا بيت المقدس في ثلاثين سنة فكثروا وحسنت أحوالهم كأحسن ما كانوا عليه [ثمّ عموا وصمّوا] وهو إشارة إلى المرّة الأخرى من مرّتيهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريّا ويحيى و قصدهم قتل عيسى [كثير منهم والله بصير بما يعملون] فيجازيهم وفق أعمالهم .

قيل : إنّ بني إسرائيل بعد أن عموا و صمّوا في المرّة الأولى وسلّط الله عليهم بخت نصّر فاستولى على بيت المقدس فقتل منهم أربعين ألفاً ممّن يقرؤ التوراة أو أكثر و ذهب بالبقيّة إلى أرضه بالذلّة إلى أن أحدثوا توبة صحيحة ، ثمّ عادوا مرّة ثانية إلى الفساد و قتلوا من الأنبياء بعد رجوعهم إلى أرضهم بيت المقدس ، بعث الله عليهم الفرس فغزاهم ملك من ملوك الطوائف و فعل بهم مافعل قيل : دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم[1] فوجد فيه دماً يغلي ، فسألهم عن ذلك فقالوا : دم قربان لم يقبل منّا

(١) جمع قربان : ما يتقرب به .

فقال : صاحب الجيش ماصد قتموني فقتل منهم ألوفاً ثم قال : إن لم تصدقوني ماتركت منكم أحداً ، فقالوا : إنّه دم يحيى فقال : بمثل هذا ينتقم الله منكم ثمّ قال : يا يحيى قدعلم ربّي و ربّك ما أصاب قومك من أجلك فاهدء باذن الله قبل أن لايبقى أحد منهم فهدأ .(١)

و منشاء هذه الشقاوات كفرانهم نعم الله تعالى ؛ حكي أنّ دانيال عليه السلام وجد خاتمه في عهد عمر بن الخطّاب وكان على فصّ خاتمه أسدان و بينهما رجل والأسدان يلحسانه و ذلك أنّ بخت نصّر لمّا يتّبع الصبيان ليقتلهم فولد دانيال فألقته أمّه في غيضة(٢) رجاء أن ينجو فقبض الله أسداً يحفظه ، ولبوة ترضعه وهما يلحسانه فلمّا كبر دانيال صوّر ذلك في خاتمه كي لاينسي نعمة الله عليه . والعاقل لابدّ وأن لاينسي منعمه ويشكره دائماً ، نعم من انقطع إلى الله لقاه الله .

قوله تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم وأنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأويه النار وما للظالمين من أنصار(٧٢) لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد و ان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) افلا يتوبون الى الله و يستغفرونه والله غفور رحيم(٧٤) .

لمّا استقصى الكلام مع اليهود شرع هنا في الكلام مع النصارى فحكى سبحانه عن فريق منهم أنّهم قالوا : [إنّ الله هو المسيح بن مريم] و هذا هو قول اليعقوبيّة لأنّهم يقولون إنّ مريم ولدت إلهاً ، وقال الرازيّ : ولعلّ هذا المذهب أنّهم يقولون : إنّ الله تعالى حلّ في ذات عيسى و اتّحد بذات عيسى . ثمّ حكى تعالى عن المسيح أنّه قال : [يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي و ربّكم] و هذا تنبيه على ماهو الحجّة القاطعة على فساد قولهم حيث لم يفرّق بين نفسه و بين غيره في أنّ دلائل الحدوث ظاهرة عليه و أقرّ على نفسه بالمربوبيّة . ونزلت الآية في نصارى نجران : السيّد و العاقب و من معهما .

---

(١) هدأ : سكن . (٢) الغيضة : مجتمع الشجر .

ثمّ قال على لسان عيسى : [إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة و مأواه النّار وما للظّالمين من أنصار] المعنى ظاهر أي إنّ الشان أنّ من يشرك شيئاً في عبوديّته و ربوبيّته و ما يخصّ به تعالى من الصفات والأفعال لن يدخل الجنّة أبداً فإنّها دار الموحّدين و مأوى المشرك النار ، و ما للظالمين بالإشراك من أحد ينصرهم بإنقاذهم منها ؛ إمّا بطريق المبالغة أو بطريق الشفاعة و هو من تمام كلام عيسى .

ثمّ حكى ما قاله النسطوريّة و الملكائيّة من النصارى فقال : [لقد كفرالّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة] أي أحد ثلاثة آلهة و الإلهيّة مشتركة بينهم وهم الله و عيسى ومريم .و«ثلاثة» كسرت بالإضافةولايجوز نصبها لأنّ معناه :واحدثلاثةلأنّهم قالوا إنّ اللهوعيسى ومريم آلهةثلاثة والّذي يؤكّدذلك قوله تعالى للمسيح : « ءأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون‌الله »(١) فمعنى ثالث ثلاثة أي أحد ثلاثة آلهة أوواحد من ثلاثة آلهة والدليل على أنّ المراد ذلك قوله تعالى في الردّ عليهم : « وما من إله إلّا اله واحد» فتقديرالآية : ثالث‌ثلاثة آلهة . وحذف ذكرالآلهة ؛ لأنّ ذلك‌معلوم من سوق الكلام ومن مذهبهم .

قال الواحديّ : ولا يكفرمن يقول : إنّ الله ثالث‌ثلاثة إذا لم يرد به ثالث‌ثلاثة آلهة ؛ فإنّه ما من‌شيئين إلّا والله ثالثهما بالعلم لقوله : «مايكون من نجوى ثلاثةإلّا هو رابعهم ولا خمسةإلّا هوسادسهم»(٢) والمتكلّمون حكوا عن‌النصارى أنّهم‌يقولون : جوهر واحدثلاثةأقانيم أب وابن وروح‌القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أنّ الشمس اسم يتناول‌القرص‌والشعاع والحرارة ، وعنوابالأب : الذات‌وبالابن : الكلمةوبالروح : الحياة ، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا : إنّ الكلمةالّتي‌هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر والماء باللّبن وزعموا أنّ الأب إله والابن إله والروح إله والكلّ إله‌واحد ، وهذا الكلام معلوم البطلان ببديهةالعقل ؛ فإنّ الثلاثةلايكون

---

(١) المائدة : ١١٦ .

(٢) المجادلة : ٧ .

واحداً والواحد لايكون ثلاثة ، ولم يسمع كلام أظهر بطلاناً من هذه المقالة .

[ومامن إله إلّا إله واحد] قيل: إنّ من زائدة ولكنّ الصحيح أنّها تفيد الاستغراق أي والحال ليس في الوجود ذات مستحقّ للألوهيّة والعبادة من هذه الحقيقة إلّا فرد واحد متعالى عن قبول الشركة [وإن لم ينتهوا عمّا يقولون] من قبيل هذه المقالة الفاسدة من التثليث والتشريك وأقاموا على هذا القول والدين [ليمسّنّ الّذين كفروا] اللّام لام القسم أي والله ليمسّنّهم ووضع الموصول موضع الضمير لتكرير الشهادة عليهم بالكفر و «من» في [منهم] بيانيّة حال من «الّذين» وذلك لأنّ بعضهم تابوا ورجعوا عن هذا القول والدين [أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم] أمر بصورة الاستفهام والاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده لا لإنكار الوقوع ، وتعجيب من بقائهم وإصرارهم على هذه الكلمة الشنيعة ، أي أيصرّون فلا يتوبون ويطلبون منه العفو عن هذا القبيح وينزّهونه عن ما نسبوا إليه من الاتّحاد والحلول والحال أنّه تعالى يبالغ في المغفرة يغفر لهم عند استغفارهم ؟

قوله تعالى : ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل و امه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الايات ثم انظر أنى يؤفكون (٧٥) قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعاً والله هو السميع العليم (٧٦) قل ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٧٧) .

لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة مقالات النصارى عقّبه بالردّ عليهم والحجاج لهم فقال : ليس المسيح إلّا رسول من جنس الّذين مضوا قبله جاء بآيات الله كما أتوا بأمثالها فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا الخشب وجعلها حيّة تسعى وفلق البحر على يد موسى ، وإن كان خلقه من غير أب وذكر فقد خلق آدم من غير أب وأمّ فمن ادّعى له بالإلهيّة فهو كمن ادّعى لهم الإلهيّة لتساويهم في المنزلة .

[وأمّه صدّيقة] لأنّها صدّقت بآيات ربّها وبكلّ ما أخبر عنه ولدها بدلالة قوله تعالى : «وصدّقت بكلمات ربّها» (١) وقال سبحانه : «فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل

(١) التحريم : ١٢ .

لها بشراً سويّاً» (١) فلمّا كلّمها جبرئيل وصدّقته وقع عليها اسم الصدّيقة . والحاصل ما اُمّه إلّا كسائر النساء اللّاتي يلازمن الصدق في الأقوال والأفعال مع الخالق والخلق [كانا يأكلان الطعام] أي هما يعيشان بالغذاء كما يعيش سائر الناس ، فكيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلّا أكل الطعام ؟ عن ابن عبّاس . وقيل: المراد كناية عن قضاء الحاجة لأنّ من أكل الطعام لابدّ له من الحدث ، فذكر الأكل وأراد لازمه [اُنظر كيف نبيّن لهم الآيات] الباهرة المنادية ببطلان ما تقوّلوا [ثمّ انظر أنّى يؤفكون] كيف يصرفون عن استماعها ؟ والإفك : الكذب وأصله الصرف والقلب ، والكذب قلب الصدق و«ثمّ» لإظهار ترتيب ما بين العجبين في التفاوت لإ تياننا الآيات أمر بديع في بابه وإعراضهم عنها أعجب [قل] يا محمد إلزاماً لهم ومن سلك مسلكهم من اتّخاذ غير الله إلهاً : [أتعبدون من دون الله] أي متجاوزين إيّاه إلى [مالا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً] يعني عيسى وهو وإن ملك ذلك لكن لايملكه من ذاته بل بتمليك الله ، ولايملك عيسى مثل ما يضرّ الله به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحّة والسعة .

وإنّما قال : «ما» مع أنّ أصله أن يطلق على غير العاقل ، نظراً إلى ما هو عليه في ذاته فإنّه في أوّل أحواله لايوصف بعقل ولا بشيء من الفضائل فكيف يكون مثل هذا إلهاً ؟ فإنّ مذهب النصارى أنّ اليهود صلبوه ومزّقوا أضلاعه بزعمهم ولمّا عطش وطلب الماء صبّوا الخلّ في منخريه ومن كان في الضعف هكذا كيف يكون إلهاً ؟ وإله العالم يجب أن يكون غنيّاً عن كلّ ما سواه ويكون كلّ ما سواه محتاجاً إليه ؛ فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله لانّ الإله لايعبد شيئاً ، ولمّا عرف بالتواتر كونه مواظباً على العبادات علمنا أنّه إنّما كان بفعلها محتاجاً في تحصيل المنافع و رفع المضارّ ، و اليهود كانوا يعادونه و يقصدونه بالسوء فما قدر على الإضرار بهم و الأنصار وأصحابه يحبّونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم ، فالعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهاً ؟ فكان عيسى عبداً كسائر العبيد و هذا هو عين الدليل الّذي حكاه الله عن إبراهيم حيث قال : لأبيه : « لم تعبد مالم يسمع

---

(١) مريم : ١٧ .

ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً» . (١)

[والله هو السميع العليم] والمراد منه التهديد أي سميع بكفرهم عليم بضمائرهم [قل ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحقّ] أي غلوّاً باطلاً فترفعوا عيسى إلى أن تدعوا له الاُلوهيّة ؛ كما ادّعته النصارى ، أو تضعوه فتزعموا أنّه لغير رشده وتنسبوه إلى الكذب والزنى ؛ كما زعمته اليهود و قوله : «غيرالحقّ» صفة المصدر أي غلوّاً غير الحقّ [ولاتتّبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً و ضلّوا عن سواء السبيل] الأهواء ههنا المذاهب الّتي تدعو إليها الشهوة دون الحقّ ولايستعمل الهوى إلّا في الشرّ ؛ لايقال : فلان يهوي الخير إنّما يقال : يريدالخير ، وسمّي الهوى هوى لأنّه يهوي بصاحبه إلى النار ؛ قال ابن عبّاس كلّ هوى ضلالة و عنى سبحانه بقوله : «قوم قدضلّوا من قبل» رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى . والآية خطاب للّذين كانوا في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله فيهوا أن يتّبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم و أن يقلّدوهم فيما هووا ، والاتّباع هو سلوك الثاني طريقة الأوّل على وجه الاقتداء به [وأضلّوا كثيراً] يعني به هؤلاء الّذين ضلّوا عن الحقّ وغلوا في دينهم ، أضلّوا كثيراً من أتباعهم [وضلّوا عن سواء السبيل] وهو سبيل الإسلام بعد مبعثه صلى الله عليه وآله لمّا كذّبوه وحسدوه وبقوا على ضلالتهم جاحدين بنبوّته ، و بقوا على زعمهم الفاسد في اعتقاد الاُلوهيّة في حقّ عيسى حيث نظروا بعقلهم الفاسد في أمره فوجدوه مولوداً من اُمّ بلاأب فحكم عقلهم أن لايكون مولود بلاأب فينبغي أن يكون هو ابن الله ، و استدلّوا على ذلك أيضاً بأنّه يخلق من الطين كهيئة الطير ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، و يخبر عمّا يأكلون في بيوتهم و ما يدّخرون و هذه الاُمور من صفات الله و لو لم يكن المسيح ابن الله لما أمكنه و إنّما أمكنه لأنّ الولد سرّ أبيه وبسبب هذه الاستحسانات و التخيّلات ضلّوا وأضلّوا و ما عرفوا أنّ الإنسان الكامل الّذي حمل أمانة الحقّ من بين سائر الخلق وعمل بمقتضى كماله و خصّه الله بالخلافة ، وقوّمه بأحسن التقويم في قبول هذا الكمال صار قابلاً لأن يصدر منه اُمور تدلّ على خلافته وخارقه عن عادات البشر بإذن الله تعالى و أمره فصورة الفعل تظهر منه لكنّ الفاعل هو الله ومنشاء الصفة حضرة الإلهيّة

(١) مريم : ٤٢ .

لاعيسى ولا موسى وهذا كما أنّ لكرة البلّور المخروط استعداداً في قبول فيض الشمس إذا كانت في محاذاتها فيقبل الفيض ويحرق المحلوج المحاذي لها بذلك الفيض فيصدر الفعل المحرق من الكرة بحسب الظاهر ومنشأ الصفة المحرقيّة حضرة الشمس حقيقة فصار للكرة بحسن الاستعداد المجعول فيه قابليّة لفيض الشمس وما حلّت الشمس في كرة البلّور والشمس شمس والبلّور بلّور وكذلك حال الأنبياء في المعجزات.

قوله تعالى: لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٩) ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٠).

أخبر سبحانه عمّا جرى على أسلافهم فقال : « لعن الّذين كفروا » قال أكثر المفسّرين : المراد من الملعونين : أصحاب السبت وأصحاب المائدة وهو أنّ قوم داود وهم أهل أيلة ؛ لما اعتدوا في السبت باخذ الحيتان، قال داود : اللّهم العنهم و اجعلهم آية. فمسخوا قردة . وأمّا أصحاب المائدة فإنّهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى : اللّهمّ العنهم كما لعنت أصحاب السبت . فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبيّ. وقال ابن عبّاس : المراد في الزبور وفي الإنجيل ، فيكون المراد أنّ الله لعن في الزبور من يكفر من بني إسرائيل وفي الإنجيل كذلك فلذلك قيل : على لسان داود وعيسى . وثالث الأقوال أن يكون المعنى أنّ داود وعيسى علما أنّ محمّداً نبيّ مبعوث ولعنا من يكفر به ، عن الزجّاج . قال الطبرسيّ : والقول الأوّل أصحّ.

[ذلك] إشارة إلى اللّعن المتقدّم ذكره [بما عصوا وكانوا يعتدون] بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله [كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه] استيناف؛ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح يعملونه واصطلحوا على الكفّ عن نهي المنكر [لبئس ما كانوا يفعلون] اللّام لام القسم تعجيب من سوء فعلهم مؤكّداً بالقسم . قال ابن عبّاس : كان بنو إسرائيل ثلاث فرق ، فرقة اعتدوا في السبت وفرقة نهوهم ولكن لم يدعوا مجالستهم ولامؤاكلتهم وفرقة ارتحلوا عنهم لمّا رأوهم يعتدون . وبقيت الفرقتان المعتدية والناهية المخالطة فلعنوا جميعاً ،

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذنّ على يد السفيه ولتأطرنّه(؟) على الحقّ إطراء اوليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم . وإنّما سمّي القبيح منكراً لأنّه ينكره العقل من حيث إنّ العقل يقبل الحسن ويعترف به ولا يأباه وينكر القبيح ويأباه . وقيل : المراد بالمنكر هنا صيدهم السمك يوم السبت وقيل : أخذهم الرشى في الأحكام أو أكلهم الرباء .

[ترى كثيراًمنهم] أي من اليهود [يتولّون الّذين كفروا] يريد كفّار مكّة عني بذلك كعب بن الأشرف وأصحابه حين استجاشوا المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : يتولّون الملوك الجبّارين و يزيّنون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم [لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم] أي بئس ما قدّمت أنفسهم لهم من العمل لمعادهم في الآخرة [أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون] هو المخصوص بالذمّ بتقدير المضاف أي موجب سخط الله والخلود في العذاب لأنّ نفس السخط المضاف إلى الله لايقال له أنّه المخصوص بالذمّ إنّما المخصوص بالذمّ هو الأسباب الموجبة له قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن : إنّ هذه الآية في المنافقين من اليهود. والضمير في قوله «وترى كثيراً منهم» عائد إليهم ، ويؤكّده ما بعد هذه الآية .

قوله تعالى : ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه مااتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون (٨١) .

أي لو كانوا ؛ أي الّذين يتولّون المشركين يصدّقون بالله والنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وما اُنزل إليه من القرآن ويعتقدون ذلك على الحقيقة كما يظهرونه [مااتّخذوهم] يعني الكافرين أولياء ، عن ابن عبّاس والحسن والمجاهد . وقيل :المراد بالنبيّ موسى وبما اُنزل إليه التوراة فيكون المراد بهم اليهود الّذين جاهروا بالعداوة لرسول الله والتولّي للمشركين ويكون معنى الموالاة: النصر والمعاونة على معاداة محمّد أو الموالاة المصادفة والتحبّب على الحقيقة وتحريم ذلك مصرّح في شريعة ذلك النبيّ وفي الكتاب المنزل إليه [ولكنّ كثيراً منهم فاسقون] خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيّهم وكتابهم فاتّخاذ الكفار وأعداء الله أولياء من أعظم المعاصي والمنكرات وموجب لسخط الله كما أنّ المداهنة مع أهل الفسوق كذلك ومن موجبات لعنة الله ، كما لعن اليهود على لسان داود ؛ في الحديث : يحشر

يوم القيامة اُناس من اُمّتي من قبورهم إلى المحشر على صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي و كفّوا عن نهيهم وهم يستطيعون .

قوله تعالى : لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا و لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهباناًو أنهم لا يستكبرون(٨٢) واذا سمعواما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(٨٣) و مالنا لا نؤمن بالله و ماجاءنا من الحق و نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤) .

شرح سبحانه معاداة اليهود للمسلمين فقال : « لتجدنّ » الآية ، فوصف اليهود والمشركين بأنّهم أشدّ الناس عداوة للمؤمنين ، لأنّ اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين ، مع أنّ المؤمنين يؤمنون بنبوّة موسى والتوراة الّتي أتى بها ، فكان ينبغي أن يكونوا بمن وافقهم في الإيمان بنبيّهم وكتابهم أقرب ، و إنّما فعلوا ذلك حسداً للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : ما خلا يهوديّان بمسلم إلّاهمّا بقتله .

ثمّ ذكر سبحانه أنّ النصارى ألين عريكةً من اليهود ، و أقرب إلى المسلمين . قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعطاء والسدّي : المراد من الآية النجاشيّ وقومه الّذين قدموا من الحبشة على الرسول و آمنوا به فقط ، و لم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين ؛ وقال آخرون : السبب أنّ مذهب اليهود يوجب عليهم إيصال الشرّ إلى من يخالفهم في دينهم بأيّ طريق كان ؛ فإن قدروا على القتل فذاك ، وإلّا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد ، وأمّا النصارى فليس مذهبهم ذاك ، بل الإيذاء عندهم حرام ، فهذا وجه التفاوت ، واللام في قوله : «لتجدنّ» لام القسم، والتقدير: قسماً بالله إنّك تجد اليهود و المشركين أشدّ الناس عداوة معك والمؤمنين ، فلا تبال لكيدهم ومكرهم .

[و لتجدنّ أقربهم مودّة للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى] المراد من النصارى : النجاشيّ ملك الحبشة والّذين جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب كما قاله ابن عبّاس وجماعة ؛ وقال البغويّ : لم يرد به جميع النصارى ، لأنّهم في عداوتهم للمسلمين

كاليهود في قتلهم المسلمين، وأسرهم، وتخريب بلادهم، وهدم مساجدهم - لاقوّة ولاكرامة لهم - بل الآية نزلت في طبقة مخصوصة ممّن أسلم منهم، وكان النجاشيّ نصرانيّاً قبل ظهور الإسلام، ثمّ أسلم هو وأصحابه قبل الفتح، ومات قبله أيضاً.

قال أهل التفسير: استمرّت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثب كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين، يؤذونهم ويعذّبونهم، فافتتن من افتتن: وعصم الله منهم من عصم، ومنع الله رسوله بعمّه أبي طالب، فلمّا رأى رسول الله ماحلّ بأصحابه، ولم يقدر على منعهم، ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: إنّ بها ملكاً صالحاً لايظلم ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتّى يجعل الله للمسلمين فرجاً، فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، فخرجوا إلى البحر، وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله، وهذه هي الهجرة الأولى.

ثمّ خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها، فكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلمّا علمت قريش بذلك وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشيّ وبطارقته [1] ليردّوهم إليهم، فعصمهم الله، فلمّا انصرفا خائبين، وأقام المسلمون هناك بخير دار وحسن جوار، إلى أن هاجر رسول الله وعلا أمره وذلك في سنة ستّ من الهجرة. كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشيّ على يد عمرو بن أميّة الضمريّ ليزوّج النبيّ أمّ حبيبة [2] بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها، فأرسل النجاشيّ إلى أمّ حبيبة جارية يقال لها نزهة تخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إيّاها، وأمرها أن توكّل من يزوّجها، فوكّلت خالد بن سعيد بن العاص، فأنكحها على صداق أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول الله النجاشيّ، ثمّ أمر الملك نساءه أن يبعثن إلى أمّ حبيبة بما عندهنّ من عود وعنبر، وكان ﷺ يراه عليها وعندها فلاينكر.

---

(١) جمع البطريق: القائد من قواد الروم.

(٢) المشهور أن اسمها رملة، وقيل: هند وان رملة اسم ام سلمة.

قالت أمّ حبيبة : فخرجنا في سفينتين ، و بعث معنا النجاشيّ الملّاحين ، فلمّا خرجنا من البحر ووردنا المدينة ورسول الله بخيبر وخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتّى قدم النبيّ فدخلت عليه ، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسألني عن النجاشيّ ؛ فشرحت له القصّة ، فأنزل الله : «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة»[1] ولمّا جاء أباسفيان تزويج أمّ حبيبة برسول الله ، قال : ذاك الفحل لايقرع أنفه ،[2] ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم : لاأدري أبفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر ؟ .

وبعث النجاشيّ بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ابنه أزهر في ستّين رجلاً من الحبشة ، و كتب إليه : يارسول الله أشهد أنّك رسول الله صادقاً مصدّقاً و قد بايعتك و بايعت ابن عمّك وأسلمت لله ربّ العالمين ، وقد بعثت ابني أزهر ، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت ، والسلام عليك يارسول الله ، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه، فلمّا بلغوا أواسط البحر غرقوا ، وكان جعفر يوم وصل المدينة وصل في سبعين رجلاً ، عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستّون من الحبشة وثمانية من أهل الشام ، منهم بحيرا الراهب فقرأ عليهم رسول الله سورة : (يس) إلى آخرها ، فبكوا حين سمعوا القرآن فآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان نزل على عيسى ! فأنزل الله هذه الآية : «و لتجدنّ أقربهم مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى» فالمراد وفد النجاشيّ الّذين قدموا مع جعفر وهم السبعون ، وكانوا أصحاب الصوامع .[3]

[ذلك] أي كونهم أقرب مودّة للمؤمنين [بأنّ منهم] أي بسبب أنّ منهم [قسّيسين] وهم علماء النصارى وعبّادهم ؛ والقسّيس : صيغة مبالغة من تقسّس الشيء إذا تتبّعه وطلبه باللّيل ، سمّوا به لمبالغتهم في تتبّع العلم ؛ والقسّ في اللّغة : نشر الحديث والنميمة قاله الراغب ، و قال قطرب : القسّيس بلغة الروم : العالم ؛ وقال عروة بن الزبير : إنّ

---

(١) الصف : ٧ .

(٢) قرع الشي : دقه و نقر عليه .

(٣) جمع الصومعة : جبل أومكان يسكنه الراهب .

النصارى ضيّعت الإنجيل و أدخلوا فيه ما ليس فيه ، و بقي من علمائهم واحد على الحقّ والدين ، وكان إسمه قسّيساً فمن كان على مذهبه ودينه فهو قسّيس . و رهبان : جمع راهب ، كراكب وركبان ، والرهبانيّة مصدر وأصله من الرّهبة والمخافة ، قال جرير:

رهبان مدين لورأوك تنزّلوا ✫ والعصم من شعف الجبال الشارد

وقيل : الرهبان يطلق على الواحد والجمع :

لو عاينت رهبان دير في القلل ✫ لانحدر الرهبان يمشي ونزل

والترهّب التعبّد مع الرّهبة في صومعة ، والتنكير لإفادة الكثرة ، ولا بدّ من اعتبارها في القسّيسين ، إذ هي الّتي تدلّ على مودّة جنس النصارى للمؤمنين ، فإنّ اتّصاف أفراد كثيرة بالخصلة المعيّنة مظنّة الجنسيّة ، وإلّا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون ، ألا ترى إلى عبدالله بن سلام [1] وأحزابه قال تعالى : «من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الّليل ، وهم يسجدون » الآيات ؟[2] لكنّهم لمّا لم يكونوا في الكثرة كالّذين في النّصارى لم يتعدّ حكمهم إلى جنس اليهود . قوله [وأنّهم لا يستكبرون] عطف على قوله : «أنّ منهم» أي وبأنّهم لا يستكبرون عن قبول الحقّ إذا عرفوه ، و يتواضعون ولا يتكبّرون كاليهود [وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرّسول] عطف على لا يستكبرون أي ذلك بسبب أنّهم لا يستكبرون ، وبسبب أنّ أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا عند سماع القرآن ، والضمير في سمعوا راجع إلى الّذين آمنوا منهم ، والمراد من «ما أنزل» القرآن ، ومن «الرسول» محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال ابن عبّاس : يريد النجاشيّ وأصحابه ، وذلك لأنّ جعفر الطيّار قرأ عليهم سورة مريم فأخذ النّجاشيّ تبنة من الأرض ، و قال : والله ، مازاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا ، وما زالوا يبكون حتّى فرغ جعفر

---

(١) هو عبدالله بن سلام بن الحارث من اولاد يوسف النبى عليه السلام ، حليف الخزرج ، كان يهودياً عزيزاً فى قومه فأسلم ، واستدعى رسول الله أن يسأل قومه عن مكانته عندهم فسألهم واعترفوا بأنه عزيزهم ورئيسهم ، فلما خرج عليهم من موقفه المستور عن ابصارهم وأظهر الاسلام قالوا : هو ذليلنا و ابن ذليلنا ! مات سنة ثلاث و أربعين باتفاق أهل التاريخ على مافى الاصابة «ج ٢ : ٣١٣» .

(٢) آل عمران : ١١٣ .

من القراءة ، وقوله : [ترى أعينهم تفيض من الدّمع] أي تملأ بالدّمع ، فاستعير له الفيض الّذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة ، و«من» الأولى لابتداء الغاية ، والتّقدير أنّ فيض الدّمع إنّما ابتداؤه من معرفة الحقّ وبسببه ، و[من] الثّانية لبيان الموصوف من قوله : [ما عرفوا] .

[يقولون ربّنا آمنّا] كأنّه قيل : ماذا يقولون عند سماع القرآن ؟ فقيل : يقولون : ربّنا آمنّا بهذا القرآن الّذي معنا ، وشهدنا بأنّه حقّ [فاكتبنا مع الشّاهدين] ومن جملة الّذين شهدوا بأنّه حقّ ، وآمنوا به . يريد أمّة محمّد ﷺ لقوله: «وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس»(1) والمراد من الشاهدين بالتوحيد مع كلّ نبيّ ، فاكتبنا معهم في أمّ الكتاب .

[وما لنا] أي أيّ شيء حصل لنا ، ولأيّ عذر [لا نؤمن بالله] ؟ وهذا جواب لمن قال لهم من قومهم تعنيفاً لهم : لم آمنتم ؟ عن الزّجّاج ؛ وقيل : إنّهم قدّروا في أنفسهم ، كأنّ سائلاً سألهم عنه، فأجابوه بذلك [وما جاءنا من الحقّ] المراد : القرآن والإسلام ، ووصفه بالمجيء مجاز ، كما يقال : نزل ، وإنّما نزل به الملك ، وكذلك جاء به الملك ، [ونطمع] أي و الحال نرجو و نؤمّل [أن يدخلنا ربّنا] في الجنّة لإيماننا بالحقّ ، وحذف لدلالة الكلام عليه [مع القوم الصالحين] المؤمنين .

قوله تعالى : فاثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٨٥) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم (٨٦) .

أي جازاهم وأعطاهم بسبب ما قالوا عن اعتقادهم ، لأنّ القول المجرّد عن الاعتقاد والتّوحيد غير نافع ، ويدلّ على هذا المعنى قوله : [ممّا عرفوا من الحقّ] فثبت أنّه ليس مجرّد القول ، و قال ابن عبّاس : المراد بما قالوا : أي ما سألوا معنى قولهم : [فاكتبنا مع الشاهدين] وذلك عن عقيدة ومعرفة ثابتة .[جنّات] أي بساتين [تجري من تحتها الأنهار] أي من تحت أشجارها الأنهار ومن مساكنها وغرفها الأنهار الأربعة : الماء والعسل والخمر واللّبن [خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين] وذلك الجزاء للّذين

(1) البقرة : ١٤٣ .

أحسنوا النّظر والعمل ، واعتادوا الإحسان في الأمور [والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا] فماتوا على ذلك ، وعطف التكذيب على الكفر مع أنّه ضرب من الكفر لما أنّ القصد بيان حال المكذّب بين [أُولئك أصحاب الجحيم] أهل النار الشديدة الوقود ، فقوله: [أُولئك أصحاب الجحيم] ليس خالياً عن إفادة الحصر والمصاحب للشيء هو الملازم له ، ويمكن تخصيص هذا الدّوام والملازمة بالكفّار .

ولعلّ من أقوى الدّلائل على أنّ الخلود لا تحصل للمؤمن الفاسق ، قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين (٨٧) وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون (٨٨) .

النزول : قال المفسّرون : جلس رسول الله ﷺ يوماً ، فذكّر للناس القيامة ، فرقّ الناس وبكوا، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحيّ ،(١) وهم : عليّ عليه السلام وعبدالله بن مسعود وأبوذرّ الغفاريّ وسالم مولى أبي حذيفة وعبدالله بن عمر ومقداد بن الأسود الكنديّ وسلمان الفارسيّ و معقل بن مقرن و أبوبكر ،(٢) واتّفقوا على أن يصوموا النّهار ، ويقوموا اللّيل ، ولا يناموا على الفرش ، و لا يأكلوا اللّحم ولا الودك (٣) ويلبسوا المسوح ، (٤) ويرفضوا الدّنيا ، و يسيحوا في الأرض ،

---

(١) من معاريف الصحابة ، هاجر الى الحبشة مع ابنه : السائب الهجرة الاولى ، وله منزلة عظيمة عندالنبى صلىالله عليه وآله فانه لما توفى ابراهيم ابنه قال : الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون . مات فى الثانيه بعد ماشهد بدراً ، وهو اول من مات من المهاجرين بالمدينة ، واول من دفن بالبقيع ، ترجمه ابن حجر فى الاصابة «ج ٢ : ٤٥٧» .

(٢) الظاهران عثمان كان داخلا فيهم وهو عاشرهم فان الافراد المعدودة هنا لا يتجاوزون عن تسعة .

(٣) الودك بفتحتين الدسم من اللحم والشحم .

(٤) ما يلبس من نسيج الشعر قهراً للجسد .

(٥) جب الشى يجبه : قطعه .

وهمّ بعضهم أن يجبّ مذاكيره ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه ، فقال لامرأته امّ حكيم بنت أبي اُميّة واسمها حولاء وكانت عطّارة : أحقّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه ؟ فكرهت أن تكذب رسول الله صلى الله عليه وآله وكرهت أن تبدي على زوجها فقالت : يا رسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله ، فلمّا دخل عثمان أخبرته بذلك ، فأتى رسول الله هو وأصحابه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : ألم اُنبّئكم أنّكم اتّفقتم على كذا وكذا ؟ ، قالوا : بلى يا رسول الله ، و ما أردنا إلّا الخير فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله : إنّي لم اُومر بذلك ، ثمّ قال : إنّ لأنفسكم عليكم حقّاً ، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإنّي أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر وآكل اللّحم والدسم ، وآتي النساء ، ومن رغب عن سنّتي فليس منّي ، ثمّ جمع النّاس وخطبهم ، وقال : ما بال أقوام حرّموا النّسآء والطعام الطيّب والنوم وشهوات الدنيا؟ أما إنّي لست آمركم أن تكونوا قسّيسين و رهباناً ، فإنّه ليس من ديني ترك اللّحم والنّساء ولا اتّخاذ الصوامع ، وإنّ سياحة اُمّتي الصوم ، ورهبانيّتهم الجهاد ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجّوا ، واعتمروا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم ، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ، فاُولئك بقاياهم في الأديار[1] والصوامع ، فأنزل الله هذه الآية .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام [2] أنّه قال : نزلت في عليّ وبلال وعثمان بن مظعون ، فأمّا عليّ ، فإنّه حلف أن لاينام اللّيل أبداً إلّا ماشاء الله ، وأمّا بلال ، فإنّه حلف أن لايفطر بالنهار أبداً ، وأمّا عثمان بن مظعون ، فإنّه حلف أن لاينكح أبداً .

ووجه النّظم في الآية بهذا التّقرير : لأنّه تعالى لمّا مدح النصارى بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وكان عادتهم الاحتراز عن طيّبات الدّنيا ولذّاتها ، ولمّا مدحهم أوهم

---

(١) جميع الدير : مسكن الرهبان .

(٢) ورواه عنه عليه السلام الطبرسي رحمه الله ـ في المجمع « ج ٣ : ٢٣٦ » وعن الطبرسي في البرهان « ج ١ : ٤٩٤ » وروى علي بن ابراهيم في تفسيره ص ١٦٦ مسنداً رواية اخرى يقرب منه الا انه مذيل بذيل ليس فيهذا الخبر .

ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطّريقة فذكر سبحانه في هذه الآية إزالة ذلك التوهّم وأنّهم ليسوا مأمورين بذلك ، فلو قيل : إنّ حبّ اللّذائذ مستول على الطباع فإذا توسّع الإنسان فيها يمنعه ذلك عن الاستغراق في العبادة والمعرفة ، وإذا كان الأمر كذلك فما الحكمة في نهي الله عن الرهبانيّة ؟ فالجواب أنّ الرهبانيّة والاحتراز التّامّ المفرط عن الطيّبات ممّا يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة الّتي هي القلب والدماغ فحينئذ تشوّش العقل ، واختلّت الفكرة ، وذلك يوجب النّقص في معرفة الله والعمل، فلا جرم وقع النّهي عنها ، والرهبانيّة الكاملة توجب خراب العالم ، وانقطاع الحرث والنّسل ، وذلك يفضي إلى الفساد في الحكمة ، لاسيّما في النّفوس الضّعيفة .

المعنى : قال سبحانه في أوّل السورة : «أوفوا بالعقود» فقال في هذه: إنّه كما لا يجوز استحلال المحرّم كذلك لا يجوز تحريم المحلّل أي لا تعتقدوا تحريم ما أحلّ الله لكم ، كما حرّمت العرب مالم يحرّمه الله وهي البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة، والحام ،[1] ولا تجتنبوا من المحلّلات اجتناباً شبيهاً بالاجتناب من المحرّمات ، ولا تجروها مجرى المحرّمات في شدّة الاجتناب وكذلك لا تلزموا تحريمها بنذر ، أوعهد ، أويمين ، و معنى الآية على جميع هذه الوجوه والمراد من الطيّبات في الآية اللّذائذ ؛ وقيل : الحلال [ولا تعتدوا] حدود الله وأحكامه وقيل : معنى «و لا تعتدوا» أي لا تجبّوا أنفسكم ، فسمّي الخصاء اعتداءً ، عن ابن عبّاس ومجاهد و قتادة ، والأوّل أعمّ فائدة ؛ وقيل : معناه : ولا تسرفوا في الطيّبات ، لأنّه لمّا أباح الطيّبات حرّم الإسراف فيها [إنّ الله لا يحبّ المعتدين] المجاوزين الحدّ [و كلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً] ظاهر الأمر للوجوب ، إلّا أنّ المراد ههنا الإباحة والتّحليل ؛ وقوله : [حلالاً طيّباً] يحتمل أن يكون متعلّقاً بالأكل ، وأن يكون متعلّقاً بالمأكول ، فعلى الأوّل يكون التقدير : كلوا حلالاً طيّباً ممّا رزقكم الله ، وعلى التقدير الثاني : كلوا من الرزق الّذي يكون موصوفاً بالحلال والطيّب .

ثمّ إنّه تعالى لم يقل : كلوا ما رزقكم و قال : كلوا ممّا رزقكم ـ و كلمة من

---

(١) النساء : ١٦٤ .

للتبعيض - فكأنّه قال : اقتصروا في الأكل على بعض واصرفوا البقيّة إلى الخيرات والصدقات ، وهو إرشاد إلى ترك السرف .

قالت المعتزلة : إنّ الرزق لايكون إلّا حلالاً ؛ وقالت الأشاعرة : إنّ الرزق قد لايكون حلالاً ، لأنّه خصّص بقوله : «حلالاً» ولو كان الرزق كلّه حلالاً لم يكن لهذا التخصيص والتقييد فايدة ، وأجاب المعتزلة بأنّه ، إنّما ذكر «حلالاً» على وجه التأكيد ، كما قال : «وكلّم الله موسى تكليماً» (١)[واتّقوا الله الّذي أنتم به مؤمنون] وهذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه ، وتقديره : أيّها المؤمنون بالله ، لاتضيّعوا إيمانكم بالتقصير في التقوى ، فيكون عليكم الحسرة العظمى .

وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التفرّد و الخروج عمّا عليه المسلمون في التأهّل وعمارة الأرض والزّواج ؛ وقد روي : أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يأكل الدّجاج. والفالوذج ، وكان يعجبه الحلو والعسل ؛ وقال : إنّ المؤمن حلو يحبّ الحلاوة وقال: إنّ في بطن المؤمن زاوية لايملؤها إلّا الحلو ، وروي : أنّ الحسن كان يأكل الفالودج فدخل عليه فرقد السبخيّ ؛ فقال : يا فرقد ما تقول في هذا ؟ فقال فرقد : لا آكله ، ولا اُحبّ أكله ، فأقبل الحسن على غيره كالمتعجّب ؛ وقال : لعاب النّحل بلباب البرّ مع سمن البقر هل يعيبه مسلم ؟(١) وجاء رجل إلى الحسن بن عليّ عليهما السلام ؛ فقال له : إنّ لي جاراً ، لايأكل الفالودج ؛ قال الحسن عليه السلام : و لم ؟ قال : لئلّا يؤدّي شكره ، قال عليه السلام : أفيشرب الماء البارد ؟ قال : نعم ، قال : إنّ جارك هذا جاهل ، أن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته في الفالودج ، وسئل فضل بن عياض (٢) عن

(١) روى الطبرسى مرسلا فى تفسيره «ج٣ : ٢٣٦» وروى على بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبدالله عليه السلام قال ، كان رسول الله يعجبه العسل ، فروع الكافى «ج٢ : ١٧٣» اقول : وانما تركنا ذكر جملة (عليه السلام) بعد لفظ (الحسن) فى الرواية الاخيرة لما احتملناه من أن يكون (الحسن) فى الحديث هو الحسن بن مهران الذى كان يجلس مع فرقد على المائدة على ذكره فى الاصابة «ج٣ : ١٩٨» والاستيعاب «ج ٣ : ١٩٩» وكذا ذكره الطبرسى بدون الجملة .

(٢) هو فضل بن عياض بن مسعود التميمى ، اصله من خراسان ترجمه النجاشى فى رجاله ص٢١٩ بصرى ثقة عامى ، روى عن أبى عبداله عليه السلام ، وهو من مشاهير الزهاد ، وله مواعظ و نصائح ومجالس مع الامراء وكان موجها عند الرشيد مات سنة تسع وثمانين ومائة على ما فى توضيح المقال ص ٢٤٢ قال : وقيل : مات قبلها وترجمه الاردبيلى فى جامع الرواة ج ٢ ص١٠

ترك الطيّبات من الجواري و اللّحم والخبيص للزهد .

وقال لمن قال : لا آكل الخبيص : تأكل وتتقي إنّ الله لايكره أن تأكل الحلال الصرف ، كيف برّك لوالديك ؟ وصلتك للرّحم ؟ كيف عطفك على الجار ؟ كيف رحمتك للمؤمنين ؟ كيف كظمك للغيظ ؟ كيف عفوك عمن ظلمك ؟ كيف إحسانك إلى من أساء إليك ؟ كيف صبرك واحتمالك للأذى ؟ أنت إلى أحكام هذه الأمور أحوج منك إلى ترك الخبيص وبالجملة فالاعتدال في الأمور وتناول الطعام حسن جدّاً ، والزهد المشروع ممدوح جدّاً ، فلا تفريط ولا إفراط في كلّ باب ؛ انظر إلى حديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال في الحديث : إنّ في بطن المؤمن زاوية لا يملؤها إلّا الحلو ، ولم يقل : إنّ في بطن المؤمن هاوية ، فافهم راشداً إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلثة أيام ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم و احفظوا ايمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٨٩) .

قرأ ابن عامر : عاقدتم ؛ وقرأ أهل الكوفة : عقدتم بالتّخفيف ؛ والباقون: عقّدتم بالتشديد ، واليمين تقوية أحد الطّرفين بالمقسم به .

النزول : قيل : لمّا نزلت [لاتحرّموا طيّبات ما أحلّ الله] قالوا : يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله هذه الآية ؛ وقيل : نزلت الآية في عبدالله بن رواحة ، (١) كان عنده ضيف وأخّرت زوجته عشاه ؛ فحلف أن لايأكل من الطعام ، وحلفت زوجته أن لا تأكل إن لم يأكل وحلف الضيف أن لايأكل إن لم يأكلا فأكل عبدالله بن رواحة و أكلا معه فأخبر النبيّ بذلك فقال : له أحسنت ؛ عن ابن زيد .

---

(١) خزرجى انصارى شهد العقبة الثانية ، وكان احد النقباء الاثنى عشر ، و حضر المشاهد كلها الا الفتح وما بعده لانه قتل بموته سنة ثمانية ، وكان يحسن الشعر فى الاسلام ومدح النبى صلى الله عليه وآله ومما قال فيه : «لولم تكن فيه آيات مبينة * كان بديهة تنبيك بالخبر» وتصويب النبى صم حداءه للابل معروف فى باب الغناء من الفقه ، ترجمه ابن حجر فى الاصابة «ج ٢ : ٢٩٨» وابو عمرو فى الاستيعاب «ج ٣ : ٢٨٤» .

ومضى الكلام في لغو اليمين وحكمه في سورة البقرة ولا كفّارة فيه عند أكثر المفسرين والفقهاء إلّا ماروي عن إبراهيم النخعيّ أنّه قال : فيها الكفّارة [لايؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الأيمان] إن جعلت ماموصولة ، فمعناه ، يؤاخذكم بالّذى عقدتم عليه الأيمان و إن جعلته مصدريّة ، فمعناه : بعقدكم ، أو بعقيدتكم الأيمان ، أوبمعاقدتكم الأيمان . و المعاقدة أن يضمن الأمر ثمّ يحلف بالله فيعقدعليه اليمين ، وقيل: هوماعقدت عليه قلبك ، وتعمّدته [فكفّارته] أي كفّارة ما عقدتم إذا حنثتم ، و استغني عن ذكر الحنث للدّلالة ، لأنّ الأمّة قدأجمعت على أنّ الكفّارة لاتجب إلّا بعد الحنث ، ومعنى الكفّارة ، الفعلة الّتي تذهب إثمه و تستره ، [إطعام عشرة مساكين] واختلف في مقدارمايعطى كلّ مسكين ، فقال الشافعيّ : مدّ ؛ وقال أبوحنيفة : صاع من حنطة أوصاع من شعير أوتمر، وكذلك عندهم سائر الكفّارات قال الطبرسيّ : وقال أصحابنا : يعطى كلّ واحد مدّين ، أومدّ ، والمدّ رطلان و ربع . أقول : ولا يبعد أن يكون معنى المدّ ملأ الكفّين من الشيء من امتداد الأصابع (١) المصطلح عندنا بـ[الحفنة] ؛ ولا يجوز أن يعطى خمسة مايكفي عشرة فان كان المساكين ذكوراً وإناثاً جاز ذلك ، ولكن دفع بلفظ التذكير لأنّه غلب في كلام العرب [من أوسط ماتطعمون أهليكم] قيل : فيه قولان : أحدهما أن يكون المأكول متوسّطاً ، مثل أنّ الخبز واللّحم لاشكّ في أنّه أعلى الخبز و الملح ، و الأوسط يكون الخبز و السّمن أوالزيت . والآخر أن يكون لحاظ الأوسطيّة في الأكل ، لأنّ الأكل متفاوت أيضاً فتعطيهم كما تعطي أهلك في العسر واليسر [أو كسوتهم] قال أصحابنا الإماميّة : «الكسوة» لكلّ واحد ثوبين : مئزراً وقميصاً أوسربالاً ، وسروالا ، وعند الضّرورة يجزي قميص واحد ، و لعلّ المئزر الواحد لايكفي ، لأنّه لايصدق عليه أنّه كساه ، أويكفي لأنّه

(١) ويساعده اللغة ؛ ففي مجمع البحرين : المد بضم الميم والتشديد مقدر بان يمد يديه فيملا كفيه طعاماً، وقال الجزرى فى النهاية : هو رطل و ثلث بالعراقى عند الشافعى واهل الحجاز وهو رطلان عند ابو حنيفة واهل العراق وقيل : إن اصل المد مقدر بان يمدالرجل يديه فيملا كفيه طعاماً ، انتهى . اقول : ويمكن ان يكون هذا الاصل هو المنشأ لقول الشافعي فان المدعلى قوله يقرب من ٩١ مثقالا وملؤ الكفين المعتدلين يبلغ هذا المقدار .

يصدق عليه أنّه غير عريان أو تحرير رقبة أي عتق رقبة عبد أو أمة ؛ والرقبة يعبّر بها عن جملة الشّخص ، وهو كلّ رقبة سليمة من العاهات صغيرة كانت ، أو كبيرة ، مؤمنة كانت ، أو كافرة ، فإنّ اللّفظ مطلقة مبهمة إلّا أنّ الأفضل هو المؤمن . و هذه الثّلاثة واجبة على التخيير ومعنى الواجب المخيّر أنّه بأيّ واحد من هذه الثلاثة شاء وأتى به خرج عن العهدة[1] قال الرازيّ : ومن الفقهاء من قال : إنّ الواجب المخيّر ، واحد لا بعينه ، وهذا الكلام يحتمل وجهين : الأوّل أن يقال : الواجب عليه أن يدخل في الوجود واحداً من هذه الثلاثة لا بعينه ؛ وهذا محال في العقول لانّ الشيء الّذي لا يكون معيّناً في نفسه ، يكون ممتنع الوجود لذاته ، وما كان كذلك فإنّه لا يراد به التّكليف ، الثّاني : أن يقال : الواجب عليه واحد معيّن في نفسه وفي علم الله إلّا أنّه مجهول العين عند العامل ، وذلك أيضاً محال ، لأنّ معنى كون ذلك الشيء واجباً بعينه في علم الله هو أنّه لا يجوز تركه بحال ، و قد أجمعت الأمّة على أنّه يجوز له تركه بتقدير الإتيان بغيره [فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيّام] أي فمن لم يتمكّن إحدى الثلاث ، فكفّارة حنث يمينه يكون صيام ثلاثة أيّام و « صيام » مرفوع بأنّه خبر المبتدأ ، أو التقدير : فعليه صيام ثلاثة أيّام ، فيكون صيام مبتدءاً ، وحدّ من ليس بواجد هو من ليس له ما يفضل عن قوته ، وقوت عياله يومه وليلته .

واعلم أنّ اليمين على ثلاثة أقسام : أحدها : ما يكون عقدها طاعة ، ويكون حلّها معصية ، وهذه تتعلّق بحنثها الكفّارة بلا خلاف ، وهو كما لو قيل : والله لا شربت الخمر ، والثاني أن يكون عقدها معصية ، وحلّها طاعة كما يقال : والله لا صلّيت ، وهذا لا كفّارة في حنثه عند الإماميّة ، وخالف ساير الفقهاء في ذلك ، والثالث أن يكون عقدها مباحاً وحلّها مباحاً كما يقال : والله لا لبست هذا الثوب ، وهذه تتعلق بحنثه الكفّارة بلا خلاف

(١) اختلفوا فى معنى الوجوب التخييري على اقوال ستة ؛ وجه الاختلاف هو ان الحكم فيه واحد والحكم الواحد له موضوع واحد ايضاً وحيث ان الافراد التى يمكن اسقاط التكليف بها تكون اكثر من واحد اضطربت آراؤهم فى تعيين ماهو المتعلق فى الحقيقة لهذا الحكم . وما ذكره المصنف قدس سره هو نتيجة الجميع لانه قول من الاقوال ، نعم ما نقله عن الرازى هو قول منها .

أيضاً [ذلك] إشارة الى ماتقدّم من الكفّارات [كفّارة أيمانكم إذا حلفتم] أي إذا حلفتم وأحنثتم ، لأنّ الكفّارة لاتجب بنفس اليمين ، وإنّما تجب باليمين والحنث [واحفظوا أيمانكم] قيل : أى احفظوا أيمانكم عن الحنث ولاتحنثوا ؛ [1] وقال ابن عبّاس : معناه : لاتحلفوا ، وفي الآية دلالة على أنّ اليمين في المعصية لاتنعقد ، لانّها ، لوانعقدت للزم حفظها ، وإذا كانت لاتنعقد فلايلزم فيها الكفّارة [كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تشكرون] أي كما بيّن أمر الكفارة فجميع الأحكام يبيّن الله آياته وفروضه لتشكروه على تبيينه لكم اُموركم ونعمته عليكم .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠) انمايريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أنتم منتهون (٩١) .

الخمر : عصير العنب المشتدّ الّذي يسكر كثيره وسمّي خمراً ، لأنّها بالسكّر تغطي على العقل بمنزلة الخمار، [2] من قولهم : خمرت الإناء إذا أغطيته ، وفلان دخل في خمار النّاس إذا خفي في ما بينهم . والميسر : القمار بأقسامه ، من تيسير أمر الجزور بالاجتماع على القمار فيه ، وأصله من اليسر خلاف العسر ، وسميّت يد اليسرى ، تفؤّ لا بتيسّر العمل بها ، أو لأنّها تعين اليد اليمنى فيكون العمل أيسر . والأنصاب : الأصنام ؛ وسميّت بذلك لأنّها كانت ينصب للعبادة لها والانتصاب : القيام ؛ ومنه النصب بمعنى التّعب بسبب العمل الّذي ينتصب له ، ومناصبة العدوّ : الانتصاب والقيام لعباته ، قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لاتنسكنّه ✲ ولاتعبد الشيطان والله فاعبدا

والأزلام : القداح ، وهي سهام ، كانوا يجيلونها [3] مكتوب على بعضها : أمرني

---

(١) اختاره الطبرسى تبعاً للجبائى و هو الاوفق بالقواعد اللفظية حيث ان الحفظ فى الاية حكم محمول على الايمان والايمان هو الموضوع ولابد من ثبوت الموضوع بوجه ماحتى يصح الحمل كما لا يخفى .

(٢) مايغطى الوجه .

(٣) اجال الشى : اداره .

ربيّ ، وعلى بعضها : نهاني ربيّ يطلبون بها على ماقسمّ من الخير والشرّ ، وكان أهل الجاهليّة إذا أراد أحدهم سفراً أوتجارة أوغزواً أوغير ذلك ، طلب علم أنّه خير أوشرّ من الأزلام وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت ، على بعضها : أمرني ربيّ و على بعضها : نهاني ربّي و بعضها غفل لاكتابة عليها ولاعلامة ، فإن خرج السهم الآمر مضوا ، وإن خرج الناهي يجتنبون عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية .

وقداح يقتسمون الجزور و هي عشرة هي : قد ، و قوام ، ورقيب وهومن أقسام القمار كاللاّتري .

المعنى : نهى الله سبحانه عن اُمور كان أهل الجاهليّة يرتكبونها ، فقال : [يا أيها الّذين آمنوا إنّما الخمر و الميسر والأنصاب والأزلام] قال ابن عبّاس : يريد بالخمر جمع الأشربة الّتي تسكر ، وكانوا يتّخذونها من العسل ومن العنب والزبيب ومن التمر ومن الحنطة والذرّة والشعير ، وغيرها [رجس من عمل الشيطان] والرجس بمعنى النجس ، إلاّ أنّ النجس يقال في المستقذر طبعاً ، والرّجس أكثر مايقال في المستقذر عقلاً ، وسمّيت هذه الأمور رجساً ، لوجوب اجتنابها كمايجب اجتناب الشيء المستقذر [من عمل الشيطان] صفة لرجس ، أى رجس كائن من عمله ، لأنّه هو الدّاعي والمرغّب إليه ، والمزّين له في قلوب فاعليه [فاجتنبوه] أى الرجس وكونوا على جانب وناحية منه [لعلّكم تفلحون] لكي تفوزوا بالثوّاب ؛ قال الطبرسيّ : وفي هذه الآية دلالة على تحريم الخمر ، وهذه الأشياء المذكورة من أربعة أوجه : أحدها أنّه وصفها بالرّجس وهو النّجس والنّجس محرّم بلاخلاف ؛ والثاني أنّه نسبها إلى عمل الشيّطان ، وذلك يوجب تحريمها ؛ والثالث أنّه أمر باجتنابها والأمر يقتضي الإيجاب ؛ والرّابع أنّه جعل الفوز والفلاح في اجتنابها ، ويجوز أن يكون الهاء في قوله «فاجتبوه» راجعة إلى عمل الشيطان ، وتقديره : فاجتنبوا عمل الشيطان ؛ قال الباقر عليه السلام : مدمن الخمر كعابد الوثن [1] وفي هذا دلالة على تحريم سائر التصرّفات في

---

(١) رواه فى فروع الكافى «ج ٢ : ١٨٢» عن ابى على الاشعرى عن محمد بن حسان عن محمد بن على عن ابى جميله و زرارة ايضا ومحمد بن اعين عنهما عليه السلام . و بطرق اخر عن ابى عبدالله عليه السلام . والمد من هو الذى اذا وجد المسكر شربه على مافى رواية نعيم البصرى عن الصادق عليه السلام .

في الخمر من الشرب والبيع و الشراء ، والاستعمال على جميع الوجوه ، وفي الحديث : قال النبيّ ﷺ ليلة الإسراء : أوّل ما نهاني بعد عبادة الأوثان شرب الخمر . والخطاب لأمّته ، وإن كان المخاطب هو النبيّ ﷺ مثل قوله : «لئن أشركت ليحبطنّ عملك»[١]

ثمّ بيّن سبحانه سبب النهي فقال . [إنّما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر] قال ابن عبّاس : نزلت في سعد بن أبي وقّاص ورجل كان من الأنصار مؤاخياً لسعد فدعاه إلى الطّعام فأكلوا و شربوا نبيذاً فوقع بين الأنصاريّ و سعد مراء و مفاخرة فأخذ الأنصاريّ لحي[٢] جمل فضربه سعداً ففزر[٣] أنفه ، فأنزل الله تعالى ذلك فيما .

والمعنى : يريد الشّيطان إيقاع العداوة بينكم بالإغواء المزيّن لكم ، حتّى إذا سكرتم زالت عقولكم وأقدمتم من القبائح من الأمور الّتي يمنعكم عقولكم ارتكابها. قال قتادة : كان الرجل منهم يقامر في ماله وأهله فيُقمر[٤] ويبقى حزيناً ، سليباً نادماً ، فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء [ويصدّكم عن ذكر الله] و قوله : «في الخمر» متعلّق بيوقع ، على أن يكون كلمة «في» هنا لإفادة معنى السببيّة ، كما في قوله ﷺ : إنّ امرأة دخلت النّار في هرّة أي بسبب هرّة [وعن الصّلاة] أي يمنعكم عن الذّكر لله بالتّعظيم ، وعن الصلاة الّتي هي قوام دينكم ، فإنّ المخمور مع حالة نشاطه وسكره كيف يشتغل بالعبادة والذّكر ؟ و كذلك المقامر فإن صار غالباً فصار استغراقه في لذّة الغلبة فتورثه الغفلة عن العبادة ، وإن صار مغلوباً صار شدّة اهتمامه بأن يحتال بحيلة يصير بها غالباً فحينئذ لا يخطر بباله شيء سواه [فهل أنتم منتهون] صيغة الاستفهام ، و معناه النّهي ، وإنّما جاز في صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النّهي ، لأنّ الله ذمّ هذه الأفعال وأظهر قبحها ، وإذا ظهر قبح الفعل للمخاطب ثمّ استفهم عن تركه لم يسعه إلّا الإقرار بالتّرك ، فكان هذا أبلغ في باب النّهي من أن يقال : انتهوا ، ونزلت آية

(١) الزمر : ٦٥ .

(٢) اللحى ـ بالفتح فالسكون ـ : عظم الحنك الذى عليه الاسنان .

(٣) فزر الشيء : شقه و كسره .

(٤) بالبناء على المفعول اى يصير مغلوباً .

التحريم في سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة اُحُد .

قوله تعالى : و اطيعوا الله و اطيعوا الرسول و احذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين (٩٢) .

لمّا أمر الله باجتناب هذه الاُمور عقّبه بالأمر بالطاعة له فيها وفي غيرها فقال : [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول] والطاعة هي امتثال الأمر ، والانتهاء عن المنهيّ عنه، و لذلك يصحّ أن يكون الطاعة طاعة لاثنين ، بأن يوافق أمرهما وإرادتهما [واحذروا] المناهي ، قال عطاء : يريد : واحذروا سخطي . والحذر امتناع القادر من الشيء لما فيه من الضرر [فإن تولّيتم] وأعرضتم ولم تعملوا بما اُمرتم به [فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ المبين] معناه : الوعيد والتّهديد ، كأنّه قال سبحانه: فاعلموا أنّكم قد استحققتم العقاب لتولّيكم عمّا أدّوا رسلنا إليكم من البلاغ الظاهر الواضح ، و « ما » في قوله : «أنّما» كافّة لأنّ عن عملها .

واعلم أنّ الله تعالى قرن الخمر والميسر بالأصنام ، ففيه تحريم بليغ لهما وأيضاً التعبير بالرجس بمعنى اللّعنة والعذاب دليل على الحرمة ؛ «كذلك يجعل الله الرجس على الّذين لا يعقلون»(١) ولعلّ قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : شارب الخمر كعابد الوثن مستفاد من هذه الآية ، وفي الحديث : من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سمّ الأساود وسمّ العقارب ، إذا شربه تساقط لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها ، فإذا شربها تفسخ لحمه كالجيفة يتأذّى به أهل الموقف ، ومن مات قبل أن يتوب من شرب الخمر كان حقّاً على الله أن يسقيه بكلّ جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد جهنّم . وفي الحديث : لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه وآكل ثمنها . وفي الحديث : من شرب الخمر بعد أن حرّمها الله على لساني فليس له أن يزوّج إذا خطب ، ولا يصدّق إذا حدّث ، ولا يشفّع إذا تشفّع ، ولا يؤتمن على أمانة ، فمن ائتمنه على أمانة ، فاستهلكها فحقّ على الله أن لا يخلف عليه . قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : الخمر اُمّ الخبائث، وذلك لأنّها تهيّج الصفات الخبيثة في النفس ؛ مثل الحرص والكبر ، والغضب، والعداوة،

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

والحقد ، والحسد ، وبها يضلّ العبد عن سواء السبيل وأمّا الأنصاب فهي تعبد من دون الله ، فهي تجعل العبد مشركاً بالله ، وأمّا الأزلام و الالتفات إليها عند توقّع الخير والشرّ والنفع والضرّ من دون الله من المضلّات و الفتن فإنّ الله هو الضارّ والنافع . فهذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة .

قوله تعالى : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا و آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا و آمنوا ثم اتقوا و احسنوا والله يحب المحسنين (٩٣) .

قال ابن عبّاس وجماعة مثل أنس بن مالك والبراء بن عازب: إنّه لمّا نزلت التحريم في الخمر والميسر ، قالت الصحابة : يا رسول الله ما تقول في إخواننا الّذين مضوا وهم يشربون الخمور ، ويأكلون الميسر ؟ فنزلت هذه الآية ؛ وقيل : إنّها نزلت في القوم الّذين حرّموا على أنفسهم اللّحوم، وسلكوا مسلك الترهّب فبيّن الله لهم أنّه لا جناح في تناول المباح مع اجتناب المحرّمات فقال : [ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح] أي إثم وحرج [فيما طعموا] أي تناولوا ، والطّعام في الأغلب من اللّغة خلاف الشّراب ، فكذلك يجب أن يكون الطعم خلاف الشّرب ، إلّا أنّ اسم الطّعام قد يقع و يستعمل على المشروب ، كما قال تعالى : « و من لم يطعمه فإنّه منّي » فعلى هذا يصحّ أن يكون قوله : «فيما طعموا» أي شربوا الخمر ، ويجوز أن يكون معنى الطعم راجعاً إلى التلذّذ بما يؤكل ويشرب ؛ قالت العرب : «تطعّم تطعم» أي ذُق حتّى تشتهي(١) فإذا كان معنى الكلمة راجعاً إلى الذوق صلح للمأكول والمشروب معاً .

وههنا مسألة ، وهي أنّه زعم بعض الجهّال أنّه تعالى ، لمّا بيّن في الخمر أنّها محرّمة عند ما تكون موقعة للعداوة والبغضاء وصادّة عن ذكر الله وعن الصلاة بيّن في هذه الآية أنّه لا جناح على من طعمها إذا لم يحصل معه شيء من تلك المفاسد، بل حصل معه أنواع المصالح من الطاعة والتقوى والإحسان ، ثمّ بجهلهم ، قالوا : ولا يمكن حمله على أحوال من شرب الخمر قبل نزول آية التّحريم لأنّه لو كان المراد ذلك لقال :

---

(١) في الاساس : ذق تشته ، و هو الصحيح .

ماكان جناح على الّذين طعموا كما ذكر مثل ذلك في آية تحويل القبلة فقال : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » (١) ولكنّه لم يقل ذلك ، بل قال : «ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتّقوا وآمنوا» ولا شكّ أنّ «إذا» للمستقبل لا للماضي انتهى كلامهم ؛ فأمّا الجواب ، قال أبوبكر الأصمّ : إنّه لمّا نزلت آية تحريم الخمر قال بعض الأصحاب : يا رسول الله كيف بإخواننا الّذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار ؟ وكيف بالغائبين عنّا في البلدان ولا يشعرون بعد بأنّ الله حرّم الخمر ، وهم يطعمونها ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وعلى هذا التّقدير فالحمل قد ثبت في الزمان المستقبل عن وقت نزول الآية ، لكن في حقّ الغائبين الّذين لم يبلغهم النّصّ انتهى .

رجعنا إلى تفسير الآية : ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات إثم [فيما طعموا] وفي تفسير أهل البيت : فيما طعموا من الحلال [إذا ما اتّقوا] شربها بعد التحريم [و آمنوا بالله وعملوا الصّالحات] أي الطاعات [ثمّ اتّقوا] أي داموا على الاتّقاء [وآمنوا] أي داموا على الإيمان [ثمّ اتّقوا] عن المخالفة بفعل الطّاعات والفرائض [وأحسنوا] بفعل الخيرات وإتيان النوافل . قال الطبرسيّ : الاتّقاء الأوّل اتّقاء الشّرب بعد التّحريم والاتّقاء الثاني الدوام على ذلك ، والاتّقاء الثّالث اتّقاء مطلق المعاصي مع ضمّ الإحسان إليه ، فعلى هذا يكون الاتّقاء الأوّل هو اتّقاء الشرب بعد التحريم ، و الاتّقاء الثّاني هو الدوام على ذلك ، و الاتّقاء الثّالث اتّقاء مطلق المعاصي و ضمّ الإحسان إليه ؛ وقيل : الاتّقاء الأوّل هو اتّقاء المعاصي العقليّة ، والإيمان الأوّل هو الإيمان بالله ، و بما أوجب الله الإيمان به ، و الإيمان بقبح هذه المعاصي ، و الاتّقاء الثّاني هو اتّقاء المعاصي السمعيّة و الإيمان بقبحها و وجوب اجتنابها ، و الاتّقاء الثّالث مختصّ بمظالم العباد ، و بما يتعدّى إلى الغير من الظلم و الفساد . و قال أبو عليّ الجبّائيّ : إنّ الشرط في قوله : « إذا ما اتّقوا » يتعلّق بالزمان الماضي ، و الشرط الثاني يتعلّق بالدوام على ذلك و الاستمرار على فعله ، والشرط الثالث يختصّ بمظالم العباد ،

(١) البقرة : ١٤٢ .

واستدلّ على أنّ هذا الاتّقاء إنّما اختصّ بالمظالم لقوله : «واحسنوا» فإنّ الإحسان إذا كان متعدّياً وجب أن يكون المعاصي الّتي اُمروا باتّقائها قبله أيضاً متعدّية به . قال الطّبرسيّ : وهذا الاستدلال ضعيف لأنّه لايمتنع أن يكون الإحسان يراد به الفعل الحسن فيكون لازماً ، ويراد من الباب في الفعل المبالغة كما يقولون لمن بالغ في فعل الحسن : أحسنت وأجملت ، ثمّ لو سلم أنّ المراد به الإحسان المتعدّي فلمَ لايجوز أن يعطف فعل متعد على فعل لا يتعدّى ؟ .

فلو قيل : إنّه لو كان المراد في قوله : « فيما طعموا » المباحات و الحلال لزم تقييد إباحتها باتّقاء ما عداها من المحرّمات ، لقوله : « إذا ما اتّقوا » وليس الأمر كذلك بل الكافر إذا أكل حلالاً لم يكن عليه إثم ؛ فالجواب أنّه إنّما تخصّصت بذلك الطاريء عليها ، فالجواب أنّ هذا القيد ليس المراد منه أنّ المباح مشروط إباحته بالتّقوى ، بل المراد من الآية ، بيان أحوال اُولئك الأقوام الّذين فيهم هذه الآية ولمّا يعلموا بعد بحرمتها وكانوا على هذه الصفة ، و الآية ثناءٌ عليهم و حمد لأحوالهم من الإيمان و التقوى و الإحسان . ثمّ إنّهم لمّا لم يعلموا بعد بحرمتها و طعموا منها لم يكن لهم حراماً ، فصحّ القول بأنّ المراد من قوله : «فيما طعموا» الحلال .

وفي الآية قول آخر ، وهو أنّ المقصود من هذا التّكرير التأكيد والمبالغة في الحثّ على الإيمان والتّقوى .

قال الطبرسيّ : وجدت في بعض رسائل السيّد المرتضى قدّس سرّه أنّه قال : إنّ المفسّرين تشاغلوا بإيضاح الوجه في التّكرار الّذي تضمّنته هذه الآية ، وظنّوا أنّه المشكل فيها وتركوا ما هو أشدّ إشكالاً من التكرار ، وهو أنّه قد نفى الجناح عن الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيما يطعمونه بشرط الاتّقاء والإيمان وعمل الصّالحات والحال أنّ الإيمان و عمل الصّالحات ليس بشرط في نفي الجناح فإنّ المباح إذا وقع من الكافر فلا إثم عليه ، قال : ولنا في حلّ هذه الشبهة طريقان :

أحدهما أن يضمّ إلى هذا الشّرط المصرّح بذكر كلمة : (غيره) حتّى يظهر تأثيرها شرط فيكون تقدير الآية : ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح في ما طعموا

وغيره ، إذا ما اتّقوا و آمنوا وعملوا الصّالحات ، لأنّ الشّرط في نفي الجناح لابدّ من أن يكون له تأثير حتّى يكون متى انتفى ثبت الجناح ، وقد علمنا أنّ باتّقاء المحارم ينتفي الجناح فيما يطعم فهو الشّرط الّذي لا زيادة عليه ، ولمّا ذكر الاتّقاء والإيمان وعمل الصالحات - ولا تأثير لهما في نفي الجناح - علمنا أنّه اُضمر ما تقدّم ذكره ليصحّ الشّرط ويطابق المشروط لأنّ من اتّقى الحرام لاجناح عليه فيما يطعم ، ولكنّه قد يصحّ أن يثبت عليه الجناح فيما اُخلّ به من واجب فإذا شرطنا أنّه وقع اتّقاء القبيح ممّن آمن بالله وعمل الصّالحات ارتفع الجناح عنه من كلّ وجه ، وليس بمنكر حذف ما ذكرناه لدلالة الكلام عليه ، فمن عادة العرب ان يحذفوا ما يجري هذا المجرى ويكون قوّة الدلالة عليه مغنية عن النطق به ، قال شاعرهم :

تراه كأنّ الله يجدع أنفه ✡ وعينيه أن مولاه يأت له وفر

لمّا كان الجدع (١) لايليق بالعين وكانت معطوفة على الأنف الّذي يليق الجدع به اُضمر مايليق بالعين من البخص ، (٢) وما يجري مجراه .

والطّريق الثّاني هو أن يجعل الإيمان و عمل الصّالحات هنا ليس بشرط حقيقيّ ، وإن كان معطوفاً على الشّرط فكأنّه تعالى لمّا أراد أن يبيّن وجوب الإيمان و عمل الصّالحات عطفه على ماهو واجب من اتّقاء المحارم لاشتراكهما في الوجوب و إن لم يشتركا في كونهما شرطاً في نفي الجناح فيما يطعم ، و هذا توسّع في البلاغة يحار فيه العقل استحساناً واستغراباً انتهى كلامه .

قال الطبرسيّ : وقد قيل أيضاً في الجواب عن ذلك : إنّ المؤمن يصحّ ويجوز أن يطلق عليه : لاجناح عليه ، أو جناح عليه ، وأمّا الكافر فمغمور في العقاب بكفره ، فلا يطلق عليه هذا اللّفظ ، والكافر قد سدّ على نفسه طريق معرفة التّحريم و التّحليل ، و لذلك خصّ المؤمن بالذّكر انتهى ، و روي أنّ قدامة بن مظعون شرب الخمر في أيّام عمر بن الخطّاب فأراد أن يقيم عليه الحدّ ، فتلا قدامة : «ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصالحات

---

(١) جدع انفه : قطعه.

(٢) بخص العين بخصاً - بسكون الخاء - : قلعها .

جناح فيماطعموا » فأراد عمر أن يدرأ عنه الحدّ فقال علي عليه السلام : أديروه على الصّحابة، فإن لم يسمع أحداً منهم قرأ عليه آية التّحريم فادرؤوا عنه، فإذا كان قد سمع فاستتيبوه فأقيموا عليه الحدّ، فإن لم يتب وجب عليه القتل.(١)

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم(٩٤) ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أوعدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفى الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام (٩٥) .

وجه النّظم أنّه تعالى لمّا قال : « لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله » ثمّ استثنى الخمر والميسر فكذلك استثنى في هذه الآية هذا النوع من الصّيد عن المحلّلات وبيّن دخوله في المحرّمات، ونزلت الآية عام الحديبية في السّنة السّادسة من الهجرة، والحديبية بتخفيف الياء الأخيرة - وقد تشدّد - موضع قريب من مكّة، وذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أراد زيارة الكعبة فسار هو وأصحابه من المدينة وهم ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً، فنزلوا بالحديبية، فابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكّنين من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم فهمّوا بأخذها، قال أصحاب المعاني : امتحن الله اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بصيد البرّ كما امتحن اُمّة موسى بصيد البحر، فأنزل الله [يا أيّها الّذين آمنوا] واللام في قوله : [ليبلونّكم] لام القسم لأنّ اللام والنّون قد يكونان جواباً للقسم وإذا ترك القسم جيء بهما علامة على القسم التقدير : والله ليعاملنّكم معاملة المختبر والممتحن، وخصّ المؤمنين بالذّكر وإن كان الكفّار أيضاً مخاطبين بالشّرائع لأنّهم القابلون لذلك المنتفعون به أولأنّه لم يعتدّ

---

(١) رواه الطبرسي مرسلا في تفسيره «ج٣ : ٢٤٢». و قدامة هو اخو عثمان بن مظعون، احد السابقين الاولين، هاجر الهجرتين ـ الحبشة و المدينة ـ و شهد بدرا، و كان زوج صفية اخت عمر، و استعمله عمر على البحرين. مات سنة ست و ثلاثين عن ثمان وستين الاصابة «ج٣ : ٣١٩ - ٣٢١».

بالكفّار [بشيء من الصيد] أي بتحريم بعض من الصيد لأنّه عنى صيد البرّ خاصّة ، منعهم الله عن الصّيد وهم محرمون ، ولعلّ المراد من قوله : « بشيء من الصّيد » أن يعلم أنّه ليس بفتنة من الفتن العظام الّتي يكون التكليف فيها صعباً شاقّاً كالابتلاء ببذل الروح والمال و إنّما هو ابتلاء سهل [تناله أيديكم و رما حكم] قيل : الّذي تناله الأيدي ، صغار الوحش و فراخ الطير ، والّذي تناله الرماح الكبار من الصّيد ؛ عن ابن عبّاس ، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام . وقيل : إنّ صيد الحرم تنال بالأيدي و الرماح لأنّه كان يأنس بالناس ولا ينفر منهم فيه ، بخلاف الحلّ فإنّه كان ينفر فيه ، و ذلك آية من آيات الله ؛ عن أبي عليّ الجبّائيّ ، وثالث الأقوال أنّ المراد ماقرب من الصّيد ومابعد [ليعلم الله من يخافه بالغيب] والخوف من الله الخوف من عقابه وغضبه ، و المعنى : ليتميّز الخائف من عقابه الأخرويّ و هو غائب مترقّب لقوّة إيمانه ، فلا يتعرّض للصّيد ممّن لايخاف كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ، ولمّا كان علم الله مقتضى ذاته وامتنع عليه التجدّد والتغيّر كما امتنع ذلك على ذاته جعل ههنا مجازاً عن تمييز المعلوم و ظهوره على طريق إطلاق السبب على المسبّب ، قال القاضي والمولى أبو السّعود : إنّما عبّر بالعلم إيذاناً بمدار الجزاء ثواباً و عقاباً لأنّ حصول الجزاء منوط بحصول المعلوم وتميّزه ، ويجوز أن يكون معنى من يخافه بالغيب أى من يخاف حال إيمانه بالغيب كما ذكر في أوّل كتابه وهو قوله : « يؤمنون بالغيب » أوالمعنى من يخافه باخلاص وتحقيق ، ولايختلف حاله بسبب حضور واحد أوغيبته كما في حقّ المنافقين الّذين إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا : آمنّا ، وإذاخلوا إلى شياطينهم قالوا : إنّا معكم ، والباء في قوله : «بالغيب» في محلّ النّصب بالحال [فمن اعتدى بعد ذلك] أى بعد بيان أنّ ماوقع امتحان من جهته تعالى و تعرّض للصّيد [فله عذابٌ أليم] لأنّ الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة ، وعدم مبالاة بحكم الله وانخلاع عن طاعته ، و المراد عذاب الآخرة إن مات قبل التّوبة ، ثمّ ذكر سبحانه مايجب على ذلك الاعتداء من الجزاء في الدنيا فقال : [يا أيّها الّذين آمنوا لاتقتلوا الصّيد] واختلف في معنى الصيد قيل : هو كلّ الوحش اُكل أولم يؤكل ، وهو قول أهل العراق ، واستدلّوا بقول عليّ عليه السلام :

صيد الملوك أرانب و ثعالب ✡ و إذا ركبت فصيدي الأبطال

قال الطبرسيّ : وهو مذهب أصحابنا ، وقيل : هو كلّ مايؤكل لحمه ، وهو قول الشافعيّ [و أنتم حرم] أى محرمون بحجّ أوعمرة ؛ وقيل : معناه : و أنتم في الحرم . قال الجبائي : الآية تدلّ على تحريم قتل الصّيد على الوجهين و هو الصّحيح لكن قال عليّ بن عيسى : الآية تدلّ على الإحرام بالحجّ أو العمرة فقط [و من قتله منكم متعمّداً] قيل : معناه هو أن يتعمّد القتل ناسياً لإحرامه عن الحسن و مجاهد و ابن زيد و ابن جريح و إبراهيم النّخعيّ قالوا : و أمّا إذا تعمّد في القتل ذاكراً لإحرامه فلاجزاء فيه لأنّه أعظم من أن يكون له كفّارة ؛ وقال ابن عبّاس و الزّهريّ وعطاء : هو أن يتعمّد القتل و إن كان ذاكراً لإحرامه ، و هو قول أكثر الفقهاء فأمّا إذا قتل الصّيد خطأً و نسياناً ، فهو كالمتعمّد من وجوب الجزاء عليه وهو مذهب عامّة أهل العلم والبصيرة . قال الطبرسيّ : وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام، قال الزّهريّ : نزل القرآن بالعمد وجرت السنّة في الخطأ [فجزاءٌ مثل ماقتل من النّعم] قرء جزاءٌ منوّناً ، و قرء بالإضافة و بالتّنوين . المعنى : فعليه جزاءٌ من النّعم مماثل للمقتول والواجب عليه جزاءٌ من النّعم مماثل ما قتل من الصّيد ، وبالإضافة أيضاً يؤول المعنى إلى معنى واحد باختلاف يسير ، قال الزّجاج : ويجوز أن يكون المعنى : فجزاء ذلك القتل مثل ما قتل فيكون جزاءٌ مبتدءاً ، و«مثل» خبره . قال الطبرسيّ :واختلف في هذه المماثلة أهي في القيمة أو الخلقه ؟ فالّذي عليه معظم أهل العلم أنّ المماثلة معتبرة في الخلقة ففي النعامة بدنة، وفي حمار الوحش وشبهه بقرة ، وفي الظّبي والأرنب وأمثالها شاة ، و هو المرويّ عن أهل البيت ، وهو قول ابن عبّاس والحسن والضحّاك والسدّيّ ومجاهد وعطاوغيرهم؛ وقال إبراهيم النخعيّ : يقوّم الصّيد قيمة عادلة ثمّ يشترى بثمنه مثله من النّعم،فاعتبر المماثلة بالقيمة ، والصّحيح القول الأوّل ، ومنشأ الاختلاف : القراءتان .

[يحكم به ذوا عدل منكم]وفي قراءة محمّد بن عليّ الباقر وجعفر بن محمّد الصّادق عليهما السلام : يحكم به ذوعدل منكم ، وفي تفسير أهل البيت منقولاً عن السيّدين الإمامين صلوات الله عليهما أنّ المراد بذي العدل رسول الله وأُولو الأمر من بعده لأنّ التّقويم مع تشخيص المماثلة

لايعرفه كل أحد من الناس ولا يهتدي إليه إلّا الربّانيّون ؛ قيل : إنّ الشافعيّ أوجب في قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث إنّ كلّاً منهما يعبّ و يهدر مع أن النسبة بينهما في سائر الحيثيّات كما بين الضّب و النون ، وعلى القراءة الثانية قال ابن عبّاس: يريد : يحكم في الصّيد بالجزاء رجلان صالحان من أهل دينكم ، فينظران إلى أشبه الأشياء به من النّعم ، أي الأنعام الثّلاثة من الإبل والبقر والغنم ، فيحكمان به .

[هدياً بالغ الكعبة] أي يهديه هدياً يبلغ الكعبة ، قال ابن عبّاس : يريد إذا أتى مكّة ذبحه وتصدّق به ، قال أصحابنا : إن كان أصاب الصّيد و هو محرم بالعمرة ذبح جزاءه أو نحر بمكّة قبالة الكعبة ، وإن كان محرماً بالحجّ ذبحه أو نحره بمنى ، والهدي ما يهدى إلى البيت تقرّباً إلى الله من النّعم أيسره شاة وأوسطه بقرة و أعلاه بدنة أي ناقة ، و «بالغ الكعبة» صفة لهدياً ، والإضافة لفظيّة ، والأصل بالغاً إلى الكعبة [أو كفّارة طعام مساكين] قيل : في معناه قولان : أحدهما أن يقوّم عدله و مثله من النّعم ، ثمّ يجعل قيمته طعاماً ويتصدّق به ، عن عطاء وهو الصحيح ، والآخر أن يقوّم الصّيد المقتول حيّاً ، ثمّ يجعل طعاماً ، وقرأ نافع وأبي عامر : أو كفّارة طعامِ على الإضافة . والباقون : أو كفارةٌ منوّناً بالرّفع .

ووجه القراءة الأولى ، فهو أنّه تعالى لمّا خيّر المكلّف بين ثلاثة أشياء: الهدي والصيام والطّعام حسنت الإضافة، لكون الكفّارة من هذه الأشياء، وأمّا وجه التّنوين فهو أنّه عطف على قوله : «فجزاءٌ» فيكون «طعام مساكين» عطف بيان ؛ لأنّ الطّعام هو الكفّارة ولم تصف الطعام لأنّ الكفّارة ليست للطعام ، و إنّما الكفّارة لقتل الصّيد .

[أو عدل ذلك صياماً] وذلك إشارة إلى الطعام «وصياماً» منصوب على التمييز للعدل ، «وأو» عطف على «طعام مساكين» وعدل بكسر العين : المثل من جنسه ، والعدل بالفتح: المثل من غير جنسه ، فحاصل معنى الآية أنّ من جنى هذه الجناية فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النّعم ، أو طعام مساكين حسب ما ذكر ، أو صيام أيّام بعدد المساكين المطعمين وفيه قولان أيضاً : أحدهما أن يصوم عن كل مدّ يقوّم من الطّعام يوماً ،وهو

مذهب الشّافعيّ ، والآخر أن يصوم عن كل مديّن يوماً ، وهو المرويّ عن أئمّتنا وهو مذهب أبي حنيفة .

ثمّ اختلفوا في هذه الكفّارات الثلاث هل هي مرتّبة أم مخيّرة ؟ قيل : مخيّرة، وقيل : مرتّبة ، وحجّة القائل بالتّخيير أنّ كلمة «أو» في أصل اللّغة للتّخيير ، والقول بأنّها للتّرتيب ترك للظّاهر ، وحجّة القائلين بالتّرتيب أنّ كلمة «أو» قد تجيء لغير معنى التّرتيب ، كما في قوله : «أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم و أرجلهم من خلاف»[1] فإنّ المراد منه تخصيص كلّ واحدٍ من هذه الأحكام للمحارب بحالة معيّنة ،فثبت أنّ هذا اللّفظ يحتمل التّرتيب ؛ و قالوا : والدليل دلّ على أنّ المراد هو الترتيب ،لأنّ الواجب هنا حكم وشرّع على سبيل التّغليظ بدليل قوله:«ليذوق وبال أمره ومن عاد فينتقم الله منه»والتّخيير ينا في التّغليظ ، وأجابوا عنه بأنّ إخراج المثل ليس أقوى عقوبة من إخراج الطّعام ، فالتّخيير لا يقدح في القدر الحاصل من العقوبة في إيجاب المثل ، وأمّا في موضع التّقويم فقال أكثر الفقهاء من العامّة : إنّما يقوّم في المكان الّذي قتل الصيد فيه ؛ وقيل: يقوّم بمكّة .

[ليذوق وبال أمره] أي عقوبة ما فعله ووخامة أمره وثقله ، يقال : مرعى وبيل إذا كان فيه و خامة ، وماء وبيل إذا لم يستمرّ ، وإنّما سمّي الجزاء وبالاً مع أنّها عبادة و نعمة و مصلحة ، لأنّه تعالى شدّد عليهم التّكليف و ثقل ذلك عليهم ، كما حرّم الشّحم على بني إسرائيل لمّا اعتدوا في السّبت فثقل ذلك عليهم ، وإن كان مصلحة ، لأنّ الله كلّفهم وخيّرهم بين ثلاثة أمور ؛ اثنان منها يوجب نقصان المال و هما الجزاء بالمثل والإطعام ، والثّالث يوجب إيلام البدن وهو الصوم .

[عفا الله عمّا سلف] من أمر الجاهليّة ، وقيل : المعنى : عفا الله عمّا سلف منهم قبل أن يسألوا رسول الله ، فإن قيل : إنّهم قبل التّحريم ما كانوا خاطئين حتّى يعفوا و ذلك لأنّهم كانوا قبل الإسلام متعبّدين بشرائع من قبلهم و كان الصّيد فيها محرّماً .

[ومن عاد] إلى قتل الصّيد بعد النّهي عنه وهو محرم [فينتقم الله منه] خبر مبتدأ

(١) المائدة : ٣٣ .

محذوف ، أي فهو ينتقم الله منه ، والمراد بالانتقام : التّعذيب في الآخرة ، واختلف في لزوم الجزاء بعد العود : قال ابن عبّاس والحسن : لاجزاء عليه ، و يقولون : إنّ ذنبه أعظم من أن يكفّره التصدّق بالجزاء ، وعلى هذا القول يكون المراد من قوله : «عفا الله عمّا سلف» في المرّة الأولى بسبب أداء الجزاء ، ومن عاد إليه مرّة ثانية وصاد فلا كفّارة لجرمه ، بل الله ينتقم منه .

وحجّة هذا القول أنّ الفاء في قوله : «فينتقم الله منه» فاء الجزاء والجزاء هو الكافي ، و كونه كافياً يمنع من وجوب شيء آخر فلا يجب الجزاء عليه ، قال الطبرسيّ : وهذا القول هو الظاهر من روايات أصحابنا ، وقيل : إنّه يلزمه الجزاء ، عن عطاء وسعيد بن جبير وإبراهيم ، وبه قال بعض أصحابنا ، [و الله عزيز ذو انتقام] غالب في حكمه ينتقم ممّن تعدّى أمره ويرتكب نهيه .

قوله تعالى : احل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً واتقوا الله الذى اليه تحشرون (٩٦) .

المراد بالصيد المصيد ، عني بالبحر جميع المياه ، والعرب تسمّي النهر بحراً أي أبيح لكم ، والخطاب للمحرمين وإن كان غير المحرم داخلاً فيه . صيد الماء : الطريّ منه [وطعامه] أي طعام البحر ، ثمّ اختلف في معناه ، فقيل : يريد به ماقذفه البحر ميتاً؛ وقيل : يريد بصيد البحر السّمك الطريّ وبطعامه المملوح ، عن سعيد بن المسيّب و سعيد بن جبير ومجاهد ، وهذا الّذي بمذهبنا ، وإنّما سمّي طعاماً لأنّه يدّخر ليطعم ويؤكل كالمعتاد من الأغذية .

قال الطبرسيّ : فيكون المراد بصيد البحر : الطريّ وبطعامه : المملوح ، لأنّ عندنا لايجوز أكل ما يقذف البحر ميتاً للمحرم وغير المحرم ؛ وقيل: المراد بطعامه ماينبت بمائه من الزروع والثّمار .

قوله : [متاعاً لكم و للسيّارة] في انتصاب «متاعاً» قال الزجّاج : انتصب لكونه مصدراً مؤكّداً ، ولمّا قال سبحانه : «أُحلّ لكم» كان دليلاً على أنّه منعم به و ذكر «متاعاً لكم» تصريحاً بأنّه أنعم عليكم ؛ وقال صاحب الكشّاف : انتصب لكونه مفعولاً له ، أي أُحلّ

لكم تمتيعاً لكم ومنفعة وللسيّارة ، أي للمقيم والمسافر ؛ فالطريّ للمقيم والمالح للمسافر ؛ وقيل : معناه لأهل الأمصار والقرى ؛ وقيل : للمحلّ والمحرم [وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً] اتّفق المسلمون على أنّ المحرم يحرم عليه الصّيد بنصّ الآية واختلفوا في الصيد الّذي يصيده المحلّ هل يحلّ للمحرم ؟ قال عليّ ﷺ وابن عبّاس وسعيد بن جبير وطاوس وجماعة : إنّه يحرم بكلّ حال للمحرم ، وعوّلوا فيه على قوله تعالى في هذه الآية : «وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً» وذلك لأنّ صيد البرّ يدخل فيه ما اصطاده المحرم والمحلّ وكلّ ذلك صيد البرّ ، هذا أحد الأقوال وعليه المعتمد ؛ وقيل : إنّ لحم الصيد لا يحرم على المحرم إذا صاده غيره ، وهذا القول عن عمر وعثمان والحسن ؛ وقال الشافعيّ : إنّ لحم الصيد مباح للمحرم بشرط أن لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له .

واعلم أنّ صيد البحر هو الّذي لا يعيش إلّا في الماء ، وليس كلّه حلالاً أكله ، وأمّا الّذي لا يعيش إلّا في البرّ والّذي يمكنه أن يعيش في البرّ تارة وفي البحر أخرى فذاك كلّه صيد البرّ فعلى هذا فمثل السلحفاة والسرطان والضفدع وطير الماء وأمثالها كلّ ذلك يحسب من صيد البرّ ويجب على قاتله الجزاء إذا كان محرماً .

[واتّقوا الله الّذي إليه تحشرون] والمقصود من الآية التهديد ليكون المرء مواظباً على الطاعة محترزاً عن المعصية .

قوله تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض وأن الله بكل شيء عليم (٩٧) .

اتّصال هذه الآية بما قبلها هو أنّ الله تعالى لمّا حرّم في الآية المتقدّمة الاصطياد على المحرم بيّن في هذه الآية أنّ الحرم كما أنّه سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات .

قرأ ابن عامر : «قيماً» بغير ألف ، والباقون بالألف : قياماً . وسمّيت الكعبة كعبة لتربيعها ،(١) والكعوبة النتوّ ومنه كعب الإنسان لنتوّه ، وكعبت المرأة : إذا نتأ ثديها

(١) وهو مروى في الفقيه مرسلا في باب علل الحج : ٢٠١ .

والعرب تسمّي كلّ بيت مربّع كعبة ، وإنّ المتفرّد من البنيان يسمّى كعبة لنتوّه من الأرض ، والبيت الحرام سمّي بذلك لأنّ الله تعالى حرّم أموراً فيها وعظّم حرمته، وفي الحديث : مكتوبٌ في أسفل المقام : إنّي أنا الله ذو بكّة حرّمتها يوم خلقت السماوات والأرض ويوم وضعت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك ضياء ، من جاءني زائراً لهذا البيت عارفاً بحقّه مذعناً لي بالربوبيّة حرّمت جسده على النّار .

المعنى : [جعل الله الكعبة] أي حكم وصيّر الكعبة وحجّها [البيت الحرام] عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما يجيء الصفة كذلك ، و الحرام بمعنى المحرّم .

قال الحقّي في تفسيره المسمّى بروح البيان : وقد جاء في بعض التفاسير في قوله: «ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»(١) أنّه لم تجبه بهذه المقالة من الأرض إلّا أرض الحرم ؛ فلذلك حرّمها فصارت حرمتها كحرمة المؤمن إنّما حرّم دمه وعرضه و ماله بسبب طاعته لربّه ، فأرض الحرم لمّا قالت : أتينا طائعين حرّم صيدها و شجرها ؛ و في الخبر أنّه لم يأكل الحيتان الكبار صغارها في أرض الحرم في الطوفان لحرمتها [قياماً للناس] وأصله قوام لأنّه من قام يقوم مصدر كالصيام فإذا صحّ قلب حرف العلّة في الفعل صحّ في مصدره ، وإذا اعتلّ في الفعل اعتلّ في مصدره وذكروا في كون الكعبة سبباً لقوام مصالح النّاس وجوهاً :

منها أنّ أهل مكّة كانوا محتاجين إلى حضور أهل الآفاق عندهم ليشتروا منهم مايحتاجون إليه : فالله تعالى جعل الكعبة معظّمة في القلوب حتّى صاروا أهل الدنيا راغبين في زيارتها ، مسافرين إليها من كل فجّ عميق لأجل التجارة وصار ذلك سبباً لإسباغ النعم على أهل مكّة .

الثاني أنّ العرب كانوا يتقاتلون ويغزون إلّا في الحرم ، فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم حتّى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يتعرّض له ، ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثمّ التجأ إلى الحرم لم يتعرّض له ، كما قال سبحانه:

---

(١) فصلت : ١١ .

«أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف الناس من حولهم»[١] .

الوجه الثالث أنّه تعالى جعل الكعبة قواماً للناس في دينهم بسبب ماجعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة ، وجعل تلك المناسك سبباً لحطّ الذنوب ورفع الدرجات وكثرة الكرامات ، والآية محمولة على جميع هذه الوجوه ؛ و من المعلوم أنّ قوام اُمور الناس إمّا بكثرة المنافع وهو الوجه الأوّل ، أو بدفع المضارّ وهو الوجه الثاني ، أو بحصول الدين والسعادة وهو الوجه الثالث ، فصارت الكعبة سبباً لقوام الناس والمراد من الناس بعض الناس وهم العرب ، وإنّما حسن هذا المجاز لأن أهل كلّ بلد إذا قالوا : الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فإنّهم لا يريدون إلّا أهل بلدتهم ، فلهذا السبب خوطبوا على وفق عادتهم .

وقيل : إنّ معنى قياماً للنّاس أنّهم لو تركوه عاماً واحداً لايحجّونه مانوظروا أن يهلكوا عن عطا ، ورواه عليّ بن إبراهيم عنهم عليهم السلام : مادامت الكعبة يحجّ الناس إليها لم يهلكوا فإذا هدمت وتركوا الحجّ هلكوا .[٢]

[والشهر الحرام] يعني أشهر الحرم وهي أربعة :واحد فرد وثلاثة سرد أي متتابعة فالفرد رجب والسرد ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرّم، وإنّما خرج مخرج الواحد لأنّه ذهب به مذهب الجنس وهو عطف على المفعول الأوّل لجعل أي وجعل الشهر الحرام الّذي يؤدّى فيه الحجّ قياماً لهم أيضاً ، مثل قولك : ظننت زيداً منطلقاً و عمرو ، فالشهر الحرام أيضاً سبب لقوام النّاس وذلك لأنّه إذا دخل الشهر الحرام زال الخوف منهم و قدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم ويحصلون فيه من الأقوات ما كان يكفيهم طول السنة ، فلولا حرمة الشهر لهلكوا وتفانوا من الشدّة والجوع بزيادة اكتساب الثواب العظيم اذا أقاموا مناسك الحجّ .

قوله : [والهدي والقلائد] أي وجعل الله الهدي أيضاً قياماً لهم وهو ما يهدى إلى

---

(٢) العنكبوت : ٦٧ .

(١) رواه مرسلا على بن ابراهيم فى : ١٤٧ من تفسيره المطبوع . وفى الفقيه «ص : ٥٨ ٢» عن حنان بن سدير قال ذكرت لابى جعفر عليه السلام البيت فقال : لوعطلوه سنة واحدة لم يناظروا . وفى خبر آخر ينزل (لنزل خل) عليهم العذاب .

البيت ويذبح هناك ويفرّق لحمه بين الفقراء ، فهو قوام لمعيشة الفقراء . و القلائد أي و جعل القلائد أيضاً قياماً للنّاس ، وهي جمع قلادة وهي ما يقلّد به الهدي من نعل أو لحاء شجر أو علامة ليعلم أنّه هدي فلا يتعرّض له بركوب أو حمل ، والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن والبقرة والأضاحيّ ، ووجه كون القلائد سبباً لقوام النّاس أنّ من قلّد هدياً لم يتعرّض له أحد ، وربما كانوا يقلّدون رواحلهم إذا رجعوا من مكّة من لحاء شجر الحرم ، فيأمنون بذلك ، فكان أهل الجاهليّة يأكل الواحد منهم القضيب والشجر من الجوع وهو يرى الهدي والقلائد فلا يتعرّض له تعظيماً ، فكانت هذه الأمور دالّة على عظمة البيت وشرفه .

[ذلك لتعلموا] إشارة إلى الجعل منصوب بفعل مقدّر أي شرع الله ذلك و بيّن لتعلموا [أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض] فإنّ تشريع هذه الشرائع لدفع المضارّ الدينيّة والدنيويّة قبل وقوعها من أوضح الدّلائل على حكمة الشارع ،وعلى عدم خروج شيء من علمه المحيط ، فإنّه تعالى لمّا علم في الأزل أنّ مقتضى عادة العرب وحرصهم الشديد على القتل والغارة وأنّه لودامت بهم هذه الحالة لعجزوا عن تحصيل ما يحتاجون إليه ، ولأدّى ذلك إلى فنائهم وانقطاعهم بالكلّيّة دبّر في ذلك تدبيراً لطيفاً وهو أنّه ألقى في قلوبهم اعتقاداً قويّاً في تعظيم البيت ، فصار ذلك سبباً لحصول الأمن في البلد الحرام وفي الأشهر الحرم ، فاستقامت بذلك مصالح معاشهم و قلّت مفسدتهم ، وذلك التدبير بسبب علمه الأزليّ بجميع المعلومات من الجزئيّات والكلّيات ولهذا قال سبحانه : «ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض» ثمّ قال: [وأنّ الله بكل شيء عليم] تعميمٌ بعد تخصيص للتّأكيد و ما أحسن هذا الترتيب في هذا البيان ! .

اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم (٩٨) ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (٩٩) .

لمّا ذكر سبحانه رحمته لعباده عقّبه بذكر الوعيد والوعد فقال : [اعلموا أنّ الله شديد العقاب] لمن انتهك محارمه وعصاه [وأنّ الله غفور رحيم] لمن تاب وأناب وانقطع

عن الانتهاك وأطاع وجمع بين الوعيد والوعد لأنّ الإيمان لايتمّ إلّا بالخوف والرجاء كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا .[1] ثمّ ذكر ما يدلّ على الرحمة وهو كونه غفوراً رحيماً ، وفي الآية إشعار بأنّ جانب الرحمة أغلب لأنّه أتي بوصفين من أوصاف الرحمة ، ولمّا أنذر وبشّر عقّبه بقوله : [ما على الرسول إلّا البلاغ] وأداء الرسالة وبيان الشريعة ، فأمّا القبول والردّ فهما من شأن المكلّف [والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] ولا يخفى عليه شيء من أحوالكم الّتي تظهرونها وتخفونها ،وفي قوله : «اعلموا أنّ الله شديد العقاب» دلالة على وجوب معرفة العقاب والثواب لكونهما لطفاً في باب التكليف .

قوله تعالى : قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون (١٠٠) .

النزول : لمّا بيّن سبحانه الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية بقوله :«والله يعلم ماتبدون وماتكتمون» بيّن في هذه الآية أنّ الحلال والحرام لايستويان ، قيل : نزلت الآية في حجّاج اليمامة لمّا همّ المسلمون أن يوقعوا بهم ، وذلك بسبب أنّه كان فيهم رجل يقال له الحطيم وقد أتى المدينة في السّنة السابقة ، واستاق سرح المدينة فخرج في العام القابل ـ وهو عام عمرة القضاء ـ حاجّاً ، فبلغ ذلك أصحاب السرح،فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : هذا الحطيم خرج حاجّاً مع حجّاج اليمامة فخلّ بيننا و بينه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّه قلّد الهدي وما أذن لهم أن يوقعوا به بسبب استحقاقهم الأمن بتقليد الهدايا فنزلت الآية تصديقاً له صلى الله عليه وآله وسلم في نهيه إيّاهم عن تعرّض الحجّاج وإن كانوا مشركين، وقد مضت هذه القصّة في أوّل السورة أيضاً عند تفسير قوله : «يا أيّها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله » ، وبقي حكم هذه الآية إلى أن نزلت سورة البراءة فنسخ بنزولها لأنّه قد كان فيها : «إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »[2] وفيها أيضاً : «فاقتلوا المشركين»[3] فنسخ حكم الهدي والقلائد والشهر

---

(١) وفيهذا المعنى روايات رواها الكليني فيالاصول منالكافي «ج ٢:٦٧ ـ ٧١ ».

(٢) التوبة : ٢٨.

(٣) « : ٥ .

الحرام والإحرام وأمنهم بدون الإسلام ، وتبدّل الحكم بعد نزول سورة البراءة .

وبالجملة ففي الآية ترغيب في الجيّد والحلال ، وتحذير عن الرديء والحرام . ويتناول الخبيث و الطيّب اُموراً كثيرة فمنها الحلال والحرام ؛ فمثقال حبّة من الحلال أرجح عند الله من ملء الدنيا من الحرام، وكيف وهو خبيث مردود ، والحلال طيّب مقبول ؟ وطالب الخبيث خبيث وطالب الطيّب طيّب ؟ كما قال سبحانه : « الخبيثات للخبيثين »[1] الآية ، وأيضاً الخبيث من الأموال مالم يخرج منها حقّ الله ، و الطيّب ما اُخرجت منه الحقوق ، و الخبيث ما اُنفق في وجوه الفساد ، و الطيّب ما اُنفق في وجوه الطاعات [ولو أعجبك كثرة الخبيث] يعني أنّ الّذي يكون خبيثاً في عالم أحكام الله وفي نواهيه قد يكون طيّباً وعظيم اللّذّة عندك أيّها الإنسان ، إلّا أنّه مع لذّته و كثرة مقداره سبب لحرمان السعادات الباقية ، ومورث للعقاب الدائم لكنّ الباقيات الصالحات الطيّبات خيرٌ عند ربّك [فاتّقوا الله] واجتنبوا الخبائث وما حرّم الله عليكم [يا اُولي الألباب] و ذوي العقول [لعلّكم تفلحون] لكي تفوزوا و تفلحوا بالنّعيم المقيم و الثواب العظيم .

قال أهل المعرفة : حقيقة التّقوى هو صدق قولك : لاإله إلّا الله وليس في قلبك شيء سواه ، ومن وصايا بعض الكاملين قبل وفاته : اُوصيكم بتقوى الله في السرّ والعلانية وبقلّة الطعام وبقلّة المنام وبقلّة الكلام وهجر المعاصي والآثام ، وترك الشّهوات على الدوام واحتمال الجفاء من جميع الأنام ، وبترك مجالسة السفهاء و دوام مصاحبة الصالحين الكرام ، فإنّ خير النّاس من ينفع النّاس وخير الكلام ماقلّ ودلّ ، واعلم أنّ الله يحبّ أن تعمل برخصه كما تعمل بفرائضه .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لاتسئلوا عن أشياءان تبدلكم تسؤكم وان تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفى الله عنها والله غفور حليم (١٠١) .

---

(١) النور : ٢٦.

روي أنّه لمّا نزلت آية الحجّ وهي : «ولله على الناس حجّ البيت» [١] قال سراقة بن مالك : [٢] أكلّ عام ؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتّى أعاد ثلاثاً فقال : لا ولو قلت : نعم لوجب ولو وجب لما استطعتم فاتركوني ماتركتكم ؛ فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم [٣] على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه فنزلت و عن ابن عبّاس أنّه ﷺ كان يخطب ذات يوم غضبان كثرة ما يسألون عنه ممّا لا يعنيهم ، فقال : لا اُسأل عن شيء إلّا أجبت ، فقال رجل : أين أبي ؟ فقال : في النّار ، وقال آخر : من أبي فقال : حذافة ـ وكان يدعا لغيره ـ فنزلت .

و ذكر الرّازيّ أنّ الآية لعلّها متّصلة في النظم بقوله : «والله يعلم ماتبدون و ما تكتمون» أي فاتركوا الاُمور على ظواهرها ، و لا تسألوا عن أحوال خفيّة إن تبد لكم تسؤكم ، وإن شرطيّة والمعنى : لاتسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم وإن تظهر لكم تغمّكم و«أشياء» جمع شيء غير منصرفة ؛قال الخليل وسيبويه : شيء جمعه في الأصل شيآء على وزن فعلاء فاستثقلوا اجتماع الهمزتين في آخره فنقلوا الهمزة الاُولى الّتي هي لام الفعل إلى أوّل الكلمة فجعلت لفعآء تشبيهاً بالمعدول كما في : عامر وعمر ، وزافر وزفر ؛ قال الرازيّ : إنّه لمّا كانت في الأصل على وزن فعلاء مثل حمراء لا جرم لم تنصرف ـ كما لم تنصرف حمراء ـ وأيضاً إنّا لمّا قطعنا الحرف الأخير منه وجعلناه أوّله والكلمة من حيث إنّها قطع منها الحرف الأخير صارت كنصف الكلمة ونصف الكلمة لايقبل الإعراب ، ومن حيث إنّ ذلك الحرف الذيّ انقطع منها ماحذف بالكلّيّة بل اُلصق بأوّلها كانت الكلمة كأنّها باقية بتمامها فلاجرم منعت بعض وجوه الإعراب دون البعض تنبيهاً على هذه الحالة ، لكنّ الكسائيّ قال : إنّ «أشياء» على وزن أفعال إلّا أنّهم لم يصرفوه لكونه شبيهاً في الظاهر بحمراء و صفراء .

---

(١) آل عمران : ٩٧ .

(٢) قال فى مجمع البيان : فقام عكاشة بن محصن وقيل : سراقه بن مالك اه « ج٣ : ٢٥٠ »

(٣) اختلف الى المكان : تردد .

قوله تعالى : [عفا الله عنها] أي عفا الله عن تبعة سؤالكم الّذي سلف منكم ممّا كرهه النبيّ ، استئناف مسوق لبيان أنّ نهيهم عنها لم يكن لمجرّد صيانتهم عن المساءة بل لأنّها في نفسه معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفي عنها ، و ضمير «عنها» راجع إلى المسألة المدلول عليها بقوله : «لاتسألوا» [والله غفور حليم] فبالغ في مغفرة الذنوب و الإغضاء عن المعاصي حيث لم يؤاخذكم بعقوبة مافرط منكم ، فجملة قوله : «والله غفور رحيم» افتراض تذييليّ مقرّر لعفوه تعالى ؛ وقال بعض المفسّرين : إنّ الآية نزلت في ما سألت الامم أنبياءها من الآيات ، ويؤيّده الآية الّتي بعدها .

قوله : قدسألها قوم من قبلكم فأصبحوا بهاكافرين(١٠٢)ما جعل الله من بحيرة ولاسائبةولاوصيلةولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون (١٠٣) .

أى سألواهذه المسألة لكن لاعينها ، بل مثلها في كونهامحظورة ومستتبعةللوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير [من قبلكم] متعلق بـ(سألها) [ثمّ أصبحوا بها] أي بسببها[كافرين]فإنّ بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء ؛ فإذا اُمروا تركوها فهلكوا ، كما سأل قوم ثمود صالحاً الناقة ، وسأل قوم عيسى مائدة ثمّ كفروا بها ، عن ابن عبّاس ، أو إنّ قريشاً سألوا النبيّ عن مثل هذه الأشياء ، مثل سؤال ذلك الرجل عن حال أبيه فلمّا أخبرهم بذلك قالوا : ليس الأمر كذلك فكفروابالردّ على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فإن قيل : ما الّذي يجوز أن يسأل عنه ، و ما الّذي لا يجوز أن يسأل عنه ؟ فالجواب أنّ الّذي يجوز السؤال عنه هو ما يجوز العمل به ، و ما لا يجوز في الاُمورالدينيّة والدّنيويّة فلايجوز أن يسأل الإنسان من النبيّ أنّه من أبي ؟ لأنّ المصلحة اقتضت أن يحكم على كلّ من ولد على فراش إنسان بأنّه ولده وإن لم يكن مخلوقاً من مائه. أو أنّ جبرئيل هل خلقة رأسه مثل خلقة رأسنا ؟ وأمثال هذه السؤالات وقيل : في معنى الآية المتقدّمة تقديم وتاخير ، و التقدير : لاتسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبد لكم تسؤكم ، قال الرازيّ . وهذا القول ضعيف ، لأنّ الكلام إذ استقام

من غير تغيّر النظم لم يجز المصير إلى التقديم والتأخير.

قوله تعالى: [ما جعل الله] و«جعل» يستعمل في معان: أحدها: الحكم، ومنه قوله: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً»(١) وثانيها: الخلق، ومنه قوله: «وجعل الظلمات والنور»(٢) وبمعنى التقصير مثل قوله: «إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً»(٣) فمعنى قوله: «ماجعل الله» أي ماحكم ولا شرع ولا أمر به.

ثمّ ذكر أربعة أشياء - و[من] مزيدة للتأكيد في النفي-: [بحيرة] وهي فعيلة من من البحر وهو الشقّ يقال: بحر ناقته إذا شقّ اُذنها وهي بمعنى المفعول وذلك أنّه إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شقّوا اُذنها وامتنعوا من ركوبها و ذبحها و سيّبوها لآلهتهم ولا يجزّ لها وبر، ولا يحمل على ظهرها ولاتطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى ولا ينتفع بها وإذا لقيها المعيى لم يركبها تحريجاً.

ولا سائبة هي فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض يقال: سابت الحيّة و ساب الماء إذا جرى فالسائبة هي الّتي تركت حتّى تسيّب إلى حيث شاءت وهي المسيّبة «كعيشة راضية» أي مرضيّة. قال أبو عبيدة: إنّ الرجل إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذراً أو وصل نعمة وشكر الله سيّب بعيراً فكان بمنزلة البحيرة في جميع ماحكموا لها، عن الزجّاج وهو قول علقمة؛ وقيل: هي الّتي تسيّب للأصنام أي تعتق لها، و كان الرجل يسيّب من ماله يشاء فيجيء به الى السدنة وهم خدمة آلهتهم فيطعمون من لبنها أبناء السبيل ونحو ذلك، عن ابن مسعود وابن عبّاس؛ وقيل: إنّ السائبة هي النافة إذا تابعت بين عشر إناث ليس فيهنّ ذكر سيّب فلم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلّا الضيف، فما نتجت بعد ذلك من اُنثى شقّ اُذنها ثمّ يخلّى سبيلها مع اُمّها وهي البحيرة؛ عن محمّد بن إسحاق.

[ولا وصيلة] وهي في الغنم؛ كانت الشاة إذا ولدت اُنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً واُنثى قالوا: وصلت أخاها واستحيوا الذكر من أجل الاُنثى

(١) الزخرف: ١٩.

(٢) الانعام: ١.

(٣) الزخرف: ٢.

ولم يذبحوه لآلهتهم ؛ وقيل: كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم ولحمه للرجال دون النساء، وإن كان عناقاً استحيوها وكان في عرض الغنم ، وإن ولدت في البطن السابع جدياً وعناقاً قالوا : إنّ الأخت وصلت أخاها فحرّمتا جميعاً ،وكانت المنفعة واللّبن للرّجال دون النساء ؛ وقال محمّد بن إسحاق : الشاة إذا انتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيها ذكر جعلت وصيلة فقالوا : قد وصلت فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث .

[ولا حام] وهو الذكر من الإبل ، كانت العرب إذا انتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، عن ابن عبّاس وابن مسعود ؛ وقيل : إنّه الفحل إذا لقح ولد ولده قيل : حمى ظهره فلا يركب عن الفرّاء ، والله تعالى لم يحرّم من هذه الأشياء شيئاً وكلّها من آثار الجاهليّة والشرك.

فإن قيل : إذا جاز إعتاق العبيد والإماء فلمَ لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإتعاب والإيلام ؟ : فالجواب أنّ الإنسان مخلوق لخدمة الله وعبوديّته فإذا تمرّد عوقب بضرب الرقّ عليه فإذا أزيل الرقّ عنه تفرّغ لعبادة الله فكان ذلك أمر مستحسن، وأمّا هذه الحيوانات فإنّها مخلوقة لمنافع المكلّفين فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة فظهر الفرق ، وأيضاً إنّ الإنسان إذا كان عبداً فأعتق قدر على تحصيله مصالح نفسه ، وأمّا البهيمة إذا تركت وأهملت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت في أنواع من المحنة أشدّ وأشقّ ممّا كانت فيهما حالى ماكانت مملوكة فظهر الفرق .

قوله تعالى : [ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب] هذا إخبار من الله بأنّ الكفّار يكذبون على الله بادّعائهم أنّ هذه الاُمور من أمره تعالى [وأكثرهم لا يعقلون] خصّ الأكثر لأنّهم أتباع ولا يعقلون أنّ ذلك كذب كما يعقله رؤساؤهم ، والجهلة يتّبعون الرؤساء ولا يعقلون ما حرّم الله عليهم وما حلّل لهم ، قال الطبرسيّ : وفي هذه الآية دلالة على بطلان قول المجبّرة ؛ لأنّه سبحانه نفى أن يكون جعل البحيرة وغيرها ، وعندهم أنّه هو الجاعل لذلك والخالق له ، لأنّه تعالى بيّن أنّ هؤلاء قد

كفروا بهذا القول وافتروا على الله ونسبوا إليه تعالى ما ليس بفعل له انتهى .

قال المفسّرون : إنّ عمرو بن لُحيّ بن قمعة الخزاعيّ كان قد ملك مكّة وكان أوّل من غيّر دين إسماعيل فاتّخذ الأصنام ونصب الأوثان وشرع البحيرة و السائبة والوصيلة والحام ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : فلقد رأيته في النّار يؤذي أهل النّار بريح قصبه ـ والقصب : المعى وجمعه الأقصاب ـ ويروى : يجرّ قصبته في النار ، قال ابن عبّاس : قوله : «يقولون على الله الكذب» يريد عمرو بن لحيّ وأصحابه يقولون على الله هذه الأكاذيب في في تحريمهم هذه الأنعام وما استحدثه أهل الضّلالة .

قوله تعالى : واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون (١٠٤) .

قال الرازيّ : الواو في قوله : «أولو كان» واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار وقيل : للعطف ، والتقدير : أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا هم يهتدون؟ يعني : الأمر كذلك وهو ردّ على أصحاب التقليد في الأصول ؛ فإنّ الاقتداء إنّما يجوز بالعالم المهتدي في الفروع إذا بنى قوله على الحجّة والدليل ، فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالماً مهتدياً فوجب أن لا يجوز الاقتداء به .

يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٥).

لمّا بيّن التكاليف والأحكام وقيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرّسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا فكأنّه قال سبحانه : إنّ هؤلاء الجهّال بقوا مصرّين على جهالتهم وضلالتهم فلا تبالوا أيّها المؤمنون بجهالتهم بل كونوا منقادين لتكاليف الله ، فلا يضرّكم ضلالتهم ، فلهذا قال :

[يا أيّها الّذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم] أي ألزموا واحفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي ؛ قال النحويّون : كلمة «عليك وعندك ودونك» من أسماء الأفعال ويقيمونها مقام الفعل وينصبون بها الاسم الواقع بعدها على المفعوليّة

ومعناها الإغراء ، وقد يقيم العرب غير هذه الأحرف مقام الفعل لكن لا تعدّيه إلى المفعول نحو قولهم : إليك عنّي أي تأخّر عنّي و«وراءك» بمعناه ، ولا يجوز ذلك إلّا في الخطاب. ولا «يضرّكم» الأصل فيه : لا يضرركم وقرء بصيغة النّهي و في ذلك أربع لغات : ضارّه يضوّره ، ضارّه يضيره ، ضرّه يضُرّه ، ضرّه يضِرّه ، وحاصل المعنى : احفظوا أنفسكم وألزموها عن المعاصي ولا يضرّكم ضلال من ضلّ من آبائكم وغيرهم إذا كنتم مهتدين. فلو قيل : إنّ ظاهر الآية يوهم أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر غير واجب فالجواب أنّ الآية لا تدلّ على ذلك بل توجب أنّ المطيع لربّه لا يكون مؤاخذاً بذنوب العاصي فأمّا وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فثابت بالدلائل .

قال عبدالله بن المبارك: هذه الآية أوكد آية في وجوبهما فإنّه قال : عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغّب بعضكم بعضاً في الخيرات وينفّره عن القبائح لأنّ قوله : «عليكم أنفسكم» معناه احفظوا أنفسكم فإذا لم يكن هذا الحفظ إلّا بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان ذلك واجباً والمؤمنون كنفس واحدة و قيل : وجه آخر وهو أنّ الآية مخصوصة بالكفّار الّذين علم أنّه لا ينفعهم التذكّر ولا يتركون الكفر بسبب الأمر والنّهي فعند ذلك لا يجب على الإنسان أن يأمرهم و ينهاهم أو أنّ الآية مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر والنّهي على نفسه أو على عرضه أو على ماله وأيضاً في الآية وجه آخر وهو أنّ قوله : « عليكم أنفسكم» يعني من أداء الواجبات الّتي من جملتها الأمر بالمعروف عند القدرة فإن لم يقبلوا ذلك منكم فلا يضرّكم ضلال غيركم ولا ينبغي أن تستوحشوا من ذلك ؛ فإنّكم خرجتم عن عهدة التكليف ، وأنّ الله قال لرسوله : «فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلّا نفسك» وذلك لا يدلّ على ثبوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكذا ههنا . وروي عن ابن مسعود و ابن عمر وجه آخر في تأويل الآية ؛ قالا : قوله : «عليكم أنفسكم» يكون في آخر الزمان .

قال الرازيّ : وهذا الوجه ضعيف ؛ لأنّ قوله «يا أيّها الذين آمنوا» خطاب عامّ وهو أيضاً خطاب مع الحاضرين فكيف يخرج ويخصّ الغائب؟ وروي أنّ أبا ثعلبة سأل رسول

الله ﷺ عن هذه الآية فقال : ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت دنياً مؤثرة و شحّاً مطاعاً و هوى متّبعاً و إعجاب كلّ ذي رأي رأيه فعليك بخويصة نفسك ؛(١) وقد روي أنّه ﷺ قال يوماً على المنبر: يا أيّها النّاس إنّكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ماهي إنّ النّاس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه عمّهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر أو ليستعملنّ الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثمّ ليدعُنّ خياركم فلا يستجاب لهم . وبالجملة إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض لا يسقط إلا عند العجز عن ذلك .

[إلى الله مرجعكم جميعاً] أي إليه مصيركم و مصير من خالفكم [ينبّئكم بما كنتم تعملون] فيجازيكم بأعمالكم هو وعد ووعيد للفريقين المهتدين والضالّين ، و اعلم أنّ الآمر والنّاهي لا بدّ وأن يعرف المعروف والمنكر حتّى لا يأمر بالمنكر وهو يحسبه معروفاً ، ولا ينهى عن المعروف وهو يحسبه منكراً ويشتغل بتزكية نفسه قبل الخلق، فالهادي الجاهل هدايته إضلال كبعض الدّجاجلة الّذين في زماننا من المتصوّفة حيث يغرّون النّاس بكلمات متشابهة وضلالات مبتدعة ، والعوامّ الجهلة يقتدون بهم يرفعون لجام الشريعة وقيد بعض التّكاليف عن أنفسهم وهم يدّعون أنّهم أهل الحقّ ؛ فتارة يبيحون المحرّمات و اُخرى يستحرمون المحلّلات بالرياضات المبتدعة فيظنّون أنّهم بلغوا مقام الوحدة و أنّهم مجنّبون عن النقصان ولا يضرّهم مخالفات الشريعة ؛ إذهم بادّعائهم و صلوا إلى مقام الحقيقة و هم غافلون عن الله و جاهلون بالأمر و لم يعلموا أنّ مقام الحقيقة لا يحصل الّا بامتثال أو امر الشريعة بأسرها وليس مقام إلّا مقام العبوديّة و هو الامتثال بالسنن والباقي ترّهات و اصطلاحات موضوعة كثّرها الجاهلون ولا رخصة لأحد فيها والعاملون بهذه المجعولات أهل الخديعة ، و لقد شاع في الآفاق هذه الفتنة بحيث ضاع تمام الاُصول والفروع منها وماله من دافع، فإذا كان هذا حال من يدّعي الإيمان فكيف بحال الزنادقة والطبيعيّين والملاحدة؟ فيا لله وللإسلام ! وإنّ الخرق قد اتّسع على الراقع خصوصاً منذ توسّعت دائرة نطاق

---

(١) رواه في تفسير البرهان «ج١ : ٥٠٧» مرسلا عن مصباح الشريعة .

الحريّة فعلى الإسلام فليبك الباكون وليندب النادبون .

أرى الف بان لا يقوم لهادم ✫ فكيف ببان خلفه ألف هادم

وبالجملة إنّ العالم والهادي والآمر والنّاهي لابدّ وأن يكون يقوم بتكليفه في إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل من طريق الشريعة حذو النعل بالنعل باحتياط وافر وجدّ متكاثر ولا يجعل هذا الشأن العظيم لعب الصبيان وضحك الشيطان .

وفي الصمت زين للخليّ وإنّما ✫ صحيفة لبّ المرء أن يتكلّما

يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الارض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً قليلا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذاً لمن الاثمين (١٠٦) .

نزلت الآية في قصّة تميم الداريّ وهي أنّ تميماً وأخاه عديّاً كانا نصرانيّين خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً خرجوا للتجارة فلمّا قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه وألقاه فيما بين الأقمشة ولم يخبر صاحبيه بذلك ، ثمّ أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، فمات بديل فأخذا من متاعه إناءً من فضة منقوشاً بالذهب ثلاثمائة مثقال، و دفعا باقي المتاع إلى أهله لمّا قدما ، ففتّشوا فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الإناء ، فقالوا لتيمم و عديّ : أين الإناء ؟ فقالا : لا ندري، والّذي دفع إلينا دفعناه إليكم ، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله فأنزل الله هذه الآية عن الواقديّ عن اُسامة بن زيد عن أبيه وعن جماعة و وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

المعنى : لمّا أمر سبحانه في الآية السابقة في الإيتان بما أنزل الله على رسوله عقّبه بذكر هذا الحكم المنزّل فقال : [يا أيّها الّذين آمنوا] قيل : في معنى الشهادة أقوال :

أحدها : أنّها الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكّام أي شهادة الخصومات الجارية بينكم ، و« بين » ظرف أضيف إليه «شهادة» على طريق الاتّساع في الظروف

بأن يجعل الظرف مفعولاً للفعل الواقع فيه فيضاف ذلك الفعل إليه على طريق إضافته إلى المفعول نحو «يا سارق الليلة» أي ياسارق في الليلة . و«شهادة» مرفوع على الابتداء وخبرها «اثنان» والمعنى : شهادة هذه الحالة شهادة اثنين فحذف «شهادة» وأقيم «اثنان» مقامها ، ويجوز أن يكون التقدير : وفيما فرض عليكم في شهادتكم أن يشهد اثنان اذا حضر أحدكم الموت أي شارفه وظهرت علائمه والظرف متعلّق بالشهادة ولايجوز أن يكون يتعلّق بالوصيّة لأنّ الوصيّة مصدر فلا يتعلّق به ما تقدّم عليه .

والثاني من الأقوال أنّ الشهادة بمعنى الحضور فيكون تقدير الآية وليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت وأردتم الوصيّة [اثنان ذوا عدل منكم] صفة للاثنان أي صاحبا أمانة من أهل العدالة وصيّان ، جعلهما اثنين تاكيداً للأمر في الوصيّة ، منكم أي من أهل دينكم عن سعيد بن جبير و أبي زيد وقيل : المراد : من أقاربكم لأنّهم أعلم بحال الميّت وأنصح له .

والقول الثالث أنّ المراد شهادة إيمان بالله أنّ أرباب الورثة بالوصيّة من قول القائل في اللّعان : أشهد بالله أنّي لمن الصادقين . قال الطبرسيّ : والقول الاوّل أقوى و أليق بالآية .

وقال صاحب كتاب نظم القرآن : شهادة مصدر بمعنى الشهود كما يقال : رجل عدل ورجلان عدل وقدّر حذف المضاف فيكون المعنى : عدد شهود بينكم اثنان كقوله : «الحجّ أشهر معلومات» أي وقت الحجّ أشهر ؛ وقال ابن جنّي : ويجوز أن يكون التقدير : تقيموا شهادة بينكم اثنان ، فيكون على هذين القولين حذف المضاف في المبتدأ وعلى القولين الأوّلين الحذف في الخبر .

[أو آخران من غيركم] اي من غير أهل ملّتكم ، عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير ومجاهد وشريح وابن سيرين وإبراهيم وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام فيكون «أو» للتفصيل لا للتخيير ، لأنّ المعنى : أو آخران من غيركم إن لم تجدوا شاهدين منكم وقيل : المعنى : ذوا عدل من عشيرتكم أو آخران من غير عشيرتكم وقالوا : لايجوز شهادة كافر في سفر ولاحضر واختاره الزجّاج وذهب جماعة إلى أنّ

الآية كانت في شهادة أهل الذمّة فنسخت ؛ وقد بيّن هذه الأقاويل أبو عبيدة ثمّ قال جلّ العلماء يتأوّلونها في أهل الذمّة ويرونها محكمة . قال الطبرسيّ ويقوّي هذه القول تتابع الأخبار في سورة المائدة بقلّة المنسوخ وأنّها من محكم القرآن وآخر ما نزل .

قوله تعالى : [ان انتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت] أي إن أنتم سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت ولمّا علم الله أنّ من الناس من يصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين أو ينزل القرية الّتي لا يسكنها غيرهم ويحضرهم الموت ولايجدون شهوداً من المسلمين فقال : أو آخر ان من غير أهل دينكم إن أنتم سافرتم فاصابتكم مصيبة الموت فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر إن أمكن إشهادهما ، والذمّيّان في السفر خاصّة إذا لم يوجد غيرهما ثمّ قال : [تحبسونها من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم] أي تحبسونهما من بعد صلاة العصر لأنّ الناس كانوا يحلفون بالحجاز بعد صلاة العصر لاجتماع الناس وتكاثرهم في ذلك الوقت وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم وقيل : هي صلاة الظهر أو العصر عن الحسن . وقيل : بعد صلاة أهل دينهما يعني الذمّيّين عن ابن عبّاس والسدّيّ ومعنى « تحبسونهما » تقفونهما كما تقول: مرّ بي فلان على فرس محتبس على دابّته أي وقفه و قيل : معناه تصيرونهما على اليمين وهو أن يحمّل علي اليمين إن شككتم أن يكونا قد غيّرا أو بدّلا أو خانا و الخطاب في تحبسونهما للورثة او الخطاب للقضاة وهو بمعنى الأمر أي احبسوهما. والفاء في « فيقسمان » للجزاء أي فيقدمان لأجل ذلك الحبس على القسم [لانشترى به ثمناً] جواب القسم أي لانأخذ به ثمناً والضمير في «به» لله أو لانشتري بتحريف الشهادة ثمناً أي ذا ثمن لأنّ الثمن لايشترى، وإنّما يشترى المبيع دون ثمنه وحاصل المعنى: لانحلف بالله كاذبين لأجل المال أو لاشتراء البيع ، أي لانبيعه بعرض من الدنيا ؛ لأنّ من باع شيئاً فقد اشترى ثمنه .

[ولوكان ذا قربى] أي المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام و هو الميّت قريباً منّا في الرحم تأكيداً لتبرّئهم من الحلف كاذباً ومبالغة في التنزّه عنه وخصّ ذا

القربى بالذكر لأنّ الميل إليه أتمّ والمداهنة بسببهم أعظم وهو كقوله: «كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين»[1].

[ولا نكتم شهادة الله] عطف على قوله: «لا نشتري به ثمناً» يعني إنّهما يقسمان حال ما يقولان «لا نشتري به ثمناً ولا نكتم شهادة الله» أي الشهادة التي أمر الله بحفظها وإظهارها [إنّا إذاً لمن الآثمين] أي إذا كتمنا ها كنّا من الآثمين أي العاصين.

قوله تعالى: فان عثر على أنهما استحقا اثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الاوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا اذاً لمن الظالمين (١٠٧) ذلك أدنى أن ياتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين (١٠٨).

القراءة المشهورة: استحقّ بضمّ التاء وكسر الحاء وقرأ حفص وحده بفتح التاء والحاء وكذلك القراءة المشهورة: الأوليان بصيغة التثنية؛ تثنية الأولى. وقرأ حمزة و عاصم: الأولين بالجمع نعتاً لجميع الورثة المذكورين في قوله: «من الذين استحقّ عليهم» وفي اعراب كلمة الأوليان قيل فيه وجوه:

الاوّل أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً والتقدير: هما الأوليان وذلك لأنّه لمّا قال: «فآخران يقومان مقامهما» وكانّه قيل: ومن هما؟ فقيل: الأوليان.

والثاني أن يكون بدلاً من الضمير الذي في يقومان ويكون التقدير: فيقوم الأوليان.

والثالث: أجاز الاخفش أن يكون قوله «الأوليان» صفة لقوله: فآخران وذلك لأنّ النكرة إذا تقدّم ذكرها ثم أُعيد عليها الذكر صارت معرفة كقوله: «كمشكاة فيها مصباح» فمصباح نكرة ثمّ قال: «المصباح في زجاجة» ثمّ قال: «الزجاجة».

الرابع: يجوز أن يكون قوله «أو الاوليان» بدلاً من قوله «آخران» وإبدال المعرفة من النكرة كثير ومعنى الاوليان الاوليان إلى الميّت أو الاوليان باليمين و

---

(١) المائدة: ١١.

الاختلاف بسبب اختلاف القراءة والاعراب قال الزجّاج : هذا الموضع من أصعب ما في القرآن في الإعراب واختصرت في البيان ومن أراد التفصيل فليراجع المجمع فإنّ الطبرسيّ شرحه على أحسن بيان .

النزول : قالوا : لمّا نزلت الآية الأولى وهي «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم» صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العصر ودعا بتميم و عديّ فاستحلفهما عند المنبر بالله أنّه ما قبضنا منه غير هذا ولا كتمناه فخلّى سبيلهما به ثمّ اطّلعوا على إناء من فضة منقوش معهما فقالوا : هذا من متاعه فقالا : اشتريناه منه و نسينا أن نخبركم به فرفعوا أمرهما إلى رسول الله فنزل قوله تعالى : [فإن عثر على أنّهما] الآية أي اطّلع بعد التحليف على أنّهما فعلا ما يوجب إثماً من تحريف وظهر بأيديهما شيء من التركة وادّعيا استحقاقهما له كذباً [فآخران] أي رجلان آخران من قرابة الميّت [يقومان مقامهما] أي مقام الرجلين اللّذين حلفا كذباً فيحلفان بالله بأن اطّلعنا على خيانة الذمّيّين وكذبهما وتبديلهما وما اعتدنيا في ذلك وما كذبنا .

روي أنّه لمّا حلّف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذميّين بموجب حكم الآية السابقة وخلّى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سبيلهما وانقضت مدّة أظهرا الاناء فبلغ ذلك بني سهم فطالبوهما فقالا : قد اشتريناه منه وكرهنا أن نخبركم ونزلت الآية الثانية قام عمرو بن العاص والمطّلب بن أبي رفاعة السهميّان فحلفا بالله بموجب ما في الآية فدفع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الاناء إليهما وإلى أولياء الميّت وكان تميم الداريّ يقول بعد ما أسلم : صدق الله ورسوله أنا أخذت الاناء فأتوب إلى الله قال ابن عبّاس . إنّه بقيت تلك الواقعة مخفيّة إلى أن أسلم تميم الداريّ فلمّا أسلم أخبر بذلك وقال : حلفت كاذباً وأنا وصاحبي خنّا في الاناء .

قوله تعالى : [من الّذين استحقّ عليهما الأوليان] المراد به موالي الميّت قال الرازيّ : وقد أكثر الناس في أنّه لم وصف موالي الميّت بهذا الوصف ؟ والأصحّ عندي وجه واحد وهو أنّهم إنّما وصفوا بذلك لأنّه لمّا أخذ ما لهم فقد استحقّ عليهم ما لهم فإنّ من أخذ مال غيره فقد حاول أن يكون تعلّقه بذلك المال مستعلياً على تعلّق مالكه به فصحّ ان يوصف المالك بأنّه قد استحقّ عليه ذلك المال. ووصفهما بالأوليان

لأنّهما أقرب إلى الميّت وأولى بالمال بسبب القرابة أو بسبب اليمين الّتي حلفوا كما ذكرناه قبل ذلك .

قوله : [فيقسمان بالله لشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا إنّا إذاً لمن الظالمين] بيان صوره تقرير الحلف والمعنى ظاهر ثمّ بيّن سبحانه وجه الحكمة في استحلاف اليهود فقال : [ذلك أدنى] أي ذلك الحلف والإقسام أو ذلك الحكم أقرب [أن يأتوا بالشهادة على وجهها] وصدقها وحقّها لا يكتمون شيئاً ولا يزيدون شيئاً خوفاً من العذاب الأخرويّ بسبب اليمين الكاذبة [أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم] كأنّه قيل : ذلك الإقسام أقرب أن ياتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح في الدنيا على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم و العمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه فأيّ الخوفين وقع حصل المقصود الّذي هو الإيتان بالشهادة على وجهها .

وقيل في معنى الآية وجه آخر وهو : أنّ قوله : أو « يخافوا » عطف على « يأتوا » على معنى أنّ ذلك أقرب إلى أن ياتوا بالشهادة على وجهها أو إلى ان يخافوا الافتضاح بردّ اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم ياتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم [و اتّقوا الله] أن تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا أمانة ولا تخالفوا احكامه [واسمعوا] ما توعظون به كائناً ما كان سمع طاعة وقبول [والله لا يهدي القوم الفاسقين] الخارجين عن الدّين والإطاعة إلى ثوابه وحسنته .

قوله تعالى : يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب . (١٠٩)

أي اتّقوا يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة والمراد جمعهم وجمع أممهم . و انتصب «يوم» على أنّه مفعول به ولم ينتصب على الظرف لأنّهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، والمعنى: اتّقوا عقاب يوم يجمع الله الرسل لأنّ اليوم لا يتّقى و لا يحذر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ولم يذكر الأمم للدلالة ولأنّهم أتباع لهم [فيقول] الله تعالى : [ماذا اُجبتم] أي إجابة اُجبتم من جهة الامم حين دعوتهم إلى توحيدي وطاعتي؟

ءإجابة إقرار وقبول أم إجابة إنكار وتكذيب؟وما الذي أجابكم قومكم فيما دعوتموهم إليه ؟ وهذا تقرير في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للكافرين والمنافقين عند إظهار فضيحتهم على رؤوس الأشهاد [قالوا لاعلم لنا] كأنّه قيل : فماذا يقول الرسل هنالك ؟ فقيل : يقولون : لاعلم لنا بما كنت أنت تعلم وقيل : في هذا الكلام أقوال :

أحدها : الأوّل .

الثاني أنّ للقيامة أهوالاً حتّى يزول القلوب عن مواضعها فإذا رجعت إلى مواضعها شهدوا لمن صدّقهم وعلى من كذّبهم يريد أنّه عزبت عنهم أفهامهم من هول يوم القيامة فقالوا : لاعلم لنا عن عطا وابن عبّاس والحسن والمجاهد والسدّيّ والكلبيّ وقيل :المعنى الأوّل هو المراد أي لاعلم لنا كعلمك لأنّك تعلم ظاهرهم وباطنهم واختار الجبّائي هذا القول وأنكر القول الثاني وقال : كيف يجوز ذهولهم مع قوله «لا خوف عليهم و لاهم يحزنون» ؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّ الفزع الاكبر دخول النار و قوله « لا خوف عليهم» إنّما هو كالبشارة بالنجاة مثل مايقال للمريض : لاباس عليك

والقول الثالث أنّ معناه لاحقيقة لعلمنا إذ كنّا نعلم جوابهم وأفعالهم وقت حياتنا وما نعلم ماكان منهم بعد وفاتنا وإنّما الثواب والعقاب بما يقع به في الخاتمة على ما يموتون عليه ، عن ابن الأنباري .

ورابعها لاعلم لنا إلّا ما علّمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه ، عن ابن عبّاس في رواية أخرى .

و خامسها أنّ المراد تحقيق فضيحتهم أي أنت أعلم بحالهم منّا لا تحتاج إلى شهادتنا .

[انّك أنت علّام الغيوب] للمبالغة أو المراد تكثير المعلوم قال الطبرسيّ : في المجمع أنّه ذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره أنّها تدلّ على بطلان قول الاماميّة أنّ الأئمّة يعلمون الغيب وأقول : أنّ هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم فإنّا لانعلم أحداً منهم بل أحداً من أهل الإسلام يصف أحداً من الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين والشيعة الاماميّة بريئون من هذا القول فمن نسبهم إلى ذلك فالله بينه وبينهم .

قوله تعالى : اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك و على والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد و كهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتورية والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الاكمه والابرص باذني و اذ تخرج الموتى باذني و اذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الاسحر مبين (١١١).

متعلّق الظرف : يوم يجمع الله الرسل ، أو المعنى اذكر إذ قال الله والمعنى: إذ يقول الله في الآخرة وذكر لفظ الماضي للدلالة على قرب القيامة وتحقق وقوع القول ؛ لأنّ ماهو آت قريب مكان قد وقع . أو أنّه ورد على حكاية الحال ونظيره قوله : «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربّهم» .

قوله : [يا عيسى بن مريم] يجوز أن يكون عيسى في محلّ الرفع لأنّه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محلّ النصب على الإضافة وكلّ ماكان كذلك جائز الوجهين نحو يازيدُ بن عمرو ويا زيدَ بن عمرو . وهذا الكلام فيه إشارة إلى بطلان قول النصارى لأنّ من له أمّ لايكون إلهاً [اذكر نعمتي] والمراد جمع النعمة لقوله «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها» وإنّما جاز ذلك لأنّه مضاف يصلح للجنس [عليك وعلى والدتك] .

ثمّ فسّر نعمته بأن قال : [إذ أيّدتك بروح القدس] هو جبرئيل ؛ الروح: جبرئيل والقدس هو الله أضافه إلى نفسه تعالى تعظيماً وتشريفاً له والأرواح مختلفة فمنها طاهرة نورانيّة ومنها خبيثة ظلمانيّة كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :الأرواح جنود مجنّدة فالله سبحانه خصّ عيسى بالروح الطاهرة المقدّسة [تكلّم الناس في المهد وكهلاً] قيل : المراد من المهد حجر أمّه أي تكلّم مع الناس في حال صباك وحال ماكنت كهلاً سواء من غير أن يوجد تفاوت في الكلام بين الحالين و ذلك لقوله : «إنّي عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً»(١) وهذه المعجزة حصلت له لنبوّته وهذه المعجزة أيضاً نعمة حصلت لأمّه لأنّها على براءة ساحتها ممّا

(١) مريم : ٣٠-٣١ .

نسبوها إليه و اتّهموها به و كذلك ولادة عيسى وخلقته ماكانت من نطف الرجال و إنّما كانت كلمة ألقاها إلى مريم . والكهل من الرجال : الّذي جاوز الثلاثين و خالطه الشيب كما قيل : إنّ المراد بتكلّمه كهلاً أن يكلّم الناس بعد أن ينزّل من السماء في آخر الزمان بناء على أنّه رفع قبل أن اُكهل فيكون قوله تعالى : « وكهلاً » دليلاً على نزوله .

[وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل] قيل : المراد من الكتاب الكتابة والخطّ وقيل : المراد جنس الكتب فإنّ الانسان يتعلّم أوّلاً كتباً سهلة ثمّ يترقّى إلى الكتب الشريفة . وأمّا الحكمة فهي عبارة من العلوم النظرية والعملية الشرعية ثمّ فصّل الكتاب بذكر التوراة والإنجيل .

[وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتكون طيراً بإذني] قرأ نافع: فتكون طائراً . وطير : جمع طائر كركب جمع راكب وطعن جمع طاعن والتأنيث باعتبار الهيئة، بإذني وأمري وتيسيري [فتنفخ فيها] أي في الهيئة المصوّرة [فتكون] تلك الهيئة [طيراً بإذني] فالخلق حقيقة لله تعالى ظاهر على يده كما أنّ النفخ في مريم كان من جبرئيل والخلق من الله .

سألوا منه على وجه التعنّت فقالوا : اخلق لنا خفّاشاً و اجعل فيه روحاً بسؤالك من الله إن كنت صادقاً في مقالتك فأخذ طيناً و جعل منه خفّاشاً ثمّ نفخ فيه فاذا هو يطير بين السمآء والأرض ، وإنّما طلبوا منه خلق خفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق ، ومن عجائبه أنّه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، وله ضرع يخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل و إنّما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس و بعد طلوع الفجر قبل أن يسفرّ جدّاً و يضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما يحيض المرأة فلمّا رأوا ذلك منه ضحكوا و قالوا : هذا سحر .

[وتبرء الأكمه والأبرص بإذني] الاكمه: الذي ولد أعمى، والابرص هو الذي به بياض في الجلد و كان بحيث إذا غرز بإبرة لايخرج الدم منه لا يقبل العلاج ولذا

خصّا بذكر وكلاهما ممّا أعيى الأطبّاء [وإذ تخرج الموتى بإذني] من قبورهم أحياء بفعلي ذلك عند دعائك وعند قولك للميّت أخرج بإذن الله قال الكلبيّ : كان يحيي الموتى بـ(ياحيّ ويا قيّوم) وهو الاسم الأعظم عند أهل التحقيق . وذكر الإذن في هذه الأفاعيل على معنى إضافة حقيقيّة الى الله كقوله :«وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله» أي إلّا بخلق الله الموت فيها .

و سابع النعم في الذكر قوله : [و إذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات] أى منعت اليهود الذين أرادوا لك السوء عن التعرض لك . قال الرازيّ : يحتمل أن يكون المراد منه البيّنات الّتي تقدّم ذكرها بالالف واللّام . ويحتمل أن يكون المراد جنس البيّنات: روي أنّه لمّا أظهر هذه المعجزات قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم حيث رفعه إلى السماء .

[فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين] وقرء ساحر ، وكلاهما حسن قال الواحديّ : و الاختيار : سحر لجواز وقوعه على الحدث والشخص ، أمّا وقوعه على الحدث فظاهر وأمّا على الشخص فيقول : هذا سحر أي ذو سحر كما قال تعالى : «ولكنّ البرّ من آمن»[1] أي ذا البرّ قالت الخنساء : فإنّما هي إقبال وإدبار

فان قيل : إنّه سوق الآيات في تعديد نعمه على عيسى وقول الكفّار في حقّه : «إن هذا إلّا سحر مبين» ليس من النعم فكيف ذكره ههنا ؟ لأنّ من الأمثال المشهورة أنّ «كلّ ذي نعمة محسود» وطعن الكفّار يدلّ على أنّ نعم الله في حقّه كثيرة ، ولإفادة هذا المعنى حسن ذكره عند تعديد النعم .

و اذا أو حيت الى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى قالوا آمنا و اشهد بأننا مسلمون(١١١).

من قال : إنّ الحواريّين كانوا أنبياء قال : ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء ،ومن قال : إنّهم ما كانوا قال : المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله «و أوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه»[2] وقوله «وأوحى ربّك إلى النحل»[3]

---

(١) . البقرة : ١٧٧ . (٢) القصص : ٧ . (٣)النحل : ٦٨ .

والحواريّ خالصة الرجل وخلصاؤه مأخوذ من الخبز الحوّاري لأنّه أخلصه من كلّ مايشوبه . والحواريّون كانوا من وزراء عيسى وأصحابه وصفوته ، ويمكن أن يكون معناه مأخوذاً من الحور وهو البياض الخالص، سمّوا به لخلوص نيّاتهم ونقاء سرائرهم ؛ قيل : كان بعضهم من الملوك وبعضهم صيّاد السمك وبعضهم من القصّارين وبعضهم من الصبّاغين فصاروا بالصدق والإيمان أولياء الله وأطبّاء النفوس .

حكي عن بعض الزهّاد أنّه اعتلّ فحمل الى البيمارستان وكتب عليّ بن عيسى الوزير إلى الخليفة المقتدر في ذلك فأرسل الخليفة اليه مقدّم الاطباء ليداويه فما أنجحت مداواته قال الطبيب للزاهد : والله لو علمت أنّ مداواتك في قطعة لحم من جسدي ماعسر ذلك عليّ فقال الزاهد : دوائي فيما دون ذلك قال الطبيب : وماهو ؟ قال بقطعك الزنّار فقال الطبيب : أشهد أن لا اله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله فأُخبر الخليفة فبكى وقال : نفذنا طبيباً إلى مريض وما علمنا أنّا نفذنا مريضاً إلى طبيب . و الماحضون في الإيمان والتقوى هم أطبّاء النفوس ويعالجون المرضى حسب حذقهم فمريضاً يسقونه عسلاً و آخر حنظلاً .

وكان فضيل بن عياض لم يرمتبسّماً ثلاثين سنة لمّا سمع في تفسير قوله تعالى : « مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة»(١) عن ابن عبّاس الصغيرة: التبسّم والكبيرة: الضحك و رواه يوم عرفة وهو يبكي بكاء الثكلى حتّى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته و رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت ، ومن كلامه : لو أنّ الدنيا بحذا فيرها عرضت عليّ بشرط أن لاأُحاسب يوماً لكنت أتقذّرها كمايتقذّر أحدكم بجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه .

قال الفضيل : إذا قيل لك : تخاف الله ؟ فاسكت فإنّك إن قلتَ : لافقد جئت بأمر عظيم و إن قلت : نعم فالخائف لايكون على ما أنت .

[وإذا أوحيت إلى الحواريّين] أي اذكريا محمّد وقت أن أمرتهم على ألسنة الرسل أو بالإلقاء و الإلهام في قلوبهم [أن آمنوا بي] « أن » مفسّرة لما في الإيحاء

(١) الكهف : ٤٩ .

أي صدّقوا بوحدانيّتي بالربوبيّة و برسالة رسولي [قالوا] كأنّه قيل : فماذا قالوا ؟ قالوا : [آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون] ومخلصون في إيماننا ومنقادون ومطيعون في الظاهر والقلب . روي أنّ عيسى كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدّخر لغد شيئاً ولم يكن له بيت ولا أهل ولا ولد وأينما أدركه اللّيل بات .

قوله تعالى : اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين (١١٢) قالوا نريد أن نأكل منها و تطمئن قلوبنا و نعلم أن قد صدقتنا و نكون عليها من الشاهدين (١١٣) .

قرأ الكسائيّ : تستطيع بالتاء على الخطاب أي هل تستطيع سؤال ربّك ؟ وهذه القراءة مرويّة عن عليّ وابن عبّاس ، وعن معاذ بن جبل قال : أقرأني رسول الله بالخطاب وبنصب ربّك . قال الرازيّ في تفسيره : والخطاب أولى من الغياب ، لأنّ قراءة الخطاب توجب شكّهم في استطاعة عيسى وبالغياب توجب شكّهم في استطاعة الله ولاشكّ أنّ الأولى أولى بجلالة شأنهم .

فلو قيل : إنّ على قراءة الغياب كيف يجوز لهم أن يكونوا باقين شاكّين في اقتدار الله مع أنّه سبحانه حكى عنهم أنّهم قالوا : « آمنّا و اشهد بأنّنا مسلمون » و بعد الإيمان كيف يجوز هذا القول ؟ فالجواب أنّه تعالى ما وصفهم بالإيمان و الإسلام بل حكى عنهم ادّعاهم لهما بل دلّ قولهم : « و نعلم أن قد صدقتنا » على مرض في قلوبهم وكذلك قول عيسى لهم : « اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين» يدلّ على أنّهم ماكانوا كاملين في الإيمان أو أنّهم كانوا مؤمنين إلّا أنّهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم كمال الإيمان كما قال إبراهيم : « ولكن ليطمئنّ قلبي »[1] ولهذا السبب قالوا : « و تطمئنّ قلوبنا » أو يكون المراد من طلبهم هذا الأمر استفهام أنّ ذلك هل يجوز في الحكمة أم لا ؟ وذلك لأنّ أفعال الله لمّا كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الّذي لا يحصل فيه شيء من الحكمة يكون الفعل ممتنعاً فإنّ المنافي من جهة

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

الحكمة كالمنافي من جهة القدرة، وهذه الأجوبة يتمشّى على قول المعتزلة وأمّا على قول الأشاعرة فهو محمول على أن الله هل قضى بذلك أم لا؟ وقال السدّيّ: معنى «هل يستطيع ربّك»: هل يستطيع ربّك إن سألته ؟ وهذا تفريع على أنّ (استطاع) بمعنى أطاع والسين زائدة .

قال ابن الانباريّ: سميّت المائدة بالمائدة لأنّها عطيّة من قول العرب : ماد فلان فلاناً يميده ميداً إذا أحسن إليه ؛ فالمائدة على هذا القول فاعلة من الميد بمعنى معطية وقال أبو عبيدة : المائدة فاعلة بمعنى المفعولة مثل عيشة راضية. وقال الزجّاج فاعلة من ماد يميد إذا تحرّك فكأنّها تميد بما عليها ، والحاصل المائدة : الخوان الّذي عليه الطعام . في كتاب الشرعة قال : وضع الطعام على الأرض أحبّ إلى رسول الله ثمّ على السفرة وهي على الأرض ، والأكل على الخوان آداب الملوك والجبّارين لئلّا يتطأطؤوا عند الأكل وعلى السفرة فعل العرب .(١)

[قال لهم] عيسى بعد طلبهم المائدة : [اتّقوا الله] من أمثال هذا السؤال وإساءة الأدب [إن كنتم مؤمنين] بقدرته أو بصحّة نبوّتي [قالوا نريد أن ناكل منها] تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال [نريد أن ناكل منها] ولا نريد إلّا اليقين والاطمئنان ونحبّ أكلها فإنّ الجوع قد غلبنا [ونعلم أن قد صدقتنا] بأنّك رسول الله وهذا يقوّي قول من قال: إنّهم كانوا شاكّين في ابتداء الأمر في دينهم . قال الطبرسيّ : والصحيح أنّهم طلبوا المعاينة والعلم الضروريّ ومعجزة سماويّة [ونكون عليها من الشاهدين] لله بالتوحيد ولك بالنبوّة . أو المعنى: نكون من الشاهدين عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم .

قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٤) قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى اعذبه عذاباً لا اعذبه احدا من العالمين (١١٥) .

---

(١) روى الطريحي مرسلا ان رسول الله صم ما اكل على خوان قط لئلا يفتقر الى التطاول ـ وهو التمدد قائما ـ و منه يظهر ان المراد بالخوان كرسى معد للاكل .

قوله [اللّهم] نداء وقوله [ربّنا] نداء ثان و قوله [تكون لنا] صفة للمائدة وفي قراءة عبدالله : تكن لنا بناء على أنّه جواب للأمر قال الفرّاء : وماكان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل الجزم والرفع مثل قوله تعالى : « فهب لي من لدنك وليّاً يرثني»[١] بالجزم والرفع ومثل قوله : « فأرسله معي ردءاً يصدّقني»[٢] بالجزم والرفع . والعيد اسم لما عاد إليك من شيء في وقت معلوم واشتقاقه من عاد يعود وأصله : العود قال اللّيث : العيد كلّ يوم مجمع فسمّي العيد عيداً لأنّه يعود كلّ سنة بفرح جديد أي نتّخذ اليوم الّذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظّمه نحن ومن يأتي بعدنا . ونزلت يوم الأحد فاتّخذه النصارى عيداً [وآية منك] كائنة دالّة على قدرتك وصحّة نبوّتي [وارزقنا] المائدة [وأنت خير الرازقين] خير من يرزق لأنّه خالق الأرزاق .

قال الرازيّ : تأمّل في هذا الترتيب؛ فإنّ الحواريّين لمّا سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً فقدّموا ذكر الأكل فقالوا : « نريد أن نأكل منها » وأخّروا الأغراض الدينيّة الروحانيّة ، فأمّا عيسى فإنّه لمّا طلب المائدة و ذكر أغراضه فيها قدّم الأغراض الدينيّة وأخّر الأغراض الدنيويّة حيث قال : « وارزقنا » وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح . ثمّ إنّه ﷺ بصفاء دينه وشدّة إشراق روحه لمّا ذكر الرزق بقوله : « وارزقنا » لم يقف عليه وانتقل من الرزق إلى الرازق . قال الطبرسيّ : وفي هذا دلالة على أنّ العباد قد يرزق بعضهم بعضاً لأنّه لولم يكن كذلك لم يصحّ أن يقال : وأنت خير الرازقين .

[قال الله] مجيباً له إلى ما التمسه : [إنّي منزّلها] أي المائدة [فمن يكفر بعد] إنزالها عليكم [فإنّي اُعذّبه عذاباً لا اُعذّبه أحداً من العالمين] قيل : في معناه أقوال :

أحدها أنّه أراد عالمي زمانه فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير . وقيل : خنازير . وثانيها أنّه أراد عذاب الاستئصال . والثالث أنّه أراد جنساً

---

(١) مريم : ٥ ـ ٦ .

(٢) القصص : ٣٤ .

من العذاب لا يعذّب به أحداً غيرهم وذلك لأنّهم رأوا الآية الّتي هي من أزجر الآيات عن الكفر بعد سؤالهم فاقتضت الحكمة اختصاصهم بفنّ من العذاب .

واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا ؟ قال الحسن ومجاهد : إنّها لم تنزل و أنّ القوم لمّا سمعوا الشرط استعفوا عن نزولها وقالوا : لا نريد ها فلم تنزل ، قال المحقّقون من العلماء : إنّها نزلت لقوله : « إنّي منزّ لها عليكم » ولا يجوز أن يقع في خبره الخلف ولأنّ الأخبار قد استفاضت عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و الصحابة والتابعين أنّها نزلت .(١)

روي أنّ عيسى اغتسل ولبس جبّته وهي من صوف وصلّى ركعتين فطأطأ رأسه وغضّ بصره ثمّ دعا واختلف في كيفيّتها فروي عن عمّار بن ياسر عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : نزلت المائدة خبزاً ولحماً وذلك لأنّهم سألوا عيسى طعاماً لا ينفد يأكلون منها فقيل لهم : فإنّها مقيمة معكم ما لم تخونوا وتخبؤوا فإن فعلتم ذلك عذّبتم قال : فما مضى يومهم حتّى خبؤوا و رفعوا و خانوا قال ابن عبّاس : إنّ عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل : صوموا ثلاثين يوماً ثمّ اسألوا الله ما شئتم يعطكموه فصاموا ثلاثين يوماً فلمّا فرغوا قالوا : ياعيسى إنّا لو عملنا لأحد من الناس فقضينا عمله لأطعمنا طعاماً وإنّا صمنا وجعنا فادع الله أن ينزّل علينا مائدة من السماء فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتّى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم وهو المرويّ عن الصادق. وروي أنّها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون حتّى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال : اللهم اجعلنا من الشاكرين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، ثمّ قام وتوضّأ وصلّى وبكى ثمّ كشف المنديل الّذي عليها وقال : بسم الله خير الرازقين فإذا سمكة مشويّة بلا فلوس ولا شوكة يسيل دسمها وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها

(١) روى البحرانى (قده) فى تفسير البرهان «ج ١ : ٥١١ - ٥١٢» عدة روايات مسندة و مرسلة تدل على ذلك ، ومنها رواية عمار الاتية ، وفى بعضها ذكرما كان فيها من الطعام و من اكل منها من الناس .

زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين : يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ فقال : ليس منهما ولكنه اخترعه الله بقدرته ، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله .

فقالوا : يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية اُخرى فقال عيسى : يا سمكة احي باذن الله فاضطربت ثم قال لها : عودي كما كنت فعادت مشوية فلبثت المائدة يوماً واحداً فأكل من أكل منها ثم طارت ولم تنزل بعد ذلك اليوم وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً غبّاً[1] يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون ، ولم يأكل منها فقير إلّا غنى مدة عمره ولا مريض إلّا برىء ولم يمرض أبداً فأوحى الله إلى عيسى: اجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها فأوحى الله إلى عيسى : إنّي شرطت على المكذّبين أنّ من كفر بعد نزولها اُعذّبه فقال عيسى عليه السلام : « إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم » فمسخ منهم ثلاث مائة وثلاثة وثلاثون رجلاً باتوا من ليلهم على فراشهم مع نسائهم في بيوتهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات و الكناسات ويأكلون العذرة في الحشوش فلمّا رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى وبكوا وبكى على الممسوخين أهلوهم فعاشوا ثلاثة أيّام ثمّ هلكوا .

وفي تفسير أهل البيت : كانت المائدة تنزل عليهم يجتمعون عليها ويأكلون منها ثمّ ترفع فقال كبراؤهم ومترفوهم : لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا فرفع الله المائدة ببغيهم وكبرهم ومسخوا قردة وخنازير .

وصار يوم نزل المائدة عيداً لاُمّة عيسى كما أنّ السبت عيداً لاُمّة موسى و كان لقوم إبراهيم عيد وكانوا قد خرجوا لعيدهم[2] ودخل إبراهيم معبدهم وكسر

---

(١) أي يجيء يوما و لا يجيء يوما .

(٢) لا وجه ظاهراً للتشريك بين اعياد اليهود والنصارى والمسلمين و بين عيد قوم ابراهيم، فان اعياد اليهود والنصارى والمسلمين كانت بتشريع او بتصويب من الله تعالى بخلاف قوم ابراهيم فان عيدهم كان صناعياً من مجعولات انفسهم والعلم عند اهله .

أصنامهم ولأمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعياد، فالعيد المكرّر في الأسبوع: الجمعة وهو عيد الأسبوع مرتّب على إكمال الصلوات المكتوبات باجتماع الناس فيه مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأداء صلاة الجمعة وإدراك مثوباتها فإنّ الله تعالى فرض على المؤمنين في اليوم والليلة خمس صلاة و إنّ الدنيا تدور على سبعة أيّام فكلّما كمل دوراً سبوع من أيّام الدنيا واستكمل المسلمون صلاتهم شرع لهم في يوم استكمالهم عيد يوم الجمعة وهو اليوم الّذي كمل فيه الخلق(١) وفيه خلق آدم وأُدخل الجنّة وأُخرج منها، وفيه منتهى أمر الدنيا فتنزل وتقوم الساعة فيه فجعل فيه الاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة عيداً لهم.

وفي اجتماع يوم الجمعة شبه من الحجّ حتّى قيل: إنّها حجّ المساكين قال سعيد بن المسيّب: شهود الجمعة أحبّ إليّ من حجّة النافلة والتكبير فيه يقوم مقام الهدي وشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الأُخري إذا سلم مابين الجمعتين من الكبائر كما أنّ الحجّ المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجّة الأُخرى. وقد روي إذا سلمت الجمعة سلمت الأيّام.

وامّا الأعياد الّتي تكرّر في السنة فعيد الفطر من صوم رمضان وهو مرتّب على إكمال الصيام ويزيد ثوابه بأداء صلاته وآدابه والصوم الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه. والعيد الثالث في الإسلام باعتبار و الثاني باعتبار عيد النحر وهو أكبرهما وأفضلهما وهو مترتّب على إكمال الحجّ وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه فإذا أكمل المسلمون حجّتهم غفرلهم ومن أعياد المسلمين النيروز وكان عيداً للعجم وقد أمضته الشريعة و سنّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (٢) و من الأعياد الغدير بل من أعظمها و أتمّها وأكملها كيف لا وفيه تمّت نقائص الإسلام وقد وقع القوس بيد باريها وجرت أنهار الهداية على مجاريها.

---

(١) اى خلق السموات والارض على ما فى احتجاج النبى مع اليهود. فان الاخبار الواردة فى باب الخلق تدل على ان بدء خلق السماوات والارض يوم الاحد واخره يوم الجمعة و السبت معطل.

(٢) بلسان الاخبار من اهل بيته، واما امضاء الشريعة فمن حيث تصويب مطلق اسباب التراؤف و التراحم.

قوله تعالى : واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسي ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب (١١٦) ما قلت لهم الاما امرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد (١١٧) ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم (١١٨) قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (١١٩) لله ملك السموات و الارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير (١٢٠) .

قيل : إنّ هذا الكلام قيل لعيسى حين رفعه إلى السماء و تعلّق بظاهر قوله : [وإذ قال الله] و«إذ» تستعمل للماضي وقيل : عطف على قوله «إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك» وعلى هذا القول إنّما يذكره لعيسى يوم القيامة، وهذا القول أصحّ لأنّه تعالى عقّب الكلام بقوله : «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» والمراد به يوم القيامة [ءأنت قلت للنّاس اتّخذوني و أمّي إلهين من دون الله] صيّروني و أمّي معبودين بطريق إشراكهما في العبادة معي .

فلو قيل : إنّ الاستفهام كيف يليق به تعالى على أنّه تعالى كان عالماً بأنّ عيسى لم يقل ذلك فكيف بهذا الخطاب ؟ فالجواب أنّه هذا الاستفهام توبيخ للقائل واستفهام لتعيين القائل حتّى يجازى .

فإن قيل : إنّ أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهيّة عيسى ومريم مع القول بنفي إلهيّة الله تعالى فكيف ينسب هذا القول إليهم؟ قال الرازيّ : إنّ الله هو الخالق والنصارى يعتقدون أنّ خالق المعجزات الّتي ظهرت على يد عيسى و مريم هو عيسى ومريم والله ما خلقها فهم قالوا : إنّ الخالق لتلك الأمور هما، والله ليس خالقها فأثبتوا في خلق بعض الأشياء إلهيّتهما و نفوا فيها إلهيّة الله فصحّ بهذا التأويل هذه الحكاية .

[قال سبحانك] كأنه قيل : فماذا يقول عيسى حينئذ؟فقيل : يقول سبحانك أي أنزهك تنزيهاً من أن أقول هذه المقالة أومن أن يقال في شأنك هذه المقالة .

[ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته] أي مايستقيم لي أن أقول ماليس بحق لي أن أقوله ولمراعات حسن الأدب والخضوع لم يقل: ماقلته فوض ذلك إلى علمه تعالى . قال أبوردق : إذا سمع عيسى هذا الخطاب - والمراد إذا يسمع - ارتعدت فرائصه وتنفجر من أصل كل شعرة في جسده عين من دم وهذا الخطاب وإن كان ظاهره مع عيسى ولكن حقيقته مع الأمة . ومعنى «إن كنت قلته فقد علمته» أن صدور هذا القول مستلزم لعلمك قطعاً فحيث انتفى العلم انتفى الصدور قطعاً ضرورة استلزام عدم اللازم عدم الملزوم .

[تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك] أي تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي و تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك وقيل : المراد : تعلم ماكان مني في الدنيا ولاأعلم ماكان منك في الاخرة . وتمسك المجسمة بهذه الاية وقالوا : النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسماً وهذا الكلام لايصدر إلا عن أحمق بحت لأن النفس عبارة عن الذات ، نفس الشيء وذاته بمعنى واحد [إنك أنت علام الغيوب] تاكيد للجملتين المتقدمين أعني قوله : « إن كنت قلته فقد علمته » و قوله :« تعلم مافي نفسي ولاأعلم ما في نفسك » .

ثم حكى سبحانه عن عيسى: [ماقلت لهم إلا ماأمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم] «أن» مفسرة والمفسر هو الهاء في «به» الراجع إلى القول المأمور به أي ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به وهو أن أقول لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم [وكنت عليهم شهيداً] رقيباً أراقب أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك و أمنعهم عن المخالفة أو أشاهد أحوالهم من كفر و إيمان [ما دمت فيهم] أي مدة دوامي فيمابينهم [فلما توفيتني] أي قبضتني إليك من بينهم ورفعتني إلى السماء [كنت أنت الرقيب عليهم] أي أنت لاغيرك كنت حافظاً لأعمالهم والمراقب لها [وأنت على كل شيء شهيد] مطلع عليه مراقب له و«على» متعلق بشهيد والتقديم لمراعات الفاصلة [إن تعذبهم فإنهم عبادك] فبدأ اختيارهم

ولا اعتراض على المولى و المالك المطلق فيما يفعله بملكه [وإن تغفر لهم فانّك أنت العزيز الحكيم] أي فلا عجز ولا استقباح فإنّك القادر والقويّ على الثواب والعقاب الّذي لا يثيب و لا يعاقب إلّا عن حكمة و صواب ؛ فإن عذّبت فعدل و إن غفرت ففضل .

فإن قلت : مغفرة المشرك قطعيّة الانتفاء بحسب الوجود وتعذيبه قطعي الوجود فما معنى «إن» المستعمل فيما كان كلّ واحد من جانبي وجوده وعدمه جائزاً محتمل الوقوع؟ فالجواب كون غفران المشرك قطعيّ الانتفاء بحسب الوجود لاينافي كونه جائز الوجود بحسب العقل فصحّ استعمال كلمة «إن» فيها لأنّه يكفي في صحّة استعمالها مجرّد الإمكان الذاتي والجواز العقلي . وقيل وجه آخر وهو أنّ الترديد بالنسبة إلى فرقتين والمعنى: إن تعذّبهم أي من كفر منهم وإن تغفر لهم أي من آمن منهم .

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية أحيى رسول الله بها ليلته وكان بها يقوم و بها يقعد وبها يسجد ثمّ قال : أمّتي أمّتي يا ربّ فبكى فنزل جبرئيل فقال : الله يقرؤك السلام ويقول لك : إنّا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك .

[قال الله] أي يقول الله يوم القيامة عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الّذين هو في زمرتهم : [هذا] أي يوم القيامة وهو مبتدأ و خبره ما بعده [يوم ينفع الصادقين صدقهم] المراد الصدق في الدنيا ، فإنّ النافع ماكان حال التكليف فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لاينفعه عذره واعترافه . والمراد من الصدق في الأمور الدينيّة الّتي معظمها التوحيد؛ فالصادقون المراد بهم في الآية الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك والأمم المصدّقون لهم عقداً و عملاً [لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً] كأنّه قيل : مالهم من النفع ؟ فقيل : نعيم دائم و ثواب خالد [رضي الله عنهم] بالطاعة [ورضوا عنه] بنيل الكرامة والرضوان فيض زائد على الجنّات لاغاية وراءه ولذلك قال سبحانه: [ذلك] أي الرضوان [هو الفوز العظيم] أى النجاة الوافرة .

[لله ملك السموات و الارض و ما فيهنّ] تنبيه على كذب النّصارى و فساد ما

زعموا في حقّ المسيح وأُمّه أي له خاصّة تلك السماوات والارض ومافيهما من العقلاء وغيرهم يتصرّف فيها كيف يشاء وعيسى وأُمّه فيها فكيف يكونان إلهين وهو يتصرّف كيف يشاء فيها إيجاداً و إعداماً و إماتة و إحياءً و أمراً و نهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك لا عيسى ولا غيره ؟ [وهو على كلّ شيء قدير] منزّه عن العجز والضعف ومن كان له الأمر والإيجاد ومالك الملك فله بحكم المالكيّة أن تنسخ شرع موسى ويجعل شرع عيسى ، وليس لليهود حقّ الاعتراض على نبوّة عيسى ، وكذلك يرفع شريعته ويضع شريعة محمد صلى الله عليه وآله ويخلّدها إلى يوم القيامة وليس للنصارى الردّ والنكول .

تمّت السورة المائدة مع ما فيها من الفائدة ويتلوها ...

سورة الانعام

نزلت بمكّة جملة واحدة معها سبعون ألف ملك قد سدّوا ما بين الخافقين ولهم زجل بالتسبيح والتحميد حتّى كادت الأرض ترتجّ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان ربّي العظيم سبحان ربّي الأعلى وخرّ ساجداً وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً: من قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام إلى قوله «تكسبون» حين يصبح وكّل الله به سبعين ألف ملك يحفظونه وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد كلّما أراد الشيطان أن يلقي في قلبه شيئاً من الشرّ ضربه بها وجعل بينه وبين الشيطان سبعين ألف حجاب فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: يا ابن آدم امش تحت ظلّي وكل من ثمار جنّتي واشرب من ماء الكوثر واغسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربّك لا حساب عليك ولا عذاب كذا رواه الواحديّ في البسيط.

وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ سورة الأنعام نزلت جملة واحدة ومعها سبعون ألف ملك يعظّموها ويجلوها فإنّ اسم الله فيها في سبعين موضعاً ولو يعلم النّاس ما في قراءتها من الفضل ما تركوها، ثمّ قال عليه السلام: من كانت له حاجة إلى الله يريد قضاءها فليصلّ أربع ركعات بفاتحة الكتاب والأنعام وليقل في صلاته إذا فرغ من العبادة: يا كريم يا كريم يا كريم يا عظيم يا عظيم يا عظيم يا أعظم من كلّ عظيم يا سميع الدعاء يا من لا يغيّره اللّيالي والأيّام صلّ على محمّد وآل محمّد وارحم ضعفي وفقري وفاقتي ومسكنتي يا من رحم الشيخ يعقوب حين ردّ عليه يوسف قرّة عينه، يا من رحم أيّوب بعد طول بلائه، يا من رحم محمّداً من اليتم آواه ونصره على جبابرة قريش وطواغيتها وأمكنه منهم يا مغيث يا مغيث يا مغيث تقول ذلك مراراً فو الّذي نفسي بيده لو دعوت الله بها ثمّ سألت الله جميع حوائجك لأعطاك.

وروى أبو صالح عن ابن عبّاس قال : من قرأ سورة الأنعام في كلّ ليلة كان من الآمنين يوم القيامة ولم ير النار بعينه أبداً .(١)

أقول : و لعلّ السبب في إنزال هذه السورة جملة واحدة أنّها مشتملة على الأُصول ودلائل التوحيد و العدل و النبوّة والمعاد ، وإنزال ما يدلّ على الأحكام قد يكون المصلحة أن تنزّل الله قدرحاجتهم و بحسب الحوادث والنوازل و لكن مايدلّ على علم الأُصول أنزل الله جملة واحدة و ذلك يدلّ على أنّ تعلّم الأُصول واجب على الفورلاعلى التراخي .

(١) رواها وبعض ما تقدم فى ثواب الاعمال : ١٠٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١) هوالذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاو أجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (٢).

بدأ الله سبحانه هذه السورة بالحمد لنفسه إعلاماً بأنّه المستحقّ لجميع المحامد لأنّ أصول النعم وفروعها منه تعالى ولأنّ له الصفات العليا فقال : [الحمد لله] اعلم أنّ المدح أعمّ من الحمد والحمد أعمّ من الشكر وذلك لأنّ المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل فكما يحسن مدح الرجل العاقل كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن شكله وصفاته لكنّ الحمد لا يحصل إلّا للعاقل المختار بسبب ما يصدر عنه من الإنعام والإحسان ؛ فثبت أنّ المدح أعم من الحمد وأمّا بيان أنّ الحمد أعمّ من الشكر فلأنّ الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر منه من الإنعام سواءً كان ذلك الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك لكنّ الشكر فهو عبارة عن تعظيم المنعم لأجل إنعام وصل إليك فصار أعمّ من الشكر .

فكان قوله تعالى : «الحمد لله» تصريحاً بأنّ المؤثّر في وجود هذا العالم فاعل مختار خالق بالقدرة والمشيئة ولم يقل : الشكر لله لأنّ الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر عنه ووصل إليك ، وهذا مشعر بأنّ العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعم فحينئذ يكون هذا التعظيم بسبب وصول النعمة إليه وهو المطلوب الأصليّ له ، وهذه درجة حقيرة فأمّا إذا قال العبد : الحمد لله يدلّ على أنّ العبد حمده لأجل كونه مستحقّاً للحمد لا لخصوص أنّه تعالى أوصل النعمة إليه فيكون حينئذ الإخلاص أكمل ، واستغراق القلب أتمّ وانقطاعه عمّا سوى الحقّ أقوى وأثبت. وكلمة الحمد لفظ مفرد محلّى بالألف واللّام فيفيد أصل الماهيّة والحقيقة فيفيد هذه الكلمة أنّ هذه الماهيّة

والحقيقة لله وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغيرالله و اختصاصه على الحقيقة به تعالى فاقتضى أنّ جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلّا الله .

فإن قيل : إنّ شكر المنعم واجب مثل شكر الأستاذ على تعليمه و شكر السلطان على عدله وشكر المحسن على إحسانه كماقال ﷺ : من لم يشكرالناس لم يشكر الله ؛ فالجواب أنّ المحمود و المشكور في الحقيقة ليس إلّا الله لأنّ صدور الإحسان من العبد يتوقّف على داعية الإحسان ، و حصول الداعية ليس من العبد و إلّا لافتقر في حصولها إلى داعية أُخرى ولزم التسلسل ، بل حصولها ليس إلّا من الله فيكون المحسن في الحقيقة هوالله و كلّ إحسان يقدم عليه أحدمن الخلق، فالانتفاع به لايكون إلّا بواسطة إحسان الله، ألا ترى أنّه لولا أنّ الله خلق أنواع النعمة وإلّا لم يقدر الإنسان على إيصال تلك الحنطة والفواكه والذهب إلى الغير ، و لو لا أنّه سبحانه أعطى الإنسان الحواسّ والقوى لم يمكنه الانتفاع بتلك النعم وإلّا لعجز عن الانتفاع بها فثبت أنّ كلّ إحسان يصدر عن محسن سوى الله فالانتفاع به يكون بواسطة إحسان الله .

وبالجملة فقوله : «الحمد لله» يفيد هذه المعاني فقيل : معناه : «احمدوا الله» و إنّما جاء بصيغة الخبر لإفادة معنى أنّه تعالى مستحقّ للحمد سواءً حمده حامد أو لم يحمده . ثمّ إنّ المقصود من الآية ذكر الحجّة فذكره بصيغة الخبر أولى .

وقيل : معناه : قولوا : الحمدلله وقد يقرّر في العقول أنّ القلوب مجبولة على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا أمر الله العبد بالتحميد وكان الأمر بالتحميد ممّا يحمله على تذكّر النعم صار ذلك الأمر موجباً للعبد على تذكّر أنواع النعم فيوجب رسوخ محبّة الله في قلب العبد وهو من أحسن الفوائد للعبد ومن موجبات القرب و لذلك وقع الابتداء في الكتاب الكريم بهذا الكلمة فقال : «الحمد لله ربّ العالمين» في الفاتحة وفي هذه السورة بقوله :

[الّذي خلق السماوات والأرض] والسماوات والأرض حاوية لأكثر موادّ العالم

من الأجسام والفلكيّات وما فوقها من العرش والكرسيّ ، فينبغي للعبد أن يتأمّل و يتفكّر في طبقات السماوات واتّساعها وأجرامها وأبعادها، والكواكب الثابتة والسيّارة، ثمّ يتأمّل في عالم الأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة و هي المعادن و النبات والحيوان وكيفيّة حكمة خلق الله في الأشياء الحقيرة والضعيفة و جامعيّة أجزائها مع صغرها في الحجم كالبقّ والبعوض وأمثالهما ، ثمّ ينتقل إلى معرفة الأجناس وأعراضها والمنافع الحاصلة من كلّ نوع منها ، ثمّ إذا استكمل نظره يتأمّل إلى تعرّف مراتب الأرواح السفليّة و العلويّة والفلكيّة ، و مراتب الأرواح المقدّسة ، فإذا استحضر مجموع هذه الأشياء المحدثة المخلوقة بقدر القوّة البشريّة فقد حضر في عقله من المدركات ذرّة من معرفة قدرة الله من العوالم ، وعرف حينئذ أنّ إيجاد الله هذه العوالم العظيمة من جوده تعالى ووجوده ، فعند هذا يعرف من قوله : «خلق السماوات والأرض» ذرّة و هذا بحر لا ساحل له وكلام لا آخر له .

فمثل هذا القادر الخالق لهذا الخلقة العظيمة منزّه عن المثل والشبيه في الذات والصفات والأفعال فأفعاله تعالى لا تشبه أفعال الخلق و كذلك ذاته وصفاته ، فعند ذلك يحصل معرفة التوحيد معرفة تامّا والمعاني المتوجّهة في هذه كثيرة مثل أنّ قوله: «الحمد لله الّذي خلق السماوات و الأرض » جار مجرى ما يقال : جاءني الرجل الفقيه فإنّ هذا يدلّ على أنّ الجائي كان موصوفاً بهذه الصفة ؛ فالإله هو الّذي يخلق السماوات و الأرض ولا يكون غيره إلهاً .

واعلم أنّ السماوات جارية مجرى الفاعل والأرض مجرى القابل ولذلك ذكر السماوات بلفظ الجمع و الأرض بصيغة الواحد . والكثرة والتعدّد في السماء اقتضت الاختلافات بسبب الاتّصالات الكوكبيّة ليحصل بها الفصول وسائر الأحوالات المختلفة الّتي بسببها يحصل نظام هذا العالم .

والمقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع ؛ وبيانه أنّ أجرام السماوات والأرض مقدّرات في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة وذلك لا يمكن حصوله إلّا بتخصيص

الفاعل المختار بدليل أنّ كلّ حركة فإنّه يمكن وقوعها أسرع ممّا وقع وأبطأ ممّا وقع فاختصاص تلك الحركة المعيّنة بذلك القدر المعيّن من السرعة والبطء اختصاص مجعول فيه ، ولابدّ لذلك من جاعل بدليل أنّ الأجسام متساوية في الطّبيعة الجسميّة باتّصاف بعضها بالحركة وبعضها بالسكون دون العكس ، وبعضها بالفلكيّة وبعضها بالعنصريّة يحتاج إلى مقدّر ومخصّص يتصرّف فيها كيف شاء ، والحركة فعل حادث لابدّ له من أوّل فإنّ وجود حركة الأوّل لها محال لأنّ حقيقة الحركة انتقال من حالة إلى حالة وهذا الانتقال والحركة يقتضي كونها مسبوقة بالغير ووجب كون ذلك الغير والفاعل متقدّماً على هذه الحركات ، والأثر غير المؤثّر فلا يمكن أن يقال : إنّ المؤثّر علّة موجبة بالذات بل فاعل مختار خارج من ذات الأشياء خالق لها مستغن عنها خلقها إفاضة وخيراً . كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً .

قوله : [وجعل الظلمات والنور] يعني الليل والنهار وقيل : المراد : الجنّة والنار و«الجعل» هو الإنشاء والإبداع كالخلق والفرق بين الخلق والجعل أنّ الخلق فيه معنى التقدير والإنشاء التكوينيّ وفي الجعل معنى التصيير كإنشاء شيء من شيء وتصيير شيء شيئاً مثل قوله تعالى : «وجعل منها زوجها» (١) «وخلقناكم أزواجاً» (٢) . وإنّما حسن لفظ الجعل في الآية لأنّ النور والظلمة لمّا تعاقبا صار كان كل واحد منها تولّد من الآخر وقدّم ذكر الظلمات لأنّ عدم المحدثات متقدّم على وجودها كما روي أنّه تعالى خلق الخلق في ظلمة ثمّ رشّ عليهم من نوره . وذكر الظلمات بصيغة الجمع فعلى قول من قال : الظلمات الكفر ، والنور الإيمان فظاهر لأنّ الحقّ واحد والباطل كثير وأمّا على قول من فسّرهما على الكيفيّة المحسوسة لأنّ النور عبارة عن تلك الكيفيّة الكاملة القويّة والظلمة تقبل التناقص قليلاً قليلاً وتلك المراتب كثيرة .

ثمّ ذكر بطريق التعجّب سبحانه ممّن جعل له شريكاً مع ما يرى من الآيات الدالّة على وحدانيّته فقال : [ثمّ الّذين كفروا] وجحدو الحقّ [بربّهم يعدلون] أي

---

(١) النساء : ١ .

(٢) النبأ : ٨ .

يسوّون به غيره بأن جعلوا له انداداً . و من وجوه التعجّب أنّ هؤلاء الكفّار مع اعترافهم بأنّ أصول النعم منه تعالى وأنّه هوالخالق والرازق كما قال : سبحانه «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله» (١) فنقضوا ماعترفوا به وعبدوا غيره مالاينفع ولا يضرّ من الحجارة وغيرها .

قوله تعالى : [هو الّذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلاً] أي ابتدأ خلقكم أيّها الناس من تراب مخلوط بالماء لما أنّه أصل البشر قال السدّيّ : بعث الله جبرئيل إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها فقالت الأرض : إنّي أعوذ بالله منك أن تنقص منّي فرجع جبرئيل ولم يأخذ شيئاً حياءً من اسم الله قال : يا ربّ إنّها عاذت بك فبعث ميكائيل فاستعاذت كالمرّة الاُولى ، فاستعاذت فرجع ميكائيل فبعث إسرافيل فكان كذلك فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله فقال ملك الموت : وانا أعوذ بالله أن اُخالف أمره فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلف ألوان بني آدم ثمّ عجنها بالماء العذب و الملح و المرّ فقال الله لملك الموت :رحم جبرئيل و ميكائيل وإسرافيل الأرض ولم ترحمها لاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك فلمّا خلق الله آدم من تراب وجعله طيناً ثمّ تركه حتّى كان حمأ مسنون أي أسود متغيّراً ، منتناً ثمّ خلقه وصوّره وتركه حتّى كان صلصالاً كالفخّار أي يابساً مصوّتاً كالمطبوخ بالنار ، ثمّ نفخ فيه من روحه ولمّا كان آدم أصلنا ونحن من أصله جاز أن يقول لنا : خلقكم من طين أو أنّا متولّدون من النطفة وهي تتولّد من أجزاء الأرض، فصحّ هذا القول .

«ثمّ قضى أجلاً» أي كتب وقدّر أجلاً ، و القضاء يكون بمعنى الحكم و بمعنى الأمر و بمعنى الخلق و بمعنى الإتمام والإكمال . والمعنى : كتب لموت كلّ واحد منكم أجلاً خاصّاً به وحدّاً معيّناً من الزمان ينقضي عند حلوله لامحالة و«ثمّ» للإيذان بتفاوت بين خلقهم وتفاوت آجالهم .

[وأجل مسمّى] أي و حدّ معيّن لبعثكم جميعاً و«أجلٌ» مبتدأ وخبره [عنده] أي ثبت معيّن في علمه لا يتغيّر ولا يقف على وقت حلوله أحد و علمه عنده و هو يوم

(١) لقمان : ٢٥ . الزمر : ٣٨ .

القيامة وقيل : الأجل الأول في الآية : النوم والثاني : الموت وقيل : الأجل الأول مقدار ما انقضى من عمره والأجل الثاني مقدار ما بقي .

قال حكماء الإسلام : إنّ لكلّ إنسان أجلين أحدهما الآجال الطبيعيّة و الثاني الآجال الاختراميّة ؛ أمّا الآجال الطبيعيّة فهو الّذي لو بقي الشخص على طبيعته و مزاجه ولم يتعرّضه العوارض الخارجيّة و الآفات المهلكة لا نتهت مدّة بقائه إلى أن تتحلّل رطوبته و ينطفىء حرارته الغريزيّتان و أمّا الآجال الاختراميّة فهي الّتي تحصل بسبب من الأسباب الخارجيّة كالحرق والغرق ولدغ الحشرات وشرب السمّ وأمثالها.

فان قيل :إنّ قوله : « ماتسبق من أُمّة أجلها وما يستأخرون »(١) وقوله : « و اتّقوالله وأطيعون يغفرلكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجل مسمّى » (٢) صريح في الدلالة على السبق على المسمّى ؛ فالجواب أنّ تعدّدالأجل إنّما هو بالنسبة إلينا وأمّا بالنسبة إليه فهو واحد قطعاً ، وبيانه أنّه تعالى عالم في الأزل بكلّ الموجودات ومقدّر لها حسبما شمله علمه ، فهو يقول في الأزل مثلاً : إنّ فلانا إن اتّقى وأطاع يبلغ إلى أجله المسمّى -والأجل ههنا الأجل الثاني الأطول - وإن لم يتّق لم يبلغ هذه المرتبة لكن يعلم أنّه يفعل أحد الفعلين معيّناً فيقدّر له الأجل المعيّن فيكون المقدّر في علم الله الأجل المعيّن، وإنّما لعدم اطّلاعنا من علم الله لم نعلم أنّ ذلك الفلان أيّ الفعلين فعل ، وأيّما الأجلين قضي له ؛ فإذا فعل أحدهما المعيّن ، وحلّ الأجل المرتّب عليه علمنا أنّ ذلك هو المقدّر المسمّى .

فالتردّد بالنسبة إلينا لا في التقدير ، و على هذا قول الله للكافر : أسلم تدخل الجنّة ولاتكفر تدخل النار ، مع علمه عدم إسلامه في الأزل والأمر والنهي لإظهار الإطاعة أو المخالفة في الظاهر كمن يريد إظهار عدم إطاعة عبده للحاضرين فيأمره بشيء وهو يعلم أنّه لايفعله ، و العلم بعدم الإطاعة للحاضرين المتردّدين إنّما يحصل بأمره وكذا جميع

(١) الحجر : ٥ .
(٢) نوح : ٣ - ٤ .

المقدّرات الالهيّة من أفعال العباد الاختياريّة من هذا القبيل .

فظهر أنّ التردّد بالنسبة إلينا دون علم الله إلّا أن يطّلعنا عليه بأخباره الواقع في علمه كما أخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على بعض ما وقع من حال الكفّار في زمانه مثل قوله : « ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »[1] ومثل قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم »[2] فهذا إخبار بما في علمه من أنّهم لا يختارون الايمان انتهى .

قوله : [ثمّ أنتم تمترون] خطاب للكفّار و الّذين شكّوا في البعث والنشور استبعاد لامترائهم في البعث واحتجاج عليهم بأنّه سبحانه خلقهم وقضى عليهم الموت وهم يشاهدون ذلك ثمّ بعد هذا يشكّون ويكذّبون بالبعث .

قوله تعالى : وهو الله في السموات والارض يعلم سركم وجهركم و يعلم ما تكسبون (٣).

قال الطبرسيّ : الأشبه أن يكون «هو» في الآية ضمير القصّة والشأن وتقديره: الأمر : الله يعلم في السماوات وفي الأرض سرّكم وجهركم فالله مبتدأ و«يعلم» خبره وعلى قول من قال : إنّ أصل الله إله فيكون المعنى : هو المعبود في السماوت والأرض او الشأن : المعبود في السماوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويجوز أنّ الضمير راجع إلى المذكور .

قيل : و يكون الخطاب في سرّكم لجميع الخلق من الملائكة و الجنّ و الإنس فهو سبحانه عالم بجميع أسراركم و احوالكم لكن إذا جعلت اسم الله علماً ثمّ علّقت به قوله : «في السماوات وفي الارض » لم يجز وإن علّقته بمحذوف ويكون خبر «الله» او حالاً عنه أوهم بان يكون الباري سبحانه في محلّ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

وقال أبو بكر السرّاج : إنّ لفظ «الله» وإن كان علماً ففيه معنى الثناء والتعظيم الذي يقرب من الفعل ، فيجوز أن يتعلّق لذلك بالمحلّ ، وتأويله : وهو المعظّم والمنزّه في

---

(١) يس : ١٠ .
(٢) البقرة : ٦ .

السماوات وفي الأرض . قال الزجّاج : لوقلت: هوزيد في الدار لم يجز إلّا أن يكون في الكلام دليل على أنّ زيداً يدبّر أمر الدار فيؤول المعنى أنّ زيداً هو المدبّر في الدار وحينئذ على قول أبي بكر السرّاج و الزجّاج يكون الكلام في متعلّقه مادلّ عليه اسم الله فيصحّ المعنى ويكون «هو الله» مبتدءاً وخبراً أي هو المتفرّد بالالوهيّة في السماوات وفي الأرض ، يعني في كلّ مكان إله فلا يكون إلى مكان أقرب من مكان .

ثمّ أكّد بقوله : [يعلم سرّكم و جهركم] أي الظاهر المشكوف و الخفيّ المكتوم [ويعلم ماتكسبون] من نيّاتكم وأعمالكم وأحوالكم .

وتمسّك بعض الحمقاء القائلون بأنّ الله في مكان تمسّكوا بهذه الآية ، قالوا : هذه الآية تدلّ على أنّ الإله مستقرّ في السماء وهو غلط لأنّه يستلزم كونه في المكانين معاً لأنّه قال : « وفي الأرض » وهومحال ، وأجابوا عن هذا الجواب بأنّه أجمعوا على أنّه ليس بموجود في الأرض ، ولا يلزم من ترك أحد الظاهرين ترك العمل بالظاهر الآخر ؛ فوجب أن يبقى ظاهر قوله : «وهو الله في السماوات » على ذلك الظاهر . ثمّ قالوا : ولأنّ من القرّاء من وقف عند قوله : « وهو الله في السماوات » ثمّ يبتدىء فيقول : « وفي الأرض يعلم سرّكم » والمعنى أنّه سبحانه يعلم سرائركم الموجودة في الأرض فيكون قوله : «في الأرض» صلة لقوله : «سرّكم» هذا تمام كلامهم الباطل .

قال الرازيّ : إنّا نقيم الدلالة أوّلاً على أنّه لايمكن حمل هذا الكلام على ظاهره من وجوه لأنّه تعالى قال في هذه السورة : «قل لمن مافي السماوات والأرض قل لله» وبيّن بهذه الآية وغيرها من الآيات أن كلّ مافي السماوات والأرض فهو ملك الله ومملوك له فلو كان الله أحد الأشياء الموجودة في السماوات لزم كونه ملكاً لنفسه وذلك محال . فإن قالوا : إنّه قال : «مافي السماوات والأرض» وكلمة «ما» مختصّة بمن لايعقل، فلا يدخل فيها ذات الله ؛ فالجواب أنّ هذا غيرمسلّم والدليل عليه قوله : « والسماء و مابناها والأرض وماطحاها و نفس وما سوّاها»(١) وكذلك «ولاأنتم عابدون ماأعبد»(٢)

---

(١) الشمس : ٥ ٧ .

(٢) الجحد : ٣ .

ولاشكّ أنّ المراد بكلمة « ما » هوالله سبحانه .

والوجه الثاني أنّ قوله : «وهوالله في السماوات» إمّا أن يكون المراد منه أنّه موجود ومتمكّن في جميع السماوات أوالمراد أنّه موجود في سماء واحدة ، والثاني ترك للظاهر والاوّل على قسمين لأنّه إمّا أن يكون الحاصل منه تعالى في أحدالسماوات عين ماحصل منه في سائر السماوات أو غيره ، والأوّل يقتضي حصول المتحيّز الواحد في مكانين وهوباطل ببديهة العقل و الثاني يقتضي كونه مركّباً من الأبعاض والأجزاء وهو باطل .

والوجه الثالث أنّه لو كان موجوداً ومتمكّناً في السماوات لكان محدوداً متناهياً ، وماكان كذلك كان قبوله للزيادة والنقصان ممكناً ، وكلّ ماكان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعيّن لتخصيص مخصّص وتقدير مقدّر وكلّ ماكان كذلك فهو محدث .

والدليل الرابع على بطلان قولهم أنّه تعالى قال : «وهو معكم أينما كنتم» وقال : « نحن أقرب إليه من حبل الوريد » (١) وقال : «وهوالّذي في السماء إله و في الأرض إله» وكلّ ذلك تبطل القول بالمكان

قيل : إنّ إمام الحرمين اُستاذ الإمام الغزّالي نزل ببعض الأكابر ضيفاً فاجتمع عنده العلماء فقام واحد من أهل المجلس فقال: ما الدليل على تنزّهه عن المكان وهو قال : «الرحمن على العرش استوى » ؟ فقال : الدليل عليه قول يونس : في بطن الحوت : « لااله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » (٢) فتعجّب منه الناظرون فالتمس صاحب الضيافة بيانه فقال الإمام : إنّ ههنا فقيراً مديوناً بألف درهم ، أدّ عنه دينه حتّى اُبيّنه فقال صاحب الضيافة : عليّ دينه فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا ذهب في المعراج إلى ماشاءالله قال هناك : لا اُحصي ثناءعليك أنت كماأثنيت على نفسك ، ولمّا ابتلى يونس بالظلمات في قعرالبحر ببطن الحوت قال : لااله إلّاأنت فكلّ منهما خاطبه بقوله «أنت» وهوخطاب الحضور ولو كان هوفي مكان لماصحّ ذلك فدلّ ذلك على أنّه ليس في مكان .

---

(١) ق : ١٥ .

(٢) الانبياء ٨٧ .

قوله تعالى : وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الاكانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون (٥) .

«ما» نافية «ومن» الأولى لاستغراق الجنس الّذي يقع في النفي كقولك : ما أتاني من أحد ، و«من» الثانية للتبعيض . أخبر سبحانه عن أحوال الكفّار المذكورين في أوّل الآية فقال : لاتأتيهم حجّة من حججه وبيّناته من المعجزات [إلّا كانوا عنها معرضين] لايقبلونهما ولا يستدلّون لها من التوحيد وصدق رسوله [فقد كذّبوا بالحقّ] رتّب وشرح أحوالهم مراتب ، الأدنى : كونهم معرضين عن التامّل والنظر في الدلائل، والمرتبة الثانية كونهم مكذّبين بها لأنّ المعرض عن الشيء قد يكون غير مكذّب به، والمرتبة الثالثة: يستهزؤون لها لأنّ المكذّب بالشيء قد يكون لايبلغ تكذيبه به إلى حدّ العناد والاستهزاء فبيّن سبحانه أنّهم على هذا الترتيب أحوالهم . والمراد بالحقّ في الآية أنّه المعجزات قال ابن مسعود : المراد : انشقاق القمر . و قيل : القرآن . وقيل: إنّه محمّد صلّى الله عليه وآله وقيل: إنّه الشرع الذي أتى به الرسول وقيل : إنّه الوعد والوعيد الّذي يرغّبهم به تارة ويرهّبهم ويحذّرهم به أخرى والأولى شمول الكلّ . والمراد من الأنباء العذاب الّذي أنبأ الله به لانفس الأنباء . ومعنى الاستهزاء قال الزجّاج: إيهام التفخيم في معنى التحقير .

قوله تعالى : الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦) .

ثمّ حذّرهم سبحانه ما نزل بالأمم قبلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ، و أجرى كلامه مجرى الموعظة والنصيحة فقال سبحانه : [ألم يروا] الهمزة للإنكار لتقرير الرؤية و الرؤية عرفانيّة متعدّية بمفعول واحد والضمير لأهل مكّة أي ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار المتواترة [كم] عبارة عن الأشخاص استفهامية كانت أو خبريّة [أهلكنا من قبلهم] أي من خلق أهل مكّة وأهل زمانهم من قرن و عصر من الأعصار ، سمّوا بذلك لاقترانهم ببرهة من الدهر قال صلّى الله عليه وآله : خير القرون قرني ثمّ

الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم . وقيل : القرن عبارة عن مدّة من الزمان ثمانين سنة أو سبعين ، أو ستّين ، أو أربعين ، أو مائة .

ومنشأ هذا الاختلاف في معنى القرن بسبب اختلاف الأعمار في الأدوار والأزمنة فعلى هذا المضاف محذوف ،أي أهل قرن ؛ لأنّ نفس الزمان لا يتعلّق به الهلاك فالمدّة الّتي يجتمع فيها قوم ثمّ يتفرّقون بالموت فهي قرن لأنّ الّذين يأتون بعدهم اقترنوا بالّذين مضوا .

[مكّناهم في الأرض] وتمكين الشيء في الأرض جعله قارّاً فيها ومكّن استعمل باللّام وبدون اللام مثل قوله تعالى : [مالم نمكّن لكم] أي أعطيناهم مالم نعطكم من العمر والمال وغيره [وأرسلنا السماء] أي المطر والغيث [عليهم مدراراً] والمدرار الكثير الجري والصبوب وهو حال من السماء صيغة مبالغة كمفضال [و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم] أي من تحت أشجارهم وقصورهم وأبياتهم [فأهلكناهم بذنوبهم] أي أهلكت كلّ قرن من تلك القرون بسبب ما يخصّهم من الذنوب [وأنشأنا من بعدهم] و أحدثنا من بعد إهلاك كلّ قرن [قرناً آخرين] بدلاً من الهالكين وهو بيان كمال قدرته وسعة سلطانه و أنّ إهلاكهم لم ينقص من ملكه و قدرته شيئاً بل كلّما أهلك اُمّة أنشأ عوضها اُخرى .

وفي تفسير روح البيان عن أبي الدرداء أنّه قال : إنّ لله عباداً يقال لهم الأبدال لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة الصوم والصلاة وحسن الحلية ولكن بلغوا بصدق الروع وحسن النيّة و سلامة الصدر و الرحمة للمؤمنين اصطفاهم الله بعلمه و استخلصهم لنفسه ، و هم أربعون رجلاً على مثل قلب إبراهيم لا يموت الرجل منهم حتّى يكون الله قد أنشأ من يخلفه و قد قيل في حقّهم : إنّهم لا يؤذون من تحتهم ولا يحقّرونه و لا يحسدون من فوقهم أطيب الناس خبراً ، وألينهم عريكة ، و أسخاهم نفساً لا تسبقهم الخيل المجراة ، و لا الرياح العواصف فيما بينهم و بين ربّهم ، إنّما قلوبهم تصعد في الصفوف العلى ارتياحاً الى الله في استباق الخيرات اُولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون .

قوله تعالى : ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين (٧) .

نزلت الآية في النضر بن الحارث و عبد الله بن اُميـة و نوفل بن خويلد قالوا : يا محمد لن نؤمن لك حتـى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنـه من عند الله وأنـك رسوله، عن الكلبي .

المعنى: أخبر الله سبحانه عن جحودهم [ولو نزّلنا عليك] يا محمد [كتاباً] مصدر بمعنى مفعول أي مكتوباً في رقّ وصحيفة وقيل : كتاباً معلّقاً من السماء إلى الارض ، عن ابن عبّاس [فلمسوه بأيديهم] أي فعاينوا ذلك معاينة و مسّوه . واللّمس باليد أبلغ في الإحساس من المعاينة فلذلك قال «فلمسوه» دون أن يقول : فعاينوه [لقال الّذين كفروا إن هذا الّا سحر مبين] لقال الكفّار عناداً بعد ظهوره كما هو دأب المحجوج اللّجوج :ما هذا الكتاب إلّا السحر الظاهر . قال الطبرسيّ : وفي هذه الآية دلالة على مايقول أهل العدل في اللّطف لأنّه بيّن أنّه لم يفعل ما سألوه حيث علم أنّهم لايؤمنون عنده .

قوله تعالى : وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون (٨) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون (٩) و لقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا يستهزءون (١٠) .

أخبر سبحانه تعالى عن حالهم مايقولون في إنكار نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم والضمير في «عليه» للنبيّ أي هلّا اُنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلّمنا أنّه نبيّ [ولو أنزلنا ملكاً] على هيئته حسبما اقترحوه - والحال أنّه من هول المنظر بحيث لايطيق مشاهدته قوى الآحاد البشريّة - [لقضي الأمر] أي هلاكهم بالكلّيّة ، والقضاء في اللّغة على ضروب كلّها يرجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه .

و ذلك لأنّ إنزال الملك آية باهرة فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء فربّما لم يؤمنوا و إذا لم يؤمنوا وجب عليهم عذاب الاستئصال فانّ سنّة الله جارية بأنّ عند ظهور الآية الباهرة إن لم يومنوا جاءهم عذاب الاستئصال كناقة صالح مثلاً ، فما أنزل الله الملك لهذه الحكمة ؛ أو أنّهم إذا شاهدوا الملك بصورته

زهقت أرواحهم من هول مايشاهدون ؛ ألاترى أنّ أشرف الخلق لمّا راى جبرئيل على صورته الأصليّة غشي عليه ؟ أماترى أنّ جميع الرسل ماعاينوا الملائكة إلّا بصورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط وكالّذين تسوّرا المحراب ، وكجبرئيل حيث تمثّل لمريم بشراً سويّاً . والوجه الثالث أنّ إنزال الملك آية جارية مجرى الإلجاء وإزالة الاختيار وذلك مخلّ بصحّة التكاليف .

[ثمّ لاينظرون] أي لايمهلون بعد نزوله طرفة العين [ولوجعلناه ملكاً] أي لوجعلنا الرسول ملكاً والّذي ينزل عليه ليشهد بالرسالة كما يطلبون ذلك [لجعلناه رجلاً] لأنّهم لايستطيعون أن يروا الملك في صورته لأنّ أعين الخلق يحار عن رؤية الملائكة إلّا بعد التجسّم بالأجسام الكثيفة [وللبسنا عليهم مايلبسون] أي إذا امتنع إرسال الملك للجهات الّتي بيّنّا من أنّ رؤية الملك غير ممكنة وأرسلناه بصورة البشر فهم يظنّون كون ذلك الملك بشراً فيعود سؤالهم بأنّا لا نرضى برسالة هذا الشخص ولو أنّا فعلنا هكذا بأن نبعث الملك بصورة البشر لصار فعل الله نظيراً لفعلهم في التلبيس و يبقون في اللبس والشبهة الّتي كانوا فيها وقيل : معنى قوله : «وللبسنا عليهم ما يلبسون» أي ولو أنزلنا ملكاً لما عرفوه إلّا بالتفكّر وهم لا يتفكّرون فيبقون في اللبس الّذي كانوا فيه فأضاف اللبس إلى ذاته لأنّه يقع عند إنزاله الملائكة .

ثمّ قال على سبيل التسلية لنبيّه من تكذيب المشركين إيّاه و إستهزائهم فقال : [و لقد استهزء برسل من قبلك] أي لقد استهزءت الأمم الماضية برسلها كما استهزأ بك قومك فلست بأوّل رسول استهزء به [فحاق بالّذين سخروا منهم] أي فحلّ بالساخرين منهم من وعيد أنبيائهم بالعقاب في الدنيا و قيل : أحاط بهم العذاب الّذي كان توعّدهم به نبيّهم إن لم يؤمنوا و حاصل المعنى : أحاط بهم العذاب الّذي كان يسخرون بوقوعه . والحيق : مايشمل على الإنسان من مكروه فعله ويجوز أن يكون المراد من «ما» عبارة عن القرآن والشريعة في قوله : «ما كانوا به يستهزؤون فتصير» هذه الآية من باب حذف المضاف والتقدير : فحاق بهم عقاب [ماكانوا به يستهزؤون] .

قوله تعالى : قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين(١١)

قل لمن ما في السموات والارض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيمة لاريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢) وله سكن ما في الليل و النهار وهو السميع العليم (١٣) .

[قل] يا محمد لهؤلاء الكفار المكذبين : [سيروا في الأرض] وسافروا [ثم انظروا] بأبصاركم وتفكروا بقلوبكم [كيف] صار وآل عاقبة أمر المكذبين المستهزئين ، وإنما أمرهم بذلك لأن ديار المكذبين من الامم السالفة كانت باقية و أخبارهم في الخسف والهلاك كانت شايعة فإذا سار هؤلاء في الأرض وسمعوا أخبارهم وعاينوا آثارهم دعاهم ذلك إلى الإيمان وزجرهم عن التكذيب والطغيان .

ثم قال : [قل] يا محمد لهؤلاء الكفار : [لمن ما في السماوات والأرض] أالله الذي خلقهما أم للأصنام ؟ فإن أجابوك فقالوا : لله وإلا [فقل] أنت :[لله] .

و في تصدي السائل للجواب قبل أن يجيب غيره إيماء إلى أن مثل هذا السؤال لكون جوابه متعيناً ليس من حقه أن ينتظر جوابه بل حقه أن يبادر إلى الاعتراف بالجواب ولزوم الحجة ؛ ولهذه الجهة أمر الله نبيه بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياًو هذا يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ولا يقدر على دفعه دافع .

والمقصود من تقرير هذه الآية تحذير الكفار وتقرير إثبات الصانع الأحد ، وتقرير النبوة والمعاد ؛ وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام مملوك لله وهو المالك والملك المطاع المتصرف ، له الأمر والنهي على مملوكه وعبيده ، والامر لابد له من مبلغ وذلك يلزم بعثة المبلغ والرسول من جانبه تعالى إلى الخلق ولما كان الكل تحت قدرته وسلطنته فهو قادر على إيجاده و إفنائه وإعادته والآية مقررة لجميع هذه الأمور .

[كتب على نفسه الرحمة] أي أوجب على ذاته الرحمة وأوجبه إيجاب الفضل والكرم و اختلفوا في المراد بهذه الرحمة فقال بعضهم : المراد من الرحمة هي أنه تعالى يمهلهم مدة عمرهم ويرفع عنهم عذاب الاستئصال ولا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا وهذا لأمة محمد ،

وقيل : إنّ المراد أنّه كتب على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسل وتاب وأناب وصدّق شريعتهم ؛ وفي الحديث ورد أنّه ﷺ قال : لمّا فرغ الله من الخلق كتب كتاباً إنّ رحمتي سبقت غضبي .

فإن قيل : الرحمة إرادة الخير والغضب إرادة الانتقام وظاهر هذا الحديث يقتضي كون إحدى الإرادتين سابقة على الأخرى والمسبوق بالغير محدث فهذا يقتضي كون إرادة الله محدثة ؛ فالجواب أنّ المراد بهذا السبق الكثرة لا سبق الزمان ، قاله الرازيّ ، وعن سلمان أنّه تعالى لما خلق السماوات والأرض خلق مائة رحمة كلّ رحمة ملء ما بين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة وقسّم رحمة واحدة بين الخلائق فبها يتعاطفون و ويتراحمون فإذا كان آخر الأمر قصّرها على المتّقين .

قوله : [ليجمعنّكم إلى يوم القيامة] اللام لام قسم مضمر أي والله ليجمعنّكم واختلفوا في أنّ قوله «ليجمعنّكم» ابتداء كلام أو متعلّق بما قبله ؟ فقال بعض المفسّرين : إنّه ابتداء كلام وقالوا : إنّه تعالى بيّن كمال إلهيّته بقوله : «قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله» ثمّ بيّن أنّه يرحمهم في الدنيا بالإمهال و بيّن أنّه يجمعهم إلى يوم القيامة ولا يهملهم بل يحشرهم ويحاسبهم على كلّ ما فعلوا ، وقيل : إنّه متعلّق بما قبله ، والتقدير : كتب ربّكم على نفسه الرحمة و كتب على نفسه ليجمعنّكم إلى يوم القيامة . وقيل : البيان يفيد هذا المعنى وهو أنّه لمّا قال : « كتب ربّكم على نفسه الرحمة» فكأنّه قيل : وما تلك الرحمة ؟ فقيل : إنّه ليجمعنّكم وذلك لأنّه لولا خوف العذاب من يوم القيامة لحصل الهرج والمرج ولارتفع الضبط و كثر الخبط ،فصار التهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب الرحمة في الدنيا فيكون قوله : «ليجمعنّكم» كالتغيير كقوله: «كتب ربّكم على نفسه الرحمة».

و«إلى» في الآية بمعنى «في» وقيل : إنّها صلة فالتقدير ليجمعنّكم يوم القيامة وقيل : فيه حذف أي ليجمعنّكم إلى المحشر في يوم القيامة لأنّ الجمع يكون إلى المكان لا إلى الزمان وقيل : المعنى ليجمعنّكم في الدنيا بخلقكم قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة [لا ريب فيه] ولا شكّ أنّه واقع لامحالة .

قوله : [الّذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون] قال الأخفش : «الّذين» موضعه نصب على البدليّة من الضمير في «ليجمعنّكم» والمعنى : ليجمعنّ هؤلاء الّذين خسروا أنفسهم و قال الزجّاج : إنّ قوله : «الّذين خسروا أنفسهم» رفع بالابتداء وقوله «فهم لايؤمنون» خبره ؛ لأنّ قوله «ليجمعنّكم» مشتمل على الكلّ على الّذين خسروا وعلى غيرهم، فالّذين خسروا أنفسهم هم الّذين لايؤمنون بتضييع رأس مالهم و هو الفطرة الأصليّة الّتي فطر الناس عليها .

فإن قيل : كيف يحذّر المشركين بالبعث والنشور وهم لايصدّقون به ؟ فالجواب أنّه جار مجرى الإلزام بسبب ذكر الدليل .

فان قيل : كيف نفى الريب مطلقاً و الكافر منكر أو مرتاب بعضهم؟ فالجواب أنّ الحقّ حقّ وإن ارتاب المبطل فإنّ الدليل حكم بالسمع والعقل أنّ التمكين من الظلم من غير انتصاف إمّا في العاجل أو في الآجل قبيح فوجب أن يكون دار اُخرى وينتصف المظلوم من الظالم .

[وله ما سكن في الليل والنهار] أي كلّ متمكّن ساكن خلقاً وملكاً وذكر في السابق السماوات والأرض وهنا اللّيل والنهار لأنّ الأوّل مجمع المكان و الثاني مجمع الزمان وهما ظرفان لكل موجود فكأنّه تعالى أراد الأجسام والأعراض وإنّما ذكر الساكن دون المتحرّك لأنّ عاقبة التحرّك السكون والساكن أعمّ وأكثر من المتحرّك أو أنّ المراد الساكن والمتحرّك ؛ والتقدير : ماسكن وما تحرّك إلّا أنّ العرب قد يذكر أحد وجهي الشيء ويحذف الآخر بسبب أنّ المذكور ينبّه عن المحذوف كقوله: «سرابيل تقيكم الحرّ»(١) والمراد الحرّ والبرد .

والمراد من الآية باختصاص الذكر في المخلوقات بالسكون والحركة من بين سائر كيفيّاتها التنبيه على حدوث العالم و إثبات الصانع لأنّ كلّ جسم لاينفكّ من الحوادث الّتي هي الحركة والسكون فإذا لابدّ من محرّك ومسكّن لاستواء الوجهين في الجواز والإمكان فلا بدّ من وجود المخصّص بأحدهما دون الآخر وقيل: المراد من السكون الحلول كما يقال : فلان يسكن بلد كذا .

(١) النحل : ٨٣ .

وعلى هذا يعمّ كلّ ما خلق .

و لمّا ثبت بالبيان و الأدلّة ثبوت الصانع و وجوب ذاته عقّبه بذكر صفته .

فقال : [وهو السميع العليم] والسميع هو الّذي على صفة يصحّ لأجلها أن يسمع المسموعات إذا وجدت وهو كونه حيّاً لا آفة به ولذلك يوصف به فيما لم يزل، والعليم هو العالم بوجوه التدبير والأمر في خلقه وبكلّ ما يصحّ أن يعلم .

قيل في سبب نزول هذه الآية : إنّ كفّار مكّة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : قد علمنا أنّك ما يحملك على ماتدعونا اليه إلّا الفقر والحاجة ، فنحن نجمع لك من القبائل أموالاً تكون أغنانا رجلاً وترجع عمّا أنت عليه من الدعوة فنزلت : «وله ماسكن، الآية » وقيل : إنّ شأن النزول في الآية الّتي بعد هذه الآية وهي «قل أغير الله» وهو الأقرب .

قيل في سبب تقديم الّليل في الذكر : لشرافة الليل مع أنّ النهار مضيء والليل مظلم، وفي الخبر أنّ الله تعالى خلق جوهرتين أحدهما مظلمة و الآخر مضيئة، فاستخلص من المضيئة كلّ نور فخلق من نورها النهار ومن الباقي النار، و استخلص من الظلمة كلّ ظلمة فخلق منها الّليل وخلق من الباقي الجنّة ؛ فالّليل من الجنّة والنهار من النار ولذلك كان الأنس بالليل أكثر والّليل اُنس المحبّين وقرّة أعين المخلصين ، و الّليل لخدمة المولى والنهار لخدمة الخالق ، ومعراج النبيّ ﷺ كان بالّليل والقدر في الّليل و هي خير من ألف شهر و كان بعض الأولياء يقول : إذا جاء الّليل جاء الخلق الأعظم .

قال : الحقّي في تفسيره : وفي الخبر عن سلمان رضي الله عنه قال : الّليل موكّل به ملك يقال له شراهيل فإذا حان وقت الّليل أخذ خرزة سوداء فدلّاها من قبل المغرب فإذا نظرت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفة العين وقد اُمرت أن لاتغرب حتّى ترى الخرزة ، فإذا غربت جاء الّليل وقد نشرت الظلمة من تحت جناحي ملك فلاتزال الخرزة معلّقة حتّى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلّقها من قبل المطلع فإذا رأتها الشمس طلعت في طرفة عين وقد اُمرت أن لاتطلع حتّى ترى الخرزه

البيضاء فإذا طلعت جاء النهار فنشر النور من تحت جناحي ملك فلنور النهار ملك موكّل ولظلمة الليل ملك موكّل عند الطلوع والغروب انتهى .

قوله تعالى : قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات والارض و هو يطعم ولا يطعم قل اني امرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٤) قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) .

قال ابن عبّاس : ماكنت أدري معنى الفاطر حتّى احتكم إليّ أعرابيّان في بئر فقال أحدهما: أنافطرتها أي ابتدءت حفرها وأصل الفطر الشقّ ومنه إذا السماء انفطرت أي انشقّت . قال الزجّاج : فإن قال قائل : كيف يكون الفطر في معنى الخلق و الانفطار بمعنى الانشقاق ؟ قيل : إنّهما يرجعان إلى شيء واحد لأنّ معنى فطرهما خلقهما خلقاً قاطعا .

المعنى: [قل] يامحمّد لكفّار مكّة ونزلت حين دعوه إلى الشرك ودين قومه [أغير الله أتّخذ وليّاً] ومعبوداً فعلى هذا يكون شأن نزول الآية السابقة في هذه الآية أولى وقد ذكره الحقّيّ في شأن الآية السابقه وأظنّه وهاًمنه . و«غير» منصوب على المفعول الأوّل لا تّخذو «وليّاً» مفعول ثان، أي لاأتّخذ غير الله ربّاً وإلهاً [فاطر السماوات والأرض] مبدعهما ابتداء لاعلى مثال سبق وهو يدلّ على الجلالة [و هو] والحال أنّه [يطعم و لا يطعم] أي يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدّة الحاجة إليه .

[قل إنّي اُمرت أن أكون أوّل من أسلم] وجهه لله مخلصاً له لأنّ النبيّ إمام اُمّته في الإسلام [ولا تكوننّ من المشركين] وقيل لي : لاتكوننّ من المشركين به في أمر من اُمور الدين ،وحاصل المعنى : اُمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك قال الرازيّ : ويجوز أن يكون المعنى في قوله : «وهو يطعم ولا يطعم» أن يكون وهو يطعم تارة ولا يطعم اُخرى على حسب المصالح كقوله : يعطي ويمنع ويبسط ويقدر و يغني ويفقر . وحقيقة الإسلام الإخلاص من حبس الوجود وماخلص منه غيره ﷺ بالكلّيّة ولهذا يقول الأنبياء : نفسي نفسي وهو يقول : اُمّتي اُمّتي وهذا هو السرّ في تفاوت المثوبات .

[قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي] بمخالفة أمره ونهيه أيّ عصيان كان [عذاب يوم

عظيم] أي عذاب يوم القيامة وفيه تعريض بأنّهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم .

قوله تعالى: من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك هو الفوز المبين(١٦).

أي من يصرف عنه العذاب في ذلك اليوم العظيم و«يومئذ» ظرف المصرف [فقد رحمه] أي نجّاه وأنعم عليه [وذلك] الصرف [الفوز المبين] والنجاة الظاهرة، قال الطبرسيّ : ويحتمل أن يكون معنى الآية أنّه لا يصرف العذاب عن أحد إلّا برحمة الله كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : والّذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنّة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمته و فضله و وضع يده على فوق رأسه وطوّل بها صوته رواه الحسن في تفسيره .

قوله تعالى : وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير(١٧) وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير(١٨).

دليل آخر على أنّه لا يجوز للإنسان أن يتّخذ غير الله وليّاً وإن يمسسك ببليّة أو فقر أو مرض فلا قادر على كشفه ولا مفرّج له عنك إلّا هو تعالى ولا يملك كشفه سواه ممّا يعبده المشركون [وإن يمسسك بخير] و يصبك بغنى أو سعة في الرزق أو صحّة أو شيء من محابّ الدنيا [فهو على كلّ شيء قدير] فكان قادراً على إدامته ولا رادّ لفضله .

[وهو القاهر] القادر الّذي لا يعجزه غيره ، وهو قادر على أن يقهر غيره و هو مستعل [فوق عباده] بالقدرة والإحاطة [وهو الحكيم] في كلّ ما يفعله [الخبير] بأفعال عباده وعبّر قدرته وقهره وعلوّ شأنه بالعلوّ الحسّيّ وعبّر عنه بالفوقيّة بطريق الاستعارة التمثيليّة فإنّه تعالى يقهر المعدومات بالإيجاد والتكوين والموجودات بالإفناء والإعدام لا من حيث المكان لعلوّ شأنه عن ذلك .

قوله تعالى: قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني و بينكم واوحى الى هذا القرآن لا نذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله الهة اخرى قل لا أشهد قل انما هو اله واحد وانني برىء مما تشركون (١٩) الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (٢٠) .

النزول: قال الكلبيّ: أتى أهل مكّة رسول الله فقالوا : أما وجد الله رسولاً غيرك؟ ما نرى أحداً يصدّقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنّك رسول الله كما تزعم فأنزل الله هذه الآية .

[قل] يا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لهؤلاء الكفّار : [أيّ شيء أكبر شهادة] وأعظم وأصدق حتّى آتيكم به وأدلّكم بذلك على أنّي صادق ؟ وقيل : معناه : أيّ شيء أكبر شهادة حتّى يشهد لي بالبلاغ وعليكم بالتكذيب ، عن الجبّائيّ . وقيل : معناه أيّ شيء أعظم حجّة وأصدق شهادة، عن ابن عباس ، فإن قالوا : الله وإلّا فقل لهم : [الله شهيد بيني و بينكم] يشهد لي بالرسالة والنبوّة لأنّه أوحى إليّ هذا القرآن و هو معجزة لأنّكم أنتم الفصحاء و البلغاء و قد عجزتم عن معارضته فإذا كان إظهار الله إيّاه على وفق دعواي شهادة من الله على كوني صادقاً في دعواي ، والحاصل أنّهم لمّا طلبوا شاهداً مقبول الحجّة يشهد على نبوّته سبحانه أنّ أكبر الأشياء شهادة هو الله و شهد له بالنبوّة ، و هو المراد من قوله :

[وأُوحي إليّ هذا القرآن لأُنذركم به] و لأُخوّفكم بما فيه من الوعيد أيّها الموجودون وقت نزول القرآن [ومن بلغ] عطف على ضمير المخاطبين في «لأُنذركم» أي ومن بلغه القرآن من الإنس والجنّ إلى يوم القيامة . والعائد محذوف أي ومن بلغه القرآن وقيل : معنى من بلغ أي من احتلم و بلغ حدّ التكاليف فعلى هذا لايحتاج إلى العائد ، و هو قول ضعيف ؛ قال محمد بن كعب القرطبيّ من بلغه القرآن فكأنّما رأى محمداً وسمع منه ، قال أهل التفسير : وفي قوله : [ومن بلغ] دلالة على أنّه مبعوث إلى الكافّة .

ثمّ قال توبيخاً لهم : [قل] يا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - [أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أُخرى] استفهام معناه الجحد والإنكار، وإلجاء لهم إلى الإقرار بإشراكهم أو لاسبيل لهم إلى الإنكار لاشتهارهم وإذعانهم بهذا الشرك ، أي و كيف تشهدون أنّ مع الله آلهة أُخرى بعد وضوح الحجّة بوحدانيّته ؟ [قل] لهم : [لاأشهد] بذلك فإنّه باطل .

[قل إنّما هو إله واحد] تكرير الأمر للتاكيد أي بل إنّما أشهد أنّه تعالى متفرّد بالأُلوهيّة [وإنّني بريء ممّا تشركون] من إشراككم ومن تعدّد الآلهة قال أهل العلم:

ينبغي ويستحبّ لمن أسلم بل للمسلم أن يأتي بالشهادات و يتبرّء من كلّ دين سوى الإسلام .

ثمّ ذكر سبحانه أنّ الكفّار بين جاهل ومعاند فقال : [الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما أبناءهم] المراد بالموصول اليهود و النصارى و بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل يعرفون محمّداً بحليته ونعوته في كتابهم كما يعرفون أولادهم روي أنّ رسول‌الله لما قدم المدينة قال عمر لعبدالله بن سلام : أنزل الله على نبيّه هذه الآية فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبدالله : ياعمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني وأنا أشدّ معرفة بمحمّد منّي بابني لأنّي لاأدري ماصنع النساء ، وأشهد أنّه حقّ من الله تعالى .

[الّذين خسروا أنفسهم] أي غبنوا أنفسهم من أهل الكتابين و المشركين بأن ضيّعوا فطرة الله وأعرضوا عن البيّنات الموجبة للإيمان وهو مبتدأ خبره قوله : [فهم لا يؤمنون] والفاء السببية تدلّ على أنّ تضييع الفطرة الأصليّة سبب لعدم الإيمان وذلك أنّ الله جعل لكل آدميّ منزلاً في الجنّة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولاهل النار منازل أهل الجنّة في النار و ذلك هو الخسران .

قوله تعالى : ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب باياته انه لايفلح الظالمون (٢١) ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون (٢٢) .

المعنى : [ومن اظلم ممّن افترى على الله] لوصفهم محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم المبعوث في الكتابين بخلاف أو صافه فإنّ تحريف أو صافه صلّى الله عليه وآله وسلّم افتراء على الله و كذلك بقولهم: الملائكة بنات الله أي لاأحد أظلم منه [أو كذّب بآياته] مثل أن كذّبوا بالقرآن وبالمعجزات وسمّوها سحراً وحرّفوا بعض أحكام التوراة وغيّروا نعوته صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّ كلّ ذلك تكذيب بآياته . وكلمة «أو» للإيذان بأنّ كلاًّ من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم، كيف وهم قدجمعوا فأثبتوا مانفاه الله و نفوا ماأثبته ؟.

[إنّه] ضمير الشأن [لايفلح الظالمون] ولا ينجحون من مكروه ولا يفوزون

بمطلوب وإذا كان حال الظالمين هذا فما ظنّك بمن في غاية التناصية من الظلم ؟ [ويوم نحشرهم] وقرء بالياء والحشر جمع الناس إلى موضع معلوم والضمير للكلّ [وجميعاً] حال للضمير أي ويوم نحشر الناس جميعاً كلّهم [ثمّ نقول] للمشركين خاصّة للتوبيخ والتقريع على على رؤوس الأشهاد [أين شركاؤكم] و العطف بثمّ للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في الموقف فإنّ فيه مواقف بين كلّ موقف وموقف تراخ على حسب طول ذلك اليوم، أين آلهتكم الّتي جعلتموها شركاء لله؟ والإضافة مجازيّة باعتبار إثباتهم الشركة في العبادة لآلهتهم [الّذين كنتم تزعمون] أي الشركاء الّذين تزعمون أنّها شركاء وشفعاء . و الزعم القول الباطل والكذب في أكثر استعمال .

قيل : لكلّ شيء لقب ولقب الكذب الزعم ، وتقدير الكلام أنّ ذلك اليوم بعد ذلك القول للمشركين كان من الأحوال و الأهوال مالا يحيط به دائرة المقال .

ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا الفتنة مرفوع على أنّه اسم «تكن» والخبر «إلّا أن قالوا» والفتنة إمّا كفرهم يراد به عاقبة أي لم تكن عاقبة كفرهم الّذي التزموه في الدنيا بأن يقولوا: **والله ربنا ما كنا مشركين(٢٣)** وقرء ربّنا بالنصب بإضمار أعني أو على النداء أي والله يا ربّنا . وقرأ الباقون بكسر الباء على أنّه صفة لله تعالى وبالجملة حلفوا أنّهم ما كانوا مشركين ووجه السؤال في الآية لأنّهم لمّا رأو تجاوز الله عن أهل التوحيد قال بعضهم لبعض : إذا سألتم فقولوا إنّا موحّدون فلمّا جمعهم الله قال : أين شركاؤكم؟ ليعلموا أنّ الله يعرف شركهم في الدنيا وأنّه لا ينفعهم الكتمان وهم أنكروا الشرك وحلفوا فلعلّ لمّا رأوا معاملة الله مع أهل التوحيد قالوا : «ما كنّا مشركين» .

قال ابن عباس وقتادة : إنّ المعنى في قوله : «لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا» أي لم يكن معذرتهم إلّا أن قالوا : والله ربّنا ما كنّا مشركين وهو المرويّ عن الصادق، ويجوز أن يكون الفتنة افتتانهم بالأوثان والشرك كما قال ابن عبّاس : فتنتهم يريد شركهم في الدنيا وهذا القول يرجع إلى حذف المضاف ، فحينئذ المعنى : لم يكن عاقبة فتنتهم إلّا البراءة منها وهذا المعنى قريب من القول المرويّ عن الصادق .

وقال الزجّاج في معنى الآية : إنّه لمّا ذكر أمر المشركين و أنّهم مفتونون

بشركهم أخبر في هذه الآية أنّه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلّا أن تبرّؤوا منه وانتفوا منه فحلفوا أنّهم ما كانوا مشركين قال الزجّاج : وهذا المعنى حسن شائع لايعرف تأويله إلّا من عرف معاني الكلام و تصرّف العرب في ذلك ، و مثاله أن ترى إنساناً يحبّ رجلاً مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تباعد و تبرّأ منه فيقال له : ما كانت محبّتك لفلان إلّا أن أتقنت منه .

فإن قيل: إنّ كلّ الناس ملجؤون في الآخرة بترك القبيح لمشاهدته الحقائق ولمعرفتهم بالله ضرورة فكيف يجوز لهم أن يكذّبوا ؟ الجواب أنّ معناه ما كنّا مشركين في اعتقادنا وهم يعتقدون في الدنيا كونهم مصيبين فيحلفون على هذا ، فعلى هذا يكون قولهم و حلفهم بزعمهم يقعان على وجه الصدق . وقيل وجه آخر وهو أنّهم إنّما يحلفون على ذلك لزوال عقولهم بما يلحقهم من الدهشة من أهوال يوم القيامة .

انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون(٢٤) المعنى : يقول الله عند حلف هؤلاء انظر يا محمد كيف يفترون على أنفسهم وهذا وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد التنبيه على التعجّب منهم وحاصل المعنى : انظر إلى إخباري عن افترائهم كيف هو بأنّه لايمكن النظر إلى ما يوجد في الآخره وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ، المراد أوثانهم الّتي كانوا يعبدونها ويفترون الكذب بقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله غداً فذهبت عنهم فلم ينتفعوا بها ، أو هو عامّ في كلّ ما يعبد من دون الله أنّها تضلّ عن عابديها يوم القيامة ولا يغني عنهم شيئاً واختلف في أنّ أهل الآخرة هل يجوز أن يقع منهم الكذب أم لا ؟ قيل: يجوز ذلك لما يلحقهم من الحسرة و الدهش في القيامة لكن بعدما استقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار لا يجوز أن يقع منهم القبيح و به قال أبو بكر الاخشيديّ وأصحابه وقال بعضهم : إنّه لايجوز وقوعه منهم على جميع الأحوال .

قوله تعالى : ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراوان يروا كل آية لايؤمنوا بهاحتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين (٢٥) .

النزول : قيل : إنّ نفراً من مشركي مكّة منهم النضر بن الحرث و أبوسفيان

ابن الحرب والوليدبن المغيرة وعتبةبن ربيعة و أخوه شيبة وغيرهم جاسوا إلى رسول الله ﷺ و هو يقرء القرآن فقالوا للنضر : ما يقول محمد ﷺ ؟ فقال النضر : أساطير الأوّلين مثل ماكنت أحدّثكم عن القرون الماضية فأنزل الله هذه الآية فقال :

[ومنهم]أى ومن الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم [من يستمع إليك] أي يستمعون إلى كلامك إذا قرأت القرآن [و جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه و في آذانهم وقراً] وقد مرّ شرح هذا العنوان في سورة البقرة عند قوله : « ختم الله على قلوبهم و على سمعهم ، الآية » قال القاضي أبو عاصم العامريّ : أصحّ الأقوال فيه ما روي أنّ النبيّ ﷺ كان يصلّي بالليل ويقرء القرآن في الصلاة جهراً رجاء أن يستمع إلى قراءته إنسان من قريش أو غير قريش فيتدبّر في معانيه و يؤمن به ، فكان المشركون إذا سمعوه آذوه و منعوه عن الجهر بالقراءة فكان الله تعالى يلقي عليهم النوم أو يجعل في قلوبهم أكنّة ليمتنعوا عن أذاه ﷺ ويقطّعهم عن مرادهم وذلك بعد أن بلغهم مايقوم به الحجّة وينقطع به المعذرة وأسمعهم،وبعدماعلم الله سبحانه أنّهم لا ينتفعون بسماعه ولا يؤمنون فشبّه إلقاء النوم بجعل الغطاء على قلوبهم وبوقر آذانهم وهذا معنى قوله : «و إذاقرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً» (١) وهو قول أبي عليّ الجبّائيّ أيضاً .

ويجوز أن يكون سمّى الكفر الّذي في قلوبهم تشبيهاً ومجازاً وقراً و أكنّة توسّعاً لأنّ مع الكفر والإعراض لايحصل الإيمان والفهم كما لا يحصلان مع الكنّ والوقر . ونسب ذلك إلى ذاته لأنّه الّذي شبّه أحدهما بالآخر كما يقول أحدنا لغيره إذا أثنى على إنسان وذكر مناقبه : جعلته فاضلاً وبالضدّ إذا ذكر مقابحه وفسقه يقال له : جعلته فاسقاً وكما يقال : جعل القاضي فلاناً عدلاً ، وكلّ ذلك يراد به الحكم عليه بذلك والإبانة عن حاله كما قال الشاعر :

جعلتني باخلاً كلاّ وربّ منّي ✡ إنّي لأسمح كفّاً منك في اللزب

ومعناه : سمّيتني باخلاً .

---

(١) الاسراء : ٤٧ .

[وإن يروا كلّ آية لايؤمنوا بها] أي إن يروا كلّ عبرة لم يعتبروا بها ، أووإن يروا كلّ معجزة دالّة على نبوّتك لا يؤمنوا بها لعنادهم،عن الزجّاج؛وقال تعالى في وصف بعض الكفّار : «وإذاتتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها ، الآية » (١) ولو اجري معنى الآية على ظاهرها لم يكن لهذا معنى لأنّ من لايمكنه أن يسمع و يفقه لايستحقّ المذمّة لأنّه لم يعط آلة السمع فكيف يذمّ على ترك السمع ؟ .

[حتّى إذا جاؤوك يجادلونك]أي أنّهم إذادخلوا عليك يجيؤون مخاصمين رادّين عليك قولك ولم يجيؤوا مجيء من يريد الرشاد و بلغ بهم ذلك العناد إلى أنّهم إذاجاؤوك جاؤوك رادّين [يقول الّذين كفروا] أي لايكتفون بعدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون : [إن هذا إلّا أساطير الأوّلين] أي إنّ هذا القران من القصص القديمة الّتي يحكونها، جمع اُسطورة كالأعاجيب جمع أعجوبة .

وهم ينهون عنه وينأون عنه أي يمنعون وينهون غيرهم عن القرآن والإيمان به ويتباعدون عن القرآن بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم منه فإنّ اجتناب الناهي عن المنهيّ عنه من متمّمات النهي .

قال الرازيّ : الضمير في قوله «ينهون عنه وينأون عنه» وقد سبق ذكر القرآن وذكر محمّد فمحتمل أن يرجع إلى القرآن وأن يكون عايداً إلى محمّد ،فلهذا السبب اختلف المفسّرون فقال بعضهم : أي عن القرآن وتدبّره وقال آخرون : بل المراد : ينهون عن الرسول و المراد أنّهم ينهون عن اتبّاعه والإقرار برسالته قال عطاو مقاتل : نزلت في أبي طالب كان ينهى قريشاً عن إيذاء النبيّ ثمّ يتباعد منه ولا يتّبعه على دينه .

أقول : والعجب من هذين الرجلين كيف فسّرواهذه الآية بهذا المعنى مع أنّ هذا المعنى يخرج الآية عن سوقها ويجعلها غير متناسبة وغير مربوطة المعنى ؟

قال الرازيّ في المفاتيح : والقول الأوّل أشبه لوجهين : الأوّل أنّ جميع الآيات المتقدّمة على هذه الآية يقتضي ذمّ طريقتهم فكذلك قوله : « وهم ينهون عنه » ينبغي ويقتضي أن يكون محمولاً على مذمّتهم فلو حملناه على أنّ أباطالب كان ينهى عن إيذائه

(١) لقمان : ٦ .

لما حصل هذا النظم والثاني أنّه تعالى قال بعد ذلك : «وإن يهلكون إلّا أنفسهم» يعني به ما تقدّم ذكره ، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله : «وهم ينهون عنه» النهي عن أذيّته صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ ذلك أمر حسن جدًّا لا يوجب الهلاك .

فإن قيل : إنّ قوله : «وإن يهلكون إلّا أنفسهم» يرجع إلى قوله : «وينأون عنه» لا إلى قوله : « وينهون عنه» لأنّ المراد بذلك أنّهم يبعدون عنه بمفارقة دينه ، و ذلك ذمّ فلا يصحّ ما رجحتم به هذا القول . قلنا : إنّ ظاهر قوله : « إن يهلكون إلّا أنفسهم» يرجع إلى كلّ ما تقدّم ذكره ؛ لأنّ هذا الكلام بمنزلة أن يقال : إنّ فلاناً يبعد عن الشيء الفلانيّ وينفر عنه ولا يضرّ بذلك إلّا نفسه فلا يكون هذا الضرر معلّقاً بأحد الأمرين دون الآخر انتهى كلامه .

قال الطبرسيّ : وقول عطاء ومقاتل لا يصحّ لأنّ هذه الآية معطوفة على ما تقدّمها وما تأخّر عنها معطوف عليها وكلّها في ذمّ الكفّار المعاندين للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذا وقد ثبت إجماع أهل البيت على إيمان أبي طالب سلام الله عليه، وإجماعهم حجّة لأنّهم أحد الثقلين اللّذين أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسّك بهما بقوله : «إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا» .
ويدلّ على ذلك أيضاً ما رواه ابن عمر من أنّ أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة - إسمه عتبة - يوم الفتح إلى رسول الله فأسلم فقال النبيّ لأبي بكر : هلّا تركت الشيخ فأنا آتيه و كان أعمى ؟ فقال أبو بكر : أردت أن يأجره الله و الّذي بعثك بالحقّ لأنّي كنت بإسلام أبي طالب أشدّ فرحاً منّي بإسلام أبي ألتمس بذلك قرّة عينك فقال صلى الله عليه وآله وسلم : صدقت .

وأشعار أبي طالب المنبئة عن إسلامه كثيرة لا تحصى لا يسعه هذا المختصر ؛ فمن ذلك :

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ✡ نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب

وقوله في قصيدة :

ألا إنّ أحمد قد جاءهم ✡ بحقّ ولم يأتهم بالكذب

وقوله في قصيدة يحضّ ويحثّ أخاه حمزة على اتّباع النبيّ و الصبر في طاعته :

صبراً أبا يعلى على دين أحمد ✡ وكن مظهراً للدين وفّقت صابراً

فقدسرّني إذ قلت أنّك مؤمن ✿ فكن لرسول الله في الله ناصراً

وقوله أيضاً يحضّ النجاشيّ على نصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم :

تعلّم مليك الحبش إنّ محمداً ✿ وزير لموسى والمسيح بن مريم

أتى بهدى مثل الّذي أتيا به ✿ و كلّ بأمر الله يهدي و يعصم

و أنّكم تتلونه في كتابكم ✿ بصدق حديث لاحديث المرجّم

فلا تجعلوا لله نداً و أسلموا ✿ و إنّ طريق الحقّ ليس بمظلم

وأمثال هذه البيانات كثيرة في قصائده المشهورة و كذلك في و صاياه و خطبه ، يطول بها الدفاتر على أنّ أبا طالب لم ينأ عن النبيّ قطّ بل كان ملازماً له صلى الله عليه وآله وسلم وقائماً بنصرته فكيف يكون المعنى كما قال مقاتل وعطاء ؟.

أقول : بل هو صرف الخطا ولو اُقتل على تخطئة قول مقاتل انتهى .

قوله تعالى : ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بايات ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون (٢٨) .

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو لكلّ أحد من شأنه المشاهدة والعيان. والوقف الحبس وجواب «لو» ومفعول «ترى» محذوف ، أي لو تراهم حين يوقفون على النار حتّى يعاينوها لرأيت مالا يساعده التعبير [فقالوا] أي الموقوفون : [ياليتنا نردّ] إلى الدنيا [ولا نكذّب بآيات ربّنا] القرآنيّة [ونكون من المؤمنين] بها العاملين بمقتضاها حتّى لا نرى هذا الموقف، ونصب الفعلين على جواب التمنّي بإضمار «أن» بعد الواو و إجرائها مجرى الفاء و المعنى : إن رددنا لم نكذّب ونكن من المؤمنين .

[بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل] أي ليس الأمر على ماقالوه من أنّهم لو ردّوا إلى الدنيا لآمنوا فإنّ التمنّي الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأجل خوفهم من العقاب الّذي يعاينوه و ظهر لهم في الآخرة ما أخفوه في الدنيا بشهادة جوارحهم وظهور جزاء كفرهم الّذي أخفوه .

وقد اختلفوا في ذلك الّذي أخفوه على وجوه ؛ قال الزجّاج : بد اللتابعين ما

أخفاه الرؤساء عنهم من أمر البعث و النشور ، قال : و الدليل على صحّة هذا القول أنّه تعالى ذكر عقيبه : «وقالوا إن هي إلّا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين » . و الوجه الثاني في معنى الآية أنّها في المنافقين وقد كانوا يرون الكفر ويظهرون الإسلام وبدالهم يوم القيامة حالهم لغيرهم ، وعرف غيرهم بأنّهم كانوا كفّاراً . و الوجه الثالث : بدالهم ماكان علماؤهم يخفوّن من جحد نبوّة الرسول و نعته وصفته في الكتب و البشارة به صلّى الله عليه وآله وسلّم وما يحرّفونه من التوراة .

وقال المبرّد : وبدالهم وبال عقائدهم و سوء عاقبتها ، و ذلك لأنّ كفرهم ماكان مضارّه باديالهم فلمّا ظهرت يوم القيامة ظهرلهم فقال الله : «بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل» فانّ التكذيب بالشيء كفر وستر به فإخفاءله لا محالة . وحاصل تمام الأقوال أنّه ظهرت فضيحتهم في الآخرة وتهتّكت أستارهم وهو معنى : «يوم تبلى السرائر»(١)

ثمّ قال تعالى : [ولوردّوا لعادوالمانهوا عنه] أي علم الله أنّه تعالى لوردّهم لم يحصل لهم ترك التكذيب و فعل الإيمان ، بل كانوا يستمرّون على طريقتهم الأولى في الكفروالتكذيب .

فإن قيل : إنّ أهل القيامة قد عرفوا الله بالضرورة و شاهدوا ثمرات الكفر فلوردّهم الله إلى الدنيا كيف يتصوّر أن يقال : إنّهم يعودون إلى الكفرو إلى معصيته تعالى قال القاضي : تقرير الآية : ولوردّوا إلى حالة التكليف ، وإنّما يحصل الردّ لولم يحصل في القيامة معرفة الله بالضرورة ، وهذا الشرط يكون مضمراً لامحالة في الآية لا أنّهم بعد ماعلموا بالضرورة أمرهم وأمور العذاب لويردّون يعودون .

[وإنّهم لكاذبون] أي هم قوم ديدنهم الكذب ؛ فقال الطبرسيّ لو قيل : إنّ التمنّي كيف يصحّ فيه الكذب وإنّما يقع الكذب في الخبر ؟ فالجواب أنّ المعنى أنّهم كاذبون إن خبّروا عن أنفسهم بأنّهم متى ردّوا آمنوا ، ويجوز أن يحمل كلامهم على غير الكذب الحقيقيّ بأن يكون المراد أنّهم تمنّوا مالا سبيل إليه فكذّب تمنّيهم و

---

(١) الطارق : ٩ .

أملهم ، وهذا مشهور في كلام العرب ؛ يقولون : كذّبك أملك ، لمن تمنّى مالم يدرك ؛ قال شاعرهم :

كذبتم و بيت الله لا تأخذونها ☆ مراغمة مادام للسيف قائم

والمراد : الخيبة في الأمل . وقرأ أبوعمرو بن العلا : «لايكذب ويكون» بالرفع و استدلّ بأنّ قوله « وأنّهم لكاذبون » فيه دلالة على أنّهم أخبروا بذلك عن أنفسهم ولن يتمنّوه ؛ لأنّ التمنّي لايقع فيه الكذب ، و التمنّي وقع منهم للردّ فبعضهم جعل بعض الكلام تمنّياً و بعضه إخباراً ، وعلّق تكذيبهم بالخبر دون «ليتنا» وإذا كان بعض الكلام خبراً فيكون الإعراب بالرفع دون النصب .

قوله تعالى : وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا و مانحن بمبعوثين(٢٩) و لوترى اذوقفوا على ربهم قال اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون(٣٠) .

في الآية قولان : الأوّل أنّه تعالى ذكر في الآية الأولى أنّه بدالهم ما كانوا يخفون من قبل فبيّن في هذه الآية : إنّ ذلك الّذي يخفونه هو أمر المعاد والحشر ، و ذلك لأنّهم كانوا ينكرونه و يخفون صحّته وكانوا يقولون : مالنا إلّا هذه الحياة الدنيويّة وليس بعد هذه الحياة لا ثواب ولا عقاب . و الثاني أنّ التقدير : ولوردّوا لعادوا لمانهوا عنه ولأنكروا الحشر والنشر ، وقالوا : إن هي إلّا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين فيكون عطفاً على «عادوا» .

[وقالوا إن هي] أي ماالحياة ، فإنّ من الضمائر ما يذكر مبهماً ولايعلم مرجعه إلّا بذكر مابعده [إلّا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين] بعدما فارقنا هذه الحياة [ولو ترى إذ وقفوا] وحبسوا للسؤال كما توقف العبد الجاني ، و جواب «لو» محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً [قال] وأتى بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه و الماضي و الحال و الاستقبال عنده تعالى سواء . قال لهم على لسان الملائكة على سبيل التقريع والتوبيخ : [أليس هذا] البعث والحساب [بالحقّ قالوا بلى و ربّنا إنّه لحقّ قال فذوقوا العذاب]الّذي عاينتموه [بماكنتم تكفرون] بسبب كفركم وتكذيبكم وخصّ لفظ الذوق لبيان أنّ

مايجدونه من العذاب في كلّ حال هو مايجده الذائق لكون ما يجدون بعده أشدّ من الأوّل ، وهكذا إلى مالايتناهى لأنّ عذاب الكافرين كذلك .

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الاساءما يزرون (٣١) وما الحيوة الدنيا الالعب ولهو و للدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢) .

ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار فقال : [قد خسر الّذين كذّبوا بلقاء الله] أي كانوا مكذّبين بلقاء ما وعدالله من الثواب و العقاب و جعل لقاءهم لذلك لقاءه مجازاً كما يقال للميّت : لقي فلان عمله أي لقي جزاء عمله ، أي كذّبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتةفندموا حيث لاينفعهم الندامة .

[قالوا ياحسرتناعلى مافرّطنا فيها] كأنّهقيل : ياحسرتنا تعالي فهذاأوان حضورك كمايقال : ياللعجب احضر وابصر خسراننا وهذاالكلام أبلغ من أن يقول : إنّا متحسّرون على التفريط في مافعلناوقصّرنافي الدنيا وضيّعنا وتركنا من تقديم أعمال الآخرة . وقيل: إنّ الهاء في قوله « فيها » يعود إلى الساعة . وقيل : يعود إلى الجنّة و طلبها لمّا يروا منازلهم في الجنّةوحرمانهم عنها وحصول الخسران ، وحمل الأوزار لهم وما أعظم هذه الخسارة ؛ لأنّ الله سبحانه بعث جوهر النفس الناطقة القدسيّة إلى هذا العالم الجسمانيّ و أعطاه هذه الآلات الجسمانيّة وأعطاه التفكّر والتدبّر لأجل أن يتوصّل باستعمال هذه الأدوات إلى تحصيل المعارف والأخلاق الفاضلة الّتي يعظم منافعها بعدالموت ، فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والقوّة العقليّة في تحصيل هذه اللذّات الفانية ، ثمّ انتهى إلى آخر عمره فقد خسر ؛ لأنّ رأس المال قدفنى ، والربح الّذي ظنّ أنّه هو المطلوب فنى أيضاًفلم يبق في يده لامن راس المال أثرولامن الربح شيء وحصل العقاب العظيم .

[وهم يحملون أوزارهم] أي أثقال ذنوبهم [على ظهورهم] حال من فاعل«قالوا» والأوزار جمع وزروهوالحمل والثقل ؛ يقال : وزرته أي حملته ثقيلاً . ومنه : وزير الملك لأنه يتحمّل أعباء ما قلّده الملك من مؤونة رعيّته و حشمه . سمّي به الإثم لغاية ثقله على صاحبه وتثقّل ظهر من عمل بها . وأوزار الحرب أثقالها من السلاح .

واختلف في كيفيّة حملهم الأوزار ؛ قال بعضهم : هذا على سبيل التمثيل والتشبيه مجازاً ، قالوا : الحمل من توابع الأعيان الكثيفة لا من عوارض المعاني فلا يوصف به العرض إلّا على التمثيل مجازاً . و قال جماعة : لامانع من حمل الكلام على الحقيقة ، و في الحديث : إنّ المؤمن إذ خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا فيقول : أنا عملك الصالح فاركبني ، فقد طال ماركتك في الدنيا فذلك قوله : «يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن وفداً»(١) أي ركباناً ، وإنّ الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة وأخبثه ريحاً فيقول : أنا عملك السيّء طال ما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم و ذلك قوله : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم »(٢) فيكون الحمل على حقيقته ؛ لأنّ للأعمال صوراً تظهر في الآخرة و إن كان نفسها أعراضاً .

[ألاساء ما يزرون] أي بئس الحمل حملهم . أوالمعنى : ساء ماينالهم جزاءذنوبهم إذكان ذلك عذاباً و نكالاً ثمّ ردّ سبحانه عليهم قولهم حيث قالوا : ماهي إلّا حياتنا الدنيا فبيّن أنّ مايتمتّع به في الدنيا يزول ويبيد فقال : [وماالحياة الدنيا إلّالعب ولهو] أي باطل وغرور إذالم يجعل ذلك طريقاً إلى الآخرة ، والمراد أعمال الدنيا لأنّ نفس الدنيا لايوصف باللعب [وللدار الآخرة] الّتي هي محلّ الحياة الباقية [خير للّذين يتّقون] الكفر والمعاصي ، لأنّ منافعها خالصة عن المضارّ ولذّاتها غيرمنقصه بالآلام [أفلاتعقلون] والفاء للعطف على مقدّر أي أتغفلون فلا تعقلون أيّ الأمرين خير ؟ وفي الآية تسلية للفقراء المؤمنين وتقريع للأغنياء المنهمكين في لذّات الدنيا .

قوله تعالى : قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك و لكن الظالمين بايات الله يجحدون (٣٣) ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا و اوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله و لقد جاءك من نبأ المرسلين (٣٤) .

[قد نعلم] «قد» هنا للتكثير والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلّقه [أنـه] ضمير الشأن [ليحزنك] يامحمد [الّذي يقولون] فاعل «يحزنك» والعائد محذوف أي الّذي يقوله

(١) مريم : ٨٨ .
(٢) راجع فروع الكافى ج ١ : ٦٦ باب ماينطق به موضع القبر .

كفّار مكّة ، وهو ماحكى عنهم من قولهم «إن هذا إلّا أساطير الأوّلين »[1] و ساحر وشاعر ومجنون وأمثالها [فإنّهم لايكذّبونك] وقرء لايكذبونك بالتخفيف وهوقراءة عليّ عليه السلام أي لا تعتدّ بما يقولون فإنّهم في تكذيبهم آيات الله لا يكذبونك في الحقيقة .

واختلف في معناه على وجوه : أحدها : هذا الّذي ذكرناه . والثاني أنّ معناه: لايكذّبونك بقلوبهم اعتقاداً وإن كانوا يظهرون بأفواههم التكذيب عناداً ، ويجحدون القرآن والنبوّة كما أنّ حرث بن عامر من قريش قال : يامحمد ماكذبتنا قطّ و لكنّاإن اتّبعناك نتخطّف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب . و قال أخنس بن شريق لأبي جهل : ياأباالحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنّه ليس عندنا أحد غيرنافقال له : إنّ محمداً الصادق وماكذب قطّ ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللّواء والسقاية و الحجابة والنبوّة فماذا يكون لسائرقريش ؟ .

قال الرازيّ : وهذاالوجه في معنى الآية غير مستبعد ، و نظيره قوله تعالى في قصّة موسى وفرعون : «وجحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً»[2] .

والوجه الثالث في تأويل الآية أنّهم لا يقولون : إنّك كذّاب لأنّهم جرّبوك الدهر الطويل وما وجدوا منك كذباً وسمّوك بالأمين فلا يقولون : إنّك كاذب ولكن جحد واضحة نبوّتك لأنّهم اعتقدوا أنّ محمداً عرض له نوع خبل و نقصان في عقله ، فلأجله تخيّل في نفسه أنّه رسول وبهذاالتقدير لاينسبونه إلى الكذب .

والوجه الرابع أنّ معناه أنّهم لايصادفونك كاذباً فقول العرب : قاتلناكم فما أجبنّاكم أي ماوجدناكم جبناء ؛ وقال الأعشى:«فمضى وأخلف من قبيله موعداً»أراد : صادف منهاخلف الوعد .

[ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون] أي ولكنّهم ينكرون آيات الله ويكذّبون بها فما يفعلون في حقّك ، والتقديم للقصر .

---

(١) الانعام : ٢٦ .
(١) النمل : ١٤ .

[ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا و اُوذوا] تسلية للرسول فإنّ البليّة إذا عمّت طابت أي و بالله لقد كذّبت من قبل تكذيبك رسل كانوا قبل زمانك فصبر الرسل على تكذيبهم وإيذائهم إيّاهم [حتّى أتاهم نصرنا] أي كان غاية صبرهم نصرالله لهم فتأسّ بهم واصطبر على ما نالك من قومك ، والنصر الموعود للصابرين إمّا بطريق الحجج و إمّا بطريق الغلبة و بإهلاك الأعداء [و لا مبدّل لكلمات الله] أي لاخلاف في مواعيده بالنصر والغلبة [ولقد جاءك من نبأ المرسلين] من خبرهم ما يسكّن به قلبك وسمعت بعض أخبارهم .

قوله تعالى : وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الارض اوسلماً في السماء فتاتيهم باية ولوشاءالله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٣٥) انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون (٣٦) وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لا يعلمون (٣٧) .

قال ابن عبّاس : أتى الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف إلى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقالوا : يا محمد ائتنا بآية نقترحها من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنّا نصدّق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله ، فشقّ ذلك عليه فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء الكفّار لا يؤمنون فخاطب نبيّه ﷺ أنّه إن كان عظم عليك وشقّ واشتدّ إعراضهم عليك بسبب امتناعهم من اتّباعك ولم يقبلوا القرآن ولم يعدّوه من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوا اقتراحاً لحرصك على إسلامهم .

[فإن استطعت أن تبتغي نفقاً] وسرباً و منفذاً في الأرض . و النفق : سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر . و منه منافقاء اليربوع[1] لأنّ اليربوع يخرق الأرض إلى القعر ثمّ يصعد من ذلك إلى وجه الأرض من جانب آخر [أوسلّماً] أي مصعداً [في السماء] دروجاً [فتأتيهم بآية] أي حجّة تلجئهم إلى الايمان وتجمعهم على ترك الكفر فافعل ذلك ، والجواب فافعل ، وحذف الجواب شائع في كلّ موضع يعرف فيه معنى

(١) نفقا الشيء : شقه . العين : قلعها .

الجواب ؛ ألا ترى أنّك تقول للرجل : إن استطعت أن تتصدّق ؟ فتترك الجواب للمعرفة به ولكن حذف الجواب ليس في كلّ موضع فإذا قلت : إن تصم تصب خيراً فلابدّ من الجواب[1] لأنّ معناه لايعرف إذا ترك الجواب . والسلّم مأخوذ من السلامة لأنّه الّذي يسلّمك إلى مصعدك قال ابن عبّاس : المراد أنّه لا آية أفضل و أظهر ممّا أتيت به وهو القرآن .

[ولوشاء الله لجمعهم على الهدى] بالإلجاء ولم يفعل ذلك لأنّه ينافي التكليف ويسقط استحقاق الثواب الّذي هو الغرض بالتكليف و إنّما نفى سبحانه المشيئة لما يلجئهم إلى الإيمان لأنّه نفى مشيئة إيمانهم ؛ وليس في الآية أنّه سبحانه لا يشاء منهم أن يؤمنوا بل إنّهم مختارون في الإيمان والكفر ، و الغرض من الآية أنّهم لم يغلبوه بكفرهم فإنّه تعالى لو أراد أن يحول بينهم وبين الكفر لفعل .

[فلاتكوننّ من الجاهلين]أي لاتجزع في مواطن الصبر وقيل : إنّ هذا إثبات لعلمه صلّى الله عليه وآله وسلّم ونفي للجهل عنه ، أي بعد أن كنت عالماً لاتكن تقارب حالك حال من لا يعلم وهو الجاهل والتغليظ في الخطاب للزجر والتبعيد عن مثل هذه الحالة بأن لايقترح المقترحون في طلب الآيات .

[إنّما يستجيب الّذين يسمعون] كلامك ويصغون إليك وإلى ماتقرء عليهم من القرآن ويتفكّر في آياته ، ومن لم يتدبّر ولم يستدلّ بآياتك بمنزلة من لم يسمع ؛ قال الشّاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ۞ ولكن لا حياة لمن تنادي

[والموتى يبعثهم الله] يريد أنّ الّذين لايصغون إليك من هؤلاء الكفّار ولايتدبّرون فيماتقرؤه عليهم من القرآن والحجج بمنزلة الموتى فكما أنت مأيوس أن تسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم الله ولايقدرون على إجابتك فكذلك فأيس من هؤلاء أن يستجيبوا لك وإنّما يستجيب المؤمن السامع للحقّ فأمّا الكافر فهو بمنزلة الميّت فلا يجيب إلى أن يبعثه الله يوم القيامة فيلجئه إلى الإيمان ضرورة . والفرق بين «يستجيب» و «يجيب» أنّ

---

(١) أى جواب الشرط وهو « تصب خيراً » .

«يستجيب» أي قبل لما دعي إليه وليس كذلك «يجيب» لأنّه قد يكون يجيب بالمخالفة والردّ [ثمّ إليه] تعالى لا إلى غيره [يرجعون] يردّون إلى جزاء أعمالهم فحينئذ يستجيبون . وقرء «يرجعون» على البناء للفاعل .

[وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربّه] هذا إخبار عن رؤساء قريش لمّا عجزوا من معارضته في ما اُوتي له من القرآن اقترحوا عليه مثل آيات الأوّلين كعصا موسى وناقة ثمود ، فقالوا لإلقاء الشبهة : لو كان رسولاً من عند الله فهلاّ اُنزل عليه آية قاهرة ؟

وقد طعن بعض الملاحدة فقال : لو كان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قد أتى بآية معجزة لما صحّ أن يقول اُولئك الكفّار : لولا اُنزل عليه و لما قال سبحانه : إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ؛ و الجواب عنه أنّ القرآن معجزة قاهرة باقية إلى القيامة بدليل أنّه صلى الله عليه وآله وسلم تحدّاهم به فعجزوا عن معارضته ، و ليس المراد من المعجزة إلّا أمر يعجز عن إتيان بمثله جميع الخلق .

بقي أن يقال : فإذا كان الأمر كذلك فكيف قالوا : لولا اُنزل عليه آية من ربّه ؟ فالجواب أنّهم طعنوا في كون القرآن معجزاً على سبيل العناد ، وقالوا : إنّه من جنس الكتب ، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات فطلبوا من جنس معجزات سائر الأنبياء مثل فلق البحر ، لأنّهم ما أقرّوا بعجزهم بالإتيان بمثله فإذا ثبت إقرارهم وعجزهم ثبت المعجزة ، لأنّه لا نعني بالمعجزة إلّا هذا الأمر ، ولمّا كان غرضهم التعنّت والعناد فلو كان يأتي صلى الله عليه وآله وسلم بما يقترحونه فينسبونه إلى السحر أيضاً كما نسبوا .

[قل] يا محمّد [إنّ الله قادر على أن ينزّل آية] أي إنّه يجمعهم على الهدى ، عن الزجّاج . وقيل : المراد آية كما يسألونها [ولكنّ أكثرهم لا يعلمون] ما في اقتراحهم وإنزالها من وجوب الاستئصال إذا لم يؤمنوا بعد إنزال الآية المقترحة وما في الاقتصار على ما اُوتوه من المصلحة ولهذا السبب ما أعطاهم مطلوبهم ، ولعلمه سبحانه أنّهم طلبوا هذا الأمر على سبيل التعنّت والعناد لا لحصول اليقين ، ولو أتى سبحانه على يد رسوله أيضاً ما يقترحونه ممّا كانوا يؤمنون به فلا فائدة فيه .

قوله تعالى : ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم

أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون(٣٨) والذين كذبوا بآياتنا صم بكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يجعله على صراط مستقيم(٣٩).

قال القاضي : لمّا قدّم ذكر الكفّار وبيّن أنّهم يرجعون إلى الله ويحشرون بيّن بعده : « وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أُمم أمثالكم » في أنّهم يحشرون وهذا هو الوجه في النظم .

الحيوان إمّا أن يكون بحيث يدبّ أو يكون بحيث يطير ؛ فجميع ما خلق الله من ذي الروح فإنّه لا يخلو عن هاتين الصفتين حتّى ما يسبح في الماء و يعيش فيه فيوصف بعضها بالدبيب النهاية دبيبه في الماء ، و بعضها يسبح في الماء كما أنّ الطير يسبح في الهواء إلّا أنّ البحريّة وصفها بالدبيب أقرب من وصفها بالطيران وخصّ ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر لأنّ ما في السماء و إن كان كذلك لكن غير ظاهر لنا والفائدة في قوله : « يطير بجناحيه» مع أنّ كلّ طائر إنّما يطير بجناحيه التاكيد كقوله : نعجة أُنثى . ومثل قوله : رأيت بعيني و مشيت برجلي .

وفي الآية ذكر في المماثلة بيننا وبين كلّ الدوابّ ، ولا يمكن أن يقال : إنّ حصول المماثلة من جميع الوجوه ، ولابدّ أن يكون المماثلة من وجه . قال الواحديّ : عن ابن عبّاس أنّه قال : يريد سبحانه : يعرفونني ويوحّدونني ويسبّحونني ، وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسّرين وقالوا : إنّها تعرف الله وتحمده وتسبّحه ، واحتجّوا بقوله تعالى : «وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده»[(١)] وبقوله في صفة الحيوانات : « كلّ قد علم صلاته وتسبيحه»[(٢)] وعن أبي الدرداء أنّه قال : أُبهمت عقول البهائم عن كلّ شيء إلّا عن أربعة أشياء : معرفة الله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأُنثى ، و تهيّؤ كلّ واحد لصاحبه ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعجّ إلى الله يقول : يارب إنّ هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من حشاش الأرض وقيل : المراد بالمثليّة في كونها أُمماً وجماعات وفي كونها مخلوقة بحيث يشبه

(١) الاسراء : ٤٦ .

(٢) النور : ٤١ .

بعضها بعضاً ويأنس بعضها ببعض ويتوالد بعضها من بعض كالإنس .

والقول الثالث أنّها أمثالنا في أن خلقها الله فكما أحصي في الكتاب كلّ مايتعلّق بأحوال البشر من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصي في الكتاب جميع هذه الأحوال في كلّ الحيوانات ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى : «مافرّطنا في الكتاب من شيء» وليس لذكر هذا الكلام عقيب قوله : «إلّا أمم أمثالكم» فائدة إلّاماذكرناه .

والقول الرابع أنّها أمثالنا في أنّها تحشر يوم القيامة ، يوصل إليها حقوقها كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : يقتصّ للجمّاء من القرناء .

[مافرّطنا في الكتاب من شيء] فرّط في الشيء تركه وضيّعه أي ماتركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المبهمة الّتي فيها مصالح العباد على ماينبغي ، بل بيّنّا كلّ شيء فيه إمّا مفصّلاً أومجملاً ، أمّا المفصّل مثل قوله : «إنّ النفس بالنفس والعين بالعين» (١) وأمّا المجمل كقوله : «ما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا» (٢) والمجمل قد بيّنه على لسان الرسول وأمر باتّباعه وهو صلى الله عليه وآله وسلم قد بيّن فحينئذ مافرّط في الكتاب شيئاً . روي عن ابن مسعود أنّه قال : مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه ؟ يعني الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة فقرأت امرأة جميع القران ثمّ أتته وقالت : يا ابن أمّ عبد : إنّي تلوت البارحة مابين الدفّتين فلم أجد فيه لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة فقال ابن مسعود : لوتلوتيه لوجدتيه ؛ قال الله تعالى : «ما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا»

وثاني الأقوال أنّ المراد بالكتاب ههنا الكتاب المشتمل على ماكان ومايكون وهو اللوح المحفوظ وفيه آجال الحيوان وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم أنّ عمله أولى بالإحصاء . وثالثها أنّ المراد بالكتاب الأجل أي ماتركنا شيئاً إلّا وقد أجّلنا له أجلاً ثمّ يحشرون جميعاً قال الطبرسيّ : وهذا الوجه بعيد .

---

(١) المائدة : ٤٩ .

(٢) الحشر : ٧ .

[ثمّ إلى ربّهم يحشرون] إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يحشر العباد فينتصف لبعضها من بعض . وعن أبي ذرّ قال : بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذا انتطحت غزالان فقال النبيّ ﷺ : أتدرون فيما انتطحا ؟ فقالوا : لا، قال : ولكنّ الله يدري وسيقضي بينهما . وعلى هذا فإنّما جعلت أمثالنا في الحشر والاقتصاص واختاره الزجّاج فقال : يعني أمثالكم في أنّهم يبعثون ؛ ويؤيّده : «وإذا الوحوش حشرت»(١) ومعنى «إلى ربّهم» أي إلى من لا يملك النفع والضرّ إلّا هو .

قال الطبرسيّ : واستدلّ جماعة من أهل التناسخ بهذه الآية على أنّ البهائم والطيور مكلّفة لقوله : «أمم أمثالكم» وهذا باطل ؛ لأنّا قد بيّنّا أنّها من أيّ وجه تكون أمثالنا ولو وجب حمل ذلك على العموم لوجب أن تكون أمثالنا في كونها على مثل صورنا وهيآتنا وخلقنا . والحال أنّه ليس كذلك وكيف يصحّ تكليف البهائم وهي غير عاقلة والتكليف لا يصحّ إلّا مع كمال العقل ؟ .

قال الرازيّ : وفي بيان الآية دلالة على أنّ عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان ومن بلغت عنايته إلى حيث لا يبخل بها على البهائم ، ويقتصّ من القرناء للجمّاء كان بأن لا يبخل بها على الإنسان أولى فدلّ منع الله من إظهار ما اقترحوا من المعجزات القاهرة على أنّه لا مصلحة لأولئك المقترحين في إظهارها ويوجب الضرر العظيم إليهم فهذا هو الوجه في نظم هذه الآية بما قبلها انتهى كلامه .

[والّذين كذّبوا بآياتنا] أي القرآن أو بسائر الحجج [صمّ وبكم] لا يسمعونها سمع تدبّر وفهم ولذا لا يعدّونها من الآيات ويقترحون غيرها . والصمّ جمع أصمّ والمقصود تشبيه حالهم بالأصمّ وحذف حرف التشبيه للمبالغة . وبكم لا يقدرون على أن ينطقوا بالحقّ ولذلك لا يستجيبون دعوتك وهو جمع أبكم [في الظلمات] خبر ثالث للمبتدأ أي في ظلمات الكفر والجهل أو في الظلمات على الحقيقة في الآخرة عقاباً على كفرهم ، عن الجبّائي .

[من يشأ الله يضلله] أي من يشاء يخذله ويمنعه ألطافه لأنّه تعالى أوضح له الحجج

---

(١) التكوير : ٥ .

والأدلّة فأعرض عنها ولم يقبلها أومن يشأالله إضلاله عن طريق الجنّة ونيل ثوابها يضلله بسوء كسبه واختياره لا ابتداءً [ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم] أي ومن يشأأن يرحمه ويهديه إلى الجنّة يجعله على الصراط الّذي يسلكه المؤمنون إلى الجنّة .

قوله تعالى : قل أرأيتكم ان أتكم عذاب الله أوأتتكم الساعة أغيرالله تدعون ان كنتم صادقين (٤٠) بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه انشاء وتنسون ماتشركون(٤١) .

قال الفرّاء : للعرب في « أرأيت » لغتان إحداهما : المراد رؤية العين فإذا قلت للرجل : أرأيتك كان المعنى أهل رأيت نفسك ثمّ يثنّى ويجمع فتقول : أرأيتكما أرأيتكم والمعنى الثاني أن تقول : أرأيتك وتريد أخبرني ، وإذا أردت هذا المعنى تكون التاء مفتوحة تقول : أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكنّ والكاف حرف خطاب أُكّدبه ضمير الفاعل المخاطب ، لا محلّ له من الإعراب وهذا على قول البصريّين .

وقال الفرّاء : ليس الأمر كذلك فإنّه لوكان كذلك وجيء به للتأكيد لوقعت التشبيه والجمع على التاء كما يقعان عليها عندعدم الكاف ، فلمّا فتحت التاء في خطاب الجمع ووقعت علامة الجمع على الكاف دلّ ذلك على أنّ الكاف ليس للتوكيد؛ألا ترى أنّ الكاف لوسقطت لم يصحّ أن يقال لجماعة : أرأيت ؟ فثبت بهذا انصراف الفعل إلى الكاف و أنّها واجبة مفتقر إليها .

[قل] يا محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ، أمر سبحانه رسوله بأن يبكّتهم ويلقمهم الحجر بما لاسبيل لهم إلى الإنكار:أخبروني أيّها الكفّار [إن أتاكم عذاب الله] حسب ماأتى الأُمم السابقة من أنواع العذاب الدنيويّ [أوأتتكم الساعة] الّذي لا محيص عنها [أغيرالله تدعون] أي أتدعون فيها لكشف العذاب عنكم هذه الأوثان أوتدعون الله الّذي هو خالقكم؟وسبب إلزام هذه الحجّة عليهم هو أنّهم مع كفرهم كانوا إذا مسّهم الضرّ الشديد دعوا الله [إن كنتم صادقين] وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم فيأنّ أصنامكم آلهة ، والحذف ثقة بدلالة الكلام عليه .

[بل إيّاه تدعون] عطف على جملة منفيّة ينبىء عنها الجملة الّتي تعلّق بها

الاستخبار كأنّه قيل : لاغيره تدعون بل إيّاه تدعون [فيكشف ماتدعون إليه إن شاء] أي يكشف الضرّ الّذي من أجله طلبتم الخلاص عنه إن شاء أن يكشفه ، فقبول الدعاء تابع لمشيئته فقد يقبله وقد لايقبله كما يتعلّق بالعذاب الأخرويّ الّذي من جملته عذاب الساعة فإنّه تعالى لايغفر أن يشرك به فلايشاء في الآخرة ، وقديكون أنّ المصلحة تقتضي عدم إجابتهم في الدنيا [وتنسون ماتشركون] عطف على تدعون أي تتركون ماتشركون به تعالى من الأصنام . والنسيان في الآية بمعنى الترك لابمعنى الغفلة أو المعنى : تعرضون عنه إعراض الناسي لليأس من النجاة من مثله فإذا كان الأمر كذلك فلم تعبدون غيره ؟ وهذا هو المعنى اللآزم في الآية .

ولقد أرسلنا رسلا الى امم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون (٤٣) فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين (٤٥) .

أعلم الله رسوله حال الاُمم السابقة في مخالفة رسله والمراد أنّ حال هؤلاء إذا سلكوا طريق المخالفة كحالهم فقال : [ولقد أرسلنا رسلاً إلى اُمم] كثيرة كائنة قبل زمانك و«من» لابتداء الغاية في الزمان أي من زمان قبل زمانك كقولهم : نمت من أوّل اللّيل وصمت من أوّل الشهر . وفي الآية تقدير أي فخالفوهم وحسن الحذف للإيجاز من غير إخلال لدلالة مفهوم الكلام عليه .

[فأخذناهم] والفاء فصيحة مفصحة عن المحذوف ، فبعد المخالفة والتكذيب أخذناهم [بالبأساء] أي بالشدّة والفقر [والضرّاء] أي الآفات والأسقام [لعلّهم يتضرّعون] لكي يدعوا الله في كشفها بالإيمان والتذلّل والتوبة عن معاصيهم فأخبر الله أنّه أرسل الرسل إلى أقوام بلغوا من القسوة إلى أن اُخذوا بالشدّة في أنفسهم وأموالهم ليذلّوا لأمر الله فلم يخضعوا ولم يتضرّعوا وهو كالتسلية للرسول ﷺ [فلولا إذجاءهم بأسنا تضرّعوا] أي فهلّا تضرّعوا لمّا رأوا بأسنا ؟ [ولكن قست قلوبهم] فأقاموا على

كفرهم ويبست وجفت قلوبهم ولو كان في قلوبهم رقة و خوف لتضرعوا [وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون] أي حسن لهم الكفر و المعاصي بأن أغواهم و دعاهم إلى اللذة و الراحة دون التدبر والعبادة ، ولم يخطر ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء و الضراء ما اعتراهم إلا لأجله .

[فلما نسوا ما ذكروا به]عطف على مقدر ، أي فانهمكوا فيه و نسوا ماذكروا من البأساء و الضراء فلما نسوه [فتحنا عليهم أبواب كل شيء] من فنون النعماء على منهاج الاستدراج [حتى] غاية لقوله « فتحنا » [إذا فرحوا بما أوتوا] معجبين بحالهم فرح البطر كفرح قارون بما أصابه من الدنيا .

و حاصل المعنى أنه تعالى امتحنهم بالشدائد لكي يتضرعوا ويتوبوا فلم ينجح وتركوا التضرع فتح عليهم أبواب النعم والتوسعة في المال ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة و إنما فعل ذلك بهم و إن كان موضع العقوبة و الانتقام دون الإكرام ليدعوهم ذلك إلى الطاعة ، فإن الدعاء إلى الطاعة يكون تارة بالعنف وتارة باللطف أولتشديد العذاب والعقوبة بالاستحقاق لهم بالنقل من النعيم إلى العذاب الأليم .

[أخذناهم] بالعذاب [بغتة] وفجأة ليكون أشد عليهم وقعاًوأفظع هولاً [فإذاهم مبلسون] آئسون متحيرون غاية الحيرة والإبلاس بمعنى اليأس من النجاة عند ورود الهلكة [فقطع دابر القوم الذين ظلموا] أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد فالدابر يقال للتابع للشيء من خلفه ، دبر فلان القوم إذا كان آخرهم فاستوصلوا بالعذاب ولم يبق لهم باقية و وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضع الكفر موضع الشكر والمعاصي مقام الطاعات .

[والحمد لله رب العالمين] على إهلاكهم فإن هلاكهم من حيث تخليص أهل الأرض من شومهم وعقائدهم الفاسدة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها مع مافيه من إعلاء الكلمة التي نطقت بها رسلهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله ثم قرأ هذه الآية .

فاستوصلوا بعذاب حص دابرهم ✡ فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا

احرص و فيك بقيّة على أن تكون لك نفس تقيّة قبل أن ترى الشيب المجلّل، والصلب المهلّل[1]. لتكن مشيتك في المسجد أوقر مشية، وخشيتك في الصلاة أوفر خشية و اذكر عسرة الملك العزيز، ولا تنس ماجاء من الحديث العزيز: انظر بين يدي أيّ جبّار أنت مماثل، و لأيّ مكّار أنت مقاتل، ولا يقوم في مثل هذا المقام الصعب إلّا عبد خير المنابت مثبت بالقول الثابت، أوّاه من خوف العقاب وثّاب إلى نيل الثواب، ولا أقلّ من أن تحفظ من حديث النفس مادمت في الصلاة حتّى لايفوتك الحضور فتكون صلاتك جسداً بلا روح ولن تشايعك الدنيا إلى ماتروم وإن ساعدتك فمساعدتها لاتدوم و حديث نفسك للدنيا في صلاتك يحجب أن يصعد كلمات الدعاء، وأن تهبط بركات السماء يا عبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما؟! هيهات لاعتاق إلّا أن تكائب على دينك يامن يشبعه القرص ماهذا الحرص؟ ويا من ترويه الجرع ماهذا الجوع؟ ستعلم غداً إذا تندّمت أن ليس لك إلّا ماقدّمت وإذا لقيك المؤمنون لم ينفعك مال ولا بنون، ماتصنع بالقناطير المقنطرة؟ عابر هذه القنطرة، ولاتعبر هذه القنطرة إلّا بزهدك فيك.

قوله تعالى: قل أرأيتم ان أخذالله سمعكم و أبصاركم و ختم على قلوبكم من اله غيرالله يأتيكم به انظر كيف نصرف الايات ثم هم يصدفون (٤٦) قل أر ايتكم ان اتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (٤٧) وما نرسل المرسلين الا مبشرين و منذرين فمن آمن واصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٤٨) و الذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بماكانوا يفسقون (٤٩).

احتجاج على المشركين في التوحيد فقال: [قل] يا محمّد لهم: [أرأيتم] أي أخبروني، فإنّ الرؤية بصريّة كانت أو علميّة يصحّ الخبر عنه [إن أخذالله سمعكم وأبصاركم] و ذهب بهما فصرتم صمّاً و عمياً [وختم على قلوبكم] وطبع عليها. وقيل: معناه ذهب بعقولكم وسلب عنكم التمييز حتّى لاتفقهون شيئاً. وإنّما خصّ هذه الأشياء بالذكر لأنّ بهايتمّ النعمة ديناً و دنيا [من إله غير الله يأتيكم به] أى من يأتيكم بما اُخذ منكم؟ و حاصل المعنى أنّ هؤلاء الّذين تعبدونها لا يقدرون أن يجعلوا لكم أسماعاً

(١) الظهر المنكوس.

و أبصاراً و قلوباً إن أخذ الله منكم ، فكما لايقدر ردّها غيره تعالى فكذلك يجب أن لاتعبدوا غيره .

[انظر] يا محمّد وتعجّب [كيف نصرّف الآيات] و نكرّرها ونقرّرها من أسلوب إلى أسلوب تارة بالمقدّمات العقليّة ، و تارة بطريق الترهيب و التنبيه و التذكّر بأحوال المتقدّمين [ثمّ هم يصدفون] و« ثمّ » لاستبعاد صدفهم و إعراضهم عن تلك الآيات . قال الكعبيّ : دلت الآية على أنّه مكّنهم من الفهم ولم يخلق فيهم الإعراض والصدّ، ولو كان تعالى هو الخالق لما فيهم من الكفر والإعراض لم يكن لهذا الكلام معنى .

[قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أوجهرة] مفاجأة أوعلانية . و إنّما قابل البغتة بالجهر لأنّ البغتة تتضمّن معنى الخفية لأنّه يأتيهم من حيث لايشعرون . وقيل : البغتة أن يأتيهم ليلاً و الجهرة أن يأتيهم نهاراً [هل يهلك] بهذا العذاب [إلّا القوم الظالمون] استفهام معناه النفي ، أي لايهلك إلّا القوم الظالمون أي الكافرون .

فإن قيل : إنّ العذاب قد يكون يعمّ الأبرار أيضاً ؟ لكنّ الهلاك في الحقيقة مختصّ بالظالمين و الأخيار يستوجبون بسبب ذلك الدرجات الرفيعة عندالله و ليس فيه لهم هلاك .

[وما نرسل المرسلين إلّا مبشّرين ومنذرين] حالان مقدّرتان من المرسلين و موجب رسالتهم الاختبار بالخبر السارّ النافع والخبر الضارّ القطع [فمن آمن] بهم [و أصلح] عمله ودخل في الصلاح [فلاخوف عليهم] من العذاب الّذي أنذروه [ولاهم يحزنون] بفوات ما بشّروا به من الثواب [والّذين كذّبوا بآياتنا] وهي ماينطق به الرسل عند التبشير والانذار [يمسّهم العذاب] الأليم وأسند المسّ إلى العذاب ـ مع أنّ المسّ من شأن الحيّ القاصد المختار ـ على طريق الاستعارة بالكناية كأنّه حيّ مدرك يطلب إيلامهم ويقصدهم [بما كانوا يفسقون] بسبب خروجهم عن الدين والطاعة . في الكلمات القدسيّة : ياابن آدم لاتأمن مكري حتّى تجوز على الصراط .

روي أنّ الله تعالى قال : يا إبراهيم ماهذا الوجل الشديد الّذي أراه منك ؟ فقال : يا ربّ كيف لا أوجل و آدم أبي كان محلّه من القرب أنّك خلقته بيدك و نفخت فيه من

روحك وأمرت الملائكة بالسجود له فبزلّة واحدة أخرجته من جوارك فأوحى الله إليه يا إبراهيم أما عرفت أنّ معصية الحبيب على الحبيب شديدة ؟

قال مالك بن دينار : دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت : كيف حالك وكيف أنت ؟ قال : يا مالك كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة و لا زاد ، و يقدم على ربّ عدل حاكم بين العباد ، ثمّ بكى بكاء شديداً فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : والله ما بكيت حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت و البلى لكن بكيت ليوم مضى من عمري لم يحسن فيه عملي ، أبكاني والله قلّة الزاد و بعد المفازة والعقبة الكؤود ، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنّة أم إلى النار . فقلت له : إنّ الناس يزعمون أنّك مجنون فقال : ما بي جنّة و لكن حبّ مولاي خالط قلبي ، وجرى بين لحمي ودمي وعظامي .

[قل] يا محمّد للكفرة الّذين يخالفونك : [لا أقول لكم عندي خزائن الله] أي لا أدّعي أنّ خزائن الله ومقدوراته مفوّضة إليّ أتصرّف فيها كيف أشاء حتّى تقترحوا عليّ تنزيل المعجزات أو إنزال العذاب أوقلب الجبال ذهباً أوغير ذلك ممّا لا يليق بشأن العبوديّة ، و كانوا يقترحون منه بعض الآيات و كانوا يقولون :إن كنت رسولاً من عند الله فوسّع علينا منافع الدنيا وأرزاقها ، فقل لهم : لا أدّعي أنّ مفاتيح الرزق بيدي حتّى أقبض وأبسط .

[ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك] أي ولا أدّعي أيضاً أنّي أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتّى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب . و «لا» في قوله «ولا أعلم الغيب» زائدة تأكيد للنفي ، والحاصل أنّي لا أدّعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتّى تقترحوا عليّ وتجعلوا عدم إجابتي إلى مقترحاتكم دليلاً على عدم صحّة ما أدّعيه من الرسالة بل الرسالة هي عبارة عن تلقّي الوحي من جهته تعالى والعمل بمقتضاه فحسب ، حسب ما ينبىء عنه قوله : [إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ] أي ما أفعل إلّا اتّباع ما يوحى إليّ من غير أن يكون لي مدخل مّا في الوحي أو في الموحى .

و الوحي ثلاثة : ما ثبت بلسان الملك ، والقرآن من هذا القبيل بإشارة الملك

من غير أن يبيّنه بالكلام و إليه الإشارة بقوله : إنّ روح القدس نفث في روعي و الثالث ماتبدي لقلبه بلا شبهة إلهاماً من الله بأن أراه الله بنور من عنده كما قال : «لتحكم بين الناس بما أراك الله »(١)

[قل هل يستوي الأعمى والبصير] قل يا محمد لهم : هل يستوي العارف بالله العالم بدينه و الجاهل به و بدينه و هو مثل الضالّ و المهتدي لمّا وصف نفسه بأنّه متّبع للوحي الإلهيّ لزم منه أن يصف نفسه بالاهتداء و يصف من عانده بالضلال فالعمل بغير الوحي يجري عمل الأعمى . والعمل بمقتضى الوحي يجري مجرى عمل البصير [أفلا تتفكّرون] في هذا الأمر فتهتدوا باتّباع الوحي .

وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون (٥١) .

أي خوّف من العذاب بما يوحى إليك قيل : الضمير في «به» راجع إلى القرآن وقيل : إلى الله راجع [الّذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم] يريد أنّ المؤمنين يخافون يوم القيامة وما فيها من شدّة الأهوال وقيل : معناه : يعلمون ، قال الزجّاج : المراد بهم كلّ معترف بالبعث من مسلم وكتابيّ .

وإنّما خصّ الّذين يخافون الحشر دون غيرهم وهو نذير على جميع الخلق؛ لأنّ الّذين يخافون ويعلمون الحشر الحجّة عليهم أوجب لاعترافهم بالمعاد . قال الصادق عليه السلام : أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلى ربّهم ترغبهم فيما عنده فإنّ القرآن شافع مشفّع لهم . وقيل : المراد من قوله : « وأنذر به الّذين يخافون » الكلّ ويتناول الجميع ، لأنّه لا عاقل إلّا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكّاً فيه لأنّه بالاتّفاق أنّه غير معلوم البطلان ، النهاية أنّ بعضهم ينكرونه من غير دليل ، فكان هذا الخوف قائماً في حقّ الكل .

و تمسّكت المجسّمة بهذه الآية على كون الله مختصّاً بمكان وجهة قالوا : لأنّ كلمة «إلى» للانتهاء من الغاية ، والجواب : المراد إلى المكان الّذي جعله الله مجمعاً لهم للقضاء عليهم .

---

(١) النساء ١٠٦ .

[ليس لهم من دونه وليّ ولاشفيع] موضع «ليس» نصب على الحال كأنّه قيل: متخلّين عن الناصر والشافع وعلى هذا التقدير فظاهر الكلام أنّه هذا الأمر للكافر والمفسّرون على أنّ الآية في المؤمنين فحينئذ يكون المعنى أنّ شفاعة الأنبياء وغيرهم للمؤمنين لمّا كان بإذن الله فذلك راجع إلى الله وغيره لايكون وليّاً وشفيعاً مالم يأذن [لعلّهم يتّقون] و الأمر بالإنذار لكي يتّقوا و يخافوا في الدنيا و ينتهوا عمّا نهاهم الله.

قوله تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣).

النزول: الثعلبيّ بإسناده عن عبدالله بن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده صهيب وخبّاب و بلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت لهؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الّذين منّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم اتّبعناك فأنزل الله تعالى: «فلاتطرد الّذين، الآية».

قال الطبرسيّ: قال سلمان وخبّاب: نزلت هذه الآية فينا؛ جاء الأقرع بن حابس التميميّ و عيينة بن حصن الفزاريّ و ذووهم من المؤلّفة قلوبهم فوجدوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قاعداً مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب في ناس من ضعفاء المسلمين فحقّروهم فقالوا: يارسول الله لو نحّيتهم عنك حتّى نخلو بك فإنّ وفود العرب يأتينك فنستحيي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد ثمّ إذا انصرفنا فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك فأجابهم النبيّ إلى ذلك فقالا: اكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً فدعى بصحيفة وأحضر عليّاً ليكتب قال: ونحن قعود في ناحية إذ نزلت الآية إلى قوله: «أليس الله بأعلم بالشاكرين» فنحّى رسول الله الصحيفة وأقبل علينا ودنونا منه وهو يقول: «كتب ربّكم على نفسه الرحمة» فكنّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى «واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم، الآية»[1] قال: فكان رسول الله يقعد معنا ويدعونا حتّى كادت ركبتنا عن ركبتيه فإذا

(١) الكهف: ٢٧.

بلغ الساعة الّتي يقوم فيها قمنا وتركناه حتّى يقوم وقال لنا : الحمدلله الّذي لم يمتني حتّى أمرني أن أصبّر نفسي مع قوم من أمّتي ؛ معكم المحيا ومعكم الممات .[١]

المعنى : نهى سبحانه عن إجابة المشركين فيما اقترحوه عليه من طرد المؤمنين، أقول : وإنّما أراد الإجابة لحرصه صلّى الله عليه وآله وسلّم على إسلامهم [ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم] أي يعبدون الله بالصلاة المكتوبة يعني صلاة الصبح و العصر ، عن ابن عبّاس والحسن و جماعة و قيل : إنّ المراد بالدعاء ههنا مطلق الذكر أي يذكرون ربّهم طرفي النهار ، عن إبراهيم النخعيّ وروي عنه أيضاً إنّ هذا في الصلوات الخمس .

[يريدون وجهه] أي يطلبون ثواب الله ولا يعدلون بالله شيئاً وقد شهد الله لهم في هذه الآية بصدق النيّات والمراد من الوجه الجهة والطريق والسبيل إليه [ما عليك من حسابهم من شيء] .

و اختلفوا في ضمير « حسابهم » و « عليهم » إلى ماذا يعود ؛ القول الأوّل : يعود إلى المشركين ، والمعنى : ما عليك من حساب المشركين من شيء و لا حسابك على المشركين و إنّما الله هو الّذي يدبّر عبيده . و القول الثاني أنّ الضمير عائد إلى الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ و هم الفقراء قال الرازيّ و هو أشبه بالظاهر ، و الدليل عليه أنّ الكناية في قوله : « فتطردهم فتكون من الظالمين » عائدة إلى هؤلاء الفقراء فلزم أن يكون سائر الكنايات عائدة إليهم و على هذا التقدير معنى « ما عليك من حسابهم من شيء » أنّ الكفّار كانوا يطعنون في إيمان الفقراء ويقولون : يا محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - إنّهم إنّما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنّهم فقراء ويجدون عندك مأكولاً وملبوساً و إلّا فهم فارغون عن دينك ، فقال الله : إن كان الأمر كما يقولون فما يلزمك إلّا اعتبار الظاهر وحسابهم عليه تعالى ، ولازم لهم

(٢) وفي هذا الخبر آية باهرة لمن تدبر في صدره و ذيله فان الاقرع وعيينة حيث كانا جديدا الاسلام ولم يحصل لهما روح التفكر الاسلامي بعد لم يكن بد من المماشاة معهم والتسليم لما اقترحوه ظاهراً الى ان نزلت الاية واراحت النبي مما اشكل عليه فان الله لا يستحيي مما يستحيي النبي ، و هذا اظهر مما ستعرفه عن المصنف و ابن الانباري .

لايتعدّى إليك ؟ كما أنّ حسابك عليك لايتعدّى إليهم كأنّه قيل : لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولاهم بحسابك .

وهذه القصّة شبيهة بقصّة نوح إذ قال له قومه : « أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون » فأجابهم نوح : «وما علمي بما كانوا يعملون ☆ إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون»(١)

وقيل : المراد بقوله : « ما عليك من حسابهم » أي من حساب رزقهم [من شيء] فتملّهم و تطردهم ، ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنّما يرزقك الله ويرزقهم .

[فتكون من الظالمين] عطف على قوله «فتطردهم » على وجه التسبّب ؛ لأنّ كونه ظالماً معلول طردهم ومسبّب له ، ويجوز أن تكون من الظالمين لنفسك بعد الطرد أو تكون من الظالمين لهم لأنّهم بما استوجبوا التقريب والترحيب كان طردهم ظلماً لهم أيضاً . قال ابن الأنباريّ : عظم الأمر في هذا على النبيّ ﷺ من خوف الدخول في جملة الظالمين ؛ لأنّه ﷺ لحرصه على إسلام اُولئك هم بتقديم الرؤساء و اُولى الأموال على الضعفاء ، مقدّراً أنّه يستجير باسلامهم إسلام قومهم ومن لفّ لفّهم ، و كان ﷺ لم يقصد بذلك إلّا الخير ولم ينو إذدراء الفقراء ، فأعلمه الله أنّ ذلك غير جائز .

ثمّ أخبره تعالى أنّه يمتحن الفقراء بالأغنياء والأغنياء بالفقراء فقال : [و كذلك فتنّا بعضهم ببعض] أي كما ابتلينا قبلك الغنيّ بالفقير والشريف بالوضيع ابتلينا هؤلاء الرؤساء من قريش بالموالي ، فإذا نظر الشريف إلى الوضيع قد أمن يعني حمى أنفاً أن يسلم ويقول : سبقني هذا بالإسلام ، فقال : «و كذلك فتنّا بعضهم ببعض » و إنّما قال : فتنّا وهو لا يحتاج إلى الاختبار ؛ لأنّه عاملهم معاملة المختبر لكون ترتّب الثواب والعقاب متوقّفاً على وقوع الكفر والإيمان ولايكون أن يعاملهم بعلمه .

[ليقولوا] اللّام للعاقبة ، أي فعلنا هذا ليصبروا أو يشكروا فانتهى و آل أمرهم إلى هذه العاقبة [أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا] والاستفهام معناه الإنكار كأنّهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضله . قال أبو عليّ الجبّائيّ : إنّ معنى « فتنّا » شددنا التكليف على

---

(١) الشعراء : ١١١ - ١١٣ .

شرفاء العرب بأن أمرناهم بالإيمان و بتقديم هؤلاء الضعفاء عليهم لتقدمهم إياهم في الإيمان ، وهذا أمر شاق عليهم فلهذا سماه الله فتنة ليرضوا بذلك من فعل رسول الله ولم يجعل هذه الفتنة والشدة من التكليف ليقولوا ذلك على وجه الإنكار : أهؤلاء من الله عليهم ؛ لأن إنكارهم لذلك كفر بالله ومعصية ، والله سبحانه لا يريد ذلك ولا يرضاه ، لأنه لو أراد ذلك و فعلوه كانوا مطيعين لا عاصين ، و بهذا البيان ثبت فساد قول المجبرة .

[أليس الله بأعلم بالشاكرين] استفهام تقريري ؛ أي إنه كذلك و هذا دليل واضح على أن فقراء المؤمنين و ضعفاءهم أولى بالتقديم و التعظيم من أغنيائهم ، ولقد قال أمير المؤمنين : من أتى غنياً فتواضع لغنائه ذهب ثلثا دينه .

قوله تعالى : واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل سوء بجهالة ثم تاب من بعده و أصلح فانه غفور رحيم (٥٤) .

النزول : قيل : نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم ، فكان النبي إذا رآهم بدأهم بالسلام وقيل : نزلت في جماعة من الصحابة منهم حمزة و جعفر و مصعب بن عمير وعمار وغيرهم ، عن عطاء . وقيل : إن جماعة أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً كثيرة فسكت عنهم فنزلت الآية ، عن أنس بن مالك . وقيل : نزلت في التائبين ، عن الصادق عليه السلام .

فعلى هذا كل من تاب و آمن و أصلح دخل تحت هذا التشريف وهو الأولى ؛ لأن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة(١) وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة : إن سبب نزولها هو الأمر الفلاني ؟ كما أورد هذه المناقشة الإمام الرازي في تفسيره .

أقول : يمكن أن يقال : إنه لسابقة علمه تعالى بوقوع هذه الأمور متدرجاً

(١) قال به ابى بن كعب و عكرمة و قتادة . و قال ابن عباس : نزلت ست آيات منها بمدينة وفي رواية عنه : ثلاث آيات . قاله الطبرسي .

فأنزل هذه السورة جملة ، فكلّ آية وحكم في ترتيبه موافق للأُمور الّتي يقع متدرّجاً ، والخطاب متوجّه لما يقع تدريجاً بياناً لتكليفهم فصحّ إطلاق شأن النزول ؛ إذ كلّ آية يختصّ بحكم حالهم موافقاً لما يحتاجون بيانه .

قوله : [فقل سلام عليكم كتب ربّكم على نفسه الرحمة] أمر سبحانه نبيّه أن يسلّم عليهم من الله فهو تحيّة من الله على لسان نبيّه ، وقيل : إنّ الله أمر نبيّه أن يسلّم عليهم تكرمة لهم ، عن الجبّائيّ . وثالثها أنّ معناه اقبل عذرهم واعترافهم و بشّرهم بالسلامة ممّا اعتذروا منه ، عن ابن عبّاس .

وقال أبو بكر الأنباريّ : قال قوم : السلام هو الله فمعنى «السلام عليكم» يعني الله عليكم أي على حفظكم ؛ قال الرازيّ ؛ وهذا بعيد لتنكير السلام في قوله : سلام عليكم ، ولو كان معرّفاً لصحّ هذا الوجه .

أقول : ولو كان معرّفاً أيضاً لكان في المعنى تكلّف و بعدو «كتب» معناه الوجوب و « على » تفيد الإيجاب والإيجاب بحكم التفضّل والكرم ، وهو لاينافي كونه تعالى فاعلاً مختاراً بل هو عبارة عن تأكيد وقوع الرحمة تفضّلاً .

[إنّه من عمل سوءاً بجهالة] قال الرازيّ : إنّ هذا لايتناول التوبة من الكفر لأنّ هذا الكلام خطاب مع الّذين وصفهم بقوله : « و إذا جاءك الّذين يؤمنون بآياتنا » فثبت أنّ المراد منه توبة المسلم عن المعصية ، والمراد من قوله : «بجهالة» ليس هو الخطأ والغلط ؛ لأنّ ذلك لاحاجة له إلى التوبة بل المراد أن يقدم على المعصية بسبب الميل والشهوة فعمل عملاً متلبّساً بجهالة حقيقة أو حكماً بأن يكون جاهلاً بمقدار المكروه فيه أو أنّه علم أنّ عاقبته قبيحة ومكروهة ولكنّه آثر العاجلة فهو جاهل ؛ لأنّه آثر النفع القليل على الراحة الكثيرة الدائمة [ثمّ تاب من بعده وأصلح فإنّه غفور رحيم] أي بعد المعصية تاب ورجع عن فعله وأصلح ما أفسده من عمله فهو تعالى يمنّ عليه بالغفران والرحمة .

[و كذلك نفصّل الآيات وليستبين سبيل المجرمين] وقرء «ولتستبين» بالتاء وسبيل بالرفع. والسبيل استعمل مؤنّثة مثل قوله : «هذه سبيلي» واستعمل مذكّراً مثل «وإن يروا

سبيل الرشد لا يتّخذوه سبيلاً » . [١]

المعنى : أي كما قدّمناه من الآيات والدلالات على التوحيد والنبوّة فكذلك نخبر و نشرّح ونفصّل لك دلائلنا في كلّ حقّ ينكره أهل الباطل ، و« ليستبين » عطف على محذوف ؛ والتقدير : ليظهر الحقّ وليستبين وجاز الحذف ؛ لأنّ في ما أُبقي دليلاً على ما أُلقي . وليستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين .

(في النهج : اعلموا رحمكم الله أنّكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللاّزم للحقّ ذليل ، أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الادهان فتاهم عارم ، وشائبهم آثم ، وعالمهم منافق ، وقارؤهم مماذق ، لا يعظّم صغيرهم كبيرهم ، ولا يعول غنيّهم فقيرهم .

أقول : لازموا الحقّ وجانبوا الباطل ، واعرف الحقّ من الباطل ، يا ابن مسجود الملك ! لم تعبد الشيطان ؟ ويا ابن خليفة الله لم تخرّب البنيان ؟ ويا بعل الحور لا تباضع هذه العجوز الدردبيس ، [٢] ولا تبادل الكوثر بالخندريس ؛ [٣] تسعى للدنيا وعن قليل تقلعك ، وترفل [٤] على وجه الأرض وعن قريب تبلعك) .

ولم يذكر سبيل المؤمنين ؛ لأنّ ذكر أحد القسمين يدلّ على القسم الآخر ، نحو قوله : « سرابيل تقيكم الحرّ » [٥] وعلى قراءة التاء فبعض نصب السبيل والتاء للخطاب ، فالمعنى : لتستبين يا محمّد سبيل هؤلاء المجرمين وبعض رفع السبيل على أنّه فاعل . وجعلوا السبيل مؤنّثاً أي لتستبين السبيل .

قل انى نهيت ان أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين (٥٦) قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين (٥٧)

كان كفّار قريش يدعونه إلى طريقتهم فنزلت الآية أن قل لهم : إنّي زجرت ومنعت

---

(١) الاعراف : ١٤٢ .
(٢) الدردبيس : الداهية . الشيخ . العجوز الفانية .
(٣) الخمر القديمة . (٤) رفل : جرذيله و تبختر .
(٥) النحل : ٨٣ .

- بما نصب لي من الأدلّة والوحي في أمر التوحيد - عن عبادة ما تعبدونه [من دون الله] كائناً ماكان [قل لا أتّبع أهواءكم] إشارة إلى الموجب المنهي كأنّهم قالوا : لمَ نهيت عما نحن فيه ؟ أجاب صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنّ ما أنتم عليه هوى وليس بهدى ، فكيف أتّبع الهوى وأترك الهدى ؟ [قد ضللت إذاً] أي إذا اتّبعت أهواءكم فقد ضللت وتركت سبيل الحقّ [وما أنا من المهتدين] ومن الّذين سلكوا طريق الحقّ .

[قل إنّي على بيّنة من ربّي] كائنة حاصلة لي . والبيّنة: الحجّة الواضحة الّتي يفصل بين الحقّ والباطل ، وأنا على يقين من الله والمراد بها القرآن والوحي [و كذّبتم به] والضمير المجرور تذكيره باعتبار القرآن أو البيان والبرهان ، أي كذّبتم بها و بمافيهامن الأخبار الّتي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب [ماعندي ماتستعجلون به] أي ليس عندي ماتستعجلون به العذاب الموعود في القرآن ، وتجعلون تأخيره ذريعة لتكذيبي فإنّه ليس أمره بمفوّض إليّ . وذلك أنّ رؤساء قريش كانوا يقولون له صلّى الله عليه وآله وسلّم : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

[إن الحكم] أي ماالحكم في ذلك [إلّا لله] وحده [يقصّ الحقّ] أي يقوله و يخبره ولا يحكم إلّا بما هو حقّ ؛ فتأخير العذاب وتعجيله حقّ ثابت جار على حكمة بليغة . وقرء «يقضي الحقّ» قالوا : والمناسب في المعنى: «يقضي» لا «يقصّ» لقوله :« خير الفاصلين» ؛ لأن الفصل في الحكم لا في القصص ، ولو أنّ القول أيضاً بمعنى الفصل و يؤول إليه ، لكنّ القضاء أظهر[وهو خير الفاصلين] أي خير الحاكمين والقاضين .

و احتجّت الأشاعرة بقوله : « إن الحكم إلّا لله » على أنّه لايقدر العبد على أمر من الاُمور إلّا إذا قضى الله به فيمتنع منه فعل الكفر إلّا إذا قضى الله به ، وهذا يفيد الحصر ، وأجاب المعتزلة بقوله : « يقضي الحقّ » و المعنى أنّ كلّ ماقضى به فهو الحقّ ، وهذا يقتضي أن لايريد الكفر من الكافر ولاالمعصية من العاصي لضرورة أنّ ذلك ليس الحقّ ، ومن المعلوم أنّ كلّ شيء صنعه الله فهو حقّ والكفر باطل ، فامتنع وجود الكفر منه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

[قل لو أنّ عندي] وفي قدرتي ومكنتي [ماتستعجلون به] من العذاب الّذي

ورد به الوعيد [لقضي الأمر بيني وبينكم] ولأهلكتكم غضباً لربّي باستهزائكم لآياته، ولتخلّصت سريعاً [والله أعلم بالظالمين] وبما يجب في الحكمة من التأخير والتعجيل.

قوله تعالى: وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الافى كتاب مبين (٥٩).

المعنى: لمّا قال سبحانه إنّه أعلم بالظالمين بيّن في هذه الآية أنّه العالم بكلّ شيء فهو يعجّل ما تعجيله أصلح ويؤخّر ما تأخيره أصلح. المفتاح جمع مِفتح و مَفتح فالمفتح بالكسر: المفتاح الّذي يفتح به. والمفتح بفتح الميم: الخزانة، وكلّ خزانة كانت محرزاً لصنف الأشياء فهو مفتح بفتح الميم.

قال الفرّاء في قوله تعالى: «ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة»[1] يعني خزائنه فلفظ المفاتح يمكن أن يراد منه المفاتيح، ويمكن أن يكون المراد منه الخزائن، أمّا على التقدير الأوّل فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأنّ المفاتيح يتوصّل بها إلى ما في الخزائن المستوثق بالأغلاق والأقفال، فالعالم بتلك المفاتيح يمكنه أن يتوصّل بتلك المفاتيح إلى ما في الخزائن فكذلك ههنا الحقّ لمّا كان عالماً بجميع المعلومات عبّر عن هذا المعنى بهذه العبارة. وقرء «مفاتيح»، و أمّا على التقدير الثاني فالمعنى: وعنده خزائن الغيب. فعلى التقدير الأوّل يكون المراد العلم بالغيب، و على التقدير الثاني المراد: القدرة على كلّ الممكنات كما في قوله: «وإن من شيء إلّا و عندنا خزائنه»[2].

والحكماء قالوا: إنّه تعالى مبدأ لجميع الممكنات، والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالأثر فوجب كونه تعالى عالماً بكلّها، وهذه الآية أيضاً دليل على أنّه تعالى عالم بجميع الجزئيّات، ومعنى «وعنده خزائن الغيب» الّذي فيه علم العذاب المستعجل به والمتأخّر به وغيره من العلوم لا يعلمها أحد إلّا هو أو من هو أعلمه ببعضه. و قيل:

---

(١) القصص: ٧٦.
(٢) الحجر: ٢٣.

معناه : وعنده خزائن الغيب من الأرزاق والآجال والمقدورات . وقال ابن عمر: «مفاتح الغيب خمس ثمّ قرأ «إنّ الله عنده علم الساعة ، الآية »(١).

ولمّا ذكر سبحانه أوّلاً وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلّا هو وهذا أمر معقول كلّيّ أكّد بيانه بمعاونة الأمثلة محسوساً مفهوماً لكلّ أحد بجزئيّات محسوسة فقال: [ويعلم ما في البرّ والبحر] وذلك لأنّ أحد أفراد معلومات الله هو جميع دوابّ البرّ والبحر ، فذكر سبحانه هذا المحسوس لكشف ذلك المعقول ؛ فإنّ الإنسان إذا شاهد أحوال البرّ وما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة الحيوان و النبات و كذلك عجائب البحر وطوله وعرضه وما فيه من أجناس ما خلق في البحار فإذا استحضر الخيال صورة البرّ والبحر ، وعرف أنّ مجموع هذه الأمور قسم حقير تحت قوله : « و عنده مفاتح الغيب » فيصير هذا المثال المحسوس مكمّلاً للعظمة في علمه تعالى .

ثمّ ذكر جزئيّاً آخر كاشفاً عن عظمة علمه تعالى بقوله : [وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها] فإذا عرف الإنسان إحاطة علمه تعالى بسقوط ورقة من أوراق الأشجار تبيّن للمتأمّل درجة زائدة في علم خالقه وربّه ، ثمّ يجاوز من هذا المثال أيضاً إلى مثال آخر أشدّ هيئة وأدقّ إحاطة بقوله : [ولا حبّة في ظلمات الأرض] وذلك لأنّ الحبّة في غاية الصغر ، وظلمات الأرض موضع يكون أكبر الأجسام وأعظمها مخفيّاً فيها على اتّساعها فصارت هذه الأمثلة كلّها منبّهة على عظمة علمه تعالى. قال ابن عبّاس: المراد من ظلمات الأرض تحت الصخرة في أسفل الأرضين السبع .

[ولا رطب ولا يابس] وقد جمع الأشياء كلّها في قوله : «ولا رطب ولا يابس» لأنّ الأجسام كلّها لاتخلو من أحد هذين . وقيل : المراد ما ينبت وما لاينبت وقيل: الرطب : الحيّ ، واليابس : الميّت . وعن أبي عبدالله عليه السلام : الورقة : السقط ، والحبّة: الولد، وظلمات الأرض: الأرحام ، والرطب : ما يحيى واليابس مايغيض (٢) [إلّا في كتاب

---

(١) لقمان : ٣٤ .

(٢) رواه البحراني في البرهان «ج ١ : ٥٢٨» عن أبي الربيع عنه عليه السلام . و فيه : ما يحيى الناس به .

مبين] أي إلّا وهو مكتوب في اللّوح المحفوظ وهو أمّ الكتاب و«إلّا في كتاب مبين» بدل من الاستثناء الأوّل بدل الاشتمال وبدل الكلّ على الكتاب المبين المراد به علمه تعالى لأنّ بعض المفسّرين فسّروا الكتاب المبين ههنا بعلمه تعالى وهو محفوظ غير منسيّ ؛ كما يقول القائل لغيره : ما تفعله عندي مسطور ومكتوب ، يريد أنّه حافظ له وعالم به.

قال الجرجانيّ صاحب النظم عبدالقاهر : إنّ الكلام تمّ عند قوله : «ولا يابس» ثمّ استأنف خبر آخر بقوله : «إلّا في كتاب مبين» يعني وهو في كتاب مبين أيضاً لأنّك لو جعلت قوله : «إلّا في كتاب مبين» متّصلاً بالكلام الأوّل لفسد المعنى.

[وهو الّذي يتوفّاكم بالليل] الخطاب عامّ للمؤمن والكافر، أي ينمكم في الليل، ويجعلكم كالميّت في زوال الإحساس والتمييز، ومن هنا ورد: النوم أخ الموت والتوفّي في الأصل : قبض الشيء بتمامه ؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام :يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة ، وإنّ الّذي يرى الرؤيا هو الروح الإنسانيّ وإنّه يرى في عالم المثال والبرزخ ماصدر عن الروح الحيوانيّ من القبيح والحسن، والروح الحيوانيّ ظلّ الروح الإنسانيّ .

[ويعلم ما جرحتم بالنهار] وما كسبتم فيه بعلمه تعالى وخصّ الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على العادة [ثمّ يبعثكم فيه] أي يوقظكم في النهار عطف على «يتوفّاكم» وتوسيط قوله «ويعلم ما جرحتم» بين الجملتين لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم بالتنبيه على أنّه بعد ما يكسبونه من السيّئات مع كونها موجبة لإبقائهم على التوفّي بل إهلاكهم بالمرّة يفيض عليهم بالحياة ويمهلهم كما ينبيء عنه كلمة التراخي [ليقضى أجل مسمّى] أي ليبلغ المتيقّظ آخر أجله المسمّى في الدنيا المتعيّن له المدّة والمراد بقضاء الأجل: فصل مدّة العمر من غيرها بالموت ؛ لأنّ معنى القضاء الفصل والأجل آخر مدّة من الحياة .

[ثمّ إليه مرجعكم] أي مرجعكم بالموت إليه تعالى وإلى حكمه و جزائه

لا إلى غيره [ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون] فيجزكم بأعمالكم بالمجازاة في أعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيّام فالآية السابقة بيان علمه تعالى وهذه الآية بيان قدرته لأنّ الإحياء والإماتة من شأن قدرته تعالى.

قوله تعالى : وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا و هم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا إلى الله مولىهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢).

ثمّ شرح أيضاً قدرته فقال : وهو القاهر أي والله المقتدر المستعلي على عباده، المتفوّق عليهم بالقدرة لا بالمكان ؛ لأنّ ذلك من صفة الأجسام وهو تعالى منزّه عن ذلك، كما يقال : أمر فلان فوق أمر فلان مثل قوله : «يد الله فوق أيديهم» .[1]

[ويرسل عليكم حفظة] أي وهو الّذي يقهر عباده و يرسل ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها وهم الكرام الكاتبون، والحكمة في البيان أنّ المكلّف إذا علم أنّ أعماله يكتب عليه ينزجر عن المعاصي وأنّهم يشهدون بها عليهم يوم القيامة لعلّ ينزجر ويتأدّب ولا يكثر العصيان.

[حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا] أي يحفظون أعمالكم مدّة حياتكم حتّى إذا انتهت مدّة الحياة وجاءه أسباب الموت ومباديه [وهم] أي الرسل [لا يفرّطون] ولا يقصّرون فيما اُمروا به من الحفظ بالتواني والتأخّر طرفة عين ؛ والمتوفّي في الحقيقة هو الله وإنّ ملك الموت وأعوانه وسائط، ولذلك اُضيف التوفّي إليهم، وقد يكون التوفّي بدون وساطتهم كما نقل في وفات الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها وأعوان ملك الموت على ما قيل أربعة عشر ملكاً سبعة منها ملائكة الرحمة وإليهم يسلّم روح المؤمن بعد القبض، وسبعة منهم ملائكة العذاب وإليهم يسلّم روح الكافر بعد الوفاة. وقد جعلت الأرض لملك الموت كالطست يتناول من حيث يشاء[2] وإن كثرت

(١) الفتح : ١٠.

(٢) و به ورد روايات كثيرة استوفى اكثرها المجلسي رحمه الله فى «ج ٦ : ١٣٩ - ١٤٥» من البحار المطبوع جديداً . وفى بعضها انها جعلت له مثل جام وفى بعضها كالقصعة .

وكانت في أمكنة مختلفة .

قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن وحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار ، ولما خلق الله الموت على صورة كبش أملح قال له : اذهب إلى صفوف الملائكة على هيئتك هذه فلم يبق ملك إلا غشي عليه ألفي عام ، ثم أقاموا فقالوا : يا ربنا ماهذا ؟ قال الموت ، قالوا : لمن ذلك ؟ قال : على كل نفس ، قالوا : لم خلقت الدنيا ؟ قال : ليسكنها بنو آدم ، قالوا لم خلقت النساء ؟ قال ليكون النسل ، قالوا : من يسلط عليه هذا هل يشتغل بالنساء والدنيا؟ قال : إن طول الأمل ينسيهم الموت . ولذلك قيل : الموت من أعظم المصائب وأعظم منه الغفلة عنه .

[ثم ردوا إلى الله] عطف على «توفته» أي ردهم الملائكة بعد البعث إلى حكم الله وجزائه في موقف الحساب وقيل : المردودن الملائكة حيث لا حاكم فيه سواه [مولاهم الحق] مالكهم الذي يملك أمورهم على الإطلاق وأما قوله : « وإن الكافرين لا مولى لهم [(1)] » فالمولى بمعنى الناصر هناك فلا تناقض والحق الذي لا يقضي إلا بالعدل وهو صفة للمولى [ألا] أي اعلموا وتنبهوا [له الحكم] أي القضاء بين العباد يومئذ [وهو أسرع الحاسبين] يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن لا يتكلم بآلة ولا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد .

وللرازي تحقيق حقيق في قوله : «وهو القاهر فوق عباده » قال : في المفاتيح : (وتقرير هذا القهر من وجوه : الأول : قهار للعدم بالتكوين والإيجاد . والثاني : قهار للوجود بالإفناء والإفساد فإنه تعالى تارة ينقل الممكن من العدم إلى الوجود ، وتارة من الوجود إلى العدم . والثالث أنه قاهر لكل ضد بضده ، مثل أن يقهر النور بالظلمة والليل بالنهار والنهار بالليل ، وحصول التضاد بينها يقضي عليها بالمقهورية والعجز والنقصان مثل أن هذا البدن مؤلف من الطبائع الأربع وهي متنافرة متباغضة بالطبع متباعدة بالخاصية فإن الحرارة ضد البرودة واليبوسة ضد الرطوبة ، فاجتماعها مع مضاداتها لابد وأن يكون بقسر قاسر .

(1) محمد : ١٢ .

وأخطأ من قال ، إنّ ذلك القاسر هو النفس الإنسانيّ وهو الّذي ذكره ابن سينا في الإشارات لأنّ تعلق النفس بالبدن إنّما يكون بعد حصول المزاج والقاهر لهذه الطبائع المتضادّة على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخّر عن حصول الاجتماع ؛ فثبت أنّ القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلّا الله فإنّ الجسد كثيف ظلمانيّ فاسد عفن والروح لطيف علويّ نورانيّ مشرق باق نظيف وبينهما أشدّ المنافرة والمباعدة وهو سبحانه الجامع بينهما على سبيل القهر والقدرة ومع هذه المنافرة جعل سبحانه كلّ واحد منهما مستكملاً لصاحبه منتفعاً بالآخر فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرّق والبدن يصير آلةً للروح في استكمال تحصيل السعادات الأبديّة ؛ فهذا الاجتماع و هذا الانتفاع ليس إلّا بقهره تعالى لهذه الطباع ، انتهى كلامه) .

فالقاهر للعباد يحاسب عباده بسرعة ؛ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل كيف يحاسب الله الخلق ولا يرونه ؟ قال : كما يرزقهم ولا يرونه . وروي أنّه تعالى يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة ! فاستعدّ لحسابك . قال عليّ بن الحسين عليه السلام : يا ابن آدم إنّك لا تزال بخير مادام لك واعظاً من نفسك ، وما كان الخوف شعارك ، والحزن دثارك إنّك ميّت ومحاسب فأعدّ الجواب . وأوحى الله إلى موسى : ياموسى خفني في سرائرك أحفظك في عوراتك واذكرني في سرائرك وخلواتك وعند سرور لذّاتك أذكرك عند غفلاتك . واملك غضبك عمّن ملّكتك أمره أكفّ غضبي عنك ، واكتم مكنون سرّي وأظهر في علانيتك المداراة عنّي لعدوّك وعدوّي . أقول : لا المداهنة .

قال الصادق عليه السلام : ما الدنيا عندي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها يا حفص إنّ الله علم ما العباد عاملون وإلى ماهم سائرون ، فحلم عنهم عند أعمالهم السيّئة بعلمه السابق فيهم وإنّما يعجل من يخاف الفوت فلا يغرّنّك تأخير العقوبة ، ثمّ تلا قوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً و العاقبة للمتّقين [1]» وجعل يبكي ويقول : ذهبت الأمانيّ عند هذه الآية ؛ الحديث .

---

(١) القصص : ٨٣

قوله تعالى : قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً و خفية لئن أنجينا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤) .

قرء « خفية » بكسر الخاء و بضمّ الخاء و قرء « خيفة » والآية احتجاج على الكفّار .

[قل] يا محمد لهؤلاء الكفّار : [من ينجّيكم] ويخلّصكم [من ظلمات البرّ والبحر] وشدائد أهوالهما . أراد ظلمة اللّيل وظلمة الغيم وظلمة النسيئة والحيرة في البرّ والبحر [تدعونه] أي تدعون الله عند معاينة هذه الشدائد [تضرّعاً وخفيةً] أي علانيةً وسرّاً، أو متضرّعين بألسنتكم وخفية في أنفسكم ، قال الطبرسيّ : والمعنى الثاني أظهر [لئن أنجانا من هذه] أي في أيّ شدّة وقعتم قلتم هذا القول [لنكوننّ من الشاكرين] لإ نعامك علينا وهذا يدلّ على أنّ السنّة من الدعاء التضرّع والإ خفاء ؛ وقد روي عن النبيّ أنّه قال . خير الدعاء الخفيّ وخير الرزق ما يكفي . ومرّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء قال : إنّكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً و إنّما تدعون سميعاً قريباً .

[قل] يا محمد : [الله ينجيّكم] أي ينعم عليكم بالفرج و من هذه الظلمات [ومن كلّ كرب] وغمّ [ثمّ إنّكم تشركون] بالله بعد قيام الحجّة عليكم بأن لا يقدر على الإنجاء غيره .

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون (٦٥) .

في الآية بيان من دلائل التوحيد ممزوج بنوع من التهديد والتخويف [قل] يا محمد لهؤلاء الكفّار:[هو] تعالى [القادر على أن يرسل عليكم] بسبب المخالفة [عذاباً من فوقكم ومن تحت أرجلكم] ومعنى الفوقيّة والتحتيّة قيل محمول على الحقيقة؛ فالعذاب النازل عليهم من فوق مثل المطر النازل من فوق كما في قصّة نوح والصاعقة و كذا الصيحة والريح وحصبة قوم لوط وكما رمي أصحاب الفيل . وأمّا العذاب الّذي ظهر

من تحت أرجلهم فمثل الرجفة ومثل خسف قارون ، فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب الّتي يمكن نزولها من فوق وظهورها من أسفل . وقال ابن عبّاس في رواية : المراد من عذاب الفوق : الظلم من الأمراء ، ومن تحت أرجلكم من العبيد والأراذل والسفلة .

وأمّا قوله : [أو يلبسكم شيعاً] الشيعة الّذين يتّبع بعضهم بعضاً . المراد: يلبسكم ويخلطكم خلط اضطراب لاخلط اتّفاق فيجعلكم فرقاً فرقاً فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهذا معنى «ويذيق بعضكم بأس بعض» وعن ابن عبّاس : لمّا نزل جبرئيل بهذه الآية شقّ ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال : مابقاء أُمّتي إن عوملوا بذلك؟ فقال له جبرئيل : إنّما أنا عبد مثلك فادع ربّك لأُمّتك فسأل ربّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن لا يفعل بهم ذلك فقال جبرئيل : إنّ الله قد أمّنهم من اثنتين : أن لا يبعث عليهم عذاباً من فوقهم كما بعث على قوم نوح ولوط ، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون - والمراد جميع الأُمّة لا بعضها - لكن لم يجرهم من أن يلبسهم شيعاً بالأهواء المختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف .

قال الكلبيّ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ياجبرئيل مايبقى أُمّتي مع قتلهم بعضهم بعضاً ، فقام صلّى الله عليه وآله وسلّم وعاد إلى الدعاء فنزل قوله : «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون»(١) وفي حديث أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال إذا وضع السيف في أُمّتي لم يرفع عنها إلى يوم الساعة . وقال أُبيّ بن كعب : سيكون في هذه الأُمّة بين يدي الساعة خسف وقذف ومسخ .

[انظر كيف نصرّف الآيات] كيف نردّد الآيات و نظهرها مرّة بعد أُخرى بوجوه أدلّتها حتّى تزول الشبهة [لعلّهم يفقهون] لكي يعلموا الحقّ فيتّبعوه والباطل فيجتنبوه .

قوله تعالى : وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون (٦٧) .

---

(١) العنكبوت : ١-٢.

لمّا ذكر سبحانه تصريف الآيات فقال : [وكذّب] بما نصرّف من الآيات . أو الضمير في[به] راجع إلى القرآن وكلا المعنيين متقاربان [قومك] يعني قريشاً والعرب [وهو الحقّ] أي القرآن وتصريف الآيات ، أي يدلّ على الحقّ وما فيه حقّ . ثمّ بيّن أنّ عاقبة تكذيبهم يعود عليهم فقال : [قل] يا محمّد : [لست عليكم بوكيل] أي لم اُومر أن أحول بينكم وبين اختياركم ولست بحافظ لأعمالكم لاُجازيكم بها ، إنّما أنا منذر والله هو المجازي .

[لكلّ نبأ مستقرّ] أي لكلّ خبر من أخبار الله قرار على غاية ينتهي إليها ويظهر عندها . قال ابن عبّاس : المعنى لكلّ خبر حقيقة كائنة إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرة وسمّي الوقت مستقرّاً لأنّه ظرف للفعل الواقع فيه . و قيل : المعنى : لكلّ عمل مستقرّ عندالله حتّى يجازي به يوم القيامة ، عن الحسن .

[وسوف تعلمون] فيه وعيد وتهديد لهم إمّا بعذاب الآخرة وإمّا بالحرب قال السدّي : استقرّ الوعيد يوم بدر وتقديره : وسوف تعلمون ما يحلّ بكم من العذاب ، وحذف لدلالة الكلام عليه . والمستقرّ يجوز أن يكون موضع الاستقرار و يجوز أن يكون نفس الاستقرار ؛ لأنّ مازاد على الثلاثيّ كان المصدر على زنة اسم مفعول نحو المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج فيكون المعنى : لكلّ خبر وقت أومكان يحصل فيه ؛ وإن جعلت المستقرّ بمعنى الاستقرار يكون المعنى : لكلّ وعيد و وعد استقرار .

قوله تعالى : واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨) .

بيّن سبحانه أنّ اُولئك المكذّبين بالقرآن والآيات إن ضمّوا إلى كفرهم و تكذيبهم الاستهزاء بالدين و الطعن بالرسول فإنّه يجب الاحتراز عن مقارنتهم وترك مجالستهم فقال : [وإذا رأيت] قيل : إنّه خطاب للرسول والمراد به غيره وقيل : الخطاب لغيره أي إذا رأيت أيّها السامع [الّذين يخوضون في آياتنا] قال الواحديّ : إنّ المشركين

كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و القرآن و قالوا مالا ينبغي و استهزؤوا ، فأمرهم أن لا يقعد معهم حتّى يخوضوا في حديث غيره ، و لفظ الخوض في اللّغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب [فأعرض عنهم] بترك مجالستهم عند خوضهم في الآيات [حتّى يخوضوا في حديث غيره] أي استمرّ على الإعراض إلى أن يشرعوا في كلام غير ذلك الكلام .

[وإمّا] أصله إن ما فأُدغمت نون إن الشرطيّة في ما المزيدة [ينسينّك الشيطان] ما أُمرت به من ترك مجالستهم [فلا تقعد بعد الذكرى] أي بعد أن تذكره . والذكرى مصدر بمعنى الذكر ولم يجئ مصدر على «فعلى» إلّا القليل [مع القوم الظالمين] الّذين وضعوا التكذيب موضع التصديق وهذا الإنساء لوكان هو المخاطب فمجرّد الاحتمال و الفرض ولايلزم وقوعه ، يدلّ عليه كلمة إن الشرطيّة ، والمراد بالشيطان إبليس لأنّ الشيطان الّذي هو قرينه[1] ليس إلّا ملكاً فلا يأمره إلّا بخير بخلاف قرين كلّ واحد من الأُمّة وهو دلالة على أنّ المخاطب في الآية غيره صلى الله عليه وآله وسلم مثل إيّاك أعني .

[وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيء] الضمير في «حسابهم» راجع إلى الخائضين ، أي وما على المؤمنين الّذين يجتنبون عن قبائح أعمال الخائضين شيء من الجرائم الّتي ارتكبوا بخوضهم ، و ذلك لأنّ المسلمين قالوا : لئن كنّا نقوم كلّما استهزؤوا هؤلاء بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام و نطوف بالبيت ، لأنّهم يخوضون أبداً فرخّص الله لهم في مجالستهم على سبيل الوعظ و التذكير [ولكن ذكرى] أي عليهم أن يذكروا الخائضين ذكرى ، ويمنعوهم عن الخوض بما أمكن من العظة ويظهروا لهم الكراهة والإنكار [لعلّهم يتّقون] ويجتنبون الخوض وقيل: المعنى: ليس على المتّقين من الحساب يوم القيامة مكروه ولا تبعة و لكنّه سبحانه أعلمهم أنّهم محاسبون بخوضهم وحكم بذلك عليهم لكي يعلموا أنّ الله يحاسبهم فيتّقوا ، عن البلخيّ . وعلى هذا فالهاء والميم على الوجه الأوّل يعود إلى الكفّار و في الثاني إلى المؤمنين .

قوله تعالى : وذرالذين اتخذوا دينهم لعبا و لهواً و غرتهم الحيوة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولاشفيع

(١) اى قرين النبى صلى الله عليه وآله . وفى التعبير تسامح .

وأن تعدل كل عدل لايؤخذ منها اولئك الذين ابسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠) .

بيّن سبحانه عاقبة الكفّار فقال : [وذرالّذين] أي دعهم وأعرض عنهم والمراد من الإعراض الإنكار لأنّه قال : بعد ذلك و«ذكّر» يريد : دع ملاطفتهم ولا تدع مذاكرتهم نظير قوله تعالى : « فأعرض عنهم و عظهم » والمراد بالموصول الخائضون في الآيات . و[دينهم]أي دين الّذي اُمروا بإقامته وهودين الإسلام الّذي هم مكلّفون به وقد أخذوه لعباً ولهواً ، واللعب عمل يشغل النفس وينفرها عمّا تنتفع به ، و اللهو صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل [وغرّتهم الحياة الدنيا واطمأنّوا بها] .

[وذكّر به] أي بالقرآن وعظ ، وقيل : باليوم القيامة ذكّرهم و قيل : بالحساب [أن تبسل نفس بما كسبت] و المبتسل الّذي يعلم أنّه لا يقدر على التخلّص من أمر وقع فيه ، والمعنى : لكي لاتسلّم نفس للهلكة [بما كسبت] وعملت وقيل : معنى تبسل تهلك . وقيل : تؤخذ وقيل : تسلم إلى خزنة جهنّم . وقيل ؛ يجازى والمعاني متقاربة [ليس لها من دون الله وليّ] أي ناصر ينجّيها من العذاب [ولاشفيع] يشفع لها [و إن تعدل كلّ عدل] أي لاخلاص لها وإن تفد كلّ فداء [لايؤخذ منها] وقيل : وإن تقسط كلّ قسط في ذلك اليوم لا يقبل منها ؛ لأنّ التوبة هناك غير مقبولة و إنّما تقبل في الدنيا .

[اُولئك الّذين اُبسلوا] أي اُهلكوا فلا مخلص لهم وجوزوا [بما كسبوا] أي بعملهم و كسبهم [لهم شراب من حميم] أي ماء مغيور شديد الحرارة [وعذاب أليم]مولم [بما كانوا يكفرون] أي جزاء على كفرهم واختلف في الآية فقيل : إنّها منسوخة بآية السيف ، عن قتادة . وقيل : ليست بمنسوخة و إنّما هي تهديد ، وفي الآية دلالة على الوعيد العظيم بالاستهزاء في الدين وبآيات الله قال الفرّاء : عن ابن عباس : مامن اُمّة إلّا ولهم عيد يلعبون فيه ويلهون إلّا اُمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ أعيادهم صلاة ودعاء وعبادة .

قوله تعالى : قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا و نرد على اعقابنا بعد اذ هدينا الله كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران له

اصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى و امرنا لنسلم لرب العالمين (٧١) .

أمر سبحانه نبيّه والمؤمنين بخطاب الكفّار فقال : [قل] يا محمد لهؤلاء الكفّار الّذين يدعون إلى عبادة الأصنام ، أو المعنى قل : أيّها الانسان أو أيّها السامع [أندعو من دون الله مالا ينفعنا] إن عبدناه [ولا يضرّنا] إن تركنا عبادته [ونردّ على أعقابنا] هذا مثل يقال ؛ لكلّ خائب لم يظفر بحاجته : ردّ على عقبيه . وكلّ من أعرض عن الحقّ إلى الباطل رجع على عقبيه رجع القهقرى [بعد إذ هدانا الله] أي أن نرجع عن ديننا الّذي هو خير الأديان وأنقذنا من الشرك .

[كالّذي استهوته الشياطين] صفة لمصدر محذوف و تقديره : أندعو من دون الله دعاءً مثل دعاء الّذي استهوته الشياطين ، وذهبت به مردة الجنّ ، وأوقعته إلى المهانة و أضلّته ؛ ومثل من هوى من حالق[(١)] واستغوته الغيلان في الغياض [حيران] لا يهتدي سبيلاً ؟ وقيل : من الهوى أي دعته الشياطين إلى اتّباع الهوى . و«حيران» حال من «هاء» استهوته ، صفة مشبّهة مؤنّثه حيرى .

[له أصحاب يدعونه إلى الهدى] أي لذلك الحيران أصحاب يقولون له : [ائتنا] وهو لا يقبل منهم طريق الهداية لأنّه قد تحيّر لاستيلاء الشيطان عليه يهوي ولا يهتدي و قيل : المراد أنّ لذلك الكافر الضالّ أصحاباً يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمّونه بأنّه هو الهدى قال الرازيّ : والصحيح هو الأوّل .

ثمّ قال سبحانه : [قل إنّ هدى الله هو الهدى] الكامل النافع و هو الإسلام و ما عداه ضلال محض وغيّ بحت وقل أيضاً : [اُمرنا لنسلم لربّ العالمين] واللام بمعنى الباء والعرب يقول : أمرتك لتفعل أي بأن تفعل أي نوحّده ولا نشرك به شيئاً ونؤمن بكتابه وقيل : نسلم اُمورنا ونفوسنا إلى الله .

قوله تعالى : وأن أقيموا الصلوة واتقوه وهو الذى اليه تحشرون (٧٢) وهو الذى خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون (٧٣) قوله

---

(١) الحالق من الجبال : المرتفع المنيف .

الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة و هو الحكيم الخبير(٧٣) .

أي اُمرنا لأن نسلم ولأن نقيم الصلاة أو اُمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة [واتّقوه] وقيل لنا : تجنّبوا معاصي الله واتّقوا عذابه [وهو الّذي إليه تحشرون] و تجمعون يوم القيامة ، يجازى كلّ عامل منكم بعمله .

فإن قيل : كيف حسن عطف قوله : «وإن أقيموا الصلاة» على قوله : « واُمرنا لنسلم » ؟ ذكر الزجّاج أنّ التقدير : واُمرنا فقيل لنا : أسلموا لربّ العالمين وأقيموا الصلاة .

فإن قيل : هب إنّ المراد كذلك لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر إلى التقدير والتأويل ؟ قال الرازيّ : لأنّ الكافر مادام باق على كفره كان كالغائب الأجنبيّ فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين فيقال : «واُمرنا» وإذا أسلم ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر فلاجرم يخاطب بخطاب الحاضرين ويقال له : «وأقيموا الصلاة و اتّقوه » والمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان فإنّ الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر .

[وهو الّذي خلق السماوات و الأرض بالحقّ] أي خلقهما للحقّ لا للباطل و خلقهما حقّاً وصواباً لاخطأً و عبثاً وقيل : معناه : خلق السماوات و الأرض بكلامه الحقّ فالحقّ صفة كلامه قال الطبرسيّ : والصحيح المعنى الأوّل [ويوم يقول كن فيكون] ويوم منصوب ومعطوف على الهاء في قوله «واتّقوه» و المعنى : واتّقوه يوم يقول : كن فيكون وقيل : التقدير : و اذكروا يوم يقول : كن فيكون . أو عطف على السماوات و المعنى : و هو الّذي خلق السماوات و الأرض ، و خلق يوم يقول : كن فيكون . فإن قيل : إنّ يوم القيامة لم يأت بعد ؛ فالجواب أنّ ما أنبأ الله بكونه حقيقة كائنة لا محالة . و الخطاب في «كن» قيل : للصور فيكون المعنى : يقول الله للصور: كن فيكون . فالمراد أنّه لايتأخّر الأمر عن إرادته تعالى وسرعة وقوعه .

[قوله الحقّ] أي يأمر فيقع أمره والحقّ صفة «قوله» . و«قوله» فاعل «يكون»

أي ماوعد به من الثواب والعقاب حقّ [وله الملك يوم ينفخ في الصور] والتخصيص بهذا اليوم لأنّ هذا اليوم هو اليوم الّذي لا يظهر من أحد نفع ولا ضرّ والأمر يومئذ لله فلهذا السبب حسن التخصيص ، والمراد من الصور ذلك القرن الّذي ينفخ فيه إسرافيل على ما ذكره الله هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم وقيل : إنّ الصور في هذه الآية جمع الصورة مثل صوف وصوفة وثوم وثومة .

قال الفرّاء : كلّ جمع على لفظ الواحد المذكّر فواحده بزيادة هاء فيه إذا سبق جمعه واحده ، وذلك مثل الصوف والشعر والوبر والقطن والعشب ، فكلّ واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه وإذا اُفردت واحدته زيدت فيها هاء ؛ لأنّ جمع هذا الباب سبق واحده ، ولو أنّ الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا : صوفة وصوف و وبرة و وبر كما قالوا : غرفة و غرف و زلفة وزلف .

وأمّا الصور بمعنى القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال : واحدته صورة ، وإنّما يجمع صورة الإنسان صوراً لأنّ واحدته سبقت جمعه ، وأخطأ أبو الهيثم قول من قال : إنّ المراد في الآية معنى الجمعيّة في الصور فقالوا : إنّ هذا القول تبديل في كلام الله لأنّ الله تعالى قال : «وصوّركم فأحسن صوركم»[1] بل المراد وهو الفرق ، و يؤيّد القول الأوّل مارواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال : كيف اُنعّم و قد التقم صاحب القرن القرن وجنا حيه ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟

[عالم الغيب والشهادة] أي يعلم مالا يشاهده الخلق وما يشاهدونه ، ومالا يعلمه الخلق وما يعلمون [وهو الحكيم] في أفعاله [الخبير] بعباده .

قوله تعالى : واذقال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك و قومك فى ضلال مبين (٧٤) و كذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات و الارض وليكون من الموقنين (٧٥) .

احتجّ سبحانه على المشركين بأحوال إبراهيم ﷺ حيث إنّ الكلّ معترفون

---

(١) غافر : ٦٦ .

بفضله ويدّعون بأنّهم من أولاده ، واليهود والنصارى يعظّمون له وهذه المرتبة المسلّمة عند أهل العالم لم يتّفق لأحد لأنّه عليه السلام سلّم قلبه للعرفان ، وماله للضيفان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، ولسانه للبرهان ، وسأل ربّه وقال : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » (١) فاستجاب الله دعاءه وحقّق مطلوبه وجعل جميع الطوائف والملل يعظّمونه معترفين بفضله حتّى المشركين يفتخرون بأنّهم أولاده فقال :

[و]اذكر [إذ قال إبراهيم لأبيه آزر] فيه أقوال : أحدها أنّه اسم أب إبراهيم ، عن الحسن والسدّي والضحّاك . و ثانيها أنّ اسم أب إبراهيم تارخ قال الزجّاج : ليس بين النسّابين اختلاف في أنّ اسم أب إبراهيم تارخ ، والّذي في القرآن يدلّ على أنّ اسمه آزر وقيل : آزر عندهم ذمّ في لغتهم كأنّه قال : وإذ قال إبراهيم لابيه : يا مخطيء فإذا كان كذلك فالاختيار الرفع ، وجائز أن يكون وصفاً له كأنّه قال لأبيه : المخطيء وقيل : آزر اسم صنم ، عن سعيد بن المسيّب ومجاهد . وقال الزجّاج : فإذا كان كذلك فآزر موضعه النصب على إضمار الفعل والتقدير : وإذ قال إبراهيم لأبيه : أتتّخذ آزر ؟ و«أصناماً» بدل من آزر وأشباهه فقال بعد أن قال : أتتّخذ آزر إلهاً ؟ : أتتّخذ أصناماً آلهة ؟

قال الطبرسيّ : و هذا الّذي قاله الزجّاج من أنّه لاخلاف بين النسّابين في أنّ اسم أب إبراهيم تارخ يقوّي ماقاله أصحابنا : إنّ آزر كان جدّ إبراهيم لأمّه أو كان عمّه من حيث صحّ عندهم أنّ آباء النبيّ إلى آدم كلّهم كانوا موحّدين . و اجتمعت الطائفة على ذلك ، وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهليّة . ولو كان في آبائه كافر لم يصف جميعهم بالطهارة مع قوله : «إنّما المشركون نجس» (٢) ولنا أدلّة أيضاً في ذلك ليس هنا موضع ذكره (٣) .

---

(١) الشعراء : ٨٤ . (٢) التوبة : ٢٨ .

(٣) واستدل له ايضا بآية الشريفة : و تقلبك فى الساجدين فان الجمع المحلى باللام يدل على ساجدية عموم من تحول الرسول صم فى اصلابهم و ارحامهم .

[أتتخذ أصناماً آلهة] الاستفهام إنكاري أي لا تفعل ذلك [إنّي أراك وقومك في ضلال] عن الحقّ والصواب [مبين] ظاهر وفي الآية حثّ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على محاجّة قومه الّذين دعوه إلى عبادة الأصنام والاقتداء بأبيه إبراهيم لقوله تعالى «فبهداهم اقتده»[1] وتسلية له بذلك.

قال الرازيّ : و ههنا يقتضي مزيد بيان وهو أنّه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام والدليل عليه أنّ أقدم الأنبياء وهو نوح إنّما جاء بالردّ على عبدة الأصنام كما قال سبحانه حكاية عن قومه أنّهم قالوا : «لا تذرنّ ودّاً ولا سواعاً و لا يغوث و يعوق ونسراً»[2] . وذلك يدلّ على أنّ دين عبدة الأصنام قد كان موجوداً زمن نوح أو قبله ، و قد بقي ذلك الدين إلى هذا الزمان ، و المذهب الّذي هذا شأنه مع العلم بأنّ هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الّذي خلقني وخلق السماوات ، والعلم الضروريّ يحكم ببداهة العقل بطلانه ، كيف يكون بينهما التوفيق ؟ لأنّه يمتنع إطباق الخلق الكثير في المدّة المتطاولة في أمر ضروريّ البطلان .

والعلماء ذكروا في كشف هذا المعنى وجوهاً كثيرة :

الأوّل أنّ الناس رأوا تغيّرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيّرات أحوال الكواكب فإنّه بحسب قرب الشمس وبعدها من سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة ، وبسبب حدوث الفصول الأربعة تحدث الأحوال المختلفة في هذا العالم ، ثمّ إنّ الناس ترصّدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات و النحوسات بكيفيّة وقوعها في طالع الناس على أحوال مختلفة ، فلمّا اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق أنّ مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتّصالات الفلكيّة والمناسبات الكوكبيّة ، فلمّا اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثمّ منهم اعتقدوا أنّها واجبة الوجود لذواتها ، ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر إلّا أنّهم قالوا : إنّها وإن كانت مخلوقة للإله الأكبر إلّا أنّها هي المدبّرة لأحوال هذا العالم و هؤلاء هم

(١) الانعام : ٩٠ .

(٢) نوح : ٢٣ .

الّذين أثبتوا الوسائط بين الإله الأكبر وبين أحوال هذا العالم و على كلا التقديرين فالقوم اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها .

ثمّ إنّهم لمّا رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتّخذوا لكلّ كوكب صنماً من الجوهر المنسوب إليه ؛ فاتّخذوا صنم الشمس من الذهب وزيّنوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس مثل الياقوت و الألماس ، و اتّخذوا صنم القمر من الفضّة وعلى هذا القياس ، ثمّ أقبلوا على عبادة هذه الأصنام ، وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب و التقرّب إليها ، و المقصود الأصليّ من عبادة هذه الأصنام كان عبادة الكواكب ، وسبب عبادة الأصنام كان هذا البيان الّذي ذكرناه .

الوجه الثانيّ في سبب عبادة الأصنام ما ذكره أبو معشر جعفر بن محمّد المنجّم البلخيّ أنّ كثيراً من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الإله والملائكة إلّا أنّهم يعتقدون أنّه تعالى جسم وصورة كأحسن مايكون من الصور ، و للملائكة أيضاً صور حسنة إلّا أنّهم كلّهم محتجبون عنّا بالسماوات فلاجرم اتّخذوا صوراً و تماثيل أنيقة حسنة الرؤيا والهيكل ، فيتّخذون صورة في غاية الحسن و يقولون : إنّها صورة الإله و صورة اُخرى دون الصورة الاُولى ويجعلونها على صورة الملائكة ، ثمّ يواظبون على عبادتها، قاصدين بتلك العبادة طلب الزلفى من الله و من الملائكة .

الوجه الثالث أنّ القوم يعتقدون أنّ الله فوّض تدبير كلّ واحد من الأقاليم إلى ملك بعينه وفوّض تدبير كلّ قسم من أقسام العالم إلى روح سماويّ بعينه مثل أنّ مدبّر البحار ملك و مدبّر الجبال ملك آخر فلمّا اعتقدوا ذلك اتّخذوا لكلّ واحد من اُولئك الملائكة صنماً مخصوصاً و هيكلاً مخصوصاً و يطلبون من كلّ صنم مايليق بذلك الروح الفلكيّ من الآثار والتدبيرات وذكروا أيضاً وجوهاً آخر لاحاجة إلى الإطالة انتهى .

و الأنبياء بيّنوا في إقامة الدلائل على أنّ هذه الكواكب لاتأثير لها في أحوال

هذا العالم كما قال الله : «ألا له الخلق و الأمر »(١) بعد أن بيّن في الكواكب أنّها مسخّرة وبتقدير أنّها يصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلّا أنّ دلائل الحدوث حاصلة فيها فوجب كونها مخلوقة والاشتغال بعبادة الأصل أولى بعبادة الفرع ، سيّما إذا ورد المنع كما أفتى إبراهيم لمّا قال لأبيه : «أتتّخذ أصناماً آلهة إنّي أراك وقومك في ضلال مبين » بأنّ عبادة الأصنام جهل وضلالة .

قوله : [وكذلك نري إبراهيم] الكاف للتشبيه وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره والمذكور ههنا هو أنّه استقبح عبادة الأصنام وهو قوله : «إنّي أراك وقومك في ضلال مبين» والمعنى : ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه [ملكوت السموات والأرض] ومثل ذلك التبصير نبصّره مالكيّته تعالى لهما . و «الملكوت» مصدر على وزن صيغة المبالغة كالرهبوت و الجبروت . ومعنى الملكوت السلطنة القاهرة أو آثارها مثل الشمس و القمر وما في الأرض من البحار و المياه و الرياح ليستدلّ بها على معرفة الله فأجري الملكوت على المملوك الّذي هو فيها مجازاً قال أبوجعفر : كشف الله له عن الأرضين حتّى رآهنّ وماتحتهنّ ، وعن السماوات حتّى رآهنّ وما فيهنّ من الملائكة وحملة العرش .

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لمّا رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى رجلاً يزني فدعا عليه فمات ، ثمّ رأى آخر فدعا عليه فمات ، ثمّ رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا ، فأوحى الله إليه ياإبراهيم : إنّ دعوتك مستجابة فلا تدع على عبادي فإنّي لوشئت أن اُميتهم بدعائك ماخلقتهم ، إنّي خلقت خلقي على ثلاثة أصناف صنف يعبدني لايشرك بي شيئاً فاُثيبه ، وصنف يعبد غيري لايفوتني ، وصنف يعبد غيري فاُخرج من صلبه من يعبدني .(٢)

واعلم أنّ دلالة ملك الله وملكوته على نعوت جلاله تعالى و سمات عظمته غير متناهية ، و حصول المعلومات الّتي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال ،

---

(١) الاعراف : ٥٢ .

(٢) رواه علي بن ابراهيم فى تفسيره ص ١٩٤ و اورد فيه ايضا قصة نشوئه فى النار ورواه البحرانى فى البرهان عن تفسير الامام وغيره ج١ ٥٣٢ - ٥٣٣ .

فإذن لاطريق إلى تحصيل تلك المعارف إلّا بأن يحصل بعضها عقيب بعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر ؛ فلهذا السبب لم يقل : وكذلك أريناه ملكوت السماوات والأرض كما قال المحقّقون : السفر إلى الله له نهاية وأمّا السفر في الله لانهاية له .

[وليكون من الموقنين] أي من المتّقين بأنّه سبحانه هو المالك و الخالق لها . «واللام» متعلّقة بمحذوف مؤخّر مقرّر لما قبلها ، تقديره : ليكون من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين فعلنا ما فعلنامن التبصّر البديع .

[فلمّا جنّ عليه الليل] أي ستره بظلامه [رأى كوكباً] جواب «لمّا» بأنّ رؤيته إنّما تحقّق بزوال نور الشمس ، عن الحسن . قيل : كان الكوكب هو الزهرة ، وقيل : هو المشتري [قال] كأنّه قيل : ماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب ؟ فقيل : قال على سبيل الموافقة مع الخصم لإبطال حجّة الخصم وإثبات حجّته : [هذا ربّي] .

فإن قيل : إنّه عليه السلام بعد أن رأى الشمس بازغة قال . « هذا ربّي » و أتى بلفظ التذكير ، فالمراد أنّ هذا النور الطالع ، أوأنّ تأنيث الشمس على لغة العرب وأمّا في كلام غير العرب فيجوز أن لايكون مؤنّثة وإبراهيم لم يكن عربيّاً فحكى الله كلامه على ماكان في لغته .

فإن قيل : لم اُنّثت الشمس وذكّر القمر ؟ قيل : إنّ تانيثها تفخيم لها لكثرة ضيائها ، على حدّ قولهم «نسّابة وعلّامة» وليس القمر كذلك لأنّه دونها في الضياء .

[فلمّا أفل] أي غرب [قال لاأُحبّ الآفلين] واختلف في تفسيره قيل : إنّ إبراهيم إنّما قال ذلك عند كمال عقله عند النظر لأنّه أكمل الله عقله و حرّك دواعيه على التأمّل .

وأصل القضيّة أنّ ملك ذلك الزمان رأى رؤياً ، وعبّرها المعبّرون بأنّه غلام ينازعه في الملك ؛ فأمر ذلك الملك بذبح كلّ غلام يولد فحملت اُمّ إبراهيم اسمها أوفى بنت نمر ، وماأظهرت حبلها للناس فلمّا جاءها الطلق ذهبت إلى كهف من جبل ، ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحجر جاء جبرئيل ووضع إصبعه في فيه فمصّه فخرج منه رزقه وكان يتعهّده جبرئيل عليه السلام ، وكانت اُمّه تأتيه أحياناً وترضعه وتميّزه وبقي على هذه

الصفة حتّى كبر وعقل وعرف أنّ له ربّاً ، وكانت أمّ إبراهيم بعدما وضعته أخبرت زوجها أنّي وضعت ما في بطني فمات ودفنته في الغار فصدّقها تارخ و بقي إبراهيم في الغار سبعة سنين أو ثلاثة عشر سنة أو سبعة عشر .

فلمّا شبّ إبراهيم أخبرت أوفى زوجها أنّ ابنك قد كبر و أنّي كتمت أمره خوفاً من نمرود فأرت إبراهيم لأبيها فأسرّ تارخ بذلك غاية ، فقال تارخ لأوفى : لابدّ أن نخرجه من الغار إلى البلدة فأخرجوه من الغار وقت المساء فرأى إبراهيم لمّا اُخرج من الغار غنماً و خيلاً تحت هضبة الغار ، فسأل اُمّه إنّ لهذه الخيل و الأغنام ربّاً يرزقها ويخلقها ولابدّ لي من ربّ فمن ربّي ؟ فقالت أنا . فقال : ومن ربّك ؟ قالت : أبوك . فقال : من ربّ أبي ؟ فقالت : ملك البلد فعرف إبراهيم جهلها .

فنظر من باب الغار ليرى شيئاً يستدلّ به على وجود الربّ ، فرأى النجم الّذي هو أضوأ النجوم إمّا الزهرة أو المشتري - حسب ماذكرنا وكان ذلك وقت اضمحلال نور الشمس قريباً من الغروب فقال : «هذا ربّي» .

وقيل : كان هذا الأمر بعد بلوغ إبراهيم ، وجريان قلم التكليف عليه . و منهم من قال : قبل البلوغ واتّفق أكثر المحقّقين على فساد قول الأوّل بوجوه : الأوّل أنّ القول بربوبيّة النجم كفر بالإجماع ، والكفر غير جائز بالإجماع على الأنبياء . الثاني أنّه عليه السلام دعا لآزر إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام حيث قال : «ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً»(١) ومن دعا غيره إلى الله ولا شكّ أنّه إنّما اشتغل بدعوة أبيه يعني عمّه بعد فراغه من مهمّ نفسه ثبت أنّ هذه الوقعة إنّما وقعت بعد أن عرف الله .

ثمّ إنّ دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة من خمسة عشر وجهاً كما شرحوها، كيف يليق بأعقل العقلاء أن يقول بربوبيّة الكواكب ومن كان منصبه في الدين كذلك بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض حتّى رأى من فوق العرش والكرسيّ و ماتحتها إلى ما تحت الثرى ، وقد شهد الله له حيث قال : «إذا جاء ربّه بقلب سليم(٢)»

(١) مريم : ٤٣ . (٢) الصافات : ٨٢ .

وأقلّ سلامة القلب سلامته عن الكفر وقال : «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين »[١] أي آتيناه رشده من قبل من أوّل زمان الكفرة و كنّا به عالمين أي بطهارته وكما له .

وقوله : «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» أي وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين .

ثمّ قال بعده : « فلمّا جنّ عليه الليل» والفاء تقتضي الترتيب ، فثبت أنّ هذه الواقعة إنّما حصلت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربّه ، فعلم أنّ هذه المباحثة إنّما جرت مع قومه لاجل أن يرشدهم إلى الايمان ، لالأجل أنّ إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه .

قال الرازيّ : إنّ الّذين يقولون :إنّ إبراهيم إنّما اشتغل بالنظر إلى الكواكب والشمس والقمر حال ما كان في الغار غلط لأنّه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول : «يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون» لأنّه ما كان معه في الغار لا قوم و لا صنم وأنّ الله لمّا ذكر هذه القصّة قال : «وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه» و لم يقل : على نفسه ، وقال سبحانه : « وحاجّه قومه قال أتحاجّونّي في الله » وكيف يحاجّونه وهم بعد وما رأوه وهو ما رآهم فثبت أنّه عليه السلام إنّما اشتغل بالنظر إلى الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادة الأصنام و هو ينكرهم بقوله : «لا أحبّ الآفلين» ردّاً عليهم ، ولا يجوز أن يكون النظر إلى الكواكب لأجل معرفة نفسه ؛ لأنّ تلك اللّيلة كانت مسبوقة بالنهار ولا شكّ أنّ الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدّم ثمّ غربت فكان ينبغي أن يستدلّ بغروبها السابق على أنّها لا تصلح للإلهيّة ، وإذا بطل بهذا الدليل صلاحيّة الشمس للإلهيّة بطل ذلك أيضاً في القمر والكواكب بطريق أولى فتبيّن أنّ هذا الأمر والاحتجاج لابطال الخصم وإلزامه الحجّة ، ولمّا كانت المكالمة والمناظرة مع القوم حال طلوع النجم وامتدّت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس بعده صحّ نظم الكلام فثبت بهذا البيان والدلائل أنّه لا يجوز

(١) الانبياء : ٥٢ .

أن يقال : إنّ إبراهيم قال على سبيل الجزم : «هذا ربّي» بل قال لإبطال كلام الخصم، ولمّا أبطل حجّتهم بالأفول والحدوث والتغيّر واستحال إلهيّتها قال في آخر كلامه :

فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون (٧٨) انى وجهت وجهى للذى فطر السموات و الارض حنيفا وما انا من المشركين (٧٩) .

أي وجّهت نفسي وتوجّهت مخلصاً مائلاً عن الشرك إلى الإخلاص لمن خلق السماوات والأرض والكواكب .

قوله : وحاجه قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان و لا اخاف ما تشركون به الا ان يشاء الله ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً افلا تتذكرون (٨٠) وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فاى الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون (٨١) .

ثمّ ذكر سبحانه محاجّة إبراهيم مع قومه أي خاصموه وجادلوه قومه وخوّفوه من ترك عبادة آلهتهم ؛ فقال : إبراهيم ، أتحاجّونّي في الله وقد هداني ووفّقني لمعرفته [ولا أخاف ما تشركون به] من الأصنام لأنّ الخوف إنّما يحصل ممّن يقدر على النفع والضرّ وهي جمادات لاتقدر .

فإن قيل : إنّه للطلسمات باعتبار ارتباطها بالكواكب قد شوهد منها آثار مخصوصة فلمّ لايجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة ؟ فالجواب أنّ قوى الكواكب غير مستقلّة وإنّما هي من خلق الله ؛ فالخوف يكون من الله لا منها [إلّا أن يشاء ربّي] أي إلّا أن أذنب فيشاء إنزال العقوبة بي ، أو إلّا أن يشاء أن يبتليني بمحن الدنيا فيقطع عنّي عادات نعمته ، أوأن يحييها ويمكّنها من خيري ونفعي ، واللّفظ يحتمل كلّ هذه الوجوه ، والاستثناء متصّل والمستثنى منه محذوف ، والتقدير : لاأخاف معبوداتكم في وقت من الأوقات إلّا وقت مشيئته شيئاً من أصابه مكروه بي من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً .

[وسع ربّي كلّ شيء علماً] أي أحاط بكلّ شيء علماً ، كأنّه تعليل للاستثناء

فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه بسبب من الأسباب لا بالطعن فيها [أفلا تتذكّرون] ولا تتأمّلون في أنّ آلهتكم جمادات غير قادرة على إضراري.

[وكيف أخاف ما أشركتم] بالله من الأصنام والمراد إنكار الوقوع و نفي الضرر منها بالكلّية [و لا تخافون أنّكم أشركتم بالله] أي كيف أخاف أنا ماليس في حيّز الخوف أصلاً، وأنتم لاتخافون غائلة ماهو أعظم المخوفات وهو إشراككم بالله، واجترأتم عليه و جعلتم له شركاء [مالم ينزّل به عليكم سلطاناً] و حجّة على صحّته، و المراد امتناع وجود الحجّة في مثل هذه القصّة وهذا المعنى نظير قوله «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به»[1].

[فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن] أنحن أم أنتم؟ وحاصل المعنى: مالكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف [إن كنتم تعلمون] من أحقّ به فأخبروني.

الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اؤلئك لهم الامن وهم مهتدون (٨٢).

في الآية مزيد بيان في من هو أحقّ بالأمن فقال: هم الّذين آمنوا و عرفوا الله وصدّقوا به وبما أوجبه عليهم ولم يخلطوا ذلك بظلم، والمراد «بظلم» في هذه الآية هو الشرك، عن أكثر المفسّرين وهو المرويّ عن سلمان الفارسيّ و حذيفة بن اليمان. و روى عبدالله بن مسعود قال: لمّا نزلت هذه الآية شقّ على النّاس وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يظلم نفسه فقال ﷺ: إنّه ليس الّذي تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح: «يا بنيّ لاتشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم»[2] و قال الجبّائيّ و البلخيّ: تدخل في الظلم كلّ كبيرة تحبط ثواب الطاعة قال البلخيّ: ولو اختصّ الشرك على ما قالوه لوجب أن يكون مرتكب الكبيرة إذا كان مؤمناً كان آمناً [أولئك لهم الأمن] فقط من العذاب [وهم مهتدون] إلى الحقّ ومن عداهم في ضلال و قيل: مهتدون إلى

(٢) المؤمنون: ١١٧.
(٢) لقمان: ١٣.

الجنّة ، واختلف في هذه الآية فقيل : إنّها من تمام قول إبراهيم ، وروى ذلك عن عليّ عليه السلام ، وقيل : إنّ هذا القول من الله على جهة فصل القضاء بذلك بين إبراهيم وقومه ، عن محمّد بن إسحاق وأبي زيد والجبّائيّ .

قوله تعالى : وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم (٨٣) و وهبناله اسحق و يعقوب كلا هدينا و نوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى و هرون وكذلك نجزى المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين (٨٥) و اسماعيل و اليسع و يونس و لوطو كلا فضلنا على العالمين (٨٦) ومن آبائهم و ذرياتهم واخوانهم و اجتبيناهم و هديناهم الى صراط مستقيم (٨٧) .

[وتلك] إشارة إلى ما احتجّ به إبراهيم على قومه من قوله : «فلمّا جنّ عليه اللّيل - إلى قوله - وهم مهتدون» [حجّتنا] الحجّة عبارة عن الكلام المؤلّف للاستدلال على المطلوب [آتيناها إبراهيم] أي أرشدناه إلى تلك الحجج و علّمناه إيّاها و أخطرناها بباله حتّى تمكّن من إيرادها على قومه عند المحاجّة [نرفع درجات من نشاء] من المؤمنين ونفضّل بعضهم على بعض بحسب أحوالهم في الإيمان واليقين [إنّ ربّك حكيم عليم] يجعل التفاوت بينهم على ماتوجب حكمته ، وقيل : معناه نرفع درجات من نشاء على الخلق بالاصطفاء للرّسالة [ووهبناله] أي لإبراهيم [إسحاق] وهو ابنه من سارة [و يعقوب] من إسحاق [كلاًّ هدينا] أي كلّ واحد منهما أرشدنا إلى الفضائل الدينيّة .

[ونوحاً] منصوب بمقدّر يفسّره [هدينا من قبل] أي من قبل إبراهيم . وعدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنّه أبوه وشرف الوالد يتعدّى إلى الولد [ومن ذرّيّته] أي ومن ذرّيّة نوح لأنّه أقرب المذكورين إليه ، ولأنّ فيمن عدّدهم من ليس من ذرّيّة إبراهيم وهو لوط وإلياس ويونس و قيل : الضمير راجع إلى إبراهيم لكن قيل : إنّ يونس عن ذرّيّة إبراهيم لأنّه كان من الأسباط في زمن شعيب [داود] ابن إيشا

[وسليمان] ابنه وسلسلتهما تنتهي إلى يهودا بن يعقوب [وأيّوب] ابن أموص بن رازح بن روم بن عصيا بن إسحاق بن إبراهيم [ويوسف] بن يعقوب [وموسى] ابن عمران بن يصهر بن ماهت بن لاوي بن يعقوب [وهرون] هو أخو موسى أكبر منه بسنة ، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم .

[وكذلك نجزى المحسنين] أي كما جزينا المذكورين برفع الدرجات نجزي من أحسن على قدر استحقاقهم أو كما تفضّلنا على هؤلاء الأنبياء بالنبوّة ؛ فكذلك نتفضّل على المحسنين بنيل الثواب .

[وزكريّا] ابن أدن بن بركيا [ويحيى] وهو ابنه [وعيسى] ابن مريم بنت عمران من بني ماثان الّذين هم ملوك بني إسرائيل . قال الحقّي في تفسيره : وفي ذكر عيسى دليل على أنّ الأولاد والذرّيّة تتناول أولاد البنت ، فيكون الحسن والحسين عليهما السلام ذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

[وإلياس] ابن أخ هرون أخي موسى [كلّ] منهم [من الصّالحين] الكاملين في الصلاح وهو الإيمان بما ينبغي و التحرّز عمّا لا ينبغي [و إسماعيل] عطف على « نوحاً » أي وهدينا إسماعيل بن إبراهيم كما هدينا نوحاً ، و لعلّ الحكمة في إفراد إسماعيل عن باقي ذرّيّة إبراهيم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان من ذرّيّة إسماعيل و الكائنات كانت تبعاً لوجوده صلى الله عليه وآله وسلم فما جعل الله إسماعيل تبعاً لوجود إبراهيم فلذا أفرده بالذكر عنهم وأخّره في الذكر [واليسع] بن أخطوب بن العجوز ، قيل : اللاّم زائدة لأنّه علم أعجميّ [ويونس] بن متى ولوط بن حاذان بن أخي إبراهيم [وكلاًّ] منهم [فضّلنا على العالمين] أي عالمي عصرهم ،

والمقصود من هذه الآية تعديد أنواع النّعم على إبراهيم جزاء على قيامه عن دلائل التوحيد ؛ فرزقه أولاداً أنبياء مثل إسحاق و يعقوب و جعل أنبياء بني إسرائيل من نسلها و أخرجه من أصلاب طاهرين مثل نوح وإدريس وشيث . وكرامته عليه السلام بحسب الآباء والأبناء .

قال الرازيّ : إنّ حرف الواو ولايوجب الترتيب بدليل هذه الآية فإنّ حرف

الواو حاصل ههنا مع أنّه لا يفيد الترتيب لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان ، و هؤلاء المذكورون نالوا من الأمور العظيمة مالم ينل أحد فإنّه تعالى أعطى من الملك و القدرة والسلطان والنبوّة بعضهم مثل داود وسليمان نصيباً عظيماً وكذلك المحنة الشديدة و البلاء العظيم خصّ الله بها أيّوب و منهم من جمع له الخصلتين البلاء الشديد و الملك مثل يوسف ، ومنهم أعطاه المعجزات العظيمة والصولة الشديدة مثل موسى و هرون ، ومنهم أعطاه الزهد الشديد بالإعراض عن الدّنيا مثل زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس بتخصيصهم بالذكر لكمال هذه المراتب فيهم .

قوله تعالى : [ومن آبائهم] من تبعيضيّة أي وفضّلنا بعض آباء المذكورين كآدم وشيث [وذرّيّاتهم] أي وبعض ذرّياتهم من بعدهم كأولاد يعقوب [وإخوانهم] والمراد منهم كلّ من آمن معهم فإنّهم كلّهم دخلوا في هداية الإسلام [واجتبيناهم] عطف على فضّلنا أي اصطفيناهم [وهديناهم] و أرشدناهم [إلى صراط مستقيم]وهودين الله [ذلك] الهدى [هدى الله] الإضافة للتشريف [يهدي به من عباده] إذا كانوا مستعدّين لقبول الهداية والإرشاد[ولو أشركوا] أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع علوّ شأنهم « لحبط عنهم » وذهب [ما كانوا يعملون] من الأعمال المرضيّة فكيف من عداهم ، وهم هم و أعمالهم أعمالهم : وليس في ذلك دلالة على أنّ الثواب الّذي استحقّه وعلى طاعتهم المتقدّمة يتحبّط ، إذ ليس في ظاهر الآية ما يقتضي ذلك على أنّا قد علمنا بالدليل أنّ المشرك لا يكون له ثواب أصلاً .

اولئك الذين آتيناهم الكتاب و الحكم و النبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين (٨٩) .

[اُولئك] المذكورون من الأنبياء الثمانية عشر [الّذين آتيناهم الكتاب] أي جنس الكتاب المتحقّق في ضمن أيّ فرد من الكتب السماويّة ، والمراد بإيتائه التفهيم التامّ بما فيه من الحقائق والتمكين من الأحاطة بالدقائق منها أعمّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً أو بالإيراث بقاء ؛ فإنّ المذكورين لم ينزل على واحد منهم كتاب معيّن [والحكم] أي الحكمة أو فصل الخطاب على ما يقتضيه الصواب [والنبوّة] أي الرسالة ، فأعطاهم

الله من العلوم والمعارف والوحي مالأجله بها يقدرون على التصرّف في بواطن الأمور و ظواهرها ، ثمّ قال [فإن يكفر بها هؤلاء] يعني كفّار قريش أو الكفّار الّذين جحدوا نبوّة النبيّ في ذلك الوقت [فقد وكّلنا بها قوماً] أي غير إعادة أمر النبوّة و تعظيمها و الأخذ بالهدى [قوماً ليسوا بها بكافرين] في وقت من الأوقات بل مستمرّون على الإيمان بها .

واختلف في المقصودين بذلك فقيل : عنى به الأنبياء الّذين جرى ذكرهم هم آمنوا بما أتى به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه ، عن الطبري والجبّائي والحسن والزجّاج ، وقيل : عنى به الملائكة عن الفرّاء والضحّاك ، وقيل : هم الأنصار والمهاجرون ، وقيل : هم الفرس ، وقيل من لم يكفر فهو من القوم . قال الرازي : إنّ المراد الملائكة بعيدٌ لأنّ اسم «القوم» قلّما يقع على غير بني آدم .

[اُولئك الّذين هدى الله] أي هداهم الله إلى الصبر والحقّ [فبهداهم اقتده] فأمر نبيّه بطريقتهم في توحيده واُصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ ؛ فإنّها بعد النسخ لاتبقى هدى بل متروكة .

واحتجّ العلماء على أنّه أفضل جميع الأنبياء لأنّ هؤلاء المذكورين كلّ منهم قد غلب عليه خصلة معيّنة كما شرحنا قبل هذا فجمع الله كلّ هذه الخصال في محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه إذا كان مأموراً بالاقتداء لم يقصّر في التحصيل فكان مستجمعاً لها أجمع [قل] لكفّار قريش [لاأسألكم عليه] أي على القرآن [أجراً] و جعلاً من جهتكم كما لم يسأله من قبلي من الأنبياء ، وهذا من جملة ما اُمر به من الاقتداء بهم فيه [إن هو] أي القرآن [إلّا ذكرى للعالمين] أي إلّا عظةً و تذكيراً لهم من جهة تعالى فلا يختصّ بقوم دون قوم آخرين ، وفي الآية دلالة على أن نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم مبعوث إلى كافّة العالمين وأنّ النبوّة مختومة لأنّه تعالى قال : « إن هو إلّا ذكرى للعالمين» .

قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره اذقالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتاب الذى جاءبه موسى نورا وهدى للناس تجعلونه

قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولاآباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (٩١)

لمّا تقدّم ذكر الأنبياء والنبوّة عقّبه بمن أنكر النبوّة فقال : [وماقدروا الله] أي ما عرفوا الله حقّ معرفته وماعظّموه حقّ عظمته [إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء] أي ماأرسل الله رسولاً ولم ينزّل على بشر شيئاً وذلك أنّه جاء رجل من اليهود يقال له : مالك بن الصيف فخاصم النبيّ فقال له النبيّ : اُنشدك بالّذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان سميناً فغضب فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال ﷺ : ويحك ولاموسى ؟ فنزلت الآية عن سعيد بن جبير وقيل : إنّ الرجل كان فنحاص بن عازورا وهو قائل هذه المقالة عن السدّي .

وقيل : إنّ اليهود قالت : يامحمد أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فنزلت الآية وفي رواية اُخرى أنّها في الكفّار أنكروا قدرة الله عليهم و من أقرّ أنّ الله على كلّ شيء قدير فقد قدر الله حقّ قدره . و قيل : نزلت في مشركي قريش .

واعلم أنّ منكر البعثة والرّسالة ماعرف الله حقّ قدره ، و ذلك لأنّه إمّا أن يقول : ماكلّف الله أحداً من الخلق تكليفاً أصلا أو يقول : إنّه كلّفهم التكاليف ، و الأوّل باطل لأنّ ذلك يقتضي أنّه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح نحو وصفه تعالى بمالايليق به وشتمه والاستخفاف بالأنبياء و الرسل و أهل الدّين ، وظلم بعضهم بعضاً ، ومعلوم أنّ ذلك كلّه باطل وأمّا أن يسلّم أنّه تعالى كلّف الخلق بالأوامر و النواهي فههنا لابدّ من مبلّغ ومبيّن وشارع ، وماذاك إلّا الرسول .

فإن قيل : لم لايجوز أن يقال : إنّ العقل كاف في إيجاب الواجبات ، و اجتناب المقبّحات ؟ قلنا : هب إنّ الأمر كما قلتم إلّا أنّه لا يمتنع تأكيد التعريف العقليّ بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء فثبت أنّ كلّ من منع البعثة و الرسالة فقد طعن في حكمة الله ، وماعرف الله ، وكان جاهلاً بصفة الإلهيّة فما قدر الله حق قدره

وبعضهم أنكروا في الإمكان خرق العادات وإيجاد شيء على خلاف ماجرت به العادة وهؤلاء أيضاً ماقدروا الله حقّ قدره .

ثمّ إنّه لمّا ثبت حدوث العالم بحدوثه يدلّ على أنّ الإله قديم قادر وأنّ الخلق كلّهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق ، و ملك لهم على الإطلاق ، و الملك المطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده ، و أن يكون له وعد على الطاعة ووعيد على المعصية ، و ذلك لايتمّ ولايكمل إلّا بإرسال الرّسل و إنزال الكتب فكلّ من أنكر ذلك فقد طعن في كونه ملكاً مطاعاً فهو ما قدر الله حقّ قدره .

فلو قيل : إنّ هؤلاء الّذين حكى الله عنهم أنّهم قالوا : «ماأنزل الله على بشر من شيء» إمّا أنّهم كفّار قريش أو يقال : إنّهم أهل الكتاب من اليهود و النصارى فإن كان الأوّل فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله : «قل من أنزل الكتاب الّذي جاء به موسى» وذلك لأنّ المشركين وكفّار قريش والبراهمة كماينكرون رسالة محمّد ﷺ فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء ، فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم ؟ وإن كان الثاني وهو أنّ قائل هذا القول قوم من اليهود والنصارى فهذا أيضاً مشكل لأنّهم لايقولون هذا القول و كيف يقولونه مع أنّ مذهبهم أنّ التوراة كتاب أنزله الله على موسى والإنجيل كتاب أنزله الله على عيسى عليه السلام ؟ وأيضاً فهذه السورة مكّيّة ، و المناظرات الّتي وقعت بين رسول الله وبين اليهود و النصارى كلّها مدنيّة فكيف هذا الإشكال ؟

أمّا الجواب عن الأوّل أنّه لمّا قال رسول الله لمالك بن الصيف ـ وكان من أحبار اليهود ـ : هل وجدت في التوراة مذكوراً بأنّ الله يبغض الحبر السّمين ؟ و أنت الحبر السّمين وقد سمنت من الأشياء الّتي قطعك اليهود وضحك القوم ، فغضب من هذا الكلام مالك والتفت إلى عمر ، فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء فقالوا له قومٌ : ويلك ماهذا الّذي بلغنا عنك ؟ فقال : إنّه أغضبني .

ثمّ إنّ اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه عن رياستهم و جعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

قال الرازيّ : هذا هو الرواية المشهورة ولعلّ الغضب المدهش للعقل حمله على طغيان اللّسان ، مع أنّه كان مفتخراً باليهوديّة .

وأمّا الجواب عن أنّ هذه السورة مكّيّة ونزلت دفعة واحدة ؛ فلا يمنع أن يقال : بأنّ سبب نزول الآية مناظرة اليهوديّ ، وقال الرازيّ : القائلون بهذا القول قالوا : السورة كلّها مكّيّة ونزلت دفعة واحدة إلّا هذه الآية ، فإنّها نزلت في المدينة .

[قل] لهم على سبيل التبكيت والإلزام : [من أنزل الكتاب الّذي جاء به موسى] يعني التوراة ، حال كون ذلك الكتاب [نوراً] بيّناً بنفسه ومبيّناً لغيره كما يستضاء بالضياء [وهدى] بياناً [للناس] و[تجعلونه قراطيس] أي وحال كونه تضعونه في قراطيس مقطّعة وورقات متفرّقة ، بحذف الجارّ ، على تشبيه القراطيس بالظرف ، جمع قرطاس بمعنى الصحيفة [تبدونها] صفة قراطيس ، أي تظهرون منها ما تحبّون إبداءه [وتخفون كثيراً] ممّا فيها ممّا كتموه من أحكام التوراة .

[وعلّمتم] أيّها اليهود على لسان محمّد بالقرآن [مالم تعلموا] وقيل : إنّه خطاب للمسلمين يذكّرهم ما أنعم به عليهم . قال أبو عليّ الفارسيّ : «تجعلونه قراطيس» أي تجعلونه ذا قراطيس وتودعونه إيّاها [ثمّ ذرهم في خوضهم يلعبون] أي دعهم وما يختارونه من العناد وما خاضوا فيه من الباطل واللّعب ، وليس هذا البيان لترك الإنذار والدعاء بل ضرب من التوعيد والتهديد ، كأنّه سبحانه قال : دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم .

قوله تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به وهم على صلوتهم يحافظون(٩٢) .

لمّا احتجّ سبحانه بإنزال التوراة على موسى بيّن أنّ سبيل القرآن سبيلها ، فقال : [وهذا كتاب] أي القرآن [أنزلناه] من السماء إلى الأرض لأنّ جبرئيل أتى به [مبارك] ممدوح مستسعد به فكلّ من تمسّك به نال الفوز ، وثابت خيره لم يزل لأنّ قراءته خير والعمل به خير وفيه علم الأوّلين والآخرين وفيه بشارة المغفرة والحلال والحرام ، وزيادة البيان على ما في الكتب المتقدّمة وباق حكمه إلى آخر الدهر

ولا ينسخ إلى آخر التكليف ، وقد جرت سنّة الله بأنّ الباحث عن علم القرآن و المتمسّك به يحصل له خير الدنيا وسعادة الآخرة ؛ قال أمير المؤمنين : كونوا من خاصّة الله وخاصّة قرّاء كتابه العاملون به قال رسول الله : إنّ هذه القلوب لتصدى كما يصدى الحديد وإنّ جلاءها قراءة القرآن . أي مع التدبّر .

وقال ابن عبّاس : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا النّاس غافلون وببكائه إذا النّاس ضاحكون ، وبورعه إذا النّاس يطمعون و بصمته إذا النّاس يخوضون .قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : القرآن على خمسة : حلال وحرام ومحكم و متشابه و أمثال ؛ فاعملوا بالحلال و اجتنبوا الحرام ، و اتّبعوا المحكم و آمنوا بالمتشابه و اعتبروا بالقصص ، و ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه ، قال الصادق عليه السلام : ما هو والله حفظ آياته وتلاوة سورة ؛ حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده ، وإنّما هو تدبّر آياته ، والعمل بأحكامه ؛ قال الله تعالى « و هذا كتاب أنزلناه مبارك » و اعلموا أنّ سبيل الله سبيل واحد مصير العامل بها الجنّة والمخالف لها النّار ، والإيمان ليس بالتمنّي ولكن ما ثبت في القلب وعملت به الجوارح وصدّقته الأعمال الصالحة ، وقد ظهر الجفاء وقلّ الوفاء وتركت السنّة وظهرت البدعة (اه) .

[مصدّق الّذي بين يديه] وتصديقه للكتب على وجهين : أحدهما أنّه يشهد بأنّها حقّ والثاني أنّه ورد بالصفة الّتي نطق بها الكتب المتقدّمة [ولتنذر اُمّ القرى ومن حولها] والمضاف محذوف أي لتنذر أهل اُمّ القرى . ومن حولها : أهل الأرض جميعاً عن ابن عبّاس . وانّما سمّيت اُمّ القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها ؛ فكأنّ الأرض نشأت منها . أولأنّ أوّل بيت وضع في الدنيا وضع بمكّة ، فكأنّ القرى تنشّأت منها عن السدّيّ ؛ أولأنّ على جميع الناس أن يستقبلوها ويعظّموها لأنّها قبلتهم كما يجب تعظيم الأمّ ، عن الزجّاج و الجبّائيّ .

وزعمت طائفة من اليهود أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كان رسولاً إلى العرب فقط ، واحتجّوا على صحّة قولهم بهذه الآية وقال : إنّه تعالى بيّن أنّه اُنزل عليه هذا القرآن ليبلّغه إلى أهل مكّة وإلى القرى المحيطة بها والمراد منها جزيرة العرب ولو كان مبعوثاً إلى الكلّ من العالمين لكان التقييد بقوله « لتنذر اُمّ القرى ومن حولها» باطلاً ؛ والجواب

أنّ تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدلّ على انتفاء الحكم فيما سواها إلّا بدلالة المفهوم ودلالة المفهوم ضعيفة لاسيـّما وقد ثبت بالتواتر الظاهر المقطوع به من دين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أنـّه كان يدّعي كونه رسولاً إلى كلّ العالمين . وقوله «ومن حولها» يتناول أهل الشرق و الغرب و جميع البلاد على الّذي ذكره ابن عبّاس و غيره في معنى أمّ القرى . ولقوله تعالى : «وأرسلناك للناس رسولاً (١)» وكذلك : «وما أرسلناك إلّا كافّة للناس بشيراً (٢)» ولقوله : «تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٣)»

[والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به] أي بالقرآن لأنـّهم يخافون العاقبة ، و يحتمل أن يكون كناية عن محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لدلالة الكلام عليه [وهم على صلاتهم يحافظون] أي على أوقات صلاتهم مراعون فيؤدّوها فيها و يقوموا بإتمام ركعاتها وأركانها .

وفي الآية دلالة على أنّ المؤمن لا يجوز أن يكون مؤمناً ببعض ما أوجبه الله دون بعض و فيها أيضاً دلالة على عظيم منزلة الصلاة لأنـّه سبحانه خصّها بالذكر من بين سائر الفرائض ونبّه على أنّ من كان مصدّقاً بالقيامة و بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يخلّ بها .

قوله تعالى : ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً أوقال اوحى الى ولم يوح اليه شيء ومن قال سانزل مثل ما أنزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون(٩٣)

النزول : قيل : نزلت في مسيلمة حيث ادّعى النبوّة إلى قوله ولم يوح إليه شيء وقوله : «سأنزل مثل ما أنزل الله» في عبدالله بن سعد بن أبي سرح فإنـّه كان يكتب الوحي للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فكان إذا قال له : اكتب «عليماً حكيماً» كتب « غفوراً رحيماً » وإذا قال له : اكتب «غفوراً رحيماً» كتب «عليماً حكيماً» وارتدّ ولحق بمكّة ، وقال إنـّي سأنزل مثل ما أنزل الله عن عكرمة وابن عبّاس ومجاهد والسدّيّ ، وإليه ذهب الفرّاء والزجّاج والجبّائيّ ، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام . وقال قوم : نزلت الآية في ابن أبي سرح

(١) النساء : ٨١ .
(٢) سبأ : ٢٧ .
(٣) الفرقان : ١ .

خاصّة . وقال قوم : نزلت في مسيلمة خاصّة .

المعنى: لمّا تقدّم ذكر نبوّة النبيّ ﷺ وإنزال القرآن عليه عقّبه بذكر الّذين كذّبوه وادّعوا أنّهم يأتون بمثل ما اُوتي به فقال : [ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً] استفهام في معنى الإنكار أي لا أحد أظلم ممّن كذّب على الله فادّعى أنّه نبيّ و ليس بنبيّ [أوقال اُوحي إليّ ولم يوح إليه شيءٌ] أي يدّعي الوحي ولا يأتيه ولا يجوز في حكمة الله أن يبعث كذّاباً ، وهذا و إن كان داخلاً في الافتراء و إنّما اُفرد بالذكر تعظيماً .

[ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله] هذا جواب لقولهم « لو نشاء لقلنا مثل هذا »(١) فادّعوا ولم يتمكّنوا وبذلوا الأموال و استعملوا سائر الحيل ولم يقدروا ، قيل : إنّ عبدالله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله فلمّا نزلت قوله : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » فلمّا بلغ « ثمّ أنشأناه خلقاً آخر »(٢) قال عبد الله - تعجّباً من تفضيل خلق الإنسان - : تبارك الله أحسن الخالقين فقال : اكتبها ؛ فكذلك نزلت فشكّ عبدالله وقال : إن كان محمّد صادقاً في قوله فكذلك نزلت لقد اُوحي إليّ كما اُوحي إليه فأنا مثله ، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، فعليّ أن أدّعي نزول الوحي مثله ، فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين .

قال قتادة : كان مسيلمة الكذّاب يسجّع ويتكهّن ، و قال في معارضة سورة الكوثر : إنّا أعطيناك الجماهر ، فصلّ لربّك و هاجر ، إنّا كفيناك المكابر و المجاهر انظر أيّها المتأمّل في الألفاظ الّتي ألحقها بالقرآن كيف كان سافل البناء فاسد المعاني مخلول الاُسلوب .

والأسود العنسيّ ادّعى النبوّة في زمانه ﷺ وكان يختلق أحكاماً فاسدة ، خرج بصنعاء ، و قتل في مرض موت النبيّ ﷺ ، قتله فيروز الديلميّ فلمّا قتل اللعين بلغ خبر قتله النبيّ ﷺ ، قال : فاز فيروز ، و أيضاً قتل صاحب اليمامة مسيلمة الكذّاب في

---

(١) الانفال : ٣١ .

(٢) المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

عهد أبي بكر ، قتله الوحشيّ قاتل حمزة عليه السلام ، فلمّا قتله قال : قتلت خير النّاس في الجاهليّة وشرّ الناس في إسلامي .

ولمّا ارتدّ عبدالله بن أبي سرح ولحق مكّة هدر رسول الله دمه ، فلمّا كان يوم الفتح جاء به عثمان وقد أخذ بيده ورسول الله في المسجد فقال عثمان : يا رسول الله اعف عنه ، فسكت رسول الله ، ثمّ أعاد فسكت صلّى الله عليه وآله وسلّم ثمّ أعاد فقال : هو لك فلمّا مرّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لأصحابه ألم أقل : من رآه فليقتله ؟ فقال عباد بشر : كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : الأنبياء لايقتلون بالإشارة .

قال القاضي عبدالجبّار : جميع من يفتري على الله الكذب يدخل في هذه الآية ولا يقتصر الحكم على من يدّعي الرسالة كذباً لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب فكلّ من نسب إلى الله تعالى ماهو بريء منه إمّا في الذّات أو في الصفات و إمّا في الأفعال كان داخلاً تحت هذا الوعيد ، فالافتراء على الله في صفاته كالمجسّمة ، و في عدله كالمجبّرة .

[ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت] فقوله « و من أظلم ممّن افترى على الله » يفيد التخويف العظيم على سبيل الإجمال ، وقوله « ولو ترى إذ الظالمون » تفصيل لذلك المجمل و « غمرات » جمع غمرة وغمرة كلّ شيء معظمه ومنه غمرة الماء وغمرة الدّين إذا كثر عليه هذا هو الأصل ، ثمّ يقال للشّدائد والمكاره : الغمرات ، وجواب « لو » محذوف وتقديره : لرأيت أمراً عظيماً .

[والملائكة باسطوا أيديهم] قال ابن عبّاس : ملائكة العذاب باسطوا أيديهم يضربونهم ويعذّبونهم [أخرجوا أنفسكم] أي يضربونهم ويقولون لهم : أخرجوا أنفسكم والمراد من هذا الكلام العنف والتشديد في إزهاق الرّوح من غير تنفيس وإمهال وأنّهم يفعلون بهم فعل الغريم الملحّ الملازم يبسط يده إلى من عليه الدين و يعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخرج إليّ مالي عليك الساعة ، ولا أبرح من مكاني حتّى أنزعه من أحداقك فيكون قولهم « أخرجوا أنفسكم » من هذا القبيل من الكلام ، أو المراد أنّ الملائكة حين ينزعون أرواح الكفّار بالشدّة ، يقولون : أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد إن كنتم

قادرين على الدفع وإلّا فإنّهم لايقدرون على إخراج أنفسهم .

[اليوم تجزون عذاب الهون] فيقول الملائكة لهم : اليوم تعذّبون عذاباً تلقون فيه الهوان ، إمّا يوم النّزع أويوم القيامة [بما كنتم تقولون على الله غير الحقّ] في الدنيا كنسبة الشريك أواتّخاذ الولد وادّعاء النّبوّة والوحي كذباً [وكنتم عن آياته تستكبرون] أي ناقعون عن قبول أوامره .

قال الواحديّ في تفسيره : المراد من قوله «وكنتم عن آياته تستكبرون» أي لاتصلّون له قال صلى الله عليه وآله وسلم : من سجد لله بنيّة صادقة فقد برىء من الكبر . وفي الحديث أنّ المؤمن إذا احتضر آتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الرّيحان ، وتسلّ روحه كما تسلّ الشعرة من العجين ، ويقال لها : أيّتها النفس الطيّبة اخرجي راضية مرضيّة إلى روح الله وكرامته ، فإذا خرجت وضعت على ذلك المسك و الريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى علّيّين ، وإنّ الكافر إذا احتضر آتته الملائكة بمسح[1] فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال لها : أيّتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة و إنّ لها نشيجاً أي صوتاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجّين .

قوله تعالى : ولقد جئتمونا فرادى كماخلقناكم اول مرة و تركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون (٩٤) .

يمكن أن يكون العطف على قول الملائكة : «أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون» فيقولون حكاية عن الله ، و هم الملائكة الموكّلون بعقاب الكفّار ، أو القائل هوالله .

ومنشؤ الاختلاف أنّ الله هل يتكلّم مع الكفّار أولا ؟ فقوله « ولا يكلّمهم » يوجب أن لايتكلّم معهم ، و قوله : « فوربّك لنسألنّهم أجمعين »[2] يقتضي أن يكون

(١) المسح ـ بالكسر ـ : نسيج من شعر يلبس قهرا للجسد .
(٢) الحجر : ٩٢ .

يتكلّم معهم فلهذا السبب وقع هذا الاختلاف ، قال الرازيّ : و القول الأوّل أقوى ؛ لأنّ هذه الآية معطوفة على ماقبلها والعطف يوجب التشريك .

[ولقد جئتمونا فرادى] للحساب و الجزاء و هو بمعنى المستقبل أي يجيؤوننا ، و إنّما اُبرز في صورة الماضي لتحقّقه ؛ كقوله « أتى أمر الله »[1] قيل : الخطاب لكفّار قريش لأنّهم كانوا يفتخرون بأموالهم وأولادهم ويستخفّون بفقراء المؤمنين ، ويقولون : نحن أكثر أموالاً وأولاداً في الدنيا وما نحن بمعذّبين في الآخرة ، فقال : ولقد جئتمونا منفردين .

[كما خلقناكم أوّل مرّة] على الهيئة الّتي ولدتم عليها مشتبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة وفي الخبر : « إنّهم يحشرون يوم القيامة عراة حفاة عزلاً » أي ليس لهم شيء ممّا كان في الدّنيا نحو البرص والعرج وأمثاله[2] قالت عائشة : واسوأتاه ! ءالرجل والمرأة كذلك ؟ فقال عليه السلام : لكلّ امرىء منهم يومئذ شان يغنيه ، لا ينظر الرّجال إلى النساء ولا النساء إلى الرّجال شغل بعضهم عن بعض .

[وتركتم ما خوّلناكم] وتفضّلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ، و والتخويل تمليك الخول أي الخدم و الأتباع أو الإعطاء على غير جزاء [وراء ظهوركم] أي ما قدّمتم منه شيئاً بخلاف المؤمنين ؛ فإنّهم صرفوها في الأعمال الصالحة فبقيت معهم في قبورهم وحضرت معهم يوم القيامة فهم في الحقيقة ماحضروا فرادى .

[ومانرى معكم شفعاءكم] أي الأصنام [الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء] أي شركاء لله في ربوبيّتكم [لقد تقطّع بينكم] أي وقع الانقطاع بينكم وبينهم [و ضلّ عنكم] وضاع وبطل [ماكنتم تزعمون] أنّهم شفعاؤكم ، فلم يقدروا على دفع العذاب عنكم .

قيل : إنّ للإنسان أعداءً أربعة : المال ، والأهل ، والأولاد ، والأصدقاء ، وهي لاتدخل في القبر فيبقى فريداً منهم وأيضاً له أصدقاء أربعة : هي كلمة الشهادة ، والصلاة

(١) النحل : ١ .

(٢) هذا بناء على قراءة عزل - بالعين والزاى - كما اورده فى الوافى . وفى الاصول من الكافى جاء بالغين والراء وهو جمع اغرل بمعنى الاغلف وهكذا نقله العلامة المجلسى فى البحار .

و الصوم ، و ذكر الله ، و هي تدخل في القبر و تشفع عندالله فتصحب الميّت فلا يبقى وحيداً قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ عمل الانسان يدفن معه في قبره ؛ فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه وإن كان لئيماً أهانه فإن كان العمل صالحاً أنس صاحبه و بشّره ووسع عليه في قبره ونوّره وحماه من الشدائد والأهوال ، وإن كان عملاً سيّئاً فزّع صاحبه وروّعه و أظلم عليه قبره و ضيّقه و خلّى بينه و بين الشدائد و الاهوال .

قال اليافعيّ : وقد سمعت عن بعض الصالحين في بلاد اليمن أنّه لمّا دفن بعض الموتى وانصرف النّاس سمع في القبر صوتاً ودقّاً عنيفاً ، ثمّ خرج من القبر كلب أسود فقال له الشيخ الصالح : ويحك أبشر أنت ؟ فقال : أنا عمل الميّت ، فقال : فهذا الضرب فيك أم فيه ؟ قال : بل فيّ ، وجدت عنده سورة يس وأخواتها فحالت بيني و بينه فضربت وطردت .

أقول : ولا يبعد وقوع هذه القضيّة لصفاء خاطر الشيخ الصالح ؛ فإنّ أمثاله يرون اُموراً لم يرها غيرهم ، وبالجملة ففي قوله تعالى : «وتركتم ما خوّلناكم» حثّ من الله على اقتناء الطاعات الّتي بها ينال الفوز دون اقتناء المال الّذي لاشكّ في تركه و عدم الانتفاع به بعد الموت .

قوله تعالى ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون (٩٥) فالق الاصباح و جعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم(٩٦) .

قرّر سبحانه بعض أفاعيله الدالّة على قدرته و علمه ، إذ المقصود الأصليّ من جميع المباحث العقليّة و النقليّة هو معرفة الله بالوحدانيّة و القدرة ، و بيان صفاته تعالى وأفعاله فقال :

[إنّ الله فالق الحبّ والنوى] الفلق و الفطر متقاربان في المعنى أو مترادفان ، والحبّ مثل الحنطة والشعير وأمثالهما ، والنوى هو الشيء الموجود في داخل التمرة : مثل نوى التمر والخوخ وغيرهما ، و الحبّة أو النواة إذا وقعت في الأرض الرطبة ثمّ مرّ به زمان من المدّة أظهر الله تعالى في تلك الحبّة و النواة من أعلاها شقّاً ومن أسفلها شقّاً آخر ، فأمّا الشقّ الّذي يظهر من أعلى الحبّة والنواة يخرج منه الشجرة

الصاعدة إلى الهواء ، والشق السافل يخرج منه الشجرة الهابطة الراسخة في الأرض المسمى بعروق الشجرة وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الصاعدة والراسخة .

ثم إن ههنا عجائب و دلائل على إثبات الصانع الفرد تعالى شانه : فإحداها أن طبيعة تلك الشجره إن كانت تقتضى الهوي في عمق الأرض فكيف تولدت فيها الصاعدة في الهواء ؟ و إن كانت يقتضي الصعود في الهواء فكيف تولدت منها الهابطة ؟ فلما تولد منها هاتان الشجرتان الموصوفتان باقتضائين متناقضين في الصعود و الهوي مع أن الحس والعقل يشهد باختلاف الطبيعتين مع أن الحبة طبيعة مقتضاها أحد الأمرين فثبت أن ذلك ليس بمجرد الطبع و الاقتضاء بل لابد من مقتض و مبدع آخر .

وثانيتها أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لاتنفذ المسلة[1] القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه و نحن نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لودلكها الإنسان بإصبعه بأدنى فرك لصارت كالماء ، و هي مع هذه اللطافة والرخوة يقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة على خلاف الطبيعة ولابد أن يكون بتدبير مدبر ماهر وتقدير العزيز العليم .

وثالثتها أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة فإن قشر الشجرة له طبيعة مخصوصة وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة و في وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش .[2]

ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها و من الأغصان الأوراق أولاً و هي مخضرة اللون ، ثم الأزهار وهي محمرة ومصفرة بألوان مختلفة من شجرة واحدة ثم الفاكهة وفي الفاكهة قشور وغشاء وجرم و لب ، و كل منها له طبيعة مختلفة و طعوم متغائرة مع تساوي تأثيرات الطبائع و الفصول الأربعة وتساوي تأثيراتها يقتضي طبيعة واحدة ، فهذه المختلفات ولو يكون من تدبير الطبيعة لكان طبيعة الشجرة يظهر منها أثر واحد أو آثار متساوية الصورة و المعنى ، فإنك تجد الطبائع المتضادة في

---

(١) المسلة - بكسر الميم وفتح السين - الابرة الكبيرة .

(٢) الصوف المصبوغ المتفرق اجزاؤه .

فاكهة واحدة : مثل الأترج ؛ فقشره حارّ يابس ولحمه باردرطب و حماضه بارد يابس وبزره حارّ يابس فتولّد هذه الخواصّ المتنافرة عن الحبّة الواحدة لا يكون إلّا بإبداع متصرّف قاهر.

ثمّ إنّا نرى أنّ نباتاً واحداً غذاء لحيوان وسمّ لآخر ، فاختلاف هذه الصفات والآثارالمتضادّة مع اتّحاد الطبائع لايكون إلّا بتخليق الفاعل المدبّر ، ثمّ إنّك إذا أخذت ورقة واحدة وجدت خطّاً واحداً مستقيماً في وسطها كأنّه بالنسبة إلى تلك الورقه كالنّخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان ، وكما أنّه ينفصل من النّخاع أعصاب كثيرة يمنة و يسرة في بدن الإنسان ثمّ لايزال ينفصل عن كلّ شعبة شعب اُخر ولاتزال تستدقّ حتّى تخرج عن الحسّ من فرط الدقّة ، فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخطّ الكبير الوسط في خطوط منفصلة ، و عن كلّ واحد منها خطوط مختلفة اُخرى أدقّ من الاُولى حتّى تخرج تلك الخطوط عن الحسّ .

فلمّا وقفت على عناية الخالق في اتّحاد الورقة علمت أنّ عنايته في تخليق تلك الشّجرة أكمل ، ثمّ إذا عرفت أنّ عناية الخالق في تخليق الحيوان أكمل وفي الإنسان الّذي هو ذو المقدّمة لهذه المقدّمات أتمّ وأكمل ؛ لأنّه القابل للمعارف الإلهيّة و هو المقصود كما قال : «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون »(١) فاعرف أيّها الإنسان قدر نعم الله عليك «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها» وكلّ ذلك يظهر لك من تأمّل تلك الورقة .

و في كلّ شيء له آية ✿ تدلّ على أنّه واحد

[يخرج الحيّ من الميّت] أي يخرج ماينمو من الحيوان والنّبات من النّطفة والحبّ [ويخرج الميّت من الحيّ] كالنّطفة والحبّ فهو سبحانه بقدرته ساق الجنّة اليابسة الميّتة فيخرج منها النّبات وساق النّواة اليابسه فيخرج منها النّخل ، ويخرج النبات الغضّ الطري ، ويخرج الحبّ اليابس من النبات الحيّ النامي ، والعرب يسمّي الشّجر مادام غضّاً قائماً بأنّه حيّ ، فإذا يبس أو قطع نموّه ميّتاً ، عن الزجّاج . أوالمعنى

(١) الذاريات : ٥٦ .

يخلق الحيّ من النطفة وهي موات ، ويخلق النّطفة وهي موات من الحيّ أو يخرج الطير الحيّ من البيض والبيض من الطّير عن الجبّائيّ : أو يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

[ذلكم الله] أي فاعل ذلك كلّه الله سبحانه [فأنّى تؤفكون] أي كيف يذهب بكم عن هذه الأدلّة الظاهرة إلى الباطل وتصرفون من الحقّ ؟ فإن قيل : إنّ عطف الاسم على الفعل بعيد بل لايجوز فما السّبب ؟ فالجواب أنّ قوله « و يخرج الميّت من الحيّ » معطوف على قوله «فالق الحبّ و النّوى» و قوله «يخرج الحيّ من الميّت» كالبيان والتفسير لقوله « فالق الحبّ والنوى» لأنّ فلق الحبّ والنوى والنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحيّ من الميّت ؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان ، ألا ترى إلى قوله .«ويحيي الأرض بعد موتها » .(١)

ووجه آخر مذكور في البلاغة : وهو أنّ لفظ الاسم لايفيد التجدّد و لفظ الفعل يدلّ على التجدّد ساعة بعد ساعة ، وضرب الشيخ عبدالقاهر الجرجانيّ بهذا مثلاً في كتاب دلائل الإعجاز ، فقال : قوله : «هل من خالق غير الله يرزقكم من السّماء»(٢) إنّما ذكره بلفظ الفعل لأنّ صيغة الفعل تفيد أنّه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً و ساعةً بعد ساعة ، وأمّا الاسم فمثاله قوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد»(٣) فقوله باسط يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة .

[فالق الإصباح وجاعل اللّيل سكناً] نوع آخر من دلائل التّوحيد من الأوضاع الفلكيّة لأنّ فلق ظلمة اللّيل بنور الصبح أعظم من فلق الحبّ والنوى بالنبات والشّجر ، وفالق الإصباح خبر آخر لإنّ والإصباح بكسر الألف مصدر بمعنى الدخول في ضوء النهار ، سمّي به الصبح ، أي فالق عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره ، والصبح صبحان فالصبح الأوّل هو الصبح المستطيل كذنب السرحان ثمّ تعقّبه ظلمة خاصّة ثم يطلع بعده الصّبح المستطير من جميع الأُفق .

---

(١) الروم : ١٨ .
(٢) فاطر : ٣ .
(٣) الكهف : ١٧ .

فالصبح الأوّل أقوى دليلاً على القدرة من الصبح الثاني لأنه لعل أن يقال : أنّ الصّبح الثّاني من أثر قرص الشمس لكن الصّبح الأوّل لا يقال فيه هذا لأنّه لو كان الصّبح الأوّل من أثر قرص الشّمس لامتنع كونه خطّاً مستطيلاً بل يجب أن يكون مستطيراً في الأُفق منتشراً وأن يكون متزائداً متكاملاً بحسب كلّ حين وآن ولحظة، ولمّا لم يكن الأمر كذلك بل يحصل عقيبه ظلمة خالصة ، ثمّ يحصل الصّبح المستطير بعد ذلك ، فعلمنا أنّ ذلك الصّبح المستطيل ليس من تأثير الشمس ولا من جنس نوره وحاصل بتخليق الله ابتداءً تنبيهاً على أنّ الأنوار ليس لها وجود إلّا بتخليقه على أنّ المراد من الصّبح هو النّور المنبسط والضّوء الحاصل من الشمس الواقع على الجرم المقابل . والمنوّر لذلك المبدء تخليق الله ذلك النور فيه فإنّه متغيّر أطوره وهو دليل حدوثه ولا بدّ له من محدث قادر مختار فهو تعالى فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والإيجاد وفالق ظلمة العالم الجسمانيّ بتخليص النّفس عن العلائق و الشّهوات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبّر المحدثات .

قوله : [وجاعل اللّيل سكناً] تسكنون فيه للرّاحة [والشّمس والقمر] أي وجعلهما [حسباناً] والحسبان بالضمّ مصدر بمعنى الحساب والعدد بابه نصر . وأمّا الحسبان بكسر الحاء فهو من باب علم ومعناه التخمين والظنّ فالمعنى جعلها سبحانه على أدوار مختلفة يحسب بهما الأوقات ، والشّمس معدن الأنوار الفلكيّة من البدور والنّجوم ، وأنوارها مقتبسة من نور الشّمس على قدر تقابلهم وصفوة أجرامهم .

[ذلك] إشارة إلى جعلهما حسباناً أي ذلك السير البديع بالحساب المعلوم تقدير العزيز العليم الّذي قهرهما على السير المخصوص والعالم بما فيهما من المنافع والمصالح المتعلّقة بمعاشهم وأوقات عباداتهم و معاملاتهم و مقتضيات فصولهم لأثمارهم .

قوله تعالى : وهو الذى جعل النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون (٩٧) وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون(٩٨) .

هذا هو النّوع الثّالث من الدّلائل على القدرة و الحكمة : و هو خلق هذه

النجوم لمنافع العباد وهي من وجوه : الأوّل خلقها ليهتدي بهما الخلق إلى المسالك في ظلمات البرّ والبحر حيث لا يرون شمساً ولا قمراً . الثاني أنّ النّاس يستدلّون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة والعبادات الوقتيّة و القبلة . وزينة السماء و كونها رجوماً للشّياطين ، وفيها مصالح اُخر لا يستدرك كنهها عقولنا فبعضها سيّارة و بعضها ثابتة ، والثوابت بعضها في المنطقة و بعضها في القطبين و بعضها كبيرة درّيّة عظيمة الضوء و بعضها صغيرة خفيّة قليلة الضّوء ، والثوابت لامعة والسيّارة غير لامعة ، ولمّا ثبت أنّ الأجسام متماثلة ؛ فاختصاص كلّ واحد بصفة معيّنة دليل على تقدير الفاعل المختار.

ولمّا ذكر سبحانه الاستدلال بأحوال هذه النجوم قال : [قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون] واختلاف أوضاع الكواكب يدلّ على أنّه لها منافع عظيمة لا ندركها بعقولنا، و لو كان خلقها فقط للاهتداء لما كان يخلقها صغاراً وكباراً أو اختلافها في المسير معنى . وفي تفسير عليّ بن إبراهيم بن هاشم : النجوم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلّم .

[وهو الّذي أنشأ كم]وأبدعكم [من نفس واحدة] أي من آدم ومنّ علينا بهذا لأنّ النّاس إذا رجعوا إلى أصل واحد كانوا أقرب إلى التعاطف و التألّف ، وحوّاء مخلوقة من ضلع من أضلاعه فصار كلّهم من نفس واحدة ، فإن قيل : فما القول في عيسى فهو أيضاً مخلوق من مريم الّتي مخلوقة من أبويها . (١)

فإن قيل : إنّ القرآن دلّ على أنه مخلوق من الكلمة أو من الروح المنفوخ فيها ؛ فالجواب أنّ كلمة «من» تفيد ابتداء الغاية ولا نزاع أنّ ابتداء تكوّن عيسى كان من مريم وهذا القدر كاف في صحّة هذا اللفظ [فمستقرّ ومستودع] وقرء بكسر القاف، قال ابن عبّاس : إنّ المستقرّ هو الأرحام ، و المستودع الأصلاب ، كما قال سبحانه «ونقرّ في الأرحام ما نشاء (٢)» ويدلّ على قوّة هذا القول أنّ النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً ، والجنين يبقى في الرّحم زماناً طويلاً ، فحمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى . وقيل : بالعكس والمستقرّ صلب الأب والمستودع رحم

(١) كذا في الاصل.
(٢) الحج : ٥ .

الأمّ قالوا: محصول تلك النّطفة في رحم الأمّ من قبل الرجل مشبهٌ بالوديعة .

وقوله : «فمستقرّ ومستودع» يقتضي كون المستقرّ متقدّماً على المستودع وحصول النطفة في طلب الأب مقدّمٌ على حصولها في رحم الأمّ موجب على هذا التقرير كون المستقرّ متقدّماً على المستودع وهو ما في أصلاب الآباء والمستودع ما في الأرحام . وقيل في معنى المستقرّ والمستودع : إنّ المستقرّ حالة بعد الموت لأنّه إن كان سعيداً فقد استقرّت تلك السعادة ، وإن كان شقيّاً فقد استقرّت تلك الشقاوة ، ولا تبديل للإنسان بعد الموت ، وأمّا قبل الموت فالأحوال متبدّلة ؛ فالكافر قد ينقلب مؤمناً ، والزنديق قد ينقلب صدّيقاً فهذه الأحوال لكونها قابلة للتغيّر و التبدّل لا يبعد تشبيهها بالوديعة الّتي تكون مشرفة على الانتقال والزوال ، عن الحسن .

والقول الرابع و هو قول الأصمّ : أنّ المستقرّ من خلق في النفس الأولى ودخل الدنيا واستقرّ فيها ، والمستودع الّذي لم يخلق بعد وسيخلق ، قال لبيد :

وما المال و الأهلون إلّا ودائع ✿ و لابدّ يوماً أن نردّ الودائع

أو المستقرّ من استقرّ في قرار الدنيا و المستودع من في القبور حتّى يبعث و هذا أيضاً قول الأصمّ. وقال قتادة على العكس منه فقال : مستقرّ في القبر و مستودع في الدنيا .

وقال أبو مسلم الإصبهانيّ : إنّ المعنى هو الّذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم مستقرّ ذكر ومنكم مستودع أنثى ، إلّا أنّه سبحانه عبّر عن الذكر بالمستقرّ لأنّ النطفة تتولّد في صلبه و يستقرّ هناك ، وعبّر عن الأنثى بالمستودع لأنّ رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة و الاستدلال في الآية بأنّ الناس إنّما تولّدوا من شخص واحد ، ومختلفة في الصّفات الّتي باعتبارها حصل التفاوت والاختلاف في تلك الصّفات لابدّ له من مؤثّر وسبب وليس السبب هو الجسميّة و لوازمها فإنّ الأجسام متماثلة وإلّا لامتنع حصول التفاوت في الصفات فوجب أن يكون المؤثّر هو الفاعل المختار الحكيم .

[قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون] وفي الكلام تحثيث على الفهم ومواضع التأمّل والنظر في الأدلّة .

قوله تعالى: وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية و جنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لايات لقوم يؤمنون (٩٩) .

النوع الخامس من الدلائل على قدرته ووجوه إحسانه تعالى ، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه ، ونعمة من بعض الوجوه كان تأثيره في القلب عظيماً وعندهذا يظهر أنّ المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحقّ ينبغي أن يسلك هذا المسلك .

قوله : [وهو الّذي أنزل من السماء ماءً] يقتضي نزول المطر من السماء وعندهذا اختلف الناس : فقال أبو عليّ الجبّائيّ في تفسيره : إنّه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب ومن السّحاب إلى الأرض قال : لأنّ ظاهر النصّ يقتضي نزول المطر من السماء و العدول عن الظاهر إلى التأويل إنّما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أنّ إجراء اللّفظ على ظاهره غير ممكن ، وفي هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السماء فوجب إجراء اللّفظ على ظاهره .

وأمّا قول من قال : إنّ البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثمّ تصعد وترتفع إلى الهواء فينعقد الغيم منها ويتقاطر ، فذلك هو المطر فقد احتجّ الجبّائيّ و غيره على فساده من وجوه : الأوّل أنّ البرد قد يوجد في وقت الحرّ بل في صميم الصيف ، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد وذلك يبطل قولهم .

فلو قال قائلٌ : إنّ البخار أجزاء مائيّة وطبيعتها البرد ففي وقت الصيف يستولي الحرّ على ظاهر السّحاب فيهرب البرد إلى باطنه فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع فيحدث البرد ، وأمّا في وقت برد الهواء يستولي البرد على ظاهر السحّاب فلا يقوى البرد في باطنه فلاجرم لاينعقد جمداً بل ينزل ماءً .

وأجبت عن هذا الكلام بأنّ الطبقة العالية من الهواء باردة جدّاً عندكم فإذا كان اليوم يوماً بارداً شديد البرد في صميم الشتاء فتلك الطبقة باردة جدّاً و الهواء

المحيط بالأرض أيضاً بارد جداً ؛ فوجب أن يشتدّ البرد وأن لا يحدث المطر في الشتاء البتّة ونحن نشاهد حدوث المطر في الغالب ففسد القول.

والحجّة الثانية على فساد قولهم ماذكره الجبّائي وهو أنّ البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرّقت وإذا تفرّقت لم يتولّد منها قطرات الماء ؛ بل البخار إنّما يجتمع إذا اتّصل بسقف متّصل أملس كسقوف الحمّامات المزججة أمّا إذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء فإذا تصاعدت الأبخرة في الهواء وليس فوقها سطح أملس متّصل به تلك البخارات وجب أن لا يحصل منها شيء من الماء. والدليل الأقوى في بطلان قول من قال : إنّ الأمطار بسبب صعود الأبخرة أنّه لو كان تولّد المطر من صعود البخارات فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار فوجب أن يدوم هناك نزول المطر ونحن نشاهد خلافه.

قال الجبّائي : إنّ القوم إنّما احتاجوا إلى هذا القول لأنّهم اعتقدوا أنّ الأجسام قديمة وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزّيادة والنقصان فيها وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلّا اتّصاف تلك الذرّات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى ، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كلّ شيء عن مادّة معيّنة ، و أمّا المسلمون فلمّا اعتقدوا أنّ الأجسام محدثة ، وأنّ خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد فعند هذا لا حاجة إلى هذه التكلّفات ، والآيات ناطقة بنزول المطر من السماء قال : «وأنزلنا من السماء ماء طهوراً»(١) «وينزّل عليكم السماء ماء ليطهّركم به»(٢) فيخلق هذه الأجسام في السماء ثمّ ينزّلها إلى السحاب ثمّ من السحاب إلى الأرض.

و قيل : المعنى أنزل من السحاب ماء وسمّى الله السحاب سماء لأنّ العرب يسمّي كل مافوقك سماء ، ولكن هذا المعنى فيه تكلّف أيضاً لأنّه خروج عن الظاهر في الجملة ، ونقل الواحديّ في البسيط عن ابن عبّاس : يريد بالماء المطر هنا ولا ينزل قطرة من المطر إلّا ومعها ملك ، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالّة في تلك الجسميّة الموجبة لذلك النزول وأنكروا كون الملك معها.

---

(١) الفرقان : ٥٠

(٢) الانفال : ١١ .

قوله تعالى : [فأخرجنا به نبات كلّ شيء] أي فأخرجنا بالماء الّذي أنزلناه من السماء ماينبت من غذاء الأنعام و الوحش و الطير و أرزاق بني آدم ما يأكلونه و ينمون به ويتعيّشون منه ، و إنّما قال سبحانه به لأنّه سبحانه جعل الماء سبباً مؤدّياً إلى النبات وكان يمكنه الإنبات بغيره ، وقد جعل الله لكلّ شيء سبباً .

[فأخرجنا منه خضراً] والضمير في«منه» راجع إلى الماء أوإلى النبات «خضراً» أي زرعاً رطباً مثل ساق السّنبلة وأمثالها [نخرج منه] أي من ذلك الزّرع الخضر [حبّاً متراكباً] قد تركّب بعضه على بعض مثل سنبل الحنطة و الدخن و السمسم على تركيب مخصوص وهيئة خاصّة .

[ومن النخل] خبر مقدّم [من طلعها] بدل منه بإعادة العامل والطلع شيء يخرج من النخل كأنّه نعلان مطبقان والثمر بينهما منضود [قنوان] مبتدأ أي وحاصلة من طلع النخل قنوان جمع قنوة ، و هو للتمر بمنزلة العنقود للعنب [دانية] سهلة المجتنى قريبة من القاطف .

و المعنى : من النخل ماقنوانها دانية ، ومنها ماهي بعيدة فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة ؛ لأنّ النعمة في القريبة أكمل ، وفي الحديث : أكرموا عمّاتكم النخل فإنّها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام وليس من الشجر شجرة أكرم عند الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولّد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر . وأوّل ما أكلت مريم حين وضعت عيسى عليه السلام هو الرطب كما قال تعالى : «وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً[٢]» وفي الحديث أنّه شكا بعض الأنبياء إلى الله من قبح أولاد اُمّته فأوحى الله إليه أن مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى بأكل السفرجل في الشهر الثالث والرابع لأنّ فيه تصوّر الجنين فإنّه يحسن الولد .

---

(١) اورد اخباراً كثيرة في منافع اكثر الاثمار في فروع الكافي «ج ٢ : ١٧٨ - ١٨١» كتاب الاطعمة و الاشربة .

(٢) مريم : ٢٥ .

[وجنات من أعناب] أي وأخرجنا به بساتين كائنة من أعناب و كلّ نبت متكاثف يستر بعضه بعضاً فهو جنّة من جنّ إذا استتر [والزيتون و الرمّان] وأخرجنا شجر الزّيتون و شجر الرمّان [مشتبهاً] أوراقهما . وورقهما يشتمل على العود كلّه من أوّل الغصن إلى آخره في كلّ الشجرتين [وغير متشابه] في الطعم فيكون المعنى: مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمره فمشتبه في الخلق و مختلف في الطعم ، و قيل : المعنى مشتبهاً ما كان من جنس واحد وغير متشابه إذا اختلف جنسه ، قال الطبرسيّ : والأولى في المعنى أن يقال : إنّ جميع ذلك المذكور مشتبه من وجوه مختلف من وجوه .

قال الرازيّ في تفسير «مشتبهاً وغير متشابه» وجوهاً : الأوّل أنّها متشابهة قد تكون في اللون و الشكل مع أنّها مختلفة في الطعم واللذة فإنّ الأعناب والرمّان قد تكون متشابهة في الصورة واللّون و الشكل ثمّ إنّها مختلفة في الحلاوة والحموضة و بالعكس .

قال قتادة : أوراق الأشجار متقاربة في التشابه أمّا ثمارها فتكون مختلفة أوالأشجار متشابهة و الثّمار مختلفة أو أنّ العنقود العنب مثلا ترى جميع حبّاته مدركة نضجة حلوة طيّبة إلّا حبّات مخصوصة منها بقيت على أوّل حالها من الخضرة و الحموضة والعفوصة و كذلك التمر مثلاً ، وعلى هذا فبعض حبّات ذلك العنقود متشابهة و بعضها غير متشابهة . وقد ذكر سبحانه من الأشجار هذه الأربعة ، لشرافتها و كثرة نفعها ، وقدّم النّخل ؛ لكرامتها كما ذكر في الحديث سابقاً .

والعنب ألذّ الفواكه ، ويؤخذ منه الزبيب والدبس و الخلّ حتّى أنّ الأطبّاء يأخذون من عجمها جوارشات عظيمته النفّع للمعدة الضعيفة الرّطبة ، و قيل : هو سلطان الفواكه ، و أمّا الزيتون فهو أيضاً كثير النفّع فيمكن تناوله كما هو و يتّخذ منه دهن كثير النفّع في الأكل و في سائر وجوه الاستعمال ، و أمّا الرمّان فحاله عجيب جدّاً وذلك أنّ قشره وشحمه و عجمه باردة يابسة قابضة عفصة قويّة في هذه الصفّات ، وأمّا ماؤه فبالضدّ فانّه ألذّ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدّها مناسبة للطباع المعتدلة وفيه معونة للمزاج الضعيف فهو غذاء من وجه ودواء من وجه

فإذا تأمّلت في الرمّان وجدت الأقسام الثلاثة منه موصوفة بالكثافة التامّة الأرضيّة ووجدت القسم الرّابع وهو ماء الرمّان موصوفاً باللطافة فجمع سبحانه فيه بين المتضادّين المتغايرين ،فكانت دلائل القدرة والرّحمة فيه أتمّ .

قوله : [انظروا إلى ثمره إذا أثمر] تامّلوا يامخاطبين إلى ثمر كلّ شجر من المذكورة إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً لايكاد ينتفع به [و ينعه] وإلى حال نضجه و أكله كيف ينتقل عليه الأحوال في الطعم و اللّون و الرّائحة و الصغر و الكبر لتستدلّوا بذلك على القادر المدبّر .

[إنّ في ذلكم] أي في خلق هذه الثّمار و الزروع [لآيات] و شواهد أنّها تكوّنت لخلقه وقدرته «لقوم يؤمنون » لانّهم بهايستدلّون وبمعرفة مدلولاتها ينتفعون قال الرّازيّ : إنّ جمع ثمرة : ثمار ، ثمّ جمع ثمارثمر فيكون ثمر جمع الجمع أوجمع ثمرة مثل بقر وبقرة وشجر وشجرة .

قوله تعالى : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم و خرقوا له بنين و بنات بغير علم سبحانه و تعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) .

وتقرير نظم الآية أنّ الّذين أثبتوا الشريك لله فرق وطوائف كلهم يؤولون إلى ثلاث فرق : فالطائفة الأولى عبدة الأصنام ، فهم يقولون : الأصنام شركاء لله في العبادة ولكنّهم معترفون بأنّ هذه الأصنام لاقدرة لها على الإيجاد و التكوين . و الطائفة الثّانية من المشركين الّذين يقولون : مدبّر هذا العالم هو الكواكب وهؤلاء فريقان منهم من يقول : إنّها واجبة الوجود لذواتها ؛ و منهم من يقول : إنّها ممكنة الوجود لذواتها محدثة و خالقها هو الله ، إلّا أنّه سبحانه فوّض تدبير هذا العالم الأسفل إليها وهؤلاء هم الّذين حكى الله عنهم أنّ الخليل عليه السلام ناظرهم بقوله : لاأحبّ الآفلين . و الطّائفة الثالثة من المشركين : الّذين قالوا : لجملة هذا العالم بما فيه من السماوات و الأرض إلهان أحدهما فاعل الخير والثاني فاعل الشرّ و المقصود في بيان هذه الآية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية .

نزلت في الّذين قالوا : إنّ الله و إبليس أخوان ، فالله تعالى خالق الناس و الخيرات و الأنعام و الحيوانات النافعة ، و إبليس خالق الشرور و الحيوانات الضارّة كالسباع و الحيّات و العقارب و هذا مذهب المجوس ، و يطلق عليهم الزنادقة لأنّ الكتاب الّذي زعم زرادشت أنّه كتاب مذهبه مسمّى بالزند و المنسوب إليه يسمّى «زنديّ» ثمّ عرّب فقيل : زنديق ، وجمعه الزنادقة ، فقالوا : كلّ مافي هذا العالم من الخيرات فهو من «يزدان» وجميع ما فيه من الشرور فهو من «أهرمن» و هو المسمّى في شرعنا بإبليس ثمّ هؤلاء الزّنادقة اختلفوا ، فالأكثرون منهم على أنّ أهرمن محدث والأقلّون منهم قالوا : إنّه قديم أزليّ ، وعلى القولين اتّفقوا على أنّه شريك الله في تدبير العالم فخيراته من الله وشروره من إبليس .

فإن قيل : إنّه على هذا البيان فالقوم أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف قال سبحانه حكاية عنهم : وأثبتوا لله شركاء ؟ لأنّهم كانوا يقولون : عسكر الله هم الملائكة وعسكر الإبليس هم الشّياطين ، و الملائكة يلهمون الخلق بالخيرات والشياطين يلقي الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشريّة أوالله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين وهذا معنى قوله تعالى :

[وجعلوا لله شركاء الجنّ] و شركاء الجنّ الملائكة والأبالسة لاستتارهم عن الأعين ، وقيل : إنّ قريشاً كانوا يقولون أي بعضهم كان يقول : إنّ الله صاهر الجنّ فحدث بينهما الملائكة ، فيكون على هذا القول المراد به الجنّ المعروف لا الملائكة كما قال سبحانه: «وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً »[1] أوالمراد من قوله : « وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً » الملائكة لا الجنّ حيث قالوا : الملائكة بنات الله .

[وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات] أي وجعلوا مخلوقه شريكاً و المخلوق كيف يكون شريك الخالق؟ وخرقوا له أي وموّهوا وافتروا الكذب على الله ونسبوا البنين و البنات إلى الله تعالى فإنّ المشركين قالوا : الملائكة بنات الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود قالوا : عزير ابن الله [بغير علم] وحجّة قاطعة ولكن جهلاً منهم بالله وبعظمته .

---

(١) الصافات : ١٥٨ .

[سبحانه وتعالى] أي تنزيهاً له و هو متعال [عمّا يصفون] من انتسابهم له تعالى بهذه النسبة ، و يجلّ من أن يوصف بما وصفوه به فإنّ الولد متولّد عن جزء من أجزاء الوالد وذلك إنّما يعقل في حقّ من يكون مركّباً ويمكن انفصال جزء منه و ذلك في حقّ الواحد الفرد الواجب لذاته محال ، يقال : فلان تخرّق الكذب أي اختلقه من عند نفسه و المراد من التعالي ليس علوّ المكان بل علوّ الشأن والمكانة . والفرق بين « سبحانه » و بين « تعالى » أنّ المراد من «سبحانه» تنزيهه عمّا لا ينبغي ، والمراد بقوله : «وتعالى» كونه في ذاته متعالياً سواء سبّحه مسبّح أو لم يسبّحه فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبّحين ، و التّعالي يرجع إلى صفته الذاتيّة الّتي حصلت له لذاته لا لغيره .

(لا تصف الله بما لا يليق واعبده مخلصاً راجياً خائفاً ، فإنّ الرّجاء له ثلاث مراتب رجل يعمل الحسنة فيرجو قبولها ، و رجل عمل السيّئة و هو نادم فيرجو غفرانها و رجل كذّاب مغرور يعمل المعاصي؛ يتهاون بالذنوب ويرجو المغفرة. قيل للصادق عليه السلام : إن قوماً من شيعتكم يعملون بالمعاصي و يقولون نرجو فقال : كذبوا ليسوا من شيعتنا. كلّ من رجا شيئاً عمل له ، فوالله ما من شيعتنا منكم إلّا من اتّقى الله ، و إنّ أحسن الناس بالله ظنّاً وأعظمهم رجاء أعلمهم بطاعته ؛ ولقد كان رسول الله وأمير المؤمنين أحسن الناس بالله ظنّاً و أبسطهم له رجاء و كانوا أعظم الناس منه خوفاً ومنه رهبة و كذلك سائر الأنبياء .

فدعوا الأمانيّ منكم و جدّوا واجتهدوا و أدّوا إلى الله حقّه ، و إلى الخلق حقّهم ، فما ضرب الله مثل آدم من أنّه عصى بأكل حبّة إلّا تذكرة لكم وكان أمير المؤمنين يقول في تسبيحه : سبحان من جعل خطيئة آدم عبرة لأولاده مع أن أصلكم قد اصطفاه فأهبطه إلى الأرض من الجنّة لأجل أكل حبّة وأنتم تأكلون البيادر هذا هو الطّمع العظيم .

و ينبغي أن يكون الرّجاء و الخوف في قلب المؤمن كجناحي الطائر ؛ إذا

استويا حصل الطيران و إذا حصل أحدهما دون الآخر فقد حصل النقص في القلب والعمل .

روي في سبب نزول قوله : « نبّىء عبادي أنّي أنا الغفور الرّحيم و أنّ عذابي هو العذاب الأليم »(١) أنّ رسول الله مرّ بقوم يضحكون فقال : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فنزل جبرئيل بالآية . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : قال جبرئيل : قال الله: عبدي إذا عرفتني وعبدتني و رجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك ، ولو استقبلتني بملء الأرض ذنوباً أستقبلك بملئها مغفرة و عفواً و أغفرلك و لاأبالي . قالت أمّ سلمة : سمعت رسول الله يقول : إنّ الله ليتعجّب من يأس العبد وقنوطه مع عظيم سعة رحمته .

روي أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام مرّ بالزهريّ و هو يضحك قد خولط ؛ فقال : ما باله فقالوا : هذا لحقه من قتل النفس ، فقال : والله لقنوطه من رحمة الله أشدّ عليه من قتله . فاعمل وخَف وارج(٢)) .

[بديع السماوات والأرض] الإبداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال قال الرازيّ في بيان الآية : المراد ردّ قول من أثبت له ولداً بأنّه إنّكم إن تزعمون أنّ عيسى ابن الله لكونه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدّم نطفة و والد ، فلو لزم من مجرّد كونه تعالى مبدعاً لإحداث عيسى كونه والداً له لزم من كونه مبدعاً للسّماوات والأرض كونه والداً لهما ، لأنّه تعالى خلقهما على سبيل الإبداع و معلوم أنّ ذلك باطل بالاتّفاق ، ثمّ إنّ الولادة لا تصحّ إلّا ممّن كانت له صاحبة و شهوة و ينفصل عنه جزء و يحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة وهذه الأحوال إنّما تثبت في حقّ الجسم الّذي يصحّ عليه الاجتماع والحركة والسكون والحدّ والنهاية والمدّة وكلّ ذلك على الله محال وهو المراد بقوله :

---

(١) الحجر : ٤٩ .

(٢) و روى : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . اورد اخباراً مناسبة في الاصول من الكافي « ج ٢ : ٦٧ - ٧١ » .

[أنّى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة] ويحصل الولد بهذا الطريق لمن أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة واحدة عدل إلى تحصيله بالطريق المعتاد ، و من كان مستغنياً عن هذه الأُمور وخالقاً لكلّ الممكنات إذا أراد إحداث شيء قال له : كن فيكون وهو المراد من قوله : [وخلق كلّ شيء] ومن كان قدرته بهذه المثابة امتنع منه إحداث شيء بطريق الولادة .

ثمّ إنّ هذا الولد إمّا أن يكون قديماً أو محدثاً ولا يجوز أن يكون قديماً لأنّ القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته وما كان واجب الوجود لذاته كان غنيّاً عن غيره فامتنع كونه ولداً لغيره فبقي أنّه لو كان ولداً لوجب كونه حادثاً ، ثمّ نقول: إنّه تعالى عالم بجميع المعلوت فإمّا أن يعلم أنّ له في تحصيل الولد كمالاً و نفعاً أولا ؛ فإن كان الأوّل فلاوقت يفرض أنّ الله خلق هذا الولد فيه إلّا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلاً قبل ذلك ومتى كان الداعي إلى إيجاده حاصلاً قبله وجب حصول الولد قبل ذلك و هذا يوجب كون ذلك الولد أزليّاً وهو محال وإن كان الثاني فقد ثبت أنّه تعالى عالم بأنّه ليس له في تحصيل الولد كمال حال ، ولا ازدياد مرتبة في الإلهيّة و إذا كان الأمر كذلك وجب أن لايحدثه في وقت من الأولاد ، و هو المراد من قوله : [وهو بكلّ شيء عليم] فكونه عالماً بكلّ المعلومات وكونه أزليّاً يمنع من صحّة الولد عليه انتهى كلام الرازيّ في المفاتيح .

قال الطبرسيّ : ومن قال : إنّ في قوله « وخلق كلّ شيء » دلالة على خلق أفعال العباد فجوابه أنّ المفهوم منه أنّه أراد المخلوقات كما يفهم من قول من قال : أكلت كلّ شيء والمخلوقات كلّها بما فيها من التقدير العجيب يضاف خلقها إليه على أنّه قد نزّه نفسه عن إفك العباد وظلمهم و كذبهم فلو كان خلقاً له لما تنزّه عنه .

قوله تعالى : ذلكم الله ربكم لااله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل (١٠٢) لا تدركه الابصار و هو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣) .

أي ذلك الّذي خلق هذه الأشياء لكم ودبّر هذه الصنعة هو [الله] ربّكم خالقكم وسيّدكم [لاإله إلّا هو خالق كلّ شيء] أي كلّ مخلوق من الأجسام و الأعراض الّتي لا يقدر عليها غيره [فاعبدوه] لأنّه المستحقّ للرّبوبيّة و العبادة [وهوعلى كلّ شيء وكيل] حافظ و مدبّر فهو وكيل على الحقّ ، ولا يقال وكيل لهم .

قال صاحب الكشّاف : «ذلكم» إشارة الموصوف بما تقدّم من الصفات وهو مبتدأ و ما بعده أخبار مترادفة وهي «الله ربّكم لاإله إلّا هو خالق كلّ شيء» .

ونقل الرازيّ في إثبات التوحيد طرقاً كثيرة ؛ قال : قال المتكلّمون : الصّانع الواحد كاف لأنّ الإله القادر على كلّ المقدورات العالم بكلّ المعلومات كاف في كونه إلهاً للعالم وأمّا أنّ الزائد على الواحد لم يدلّ الدّليل على ثبوته ولم يكن إثبات عدد أولى من إثبات عدد آخر فيلزم إمّا إثبات آلهة لا نهاية لها وهو محال ، أو إثبات عدد معيّن مع أنّه ليس ذلك العدد أولى من سائر الأعداد و هو أيضاً محال وإذا كان القسمان باطلين لم يبق إلّا القول بالتوحيد .

وأيضاً وجه أخر في تقرير هذه الطريقة : وهي أنّ الإله القادر على كلّ الممكنات كاف في تدبير العالم فلو قدّرنا إلهاً ثانياً لكان ذلك الثاني إمّا أنّ يكون فاعلاً و موجداً لشيء من الحوادث أولا يكون والأوّل باطل لأنّه لمّا كان كلّ واحد منهما قادراً على جميع الممكنات فكلّ فعل يفعله أحدهما صار كونه فاعلاً لذلك الفعل مانعاً للآخر عن تحصيل مقدوره لأنّ فعله سبق وامتنع الثاني عن تحصيل مقدوره و ذلك يوجب كون كلّ واحد منهما سبباً لعجز الآخر ، و إن كان الإله الثاني لايفعل فعلاً ولايوجد شيئاً فكان معطّلاً و ناقصاً فلا يصلح للإلهيّة .

والوجه الثالث في تقرير هذه الطريقة أنّ هذا الإله الواحد لابدّ و أن يكون كاملاً في صفات الإلهيّة فلو فرضنا إلهاً ثانياً لكان ذلك الثّاني إمّا أن يكون مشاركاً للأوّل في جميع صفات الكمال أولا يكون فإن كان مشاركاً للأوّل في جميع الصفات فلابدّ وأن يكون مميّزاً عن الأوّل بأمر مّا ، إذ لو لم يحصل الامتياز بأمر من الأمور لم يحصل التعدّد والاثنينيّة و إذا حصل الامتياز بأمر مّا فذلك الأمر المميّز إمّا أن

يكون من صفة الكمال أولا يكون ؛ فإن كان من صفات الكمال مع أنّه حصل مابه الامتياز لم يكن جميع صفات الكمال مشتركاً فيه بينهما ، وإن لم يكن ذلك المميّز من صفات الكمال ؛ فالموصوف به يكون موصوفاً بصفة ليست من صفات الكمال و ذلك نقصان ولا يصلح للإلهيّة ، انتهى كلامه .

قالت الأشاعرة : إنّ قوله : «خالق كلّ شيء» يدلّ على أنّه تعالى هو الخالق لأعمال العباد قالوا : أعمال العباد أشياء والله خالق كلّ شيء بحكم الآية . وأجاب الطبرسيّ عنه ، وقد ذكرناه قبيل هذا .

ولا بأس بذكر الجواب الآخر : وهو أنّ هذا اللّفظ وإن كان عامّاً إلّا أنّه حصل مع هذه الآية وجوه يدلّ على أنّ أعمال العباد خارجة عن هذا العموم ؛ لأنّه قال سبحانه : «خالق كلّ شيء فاعبدوه» فلو دخلت أعمال العباد تحت قوله : «خالق كلّ شيء» لصار تقدير الآية : أنا خلقت أعمالكم فافعلوها بأعيانها أنتم مرّة اُخرى ، ومعلوم أنّ ذلك فاسد قطعاً .

وأيضاً أنّه تعالى إنّما ذكر قوله : «خالق كلّ شيء» في معرض القدرة والثناء على نفسه فلو دخل تحته أعمال العباد لخرج عن كونه مدحاً وثناء بل ثبت قدحاً لأنّه لايليق بذاته سبحانه أن يتمدّح بخلق الزّنا واللّواط والسرقة والكفر .

والجواب الثالث أنّه قال بعد هذه الآية : «قد جاءكم بصائر من ربّكم فمن أبصر فلنفسه و من عمي فعليها» و هذا تصريح بكون العبد مستقلاً بالفعل و التّرك ، ولا مانع له من الفعل والتّرك ؛ وذلك يدلّ على أنّ فعل العبد غير مخلوق لله ؛ إذ لو كان مخلوقاً لله لما كان العبد مستقلاً به لأنّه إذا أوجده الله امتنع من العبد الدّفع ولا يصحّ أن يقال : فعل العبد مخلوق لله ، فقوله : «فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها» يوجب تخصيص ذلك العموم .

قوله [لاتدركه الأبصار] أي لاتراه العيون لانّ الإدراك متى قرن بالبصر لم يفهم منه إلا الرّؤية كما لو قيل: أدركت باُذني لم يفهم منه إلا السّماع [و هو يدرك

الأبصار] أي لايدركه ذووالأبصار ، أي يرى سبحانه ولا يرى كما قال : «وهو يطعم ولا يطعم» وهذه الأبصارليست هي الأعين إنّما هي الأبصار الّتي في القلوب أي لايقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو .

[وهو اللّطيف الخبير] اللاّطف بعباده بسبوغ الأنعام . عدل عن فاعل إلى فعيل للمبالغة وقيل : معناه لطيف التدبير إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام عليه ، وقيل : إنّ معنى اللطيف هو الّذي يستقلّ الكثير من نعمه و يستكثر القليل من طاعة عباده ، و قيل : اللّطيف من يكافي الوافي ويعفو عن الجاني . وقيل : اللطيف من يعزّ المفتخر به ويغني المفتقر إليه «الخبير» العالم بكلّ شيء من مصالح عباده .

قوله تعالى : قدجاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ(١٠٤)وكذلك نصرف الايات وليقولوا درست و لنبينه لقوم يعملون (١٠٥) .

قرّر سبحانه أمر التبليغ والرسالة فقال : [قد جاءكم بصائر من ربّكم]والبصائر جمع البصيرة ، وكما أنّ البصر اسم للإدراك التّام الكامل الحاصل بالعين الّتي هي في الرّأس فالبصيرة اسم للإدراك التامّ الكامل الحاصل في القلب ، فالآيات المتقدّمة وهي في أنفسها ليست بصائر إلا أنّها لقوّتها توجب البصائر لمن عرفها و وقف على حقائقها ، فلهذا سمّيت بالبصائر ، والمعنى : من أبصر الحقّ و آمن بعد هذه الآيات فلنفسه أبصرو إيّاها نفع ، ومن عمي عن الحقّ ولم يهتد فعلى نفسه ضرّ بالعمى ، قل لهم يا محمّد : إنّ هدايتكم وضلالتكم نفعها وضررها عائد إليكم [وما أنا عليكم بحفيظ] وإنّما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها .

[وكذلك نصرّف الآيات و ليقولوا درست] لمّا تمّم الكلام في الإلهيّات إلى هذه المواضع شرع في إثبات النبوّات فحكى شبهة المنكرين نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم : يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنّ هذا القرآن الّذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء ومباحثة الفضلاء ثمّ تنظمه من عند نفسك وتقرؤه علينا و تزعم أنه وحيٌ ينزل عليك من الله ، و هذا وجه النظم في الآية .

المعنى : [و كذلك] أي و كما صرّفنا الآيات قبلُ نصرّف هذه الآيات . والتصريف إجراء المعاني الدائرة المتعاقبه في الألفاظ لتجتمع فيه وجوه الفائدة [وليقولوا درست] اللام لام العاقبة والصيرورة ، والتقدير أنّ عاقبة أمرهم عند تصريفنا هذه الآيات أن يقولوا هذا القول الشنيع ، و أمّا الأشاعرة فإنّهم لإثبات الجبر فسّروا الآية و أجروا الكلام على ظاهره فقالوا : المعنى في الآية : إنّما ذكرنا هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم : دارست ودرست هذه الآيات من اليهود و غيرهم ليزدادوا كفراً على كفرهم ، وهذا المعنى غير صحيح لوقوع القبيح والظلم منه تعالى ، وقال القاضي و الجبّائيّ : إنّ تقدير الآية : لئلاّ يقولوا درست نظير قوله : « يبيّن الله لكم أن تضلّوا »[1] فإنّ المعنى لئلاّ تضلّوا .

[ولنبيّنه لقوم يعلمون] أي ولنبيّن هذه الآيات لقوم يعقلون لأنّهم المنتفعون بها . و الدرس في اللّغة التذليل بكثرة القراءة ، حتّى خفّ حفظه من قولهم : درست الثوب إذا أخلقته ، فقيل للثّوب الخلق : الدريس ؛ لأنّه قد لان .

قوله تعالى : اتبع ما اوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين (١٠٤) ولو شاء الله ما اشركوا و ما جعلناك عليهم حفيظاً و ما أنت عليهم بوكيل (١٠٥) .

أمر سبحانه باتّباع الوحي فقال : [اتّبع] أيّها الرّسول [ما اُوحي إليك من ربّك] والإيحاء هو إلقاء المعنى إلى النفس على وجه يخفى ، و يكون تارة بالملك و هو الحقيقه و تارة بالإلهام والرّؤيا [لا الله إلّا هو] أي ادعهم إلى هذا القول أو بيان ما اُوحي إليك من أنّه لا الله إلّا هو [و أعرض عن المشركين] قال ابن عبّاس : نسخته آية القتال ، أو المعنى : اهجرهم ولا تخالطهم ولا تلاطفهم ولم يرد به الإعراض عن دعائهم إلى الله و حكمه ثابت .

[ولو شاء الله ما أشركوا] أي لو شاء الله أن يتركوا الشرك قهراً و إجباراً لاضطرّهم إلى ذلك إلّا أنّه لم يضطرّهم إليه بما ينافي أمر التكليف بل أمرهم سبحانه بترك

(١) النساء : ١٧٥ .

الشرك اختياراً ليستحقّوا الثواب والمدح عليه فلم يتركوه فأتوا به من قبل نفوسهم .

و في تفسير أهل البيت : لو شاءالله أن يجعلهم كلّهم مؤمنين معصومين حتّى كان لا يعصيه أحدٌ لما كان يحتاج إلى جنّة و لا إلى نار و لكنّه أمرهم و نهاهم و أعطاهم ماله تعالى به عليهم الحجّة من الآلة و الاستطاعة ليستحقّوا الثواب والعقاب.

[وما جعلناك عليهم حفيظاً] راقباً لأعمالهم [وماأنت عليهم بوكيل] ولست يامحمد بموكّل عليهم وإنّما أنت رسول عليك البلاغ وعلينا الحساب قال الحدّاديّ : وإنّما جمع بين « حفيظ ووكيل» لاختلاف معناهما فإنّ الحافظ للشيء هو الّذي يصونه عمّا يضرّه والوكيل بالشيء هوالّذي يجلب الخير إليه .

واعلم أنّ الجبريّة تمسّكوا بقوله تعالى:«ولوشاء الله ما أشركوا »على صحّة مذهبهم ؛ وقالوا : إنّ المعنى و لو شاءالله أن لا يشركوا ما أشركوا وحيث لم يحصل الجزاء علمنا أنّه لم يحصل الشّرط فعلمنا أنّ مشيئة الله بعدم إشراكهم غير حاصلة ، و أجابت المعتزلة بأنّه ثبت بالدّلائل أنّه تعالى أراد من الكلّ الإيمان وما شاءمن أحد الكفر والشرك وهذه الآية تقتضي أنّه تعالى ماشاء من الكلّ الإيمان فوجب التّوفيق بين الدّليلين فيحمل مشيئة الله لإيمانهم على مشيئته الإيمان الاختياريّ الموجب للثواب ويحمل عدم مشيئته لإيمانهم على الإيمان الحاصل بالقهر والإلجاء فالمعنى : ما شاءأنّ يحملهم على الإيمان على سبيل القهر والإلجاء فإنّ ذلك يبطل التكليف ويخرج الإنسان عن استحقاق الثّواب .

قوله تعالى : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل آمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بماكانوا يعملون(١٠٨).

النزول : كان المسلمون يسبّون الأصنام فقال المشركون : يا محمد لتنتهنّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجونّ ربّك ، فنهى الله تعالى أن يسبّوا الأصنام لما فيه من المفسدة فقال:

[ولا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله] المراد الأصنام يدعونها آلهة ويعبدونها [من دون الله] أي متجاوزين عبادة الله [فيسبّوا الله] أي فيقولوا لكم مثل قولكم لهم و

[عدواً] منصوب على الحاليّة مصدر أو مفعول له أي لأجل العداوة والتّجاوز [بغير علم] غير عالمين بالله وبما يجب أن يذكر به جهلاً لأنّهم لو قدروا الله حقّ قدره لما أقدموا على الشّرك .

و في الآية تنبيه على أنّ خصمك لو شافهك بجهل و سفاهة لم يجز لك أنّ تقدم على مشافهته بما يجري مجرى كلامه فإنّ ذلك يوجب فتح باب السّفاهة ، و ذلك لايليق بالعقلاء فلو قيل : إنّ الكفّار والمشركين كانوا مقرّين بالإله العالم و كانوا يقولون : إنّما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله وإذا كان كذلك فكيف يعقل إقدامهم على سبّ الله ؟ .

قال الرازيّ : ههنا احتمالات : أحدها أنّه ربّما كان بعضهم قائلاً بالدهر ونفي الصّانع فما كان يبالي بهذا النّوع من السّفاهة وثانيها أنّ الصّحابة متى شتموا الأصنام فهم كانوا يشتمون الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله كما قال تعالى : «إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله»[1] وكقوله : «إنّ الّذين يؤذون الله»[2] .

وثالثها أنّه ربّما كان في جهّالهم من كان يعتقد أنّ شيطاناً يحمله على ادّعاء النبوّة والرسالة ثمّ إنّه بجهله كان يسمّي ذلك الشيطان بأنّه إله محمّد ، فكان يشتم إله محمّد بناء على هذا التاويل .

فلو قيل : إن شتم الأصنام و سبّها من اُصول الطاعات فكيف يحقّ من الله أن ينهي عنها ؟ فالجواب أنّ هذا الشتم وإن كان طاعة إلّا أنّه إذا وقع على وجه يستلزم منه منكرٌ عظيم وجب الاحتراز منه ، والأمر ههنا كذلك ؛ لأنّ هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله وعلى فتح باب السفاهة وعلى تنفيرهم عن قبول الدّين وإدخال الغيظ في قلوبهم فلكونه مستلزماً لهذه المنكرات وقع النّهي عنه .

وقرء «عدوّاً» بضمّ العين وتشديد الواو ؛ قال الزجّاج : «عدواً» منصوب على المصدر أي فيعدوا عدواً .

قال الجبّائيّ : دلّت هذه الآية على أنّه لايجوز أن يفعل بالكفّار ما يزدادون به بعداً عن الحقّ ، إذ لو جاز أن يفعله لجاز أن يأمر به و كان لاينهى عنه ، و كان لايأمر

(١) الفتح : ١٠ . (٢) الاحزاب : ٥٧ .

بالرّفق بهم عندالدّعوة كقوله لموسى وهرون : «فقولا له قولاً ليّناً» (١) وذلك يبيّن بطلان مذهب المجبّرة ، انتهى .

قوله تعالى : [كذلك زيّنا لكلّ اُمّة عملهم] قيل في معناه أقوال :

أحدها أنّ معناه : كذلك زيّنّا لكلّ اُمّة عملهم بميل الطباع إليه ولكن قد عرّفناهم الحقّ مع ذلك ليأتوا الحقّ ويجتنبوا الباطل ، وذلك لصحّة التكليف ؛ لأنّه لايقال للعنّين : لا تزن وللأعمى : لاتنظر .

وثانيها أنّ المراد كما زيّنّا لكم أعمالكم زيّنّا لكلّ اُمّة من قبلكم أعمالهم من حسن الدعوة إلى الله وترك مالاينبغي وترك السبّ للأصنام ونهيناهم أن يأتوا من الأفعال ما ينفّر الكفّار عن قبول الحقّ ، عن الحسن والجبّائيّ . ويسمّى مايجب على الإنسان أن يعمله بأنّه عمله كما تقول لغلامك : اعمل عملك أي ماينبغي لك أن تفعله .

وثالث الأقوال أنّ المراد زيّنّا عملهم بذكر ثوابه فهو كقوله : « ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان» (٢) يريد حبّب بذكر ثوابه ومدح فاعليه ، وما فسّرته الأشاعرة في معنى الآية لإثبات مدّعاهم فهو بمعزل عن القبول ولم يرد سبحانه أنّه زيّن عمل الكافرين لأنّ ذلك يقتضي الدّعوة إليه والله تعالى ما دعا أحداً إلى معصيته ولكنّه نهاهم عنها وذمّ فاعليها ونسب مثل هذه الزّينة إلى الشيطان فقال : «وزيّن لهم الشيطان أعمالهم» (٣) ولاخلاف أنّ المراد بذلك الكفر والمعاصي فثبت أنّ المراد به في الآية تزيين أعمال الطاعة .

[ثمّ إلى ربّهم مرجعهم] أي مصيرهم [فينبّؤهم بما كانوا يعلمون] من أعمالهم الخير والشرّ .

قوله تعالى : واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الايات عندالله وما يشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون (١٠٩) ونقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم فى طغيانهم يعمهون (١١٠) .

---

(١) طه : ٤٦ . (٢) الحجرات : ٧ .

(٣) العنكبوت : ٣٧ .

النزول : قالت قريش : يا محمد تخبرنا أنّ موسى كان معه عصاً يضرب به الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى ، و تخبرنا أنّ ثمود كان لهم ناقة فأتنا بآية من الآيات حتّى نصدّقك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أيّ شيء تحبّون أن آتيكم به ؟ قالوا : اجعل لنا الصفا ذهباً ، وابعث لنا بعض موتانا حتّى نسألهم عمّا تقول أحق أم لا ، و أرنا الملائكة يشهدون لك ، أوائتنا بالله و الملائكة قبيلاً ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدّقونني ؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتّبعنّك أجمعين ، وسأل المسلمون رسول الله أن ينزّلها عليهم حتّى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو أن يجعل الصّفا ذهباً فجاءه جبرئيل ، فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدّقوا عذّبتهم وإن شئت تركتهم حتّى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بل يتوب تائبهم ، فأنزل الله هذه الآية ، عن الكلبيّ ومحمد بن كعب القرطبيّ .

المعنى : [وأقسموا بالله] قال الواحدي إنّما سمّي اليمين بالقسم ؛ لأنّ اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الّذي يخبر به الإنسان إثباتاً أو نفياً . ولمّا كان الخبر يدخله الصدق والكذب احتاج المخبر إلى طريق به يتوسّل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب و ذلك هو الحلف والقسم ، و بنوا تلك الصّيغة على « أفعل » و بالحلف يبيّن قسم الصدق الّذي ادّعاه عن قسم نقيضه الّذي هو الكذب ؛ وبالجملة بيّن سبحانه حال الكفّار الّذين سألوا الآيات ، فقال :

[و أقسموا] أي حلفوا [بالله جهد أيمانهم] مجدّين مجتهدين مظهرين الوفاء به [لئن جاءتهم آية] ممّا سألوها [ليؤمننّ بها قل] يا محمد [إنّما الآيات] أي الأعلام و المعجزات [عند الله] وهو مالكها فلو علم صلاحكم في إنزالها لأنزلها [وما يشعركم] الخطاب متوجّه إلى المشركين ؛ وقيل الخطاب متوجّه إلى المؤمنين لأنّهم ظنّوا أنّهم لو أُجيبوا إلى الآيات لآمنوا [إنّها إذا جاءت لا يؤمنون] أي أيّ شيء يعلمكم أنّ الآية الّتي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد .

[ونقلّب أفئدتهم] عطف على «لا يؤمنون» أخبر سبحانه أنّه تعالى يقلّب أفئدة هؤلاء الكفّار [وأبصارهم] عقوبة لهم وفي كيفيّة تقليبهما قولان : أحدهما أنّه يقلّبهما في

جهنّم على] حرّ الجمر ولهب النار ، والثاني أنّ المعنى : نقلّب أفئدتهم وأبصارهم بالحيرة الّتي تغمّ و تزعج النفس [كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة] أي بما جاء من الآيات أوّل مرّة من المعجزات الّتي صدرت عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثل انشقاق القمر و نحوه .

وقيل : معناه : لو اُعيدوا إلى الدّنيا ثانية لم يؤمنوا به كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة في الدّنيا وهذا مثل قوله : «ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه»[1] عن ابن عبّاس . والهاء في «به» يحتمل أن يكون عائدة إلى القرآن وما اُنزل من الآيات و يحتمل أن يكون عائدة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

[ونذرهم في طغيانهم يعمهون] أي نخلّيهم وما اختاروه من الطغيان ولا نحول بينه وبينهم « يعمهون» متردّدين في الحيرة هائمين .

قال بعض أهل التفسير : إنّ قوله : «ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم» معترضة و حشو بين الجملتين ، و المعنى أنّا نحيط علماً بذات الصدور و خائنة الأعين ؛ نختبر قلوبهم فنجد باطنها بخلاف ظاهرها فلا نحول بينهم و بين اختيارهم ولا نمنعهم من ذلك ونمهلهم فإن أقاموا على الكفر والطغيان نتركهم في ذلك الطغيان و العمه ، ولا نلجؤهم ونقهرهم على الإيمان فبسبب إقدامهم على الكفر استحقّوا الحرمان وتقليب أفئدتهم ، و إضافة التقليب إلى الله بهذا المعنى والسّبب . فبطل ما استدلّوا من هذه الآية في الجبر .

قوله تعالى : ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون (١١١) .

بيّن سبحانه حالهم في طغيانهم وعنادهم فقال : [ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة] حتّى يشهدون بنبوّته حتّى يرون الملائكة عياناً [وكلّمهم الموتى] بعد أن أحييناهم حسب ما اقترحوه فيشهدوا لك بالنبوّة فإنّهم طلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم إحياء اثنين من موتاهم للشهادة أحدهما قصيّ بن كلاب و جذعان بن عمرو و قالوا : لئن أحييتهما فشهدا لك بالنبوّة لشهدنا نحن أيضاً [وحشرنا] أي جمعنا [عليهم كلّ شيء قبلا] جمع قبيل ، وانتصابه على

---

(١) الانعام : ٢٨ .

الحاليّة أي لو حشرنا كلّ شيء نوعاً نوعاً وفوجاً فوجاً من سائر المخلوق ، قال صاحب التيسير في كتاب التفسير : أي وبعثنا كلّ حيوان من الفيل إلى البعوض أي أقمنا القيامة [ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يشاء الله] بأن يجبرهم على الإيمان، عن الحسن وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام ، وحاصل المعنى أنّهم لا يؤمنون مختارين إلّا أن يكرهوا .

[ولكنّ أكثرهم يجهلون] أنّ الله قادر على ذلك أو أنّ المعنى : يجهلون أنّهم لو اُوتوا بكلّ آية ما آمنوا طوعاً أو يجهلون مواضع المصلحة فيطلبون ما لا مصلحة ولا فائدة فيه .

وفي الآية دلالة على أنّ الله سبحانه لو علم أنّه إذا فعل ما اقترحوه من الآيات آمنوا لفعل ذلك ولكان ذلك واجباً في حكمته لأنّه لو لم يجب ذلك لم يكن لتعليله ـ بأنّه لم يظهر هذه الآيات لعلمه بأنّه لو فعلها لم يؤمنوا ـ معنى .

وفيها أيضاً دلالة على أنّ إرادته محدثة لأنّ الاستثناء يدلّ على ذلك ، إذ لو كانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء ولم يصحّ كما أنّه لا يصحّ لو قال : ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يعلم الله لحصول هذا الوصف فيما لم يزل ، ويجوز أن يكون الضمير في قوله : « أكثرهم يجهلون» راجعاً إلى المؤمنين أي إنّهم يجهلون عدم إيمان المقترحين عند مجيء الآيات لأنّ المؤمنين كانوا يتمنّون مجيء الآيات طمعاً في إيمان الكافرين .

قوله تعالى : و كذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس و الجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولوشاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى اليه أفئدة الذين لايؤمنون بالاخرة وليرضوه و ليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣) .

سلّى في هذه الآية محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم وبيّن ما كان عليه حال الأنبياء مع أعدائهم فقال : [وكذلك] أي و كما جعلنا لك شياطين الإنس و الجنّ أعداءً كذلك جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء .

وفي معنى « جعلنا » هنا وجوه ؛ قال الطبرسيّ :

أحدها أنّ المراد : كما أمرناك بعداوة قومك من المشركين فقد أمرنا من قبلك

بمعاداة أعدائهم من الجنّ والإنس ، ومتى ما أمر الله رسوله بمعاداة قوم من المشركين فقد جعلهم أعداء له ، وهذا المعنى شائع كما يقول الأمير للمبارز من جيشه : جعلت فلاناً قرنك في المبارزة وهو يعني بذلك أنّه أمره بمبارزته ؛ لأنّه إذا أمره بمبارزته فقد جعل من يبارزه قرناً له .

و ثانيها أنّ معناه : حكمنا بأنّهم أعداء وأخبرنا بذلك لتعاملوهم معاملة الأعداء في الاحتراز عنهم والاستعداد لدفع شرّهم . وهذا كما يقال : جعل القاضي فلاناً عدلاً و فلاناً فاسقاً إذا حكم بعدالة هذا وفسق ذلك .

و ثالثها أنّ المراد خلّينا بينهم و بين اختيارهم العداوة لم نمنعهم عن ذلك كرهاً ولا جبراً لأنّ ذلك يزيل التكليف .

و رابعها أنّه سبحانه إنّما أضاف ذلك إلى نفسه لأنّه سبحانه لمّا أرسل إليهم الرّسل و أمرهم بدعائهم إلى الإسلام والإيمان وخلع الأوثان نصبوا عند ذلك العداوة لأنبيائه ، ومثله قوله تعالى مخبراً عن نوح : « فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً »(١) .

والمراد من قوله: «شياطين الجنّ والإنس » مردة الكفّار من الفريقين أو أنّ المراد من شياطين الإنس الّذين يغوونهم و شياطين الجنّ الّذين هم من ولد إبليس .

قال الكلبيّ في تفسيره عن ابن عبّاس : إنّ إبليس جعل جنده فريقين ؛ فبعث فريقاً منهم إلى الإنس و فريقاً إلى الجنّ فشياطين الجنّ و الإنس أعداء الرّسل و المؤمنين ، فيلتقي شياطين الإنس و شياطين الجنّ في كلّ حين ، فيقول بعضهم لبعض : أنا أضللت صاحبي بكذا فأنت أضلّ صاحبك بمثلها ، فذلك المراد بقوله : [يوحي بعضهم إلى بعض] .

و روي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : إنّ الشياطين يلقى بعضهم بعضاً فيلقي إليه ما يغوي به الخلق حتّى يتعلّم بعضهم من بعض [زخرف القول] أي القول المموّه الّذي يستحسن ظاهره ولا حقيقة له ولا أصل [غروراً] أي يغرّونهم غروراً .

[ولو شاء ربّك ما فعلوه] أخبر سبحانه أنّه لو شاء أن يمنعهم من ذلك جبراً أو يحول

(١) نوح : ٥ .

بينهم و بينه لقدر على ذلك و لكنّه خلّى سبيلهم بينهم و بين أفعالهم إبقاءً للتكليف و امتحاناً للمكلّفين ، و قيل : المعنى : ولوشاء ربّك مافعلوه بأن ينزّل عليهم عذاباً أو آية فتضلّ أعناقهم لها خاضعين .

[فذرهم و ما يفترون] أي دعهم و افترائهم الكذب فإنّي اُجازيهم واُعاقبهم ، أمر سبحانه بأن يخلّي بينهم و بين ما اختاروه و أن لايمنعهم منه بالقهر تهديداً لهم ، وذلك كقوله : « اعملوا ماشئتم » دون أن يكون أمراً واجباً أو ندباً .

[و لتصغى إليه] عطف على الغرور واللّام بمعنى كي أي يوحي بعضهم إلى بعض الغرور و لأن تصغى إليه [أفئدة الّذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه و ليقترفوا] ولام «كي» نائبة عن «أن» في أكثر الموارد واللامات في الآية قرئت بالسكون وقرئت بالحركة ، والحركة أولى أي لتميل إلى هذا القول المزخرف قلوب الّذين لايؤمنون ، ويجوز أن تكون اللّام لام العاقبة [وليرضوه] أي لتميل أفئدتهم إلى تلك المزخرف و يرضوه لأنفسهم بعد ميل أفئدتهم [وليقترفوا] ويكتسبوا بموجب ارتضائهم لذلك المزخرف [ماهم مقترفون] ومكتسبون من القبائح الّتي لايليق ذكرها من الكفر ومتابعة الضّلالة .

و في الآية إشارة إلى أنّ البلايا للسائرين إلى الله ، والأولياء هي المطايا لهم ، وأنّ أشدّ البلاء شماتة الأعداء فلمّا كانت رتبة الأنبياء أعلى كانت عداوة الكفّار لهم أوفى و في ذلك لهم ترقّيات .

قال أهل التاويل : إنّ شيطان الإنس النفس الأمّارة بالسوء و هي أقوى من شياطين الجنّ ، و إنّما يتسلّط شيطان الجنّ على ابن آدم بفضول النّظر والكلام و الطعام و بمخالطة الناس و من اختلط فقد استمع إلى الأكاذيب .

قوله تعالى : أفغير الله أبتغى حكماً و هو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلاتكونن من الممترين (١١٤) .

أمر سبحانه أن يقول لهؤلاء الكفّار الّذين مضى ذكرهم : [أفغير الله أبتغي حكماً] و أطلب سواه حاكماً ؟ و الحكم والحاكم بمعنى واحد إلّا أنّ الحكم أبلغ ؛ لأنّ

معناه من يستحقّ أن يتحاكم إليه فهو لا يقضي إلّا بالحقّ ، وقد يحكم الحاكم بغير حقّ وحاصل المعنى : هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله رغبة عنه ؟ و هل يجوز أن يكون حكم سوى الله يساويه في حكمه ؟ [وهو الّذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً] والحال أنّ القرآن فصّل فيه جميع ما يحتاج إليه أو فصّل فيه بين الحلال والحرام أو بين الصادق والكاذب في الدّين والكفر و الإيمان ، و معنى التّفصيل تبيين المعاني بما ينفي التّخليط الوارد في اللّفظ والمعنى و يرفع التّداخل الّذي هو يوجب النقصان في المراد .

[و الّذين آتيناهم الكتاب] يعني بهم مؤمني أهل التوراة و أهل الإنجيل ، و قيل : المراد كبراء الصّحابة و المراد هنا بالكتاب : القرآن عن عطاء الخراسانيّ [يعلمون أنّه] أي القرآن نازل من عند الله حال كونه متلبّساً [بالحقّ] والصدق .

[فلا تكوننّ من الممترين] والشاكّين من أنّهم يعلمون بحقيقة القرآن ، فالفاء لترتيب النّهي على نفي علمهم بحال القرآن وحقّيّته وعلمهم بأنّه منزل من عند الله ، أو الخطاب للنبيّ والمراد به الأُمّة ، وقيل: الخطاب لغيره أي أيّها الإنسان وأيّها السامع ، وقيل: الخطاب له والمراد زيادة شرح صدره وطمأنينة قلبه كقوله : « فلا يكن في صدرك حرج منه »[١] عن أبي مسلم .

قوله تعالى : وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم(١١٥) .

و قرء « كلمات ربّك » و من قرأ على المفرد قال : قد وقع المفرد على الكثرة فلذلك أغنى عن الجمع لأنّ العرب يستعمل الكلمة على الخطبة والقصيدة المشروحة .

شرّح سبحانه صفة الكتاب المنزل فقال : [وتمّت كلمة] أي و كملت على وجه لا يمكن أخذ الزيادة فيه والنقصان كلمة [ربّك] أي القرآن وقيل : المعنى أنّه أنزل شيئاً بعد شيء حتّى كملت على ما تقتضيه الحكمة . وقيل : المراد من الكلمة دين الله كما في قوله « و كلمة الله هي العليا »[٢] وقيل : المراد: كملت حجّة الله على الخلق [صدقاً و عدلاً] ما كان في القرآن ؛ فما كان فيه من الأخبار فهو صدق وما كان فيه من الأحكام فهو عدل .

---

(١) الاعراف : ٢ . (٢) التوبة : ٤٠ .

[لامبدّل لكلماته] لاتبديل له ولا تغيير في ماجاء به من ثواب وعقاب ، وذلك كقوله : « مايبدّل القول لديّ »[1] والحكم الّذي حصل في الأزل هو التمام، والزيادة عليه ممتنعة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيمة » و كلّ ماحصل في القرآن نوعان : الخبر والتّكليف أمّا الخبر فكلّما أخبرالله عن وجود أوعن عدم مثل الخبر عن وجود ذات الله وعن حصول صفاته أعني كونه تعالى عالماً قادراً سميعاً بصيراً ، و الاخبار التقديسيّة كقوله « لم يلد ولم يولد » وكقوله « لا تأخذه سنة ولا نوم » و أقسام أفعال الله مثل كيفيّة تدبيره السماوات والأرض والملكوت وعالم الأرواح و الأجسام ، ويدخل الأحكام مثل الأمر و النهي المتوجّه على العبد ملكاً كان أوبشراً جنّيّاً كان أوشيطاناً .

فكلّ هذه الامور لا يتطرّق إليه التغيّر و الكذب ، فالقرآن صدق من جهة الأخبار ، وعدل من جهة الأحكام ؛ فقوله : « و تمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً » ضبط في غاية الحسن في بيان جامعيّة القرآن . و معنى لا مبدّل لكلماته هذا المعنى أي إنّها تامّة لايقبل التبديل موافقة للحكمة ، دالّة على المعجزة ، لاتزول بشبهات الجهّال .

[و هو السميع العليم] « السميع » لكلّ مايتعلّق به السمع « العليم » لكلّ مايمكن أن يعلم .

قوله تعالى : و ان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الاالظن وان هم الايخرصون (١١٦) ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١١٧) .

لمّا تقدّم ذكر الكتاب بيّن سبحانه في هذه الآية أنّ من تبع غير الكتاب ضلّ وأضلّ فقال :

[و إن تطع] يامحمّد ، خاطبه و المرادغيره أو المراد هو و غيره . و الطاعة امتثال الأمر و موافقة المطيع المطاع فيما يريده منه . و الفرق بين الاطاعة و الاجابة أنّ

(١) ق : ٢٨ .

الإجابة عامّة في موافقة الإرادة الواقعة موقع[1] ولا يراعى فيها الرتبة بخلاف الإطاعة فإنّ الرتبة ملحوظة فيها [أكثر من في الأرض] يعني الكفّار وأهل الضلالة، وإنّما ذكر الأكثر لأنّه سبحانه علم أنّ منهم من يؤمن ويدعو إلى الحقّ ولكن هم الأقلّ والأكثر الضلّال [يضلّوك عن سبيل الله] أي عن دينه. وفي هذا دلالة على أنّه لاعبرة في دين الله ومعرفة الحقّ بالقلّة والكثرة لجواز أن يكون الحقّ مع الأقلّ وإنّما الاعتبار فيه بالحجّة.

[إن يتّبعون إلّا الظنّ] أي مايتّبع هؤلاء المشركون فيما يعتقدونه ويدعون إليه إلّا الظنّ، وماهم إلّا يكذبون ولايقولون عن علم ولكن عن خرص وتخمين، قال ابن عبّاس: وذلك أنّهم كانوا يدعون النبيّ إلى أكل الميتة، ويقولون: أتأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتله الله؟ ومن قبيل هذه التخمينات فهذا إضلالهم.

[إنّ ربّك هو أعلم من يضلّ عن سبيله] أي أنّ الله أعلم، يعلم من يضلّ عن سبيله، وأعلم بمن هو المهتدي فيجازي كلّاً منهم بما يستحقّون، وهذا نظير قوله تعالى: «لنعلم أيّ الحزبين أحصى»[2] وإنّما قال «أعلم» لأنّ الله يعلم الشيء من كلّ جهاته، وغيره يعلم الشيء من بعض جهاته. وأمّا من هو غير عالم أصلا فلا يقال فيمن ليس بعالم أصلاً: «أعلم منه» إلّا مجازاً أي بموجب زعمهم العلم وادّعائهم.

قوله تعالى: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين (١١٨) ومالكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا مااضطررتم اليه و ان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو اعلم بالمعتدين (١١٩) وذروا ظاهر الاثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢٠).

ولمّا قالوا للمسلمين: أتأكلون ماقتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ نبّه سبحانه المسلمين بقوله: [فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه] والصيغة وإن كانت صيغة الأمر لكنّ المراد به الإباحة. أي ممّا ذكر اسم الله عند ذبحه دون الميتة وما ذكر عليه اسم الأصنام؛ فإنّها

---

(١) كذا في الاصل.

(٢) الكهف: ١١.

محرّمة . والذكر هو قوله «بسم الله» وقيل : هو كلّ اسم يختص الله به أو صفة تختصّه كقول : «باسم الرحمن» أو «باسم القديم» أو «باسم القادر لذاته» وما يجري مجراه قال الطبرسيّ : والقول الأوّل مجمع عليه ، والظاهر يقتضي جواز غيره أيضاً لقوله : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى»[(١)] .

[إن كنتم بآياته مؤمنين] بأن عرفتم الله ورسوله وصحّة ما آتاكم الرسول به من عند الله فلو قيل : إنّ قوله : «فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه» صيغة الأمر وهي للإباحة، و هذه الإباحة حاصلة في حقّ المؤمن وغير المومن و كلمة «إن» في قوله «إن كنتم بآياته مؤمنين» تفيد الاشتراط ؛ فالجواب أنّ المعنى: اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه فيكون المعنى تحريم أكل الميتة للمؤمن ، ولو أنّ الكافر أيضاً حرام عليه لكنّه لمّا لم يجعل الكافر الميتة حراماً فقيّد الحكم بالمؤمن .

[وما لكم ألّا تأكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه] المعنى : و أيّ شيء لكم في أن لا تأكلوا ؟ فيكون ما استفهاميّة على قول البصريّين أي ما الّذي يمنعكم أن تأكلوا ممّا ذكر اسم الله عند ذبحه ؟ وقيل : «ما» نافية يعني ليس لكم أن لا تأكلوا .

فإن قيل : إنّ المشركين كانوا يبيحون أكل ما ذبح على اسم الله و لا ينكرون أكله ، وإنّما الاختلاف في أنّهم أيضاً كانوا يبيحون أكل الميتة والمسلمون كانوا يحرّمونها وإذا كان كذلك كان ورود الأمر بإباحة ما ذكر اسم الله عليه عبثاً لأنّه يقتضي إثبات الحكم في المتّفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه ؛ فالجواب أنّ معنى الآية أن اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله فمعنى «أن لا تأكلوا» أن لا تجعلوا أكلكم مقصوراً عليه فيفيد تحريم أكل الميتة فقط كما بيّنا قبل هذا هذا المعنى .

[وقد فصّل لكم] أي والحال أنّه تعالى قد بيّن لكم [ما حرّم عليكم] ممّا لم يحرّمه وهو قوله تعالى : «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ به لغير الله » في سورة المائدة .[(٢)]

فإن قيل: إنّ سورة المائدة مدنيّة ، ونزلت بعد الأنعام والأنعام مكّيّة فلا يصحّ أن يقال : «وقد فصّل لكم» فأجابوا أنّه يحمل على أنّه بيّن على لسان الرّسول ثمّ

---

(١) الاسراء : ١١٠ . (٢) الاية ٥ منها .

بعد ذلك نزل به القرآن ، لكنّ العلماء مثل الرازيّ وأشباهه لم يقتنعوا بهذا الجواب وقالوا : المراد من قوله : « وقد فصّل لكم » هذه الآية و هي قوله : « قل لاأجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلّا أن يكون ميتة ، الآية»[1] .

فإن قلت : إنّ الإيراد أيضاً وارد ؛ لأنّ صيغة « فصّل » يقتضي التقدّم و هذه الآية أيضاً متأخّرة ؛ فأجاب الرازيّ عن هذا الإشكال بحجّة ضعيفة وهي أنّ هذا القدر من التأخّر لا يمنع أن يكون هو المراد .

والحقّ أنّ هذا الجواب عن هذا الفاضل تكلّف والأولى ما ذكره الطبرسيّ بأن حمله على التفصيل من لسان الرّسول والوحي الغير المتلوّ كما أشرنا إليه .

[إلّا ما اضطررتم إليه] أي إلّا ما خفتم على نفوسكم الهلاك من الجوع إذا تركتم الأكل منه فحينئذ يجوز لكم تناوله وإن كان ممّا حرّمه الله ، واختلف في مقدار ما يسوغ أكله عند الاضطرار ؛ فعندنا الإماميّة لايجوز إلّا مايمسك به الرمق وقال قوم : يجوز أن يشبع المضطرّ منها وأن يحمل منها حتّى يجد ما يأكل .

قال الجبّائيّ : إنّ في هذه الآية دلالة على أنّ ما يكره على أكله من هذه الأجناس يجوز أكله لأنّ المكره يخاف على نفسه مثل المضطرّ ، والاستثناء في الآية متّصل و المستثنى منه ماحرّم و«ما» مصدريّة بمعنى المدّة لكن إن جعلت «ما» موصوله تعيّن أن يكون الاستثناء منقطعاً لأنّ ما اضطرّ إليه حلالٌ فلا يدخل تحت ماحرّم عليهم .

[وإنّ كثيراً] من الكفّار [ليضلّون] النّاس [بأهوائهم] وبماتهوي أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها [بغير علم] مقتبس من الشريعة الشريفة مستنداً إلى الوحي [إنّ ربّك هو أعلم بالمهتدين] المتجاوزين الحقّ إلى الباطل والحلال إلى الحرام .

قال الطبرسيّ : إنّ في هذه الآية وهي « فكلوا ممّا ذكر اسم الله » دلالة على وجوب التسمية على الذبيحة ، وعلى أنّ ذبائح الكفّار لا يجوز أكلها لأنّهم لايسمّون الله تعالى عليها وأنّ من سمّى عليها منهم لايعتقد وجوب ذلك حقيقة لأنّ الّذي يسمّي هو الّذي يؤيّد شرع موسى وعيسى ومخالف لشريعة يجب فيها التسمية فإذاً لايذكر الله حقيقة .

(١) الانعام : ١٤٦ .

قوله تعالى: [وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الّذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون] أي اتركوا ايّها المؤمنون الإثم الظاهر والإثم الباطن، من إضافة الصفة إلى الموصوف والمراد من الإثم المعاصي كلّها لأنّها لاتخلو من هذين الوجهين فيدخل فيه ما يعلن و يستسرّ سواءً كان من أفعال القلوب أو الجوارح فأفعال الجوارح ظاهرة كالأقوال و الأفعال، و أعمال القلوب باطنة كالعقائد الفاسدة و العزائم الباطلة المورثة للفساد في العالم.

وقيل: المراد من « ظاهر الإثم » هو الزناء ومن «باطن الإثم» اتّخاذ الأخدان عن السدّيّ والضحّاك. وقيل: المراد من « ظاهر الإثم» امرأة الأب «وباطنه» الزناء عن سعيد بن جبير. و قيل: إنّ أهل الجاهليّة كانت ترى أنّ الزناء إذا ظهر كان فيه الإثم و إذا استسرّ به صاحبه لم يكن إثماً، عن الضحّاك. قال الطبرسيّ: والأصحّ هو الأوّل؛ لأنّه يعمّ الجميع.

[إنّ الّذين يكسبون الإثم] ويعملون المعاصي الّتي فيها الآثام ويرتكبون القبائح [سيجزون] ويعاقبون [بما كانوا يقترفون] ويكسبونه والآية صريحة بأنّ كسب العبد من القبائح فعل أحدثه العبد، ولهذا يعاقب عليها فلو كان بتخليق الله وجعله سبحانه في العبد فالعقوبة من البريء قبيحة فثبت بطلان مذهب الجبر.

قوله تعالى: ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون (١٢١).

أكّد سبحانه ماتقدّم بقوله: [ولاتأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق] أي إنّ أكل ما لم يسمّ عليه خروج من حكم الله وهذا الحكم جارٍ في ذبائح الكفّار أهل الكتاب وغيرهم قال الطبرسيّ: من سمّى منهم ومن لم يسمّ لأنّهم لايعرفون الله فلا يصحّ منهم التسمية إن وقعت وإن لم تقع فبطريق أولى كما أشرنا إليه سابقاً.

و أمّا ذبيحة المسلم إذا لم يسمّ الله عليها فقد اختلف في ذلك؛ فقيل: لايحلّ أكلها سواء ترك التسمية عمداً أو نسياناً، عن مالك وداود والحسن وابن سيرين والجبّائيّ.

وقيل : يحلّ أكلها في الحالين والدليل عليه ماروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : ذكرالله مع المسلم ؛ سواءً قال أو لم يقل ، عن الشافعيّ .

وقيل : يحلّ أكلها إذا ترك التسمية ناسياً بعد أن يكون معتقداً بوجوبها ، و محرّم أكلها إذا تركها متعمّداً ، عن أبي حنيفة وأصحابه . قال الطّبرسيّ وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام .

قال الرّازيّ في المفاتيح : ألاولى بالمسلم أن يحترز عنه ؛ لأنّ ظاهر هذا النصّ قويٌّ .

[وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم] أي إبليس وجنوده وقيل : يعني بهم علماء الكافرين ورؤساءهم المتمرّدين في كفرهم ليؤمّون ويشيرون إلى الّذين اتّبعوهم من الكفّار يوسوسون إلى المشركين ، والوحي إلقاء المعنى إلى النفس مع الخفية .

[ليجادلوكم] في استحلال الميتة بقولهم : قتيل الله أولى بالأكل من قتيلكم ! فهذه مجادلتهم . وقال عكرمة : إنّ قوماً من علماء مجوس فارس كتبوا إلى مشركي قريش ـ وكانوا أولياءهم في الجاهليّة ـ : إنّ محمّداً وأصحابه يزعمون أنّهم يتّبعون أمرالله ثمّ يزعمون أنّ ماذبحوه حلال وماقتله الله حرامٌ ، فوقع هذا الكلام في نفوس المشركين فدلك إيحاؤهم إليهم لكن قال ابن عبّاس : المراد في الآية شياطين الجنّ يوحون إلى أوليائهم من الإنس بإلقاء الوسوسة والمناقشات .

ثمّ قال سبحانه : [وإن أطعتموهم] أيّها المؤمنون فيما يقولونه من استحلال الميتة وغيره [إنّكم لمشركون] ضرورة أنّ من استحلّ حراماً بيّناً فهو كافر بالإجماع لأنّه اختار طاعة غير الله وترك طاعته عمداً واتّبع ديناً غير دين الله وآثر به تعالى بل آثره عليه تعالى .

لكن عطاء الخراسانيّ قال في الآية : إنّه مختصّ بذبائح العرب الّتي كانت تذبحها للأوثان وفي الحديث : إنّ الشيطان يستقلّ الطعام إلّا بذكر اسم الله عليه فاللّعين يشارك الأكل إذا لم يسمّ ومن ينسي التسمية في أوّل الطّعام فمتى ما ذكر فيقول : بسم الله أوّله وآخره فإذا قال ذلك فقد تدارك تقصيره .

في الحديث : كان رجل يأكل فلم يسمّ حتّى لم يبق من طعامه إلّا لقمة فلمّا رفعها إلى فيه قال بسم الله أوّله وآخره فضحك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال : مازال الشيطان يأكل معه فلمّا ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه .

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الشيطان يأكل بمضغ و بلع كما ذهب إليه قومٌ .

وقال آخرون : أكل الشيطان صحيح لكنّه تشمّم واسترواح وإنّما المضغ والبلع لذوي الجثث ، والشياطين أجسام رقاق . وفي أكام المرجان قال : كلّما لم يسمّ عليه من طعام أو شراب أو لباس أو غير ذلك ممّا ينتفع به فللشيطان فيه تصرّف واستعمال إمّا بإتلاف عينه كالطعام وإمّا مع بقاء عينه . وفي الحديث : إنّ الشيطان حسّاس لحّاس فاحذروه على أنفسكم ؛ فمن بات وفي يده شيء فأصابه شيء فلا يلومنّ إلّا نفسه .

و قال بعضهم : إنّما وجبت التسمية عند الذبح ؛ لأنّ مرارة النّزع و الذّبح شديدة وذكر اسم الله أحلى من كلّ شيء فأُمرنا بالتسمية عند الذّبح كي تسمع الشاة و المذبوح ذكر الله عند الموت فلا تشتدّ مرارة النّزع مع حلاوة ذكر الله ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : لقّنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلّا الله يسهّل عليكم سكرات الموت (١) ، ولمّا كان الإحياء والإماتة من الله لم يجز أن يذبح باسم غيره .

قوله تعالى : أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون (١٢٢) وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون (١٢٣) .

النزول : قيل : إنّ قوله تعالى « أومن كان ميتاً » نزلت في حمزة بن عبدالمطّلب وأبي جهل بن هشام المخزوميّ ، وذلك أنّ أبا جهل رمى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بفرث ، فأُخبر حمزة بما فعل وهو راجع من الصيد وبيده قوسٌ ، وكان يومئذ لم يؤمن فلقي في طريقه أبا جهل فضرب رأسه بالقوس فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به ؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا فقال حمزة : وأنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله تعالى ، أشهد أن لا إله إلّا

(١) وبه ورد روايات كثيرة أورد عدة منها في فروع الكافي « ج ١ ٣٤ - ٣٥ » باب تلقين الميت .

الله وحده لاشريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ، فنزلت الآية .

والهمزة للإنكار و النفي ، والواو لعطف الجملة الاسميّة على مثلها الّذي يدلّ عليه الكلام ، و التقدير : أنتم أيّها المؤمنون مثل المشركين و من كان ميتاً ، فمثّل سبحانه الفريقين .

أي كان كافراً [فأحييناه] بأن هديناه إلى الإيمان . شبّه الكفر بالموت والإيمان بالحياة فبيّن أنّ المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميّتاً فجعل حيّاً بعد ذلك وجعل له نوراً يهتدي به ، وأنّ الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها لاخلاص له منها فيكون متحيّراً على الدّوام .

[وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس] وذلك مثل حال المؤمن ، و ليس من كان أمره هكذا [كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها] فسمّى الإيمان و الحكمة و العلم نوراً والكفر والجهل ظلمة ، وقال : «كمن مثله في الظلمات» ولم يقل: كمن هو في الظلمات و ذكره بلفظ المثل إشعاراً بأنّه بلغ في الحيرة و الكفر غايةً يضرب به المثل فيها .

[كذلك زيّن للكافرين ماكانوا يعملون] شبّه سبحانه حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه كقوله : «كلّ حزب بما لديهم فرحون» والمعنى : زيّن لهؤلاء الكفر فعملوه ، مثل مازيّن لأولئك الإيمان فعملوه . قال الحسن : زيّنه والله لهم الشيطان وأنفسهم . قال الطبرسيّ : وقوله : «زيّن» لايقتضي مزيّناً غيرهم لأنّه بمنزلة قوله : «أنّى يصرفون» و «أنّى يؤفكون» تقول العرب : أعجب فلان بنفسه و أولع كذا ، و مثله كثير .

[وكذلك جعلنا في كلّ قرية أكابر] أي مثل ذلك الّذي قصصنا عليك ـ من قوله زيّن للكافرين عملهم ـ صيّرنا في كلّ قرية أكابر [مجرميها] أو كما صيّرنا في مكّة صناديدها [ليمكروا فيها] كذلك جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها ، والأكابر جمع الأكبر .

قال الرّازيّ : والآية على التّقديم والتّأخير ، تقديره جعلنا مجرميها أكابر ، ولايجوز أن يكون الأكابر مضافة فإنّه لايتمّ المعنى . ولأنّك إذا أضفت الأكابر فقد

اُضيفت الصفة إلى الموصوف وذلك لايجوز عنه البصريّين .

قالت الأشاعرة : إنّما جعلهم بهذه الصّفة لأنّه أراد منهم أن يمكروا بالنّاس فهو دليل على أنّ الخير والشرّ بإرادة الله ، و ليس الأمر على ماقالوه لثبوت الظلم في حقّه تعالى ، تعالى الله عن الظلم وعن إرادة القبيح بل اللاّم لام العاقبة ولام الصيرورة كما في قوله : « ليكون لهم عدوّاً وحزناً »(١) وكقول الشاعر : فللموت ماتلدالوالدة .

قال الجبّائيّ : لاشكّ أنّ اللاّم في مثل هذه الموارد لام العاقبة . قالت المعتزلة : لمّا لم يمنعهم عن المكرصار شبيهاً بما إذا أراد ذلك فجاء الكلام على سبيل التشبيه .

[وما يمكرون إلّا بأنفسهم و ما يشعرون] والآية صريحة بأنّهم الماكرون و وقع الفعل بإرادتهم و اختيارهم فبطل الجبر ، و ما يشعرون لأنّ عقاب ذلك المكر يحلّ بهم وقد مكروا بأنفسهم ولاشكّ أنّ قوله : « وما يمكرون إلّا بأنفسهم »مذكور في معرض التهديد و الزّجر فلو كان ماقبل هذه يدلّ على أنّه أراد منهم أن يمكروا بالناس فكيف يليق بالرّحيم الكريم الحكيم العادل أن يريد منهم المكر و يخلق فيهم المكر ثمّ يهدّدهم عليه و يعاقبهم أشدّ العقاب ؟ .

قوله تعالى : و اذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتى رسل الله ألله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عندالله و عذاب شديد بماكانوا يمكرون (١٢٤) .

النزول : قيل : نزلت في الوليدبن المغيرة ، قال : والله لوكانت النبوّة حقّاً لكنت أولى بهامنك يا محمّد ؛ لأنّي أكبر سنّاً و أكثر مالاً . و قيل : نزلت في أبي جهل قال : زاحمنا بنوعبدمناف في الشرف حتّى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منّانبيّ يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتّبعه أبداً إلّا أنّ يأتينا وحي كمايأتيه ، عن مقاتل .

المعنى : حكى سبحانه عن الأكابر الّذين تقدّم ذكرهم اقتراحاتهم الباطلة فقال سبحانه : [و إذا جاءتهم آية] أي دلالة معجزة من عندالله يدلّ على توحيده و صدق محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم [قالوا لن نؤمن] و لن نصدّق بها [حتّى نؤتى] أي نعطى آية معجزة [مثل ما اُوتي] و اُعطي [رسل الله] حسداً منهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

(أقول : ورأيت في بعض المجامع أنّ مابين الجلالتين من هذه السورة من المواضع

(١) القصص : ٥ .

الّتي يرجى فيها استجابة الدّعاء فليحافظ عليه انتهى[1]) .

ثمّ أخبر سبحانه على وجه الإنكار عليهم بقوله : [الله أعلم حيث يجعل رسالته] أنّه أعلم منهم و من جميع الخلق بمن يصلح للرسالة ويتعلّق مصالح الخلق ببعثه ومن هوقابل بأن يقوم بأعباء الرسالة ومن لايقوم بهافيجعلها عندمن يقوم بأدائها و يحتمل مايلحقه من الأذى و المشقّة على تبليغها ؛ فللرسالة موضع مخصوص لايصلح وضعها إلّا فيه ، والعالم بتلك الصّفات ليس إلّا الله تعالى .

والنفوس والأرواح قيل : متساوية في تمام الماهيّة ، وحصول النبوّة و الرسالة لبعضها دون البعض تشريف من الله و تفضيل لكنّ المحقّقون قالوا : إنّ النفوس البشريّة مختلفة بجواهرها و ماهيّاتها ، فبعضها خيرة طاهرة من علائق الجسمانيّات مشرقة بالأنوارالإلهيّة ، منوّرة ، وبعضهاخسيسة كدرةمحبّةللجسمانيّات ، والنّفس مالم تكن من القسم الأوّل لم تصلح لقبول الوحي و الرسالة ثمّ إنّ القسم الأوّل يقع الاختلاف فيه بالزّيادة و النقصان و القوّة و الضعف إلى مراتب لانهاية لها ؛ فلاجرم كانت مراتب الرسل مختلفة فمنهم من حصلت له المعجزات القويّة و التّبع القليل ، ومنهم من حصلت له معجزة واحدة أو اثنتان وحصل له تبع عظيم ، و منهم من كان الرّفق غالباً عليه ، ومنهم من كان التشديد غالباً عليه بحسب مصالح العامّة .

ثمّ بيّن و هدّد سبحانه الماكرين والمنقطعين إلى الكفر الّذين سبق ذكرهم فقال : [سيصيب الّذين أجرموا صغار] وينالهم من الله ذلّ وهوان و إن كانوا في الدنيا أكابر وهذا الذلّ والهوان معدّلهم فيالآخرة [وعذابٌ شديدٌ بماكانوايمكرون] في الدنيا جزاء على كفرهم و مكرهم فإنّ الجزاء يقابل المعصية تقابل التضادّ ؛ فإنّهم لمّا تمرّدوا عن طاعة محمّد استنكافاً وطلباً للعزّ والكرامة فالله قابلهم بضدّ مطلوبهم فأوّل مايوصل إليهم الصّغار والذلّ فيالقيامة .

قوله تعالى : فمن يردالله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون(١٢٥) .

(١) مراده : «الله» هي : (رسل الله ، الله اعلم) .

لما تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين بيّن عقيبه مايفعل بكلّ من القبيلتين ما يستحقّون من اختيارهم فقال :

[فمن يرد الله أن يهديه] و يثبّته على الهدى [يشرح صدره] جزاء له على إيمانه و اهتدائه . وقد يطلق لفظ الهدى و المراد به الاستدامة كما في قوله : «اهدنا الصراط المستقيم » أو المعنى : من يرد الله أن يهديه إلى الثواب والجنّة يشرح صدره للإسلام في الدّنيا بأن يثبّت عزمه عليه ويقوّي دواعيه على التمسّك به ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان وما يعرض في القلوب من الخواطر الفاسدة ، و إنّما يفعل ذلك منّاً عليه وثواباً على اهتدائه نظير قوله تعالى :«والّذين اهتدوا زادهم هدى»(١) «ويزيد الله الّذين اهتدوا هدى»(٢) وهذا المعنى أيضاً قريب من المعنى الأوّل .

وقد وردت الرّواية الصّحيحة أنّه لمّا نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن شرح الصّدر ماهو ؟ فقال : نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسح قالوا : فهل لذلك إمارة يعرف بها ؟ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : نعم الإنابة إلى دار الخلود و التجافي عن دار الغرور ، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت .

[ومن يرد أن يضلّه] أي يخذله بسبب اختياره الكفر ويخلّي بينه وبين ما يريده [يجعل صدره ضيّقاً حرجاً] بأن يمنعه ألطاف شرح الصّدر لخروجه عن قبول الإيمان جزاءً على سوء اختياره من غير أن يمنعه عن الإيمان أو يريد منه الكفر أو يخلق فيه الكفر كما زعمت الأشاعرة ، فإنّهم استدلّوا بظاهر الآية على ثبوت مدّعاهم الفاسد واعتمادهم في إثبات العلم والدّاعية ، وقالوا : إنّهما يوجبان الفعل و ليس كذلك ، نعم الداعي من معدّات الفعل لكن في الدّاعي لمَ لايقولون من العبد ؟ و داعيتهم ميلهم إلى هذا الأمر الشنيع ، وذلك الميل واختيار السوء يوجب إيتان الفعل كميل السارق إلى السّرقة نميله إلى المسروق به طمعاً في استدراكه ، و كيف يكون أن يخلق فيهم داعية الكفر ويريد منهم وقوعه ويأمرهم بضدّه وهو الإيمان ؟ فإنّه متى ما خلق فيهم أمراً وشاء وأراد وقوع ذلك الأمر لن يقع غيره البتّة ؛ فحينئذ كيف يجوز عقاب فعل

---

(١) محمّد : ١٩ . (٢) مريم : ٧٨ .

يقع من فاعل لايتمكّن أن يفعل غير ذلك الفعل فحينئذ إمّا أن يقول : إنّ الكافر غير معاقب البتّة ، وإمّا أن يقول : إنّ الله قد أمر بما لا يطاق ولا يتمكّن ، وهو أقبح أقسام الظلم ، تعالى عن ذلك .

وأمّا مسألة العلم فذلك أيضاً ليس من موجبات الفعل لأنّ العلم بأنّ القاضي مثلاً يضحك ويلاعب امرأته فهل ذلك العلم من موجبات ضحك القاضي ؟ فكذلك علمه تعالى ؛ فإنّه لمّا سبق علمه المعلوم و علم أنّ المعلوم سيكون كتب : كان ، فمثل هذا العلم كيف يكون من موجبات الفعل ؟ .

قالت المعتزلة : إنّ ماتمسّكت به الأشاعرة في هذه الآية ليس بدليل لهم ، و ليس معنى الآية أنّه تعالى أضلّ قوماً أو يضلّهم ؛ لأنّه ليس فيها من إنّه متى ما أراد أن يهدي إنساناً فعل به كيت و كيت ، وإذا أراد إضلاله فعل به كيت و كيت ، و ليس في الآية أنّه تعالى يريد ذلك أو لا يريده ، والدّليل عليه أنّه تعالى قال : «لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين[1] » فبيّن أنّه يفعل اللّهو لو أراده ؛ ولا خلاف أنّه تعالى لا يريد ذلك ولا يفعله .

ثمّ إنّه تعالى لم يقل : ومن يرد أن يضلّه عن الإيمان ، بل قال : « ومن يرد أن يضلّه » فلم قلتم : إنّ المراد : ومن يرد أن يضلّه عن الإيمان ؟ وقد بيّن سبحانه في آخر الآية أنّه إنّما يفعل هذا الفعل بهذا الكافر جزاءً على كفره وأنّه ليس ذلك على سبيل الابتداء ؛ فإنّه قال : « كذلك يجعل الله الرّجس على الّذين لا يؤمنون » فثبت بطلان الجبر .

وتفسير الآية وهو الّذي اختاره الجبّائيّ والقاضي عبدالجبّار و أبطال المعتزلة وجمهور الإماميّة أنّ من يرد الله أن يهديه يوم القيامة إلى طريق الجنّة بسبب حسن قبوله يشرح صدره للإسلام حتّى يثبت عليه ولا يزول عنه ؛ ثواباً على قبولهم الطّاعة .

و تفسير هذا الشرح في الصّدر هو أنّه يفعل به ألطافاً يدعوه إلى البقاء على

---

(١) الانبياء : ١٧ .

الإيمان والثبات عليه ، وهذه الألطاف إنّما تقع منه تعالى للمؤمن بعدأن صار مؤمناً كما قال سبحانه : «ومن يؤمن بالله يهدقلبه[1]» و كذلك قوله تعالى : «والّذين جاهدوا فينالنهدينّهم سبلنا[2]» .

فأمّا إذاكفر وعاند وأرادالله أن يضلّه عن طريق الجنّة فعند ذلك يلقي في صدره الضّيق والحرج فالعبد بسبب هذه الدرجة من قبول الإيمان وجد انشراح الصدر ، و الكافر بسبب هذهالدركة من قبول الكفر و اختيار الكفر على الإيمان وجدهذا الضيق والحرج والبأس من غير أن يكون سبحانه مانعاً له عن الايمان وسالباً إيّاه عن القدرة على الايمان ، و كيف يجوز ذلك وقد ذمّ الله تعالى فرعون و السامريّ على إضلالهما عن دين الهدى ؟ فقال تعالى : « وأضلّ فرعون قومه وماهدى[3]» وقال تعالى : « وأضلّهم السّامريّ [4] » فكيف ينسب إليه تعالى ما ذمّ عليه غيره ؟ انتهى .

قوله : [كأنّما يصّعّد في السماء] أي إنّ هذاالكافرإذا دعي إلى الاسلام كأنّه مكلّف بصعود السماء . وقيل : المعنى : كأنّهما ينزع قلبه إلى السماء لشدّةالمشقّةعليه من مفارقة مذهبه الباطل بسبب ذلك الضّيق والحرج .

قال الزجّاج : « الحرج » في اللّغة أضيق الضيق ، و قرء « حرجاً» بكسر الرّاء ؛ فمن قال : « حرج » بفتح الراء معناه : ذوحرج و « الحرج » بكسرالراء نهاية الضيق و بالفتح جمع «حرجة» وهوالموضع الكثيرالأشجار الّذي لاتناله الراعية ، المشتبك الّذي لاطريق فيه لأحد . شبّه سبحانه قلب الكافر بهذاالموضع الّذي لا ينتفع أحد منه ،ولاطريق فيه ، كذلك قلب الكافر لايصل إليه شيء من الخير بكفره .

و أمّا قوله : « يصّعّد » فقرء « يصّاعد» بالألف و تشديد الصاد بمعنى يتصاعد ، والمشهور « يصّعّد» بتشديد الصاد والعين بغيرألف . وقرء « يصعد » قرأه ابن كثير فهي من الصعود ، و بالجملة ففي كيفيّة هذا التشبيه وجهان :

---

(١) المنافقون : ١١ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣- ٤) طه : ٥١ و ٨٧ .

الأوّل : كما أنّ الإنسان إذا كلّف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه كذلك الكافر يثقل عليه الإيمان .

و الوجه الثاني أن يكون التقدير أنّ قلب الكافر ينبو عن الإيمان و يتباعد عنه فشبّه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء .

[كذلك يجعل الله الرجس] و «الرجس» العذاب وقيل : « الرجس» ما لا خير فيه، عن مجاهد . و وجه التشبيه في قوله : « كذلك يجعل الله » أنّه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب اُولئك ؛ فإنّ كلّ ذلك على وجه العقوبة والاستحقاق [على الّذين لا يؤمنون] بسبب عدم إيمانهم .

قوله تعالى: وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الايات لقوم يذكرون (١٢٦) لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (١٢٧) .

أشار سبحانه إلى ما تقدّم من البيان ؛ وهذا طريق ربّك وهو القرآن ، عن ابن مسعود ، والإسلام عن ابن عبّاس ، وأضافه إلى نفسه ، لأنّه تعالى أرشد إليه [مستقيماً] لا اعوجاج فيه ، و إنّما وصف الصراط الّذي هو أدلّة بالحقّ بالاستقامة مع اختلاف وجود الأدلّة وتعدّدها ؛ لأنّها مع كثرتها و اختلافها تؤدّي إلى الحقّ ، فكأنّها طريق واحد مع أنّها متعدّدة ، لسلامة جميع الأدلّة من التناقض والفساد ، و إنّما سمّاه صراطاً لأنّ العلم به يؤدّي إلى التوحيد والسعادة وقيل : الإشارة في الآية بقوله :«وهذا صراط ربّك» يريد هذا الّذي أنت عليه يا محمّد دين ربّك مستقيماً ، وتفصيل الآيات معناه ذكرها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر مشروحاً [لقوم يذّكّرون] وأصله يتذكّرون ، خصّ المتذكّرين لأنّهم المنتفعون بالحجج دون غيرهم .

[لهم دار السلام] أي للمتذكّرين و الّذين عرفوا الحقّ دار السلامة الدائمة الخالصة من كلّ آفة و بليّة يلقاه أهل النار . وقيل : إنّ السلام هو الله ، وداره الجنّة [عند ربّهم] والمراد من العنديّة القرب في المكانة لا المكان .

[وهو وليّهم] يعني أنّ الله سبحانه يتولّى إيصال المنافع إليهم و دفع المضارّ عنهم و ناصرهم . وقيل : يتولّاهم في الدنيا بالتوفيق و في الآخرة بالجزاء [بما كانوا يعملون] من الطاعات فحذف لظهور المعنى ، فإنّ من المعلوم أنّ ما لا يكون طاعة من الأعمال

فلاثواب عليه و معلوم أنّ الإطاعة للعبد كالإكسير الأعظم و بها يبلغ العبد إلى المقام العالي ، والمخالفة سمّ نقيع و بها يقع إلى الدرك السافل .

كما حكي عن بعض الصالحين من شيوخ اليمن أنه خرج يوماً من زبيد إلى نحو الساحل المعروف بالأهواز ومعه تلميذه ، فمرّ في طريقه على قصب ذرّة كبّار جبار ، فقال الشيخ لتلميذه : خذمعك من هذا القصب ففعل التلميذ و تعجّب في نفسه و قال : ما مراد الشيخ بهذا ؟ و لم يقل الشيخ شيئاً حتّى إذا بلغ إلى محلّة للعبيد يقال لهم « السناكم » يأكلون الميتات و يشربون الخمور ولايعرفون الصلاة و إذاً بهم يشربون ويلعبون و يلهون و يغنّون ويضربون بالدفوف فقال الشيخ للتلميذ : ايتني بهذا الشيخ الطويل الّذي يضرب الطبل ، فأتاه التلميذ ، وقال : أجب هذا الشيخ ، فرمى الطبل من رقبته ومشى معه إلى الشيخ ، فلمّا وقف بين يديه قال الشيخ للتلميذ : اضرب هذا الرجل فضربه حتّى استوفى منه الحدّ ولم ينكر و ما تأوّه ، ثمّ قال له الشيخ : امش قدّامنا فمشى حتّى بلغوا البحر فأمره الشيخ أن يغتسل و يغسل ثيابه و علّمه كيفيّة الصلاة و التطهير ، وتقدّم الشيخ فصلّى بهما الظهر ، وظهر من حالات الشيخ الأسود الطبّال في ساعة واحدة كيفيّة و معرفة لم يظهر من التلميذ ولا من شيخه هذه السنين المتطاولة ؛ فعلى الغافل التسليم لأوامره تعالى وترك المخالفة يصل إلى مقام العنديّة .

قوله تعالى : ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض و بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثوىكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم (١٢٨) وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بماكانوا يكسبون (١٢٩) .

و اذكر يامحمد لأهل مكّة وغيرهم يوم يحشر الله الثقلين جميعاً و يجمعهم في الموقف . و قرء بالنون ، و قيل : يريد الكفّار يقول : [يامعشر الجنّ] أي ياجماعة الجنّ [قد استكثرتم من الإنس] أي أضللتم خلقاً كثيراً من الإنس ، وسمّيت الجماعة بالمعشر لبلوغها غاية الكثرة فإنّ العشر هو العدد الكامل الكثير الّذي لاعدد بعده إلّا بتركيبه بمافيه من الآحاد فتقول : أحد عشر وهكذا فالعدد كلّما كثر فهو يتركّب من العشر ؛

فإذا قيل : معشر فالمراد هو الكثرة الكاملة .

[وقال أولياؤهم] أي أولياؤ الشياطين الّذين أطاعوهم [من الإنس] فهو حال من «أولياؤهم» : [ربّنا استمتع بعضنا ببعض]أي انتفع الإنس بالجنّ والجنّ بالإنس ، أمّا انتفاع الإنس بالجنّ فمن حيث إنّ الجنّ كانوا يدلّونهم بالوسوسة على أنواع الشهوات وما يستلذّون به من إغوائهم ، و أمّا انتفاع الجنّ بالإنس فمن حيث لم يضيّعوا سعيهم ، و الرئيس المطاع ينتفع بانقياد أتباعه له وحصول مراده .

[و بلغنا أجلنا الّذي أجّلت لنا] أي أدركنا الوقت الّذي وقّت لناو هو يوم القيامة ، قالوه اعترافاً بمافعلوا من اتّباع الشيطان و الهوى وتكذيب البعث و إظهاراً للنّدامة و استسلاماً لربّهم ، و لعلّ الاقتصار على حكاية كلام الضالّين للإيذان بأنّ المضلّين قد اُفحموا بالمرّة فلم يقدروا على التكلّم أصلاً .

[قال النار مثواكم] كأنّه قيل : فماذا قال الله تعالى حينئذ ؟ فقيل : قال : النار منزلكم و محلّ إقامتكم [خالدين فيها] قال ابن عبّاس : الخلق أربعة فخلق في الجنّة كلّهم وهم الملائكة ، و خلق في النّار كلّهم فهم الشياطين و خلقان في الجنّة والنار وهما الإنس والجنّ لهم الثواب و عليهم العقاب .

[إلّا ماشاءالله] قيل : في معنى هذاالاستثناء أقوال :

أحدها ماروي عن ابن عبّاس أنّه قال : كان وعيد الكفّار مبهماً غير مقطوعاً به ثمّ قطع به لقوله : «إنّ الله لايغفر أن يشرك به»[1] .

و ثانيها أنّ الاستثناء إنّما هو من يوم القيامة لأنّ قوله : « ويوم يحشرهم جميعاً» هو يوم القيامة فقال : خالدين فيها مذيوم يبعثون إلّا ماشاء من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم في محاسبتهم ، ومكثهم في الموقف و كماينتقص من الآخر كذلك ينتقص من الأوّل ، عن الزجّاج .

و ثالثها أنّ الاستثناء راجع إلى غير الكفّار من عصاة المسلمين الّذين هم في مشيئة الله تعالى ؛ إن شاءالله عذّبهم بذنوبهم بقدر استحقاقهم عدلاً و إن شاء عفا عنهم فضلاً .

(١) النساء : ١١٦.

و رابعها أنّ معناه إلّا ماشاء الله ممّن آمن منهم ، عن عطاء ، و قيل : المراد من الاستثناء أوقات مشيئة الله أن ينقلوا من النار إلى الزمهرير ، فقدروي أنّهم ينقلون من عذاب النار و يدخلون و اديا فيه من الزمهرير مايميّز أوصالهم بعضاً من بعض فيعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم ، ففي الاستثناء تهكّم بهم . وفي تفسير الجلالين : إلّا ماشاء الله من الأوقات الّتي يخرجون فيها لشرب من حميم فإنّه خارجها كما قال الله : « ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم »(١) .

و قيل : يفتح لهم وهم في النار باب إلى الجنّة فيسرعون نحوه حتّى إذا قربوا إليه سدّ عليهم الباب .

و أمّا ما قاله بعض الحكماء من أنّ أهل النار بعد عذاب أحقاب من الزمان و بعد إحراقهم النار خمسين ألف سنة من سني الآخرة لشرك يوم واحد من أيّام الدّنيا إلى أن ينتهي حساب عمره الّذي عاش في الدّنيا ، ثمّ بعد ذلك يعتادون بالعذاب و لم يتألّموا و يؤول أمرهم إلى أن يستلذّوا به حتّى لوصبّ عليهم نسيم الجنّة استكرهوه وتعذّبوا به كالجُعَل يستطيب الروث ؛ فهذا القول بمعرض عن القبول ، و تكذيب للقرآن و السنّة ، وكفر وإلحاد أجارنا الله منه .

[إنّ ربّك حكيم عليم] محكم لأفعاله عليم بكلّ شيء وبمن يستحقّ الثواب و بمن يستحقّ العذاب وبمقدار مايستحقّه ، فكأنّ المعنى : إنّما حكمت لهؤلاء الكفّار بعذاب الأبد لعلمي أنّهم يستحقّون ذلك .

قوله تعالى : [و كذلك نولّي بعض الظّالمين بعضاً بما كانوا يكسبون] أي كما خذلنا عصاة الجنّ والإنس حتّى استمتع بعضهم ببعض بسبب سوء اختيارهم وشركهم جزاءً لهم نولّي بعض الظالمين بعضاً ؛ نخلّي بعضهم مع بعض للامتحان الّذي معه يصحّ الجزاء ، وتوليتنا بأن لانمنعهم عمّا يفعلون من الظّلم والأفعال القبيحة بطريق القهر .

قال عليّ بن عيسى : نجعل بعضهم يتولّى أمر بعض للعقاب الّذي يجري على الاستحقاق . وقيل : معنى الآية أنّا كما وكّلنا أمر هؤلاء الظّالمين من الجنّ و الإنس

(١) الصافات : ٦٦ .

بعضهم إلى بعض يوم القيامة فكذلك نكل الظالمين بعضهم إلى بعض ونكل الأتباع إلى المتبوعين و نقول للأتباع : قولوا للمتبوعين حتّى يخلصوكم من العذاب .

ولمّا حكى الله مايجري بين الجنّ والإنس من الخصام والجدال يوم القيامة فقال في هذه الآية : وكما فعلنا بأولئك من الجمع بينهم في النّار وتولية بعضهم بعضاً نفعل أيضاً مثله بالظالمين في تولية بعضهم بعضاً جزاءً على كفرهم وأعمالهم القبيحة .

قال ابن عبّاس : إذا أراد الله بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم عذاباً وشرّاً لاستحقاقهم ولّى أمرهم شرارهم .

وجاء في بعض الكتب الإلهيّة : إنّي أنا الله ملك الملوك ؛ قلوب الملوك بيدي فمن عصاني جعلتهم عليهم نقمة و من أطاعني جعلتهم عليهم رحمة ؛ فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم .

وفي روح البيان : وفي الحديث : الظّالم عدل الله في الأرض ينتقم به ثمّ ينتقم منه . و في المرفوع : يقول الله : أنتقم ممّن أبغض بمن أبغض ، ثمّ أصيّر كلّاً إلى النّار ، و في الزّبور : إنّي لأنتقم من المنافق بالمنافق ، ثمّ أنتقم من المنافقين جميعاً .

فإن قيل : كيف يجوز وصفه بالظلم وينسب إلى أنّه عدل من الله ؟ فالجواب أنّ المراد بالعدل هنا مايقابل بالفضل ، فالعدل أن يعامل كلّ أحد بفعله : إن خيراً فخيرٌ و إن شرّاً فشرٌّ ، هذا على طريق أهل السنّة ، وأمّا على طريق المعتزلة فإنّهم يوجبون عقوبة المسيء وهو عين العدل .

وقيل : معنى قوله : « نولّي بعض الظّالمين » نتابع بعضهم بعضاً في النار من الموالات الّتي هي المتابعة ، أي يدخل بعضهم النّار عقيب بعض ، عن قتادة .

[بما كانوا يكسبون] بسبب ما كسبوا من الظّلم .

قوله تعالى : يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين(١٣٠) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون (١٣١) و لكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون(١٣٢) .

هذه الآية من بقيّة مايذكره الله في توبيخ الكفّار يوم القيامة و بيّن أنّه لا يكون إلى الجحود سبيل فيشهدون على أنفسهم بأنّهم كانوا كافرين .

يقول الله يوم القيامة للثقلين الجنّ والإنس جميعاً : [ألم يأتكم] في الدنيا [رسل] معيّن من الله [منكم] ومن جنسكم ، و ذلك لأنّ الجنس إلى الجنس أميل كما أنّ جبرئيل و نحوه رسل الملائكة من جنسهم ، والاستيناس و الاستفادة في الجنسيّة أظهر .

فإن قيل : قد قام الإجماع على أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كان رسولاً إلى الجنّ والإنس ولم يكن صلى الله عليه وآله وسلم من الجنّ ؟ إنّمابعث الرّسول ثمّ كان يرسل هو إلى الجنّ رسولاً منهم ويستفيد خواصّهم من الرسل فيكونوا رسل الرّسول إلى قومهم ، وسليمان أيضاً لم يبعث إلى الجنّ بالرّسالة العامّة بل بالملك و السياسة على بعضهم ، و يؤيّد ما قاله ابن عبّاس أنّه ثبت أنّ نفراً من الجن قد استعملوا القرآن وأنذروا به قومهم ، كما قال سبحانه : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ (١) » فأولئك الجنّ كانوا رسل الرّسول فكانوا رسلاً لله تعالى ، و الدّليل على صحّة هذا القول أنّه تعالى سمّى رسل عيسى رسل نفسه تعالى فقال :« إذ أرسلنا إليهم اثنين (٢) » وهما أرسلهما عيسى .

قال الواحديّ : قوله «رسل منكم» أراد من أحدكم وهو الإنس ، وهو كقوله : «يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان (٣) » أي من أحدهما وهو الملح الّذي ليس بعذب فإنّ اللّؤلؤ يخرج من الملح لا من العذب قوله : [ويقصّون عليكم آياتي] و يقرؤونها لكم [وينذرونكم لقاء يومكم هذا] يعني يوم القيامة يخوّفونكم منها ويخبرونكم عنها .

[قالوا] جواباً عند ذلك التوبيخ الشديد : [شهدنا على أنفسنا] وهو اعتراف منهم بالكفر واستحقاق العذاب و«شهدنا» إنشاء الشهادة مثل بعت واشتريت ، و لفظ الماضي في الإنشاء لا يقتضي تقدّم الشهادة .

---

(١) الاحقاف : ٢٨ .

(٢) يس : ١٣ .

(٣) الرحمن : ٢٢ .

فإن قيل : كيف أقرّوا في هنا وهذه الآية ، وجحدوه في قوله : «والله ربّنا ما كنّا مشركين[١]» فالجواب أنّ مواقف القيامة كثيرة ، والأحوال فيها مختلفة فتارة يقرّون من شدّة خوفهم وتارة يجحدون فإنّ من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه .

[وغرّتهم الحياة الدّنيا] كأنّه تعالى يبيّن سبب كفرهم بقوله : وغرّتهم الحياة الدّنيا [وشهدوا على أنفسهم] في الآخرة بالكفر أو يشهد جوارحهم بالشّرك و الكفر [أنّهم كانوا] في الدّنيا [كافرين] بالآيات و النّذر ، و هذا البيان تحذير للسّامعين من مثل حالهم حتّى لا يصيرون مثلهم .

[ذلك]أي إرسال الرّسل [أن] اللاّم مقدّرة وهي مخفّفة أي لأنّ الشان [لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون] أي بسبب ظلم أقدموا عليه حتّى يبعث إليهم رسلاً ينبّهونهم ويزجرونهم ولا يؤاخذهم بغتة ، وهذا إنّما يكون منه تعالى على وجه الاستظهار في الحجّة دون أن يكون ذلك واجباً لأنّ ما فعلوه من الظلم قد استحقّوا به العقاب . وقيل : معناه أنّه تعالى لا يهلكهم بظلم منه على غفلة منهم من غير تنبيه وتذكير ، عن الجبّائيّ والفرّاء . مثل قوله : « وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون[٢]»

وفي هذا دلالة على أنّه منزّه عن خلق الظلم ولو كان الظّلم من خلقه لما صحّ تنزّهه عنه ، تعالى الله عن الظلم علوّاً كبيراً . وما قالته الأشاعرة : أنّه تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولا اعتراض عليه لأحد في شيء من أفعاله كلام تامّ صحيح لكن لا يصدر منه تعالى غير الحسن وهو منزّه عن القبيح والظّلم ، وإرادته وخلقه قبيح عقلاً ونصّاً مثل هذه الآية ، وكيف يجوز أن ينسب إلى الحكيم الغنيّ القبيح مع أنّه غير مضطرّ إلى القبيح ؟ النهاية أنّهم يقولون : لمّا صدر منه تعالى لا يكون قبيحاً و هذه سفسطة . فمن موادّ الخلف بين الأشاعرة و المعتزلة هذا الكلام .

[ولكلّ درجات ممّا عملوا] أي ولكلّ من المكلّفين من الثقلين مؤمنين كانوا أو كافرين مراتب كائنة من أعمالهم صالحة كانت أو سيّئة ؛ فلأهل الخير درجات في الجنّة

---

(١) الانعام : ٢٣ . (٢) هود : ١١٩ .

بعضها فوق بعض ، ولأهل الشّرك والسيّئات دركات في النّار بعضها أشدّ عذاباً من بعض . وفسّر الدرجات بالمراتب لأنّ الدرجات غلب استعمالها في الخير ، والكفّار لادرجة ولا ثواب خير لهم . قال الطبرسيّ : عبّر بالدرجات تغليباً لصفة أهل الجنّة .

[وما ربّك بغافل عمّا يعملون] فيخفى عليه عمل عامل طاعة أو معصية .

قوله تعالى : و ربك الغني ذوالرحمة ان يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم مايشاءكما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣) انما توعدون لاتوما أنتم بمعجزين(١٣٤)قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لايفلح الظالمون (١٣٥) .

لمّا أمر سبحانه بطاعته عليها بيّن أنّه لم يأمر بهاالحاجة لأنّه يتعالى عن النّفع والضرر فقال : [وربّك] أي خالقك وسيّدك [الغنيّ] عن أعمال عباده ولا يحتاج إلى شيء [ذو الرّحمة] مترحّم عليهم بالتّكليف تكميلاً لهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم .

[إن يشأ يذهبكم] أيّها العصاة ويهلككم [و يستخلف] و يجعل [من بعدكم] أحياءً من بعد إذهابكم [مايشاء] أي خلقاً آخر أطوع لله منكم وإيثار «ما» على كلمة «من» لإظهار الكبرياء وإسقاطهم بسبب المعاصي عن رتبة العقلاء .

[كما أنشأكم من ذرّيّة قوم آخرين] أي كما خلقكم في الأوّل من قوم تقدّموكم وهم أهل سفينة نوح لكنّه أبقاكم ترحّماً عليكم ، وهذا خطابٌ لمن سبق ذكرهم من الجنّ والإنس ويجوز أن يكون المعنى: ويستخلف جنساً آخر أي كما قدر على إخراج الجنّ من الجنّ والإنس من الإنس فهو قادر على أن يخرج قوماً آخر لا من الجنّ ولا من الإنس ، ونبّه سبحانه على أنّ قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق واستدلّ على ذلك بقوله: «كما أنشأكم» .

ثمّ قال : [إنّما توعدون لآت] أي مجيء الساعة لأنّهم كانوا ينكرون القيامة ، أوالمراد أنّ جميع ما وعدوا به من الثواب والعقاب والحساب والجنّة والنّار وتفاوت أهل الدّركات لآت لا محالة [وما أنتم بمعجزين] أي بفائتين ذلك و إن ركبتم في الهرب متن كلّ صعب وذلول .

وفي قوله: «وربّك الغنيّ ذوالرّحمة» يفيد الحصر بالبرهان فإنّه تعالى غنيّ في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه من كلّ ماسواه؛ لأنّه لو كان محتاجاً لكان مستكملاً بذلك الفعل والمستكمل بغيره ناقص بذاته لأنّ كلّ إيجاب أو سلب يفرض فإن كانت ذاته كافية في تحقّقه وجب دوام ذلك الإيجاب أوذلك السلب بدوام ذاته، و إن لم يكن كافية فحينئذ يتوقّف حصول تلك الحالة وعدمها على وجود سبب منفصل و عدمه، فذاته لاتنفكّ عن ذلك الثبوت والعدم، وهما موقوفان على وجود ذلك السّبب المنفصل فيلزم كون ذاته موقوفة على الغير والموقوف على الغير ممكن لذاته؛ فيكون حينئذ الواجب لذاته ممكناً لذاته وهومحال.

فثبت أنّه غنيّ على الإطلاق، فلاغنيّ إلّاهو، لأنّ واجب الوجود لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته محتاج فثبت الحصر بهذا البرهان.

وأمّا إثبات الحصر في كونه تعالى ذاالرّحمة فالدّليل عليه أنّه لاشكّ أنّ ما يدخل في الوجود بإيجاده وتكوينه وتخليقه من الراحات والكرامات والسعادات وغيرها فهو منه، و دلّ الاستقراء على أنّ الخير غالب على الشرّ؛ فإنّ المريض و إن كان كثيراً فالصّحيح أكثر منه، والجائع وإن كان كثيراً فالشبعان أكثر منه، والأعمى وإن كان كثيراً إلّا أنّ البصير أكثر منه؛ فالخير أكثر من الشرّ، و مبدأ تلك الخيرات هو الله و الواجب لذاته واحدٌ وما سواه ممكن و الرّحمة داخلة فيما سواه فإيجادها منه، فثبت صحّة الحصر.

فإن قيل: كيف يمكننا إنكار رحمة الوالدين على الولد والمولى على العبد و كذلك سائر أنواع الرحمة؟ فالجواب أنّ كلّها من الله وهؤلاء وسائط جعلها الله لنظام العالم لأنّه تعالى ألقى الرّحمة و داعيتها في قلب الوالد والمولى، وبتسخير منه تعالى، ألاترى أنّ الإنسان قديكون شديد الغضب قاسي القلب على إنسان، ثمّ بسبب ينقلب رؤوفاً عطوفاً؟ فانقلابه من الحالة الاُولى إلى الثانية بتسبيبه تعالى.

فمقلّب القلوب هوالله في جميع الخيرات فانحصرت الرّحمة به تعالى، على أنّه

ذلك الّذي تصوّرت أنّه شرّ مثل المرض والفقر والجوع مثلاً إذا تأمّلت فهو خير أيضاً ، إمّا للمبتلى به أو بالنسبة إلى صلاح العامّة ، و يعوّض المبتلى به سعادة و كرامة إن كان غير مستحقّ للابتلاء ، وإن كان مستحقّاً فهو مجازاة والمجازاة أيضاً عدل وتفضّل .

ومن المعلوم أنّ كلّ من أعطى غيره شيئاً أورحمة حتّى رحمة الوالدة لولدها إنّما يعطي ويرحم لطلب عوض ، وهو إمّا الثناء في الدّنيا أو الثواب في الآخرة أودفع الرقّة الجنسيّة عن القلب لكنّه تعالى يعطي لا لغرض من هذه الأغراض فثبت أنّ الرّحمة وتقليب القلوب منه بالبرهان قطعاً للتسلسل .

[قل] يامحمّد لأهل مكّة و من خالف أمرك : [ياقوم اعملوا على مكانتكم] المكانة مصدر بمعنى التمكّن و هو القوّة و الاقتدار ، أي اعملوا على قدر تمكّنكم و نهاية استطاعتكم ، واثبتوا على كفركم وعداوتكم ، والأمر للتهديد من قبيل الاستعارة للشرّ المهدّد عليه بالمأمور به الواجب الّذي لابدّ أن يكون ، ويحتمل أن يكون المراد من المكانة الحالة الّتي هم ثابتين عليها ، و ذلك مثل قوله : أثبت على ما أنت عليه لاتنحرف عنه .

[إنّي عامل] ماكتب عليّ من المصابرة والثبات على الإسلام والاستمرار على الأعمال الصّالحة [فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار] « من » استفهاميّة أو موصولة أي أيّنا تكون له العاقبة المحمودة الّتي خلق الله تعالى هذه الدار لها ؟ [إنّه لا يفلح] الضمير للشأن ، لايسعد ولا ينجو [الظالمون] .

« و العاقبة » مصدر كالعافية ، و تأنيثه غير حقيقيّ فمن أنّث فكقوله : «فأخذتهم الصيحة » (١) ومن ذكّر فكقوله : «وأخذ الّذين ظلموا الصيحة» (٢) وقال : «قد جاءتكم موعظة من ربّكم» (٣) وفي آية أخرى : «فمن جاءه موعظة من ربّه» (٤) .

قوله تعالى : وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله

---

(١) الحجر : ٧٣ - ٨٣ . (٢) هود : ٧٠ .

(٣) يونس : ٥٨ . (٤) البقرة : ٢٧٦ .

بزعمهم وهذا لشركائنا فماكان لشركائهم فلايصل الى الله وماكان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون (١٣٦) .

ثمّ عاد الكلام إلى حجاج المشركين و بيان اعتقاداتهم الفاسدة ، فقال سبحانه ، أي جعلوا كفّار مكّة ومن تقدّمهم من المشركين ، والجعل هنا بمعنى الحكم [ممّا ذرأ من الحرث] وخلق من الزرع [والأنعام] أي المواشي من الإبل والبقر والغنم [نصيباً] وحظّاً ، و في الكلام حذف يدلّ عليه الكلام ، والتقدير : وجعلوا للأوثان ممّا خلق من الحرث والأنعام نصيباً .

[فقالوا هذا] النصيب [لله بزعمهم] أي بادّعائهم الباطل من غير أن يكون ذلك بأمر الله [و هذا] النصيب [لشركائنا] أي آلهتنا الّتي شاركونا في أموالنا من المتاجر و الزروع والأنعام ؛ وهو من الشركة لا من الشرك .

روي أنّهم كانوا يعيّنون شيئاً من الحرث والنتاج لله و يصرفونه إلى الضيفان و المساكين ، وشيئاً منها لآلهتهم و ينفقونه على سدنتها ويذبحونه عند الآلهة ، ثمّ إن رأوا ماعيّنوا لله أزكى رجعوا وجعلوا الأزكى لآلهتهم ، وإن رأوا مالآلهتهم أزكى تركوه لآلهتهم معتذرين بأنّ الله غنيّ . وكانوا يزرعون لله زرعاً وللأوثان فماكان أزكى جعلوه لآلهتهم ، و إذا كان زكا الزرع[٣] الّذي زرعوه لله ، ولم يزك الزرع الّذي زرعوه للأوثان وفسد جعلوا بعض زرع الله للأصنام و إن زكا الزرع الّذي زرعوه للأصنام و لم يزك الزرع الّذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئاً لله أصلاً .

وقيل : كانوا إذا تخرّق الماء من الّذي لله في الّذي للأصنام لم يسدّوه ، و إذا تخرّق من الّذي للأصنام في الّذي لله سدّوه ، وقالوا : الله أغنى ، عن ابن عبّاس وقتادة ، وهو المرويّ عن أئمّتنا . وقيل : إذا هلك ماجعل للأصنام بدّلوه بماجعل لله ، و إذا هلك ماجعل لله لم يبدّلوه بماجعل للأصنام

[ساء مايحكمون] أي ساء الحكم حكمهم من إيثار آلهتهم على الله وعملهم بمالم يشرع لهم و في كيفيّة الإساءة بسبب أنّهم رجّحوا جانب الأصنام في الحفظ و الأكثريّة على جانب الله ، وجعلوا نصيباً لله ونصيباً لغيره مع أنّه الخالق و المعطي للجميع ، وهذا سفه فلو قرّر نصب الأصنام ، و كان هذا التقرير حسن لحسن إقرار النصب لكلّ حجر

و مدر (؟)والمقصود من بيان الآية أن يعرف الناس قلّة عقول القائلين بهذه المذاهب حتى لا يلتفت إلى كلامهم أحدٌ .

قوله تعالى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم ومايفترون (١٣٧) .

قوله «و كذلك» عطف على قوله «و جعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث» أي كما فعلوا ذلك زيّن لكثير شركاؤهم قتل الأولاد ، والمعنى :ذلك التّزيين وهو تزيين الشرك في قسمة الحرث والأنعام للتقريب إلى الله وإلى آلهتهم زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم أولياؤهم من الشياطين أو من السدنة ؛ فقوله «قتل» مفعول «زيّن» «وشركاؤهم» فاعله فذكر سبحانه قبائح عادات بعضهم من وأد البنات أحياءً خوفاً من الفقر أو من التزويج بغير كفوأو من السّبى والمزيّن لهم الحميّة الجاهليّة أو الشّياطين والسّدنة كما ذكرنا .

قيل : إنّ السّبب الأولى في هذه السنّة الملعونة أنّ النعمان بن المنذر أغار على قوم فسبى نساءهم وكانت فيهنّ بنت قيس بن عاصم ثمّ اصطلحوا فأرادت كلّ امرأة منهنّ عشيرتها غير ابنة قيس فاختار سابئها على قيس فحلف قيس أن لا يولد له بنت إلّا وأدها فصار ذلك عادة فيهم [ليردوهم] أي ليهلكوهم واللاّم لام العاقبة أو الصّيرورة ، أي ليهلكوهم بالإغواء .

[وليلبسوا عليهم دينهم] أي يخلطوا عليهم دينهم بإلقاء البدع والشّبهات فيه [ولو شاء الله ما فعلوه] أي لو شاء الله أن يمنعهم من ذلك بأن يضطرّهم إلى ترك هذه الأمور لفعل ؛ ولكن كان ذلك منافاً للتكليف [فذرهم وما يفترون] أي دعهم وافترائهم فإنه يجازيهم ، وفي الآية دلالة على أنّ تزيين القتل والقتل فعلهم بصريح الآية وأنّ من أضاف ذلك إلى الله كاذب ؛ فاللاّم للتعليل إن كان التزيين من الشّياطين وللعاقبة إن كان من السّدنة إذا لم يكن قصد السدنة الإرداء واللّبس ، وإذا كان قصدهم الإرداء فالتّزيين من الشياطين ومن السّدنة كليهما .

قوله تعالى : وقالوا هذه انعام و حرث حجر لا يطعمها الا من نشاء

بزعمهم وانعام حرمت ظهورها و انعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون(١٣٨) .

ثمّ حكى سبحانه عن المشركين عقيدة من عقائدهم الفاسدة فقال :[وقالوا هذه] إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم [أنعام وحرث حجر] أي حرام ، وفلان في حجر القاضي أي في منع القاضي [لايطعمها] ولا يذوقها [إلّا من نشاء] يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء بزعمهم الباطل ، أي قالوه بزعمهم الفاسد من غير حجّة .

[وأنعام] خبر مبتدأ محذوف عطف على قوله «هذه أنعام» أي قالوا مشيرين إلى طائفة اُخرى من أنعامهم ،أي وهذه أنعام [حرّمت ظهورها] يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي .

وأنعام أي وهذه أنعام لايذكرون اسم الله عليها ، كانت لهم من أنعامهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها بل كانوا لايحجّون عليها ، وهي الّتي إذا زكوها وذبحوها أهلّوا عليها بأصنامهم فلا يذكرون اسم الله عليها

[افتراء عليه] منصوب بقوله «لايذكرون اسم الله» وكانوا يقولون : إنّ الله أمرهم بذلك وكانوا كاذبين و مفترين على الله بهذا القول [سيجزيهم بما كانوا يفترون] بسبب افترائهم .

قوله تعالى : وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا و ان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم(١٣٩) .

ثمّ ذكر سبحانه عن المشركين مقالة اُخرى فقال :[وقالوا] يعني هؤلاء الّذين تقدّم ذكرهم ما في بطون هذه الأنعام يعنون به أجنّة البحائر و السوائب خالصة لذكورنا قيل :المراد ألبانها أيضاًوالسّبب ما ولد منها حيّاً فهو خالص للذّكور دون الإناث ، وما ولد ميّتاً أكله الرّجال والنّساء قيل : المراد : كلاهما خالصة لذكورنا لايشركهم فيها أحد من الإناث وسمّي الذّكور من الذكر الّذي هو الشّرف لأنّ

الذّكر أنبه وأعلى وأذكر منه الأنثى [ومحرّم على أزواجنا] أي نسائنا وهذا الحكم منهم إن ولد ذلك حيّاً .

[وإن يكن] المولود [ميتة] يعني ولدت وهي ميتة [فهم فيه] يعني ما في البطون من الأنعام شركاء يأكلون منه جميع ذكورهم وإناثهم .

[سيجزيهم وصفهم] أي جزاء وصفهم الكذب على الله في أمر التّحليل والتحريم [إنّه حكيم عليم] تعليل للوعد بالجزاء فإنّ الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يترك جزاءهم الّذي من مقتضيات الحكمة .

قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١٤٠) .

جواب قسم مقدّر [خسروا] وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الّذين جمعوا بين الأمرين من وأد البنات خوف الفقر و العار ، و تحريم ما رزقهم الله فخسروا دينهم ودنياهم على طريق السّفاهة وعدم العلم و الافتراء على الله بقولهم : أمرنا الله بذلك التحريم .

وكلّ هذه الأمور من موجبات الخسران دنياً و ديناً لأنّهم يستحقّون الذمّ والعصم في الدّنيا ؛ فلأنّ النّاس يقولون : قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه وليس ذمّ أشدّ منه وأمّا العقاب في الآخرة فلأنّه لا ظلم أشدّ منه وتخريب بنيان الله فكان موجباً لأعظم أنواع العقاب .

ولا شكّ أنّ قتل الولد إذا كان موجبه خوف الفقر ، والفقر وإن كان ضرراً إلّا أنّ قتل الولد أعظم ضرراً منه ، و القتل ناجز ، و ذلك الفقر محتمل موهوم فالتزام أعظم المضارّ على سبيل القطع حذراً من ضرر قليل موهوم لا شكّ أنّه سفاهة والسّفاهة الخفّة المذمومة النّاشئة من الجهل والحماقة .

قوله تعالى : وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً اكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين (١٤١) .

لمّا حكى سبحانه عن المشركين أنّهم جعلوا بعض الأشياء للأوثان عقّب ذلك البيان بأنّه الخالق لجميع الأشياء فلا يجوز إضافة شيء منها إلى الأوثان من التحليل والتحريم إلّا بإذنه ؛ فقال : [وهو الّذي أنشأ] لإقامة الدّلائل على تقرير التّوحيد أي إنّه سبحانه خلق وأبدع لا على مثال [جنّات] فيها الأشجار المختلفة .

[معروشات] أي مرفوعات بالدعائم وهو ما عرشه الناس من الكروم و نحوها عن ابن عبّاس والسدّي : وقيل : عرشها أن تجعل لها حظائر كالحيطان ، وأصله الرفع ومنه قوله : «خاوية على عروشها»[1] أي ما ارتفع منها [وغير معروشات] يعني ما خرج من قبل نفسه من الجبال والبراري ، أو المراد من غير «معروشات» ما كانت قائمة على أُصولها مستغنية عن التعريش . عن أبي مسلم .

[والنّخل والزرع] قال ابن عبّاس : الزرع ههنا جميع الحبوب الّتي يقتات بها [مختلفاً أُكله] أي طعمه وقيل : ثمره ، فأنشأ سبحانه هذه الأشياء مختلفة الطّعوم و الألوان والصورة ، فبعضها مختلفاً في الصورة ومتّفقاً في الطعم وبعضها مختلفاً في الطعم ومتّفقاً في الصورة ، وكلّ ذلك يدلّ على توحيده وقدرته على ما يشاء .

وقوله «مختلفاً أُكله» نصب على الحال من أنشأ ، والمعنى مقدّراً اختلاف أُكله إذ ليس كذلك وقت الإنشاء أي أنشأ كلّ واحد منهما في حال اختلاف ثمره الّذي يؤكل بعد في الطعم والهيئة واللّون ، وذلك مثل قولهم : مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي مقدّراً الصّيد به غداً .

[والزّيتون والرمّان متشابهاً وغير متشابه] أي أنشأهما حال كونهما بعض أفرادهما يتشابه بالبعض وبعضها لا يتشابه مثل الرمّانين لونهما واحد وطعمهما مختلف ؛ فأحدهما حلو والآخر حامض .

[كلوا من ثمره إذا أثمر] والأمر للإباحة ، وفائدة التقييد بقوله : «إذا أثمر» إباحة الأكل منه قبل إدراكه وينعه ، قال الجبّائيّ وجماعة : هذا يدلّ على جواز الأكل من الثمر وإن كان فيه حقّ الفقراء .

---

(١) الحج : ٤٤ .

[وآتوا حقّه يوم حصاده] أمر بإيتاء الحقّ يوم الحصاد على الجملة ، و الحقّ الّذي يجب إخراجه يوم الحصاد فيه قولان : أحدهما أنّه الزّكاة ، عن ابن عبّاس وجماعة مثل محمّد بن الحنفيّة وزيد بن أسلم والحسن و سعيد بن المسيّب و قتادة و الضحّاك و طاوس ، والقول الثاني أنّه ما تيسّر ممّا يعطى المساكين ، عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام وعطاء و مجاهد وابن عمر وسعيد بن جبير والرّبيع بن أنس .

قال الطبرسيّ : وروى أصحابنا أنّه الضغث بعد الضغث والحفنة بعد الحفنة ، وقال إبراهيم والسدّي : الآية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر ؛ لأن هذه الآية مكّيّة وفرض الزكاة مدنيّة ، ولمّا روي أنّ الزّكاة نسخ كلّ صدقة ، قالوا : و لأنّ الزكاة لايخرج يوم الحصاد ، لكن قال عليّ بن عيسى : وهذا غلط لأنّ «يوم حصاده» ظرف «لحقّه» وليس بظرف لإيتاء المأمور به .

[ولا تسرفوا] أي في التّصدّق بأن لا تبقوا لأنفسكم وللعيال شيئاً كما فعل ثابت بن قيس بن شماس[1] فإنّه صرم خمسين نخلة و تصدّق بالجميع ولم يدخل منه شيئاً في داره لأهله .

وقيل : المعنى : ولا تقصّروا بأن تمنعوا الواجب من الحقّ ، قالوا : و التقصير أيضاً سرف ، عن سعيد بن المسيّب .

وثالث الأقوال أن لاتسرفوا في الأكل قبل الحصاد كي لايؤدّي إلى بخس حقّ الفقراء ، عن أبي مسلم .

ورابع الأقوال أنّه لا تنفقوه في المعصية ولا تضعوه في غير موضعه ، وفي جميع هذه الأقوال الخطاب لأرباب الأموال .

وخامس الأقوال أنّ الخطاب للأئمّة ، والمعنى : لاتأخذوا ما يجحف بأرباب الأموال ولا تأخذوا فوق الحقّ ، عن ابن زيد .

وسادس الأقوال أنّ الخطاب للجميع بأن لا يسرف ربّ المال في الإعطاء ولا الإمام في الأخذ وصرف ذلك إلى غير مصارفه .

---

(١) خزرجى ، خطيب الانصار ؛ خطب مقدم رسول الله صم المدينة فقال ، نمنعك مما نمنع منه انفسنا و اولادنا . شهد احدوما بعدها من المشاهد قتل يوم اليمامة راجع الاصابة «ج ١ :١٩٧» الاستيعاب «ج ١ : ١٩٥» .

[إنّه لايحبّ المسرفين] المعنى ظاهر لأنّه تعالى لايرضى فعلهم ، قال الزهريّ المراد من قوله : «ولا تسرفوا» هوالمعنى الرابع الّذي ذكر بأنّه لا تنفقوا في معصية الله . قال مجاهد : لو كان أبوقبيس ذهباً فأنفقه رجل في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولوأنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً ، وهذا المعنى أراده حاتم الطائيّ حين قيل له : لاخير في السرف ، فقال : لاسرف في الخير .

قوله تعالى : و من الانعام حمولة و فرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين(١٤٢) ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين اما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبؤني بعلم ان كنتم صادقين(١٤٣) ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين اما اشتملت عليه ارحام الانثيين ام كنتم شهداء اذ وصكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لايهدى القوم الظالمين (١٤٤) .

لما ذكر سبحانه كيفيّة إنعامه على عباده بالمنافع النباتيّه أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانيّة فقال : [ومن الأنعام حمولة وفرشاً] عطف على قوله : « وهو الّذي أنشأ جنّات» أي وأنشأ من الأنعام حمولةً وفرشاً ، الحمولة ما تحمل الأثقال . الحمولة بفتح الحاء الإبل ولا واحد لها من لفظها كالرّكوبة والحرورة ، و الحمولة بضمّ الحاء هي الأحمال ، والمراد من الفرش ما يفرش للذبح أوالمراد ماينسج من صوفه ووبره وشعره المفرش .

وقيل : المراد من الحمولة الكبار الّتي تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنّها دانية من الأرض بسبب صغرأجرامها .

ثمّ قال : [كلوا ممّا رزقكم الله] يريد ماأحلّها لكم ، قالت المعتزلة : إنّه تعالى أمر بأكل الرزق ومنع من أكل الحرام ينتج أنّ الرزق ليس بحرام ، وتخصيص الأكل بالذكر في الآية من غير تعرّض الانتفاع بالحمل والركوب و غير ذلك لكونه معظم الانتفاع و إشعار بمنع ما حرّموه في السائبة و أخواتها .

[ولاتتّبعوا خطوات الشيطان] أي لاتسلكوا الطريق الّذي سوّلها الشيطان لكم

في أمر التحليل والتحريم ؛ فإنّه لايدعوكم إلّا إلى المعصية [إنّه لكم عدوّ مبين] ظاهر العداوة وقد أبان عداوته لأبيكم آدم عليه السلام .

ثمّ فسّر سبحانه الحمولة والفرش فقال : [ثمانية أزواج] أي وأنشأ ثمانية أزواج إنشاء و«ثمانية أزواج» بدل من«حمولة وفرشاً» والزّوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه و معناه ثمانية أفراد لأنّ كلّ واحد من ذلك يسمّى زوجاً لأنّه زوج الآخر؛ فالذكر زوج الأُنثى و الأُنثى زوج الذكر ، كما قال سبحانه : « أمسك عليك زوجك [1]» و قيل : معناه : ثمانية أصناف .

[من الضأن اثنين] يعني الذكر والأُنثى . والضأن ذوات الصوف من الغنم ، وواحد الضأن ضائن والأُنثى ضائنة .

[ومن المعز اثنين] الذكر والأُنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم و واحد المعز ماعز . و قيل المراد بالاثنين : الأهليّ والوحشيّ خصّ هذه الثمانية لأنّها جميع الأنعام الّتي كانوا يحرّمون منها يحرّمونه ويجعلون منها نصيباً لآلهتهم على ما تقدّم شرحه .

[قل] يامحمّد صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء المشركين الّذين يحرّمون ما أحلّ الله : [آلذكرين] من الضأن والمعز ومن ذينك النوعين و هما الكبش والتيس [حرّم] الله كما تزعمون أنّه هو المحرّم [أم الأُنثيين] منهما وهما النعجة والعنز ؟ [أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين] أي أم ما حملت إناث النوعين ذكراً كان أو أُنثى حرّم ؟ .

[نبّؤوني بعلم] وأخبروني بأمر معلوم من جهة الله ؛ من أيّ كتاب و سنّة جعلتم هذه البدعة القبيحة [إن كنتم صادقين] في دعوى التّحريم ؟ .

[ومن الإبل اثنين] عطف على قوله تعالى : « من الضأن اثنين » أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل و الناقة [ومن البقر اثنين] ذكراً و أُنثى .

[قل] يامحمّد إفحاماً لهم أيضاً: [آلذكرين] منهما [حرّم أم الأُنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأُنثيين] من ذينك النّوعين ؟ .

---

(١) الاحزاب : ٣٧ .

و حاصل المعنى إنكار أن الله حرّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ذكراً أو أنثى أو ما يحمل إناثها رداً عليهم فإنهم كانوا يحرّمون ذكور الأنعام كالحام فإنه إذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرّموه ولم يمنعوه ماء ولامرعى ، وقالوا : قدحمى ظهره ، وكالوصيلة فإنّ الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما وصلت الأنثى أخاها ويحرّمون اُناثها تارة، وكالبحيرة و السائبة فإنه إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا اُذنها و خلّوا سبيلها ؛ فلا تركب ولا تحلب .

وكان الرّجل منهم يقول : إن شفيت فناقتي سائبة و يجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وكانوا إذا ولدت النوق البحائر والسوائب فصيلاً حيّاً حرّموا لحم الفصيل على النساء دون الرّجال وإن ولدت فصيلاً ميّتاً اشترك الرّجال والنساء في لحم الفصيل ولا يفرّقون بين الذكور والإناث في حقّ الأولاد ، وقد أشرنا إلى هذا البيان سابقاً .

[أم كنتم شهداء] أي أكنتم حضوراً إذوصّاكم الله بهذا وأمركم به ؟ والمراد أنّكم أعلمتموه بالسمع والكتب المنزلة وأنتم لاتقرّون بذلك أم شافهكم الله به ؟ وإذا لم يكن واحداً من الأمرين سقط المذهب وعلم بطلانه .

[فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً] أي من أظلم لنفسه ممّن كذب على الله أضاف إليه تعالى مالم يكن في أمره و حكمه . و حاصل الآية أنّ المشركين من أهل الجاهليّة لمّا حرّموا بعض الأنعام من عند أنفسهم فاحتجّ الله عليهم على إبطال قولهم بأنّه تعالى إن كان حرّم من هذه الأنعام الذّكر منها وجب أن يكون كلّ ذكورها حراماً و إن كان حرّم الأنثى وجب أن يكون كلّ إناثها حراماً ، و كذلك قوله : «أمّا اشتملت عليه أرحام الأُنثيين» أي إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأُنثيين وجب تحريم الأولاد كلّها لأنّ الأرحام تشتمل على الذكور والإناث فلمّا لم يكن كذلك فثبت أنّها بدع اخترعوها من عند أنفسهم .

وقال الرازيّ : الأقرب في تفسير الآية عندي غيرما فسّره المفسّرون ، وهو أنّه المراد من الآية أنّكم لاتقرّون بنبوّة نبيّ ، ولا تعرفون شريعة شارع فكيف تحكمون

بأنّ هذا يحلّ وأنّ ذلك يحرّم ، وتثبتون هذه الأحكام المختلفة .

[ليضلّ الناس بغيرعلم] قال ابن عبّاس : يريد عمرو بن لُحيّ لأنّه هو الّذي غيّر شريعة إسماعيل ، قال الرازيّ : والأقرب أن يكون هذا محمولاً على كلّ من فعل ذلك و افترى على الله لأنّ اللفظ عامّ والعلّة الموجبة لهذا الحكم عامّة ، فالتخصيص تكلّف و تحكّم . و قال المحقّقون : إذا ثبت أنّ من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحقّ هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد و معرفة الصفات والنبوّات و مباحث المعاد كان وعيده أشدّ و أشقّ .

قال القاضي : و دلّ ذلك على أنّ الإضلال عن الدين مذموم لايليق بالله لأنّه تعالى إذا ذمّ الإضلال الّذي ليس فيه إلّا تحريم المباح فالّذي هو أعظم منه أولى بالذمّ .

وأجاب الرازيّ عن كلام القاضي أنّه ليس كلّ ما كان مذموماً منّا كان مذموماً من الله ؛ ألاترى أنّ الجمع بين العبيد والإماء وتسليط الشهوة عليهم وتمكينهم من أسباب الفجور مذموم منّا وغير مذموم من الله ؟ فكذا ههنا .

أقول : و بئس ماقاس الرازيّ ؛ ففرّق بين المقيس والمقيس عليه ، فما أجابه الرازيّ ما أقربه إلى الشعوذة ! لأنّه من المعلوم عند العقول أنّ الضلالة ضدّ الهداية فكذلك الإضلال و هو منكر عند كلّ ذي لبّ كما أنّ الهداية معروف و حسن عند كلّ عاقل ، فكيف ينسب إليه القبيح مع أنّه أولى بالمعروف ؟ و القول بأنّه متى ما نسب إليه تعالى خرج الموضوع عن حدّ القباحة سفسطة و شعوذة .

قوله تعالى: قل لاأجد فيما اوحي الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أودماً مسفوحا أولحم خنزير فانه رجس أوفسقاً اهل لغيرالله به فمن اضطر غيرباغ ولاعاد فان ربك غفور رحيم (١٤٥) وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الاما حملت ظهورهما اوالحوايا اوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم و انا لصادقون (١٤٦) فان كذبوك فقل ربكم ذورحمة واسعة ولايرد بأسه عن القوم المجرمين (١٤٧)

لمّا بيّن في الآية السابقة فساد طريقة المشركين فيما يحلّ ويحرّم أتبعه بالبيان الصحيح في هذه الآية فقال :

[قل] يا محمد لهؤلاء الكفار [لا أجد فيما أوحي إليّ] أي ما أوحاه الله إليّ شيئاً [محرّماً على طاعم يطعمه] أي على آكل يأكله [إلّا أن يكون] المأكول [ميتة] وقرء بالتاء أي إلّا أن تكون العين أو الجثّة أو النفس ميتة ، و قرء ميتة بالرفع على معنى إلّا أن تقع وتحدث ميتة [أو دماً مسفوحاً] أي مصبوباً و إنّما خصّ المصبوب بالذكر لأنّ ما يختلط باللحم من الدم لا يمكن تخليصه منه معفوّ عنه مباح [أو لحم خنزير فإنّه رجس] أي الخنزير قذر ، أو الضمير إلى اللحم ، و تخصيصه مع أنّ لحمه و شحمه و شعره وعظمه وجميعه نجس و حرام لكونه أهمّ ما فيه ، ولأنّه يؤكل فالحلّ والحرمة أضيف إليه أصالة و إلى غيره تبعاً [أو فسقاً] عطف على قوله أو لحم خنزير و لذلك نصب [أُهلّ لغير الله به] أي ذكر وقت ذبحه اسم الأصنام والأوثان وسمّي ما ذكر عليه اسم الصنم فسقاً لخروجه عن أمر الله ، وأصل الإهلال رفع الصوت بالشيء .

و إنّما خصّ الأشياء المذكورة بذكر التحريم مع أنّ غيرها محرّم ؟ فإنّه سبحانه ذكر في المائدة تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردّية وغيرها لأنّ جميع ذلك تقع عليه اسم الميتة فيكون في حكمها .

و أجود من هذا أن يقال : إنّه سبحانه خصّ هذه الأشياء بالتحريم تعظيماً لحرمتها ، و بيّن تحريم ما عداها في مواضع أُخرى ، إمّا بنصّ القرآن و إمّا بوحي غير القرآن ، وأيضاً أنّ هذه السورة مكّيّة و المائدة مدنيّة ويجوز أن يكون غير ما في الآية من المحرّمات إنّما حرّم فيما بعد ، والميتة في الآية عبارة عمّا كان فيه حياة فقدت من تذكية شرعيّة .

ثمّ إنّه تعالى قال : «أو لحم خنزير فإنّه رجس» ومعناه : أنّه تعالى حرّم لحم الخنزير لكونه نجساً ؛ فهذا يقتضي أنّ النجاسة علّة لتحريم الأكل فوجب أن يكون كلّ نجس أكله حراماً فيشمل الحكم في كلّ ما هو نجس مثل الخمر ، و قال أيضاً : «و يحرّم عليهم الخبائث» (١) و ذلك يقتضي تحريم كلّ الخبائث ؛ و النجاسات خبائث .

---

(١) الاعراف : ١٥٦ .

[فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد] أي فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء في ذلك غير باغ على مضطرّ مثله ولاعاد ومتعدّ حدّ الضرورة [فإنّ ربّك غفور رحيم] مبالغ في المغفرة والرحمة لايؤاخذه بذلك.

قوله [وعلى الّذين هادوا] أي على اليهود خاصّة لاعلى غيرهم من الأوّلين والآخرين [حرّمنا كلّ ذي ظفر] اُختلف في معناه ؛

فقيل : هو مايكون ليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والإوز[1] والبطّ، عن ابن عبّاس و سعيد بن جبير وقتادة والسدّي ومجاهد.

و قيل : هو الإبل، عن ابن زيد.

و قيل : يدخل فيه كلّ مايصطاد بظفره، عن الجبّائي ؛ فقال : كلّ ذي مخلب من الطير و كلّ ذي حافر من الدوابّ.

و قيل : ماله إصبع سواء كان مابين أصابعه منفرجاً كأنواع السباع أولم يكن منفرجاً كالإبل و النعام. وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلمّا ظلموا عمّ التحريم.

[و من البقر والغنم حرّمنا] متعلّق بقوله حرّمنا [عليهم شحومهما] لالحومهما فإنّها باقية على الحلّ والشحوم الثروب[2] وشحوم الكلية [إلّا ماحملت ظهورهما] استثناء من الشحوم، ماحملت ظهورهما من الشحم وهو اللحم السمين من شحم الكتفين إلى الوركين من داخل و خارج فإنّه لم يحرّم عليهم [أو الحوايا] أي ماحملته الحوايا من الشحم والحوايا جمع حاوية وهي مايحوي في البطون فاجتمع و استدار وتسمّى المباعر و المصارين فإنّ شحومها كانت محلّلة لهم و مستثناة.

[أوما اختلط بعظم] عطف على ماحملت ظهورهما قيل : هو شحم الألية، و اختلاطه بالعظم اتّصاله بالعصعص و هو عجب الذنب و أصله، و يقال : إنّه أوّل مايخلق و آخر مايبلى، وبالجملة فهو مستثنى من جملة ماحرّم، وقيل : الألية لم تدخل في الاستثناء عن الجبّائي. فكأنّه لم يعتدّ بعظم العصعص ولم يحسبه من العظم، وعلى هذا فالمراد

---

(١) بكسر ثم فتح جمع الاوزة : طائر مائى.

(٢) الثروب جمع الثرب و هو الشحم الرقيق الذى على الكرش و الامعاء.

شحم الجنب فقط دون الألية .

قال الزجّاج : إنّما دخلت «أو» ههنا على طريق الإباحة مثل قوله تعالى : «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً»(١) و المراد الجمع أي لاتطع الآثم ولا تطع الكفور فكذلك في الآية .

[ذلك جزيناهم ببغيهم] أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم من أكل أموال الناس بالباطل وأخذهم الربا وغيرها من المعاصي ، وكانوا كلّما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء ممّا أحلّ الله لهم ، وقد أنكروا ذلك و ادّعوا أنّها لم تزل محرّمة على الأمم الماضية فردّ الله عليهم ذلك .

وقيل: إنّ ملوك بني إسرائيل كانوا يمنعون فقراءهم من أكل لحوم الطّير و الشحوم فحرّم الله ذلك ببغيهم على فقرائهم، ذكره علىّ بن إبراهيم في تفسيره .

[وإنّا لصادقون] في الإخبار عن بغيهم والتحريم وفي كلّ شيء . فصار حاصل الآية أنّ شحوم الغنم و البقر حرّم على اليهود ثمّ استثني عن هذا التحريم ثلاثة أنواع :

الأوّل : ماحملت ظهورهما ؛ أي إلّا ماعلّق بالظهر من الشحم فإنّي لم أحرّمه أو الجنب أيضاً من داخل بطونهما على قول قتادة . والاستثناء الثاني : الشحم الملتصق بالمصارين . والاستثناء الثالث : كلّ شحم مختلط بالعظم قال ابن جرع : وهو كلّ شحم في القائم والجنب والرأس وفي العينين والأذنين ؛ فقال : إنّه اختلط بعظم حتّى الألية فهو حلال لهم ، وعلى هذا التقدير فالشحم الّذي حرّمه الله عليهم هو الثروب و شحم الكلية .

[فإن كذّبوك فقل ربّكم ذورحمة واسعة ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين] أي إن نسبوا إليك الكذب فيما تقول فقل لهم : إنّ الله ذورحمة واسعة كذلك لا يعجل عليكم بالعقوبة بل يمهلكم ؛ و لا يدفع عذابه إذا جاء وقته عن المكذّبين لك .

قوله تعالى : سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم

---

(١) الدهر : ٢٤ .

من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون (١٤٨) قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهدىكم اجمعين (١٤٩) .

لمّا حكى سبحانه عن أهل الجاهليّة في إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجّة ولا دليل حكى عنهم عذرهم في كلّ ما يقدمون عليه من الكفر فيقولون : [لوشاء الله ما أشركنا] ولمنعنا عن الكفر ، وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنّه يريد ذلك ؛ فكنّا معذورين فيه ، وكذلك ما أشرك آباؤنا ولا كنّا نحرّم شيئاً من ذلك ، أرادوا أنّ ما فعلوه حقّ مرضيّ عندالله .

[كذلك] أي كهذا التّكذيب وهو قولهم : إنّا إنّما أشركنا و حرّمنا لكون ذلك مرضيّاً عندالله وإنّك يامحمّد كاذب فيما قلت من أنّ الله منع الشرك ولم يحرّم ما حرّمتموه [كذّب الّذين من قبلهم] أي كذّبوا متقدّميهم الرسل [حتّى ذاقوا بأسنا] الّذي أنزلنا عليهم . والعذاب الّذي وردبهم بتكذيبهم .

[قل] يامحمّد لهم [هل عندكم من علم] من أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به على ما زعمتم [فتخرجوه لنا] وتظهروه [إن تتّبعون إلّا الظنّ] أي ما تتّبعون فيما أنتم عليه من الشرك والتّحريم إلّا الظنّ الباطل من غير علم و يقين [و إن أنتم إلّا تخرصون] و تكذبون على الله بالتخمين .

[قل فللّه الحجّة البالغة] الفاء جواب شرط محذوف أي وإذا قدظهر أن لاحجّة لكم فللّه الحجّة البالغة والبيّنة الواضحة ، والمراد بالحجّة البالغة الكتاب و الرسول والبيان [فلوشاء] هدايتكم جميعاً قهراً [لهداكم أجمعين] بالحمل على الهداية إجباراً ولكن لم يشأ بطريق الجبر ، ولكن شاء هداية قوم بصرف اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ حتّى يصحّ التكليف ، و المشيئة الأولى مشيئة الاختيار ، و الثانية مشيئة الإلجاء .

وقيل : المراد أنّه لوشاء لهداكم إلى نيل الثواب ودخول الجنّة ابتداء من غير تكليف ، ولكنّه لم يفعل ذلك بل كلّفكم وعرّضكم للثواب ، ولو كان الأمر على ما قاله أهل الجبر من أن شاء الله منهم الكفر لكانت الحجّة للكافر على الله من حيث

فعلوا ما شاء الله ، و لكانوا بذلك مطيعين له لأنّ الطاعة هي امتثال الأمر المراد ، ولا يكون الحجّة لله تعالى عليهم على قولهم من حيث إنّه خلق الكفر فيهم وأراده منهم فأيّ حجّة له تعالى عليهم مع ذلك ؟

ثمّ بيّن سبحانه تعالى أنّ الطريق الموصل إلى صحّة مذاهبهم منسدّ غير ثابت من حجّة عقليّة ولا سمعيّة وما هذه صفته فهو فاسد لامحالة ؛ فقال : [قل] يا محمّد : [هلّم شهداءكم] أي هاتوا شهداءكم الّذين يشهدون بصحّة ماتدّعونه من [أنّ الله حرّم هذا] وهم قدوتهم الّذين ينصرون قولهم و كبراؤهم المقبولين عندهم وليس المراد كلّ من يشهد بصحّة دعواهم كائناً من كان ، ولذلك قيّد الشهداء بالإضافة إليهم ، فيشهدون أنّ ماجعلناه حراماً من قول الله و كتابه .

[فإن شهدوا] بعد ماحضروا بأنّ الله حرّم هذا [فلاتشهد معهم] أي فلا تصدّقهم فإنّه كذب محض ، و بيّن لهم فساده ، وحاصل المعنى : إن لم يجدوا شاهداً يشهد لهم على تحريمها غيرهم وشهدوا بأنفسهم فلا تشهد أنت معهم و إنّما نهاه عن الشهادة معهم لأنّ شهادتهم باطلة .

فإن قيل : كيف دعاهم إلى الشهادة ثمّ منع نبيّه فقال : « و لاتشهد معهم» ؟ لأنّه تعالى أمرهم أن يأتوا بالعدل و الّذين يشهدون بالحقّ ، و ذلك لايكون ؛ فإذا لم يجدوا ذلك وشهد جهّالهم لأنفسهم فلا ينبغي أن تقبل شهادتهم و تشهد معهم لأنّها ترجع إلى دعوى الباطل . وقيل : معنى الآية من قوله : «هلمّ شهداءكم» أراد سبحانه هاتوا شهداءكم من غيركم ولم يكن أحد غير العرب يشهد على ذلك ، لأنّ العرب شرّعوا هذه البدع من عند أنفسهم .

[ولا تتّبع أهواء الّذين كذّبوا بآياتنا] الخطاب للنبيّ ، والمراد الأمّة أي لا تتّبع أهواء المكذّبين كعبدة الأوثان ، والموصول الثاني في قوله [والّذين لايؤمنون بالآخرة] عطف على الموصول الأوّل بطريق عطف الصّفة على الصّفة مع اتّحاد الموصوف فإنّ الّذي يكذّب بآياته لايؤمن بالآخرة وبالعكس [وهم بربّهم يعدلون] أي يجعلون له عديلاً عطف على لايؤمنون .

فالمعنى : لاتتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب الله وبين الإشراك به سبحانه وهم جامعون لهذه الأمور متصفون بكلها واعلم أن الله تعالى أحل الطيبات لعلمه بصلاحها وحرّم الخبائث كالخمر والميتة والدم والخنزير لعلمه تعالى بفسادها ، وما حرّمه الله إمّا أن يكون بلاء ونقمة كما فعل سبحانه باليهود جزاء على معصيتهم ، وإمّا أن يكون التحريم رحمة ومنّة مثل أنّ فيه ضرراً نفسانياً كضرر السمّ وأمثاله أو ضرراً روحانياً كضرر لحوم السباع والمؤذيات وأمثالها ؛ فإنّه يتعدّى أخلاقها بإحداث الأخلاق الفاسدة كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : الرّضاع يغيّر الطباع[١].

قيل : لمّا دخل الشيخ أبو محمّد الجويني بيته ووجد ابنه أبا المعالي يرتضع ثدي غير أمّه اختطفه منها ثمّ نكّس راسه ومسح بطنه وأدخل إصبعه في فيه ولم يزل يفعل ذلك حتّى قاء وخرج اللّبن من بطنه قائلاً : يسهل عليّ موته ولا يفسد طبعه لشرب لبن غير أمّه ثمّ إنّ أبا المعالي لمّا كبر كان له كبوة بعض الأوقات في المناظرة يقول الشيخ : هذه من بقايا تلك الرضعة وفي الحديث : عليكم بألبان البقر وسمنانها وإيّاكم ولحومها فإنّ ألبانها وسمنانها دواء وشفاء ولحومها داء انتهى .

قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً و بالوالدين احساناً ولاتقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله ان بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون(١٥١) .

[قل] يامحمّد لكفّار مكّة : [تعالوا] أمر من تعالى ، و الأصل فيه أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو في مكان أسفل منه ثمّ اتّسع فيه بالتعميم يتكلّم به كلّ من طلب أن يتقدّم و يقبل إليه سواء كان الطالب في علو أو سفل أو غيرهما .

[أتل] جواب الأمر أي أقرؤ [ما حرّم ربّكم عليكم] أي أقرؤ الآيات المشتملة بالتحريم «عليكم» متعلّق بحرّم [أن لاتشركوا] «أن» مفسّرة و «لا» ناهية [به] تعالى [شيئاً] من الأشياء . بدأ سبحانه بالتوحيد ونهى الشرك ، وقدّم الشرك لأنّه رأس المحرّمات ، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطّاعات .

(١) راجع فيه فروع الكافى «ج ١ : ٣ و ٩٣» .

[وبالوالدين إحساناً] أي وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، وا ُوصينا بهما إحساناً وقد جعل الله بحكمه الشرعيّ نعم الوالدين تالية نعمه ؛ فأمر تعالى بالاحسان إليهما بعد الأمر بعبادته .

[ولا تقتلوا أولادكم] أي لاتدفنوا بناتكم حيّة [من إملاق] من أجل فقر ، و والإملاق نفاد الزاد والنفقة ، من الملق وهو بذل المجهود في طلب المراد [نحن نرزقكم و إيّاهم] لاأنتم ، فلاتخافوا الفقر بناء لعجزكم عن تحصيل الرزق ، و هذا هو الحكم الثالث من الأحكام التسعة .

و إنّما حرّم الله قتل الأولاد للظلم ، و لما فيه من هدم بنيان الله ، و ملعون من هدم بنيانه ، وفيه إبطال ثمرة شجرته وقطع نسله وترك التوكّل في أمر الرزق يؤدّي إلى تكذيب الله لأنّه قال : «ومامن دابّة إلّا على الله رزقها»(١) .

[ولا تقربوا الفواحش] أي الزنا ئجيء بصيغة الجمع قصداً إلى النهي عن أنواعها و لذلك اُبدل منها بدل اشتمال قوله : [ماظهر منها ومابطن] أي مايفعل منها علانية في الحوانيت كماهودأب أرذالهم ، وما يفعل سرّاً باتّخاذ الأخدان كماهوعادة أشرافهم و هذا هوالحكم الرابع منها .

و توجيه النهي إلى قربها للمبالغة في النهي عنها ويدخل في الفواحش مايبعّده من الجنّة و يدنيه من النار ، و أيضاً ماظهر منها بالفعل وما بطن بالقصد . ومن الزنا زناالنظر ، النهايةزنا العين .

[ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله] بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربيّ [إلّا بالحقّ] استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال أي لاتقتلوها في حال من الأحوال إلّا بالحقّ الّذي أمر الشرع ، أورخّص بقتلها و ذلك بالكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان ، وقتل النفس المعصومة و غيرها ممّا فيه الرخصة و هذا هوالحكم الخامس و في القتل بغيرالحقّ ترك تعظيم أمرالله و ترك الشفقة على الخلق و هما من نواميس الدين .

---

(١) هود : ٧ .

[ذلكم] إشارة إلى ماذكر من الأحكام الخمسة [وصّاكم به] و أمركم ربكم بحفظه أمراً مؤكّداً [لعلّكم تعقلون] أي لكي تستعملون عقولكم فيما أمركم الله و تحبسون نفوسكم عن مباشرة القبايح المذكورة .

قوله تعالى : ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده و اوفوا الكيل و الميزان بالقسط لانكلف نفساً الا وسعها و اذا قلتم فاعدلوا و لوكان ذاقربى و بعهدالله اوفوا ذلكم وصكم به لعلكم تذكرون (١٥٢) وان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصىكم به لعلكم تتقون (١٥٣) .

ثمّ ذكر بقيّة ما يتلو عليهم فقال : [و لا تقربوا] أي و لاتتعرّضوا لمال اليتيم و اليتيم من الإنسان من لا أب له و من الحيوان ما لا اُمّ له ، و إنّما خصّ مال اليتيم بالذكر لأنّه لا يستطيع الدفاع عن نفسه و لا عن ماله فيكون الطمع في ماله أشدّ ويد الرّغبة إليه أمدّ ، فأكدّ سبحانه النّهي عن التّصرف في ماله والخطاب للأولياء والأوصياء أشمل .

[إلّا بالّتي هي أحسن] إلّا بالخصلة الحسنة كحفظه و تثميره [حتّى يبلغ أشدّه] غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنّهي ، كأنّه قيل : احفظوه حتّى يصير بالغاً رشيداً ؛ فحينئذ سلّموه إليه .

والأشدّ واحدها «شدّ» مثل الأشرّ في جمع شرّ والأضرّ في جمع ضرّ والشدّ القوّة وهو استحكام قوّة الشباب وقيل : هو جمع شدّة مثل نعمة وأنعم ، وقال بعض البصريّين: الأشدّ واحد جاء على بناء الجمع ، قال الجوهري : أشدّه أي قوّته وهذا هو الحكم السادس .

[و أوفوا الكيل والميزان] أتمّوه و لا تنقصوه في المكيلات وفي الموزونات [بالقسط] وهو العدل فإن قيل : إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط فما فائدة التّكرار؟ لأنّ الله أمر المعطي بإيفاء الكيل والميزان لذي الحقّ وأمر صاحب الحقّ بأخذ حقّه من غير طلب زيادة .

ولمّا كان يجوز أن يتوهّم الإنسان أنّه يجب هذا الأمر على الحقيقة بحيث لا يختلف ذرّة واحدة في المكيل والموزون وذلك صعب شديد بحيث لا يقدر الإنسان من إتيانه أتبعه سبحانه بما يزيل هذا التشديد فقال : [لا نكلّف نفساً إلّا وسعها] أي الإيجاب بهذا الأمر القدر الممكن في إيفاء الكيل والوزن .

قال القاضي : إذا كان الله قد خفّف على المكلّف هذا التخفيف مع أنّ هذا التضييق مقدور له مع العسر فكيف يتوهّم أنّه سبحانه يكلّف الكافر الإيمان ؟ مع أنّه لا قدرة له عليه بل قالوا : يخلق الكفر فيه ويريد منه ويحكم به عليه و يخلق القدرة الموجبة لذلك الكفر و الدّاعية الموجبة له ثمّ ينهاه عنه ؛ فهو تعالى لمّا لم يجوّز ذلك القدر من التشديد والتضييق في إيفاء الكيل والوزن فكيف يجوز أن يضيّق على العبد مثل هذا التضييق والتشديد ؟ .

وعارضه الرازيّ وشيوخ الأشاعرة بمسألة الداعي و العلم ، و هذه المعارضة والجواب منهم أوهن من نسج العنكبوت ، كما شرّح في مواضع عديدة في الكتاب ولا حاجة إلى الإعادة .

أقول : هذه المندوحة والقدر اليسير من التفاوت لا يوجب عدم الاجتهاد والسعي في إيفاء الكيل والوزن والمراعاه فيهما واجبة ؛ لكنّ التقصير القصديّ فليس بمعفوّ قطعاً ، وينبغي الاحتياط بقدر الإمكان .

[وإذا قلتم] قولاً في شهادة أو حكم أو نحوهما [فاعدلوا] فيه [ولو كان] المقول له أو عليه [ذا قربى] أي قرابتكم ؛ لأنّ مدار الأمر العدل وطلب رضى الله ؛ فلا فرق بين ذي قرابة وأجنبيّ وهذا هو الحكم الثامن .

[و بعهد الله أوفوا] أي ما عهد إليكم من تأدية أو امره تعالى ، و يدخل فيه ما عاهدتم الله عليه من الإيمان و النّذور ، و يحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين ؛ فيكون إضافته إلى الله من حيث إنّه أمر بحفظه والوفاء وهذا هو الحكم التّاسع .

[ذلكم] الإشارة إلى ما فصّل من التكاليف [وصّاكم به] أمركم بامتثاله [لعلّكم

تذكّرون] تتذكّرون أي لكي تأخذوا به ولا تغفلوا عنه فتتركوا العمل به والقيامة بما يلزمكم منه .

[وانّ هذا صراطي مستقيماً] بتقدير اللاّم علّة للفعل المؤخّر أي ولأنّ ماذكر في هذه السّورة من آيات التوحيد والنبوّة وبيان الأحكام المذكورة مسلكي وصراطي ، لأنّه يؤدّي إلى رضاي و الجنّة « مستقيماً » حال مؤكّدة أي مستوياً قويماً غير معوج [فاتّبعوه] .

[ولاتتّبعوا السبل] أي الطرق المختلفة عداهذا الطريق مثل اليهوديّة والنصرانيّة و الملل الباطلة [فتفرّق بكم] منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النّهي ، أصله «فتتفرّق» و الباء للتّعدية أي فتفرّقكم و تزيلكم [عن سبيله] عن دين الله الّذي ارتضاه لكم وبه أوصى و هو الإسلام ، و هذا هو التأكيد في الأحكام التسعة ، و هو المتابعة للقرآن .

[ذلكم] أى اتّباع سبيل القرآن وترك اتّباع سائر السبل [وصّاكم بهلعلّكم تتّقون] سبيل الكفر والشرك . ولمّا تلارسول الله هذه الآية خطّ خطّاً ؛ فقال : هذا سبيل الله ، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله وقال : هذه سبل على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه فشرع النّبي المصطفى هو الصّراط المستقيم ، وهو أحدّ من السيف و أدقّ من الشعر كما أنّ صراط الآخرة كذلك . ولذ لا تزال في كلّ ركعة من الصلاة تقول إهدنا الصراط المستقيم ، ومن زلّ عن هذا الصراط في الدنيا زلّ عن صراط الآخرة أيضاً قال ﷺ : الزالّون عن الصراط كثير و أكثر من يزلّ عنه النساء .

أقول : و أكثر الرجال في هذا الزمان في حكم النساء لاتّباع الشهوات والأخذ بالعادات ، و الدّين بدأ غريباً وعاد غريباً فلايوجد من يستأنس به ويستأهل له إلاّ نادراً قال ابن عبّاس في هذه الآيات : إنّها محكمات لم ينسخهنّ شيء ، وهي محرّمات قديماً وحديثاً على بني آدم كلّهم وهنّ أمّ الكتاب ، من عمل بهنّ دخل الجنّة ومن تركهنّ دخل النار . و قال كعب الأخبار : والّذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة ، و أوّلها : « قل تعالوا أتل ماحرّم ربّكم عليكم ، الآيات » .

قوله تعالى : ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن و تفصيلا لكل شيء و هدى و رحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (١٥٤) و هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) .

عطف على مقدّر أي فعلنا تلك التوصية باتّباع صراط الله قديماً [ثمّ آتينا موسى التوراة] و ذكرت كلمة ثمّ لتأخّر الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة مثل قولك : بلغني ما صنعت اليوم ثمّ ما صنعت أمس أعجب .

[تماماً] مصدر من أتمّ بحذف الزوائد أي إتماماً للكرامة والنعمة [على الّذي أحسن] أي على من أحسن القيام بالكتاب كائناً من كان من الأنبياء والمؤمنين .

[و تفصيلاً لكلّ شيء] أي بياناً مفصّلاً لكلّ مايحتاج إليه في الدين ، ويؤيّد هذا المعنى قراءة عبدالله بن مسعود : هي على الّذين أحسنوا .

و قيل : المعنى المراد إتماماً للنّعمة و الكرامة على العبد الّذي أحسن الطاعة بالتبليغ وفي كلّ ما اُمر به .

والقول الثالث : تماماً على الّذي هو أحسن ديناً و أرضاه .

و قيل : المراد : آتينا موسى الكتاب تماماً على أحسن مايكون حيث ذكر فيه نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

[وهدى] من الضلالة [و رحمة] و نجاة من العذاب لمن آمن به و عمل بما فيه [لعلّهم] أي بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى [بلقاء ربّهم يؤمنون] الباء متعلّقة بيؤمنون أي كي يؤمنوا بالبعث والثّواب والعقاب .

[وهذا كتاب] الإشارة إلى القرآن [أنزلناه] دفع لإنكار المنكرين حيث قالوا : ليس من عندالله و إنّما هو من عند نفسه صلى الله عليه وآله وسلم [مبارك] كثير النفع ثابت دنياً و ديناً و مبارك عليك و على اُمّتك حيث جعله الله جعلاً بينهم وبينه تعالى ليوصلهم إلى مقام السعادة [فاتّبعوه] واعملوا بمافيه [واتّقوا] مخالفته لكي [ترحمون] بواسطة العمل الصحيح بموجباته .

قوله تعالى : أن تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا

عن دراستهم لغافلين (١٥٦) . او تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى و رحمة فمن اظلم ممن كذب بآيات الله و صدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون (١٥٧) .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما أنزل قطعاً للمعذرة و إزاحة للعلّة فقال : [أن تقولوا] و سوق الكلام ينبئ عن حذف المضاف أي كراهة أن تقولوا ، و حذف المضاف يطّرد جوازه مع غير «أن» فلأن يجوز مع أن أجدر ، كراهة أن تقولوا : يا أهل مكّة ، أو لئلّا تقولوا :

[إنّما اُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا] وهما اليهود والنصارى ، وخصّهما بالذكر لشهرتهما وظهور أمرهما أكثر من غيرهما فأنزلنا عليكم القرآن لنقطع حجّتكم [و إن كنّا عن دراستهم لغافلين] من بقيّة قول المشركين «أن» مخفّفة أي و إنّه كنّا عن دراستهم و قراءتهم ، ولم يقل : عن دراستهما لأنّ كلّ طائفة جماعة [لغافلين] أي تقولون : لا ندري ما في كتابهم إذ لم يكن على لغتنا فلم نفهم ولم نقدر على قراءته .

[أو تقولوا لو أنّا اُنزل علينا الكتاب] كما اُنزل عليهم [لكنّا أهدى منهم] إلى الحقّ الّذي هو المقصد الأقصى من جلائل الأحكام و الشرائع و دقائقها لثقابة أفهامنا وحدّة أوهامنا لأنّا تلقّفنا فنوناً من العلم كالقصص و الأشعار و الخطب مع أنّا اُمّيّون .

[فقد جاءكم] متعلّق بمحذوف معلّل به أي لا تعتذروا بذلك القول فقد جاءكم [بيّنة من ربكم] و حجّة واضحة بلسانكم [و هدى و رحمة] عبّر عن القرآن بالبيّنة إيذاناً بكمال تمكّنهم من قراءته لأنّه على لغتهم و هو هداية و رحمة [فمن أظلم] أي لا أحد أظلم [ممّن كذّب بآيات الله] أي القرآن [وصدف عنها] أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال .

[سنجزي الّذين يصدفون] الناس [عن آياتنا] وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضاً [سوء العذاب] أي شدّته [بما كانوا يصدفون] بسبب

ماكانوا يفعلون الصدف ويمنعون الناس عن الإيمان به والعمل بموجباته ، ويصدفون الناس عمّن اُوتي به وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الطبرسيّ : وفي الآية دلالة على أنّ إنزال القرآن لطف للمكلّفين و أنّه لو لم ينزله لكان لهم الحجّة و إذا كان في منع اللّطف عذر وحجّة للمكلّف فمنع القدرة و خلق الكفر فيهم أولى بذلك ؛ فعلى العاقل أن يعمل بالقرآن و يرغّب غيره به بقدر الإمكان لأنّه مكلّف به و يكون شريكه في الثواب الفائض من الله الوهّاب .

و في الحديث : اُنزل القرآن على سبعة أحرف أي سبع لغات : وهي لغات العرب المشهورين بالفصاحة من قريش و هذيل و هوازن واليمن و طيء و ثقيف والفصحاء من مطلق طوائفهم ، أو المراد من قوله «على سبعة أحرف» سبع قراآت وهي الّتي استفاضت عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و ضبطتها الاُمّة ، و اُضيف كلّ حرف منها إلى من كان أكثر قراءة به من الصحابة ، ثمّ اُضيف كلّ قراءة منها إلى من اختارها من القرّاء السبعة : وهم نافع و ابن كثير وأبو عمرو و ابن عامر و عاصم و حمزة والكسائيّ .

حكي من بعض الأخيار من أهل التلاوة للقرآن : أنّه لمّا حضرته الوفاة كان كلّما قالوا له : قل لا إله إلّا الله قال : « بسم الله الرحمن الرحيم طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى ـ إلى قوله ـ : اللّه لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنى» فلم يزل يعيدها كلّما أعادوا عليه حتّى مات على هذه الآية الكريمة ؛ فظهر أنّ الموت على ماعاش عليه الشخص و كان حرفة رجل يبيع الحشيش وهو غافل عن الله فلمّا حضرته الوفاة كان كلّما قيل له : قل : «لا إله إلّا الله» قال : حزمة بفلس .

قوله تعالى : هل ينظرون الا أن تاتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيراً قل انتظروا انا منتظرون (١٥٨) .

قرأ حمزة و الكسائيّ « يأتيهم » بالياء والباقون بالتاء .

و لمّا بيّن سبحانه أنّه إنّما أنزل القرآن إزاحة للعلّة و أنّهم لايؤمنون ؛ فقال : [هل ينظرون] و معنى « ينظرون » ينتظرون وهل استفهام معناه النفي ؛ فالمعنى أنّهم

لا يؤمنون بك و بكتابك إلّا إذا جاءهم أحدأمور ثلاثة : وهي مجيء الملائكة أومجيء الربّ أومجيء الآيات القاهرة الّتي تضطرّهم إلى الإيمان ، والمراد من مجيء الملائكة قيل : لقبض أرواحهم يعني ملائكة الموت ، عن مجاهد والسدّي وقتادة . وقيل : لإنزال العذاب والخسف بهم . وقيل : لعذاب القبر .

[أو يأتي ربّك] فيه أقوال :

أحدها : أو يأتي أمر ربّك بانتقام فحذف المضاف ، ومثله «وجاء ربّك» وجاز هذا الحذف كما قال : «إنّ الّذين يؤذون الله»(١) أي يؤذون أولياء الله ، لكن قال ابن عبّاس : معناه : يأتي أمر ربّك فيهم بالقتل .

و ثانيها : أو يأتي ربّك بجلائل آياته ؛ فيكون حذف الجارّ و المجرور لدلالة الكلام عليه ، وهو قيام الدليل في العقل على أنّ الله لايجوز عليه الانتقال ، ولايختلف عليه الحال .

و ثالثها أنّ المعنى أو يأتي إهلاك ربّك إيّاهم بعذاب عاجل أو آجل أو بالقيامة [أو يأتي بعض آيات ربّك] فذلك نحو خروج الدابّة أو طلوع الشمس من مغربها ، عن مجاهد و قتادة والسدّي و روي عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : بادروا بالأعمال ستّاً طلوع الشمس من مغربها والدابّة والدجّال والدخان و خويصة أحدكم يعني الموت و أمر العامّة .

و ههنا بحث : و هو أنّ في قوله : « أو يأتي ربّك » إذا حملنا على أثر من أثار قدرته فهذا التقرير يصير عين قوله : «أو يأتي بعض آيات ربّك» و إذا حملنا على مجيء الربّ حقيقة فذاك معنى غير معقول . فالجواب أنّ هذا حكاية مذهب الكفّار بزعمهم الفاسد فلايكون حجّة ولا يلزم التكرار لكن يمكن أن يكون المراد من قوله : «يأتي بعض آيات ربّك » علامات القيامة أو نفس القيامة ؛ فحينئذ لايكون تكراراً .

و أجمعوا على أنّ المراد بقوله « يأتي » بعض آيات ربّك علامات القيامة ؛ فعن البراء بن عازب قال : كنّا نتذاكر أمر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : ما

---

(١) الاحزاب : ٥٧ .

تتذاكرون ؟ قلنا : نتذاكر أمر الساعة قال : إنّها لاتقوم حتّى تروا قبلها عشر آيات : الدّخان و دابّة الأرض و خسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب و خسفاً بجزيرة العرب والدجّال و طلوع الشمس من مغربها و يأجوج و مأجوج و نزول عيسى و ناراً تخرج من أرض عدن .

قوله [لم تكن آمنت من قبل] صفة لنفساً و قوله [أو كسبت في إيمانها خيراً] صفة ثانية معطوفة على الصفة الأولى ، و المعنى : أنّ أشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أو ان التكليف فلم ينفع الايمان نفساً ما آمنت قبل ذلك و ماكسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك .

ثمّ قال سبحانه : [قل] يا محمّد [انتظروا إنّا منتظرون] وعيد وتهديد وذلك لأنّ تلك الحال يكون الايمان ضروريّاً و أنّها حال زوال التكليف .

قال الحاكم أبو سعيد في تفسيره : وفي الآية دلالة على أنّ الايمان لابدّ و أن يكون منضمّاً إليه أفعال الخير و الصالحات بخلاف مايقوله المرجئة .

قال : الآية تدلّ على أنّ الايمان بمجرّده لاينفع حتّى يكون معه اكتساب الخير و الصالحات .

قال الطبرسيّ : وليت شعري كيف يدلّ الآية على ماقاله الحاكم ؟ وكيف حكم لنفسه على خصمه في ما الحكم فيه لخصمه عليه ؟ وهذا القول عدول عن الانصاف فإنّه سبحانه قد صرّح فيها بأنّ اكتساب الخيرات غير الايمان المجرّد لعطفه سبحانه كسب الخيرات في الايمان على فعل الايمان ، فكأنّه قال : لاينفع نفساً لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمانها ، وكذا لاينفع نفساً لم تكن كاسبة خيراً في إيمانها قبل ذلك كسبها الخيرات في ذلك اليوم .

قوله تعالى : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (١٥٩) .

اختلفوا في المقصودين بهذه الآية على أقوال :

أحدها أنّهم الكفّار و أصناف المشركين ، عن السدّي و الحسن . و قال

[لست منهم] يا محمد [في شيء] و إنّما هو نهي عن مخالطتهم ومقاربتهم ، و أمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمباعدتهم ، و نسختها آية السيف .

و ثانيها أنّهم اليهود و النصارى لأنّهم يكفّر بعضهم بعضاً و هو التفرّق ، عن قتادة .

و ثالثها أنّ المراد بهم أهل الضلالة وأصحاب الشبهات والبدع من هذه الاُمّة وهو المرويّ ، عن الباقر عليه السلام ، جعلوا دين الله أدياناً وصاروا أحزاباً وفرقاً لست يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ منهم في شيء ، فأخبر سبحانه عن حال نبيّه بالمباعدة التامّة من أن يجتمع معهم في أمر من مذاهبهم الفاسدة وأنّه بريء من جميعه .

وقيل : معناه : لست من قتالهم في شيء ، ثمّ نسختها آية السيف و القتال ، عن الكلبيّ .

[إنّما أمرهم إلى الله] في مجازاتهم على سوء أفعالهم و في إنظارهم و استيصالهم إلى الله . وقيل : الحكم بينهم في اختلافهم إلى الله ، ثمّ ينبّؤهم ويخبرهم ويجازيهم بأفعالهم يوم القيامة فيظهر المحقّ من المبطل .

قوله تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠) .

قرء «عشر» بالرفع والتنوين ، قال الواحديّ : حذفت الهاء من عشرة . والأمثال جمع مثل ، والمثل مذكّر واُريد عشر حسنات أمثالها ثمّ حذف الحسنات و اُقيمت الأمثال الّتي هي صفتها مقامها ، وحذف الموصوف كثير في الكلام فالأمثال ليس مميّزاً للعشر بل مميّزها هو الحسنات ، قالوا : إنّ الأمثال صفة لمميّزها ؛ ولذا لم يذكر التاء للعشر .

قال الطبرسيّ : وحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في الشعر وفي غير الشعر ضعيف عند المحقّقين ، والأولى أن يكون أمثالها غير صفة بل يكون محمولاً على المعنى فاُنّث الأمثال لما كان في معنى الحسنات .

حكي عن أبي عمرو أنّه سمع أعرابيّاً يقول : فلا جاءته كتابي فاحتقرها ، قال :

فقلت له : أتقول : جاءته كتابي ؟ قال الأعرابيّ : نعم أليس الكتاب بصحيفة ؟

المعنى : لمّا ذكر سبحانه الوعيد على المعاصي عقّبه بذكر الموعد فقال : [من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها] .

قال بعضهم : الحسنة قول «لا إله إلّا الله» والسيّئة الشرك ، قال الرازيّ : وهذا ضعيف بل يجب أن يكون محمولاً على العموم إمّا تمسّكاً باللفظ و إمّا لأجل أنّه حكم مرتّب على وصف مناسب له ؛ فيقتضي كون الحكم معلّلاً بذلك الوصف فوجب أن يعمّ لعموم العلّة ، وعلى هذا فالمعنى من جاء بالخصلة الواحدة من خصال الطاعة من المؤمنين فله عشر أمثالها من الثواب .

[ومن جاء بالسيّئة] أي بالخصلة الواحدة من خصال الشرّ [فلا يجزى إلّا مثلها] وذلك من عظيم فضل الله و جزيل إنعامه حيث لا يقضي في الثواب على قدر الاستحقاق بل يزيد عليه ، وربّما يعفو عن ذنوب المذنبين من المؤمنين منّة عليهم وتفضّلاً ، وإن عاقب عاقب على قدر الاستحقاق عدلاً .

ثمّ اختلف النّاس في أنّ هذه الحسنات العشر الّتي وعدها الله هل يكون كلّها ثواباً أم لا ؟ فقال بعضهم : لا يكون كلّها ثواباً وإنّما يكون الثواب منها الواحدة ، والتسع الزائدة تكون تفضّلاً ، ويؤيّده قوله: «فيوفّيهم اُجورهم ويزيدهم من فضله(١)» لكن عند الأشاعرة الثواب مطلقاً تفضّل من الله ، والمعتزلة فرّقوا بين الثواب والتفضّل بأنّ الثواب هو المنفعة المستحقّة و التفضّل هو المنفعة الّتي لا تكون مستحقّة .

ثمّ إنّهم اختلفوا فقال بعضهم : هذه العشرة تفضّل ، والثواب غيرها وهو مذهب الجبّائيّ ، وقال : لأنّه لو كان الواحد ثواباً ، وكانت التسعة تفضّلاً لزم أن يكون الثواب دون التفضّل ؛ لأنّه لو جاز أن يكون التفضّل مساوياً للثواب في الكثرة و الشرف لم يبق في التكليف فائدة أصلاً ؛ فيصير عبثاً ، ولمّا بطل ذلك علمنا أنّ الثواب يجب أن يكون أعظم في القدر وفي التعظيم من التفضّل .

وقال آخرون : لا يبعد أن يكون الواحد من هذه التسعة ثواباً ، و يكون التسعة الباقية تفضّلاً إلّا أنّ ذلك الواحد يكون أوفر و أعظم شأناً من التسعة الباقية .

(١) النساء : ١٧٢ .

وقيل : التقدير بالعشرة ليس المراد منه التحديد بل أراد الأضعاف مطلقاً ، وذلك كقول القائل : لئن أسديت إليّ معروفاً لأكافأنّك بعشر أمثالها وفي الوعيد يقال : لئن كلّمتني واحدة لأكلّمنّك عشراً ولا يريد التحديد فكذا ههنا ، و الدليل على أنّه لا يحمل على التحديد قوله تعالى «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة و الله يضاعف لمن يشاء [1] » لكنّ السيّئة واحدة عدلاً . روى أبوذرّ الغفاريّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ الله تعالى قال : الحسنة عشر و أزيد والسيّئة واحدة وأعفو وأغفر ؛ فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره .

[وهم لايظلمون] بنقص الثواب وزيادة العقاب . واعلم أنّ الحسنات العشر أقلّ ماوعد من الأضعاف للمؤمن وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة : وبغير حساب على تفاوت مراتب الخلوص والأشخاص .

فإن قيل : إذا كانت السيّئة بالواحدة كيف كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ؟ فما وجه المماثلة ؟ فالجواب أنّ الكافر على عزم أنّه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد فلمّا كان العزم مؤبّداً عوقب بما عليه من الكفر بخلاف المسلم المذنب ؛ فإنّه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب ؛ فلاجرم كانت عقوبته منقطعة ، و الكافر هو الّذي تسبّب على خلوده في النار وقد اُوعد على الخلود و تمّت له الحجّة بتبليغ الأنبياء و كتبهم ، و مع ذلك لم يتقبّل الإيمان وأعرض عنه وأقبل على الكفر والعناد ؛ فاستحقّ ذلك لقبوله الكفر و بقائه عليه و عزمه التأبيد عليه . قيل : الأعمال ستّة موجبتان كلّيتان و مثل بمثل و حسنة بحسنة و حسنة بعشر و حسنة بسبعمائة و أكثر ؛ فأمّا الموجبتان فهو من مات ولا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة ، ومن مات و هو مشرك بالله دخل النار . و أمّا مثل بمثل ؛ فمن عمل سيّئة فجزاء سيّئة مثلها وأمّا حسنة بحسنة فمن همّ بحسنة حتّى تشعر بها نفسه و يعلمها الله من قلبه كتب له حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها ، و أمّا حسنة بسبعمائة فبالنفقة في سبيل الله .

و في بعض المجامع أنّ الشارع قد يرتّب الثواب للعمل لئلّا يترك .بل يرغب فيه فلايكون ذلك العمل النفل أفضل من العمل المؤكّد عليه الّذي لم يترتّب عليه

(١) البقرة : ٢٦٣ .

ذلك الثواب مثل أنّه من صلّى ركعتين بالليل أوإحدى عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنّة من ذهب مع أنّ السنّة الراتبة لفرض الظهر أفضل ولا يبلغ مرتبة الراتبة من الأحكام وإن لم يتعيّن قدر أجرها فإنّ السنن شرّعت لتتميم نقائص الفرائض والنوافل الغير الراتبة لتتميم نقائص السنن الراتبة .

و إذا تأمّلت عرفت أنّ الله تعالى قبل أن يجيء العبد بالحسنة أحسن إليه بعشر حسنات حتّى قدر أن يجيء بالحسنة وهي : حسنة الإيجاد من العدم ، وحسنة الاستعداد بأن خلقه في أحسن تقويم مستعدّاً للإحسان ، و حسنة التربية ، وحسنة الرزق ، و حسنة بعثة الرسل ، و حسنة إنزال الكتب للإرشاد ، وحسنة تحديد الحسنات والسيّئات و حسنة التوفيق ، وحسنة الإخلاص في الإحسان ، و حسنة قبول الحسنات ، والسرّ فيه أنّ السيّئة بذر يزرع في أرض النفس والنفس خبيثة لأنّها أمّارة بالسوء ، والحسنة بذر يزرع في أرض القلب والقلب طيّب لأنّ بذكر الله تطمئنّ القلوب ، وقد قال سبحانه: « والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والّذي خبث لايخرج إلّا نكداً »[1].

[وهم لايظلمون] لايبخس من حسناتهم ولا يزيد على عقابهم مثقال ذرّة كما قال سبحانه : «إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً»[2].

قل انني هدنني ربى الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين(١٦١) قل ان صلوتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين(١٦٢)لاشريك له وبذلك امرت و أنا أول المسلمين (١٦٣) .

المعنى : ثمّ أمر الله نبيّه فقال : [قل] يا محمّد صلّى الله عليه وآله للخلق جميعاً ولكفّار مكّة الّذين يدّعون أنّهم على الدين الحقّ وقد فارقوه بالكلّيّة [إنّني هداني ربّي] أي أرشدني بالوحي و بما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات التكوينيّة [إلى صراط مستقيم] موصل إلى الحقّ [ديناً قيّماً] ونصب «ديناً» على ثلاثة أوجه أحدها أنّه لمّا قال : هداني إلى صراط مستقيم استغنى بذكر الفعل عن ذكره ثانياً ؛ فقال : ديناً قيّماً كما في قوله : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الّذين » و إن شئت نصبت على تقدير

(١) الاعراف : ٥٦ . (٢) النساء . ٤٤ .

« ألزموا و أعرفوا » لأنّ هدايتهم إليه إلزامهم له وتعريف لهم ، وإن شئت حملته على الاتّباع أي اتّبعوا ديناً قيّماً .

و [ملّة إبراهيم حنيفاً] بدلٌ من « ديناً قيّماً » و «حنيفاً » منصوب على الحاليّة أي مائلاً عن الأديان الباطلة ميلاً لارجوع فيه . والملّة من أمللت الكتاب أي أمليته ، وما شرّعه الله لعباده يسمّى ملّة من حيث إنّه يدوّن و يملى ويكتب ويتدارس .

و إنّما وصف دين النبيّ بأنّه ملّة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسها ونفوس أهل الأديان ، و لانتساب العرب إليه واتّفاقهم على أنّه كان على الحقّ وموافقة أغلب الفروع مع سنّته كالختان والمناسك في الحجّ و غيرها .

[وماكان من المشركين] أي ماكان إبراهيم منهم في أمر من اُمور دينهم أصلاً و فرعاً فردّ الله عليهم بأنّه عليه السلام ليس من أهل دينهم لأنّهم مشركون ، فأمّا العرب فكانوا أهل الأصنام ، واليهود بقولهم «عزير ابن الله » والنصارى بقولهم «المسيح ابن الله» و المشرك في الحقيقة هو الّذي يطلب مع الله شيئاً و يجعل غيره معه شريكاً في العبادة .

[قل إنّ صلاتي] واُعيد الأمر لما أنّ المأمور به يتعلّق في هذه الآية بفروع الشرائع وماسبق باُصولها و المراد بالصلاة الصلوات الخمس المفروضة [ونسكي] أي عباداتي و أصل النسك مايتقرّب به إلى الله ولذا يقال للعابد : ناسك . وقيل : المراد بالصلاة صلاة العيد ، و بالنسك الاُضحيّة .

وعن أنس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : قرّب كبشاً أملح أقرن فقال : « لاإله إلّا الله والله أكبر إنّ صلاتي ونسكي - إلى قوله تعالى - : وأنا أوّل المسلمين » ثمّ ذبح فقال : شعره وصوفه فداء لشعري من النار ، وجلده فداء لجلدي من النار ، ودمه فداء لدمي من النار ، و عظمه فداء لعظمي من النار ، و عروقه فداء لعروقي من النار فقالوا : يا رسول الله هنيئاً مريئاً ، هذا لك خاصّة ؟ قال : بل لاُمّتي عامّة إلى أن يقوم القيامة ، أخبرني به جبرئيل عن ربّي عزّ وجلّ . وقيل : نسكي أي ديني ، عن الحسن .

[و محياي و مماتي] أي حياتي وموتي ، وجمع بين صلاته وحياته وأحدهما من فعله والآخر من فعل الله لأنّهما جميعاً بتدبير الله ، وقيل : معناه : إنّ صلاتي و نسكي له

عبادة ، وحياتي و مماتي له ملكاً وقدرة ، عن القاضي . و حاصل المعنى أنّ ما أنا عليه في حياتي من فنون الطاعات و أكون عليه عند موتي من الإيمان لله لالغيره خالصة له تعالى .

[لله ربّ العالمين لاشريك له] لاأشرك فيها غيره [وبذلك] الإخلاص [اُمرت] لابشيء غيره [وأنا أوّل المسلمين] لأنّ إسلام كلّ نبيّ متقدّم على إسلام اُمّته ، وفيه بيان مسارعته صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الامتثال بما اُمر به و أنّ ما اُمر به من الشريعة ليس من خصائصه بل الكلّ مأمورون به ، يقتدي به من أسلم منهم ، وتنبيه على أنّه لاينبغي أن يجعل العبد حياته لشهوته ومماته لورثته .

قال أهل المعاني : إنّ قوله : «و أنا أوّل المسلمين » يعني أوّل من استسلم عند الإيجاد لأمر كن ، و عند قبول فيض الألطاف و أوّل ماخلق الله نوري ، و جئت على التوحيد والإخلاص والتبرّي عن كلّ شيء سواه تعالى ظاهراً و باطناً و التحقيق بحقائق العبوديّة .

عن مالك بن دينار قال : خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام وإذاً بشابّ في الطريق بلازاد ولا راحلة ؛ فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت : أيّها الشابّ من أين أقبلت ؟ قال : من عنده ، قلت : و إلى أين ؟ قال : إليه ، قلت : و أين الزاد ؟ قال : عليه ، قلت : إنّ الطريق لايقطع إلّا بالماء و الزاد و هل معك شيء ؟ قال : قد تزوّدت عند خروجي بخمسة أحرف ، قلت : و ما هذه الحروف ؟ قال : قوله تعالى : « كهيعص » قلت : و ما معناها ؟ قال : أمّا قوله كاف فهو الكافي ، و أمّا الهاء فهو الهادي ، و أمّا الياء فهو المؤدّي و أمّا العين فهو العالم ، وأمّا الصاد فهو الصادق ، ومن كان صاحبه كافياً وهادياً ومؤدّياً و عالماً و صادقاً لايضيّع .

قال مالك : فلمّا سمعت هذا الكلام نزعت قميصي الّذي عليّ فأردت أن اُلبسه إيّاه فأبى أن يقبله ، وقال : أيّها الشيخ العرى خير من قميص دار الفناء ؛ حلالها حساب و حرامها عقاب ؟.

قال مالك : و كان الشابّ إذا جنّ عليه اللّيل يرفع وجهه نحو السماء و يقول :

يامن تسرّه الطاعات ولا تضرّه المعاصي هب لي مايسرّك و اغفرلي مالا يضرّك ، فلمّا أحرم الناس و لبّوا قلت له : ياشابّ لمَ لاتلبّي ؟ فقال : يا شيخ اُلبّي سرّاً أخشى أن أقول : لبّيك فيقول : لالبّيك ولاسعديك ، ولا أسمع كلامك ولا أنظر إليك ، ثمّ مضى فما رأيته إلّا يمضي و هويقول : اللّهمّ إنّ الناس ذبحواوتقرّبوا إليك بضحاياهم وهداياهم وليس لي شيء أتقرّب به إليك سوى نفسي فتقبّلها منّي ، ثمّ شهق شهقة فخرّ ميّتاً .

قوله تعالى : قل أغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولاتزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (١٦٤) .

[قل] يا محمّد لمن يقول لك من الكفّار : توجّه إلى ديننا : [أغير الله أبغي]أطلب حال كونه [ربّاً] آخر فاُشركه في عبادته [وهو ربّ كلّ شيء] والحال أنّ ما سواه مربوب له مثلي فكيف يتصوّر أن يكون شريكاً له في العبادة والعبوديّة ؟

[ولاتكسب كلّ نفس إلّا عليها] وذلك أنّهم كانوا يقولون للمسلمين : اتّبعوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم ، إمّا بمعنى ليكتب علينا ماعملتم من الخطايا لا عليكم ، و إمّا بمعنى نحمل يوم القيامة عذاب ماحمّل عليكم من الخطايا ؛ فهذا ردّ بالمعنى الأوّل أي لايكون جناية نفس من النفوس إلّا عليها ، ومحال أن يكون صدورها عن شخص و قرارها على شخص آخر حتّى يتأتّى ماذكرتم .

وقوله تعالى : [ولاتزر وازرة وزر اُخرى] ردّ لهم بالمعنى الثاني أي لاتحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس اُخرى حتّى يصحّ قولكم : ولنحمل خطاياكم . والوزر في اللغة الثقل .

[ثمّ إلى ربّكم مرجعكم] أي إلى مالك أمركم رجوعكم يوم القيامة [فينبّؤكم] يومئذ [بماكنتم فيه تختلفون] أي يتبيّن الرشد من الغيّ و المحقّ من المبطل ، و إذا كان هو الربّ وغيره المربوب من الفلك والملك فعبادة غيره جهل محض ؛ لأنّ العبد لابدّ وأن يخدم مولاه ولا يخدم غير مولاه فالمولى غاية المبتغى و نهاية المرام ، فمن وجده فقد وجد الكلّ ، ومن فقده فقد الكلّ وعاد خائباً خاسراً ، و كلّ ماتكسب النفس

من خير أو شرّ فهو عليها و مأخوذة به و أمّا الخير فلابدّ فيه من صحّة القصد له تعالى والخلوص من المنافيات .

فإن قيل : إنّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلّا أن كان له عمل صالح اُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات اُخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه» يدلّ على خلاف قوله : « ولاتزر وازرة وزر اُخرى» .

فالجواب أنّ هذا الحمل هو الّذي باختياره تحمله وحمل على نفسه برضاه بعد تبليغه الحكم فباع حظّه بالأرذل الأدنى و بسوء اختياره رضي بهذه المعاملة بإقدامه على ظلم غيره فحمل سيّئات المظلوم حمل سيّئات نفسه ؛ فالآية والحديث متّحدان .

قوله تعالى : وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتيكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم(١٦٥)

أخبر سبحانه وشهد لنفسه بالربوبيّة ؛ فقال : [وهو] أي الله تعالى [الّذي جعلكم] أيّها الناس خلائف الأرض والاُمم السابقة البشريّة ، وكلّ من جاء بعد من مضى فهو خليفة لأنّه يخلفه ويعقّبه والخلائف جمع الخليفة كالوصائف جمع الوصيفة ، و قيل : المعنى : خلفاء الله في أرضه وعلى هذا المعنى تكون تتّصفون بصفاته و آدم وقته وخليفة ربّه ولو على نفسه .

[ورفع بعضكم] في الشرف و الغنى [فوق بعض] إلى [درجات] كثيرة متفاوته [ليبلوكم فيما آتاكم] من المال والجاه أي ليعاملكم معاملة من يختبر بكم لترتّب الجزاء لأنّ الجزاء لايقع بالعلم بالوقوع حتّى لا يمتحن بل قرّر سبحانه الجزاء بعد الوقوع .

[إنّ ربّك] يا محمد [سريع العقاب] لمن لايراعي حقوق ما آتاه الله ولم يشكره ، و إنّما قال : « سريع العقاب» مع أنّه سبحانه موصوف بالإمهال والحلم لأنّ ماهو آت قريب ، و حقيقة الشكر أن تعرف المنعم حقّ معرفته و لاتستعين بنعمه على معاصيه . [و إنّه لغفور رحيم] لمن راعاها . و افتتح السورة بالحمد على نعمه تعليماً و ختمها بالمغفرة والرحمة ليحمد على ذلك .

تمّت السورة بحمد الله الملك المتفضّل بالانعام

سورة الاعراف

هذه السورة مكيّة غير قوله تعالى : «واسألهم عن القرية - إلى قوله - : بما كانوا يكسبون» فإنّها نزلت بالمدينة .

قال اُبيّ بن كعب : من قرأها جعل الله بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شفيعه يوم القيامة ومن قرأها يوم الجمعة كان ممّن لا يحاسب يوم القيامة . قال الصّادق عليه السلام : لا تدعوا قراءتها فانّها تشهد لقاريها يوم القيامة (١).

(١) رواها وغيرهما في ثواب الاعمال : ١٠٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المص (١) كتاب انزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى المومنين (٢) .

قال ابن عبّاس : معناه : أنا الله أعلم وأفصل فعلى هذا مبتدأ وخبر و أعلم خبر بعد خبر . قال القاضي : إن كانت العبرة بحرف الميم فهو أيضاً موجود في الملك والامتحان وإن كانت بالصاد فيمكن على قوله : أنا الله أصلح ؛ فكان الحمل على المعنى الأوّل محض التحكّم .

ثمّ اذا أردنا تفسير الحروف من غير أن تكون تلك اللّفظة موضوعة في اللّغة لذلك المعنى انفتحت طريقة الباطنيّة في تفسير سائر الألفاظ ممّا يشاكل هذا الطّريق ، وأمّا قول بعضهم أنّه من أسماء الله ، و الاسم إنّما يختصّ بالمسمّى بالوضع و الاصطلاح ، ولا يبعد أنّ الشارع وضعه .

والأولى أنّ قوله : «ألمص» اسم لهذه السورة لقباً ، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسمّيات بل هي قائمةٌ مقام الإشارات ، و لله تعالى أن يسمّي هذه السورة بألف لام ميم صاد ، كما أنّ الواحد منّا إذا حدث له ولد فإنّه يسمّيه محمّداً ، وعلى هذا فيكون «ألمص» مبتدءاً و كتاب خبره وجملة البعد صفة له .

فإن قيل : الدّليل الّذي دلّ على صحّة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله هذا القرآن فما لم يفد هذا المعنى لم نعرف نبوّته وإذا لم نعرف نبوّته لا يمكننا أن نحتجّ بقوله ؛ فلو أثبتنا كون هذا القرآن نازلاً عليه من عند الله بقوله لزم الدّور .

قلنا : إنّ دلائل حقّيّة القرآن وأنّ إنزاله من الله غير منحصر بقوله ، لكن قوله وتصديقه أحد الدّلائل و كذلك تصديق نبوّته غير منحصر بالقرآن بل القرآن أحد دلائل نبوّته .

وللقرآن ولنبوّته دلائل كثيرة ، أمّا القرآن لأنّه مع قطع النّظر عن دلائل السّمع بداهة العقل تحكم بأنّ هذا الكتاب العزيز المشتمل على علوم الأوّلين و الآخرين بجامعيّته من حيث المعنى مع بسط أحكامه الّتي يحتاج إليه الخلق في أمور عامّتهم ورفع الخلف بسبب العلم واختيار طريق الأصلح من الأديان ، ورفع التنافس والخصومات من نوع البشر لملازمة العدل في العمل بأحكامه لم يتّفق لكتاب قطّ ، لأنّك إذا وازنت العمل به وبغيره من كلّ حكم احتجت به في دينك ودنياك رأيت أنّ العمل به أوفق للعدل والصّلاح وأحسن ترتيباً لنظام العالم وجمع الكلمة ورفع الخصومات و الخلاف ، وما أريد من الكتاب و إنزال الكتب إلّا هذا الأمر ، وهذا التّرتيب والتركيب لا يمكن صدوره إلّا من قادر عالم وحكيم خالق ، وهو العالم بحقائق الأشياء دون غيره ؛ فثبت أنّ صدوره لا يمكن إلّا منه .

هذا كلّه من حيث المعنى وأمّا من حيث اللّفظ و المعنى فعجز المعارضين مع شدّة عداوتهم عن الإتيان بمثله أو ببعضه يشهد بأنّه وحيٌ من الله أوحى به إلى من هو أهل لوحيه .

فلمّا ثبت أنّه من عند الله ثبت نبوّة الموحى إليه لأنّ القرآن مشحون بالآيات المصرّحة بنبوّته ، فحينئذ ، ماثبت عن قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه نازل من عند الله بل ثبت ببراهين اُخر فمن أين لزم الدّور ؟

على أنّ من تدبّر في أخلاقه الشريفة و في حالاته أنّه منذ صباه إلى أن بلغ ثلاث و ستّين سنة من عمره عجز جميع الخلق عن أن يوازوه بمكارم الأخلاق ولا ساوى عذاره من البشر بعذار و مضماره بمضمار حيث شهد الله له بقوله « و إنّك لعلى خلق عظيم[(١)] ».

ثمّ تأمّل أيّها العاقل بمجامع قلبك ، وانظر في أحواله في هذه المدّة من عمره أنّه لم ينقل عنه كريهة ولا خائنة ، ولا أخطأ في ساعة من عمره حتّى أنّه لم يثبت الخصماء خصلة سوء له في دقيقة من عمره الشريف ، حتّى أنّ أعداءه ، لعجزهم عمّا أوتي من المعجزات

(١) القلم : ٤ .

نسبوه إلى السّحر، والبشر وإن كان عالماً وحكيماً لا ينقضي من عمره يوم إلّا ويقع منه ما يكره زوجه و ولده فضلاً عن النّاس حتّى أنّ نفسه تنفر من نفسه، حيث وقع منه الخطاء ويلوم هو نفسه، فضلاً عن النّاس فلو لم يكن تأييد النبوّة من الله كيف تتّفق هذه الملكة الرّاسخة الإلهيّة لمن يأكل وينام ويمشي في الأسواق.

فأنت أيّها المعترض! دع المعجزات كلّها وتأمّل في هذه الدّقيقة ولا تحتاج إلى إثبات أمر آخر، على أنّ البحر لو كان مداداً لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله وهو صلّى الله عليه وآله وسلّم كلمة الله العليا؛ «الله أعلم حيث يجعل رسالته»(١).

وبالجملة رجعنا إلى التفسير:

[كتابٌ أنزل إليك] أي هذا الّذي أوحيته إليك كتاب أنزله الملائكة إليك بأمري [فلا يكن في صدرك حرج لتنذر به وذكرى للمؤمنين] وضيق من تكذيب قومك وإجابتهم أيّاك بعدم القبول فأنذر به النّاس، وليتذكّر به المؤمنون؛ لأنّهم المنتفعون به.

ثمّ خاطب الله المكلّفين:

اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (٣).

اعلم أنّ الرّسالة إنّما يتمّ بالمرسل و هو الله والمرسل وهو النبيّ و المرسل إليه وهم الأمّة بمتابعة الرّسول وأنّ النّفوس البشريّة على قسمين: بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغيب، غريقة في اللّذات الجسمانيّة والشهوات الجسدانيّة، و نفوس شريفة مشرقة بالأنوار الروحانيّة الإلهيّة، مستعدّة لكسب الفضائل؛

فبعثة الأنبياء في حقّ القسم الأوّل إنذار وتخويف كما قال سبحانه: «لتنذر به». وفي القسم الثّاني تنبيه و تذكير عن غفلة البشريّة: لأنّه ربّما غشيها غواش من عالم الجسم فيعرض لها ذهول و غفلة فأمر بالذّكرى للقسم الثاني.

ثمّ أمر الأمّة باتّباع هذا الكتاب ومنع عن اتّباع من دون الكتاب من أولياء

---

(١) الانعام: ١٢٤.

الشياطين من الجنّ والإنس فيحملوكم على مخالفته وعبادة الأهواء والأصنام والبدع فيضلّوكم عن سبيله .

ثمّ ههنا معترضة مفيدة و هي أنّه أمر الله باتّباعه ، ونهى الله عن دون القرآن و السنّة ؛ فكان المعنى أنّ كلّ ما يغاير الحكم الّذي أنزله الله لايجوز اتّباعه .

فنفاة القياس قالوا : العمل بالقياس متابعة لغير ما أنزل الله فوجب أن لايجوز .

وأجاب مثبتوا القياس وأنّ القياس يكون حجّة بأنّ قوله تعالى : « فاعتبروا يا أُولي الأبصار »(١) لمّا دلّ على العمل بالقياس كان العمل بالقياس عملاً بما أنزل الله .

أقول : إنّ هذه الدّلالة غير معلومة و لعلّ المراد بالعبرة اُصول الدين لا في اُصول الفقه .

ثمّ أجاب مثبتوا القياس بأنّ كون القياس حجّة بإجماع الصّحابة قد ثبت بعموم قوله تعالى : «ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى»(٢) وعموم قوله : «وكذلك جعلناكم اُمّة وسطاً»(٣) وعموم قوله : «كنتم خير اُمّة اُخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»(٤) وبعموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لاتجتمع اُمّتي على الخطاء» .

والجواب عن هذا الكلام : أنّه أليس الأخبار يكون من الاُمّة ؟ و مطلق القياس كيف يحكم عليه بأنّه حجّة ؟ نعم إذا دلّ دليل على أنّ في ذلك القياس و الإجماع نصّاً من المعصوم أو رضاءً منه على سبيل التحقيق فذلك حجّة ولاتصحّ حجيّة القياس إلّا بعد العلم بعمل المعصوم به فإذن ثبت حجّيته بعمل المعصوم وهو النصّ لا بمثل هذا الإجماع ، وكلّ قياس وافق النصّ حجّة وغيره فاسد .

رجعنا إلى التفسير :

قل لهم يا محمد : اتّبعوا القرآن ولاتتّبعوا غيره أولياء تطيعونهم في الاُمور الدينيّة يامعشر المشركين ما أقلّ تذكّركم واتّعاظكم ؟ ! والمراد : تذكّروا كثيراً ما يلزمكم من أمر دينكم .

---

(١) الحشر : ٢ . (٢) النساء : ١١٥ .

(٣) البقرة : ١٣٧ . (٤) آل عمران : ١٠٦ .

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أوهم قائلون (٤) فما كان دعويهم اذجاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين (٥) .

لمّا أمر الرسول بالإنذار وأمر القوم بالقبول ذكر في هذه الآية الوعيد في ترك المتابعة .

« كم » رفع بالابتداء و خبره « أهلكناها » و هو أحسن من أن يكون في موضع نصب ؛ لأنّ قولك : «زيد ضربته » أجود من قولك : «زيداً ضربته» ولو أنّ النّصب صحيح (١) .

والمعنى : وكم من أهل قرية أهلكناها ، ويمكن المراد نفس القرية بخسف وهدم لكنّ التقدير أحسن أي حكمنا بالهلاك و إلّا لايحصل الهلاك قبل البأس ، بل الهلاك بعد مجيء البأس ويمكن أن يكون البأس و الهلاك دفعة واحدة كما تقول : أعطيت فأحسنت وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله و إنّما و قعامعاً فإذن « الفاء » فاء المفسّر لاللتعقيب و« كم» كلمة موضوعة للتكثير كما أنّ «ربّ» موضوعة للتّقليل لأنّ « كم »اسم و «ربّ» حرف .

[فجاءها] أي جاء العذاب أهل القرية [بياتاً] بالّليل ، [أوهم قائلون]و مستريحون في نصف النّهار ومن هذه المادّة الإقالة في البيع لأنّهما يستريحان عن الخصومة بالإقالة ؛ فكأنّه قيل للكفّار : لا تغرّوا بالأمن و الرّاحة فإنّ عذاب الله إذا وقع وقع دفعة واحدة من غير أمارة ، فإذن ماكان قولهم بعد نزول العذاب إلّا : [إنّا كنّا ظالمين] وماينفع القول والنّدم .

فلنسألن الذين ارسل اليهم و لنسألن المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وماكنا غائبين (٧) .

لمّا بيّن أنّ قولهم لمّا أتاهم العذاب اعترافهم بقولهم : «إنّا كنّا ظالمين» بيّن في هذه الآية أنّه لايقتصر منهم بمجرّد الاعتراف بل يسأل الكلّ عن كيفيّة أعمالهم ، ويبيّن

---

(١) لان ترك التقدير اولى من التقدير ولعدم وجود موجب النصب و مرجحه . و هذا هو الصورة الخامسة من صور اشتغال العامل ، و التفصيل فى محله .

أنّ السؤال لايختص بأهل العقاب بل هو عامّ في أهل الثواب و العقاب من الأمّة و من الرّسل .

فإن قيل : ما الفائدة في السؤال بعد اعترافهم ؟

الجواب أنّهم بعد الاعتراف بالظّلم يسأل عنهم عن سبب الظلم لأجل التوبيخ كأنّ السؤال من الرّسل بيان أنّهم إذا أثبتوا الإطاعة والتبليغ التحق التقصير بالكلّيّة إلى الأمّة فيضاعف الإكرام للرّسل والخزي للكفّار .

[فلنقصّنّ] ما أسرّوه و ما أعلنوه من أعمالهم ، و فيها دلالة على أنّ الله عالم بالجزئيّات [وماكنّاغائبين] عنهم وعن أفعالهم . ولعلّ أن يكون السؤال عن الدّواعي وإلّا كتبهم مشتملة على أعمالهم .

وفي الآية دلالة على أنّه يحاسب كلّ عباده لأنّهم لا يخرجون من أن يكونوا رسلاً أومرسلاً إليهم ، ويبطل قول من زعم أنّه لاحساب على الأنبياء والكفّار .

فإن قيل : إنّ آيات تدلّ على السؤال كهذه و آيات تدلّ على عدم السؤال كقوله : «فيومئذلايسأل عن ذنبه إنس ولاجانّ»(١) وقوله : «وقفوهم إنّهم مسؤولون»(٢)

الجواب أنّ مواقف القيامة كثيرة فموقف لا يسأل و يعطّل لصدور الحكم و موقف يسأل .

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون (٨) و من خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم بماكانوا بآياتنايظلمون(٩).

لمّا ذكرأحوال القيامة من السؤال والحساب ذكر في هذه الآية بعض كيفيّات القيامة ؛ منها الميزان لوزن الأعمال .

الوزن مبتدأ و الحقّ خبره ، ويجوز أن يكون يومئذ خبره والحقّ صفة له .

وفي وزن الأعمال قولان :

الأوّل أنّه ينصب ميزان له لسان و كفّتان يوزن به أعمال العباد من الخير و

(١) الصافات : ٢٤ .

(٢) الرحمن : ٣٩ .

الشرّ. قال ابن عبّاس : أمّا المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فتوزن فتثقل حسناته على سيّئاته فذلك ، قوله : «فمن ثقلت موازينه فاُولئك هم المفلحون» وأمّا أعمال الكافر فتؤتى بصورة قبيحة فتوزن تلك الصورة .

والقول الثاني أنّ صحائف الخلق توزن و الميزان تنصب بين الجنّ و الأنس فيستقبل به العرش ، إحدى كفتيّ الميزان على الجنّة و الاُخرى على جهنّم ولو وضعت السماوات والأرض في إحداهما لوسعتهنّ ، وجبرئيل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه . و عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله : يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان ويؤتي له بتسعة و تسعين سجلاً . كلّ سجلّ منها مدّ البصر فيها خطاياه ثمّ يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله يوضع في الاُخرى فترجّح .

و قال بعض المفسّرين : المراد بالوزن العدل و القضاء ، يقال : هذا الكلام في وزن ذلك الكلام أي معادل ذلك الكلام ، و في الاحتجاج عن الصادق عليه السلام : أنّه سئل أو ليس توزن الأعمال ؟ قال : لا لأنّ الأعمال ليست أجساماً و إنّما هي صفة ما عملوا وإنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء و وزنها ولا يعرف ثقلها و خفّتها ، وأنّ الله لا يخفى عليه خافية فقيل له : فما معنى الميزان ؟ قال : العدل ، قيل : فما معنى : «فمن ثقلت موازينه» ؟ قال : فمن رجّح عمله . وإذا حملنا الآية على ظاهرها فلا يبعد أن يكون موازين كما قال : «و نضع الموازين القسط ليوم القيامة [1]» .

و قوله : [ومن خفّت موازينه] فيها مسائل :

الاُولى أنّها تدلّ على أنّ أهل القيامة فريقان و أمّا القسم الثالث وهو الّذي تكون حسناته وسيّئاته متساوية ؛ فإنّه غير مذكور في الآية .

والمرجئة تمسّكوا بهذه الآية وقالوا : الّذين خسروا أنفسهم وخفّت موازينهم الظالمون بآيات الله وهم الكافرون لأنّه حصر أهل الموقف في قسمين : أحدهما الّذين رجّحت حسناتهم وحكم عليهم بالفلاح ، والثاني الّذين رجّحت سيّئاتهم و حكم عليهم بأنّهم

---

(١) الانبياء : ٤٨ .

أهل الكفر الّذين كانوا يظلمون بآيات الله ، و ذلك يدلّ على أنّ المؤمن لا يضرّه المعصية .

والجواب أنّه أقصى ما في الباب أنّه تعالى لم يذكر هذا القسم الثالث في هذه الآية إلّا أنّه ذكره في سائر الآيات فقال : «ويغفر مادون ذلك لمن يشاء»[1] والمنطوق راجح على المفهوم ؛ فوجب المصير إلى إثباته.

على أنّ كتب الأخبار مشحونة بعذاب العاصي إن لم يتب ؛ حتّى في بعض الروايات قال صلى الله عليه وآله وسلم : و إنّ من اُمّتي لاتناله شفاعتي إلّا بعد سبعين ألف سنة . وليس بمعلوم أنّها من سني الدّنيا أم من سني الآخرة . و المقطوع أنّ هذا الخبر لغير الكافر وإلّا فالكافر مؤبّد بالنصّ والإجماع .

المسألة الثانية : قال أكثر المفسّرين : المراد من قوله : «ومن خفّت موازينه» الكافر ، والدّليل عليه القرآن والخبر ؛

أمّا القرآن فقوله : [فاُولئك الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون] ولا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلّا كونه كافراً بها ، فدلّ هذا على أنّ المراد من هذه الآية أهل الكفر .

وأمّا الخبر فقد ذكر قبل هذا ، حيث إنّه يخرج له قرطاس إلى آخر الحديث وحديث آخر رواه الواحديّ في البسيط أنّه إذا خفّت حسنات المؤمن أخرج رسول الله من حجرته نطاقة كالأنملة فيلقاها في كفّة الميزان الّتي فيها حسناته فترجّح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : بأبي أنت واُمّي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول صلى الله عليه وآله وسلم : أنا نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وهذه صلاتك الّتي كنت تصلّي عليّ قد وفّيتك حين أحوج مايكون إليها . أقول : و لكن بشرطها ، و الشرط الأعظم أن لا تخالف في شريعته و دينه حتّى تقبل الصلاة ولايكون لقلقة اللسان .

ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيهامعايش قليلاماتشكرون(١٠) .

لمّا بيّن في آيات الوعيد وبيان السؤال عن الأعمال شرع و أمر بشكره بتعداد

نعمه لأنّ بيان النعمة يوجب الشكر للمنعم ؛ فقال :

[ولقد مكّنّاكم] أي جعلنا لكم في الأرض مكاناً و قراراً ، و أقدرناكم على التصرّف فيها و جعلنا لكم فيها وجوه المنافع ، و هي على قسمين : منها مايحصل بخلق الله ابتداءً مثل خلق الكلاء و الثمار ، و منها ما يحصل بالاكتساب ، و كلاهما في الحقيقة يرجع بفضله و إقداره على المقدور ، و هذاالخلق و التسبيب يكون موجباً للشّكر .

و مع ذلك [قليلاً ماتشكرون] و « ما » زائدة أومصدريّة أي يشكرون قليلاً و « الياء » في «معايش» لاتقلب همزة ، لأنّ الياء أصليّة وغير الأصليّ تبدلّ همزة نحو صحائف .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين (١١) .

النظم : لمّا بيّن بعض نعمه في الآية السابقة بيّن بعضاً آخر : وهي أنّه خلق أبانا آدم و جعله مسجوداً للملائكة ، و الإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن ؛

[ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم] أي خلقنا وصوّرنا أصلكم وأباكم ؛ لأنّه من المعلوم أنّ الأمر بالسجود وقع قبل خلقنا ، و كلمة « ثمّ » للتراخي ؛ فالمراد من الخلق تقديره لإحداث هذه الصورة ، و التصوير إثباتها في اللوح المحفوظ أوالمراد خلق عالم الذرّ ، وبالجملة فبعد الخلق والتصوير أمر الملائكة بالسجود له .

و في هذه السجدة ثلاثة أقوال : أحدها أنّ المرادبالسجدة مجرّد التعظيم لانفس السجدة . وثانيهاأنّ المراد هوالسجدة إلّا أنّ المسجودله هوالله فآدم ﷺ كالقبلة . وثالثها أنّ المسجود له هو آدم .

ثمّ إنّهم اختلفوا في أنّ الملائكة الّذين اُمروا بالسجود جميع الملائكة أم ملائكة الأرض فقط ؛

وبالجملة [فسجدوا إلّا إبليس] واختلفوا في أنّ إبليس هل كان من الملائكة أم من

الجنّ ؟ وظاهر الاستثناء يدلّ على أنّه من الملائكة ، قال الحسن البصريّ : إنّه من الجنّ لأنّه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور ، و الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يعصون الله وليس إبليس كذلك وقد عصى فاستكبر ، ثمّ إنّ الملائكة رسل الله والرسول لا يخون ولا يخالف وإبليس خان ، و هو أوّل خليقة الجنّ وأصلهم و أبوهم [1] كما أنّ أبا البشر آدم أوّل خليقة الإنس ، و أمّا الاستثناء فلأنّه لمّا كان إبليس داخلاً في الملائكة و مأموراً بالسجود مع الملائكة لخلطته مع الملائكة استثناه الله . وكان اسم إبليس عزازيل ؛ فلمّا عصى الله سمّاه بذلك فأهبط إلى الأرض .

قال مامنعك الا تسجد اذا امرتك قال انا خيرمنه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فمايكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين (١٣) .

ظاهر الآية يقتضي أنّه تعالى طلب منه ما منعه من ترك السجود و ليس الأمر كذلك ، و إنّما المقصود السؤال عمّا منعه عن السجود ، و لهذا الإشكال حصل في الآية قولان :

الأوّل وهو المشهور أنّ كلمة « لا » صلة زائدة و التقدير : مامنعك أن تسجد وله نظائر كثيرة في القرآن كقوله : « لا أقسم بيوم القيامة » و كقوله : « و حرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون » [2] أي يرجعون ، وكقوله : « لئلّا يعلم أهل الكتاب » أي ليعلم أهل الكتاب .

و القول الثاني أنّ كلمة « لا » مفيدة و ليست لغواً ، قال القاضي عبدالجبّار : ذكر المنع و أراد الداعي ؛ فكأنّه قال : مادعاك إلى أن لا تسجد ؟ لأنّ مخالفة الله حالة عظيمة يتعجّب منها ويسأل عن الداعي إليها .

و احتجّ العلماء بهذه الآية على أنّ الأمر يفيد الوجوب ؛ فقالوا : إنّه ذمّ

---

(١) و هذا ينافى مامر عن ابن عباس فى ص ٢٦١ من ان الملائكة كلهم فى الجنة و الشياطين فى النار و الجن و الانس بعضهم فى الجنة و بعضهم فى النار .

(٢) الانبياء : ٩٥ .

إبليس على ترك ما أمر به ولو لم يفد الوجوب لما كان مجرّد ترك المامور به موجباً للذمّ .

فإن قيل : هب إنّ هذه الآية يدلّ على أنّ ذلك الأمر يفيد الوجوب ، فلعلّ تلك الصيغة في ذلك الأمر كانت يفيد الوجوب فمن أين يجب أن يكون جميع الصيغ كذلك ؟ قلنا : قوله تعالى : [ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك] يدلّ على تعليل ذلك الذمّ بمجرّد ترك الأمر ؛ لأنّ قوله : «إذ أمرتك» مذكور في معرض التعليل ، و المذكور في قوله : « إذ أمرتك » هو الأمر من حيث إنّه أمر لا كونه أمراً مخصوصاً في صورة مخصوصة ، و إذا كان كذلك وجب أن يكون ترك الأمر من حيث هو أمر موجباً للذمّ ، و ذلك يفيد أنّ كلّ أمر فإنّه يقتضي الوجوب فالموارد المحمولة على الإباحة و الاستحباب بدليل منفصل ، و هو المطلوب .

و كذلك احتجّ من قال : إنّ الأمر يفيد الفور بهذه الآية ، وقال : إنّه تعالى ذمّ إبليس على ترك السجود في الحال و لو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذمّ ترك السجود في الحال .

قال : [أنا خير منه] أي أجاب اللعين إنّما لم أسجد لآدم لأنّه خلق من طين وخلقت من نار والنار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل ومن الأدون أدون ، والنار مشرق علويّ لطيف خفيف يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها ، والطين مظلم سفليّ كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات ، ثمّ النار قويّة التاثير والفعل ، و الأرض ليس لها إلّا الانفعال و القبول ، و الفعل أشرف من الانفعال ، و أيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزيّة ، و هي مادّة الحياة ، و أمّا الأرضيّة فالبرد واليبس فهما مناسبان للموت ، والحياة أشرف من الموت ، و نضج الثمار و نماء الثمار متعلّق بوقت كمال الحرارة ، ووقت الذبول و الفناء و الشيخوخيّة وقت البرد وانتفاء الحرارة الغريزيّة باليبس المناسب للأرضيّة ، وشرف الأصول يوجب شرف الفروع .

وقد قاس اللعين بهذه الأقيسة الفاسدة ؛ لأنّه لا ملازمة بين فضيلة المادّة وفضيلة الصورة ، و قد يكون المادّة فاضلة و الصورة قبيحة وإنّ أصل البول الماء ، والفضيلة عطيّة من الله يخرج الكافر من المؤمن ، والنور من الظلمة والظلمة من النور ، والفضل إنّما يكون بالأعمال لا بسبب المواد ألا ترى أنّ الحبشيّ المطيع أفضل من القرشيّ العاصي ؟ .

ثمّ احتجّ من قال : إنّه لا يجوز تخصيص عموم النصّ بالقياس بهذه الآية ؛ لأنّ إبليس أخرج نفسه من هذا الحكم العامّ للسجود بالقياس ولامعنى للقياس إلّا ذلك ، فلوكان تخصيص النصّ بالقياس جائزاً لما استحقّ الذمّ حيث قال له : [اهبط منها] و وقد نقل الواحديّ في البسيط عن ابن عبّاس أنّه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربّه وهو أوّل من قاس فكفر بقياسه ؛ فمن قاس الدّين برأيه قرنه الله بإبليس ، انتهى كلام ابن عبّاس .

وهذا الخطاب مع إبليس إمّا بواسطة الملائكة أو بلا واسطة على سبيل الإهانة فاهبط منها .

قال ابن عبّاس : من جنّة عدن و فيها خلق آدم لا جنّة الخلد و قيل : من السماء ؛ لأنّ أهل السماء ملائكة يتواضعون لأمر الله وهو تكبّر وخالف فأهانه الله بالذلّة والصغار .

قال أنظرني الى يوم يبعثون (١٤) قال انك من المنظرين (١٥) قال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين (١٧) .

المعنى : فطلب اللعين الإنظار من الله إلى وقت البعث و هو النفخة الثانية ، و مقصود اللعين أن لا يذوق الموت فلم يعطه الله ذلك بل [قال إنّك من المنظرين] فههنا قولان :

الأوّل أنظره إلى النفخة الاُولى ، لأنّه سبحانه قال في آية اُخرى : «فإنّك من المنظرين ۞ إلى يوم الوقت المعلوم »[1] والمراد منه اليوم الّذي يموت فيه الأحياء كلّهم .

وقال آخرون : لم يوقّت الله له أجلاً بل قال له : « إنّك من المنظرين » وقوله : « إلى يوم الوقت المعلوم » أي المعلوم في علم الله ، و الدليل على ذلك أنّ إبليس كان مكلّفاً ، و المكلّف لايجوز أن يعلم وقت أجله لأنّه يعلم ذلك المكلّف أنّه متى تاب قبلت توبته ، فإذا علم وقت موته هو الوقت الفلانيّ أقدم على المعاصي بقلب فارغ فإذا قرب

(١) الحجر : ٣٧ - ٣٨ ، ص : ٨١ - ٨٢

موته تاب فينحل النظام ؛ فتعين الوقت يجري مجرى الإغراء بالقبيح و ذلك غير جائز على الله .

ثم نسب اللعين الإغواء إلى الله فقال : [فبما أغويتني] مع أن اللعين هو تسبب الغواية حيث تكبر عن السجود فصار إمام الجبرية و رئيسهم . و قيل : الغواية معناه الإهلاك .

ثم قال اللعين : بسبب أنك لعنتني و طردتني وخيبتني من جنتك لأقعدن لهم و أمنعهم عن السلوك إلى الجنة ، و أعوجهم عن الاستقامة في الدين بأن أزين لهم الباطل و أسعى في إغوائهم و أواظب على الإفساد ، ولا أفتر عن إفسادي إياهم ، و لهذا المعنى عبر اللعين بالقعود لأن القاعد في أمر أفرغ باله و جهده في إتيان أمره و قصده ، و هذه الآية تدل على أنه كان عالماً بدين الحق والصراط المستقيم ؛ فكفره كفر عناد و جحود وهو أعظم أنواع الكفر .

فلو قيل : إن إنظار إبليس هذه المدة الطويلة اقتضى حصول المفاسد العظيمة ثم بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق و علم من حال إبليس أنه لا يدعوا إلا إلى الكفر والضلال فأمات الأنبياء وأبقى إبليس .

فالجواب أن إبقاء إبليس و أثره في الإضلال ليس بطريق الإجبار ولا يقول عاقل : إن إبليس أجبر أحداً على الكفر بحيث لا يتمكن عن قبول الإيمان ، فلو كان الأمر كذلك لكان للقائل بهذا القول حجة و ليس إنظاره بأكثر من خلق الشهوة في النفس فهو كهي فكما أن الشهوة لا تحملكم بالإجبار على الزنا فكذلك إمهال الشيطان ، كما يقول اللعين لكم يوم القيامة : « إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي »(١) فثبت أن إطاعتك إياه موجب لكفرك لا إمها له ، ولو نقلت الكلام إلى الشهوة فأنت إذا تقول : لم كلفنا الله بالتكليف ؟ لأن التكليف لابد وأن يقع بين أمرين : من قبول ورد ، ولو كان من طرف وأمر واحد لكان إجباراً وليس بتكليف ؛ لأن التكليف لا يتحقق ماهيته إلا إذا كان المكلف متمكناً من الرد والقبول .

---

(١) ابراهيم : ٢٧ .

ثمّ إنّه إذا أمات الأنبياء الّذين كانوا أسباب الهداية مانقص من أسباب الهداية لكم شيئاً بسبب إبقاء كتابه فيكم و أنّ نبيّه بيّن لكم الحقّ بقوله ، و قوله في كتابه باق لكم ؛ فأيّ عذرلكم في ترك قول النبيّ و إطاعة الشيطان ؟ و جعل قوّة القبول و الردّ فيكم متساوية لأنّه مهما ترصّد لكم الشيطان بغوايته و إضلاله فقد ترصّد لكم العقل بهدايته فتساوت القوّتان فلمَ تركت هذه و أدركت هذه ؟ و لله الحجّة البالغة والحمد له .

رجع إلى التفسير :

[ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم] أي الدنيا [ومن خلفهم] أي الآخرة أي أُوسوس لهم بالتكذيب للبعث و القيامة [وعن أيمانهم] في الصرف عن الحقّ [وعن شمائلهم] في الترغيب إلى الباطل و أفترهم عن فعل الحسنات ،أي اُحيط بهم من الجهات في إغوائهم .

روي أنّه لمّا قال الشيطان هذا الكلام رقت قلوب الملائكة للبشر فقالوا : يا إلهنا كيف يتخلّص الإنسان من هذه العدوّ المستولي عليه من هذه الجهات الأربع ؟ فأوحى الله إليهم : أنّه قدبقي للإنسان جهتان : الفوق و التحت ؛ فإذا رفع يديه إلى السماء في الدعاء أو وضع جبينه على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة .

ثمّ هنا نكتة : و هي أنّه تعالى ذكر الجهتين الأُوليين بمن و الأُخريين بعن ولابدّ من الفرق بينهما وهو أنّه إذا قال:جلس عن يمينه معناه أنّه جلس متجافياً عن صاحب اليمين غيرملتصق به ؛ قال الله : «عن اليمين والشمال قعيد[1]»فبيّن سبحانه أنّه حضر على هاتين الجهتين ملكان ولم يحضر في القدّام والخلف ملكان و الشيطان يتباعد من الملك فلهذا خصّ اليمين والشمال بكلمة «عن» لأجل أفادته البعد عن الملك ، أوالمراد أنّ اللعين يأتي من الجهات الأربع كما هو شأن العدوّ .

(١) ق : ١٦ .

قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لاملئن جهنم منكم أجمعين (١٨) .

«الذءم» أشدّ العيب . و«الدحر» أشدّ الهوان . و«اللام» في قوله : «لمن تبعك» لام الابتداء . واللاّم في قوله «لأملأنّ» لام القسم .

لمّا وعد إبليس بالإفساد خاطبه الله على طريق الزجر : اخرج من الجنّة أو من السماء محقوراً مطروداً ، وقيل : « اللام » في قوله «لمن تبعك » لام القسم ، والجواب لأملأنّ وقرء « لمن تبعك » بكسر اللاّم بمعنى لمن تبعك منهم هذا الوعيد أملؤ جهنّم من التابع والمتبوع .

ثمّ إنّ الكافر تبعه فكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النار ، وهذا قول المعتزلة .

وأجاب بعض أنّ المذكور في الآية أنّه تعالى يملؤ جهنّم ممّن تبعه ، وليس في الآية أنّ كلّ من تبعه فإنّه يدخل جهنّم .

ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (١٩) .

قوله : [ويا آدم] عطف على قوله «قال» أي قال الله لآدم : [اسكن] ـ من السكنى لا من السكون ـ أنت وحوّا أي اسكنى أنت وكلا من أين شئتما وماشئتما [ولاتقربا هذه الشجرة] وتفصيل الشجرة ذكر في سورة البقرة . وإن أكلتما منها فتكونا من الباخسين والمتضرّرين بهذا الأكل .

وفي هذه الآية عشر مسائل ليس هنا موضع ذكره ، وقد مضى في سورة البقرة شرحها ، ومجملها أنّ «اسكن» أمر تعبّد أو إباحة من حيث إنّه لامشقّة فيه فلا يتعلّق به التكليف .

الثاني : كيفيّة خلق حوّاء .

الثالث أنّ تلك الجنّة هل جنّة الخلد أو من جنان الدنيا أو من جنان السماء ؟

والرابع : أمر « كلا» أمر إباحة لا أمر تكليف .

الخامس : «لاتقربا» نهي تحريم أو نهي تنزيه ؟

السادس : هذه الشجرة شخصيّة أو نوعيّة ؟

السابع : أيّ شجرة كانت ؟ .

الثامن أنّ ذلك الذنب صغير أم كبير أو ترك أولى ؟ .

التاسع : ماالمراد من قوله : « فتكونا من الظالمين » وهل يلزم من هذا التقريب إلى الشجرة الدخول تحت قوله : « ألا لعنة الله على الظالمين » [1] و حاشا أن يكونا كذلك ؟

العاشر أنّ هذه الواقعة قبل النبوّة أو بعد النبوّة ؟ و تفصيل المسائل من أراده فليراجع في سورة البقرة .

فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (٢٠) وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين (٢١) فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و ناديهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين (٢٢) .

المعنى : وسوس إذا تكلّم بكلام خفيّ يكرّره وبه سمّي صوت الحلي وسواساً والفرق بين «وسوس له» و «وسوس إليه» أنّ « إليه » معناه ألقى إلى قلبه المعنى بصوت خفيّ و«له» معناه أوهم النصيحة في ذلك الكلام الخفيّ فوسوس لآدم و حوّاء ليظهر لهما ما ستر عنهما ممّا يكون أن يستتر أي العورة ، علماً منه اللعين أنّ من أكل من هذه الشجرة لابدّ أن تبدي عورته ، ومن بدت عورته لايترك في الجنّة فاحتال لهما بهذا الطريق في إخراجهم عن الجنّة .

وفي كيفيّة الوصول إليهما أقوال لأنّ آدم كان في الجنّة وإبليس قد أخرج منها .

قيل : كان يوسوس من الأرض إلى الجنّة بالفوقيّة المجعولة في تلك الطبيعة الناريّة .

---

(١) هود : ٢١ .

وقال أبومسلم : بل كان آدم وإبليس في الجنّة وإنّها كانت بعض جنّات الأرض والّذي يقوله الناس من أنّ إبليس دخل في جوف الحيّة هذه قصّة ركيكة مشهورة .

وقال آخرون : إنّ آدم وحوّاء ربّما قربا باب الجنّة ويأتي إبليس من خارج الجنّة على بابها وحصلت الوسوسة هناك .

و «اللّام» في قوله «ليبدي» لام العاقبة ولا يبعد أنّ اللّام لام الغرض لسقوط الحرمة وزوال نعمتهما عبادة لهما ، أو لعلّه راى اللعين في اللوح أو سمع من الملائكة أنّ لازم الأكل خروج عن الجنّة قال لهما : إنّما نها كما الله عن أكل هذه الشجرة كراهة أن تكونا ملكين و كراهة الخلود ، فإن أكلتما صرتما من الملائكة و مخلّدين في الجنّة وقرء «ملكين» بكسر اللام والمراد جهة الملك لا الملكوت .

ويدلّ على هذا المعنى قوله : «هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (١) و حلف لهما أنّي لكما من الناصحين و إنّما قاسمهما لأنّهما قبلا قسمه ظنّاً منهما أنّه لايقسم بالله أحد بالكذب .

ثمّ إنّ اللعين قال لهما : إنّي خلقت قبلكما وأعلم اُموراً كثيرة لاتعرفونها [فدلّاهما بغرور] وأطمعهما و أصله أنّ الرجل العطشان تدلّى الدلو أو رجليه في البئر ليأخذ منها الماء فاستعملت التدلية موضع الطمع فيما لافائدة فيه فقال : « دلاّ » أي أطمعه فلمّا قبلا يمينه وذاقا ظهرت عوراتهما و نزع عنهما لباسهما و كان من النور فشرعا يجعلان ورقة على ورقة كالمرقع للنّعل ويقال للمرقع خصاف .

وناداهما الله ألم أنهكما عن تلك الشجرة ؟

قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٢٣) .

قال بعض علماء العامّة : إنّ الآية إذا دلّت على صدور الذنب منه فذلك قبل النبوّة فالإيراد مدفوع ، لكنّ القول الصحيح أنّه من قبيل «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» ومحمول على ترك الأولى .

قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر و متاع الى حين (٢٤) قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون (٢٥) .

---

(١) طه : ١١٨ .

قيل : الخطاب للثلاثة ، وقيل : لهما [اهبطوا] من محلّكم الرفيع وحصلت العداوة بينكما و بين إبليس والأصحّ أنّ خطاب الهبوط لآدم وحوّاء وذريّتهما ؛ لأنّ إبليس قبل ذلك كان مخرجاً عن الجنّة . وجملة «اهبطوا» حاليّة . ولكم في الأرض استقرار و تمتّع إلى حين انقطاع آجالكم و إعادة قول «قال» للاستيناف إيذاناً بعدم اتّصال ما بعده بما قبله ، و التوجّه بما بعده .

قال : [فيها] أي في الأرض تعيشون [وفيها تموتون] و من الأرض [تخرجون] للجزاء .

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (٢٦) .

النظم : قيل : إنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت بعضهم عراة و يقولون : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها ، قيل : مرادهم أبوهم آدم أيضاً فأنزل الله الآية ، ولمّا أهبط الله آدم ، وجعل لهم الأرض مستقرّاً بيّن لهم أنّه أنزلنا ما يحتاجون إليه و الأحوج يواري العورة أوّلاً ، ومعنى الإنزال مايحصل به اللباس من السماء و هو الماء الّذي مادّة كلّ شيء ، كقوله : «وأنزلنا الحديد»[١] و كقوله : «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج »[٢].

ومنّ على بني آدم بثلاثة أقسام من اللباس ؛ قسم ليستروا به عورتهم ، وقسم للزينة و القسم الثالث لباس التقوى ، أمّا الأوّل فقال : [يواري سوآتكم] وأمّا الزينة فقال : [وريشاً] استعير من ريش الطير لأنّ الريش للطير زينة ولولاه لكان مستقبحاً ، و قرء «ورياشاً» والقسم الثالث خير منهما لأنّ به يستفذّك كلّ حسن وجميل والمؤمن غير بادي العورة وإن كان عارياً ، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً وأضيف اللباس إلى التقوى لأنّ به يتجمّل عند الله و كما أضيف إلى الجوع في قوله : فأذاقها لباس الجوع والخوف[٣]

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) الزمر : ٨ .

(٣) النحل : ١١٣ .

يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يريكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لايؤمنون (٢٧) .

اعلم أنّ المقصود من ذكر قصص الأنبياء حصول العبرة ، ولمّا ذكر قصّة آدم وعداوة إبليس إيّاه أتبعها لتحذير أولاده من قبول وسوسته ؛ فقال : [لايفتننّكم] كما افتنّ أبويكم فإذا افتنّكم يدخلكم النار [ينزع عنهما] جملة حاليّة و « اللام » في [ليريهما] لام العاقبه . وفي «اللباس» قيل : المراد لباس التقوى و قيل : لباس الجنّة ولباس النور .

ثمّ حذّر سبحانه أنّ الشيطان يراكم هو وقبيله ، وتكرير الضمير بقوله «هو» ليحسن العطف كما في قوله : «اسكن أنت وزوجك الجنّة» « القبيل » الجماعة أي أصحابه ونسله وقوله : «يراكم» يتناول أوقات المستقبل . وقدرتهم على البشر بطريق الوسوسة لاغير .

قال بعض العلماء : ولو قدرالجنّ على تغييرصورهم بأيّ صورة شاؤوا لوجب أن يرتفع الثقة عن معرفة الناس ؛ فلعلّ هذا الّذي اُشاهده وأحكم عليه بأنّه ولدي أو زوجتي شيطان صوّرنفسه بصورة ولدي، كذلك لوكانوا قادرين على تخبيط الناس ، و إزالة العقل عنهم والتصرّف فيهم كيف شاؤوامع عداوتهم على نوع البشر خصوصاً في حقّ بعض الطبقات من الزهّاد و العلماء ، و لمّا لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنّه لاقدرة لهم على البشر إلّا بطريق الوسوسة لاغير، وقد قابلها العقل ، وهذا الطريق ليس بشيء من القدرة .

واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالاتعلمون (٢٨) .

قيل في بيان الآية : إنّ الحمس[1] وهم طائفة من المشركين يطوفون البيت وهم

(١) بضم الحاء قبائل من العرب قد تشددت فى دينها فكانت لاتستظل ايام منى ، و لا تدخل البيوت من ابوابها ، وهى قريش و كنانة و من دان بدينهم من بنى عامر بن صعصعة . و قيل : هم قوم آخرون .

عراة و يعبدون الأصنام و يقولون : نعبد إلهنا و نطوف عراة كما و لدتنا أمّنا ، و لا نطوف بثياب قارفنا فيها الذنوب .

قال الفرّاء : كانوا يعملون شيئاً من السيور[1] يشدّ و نها على حقويهم و إن عمل من صوف يسمّى رهطاً و كانت المرأة تضع على قبلها النسعة مع عدم كونه صوفاً فيقول :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه ☆ وما بدا منه فلا أحلّه

يعني الفرج لأنّ ذلك لا يستر ستراً تامّاً فنهاهم الله عن هذا الفعل و هذه الفاحشة ، و حجّتهم بإتيان هذه العادة الملعونة أنّه إنّا وجدنا آباءنا يفعلون هذا العمل زعماً أنّ هذا دليلهم .

ثمّ أتوا بدليل آخر بزعمهم حيث قالوا : [إنّ الله أمرنا بها] فردّ الله عليهم بأنّ الله لا يأمر بالسوء و الفحشاء ، فهل سمعتم منه تعالى بلا واسطة أو عرفتم ذلك بطريق الوحي إلى الأنبياء ؟ أمّا الأوّل فبديهيّ البطلان و أمّا الثاني فباطل أيضاً ؛ لأنّكم تنكرون نبوّة الأنبياء على الإطلاق ، فإذن لا طريق لكم على العلم بهذا الأمر ؛ فكيف تقولون على الله مالا تعلمون ؟

و احتجّ نفاة القياس بهذه الآية ، و قالوا : الحكم المثبت بالقياس مظنون وغير معلوم و مالا يكون معلوماً لم يجز القول به لأنّه تعالى قال في معرض الذمّ : «أتقولون على الله مالا تعلمون» ؟

قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدءكم تعودن (٢٩) فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون (٣٠) .

لمّا بيّن الله أنّه لم يأمر بالفحشاء أمر في هذه الآية بالعدل والقسط ، قال ابن عبّاس : هو قول « لا إله إلّا الله » هذا أمر بثلاثة أشياء : شهادة الله بالفرديّة و هو حقيقة القسط ، والثاني معرفة الله في أفعاله وصفاته وأحكامه ، ثمّ أمر بأهمّ العبادات و هو

---

(١) السيور جمع السير و هو قطعة من جلد مستطيلة . ويقرب منه النسعة - بالكسر - فانها حبل يشد به الرحال .

قوله : [و أقيموا وجوهكم] أي و قل لهم : بأن تقيموا الصلاة ، و قدّر : قل لهم أقيموا لأنّ عطف الإنشاء على الخبر لا يجوز ، (١) والمراد من «أقيموا» استقبال القبلة .

ثمّ قال : [عند كلّ مسجد] و المراد زمان الصلاة أو مكان الصلاة ، و الأوّل أولى ، قال ابن عبّاس : المراد إذا حضرت أوقات الصلاة وأنتم عند مسجد فصلّوا فيه ولا يقولنّ أحدكم لا اُصلّي إلّا في مسجد قومي كما كانوا يقولون ، ثمّ أمر بالدعاء على سبيل الخلوص والتقرّب ، والمراد بالدعاء الصلاة ؛ لأنّ الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء ولأنّ أشرف أجزاء الصلاة الدعاء والذكر .

ثمّ قال : [كما بدأكم تعودون] أي كما كنتم تبعثون مؤمناً أو كافراً تعودون ، وقيل : معناه : كما بدأكم ولم تكونوا شيئاً كذلك تعودون أحياءً .

و يؤيّد هذا المعنى أنّه ذكر عقيبه : [فريقاً هدى و فريقاً حقّ عليهم الضلالة] والمراد من الفريقين : فريقاً هدى إلى الجنّة بسبب قبوله الإيمان و فريقاً حقّ عليهم العذاب بقبولهم الكفر ؛ فيحكم على الفريقين ما يستحقّون ، و انتصاب «فريقا» بفعل محذوف يفسّره ما بعده كأنّه قال : « هدى فريقاً وخذل فريقاً » .

ثمّ بيّن الّذي لأجله حقّت على هذه الفرقة الضلالة وهو [أنّهم اتّخذوا الشياطين أولياء من دون الله] فقبلوا دعواهم و لم يقبلوا الحقّ من الله ومع ذلك يزعمون أنّهم باتّخاذ الشياطين أولياء مهتدون .

يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و كلوا و اشربو و لاتسرفوا انه لايحب المسرفين (٣١) قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحيوة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون (٣٢) .

النظم : كانت القريش إذا و صلوا إلى معبدهم طرحوا ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلّا قوتاً و لا يأكلون دسماً ، فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحقّ بذلك

(١) احتمل الطبرسي كونه عطفاً على جملة « لايفتننكم الشيطان » وعليه يكون من عطف الانشاء لفظا على الانشاء معنى ؛ فان تقديرها : احذروا الشيطان . وهذا جائز .

أن نفعل ، فنزلت الآية أي البسوا ثيابكم و كلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا ، و المراد من الزينة اللباس الفاخرة لأنّ الزينة لا يحصل إلّا بستر التامّ للعورات ، ولذلك صار تجويد اللّباس و التزيين بأحسن الثياب في الجُمَع والأعياد سنّة .

ثمّ إنّ المفسّرين أجمعوا على أنّ المراد بالزينة ههنا الثوب الكامل الّذي يستر به العورة فيدلّ على وجوب ستر العورة عند إقامة كلّ صلاة . و قوله : «خذوا زينتكم» أمر والأمر للوجوب .

فإن قيل : عطف سبحانه على أخذ الزينة الأكل و الشرب ولا شكّ أنّ أمر الأكل و الشرب أمر إباحة فيقتضي أنّ أمر الأخذ بالزينة و اللباس إباحة .

و جوابه أنّه لا يلزم من ترك الظاهر من حقيقة الأمر في المعطوف تركه في المعطوف عليه وقد بيّن ترك الظاهر في المعطوف من دليل منفصل ، ثمّ قد يكونان واجبين أيضاً في مورد مخصوص عند الحاجة .

فلو قيل : إنّ هذه الآية نزلت في المنع عن المعطوف حال العرى .

فالجواب أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإذا ثبت أنّ ستر العورة واجب في الصلاة فوجب أن تفسد الصلاة عند تركه .

ثمّ إنّ قوله : « كلوا واشربوا » مطلق يتناول الأوقات والأحوال والأصل في المنافع الحلّ و الإباحة إلّا ما خصّه الدليل المنفصل ، فقوله : « ولا تسرفوا » تحديد للاستعمال بأن لا يتجاوز الحدّ في الأكل و الشرب .

ثمّ قال سبحانه : [قل من حرّم زينة الله] استفهام إنكاريّ ، و قد بيّنّا معنى الزينة ، فإن كان معناها ما يستر العورة فالآية اعتراض على العراة في الطواف والعرب الّذين كانوا يمسكون في الأكل والشرب واللحوم أيّام الموسم وعلى القول بأنّ المراد مطلق اللباس و التجمّل فيتناول جميع أقسام الزينة ، و يدخل فيه تنظيف البدن ، و يدخل تحتها أنواع الحليّ والمركوب الحسن والغذاء المستلذّ .

روي عن عثمان بن مظعون أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : غلبني حديث النفس عزمت أن أختصي . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : مهلاً يا عثمان إنّ خصاء أُمّتي الصيام .

قال : فإنّ نفسي تحدّثني بالترهّب ، قال ﷺ : ترهّب اُمّتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة .

فقال : تحدّثني نفسي بالسياحة ، فقال ﷺ : سياحة اُمّتي الغزو في سبيل الله والحجّ والعمرة .

فقال : إنّ نفسي تحدّثني أن اُطلّق خولة زوجتي و أهجر ، فقال ﷺ : إنّ الهجرة في اُمّتي مهاجرة ماحرّم الله .

قال : فإنّ نفسي تحدّثني أن لاأغشاها قال ﷺ إنّ المسلم إذاغشي أهله أو ماملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولداً كان له وصيف في الجنّة ، و إذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرّة عين و فرح يوم القيامة ، وان كان مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعاً و رحمة يوم القيامة .

قال : فإنّ نفسى تحدّثني أن لا آكل اللحم ، قال ﷺ : مهلاً إنّي آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كلّ يوم فعله .

قال : فإنّ نفسي تحدّثني أن لا أمسّ الطيب قال : مهلاً فإنّ جبرئيل أمرني بالطيب غبّاً ، وقال : لا تتركه يوم الجمعة .

ثمّ قال ﷺ : ياعثمان لاترغب عن سنّتي فإنّ من رغب عن سنّتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي .

وهذاالحديث يدلّ على أنّ في هذه الشريعة كلّ أنواع الزينة والأطعمة مباح إلّا ماخصّه الدليل ، لكن أيّها المكلّف تدبّر في مايقع بيدك ولا تجعل أصل الإباحة مناطاً لحلّيّة ماحلّ في كفّك فتكون من القائلين بأنّ الحلال ماحلّ في الكفّ ، نعم إذا خلص الأشياء من الحذر فالأصل فيها الإباحة ، ولابدّ من التفقّه في المكاسب .

[قل هي للّذين آمنوا] المعنى أنّ النعم في الحياة الدنيا غير خالصة للمؤمنين لأنّ المشركين شركاؤهم في التمتّع منها و أمّا في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين و أنّ هذه النعم مشوبة بالكدورات ، و في الآخرة صافية .

فإن قيل : هلّا قيل في الآية : للّذين آمنوا و لغيرهم للتّنبيه على أنّها خلقت

للمؤمنين بالأصالة والكفرة تبع لهم .

و حاصل المعنى أنّ النعم شائبة في الحياة الدنيا للمؤمنين و خالصة لهم في الآخرة .

[كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون] أي مثل هذا التفصيل نفصّل سائر الأحكام للمتدبّرين .

قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها و مابطن والاثم والبغى بغير الحق و أن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً و ان تقولوا على الله ما لا تعلمون (٣٣) .

قيل : « الفاحشة » الكبائر و « الإثم » الصغائر و قيل : « الإثم » مطلق الذنب و « الفواحش » الكبائر ، و قيل « الفاحشة » اسم لما يجب عليه الحدّ و « الإثم » اسم لما لايجب عليه الحدّ ، و قيل : « الفاحشة » اسم لما تفاحش و تزائد في الأمور إلّا أنّه في العرف مخصوص بالزنا قال الله في الزنا «إنّه كان فاحشة»(١) و إذا قيل : فلان فحّاش فهم منه أنّه يشتم الناس بألفاظ الوقاع وعلى هذا المعنى « مابطن منها» يريد الزنا سرّاً وهو الّذي يقع على سبيل العشق و المخادنة ، « وماظهر » بأن تقع علانية ، وقيل : « الإثم » مختصّ بالخمر لأنّه تعالى قال في صفة الخمر : «وإثمهما أكبر من نفعهما »(٢) .

الثالث من المحرّمات البغي بغير حقّ والبغي لاتستعمل إلّا على الاستطالة على الناس للترؤّس ظلماً نفساً أومالاً أو عرضاً .

فإن قيل : البغي لايكون إلّا بغير حقّ فما الفائدة في الذكر؟ والمعنى : لاتقدموا على إيذاء الناس بالقهر إلّا أن يكون لكم فيه حقّ فحينئذ يخرج عن كونه بغياً .

الرابع : الشرك [و أن تشركوا بالله] أي امتنعوا عن الشرك لأنّه ليس لكم بارتكاب الشرك سلطان و حجّة ، لأنّ الإقرار بالشيء الّذي ليس على ثبوته حجّة ؛ فالثبات عليه قبيح .

---

(١) الاسراء : ٣٤ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

والخامس [و أن تقولوا على الله مالاتعلمون] أي بغير علم تحكمون في الدين تحرّمون حلاله و تحلّلون حرامه .

فإن قيل : كلمة « إنّما » تفيد الحصر والمحرّمات غير محصورة في هذه الخمسة ؟ قلنا : إن قلنا : إنّ الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر والإثم على مطلق الذنب دخل كلّ الذنوب و إن حملنا الفاحشة على الزنا والإثم على الخمر فقلنا : الجنايات محصورة في خمسة أنواع :

أحدها : الجنايات على الأنساب و هي تحصل بالزنا وهي المراد بقوله « إنّما حرّم ربّي الفواحش » .

و ثانيها : الجنايات على العقول وهي شرب الخمر و إليه الإشارة بقوله تعالى : « والإثم » .

و ثالثها : الجنايات على النفوس و الأعراض والأموال ، و إليه الإشارة بقوله : « والبغي بغير الحقّ » .

و رابعها : الجنايات على الأديان والطعن في توحيد الله و إليه الإشارة بقوله : «وأن تشركوا بالله » .

و خامسها : الجنايات في الأحكام العمليّة كالحرام والحلال وإليه الإشارة بقوله : « و أن تقولوا على الله مالا تعلمون »

فهذه اُصول الجنايات والبواقي مندرجة تحت هذه الخمسة ، لاجرم جعل سبحانه ذكرها جارياً مجرى ذكر الكلّ ؛ فصحّ كلمة « إنّما » و إنّما يعرف القرآن من خوطب به .

ولكل امة أجل فاذا جاء أجلهم لايستاخرون ساعة ولا يستقدمون (٣٤).

أي ولكلّ جماعة و أهل عصر مدّة من الحياة ، فإذا جاء أجلهم و انقضت المدّة لايتأخّرون عن الموت ولايتقدّمون في وقوعه ، وأتى بلفظ الساعة لأنّ هذا اللفظ أقلّ أسماء الأوقات و يعبّر عنها بالآن .

يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى واصلح

فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون(٣٥) والذين كذبوا بآياتنا و استكبروا عنها اولئك اصحاب النارهم فيها خالدون (٣٦) .

لمّا ذكر في الآية السابقة مايضرّهم من الأمور من المعاصي عقّبه بذكر ما ينفعهم من الأمور الدينيّة و خاطب جميع المكلّفين فقال : إن يأتكم رسل من جنسكم و يبيّنون رسالاتهم لكم ، فمن لازم اقتفاءهم واتّقى نواهيهم و أصلح عمله بقبول قولهم فليس عليهم خوف في الدّنيا ولاهم يحزنون في الآخرة ، والّذين استكبروا بحججنا و كذّبوا بآياتنا و خالفوهم فهم ملازمون النار ومخلّدون إلى الأبد .

و إنّما قال : «رسل» و الخطاب إلى الرسول لأنّه أجرى الكلام على ماتقتضيه سنّته في الأمم .

واختلف الكلاميّون في أنّ المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف وحزن عند أهوال القيامة ؟ فذهب بعضهم إلى أنّه لايلحقهم ذلك ، والدليل عليه قوله : «لايحزنهم الفزع الأكبر»(١) .

و ذهب بعضهم بأنّه يلحقهم الفزع لقوله : « يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، الآية »(٢) وأجابوا عن آية « فلاخوف عليهم » بأنّ معناه أنّ أمرهم يؤول إلى العافية والسرور ، كقول الطبيب للمريض : لابأس عليك أي أمرك يؤول إلى العافية وإن كان في الوقت في بأس من علّته .

ثمّ تمسّكوا أصحاب السنّة بهذه الآية على أنّ الفاسق من أهل الصلاة لايبقى مخلّداً في النار لأنّه تعالى قال في الجاحدين و المستكبرين : « هم فيها خالدون » و كلمة هم يفيد الحصر فذلك يقتضي أنّ من لايكون موصوفاً بهذه الصفة لايبقى مخلداً في النار .

فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً او كذب بآياته اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا اينما كنتم تدعون من

---

(١) الانبياء : ١٠٣ .

(٢) الحج : ٢ .

دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين (٣٧) .

المعنى : فمن أعظم ذنباً ممّن يقول على الله مالم يقله أو كذّب ما قاله لأنّ الأوّل افتراء وهو الحكم بوجود مالم يوجد ، و الثاني التكذيب و هو الحكم بإنكار ما وجد ، ثمّ إنّ الأوّل دخل فيه قول من أثبت لله شريكاً ، و الثاني يدخل فيه من أنكر كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله .

ثمّ أوعد بقوله : [اُولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب] أي العذاب المعيّن في اللّوح ، والأقرب أنّ المراد ماكتب لهم من الأعمار والأرزاق .

فإذا فنيت و انقرضت جاءتهم رسلهم يتوفّونهم و هم ملك الموت و أعوانه ، قال الرسل لهم : أين الآلهة الّتي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ قالوا : ضلّوا وغابوا عنّا لاندري أين مكانهم . و«ما» في «أينما» موصولة .

[و شهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين] في الدنيا و عابدين لما لايستحقّ العبادة أصلاً .

قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت اخريهم لاوليهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف و لكن لاتعلمون (٣٨) و قالت اوليهم لاخريهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٣٩) .

هذه الآية شرح أحوال الكفّار بعد الموت قيل : القائل هو الله ، وقيل : هو من كلام خازن النار : ادخلوا في النار مع اُمم و جماعة فحرف «في» بمعنى مع الّذين تقدّم زمانهم زمانكم وهذا المعنى يشعر بأنّ الله لايدخل الكفّار بأجمعهم في النار دفعة واحدة بل يدخل الفوج بعد الفوج ؛ فيكون فيهم سابق ومسبوق ويشاهد الداخل من الاُمّة في النار من سبقها ..

[كلّما دخلت اُمّة لعنت اُختها]أي مثلها في الدين والعقيدة فيلعن ويتبرّء بعضهم من بعض مثل أنّ المشركين يلعنون المشركين و اليهود اليهود والنصارى النصارى و سائر فرق الكفر .

[حتّى إذا ادّاركوا] وتلاحقوا واجتمعوا في النار [قالت أُخراهم] دخولاً فيها [لأُولاهم] دخولاً أو التابعين للمتبوعين والسفلة للرؤساء «واللام» في قوله «لأُخراهم» لام أجل أي لأجل إضلالهم إيّاهم : [ربّنا هؤلاء أضلّونا] لأنّهم غرّونا بالدّعوة إلى لباطل متأسّياً بهم فيستدعون من الله أن يزيد العذاب على المتقدّمين لهم .

[فآتهم عذاباً ضعفاً من النار] وفي « الضعف» اختلاف أقلّها مثليه . قال الله : لكلّ من التابع والمتبوع عذاب مضاعف أي كثير ؛ لأنّهم قد دخلوا الكفر جميعاً [ولكن لا تعلمون] و قرء بالياء أي لا يعلم كلّ فريق مقدار عذاب الآخر ، أو المعنى : أنتم يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدار عذابهم .

فإن قيل : إن كان المراد من قوله لكلّ أحد ضعف ما استحقّوه فذلك غير جائز لأنّه ظلم وإن لم يكن المراد ذلك فما معنى كونه ضعفاً ؟ فالجواب أنّ المراد من البيان أنّ عذاب الكفّار يزيد ولا يبقى على نهج واحد فكلّ ألم يحصل فإنّه يحصل عقبه ألم آخر إلى غير النهاية فكانت الآلام متضاعفة متزائدة لا إلى آخر ، ولا ينافي هذا من أن يكون عذاب المضلّ ضعف عذاب الضالّ .

[وقالت أولاهم] أي الرؤساء في الضلال والإضلال للتابعين : [فما كان لكم علينا من فضل] أي في ترك الكفر وأنّا مشاركون في الكفر و استحقاق العذاب و لوأنّ هذا الكلام منهم كذب [فذوقوا العذاب] يمكن أن يكون من قول الله ، ويمكن أن يكون قول المتبوعين .

ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين(٤٠) لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين(٤١) .

بيّن سبحانه مقته و وعيده المكذّبين والمستكبرين بأوامره و شرح كيفيّة خلودهم ، والمراد جميع أصناف الكفّار من منكري التوحيد والنبوّات ؛ لأنّ التكذيب يتناول الكلّ والاستكبار الترفّع بالباطل .

[لا تفتّح لهم أبواب السماء] قرء تفتّح مخفّفة ومشدّدة ، قال ابن عبّاس : لا تفتح

لأعمالهم ولايقبل منهم طاعة وهذا معنى قوله : «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه»(١) .

وقيل : المراد : لاتفتح لأرواحهم أبواب السماء وتفتح لأرواح المؤمنين ، و يؤيّد هذا المعنى هذا الحديث من أنّ روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال لها : مرحباً بالنفس المطمئنّة الّتي كانت في الجسد الطيّب ، ويقال لها ذلك حتّى تنتهي إلى السماء السابعة .

ويستفتح لروح الكافر فيقال لها : ارجعي ذميمة فإنّه لايفتح لك أبواب السماء لأنّ الجنّة في السماء والسماء موضع بهجة الأرواح و أماكن سعاداتها و منها ينزل الخيرات .

[ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط] وهذا وعيد شديد . «والسمّ» بالفتح والضمّ ثقب الإبرة ، وقرء بالحركات الثلاث في السين وكلّ ثقب لطيف في كلّ شيء فهو سمّ وجمعه سموم ومنه السمّ القاتل «والجمل» قرء على أقسام ، أمّا المعروف فالجمل وهو كالمثل السائر في عظم الجثّة و«ثقب الإبرة» أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة محالاً ، فبيّن سبحانه أنّ هذا الأمر مشروط بوقوع هذا الشرط وأنّه محال فذلك محال .

قال ابن عبّاس «الجمّل» على وزن «قمّل» وقرء بوزن «القفل» وقرء بوزن «النصب» ومعناه القلس الغليظ للسّفينة . والحبل الغليظ أنسب إلى الإبرة .

وبالجملة [وكذلك] أي ومثل هذا الّذي وصفناه [نجزي المجرمين] أي الكافرين بآيات الله ، ثمّ وصف المكان الّذي يدخلون فيه وهو جهنّم ، ولهم بعد دخولهم غطاء ووطاء من النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم و «جهنّم» غير منصرف للعلميّة والتأنيث و هي من الجهامة و هي الغلظ لشدّة أمرها أو من الجهام ؛ و هي بئر بعيدة القعر و «غواش» أصله «غواشي» حذف الياء للتخفيف وعوّضوا النّون .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً الا وسعها أولئك اصحاب

---

(١) فاطر : ١١ .

الجنة هم فيها خالدون (٤٢) و نزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الانهار وقالوا الحمدلله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لولا ان هدانا لقد جاءت رسل ربنا بالحق و نودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون(٤٣) .

في الآية ذكر الوعد بالخلود بالجنان .

المعنى : و الّذين صدّقوا و عملوا بأوامره اُولئك أصحاب الجنّة مخلّدون فيها .

وقوله : [لا نكلّف نفساً إلّا وسعها] قيل : معترضة للتاكيد لبيان أنّ الإيمان و العمل الصالح أمر دون الوسع والطاقة وأنّ من استحقّ النار فمن نفسه وليس الإيمان أمر صعب لا يتمكّنون منه ، و الكفّار كانوا يتمكّنون أن لا يدخلوا النار ، ثمّ بعد دخول المؤمنين الجنّة أخرجنا ما في قلوبهم من الحسد فلا يتحاسدون بعضهم بعضاً بسبب ارتفاع درجة بعضهم من بعض فإنّ هذا أمر يوجب التباغض لكي يكونوا في غاية اللّذة .

و قال المؤمنون : الحمد لله الّذي أعطانا هذه النعمة و هدانا إلى الجنّة و ما كنّا نرد هذا المكان المنيع لولا هدايته و قبولنا الإيمان بنبوّة أنبيائنا ، و جاءت رسل ربّنا بالحقّ بما بيّنوا لنا من كتابهم وشرعهم ، ويناديهم مناد من قبل الله : هذه تلكم الّتي وعدتهم بها .

ويجوز أن يكون الخطاب منه سبحانه بأن يخلق كلاماً ، وإنّما قال : «تلكم» لأنّهم وعدوا في الدنيا بهذه اللذائذ ، اُورثتموها كما أنّ الميراث اختصاص لأهله من دون معارض كذلك لكم ، أو المعنى : جعلها الله لكم بدلاً عمّا كان أعدّ للكفّار لو آمنوا .

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : مامن أحد إلّا وله منزل في الجنّة و منزل في النار أمّا الكافر فيرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنّة وذلك قوله : اُورثتموها بتوحيدكم وأعمالكم الصالحة .

و نادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين (٤٤) الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً وهم بالاخرة كافرون (٤٥) .

«نعم» كلمة عدة وتصديق و«العوج» في الخلقة بفتح العين وفي الطريقة والدين بكسرها .

المعنى : ثم بعد استقرار أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار . قوله : «ونادى» أتي بلفظ الماضي وسينادي لتحقّق الوقوع ينادي أهل الجنّة أهل النار أن قد وجدنا ما وعد ربّنا في الكتب على لسان الرسل حقّاً وحقيقة ثابتة فهل وجدتم ما قيل لكم من العذاب ؟ قالوا : نعم فينادي مناد بينهم يسمع الفريقين . و«أن» قرء مخفّفة و مشدّدة غضبه ولعنته على القوم الموصوفين بالكفر .

وقيل : إنّ المؤذّن خازن النار . وروي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال : المؤذّن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي عن محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام أنّه قال : أنا المؤذّن قال ابن عبّاس : إنّ لعليّ عليه السلام في كتاب الله أسماءً لايعرفها الناس منها المؤذّن فهو يقول في ذلك : ألا لعنة الله على الظالمين الّذين كذّبوا بولايتي و استخفّوا بحقّي .

قوله تعالى : و بينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم و نادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦) و اذا صرفت أبصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧).

المعنى : وبين أهل الجنّة والنار أو بين الفريقين حجاب هو المذكور في قوله : «فضرب بينهم بسور[1]» له باب وهو الأعراف واختلف في الرّجال قيل : إنّهم الّذين ساوى حسناتهم وسيّئاتهم فحالت حسناتهم بينهم وبين النار وحالت سيّئاتهم بينهم وبين الجنّة فجعلوا هناك حتّى يقضي الله فيهم ماشاء ، ثمّ يدخلهم الجنّة برحمته ، عن ابن عبّاس وابن مسعود .

(١) الحديد : ١٣ .

وروى الثعلبيّ في تفسيره أنّ الأعراف موضع عال على الصراط عليه حمزة و العبّاس وعليّ وجعفر يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه . وقيل : إنّهم الملائكة في صورة الرجال يعرفون أهل الجنّة وأهل النار ويكونون خزنة الجنّة والنار أو يكونون حفظة الأعمال الشاهدين بها في الآخرة و قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : هم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يدخل الجنّة إلّا من عرفهم وعرفوه . ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه ، وعن الحسن و مجاهد أنّ أهل الأعراف فضلاء المؤمنين . و قيل : إنّهم الشهداء وهم عدول الآخرة .

وعن أبي عبدالله جعفر بن محمّد عليه السلام : أنّ الأعراف كثبان بين الجنّة والنار يتوقّف عليها كلّ نبيّ وخليفة نبيّ مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده ، وقد سبق المحسنون إلى الجنّة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه : انظروا إلى الإخوان المحسنين وقد سبقوا إلى الجنّة ، فيسلّم المذنبون عليهم و ذلك وقوله : «ونادوا أصحاب الجنّة أن سلام عليكم» .

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم [لم يدخلوها وهم يطمعون] أي يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعة النبيّ والإمام وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون : [ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين] .

ونادى اصحاب الاعراف رجا لا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (٤٨) اهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . (٤٩)

المعنى : ثمّ ينادي أصحاب الأعراف و هم الأنبياء والخلفاء أهل النار موبّخين ومقرّعين لهم :

[ما أغنى عنكم جمعكم و ما كنتم تستكبرون أهؤلاء الّذين أقسمتم] **أي هؤلاء** المستضعفين و الفقراء الّذين كنتم تستطيلون عليهم بدنياكم و تحقّرونهم ؟

ثمّ يقولون لهؤلاء الفقراء عن أمر من الله لهم بذلك : [ادخلوا الجنّة لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون] و يؤيّده ما رواه عمر بن شيبة و غيره : أنّ عليّاً قسيم الجنّة

والنار [(١)] ورواه أيضاً بإسناده عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّه قال : يا عليّ كأنّي بك يوم القيامة وبيدك عصا عوسج تسوق قوماً إلى الجنّة وأُخرى إلى النار . و روى أبو القاسم الحسكانيّ بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال : كنت جالساً عند عليّ عليه السلام فأتاه ابن الكوّاء فسأله عن هذه الآية ؛ فقال : ويحك يا ابن الكوّاء نحن نوقف يوم القيامة بين الجنّة و النار فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنّة ، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار .

قوله : [يعرفون كلاًّ بسيماهم] يعني هؤلاء الرجال الّذين هم على الأعراف يعرفون جميع الخلق بسيماهم . وقوله : [ونادوا أصحاب الجنّة] يعني الّذين على الأعراف ينادون أصحاب الجنّة [أن سلام عليكم] وهذا التسليم تهنئة بما وهب الله لهم [لم يدخلوها] أي لم يدخلوا الجنّة بعد [وهم يطمعون] طمع يقين ؛ مثل قول إبراهيم : «والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي» وهو قول الحسن وأبو عليّ .

و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين (٥٠) الذين اتخذوا دينهم لهواً و لعباً و غرتهم الحيوة الدنيا فاليوم ننسيهم كما نسوا لقاء يومهم هذا و ما كانوا بآياتنا يجحدون (٥١) .

ذكر سبحانه كلام أهل النار أي وسينادي أصحاب جهنّم أصحاب الجنّة ـ و أتى بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه ـ : أن صبّوا علينا من الماء يسكّن به العطش ويدفع به حرّ النار أو من الطّعام الّذي رزقكم الله قال أهل الجنّة جواباً : إنّ الله حرّم الماء والطعام من الجنّة عليكم و«أو» هنا للإباحة مثل جالس الحسن أو ابن سيرين ، ويزيل الله عنهم ما يمنع الاستماع مع بعد المسافة ، أو يقوّي الله أسماعهم وأصواتهم وهم الّذين اتّخذوا في الدنيا دينهم مشتهياتهم وما بالوا بأمر الدّين فحلّلوا ما شاؤوا في دنياهم فاليوم ننساهم أي كما نسوا هذا اليوم فننساهم مجازاة على عملهم وجحودهم بآياتنا .

---

(١) القسيم لغة المقاسم و هو من يأخذ قسمه من شريكه وعليه فكون امير المؤمنين قسيما للنار له معنى محصل و أما انه عليه السلام قسيم الجنة ففيه خفاء . وأورد في البصائر ص١٢٢ روايات في هذا الباب فجاء في بعضها : قسيم النار وفي بعضها : قسيم الله بين الجنة والنار وفي بعضها : صاحب النار و في بعضها : قسيم الجنة و النار .

ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون(٥٢) هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون(٥٣) .

ولمّا بيّن سبحانه حال هؤلاء الثلاثة من أهل الجنّة والنار والأعراف كأنّه يقول لم فعلوا بأنفسهم هكذا ؟ ونحن أتممنا عليهم الحجّة وجئناهم بكتاب على تفصيل يهدي إلى الرّشد والصلاح ويؤمّن عن الغلط والخبط ، وهو هداية ورحمة لمن عمل به ، ؟ و ذلك التفصيل وقع على طريق العلم والحكمة ، ولمّا بيّن إزاحة العلة بتفصيل الكتاب بيّن حال المكذّبين به ، فقال :

هل ينظرون أن يرون ما يؤول وينتهي أمرهم ويتوقّعون عاقبة ما وعدوا به ؟ يوم يأتي عاقبته أي يوم القيامة يقول الّذين تركوا العمل به ونبذوه وراء ظهورهم في الدّنيا ويعترفون بأنّه قد جاءت رسل ربّنا بالحقّ من ثبوت الحشر والمعاد والثواب والعقاب يقولون : فهل لنا من شفعاء ليشفعوا لنا ؟ أو هل لنا رجعة في الدنيا فنعمل غير الّذي كنّا نعمل من الكفر والمعاصي ؟ فيخبر الله عن حالهم بأنّ الّذي طلبوه لايمكن ، وقد أهلكوا أنفسهم وغاب وبطل عنهم مفترياتهم بزعمهم أنّ أصنامهم شفعاؤهم ، أولا جنّة ولا نار .

ان ربكم الله الذى خلق السموات و الارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره الا له الخلق و الامر تبارك الله العالمين (٥٤) .

لمّا ذكر الله الكفّار وضلالتهم بيّن لهم ولغيرهم مصنوعاته ودلّهم بمقدوراته حتّى يتبصّرون بالدلائل ويخرجون عن حالة العمى والضلالة فخاطب جميع الخلق بقوله :

[إنّ ربّكم الله الّذي خلق السماوات والأرض] وأنشأ إبداعهما و أعيانهما في الستّ و أصله «سدس» أبدل السين الثانية تاء و لمّا كان مخرج الدّال و التاء قريباً أدغم الدال .

في التاء فصار ستّ وستّة ، والدليل عليه أنك تقول في تصغير ستّة : سديسة .

فأبدعهما سبحانه لا من شيء ولا على مثال .

ثمّ أمسك السماء بلا عماد يدعمها وكذلك الأرض في ستّة أيّام أي في مقدار ستّة أيّام؛ لأنّ ذلك الوقت ما كان ليل ولا نهار ؛ فلمّا بيّن إبداعهما وخلقهما ، والخلق معناه : تقدير الشيء على نحو معيّن ، والعقل بالبداهة يحكم ويقضي بأنّ تقدير الشيء بمقدار معيّن لابدّ من مقدّر وإلّا يجوز الأزيد والأنقص كما جاز هو ، فكونه بمقدار معيّن لا يكون إلّا بتقدير المقدّر الفاعل المختار .

ثمّ إنّ كون هذه الأجسام أي الأجرام الفلكيّة والسماويّة متحرّكة في الأزل محال ؛ لأنّ الحركة انتقال من حال إلى حال فالحركة يجب وجودها أن يكون مسبوقة بحركة أُخرى ، والأزليّة ينافي المسبوقيّة ، فكان الجمع بين الحركة والأزل محالاً قطعاً ؛ فإذا ثبت هذا الأصل فنقول :

الأفلاك والكواكب والسماوات إمّا أن يقال : إنّ ذواتها كانت معدومة في الأزل ثمّ وجدت ، أو يقال : إنّها كانت موجودة ذلك الوقت أو بعد ذلك الوقت ، فإذا لم يكن كذلك ـ يعني لم تكن أزليّة لأنّ الأزليّة منافية مع الحركة والحركة مسلّمة ـ فاختصاص ابتداء تلك الحركة بتلك الأوقات المعنيّة تقديراً وخلقاً يدلّ ويلزم أن يكون بتقدير مخصّص قادر مختار وهو الله .

ودليل آخر : أنّ أجرام السماوات والكواكب والعناصر مركّبة من أجزاء صغيرة ، ولابدّ أن يقال : إنّ بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام وبعضها حصلت على سطوحها حتّى يتحقّق السطحيّة فاختصاص حصول كلّ واحد من تلك الأجزاء بحيّزه المعيّن ووضعه وشكله المخصوص لابدّ وأن يكون بتخصيص مخصّص قادر مختار .

ودليل آخر أنّ كلّ واحد من الأفلاك أعلى من بعض وكلاً من الكواكب متحرّك أو الأفلاك متحرّكة إلى جهة مخصوصة وحركة مختصّة من البطيء والسرعة ، وذلك خلق وتقدير ولا يكون التقدير إلّا من القادر المختار .

وكذلك أنّ كلّ واحد من الكواكب مختص بلون مختصّ مثل كمودة زحل ودرّيّة المشتري وحمرة المرّيخ وإشراق الزهرة وصفرة عطارد ، والأجسام متماثلة في تمام الماهيّة ؛ فاختصاص كلّ واحد منها بلونه المعيّن دليل على افتقارها إلى فاعل متصرّف واضح .

ولا يتوهّم من قوله تعالى «في ستّة أيّام» وقوله : «وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر [(١)]» تناقض لأنّه تعالى وإن كان قادراً على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنّه بحكمته جعل لكلّ شيء حدّاً محدوداً ولا يدخله في الوجود إلّا على ذلك الحدّ . وذلك أقوى دليل على كونها واقعة بإحداث محدث لأنّه إذا وقع دفعة واحدة ثمّ انقطع طريق الإحداث يخطر بالبال أنّه إنّما وقع على سبيل الاتّفاق أمّا إذا اُحدث على التدريج والتعاقب يكون الدليل أكمل وأتمّ .

وقوله «كلمح بالبصر» بيان مقام القدرة ، وقوله «في ستّة» مقام الفعل ، ثمّ قد يكون بحسب المصلحة مقام الفعل أيضاً يقع «كلمح بالبصر» .

وقوله : [ثمّ استوى على العرش] أي تمّ واستقرّ ملكه بعد خلق السماوات والأرض وظهر ذلك للملائكة ، واُخرج الكلام على المتعارف من كلام العرب كقولهم : استوى الملك على عرشه أي انتظمت اُمور مملكته كما اذا اختلّ أمر سلطنته يقال: شلّ عرشه قال الشاعر الجاهلي :

إن يقتلوك فقد شلّت عروشهم ☆ بعتيبة بن الحارث بن شهاب

قال الفرّاء : معنى الآية : ثمّ بعد خلق السماوات والأرض قصد إلى خلق العرش . ويدلّ هذا المعنى حيث إنّ خلق العرش وقع بعد خلق السماوات . وأولى معاني الاستواء في الآية أن يفسّر القرآن بالقرآن . قال الله : «ولمّا بلغ أشدّه واستوى [(٢)]» أي استتمّ شبابه وقال : «كزرع أخرج شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه [(٣)]» أي استتمّ ذلك الزرع والمراد إتمام خلقة العرش العظيم فإنّه أعظم المخلوقات وجميع ما خلق ويخلق دنياً واُخرى لا يخرج عن دائرة العرش ، لأنّه حاو لجميع

---

(١) القمر : ٥٠ . (٢) القصص : ١٣ . (٣) الفتح : ٢٩ .

الممكنات حتّى الحجب والسرادقات ، و الحقّ سبحانه أعظم رتبة من كلّ عظيم .

وفي الآية تقديم وتأخير فيكون تقدير الآية : الّذي خلق السماوات والأرض هو الرّحمن ثمّ استوى على العرش «فالرحمن» مبتدأ وخبره مقدّم عليه وذلك الخبر هو قوله «الّذي خلق» كما تقول : الّذي جاءك زيد ، ثمّ استوى على العرش اعتراض .

قال الرازيّ : لايمكن أن يكون المراد منه أن يكون مستقرّاً على العرش ؛ لأنّ التحيّز والتناهي من بعض الجهات لازم للزّيادة والنقصان ، والحدوث والتغيّر والخلأ والملأ كلّها محال على الله ، فإنّه تعالى إذا تحيّز في جهة فالجهة الاُخرى خالية عنه وهو إلى الجهة المتحيّز بها مفتقر إليها ، والمحتاج ممكن لذاته وواجب الوجود غيره .

ثمّ لو كان الباري في حيّز وجهة لكان مشاراً إليه بحسب الحسّ ومايشار إليه إمّا يقبل القسمه أولا ؛

فإن كان لايقبل القسمة كان نقطة وجوهر فرد وفي وجود جوهر الفرد وعدمه اختلاف ، وأنّ إلهاً يكون في العالم يدبّر الكلّ ويخلق السماوات والأرض والعرش وهو في الصغر والحقارة مثلاً جزء من ألف جزء من رأس إبرة أو ذرّة ؛ فكلّ قول يفضي إلى مثل هذه الترّهات صراحة العقل يحكم بقبحه ويكون مثل هذا الإله كمثل ماهو أصغر من النملة بآلاف درجة .

و إمّا أن يقبل القسمة فيكون ذاته حينئذ مركّباً من أجزاء يقوّم بعضها بوجود بعض ؛ فذاك المقوَّم يحتاج وجوده و كونه إلى هذا المقوِّم و كلّ جزء من هذا المركّب يحتاج إلى جزء غيره حتّى يتحقّق الوجود بالتركيب وهو من لوازم الحدوث والإمكان والاحتياج والكلّ باطل ؛ فإنّ لوازم التركيب التجسّم و التجزّء والتفرّق والنموّ والذبول والكون والفساد ، تعالى الله عن هذه الاُمور .

و أمّا الدلائل السمعيّة فكثيرة أوّلها : « قل هو الله أحد » والأحد مبالغة في كونه واحداً .

وقوله تعالى : « ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية[1] » فلو كان الله في العرش

(١) الحاقة : ١٧ .

لكان حامل العرش حاملاً للإله لزم أن يكون حافظاً ومحفوظاً وحاملاً ومحمولاً ، وأنّ الله يمسك السموات .

وقوله تعالى: «والله هو الغنيّ»(١) وحكم لنفسه أنّه غنيّ على الإطلاق فوجب أن يكون غنيّاً عن الجهة والمكان ، وإذا كان المراد من الاستواء الاستقرار والتحيّز لزم أن يكون قبل الاستقرار مضطرباً معوجاً ، ويكون متّصفاً بصفة الأجسام من الانتقال والحركة والسكون ويكون قابلاً للأبعاد الثلاثة وكلّها مناف مع الجلالة الإلهيّة .

رجعنا إلى التفسير :

[يغشي اللّيل النهار] فجعل ظلمة اللّيل على النهار بمنزلة الغشاوة واللباس للنهار [يطلبه حثيثاً] ويدركه سريعاً يأتي من أثره وعقبه .

[والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره] مذلّلات جاريات مطيعات بتدبيره فخلقهنّ بهذه الكيفيّة لمنافع الخلق ، و قرىء مسخّرات بالنصب على الحاليّة .

[ألا له الخلق والأمر] وله الاختراع ويفعل بها مايشاء [تبارك الله ربّ العالمين] أي تعالى بالوحدانيّة ثابتاً ، وهو من بروك الإبل وثباته على الإناخة ، وهو ربّ العوالم بأسرها .

ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين (٥٥) ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين (٥٦) .

لمّا ذكر الدّلائل الدالّة على الوجود والقدرة أتبعه بذكر الأعمال اللائقة بتلك المعارف ليقوم العبد بوظائف العبوديّة وهي الاشتغال بالدّعاء والتضرّع فإنّ الدعاء مخّ العبادة ؛ فقال :

[ادعوا] قال بعض : المراد : اعبدوا ربّكم . وقال آخرون : هو الدعاء ، والأظهر أنّ المراد الدعاء .

وبعض القاصرين في النظر أنكروا الدعاء واحتجّوا بحجج ضعيفة ، قالوا : إنّ المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع و إن كان معلوم اللاوقوع

(١) فاطر : ١٦ .

فلا فائدة في طلبه ؛ فإنّه إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك المطلوب فهو حاصل سواء حصل هذا الدعاء أم لم يحصل ، و إن كان قد أراد في الأزل المنع فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الدعاء .

وهيهات من القائلين بهذا القول عن العلم ! « يمحو الله مايشاء و يثبت وعنده أمّ الكتاب »(١) ولو كان الأمر كما زعموا فهذا الحكم جار في جميع أنواع التكليف و العبادات ؛ فإنّه يقال : إن كان هذا الإنسان سعيداً في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات وإن كان شقيّاً في علمه فلا فائدة في تلك العبادات ، وبلزم فيه أن يترك ويبطل التكليف بل يجب أن لا يقدم الإنسان على أمر من اُمور دنياه حتّى أكل الخبز ؛ لأنّه إن كان هذا الإنسان شبعان في علم الله لاحاجة له في أكل الخبز وإن كان جائعاً في علم الله فلا فائدة في أكل الخبز ، فكما أنّ هذا الكلام باطل فذلك أيضاً باطل ببداهة العقل و أنّ هذا القول لايجوّزه ذو دين من أهل الأديان .

والدعاء له فوائد كثيرة يفيد المعرفة في ذلّة السؤال والعبوديّة وهذا هو المقصد الأعلى من جميع العباد ؛ فإنّ الداعي لايقدم على الدعاء إلّا إذا عرف نفسه محتاجاً إلى ذلك المطلوب الّذي يطلبه ، وكونه عاجزاً عن تحصيله ، ويعرف غنى ربّه ويسمع دعوته و هو قادر على دفع تلك الحاجة لو اقتضت المصلحة و هو رحيم ، و يعرف عجز نفسه و قدرة ربّه فإذا كان الدعاء مستجمعاً لهذه الاُمور لاجرم كان من أعظم أنواع العبادات .

ولا مقصود من جميع التكاليف إلّا معرفة عزّ الربوبيّة و ذلّ العبوديّة ، فإنّ التضرّع لايحصل إلّا من الناقص في حضرة الكامل كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مامن شيء أكرم على الله من الدعاء ثمّ قرأ صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين »(٢) .

و « الضراعة » ضدّ الاستكبار و معناه إظهار الذلّ الّذي في النفس ، و مثله التخشّع يقال : « ضرع الرجل » إذا مال بإصبعه يميناً وشمالاً خوفاً وذلّاً .

---

(١) الرعد : ٣٩ . (٢) المؤمن : ٦٢ .

و « الخفية » ضدّ العلانية و « الهمزة» في «الإخفاء » منقلبة من التاء و«الخيفة» الرهبة والخوف والطمع ؛ فقوله « تضرّعاً وخفية» حال من الداعي ، متضرّعين خائفين طامعين ، ولابدّ للدّاعي من صونها عن الزناء المبطل لحقيقة العمل والخلوص.

وقرء « وخفية » بكسر الخاء . قال بعض : إنّ الإخفاء معتبر في الدعاء لهذه الآية وظاهر الأمر للوجوب فإن لم يكن فلا أقلّ من الندب .

وقيل : إنّ التضرّع رفع الصوت و«الخفية» سرّاً وهمساً فيكون المعنى : ادعوا علانية وسرّاً ، عن أبي مسلم و رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره . وروي عنه ﷺ : خير الذكر الخفيّ وخير الرزق مايكفي .

و بالجملة لعلّ الحكم على أن يكون إذا كان الداعي واثقاً بنفسه عن الرياء كان الأولى في نفسه الإظهار لتحصيل فائدة الاقتداء وظهور الذلّة ، وإن كان غير واثق من نفسه بوقوع الريا فالأولى إخفاؤه بل عليه إخفاؤه .

[إنّه لايحبّ المعتدين] قيل : معناه هو الصياح في الدعاء خارجاً عن المعتاد ، و قيل : معناه يعرف الداعي طلبه ومقامه ولايطلب منازل الأنبياء ومقامهم في الدعاء .

[ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إنّ رحمة الله قريب من المحسنين] ولاتعملوا شيئاً من المفاسد من القتل للنفوس و الغصب في الأموال و السرقة و وجوه الحيل ، وفي الأديان بالبدعة ، في الأنساب بالزناء وإفساد العقول بالمسكرات ؛ فإنّ عمدة مصالح المعتبرة في الدنيا هذه الخمسة ، ومراعاتها و هي النفوس والأموال والأنساب والأديان و العقول فقوله « ولاتفسدوا » منع إدخال ماهيّة الفساد والإفساد في الوجود والمنع من إدخال الماهيّة في الوجود يقتضي المنع من جميع أبوابه .

« من بعد إصلاحها » أي بعد أن هيّأ نا أسباب صلاحها بسبب إرسال الرسل و إنزال الكتب ، أو بعد أن صلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق ومصالح المكلّفين فكونوا منقادين .

وههنا مسألة : وهي أنّ المتكلّمين اتّفقوا على أنّ من عبد ودعا لأجل الخوف من العقاب والطمع في الثواب لم يصحّ عبادته وظاهر الآية في قوله: «وادعوه خوفاً وطمعاً»

يقتضي أنّه أمر المكلّف بأن يأتي بالدعاء لهذا الغرض ؛ فكيف طريق التكليف ؟.

وذلك لأنّ المتكلّمين فريقان : الأشاعرة ومنهم أهل السنّة يقولون : التكاليف إنّما نزلت لأجل الإلهيّة والعبوديّة فكوننا عبيداً أو كونه إلهاً لنا يقتضي أن يحسن منه أن يأمر عبيده بما شاء كيف شاء فلا يعتبر منه كونه في أنفسها حسناً وصلاحاً .

والفريق الثاني : المعتزلة وهم يقولون : التكاليف إنّما وردت لكونها في أنفسها مصالح . إذا عرفت هذا فعلى القول الأوّل توجّه وجوب بعض الأعمال وحرمة بعضها بمجرّد أمر الله ونهيه ممّا أوجبه ونهاه فمن أتى بهذه العبادات حيث إنّه أمر بها صحّت ، أمّا من أتى بها خوفاً من العقاب أو طمعاً في الثواب وجب أن لا يصحّ لأنّه ما أتى بها لأجل وجه وجوبها .

وأمّا على قول المعتزلة فوجه وجوبها هو كونها في أنفسها مصالح ، فمن أتى بها للخوف من العقاب أو للطّمع في الثواب فلم يأت لأجل وجه وجوبها فوجب أن لا تصحّ .

والتوفيق بين الآية والقول أنّ المراد من قوله «وادعوه خوفاً وطمعاً» الخوف من وقوع التقصير في الشرائط المعتبرة في الامتثال الذي وقع الطمع في حصول الشرائط وقبولها بكرمه وفضله ؛ فحينئذ حصل التوفيق ، ويؤيّد هذا المعني قوله تعالى : «يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة »(١) .

والاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة ليس في مسألة وعشرة ، وإنّما هي في مسائل كثيرة .

منها في الحسن والقبح هل هو شرعيّ أم عقليّ .

منها في الكلام هل هو قديم أو حادث ، والأشاعرة يقولون بقدم الكلام لأنّه تعالى يقول : « ألا له الخلق و الأمر » و ميّز بين الخلق و الأمر مخلوقاً لما صحّ هذا التميّز والعطف .

وردّ أبو عليّ الجبّائيّ بأنّه لا يلزم من إفراد الأمر في الذكر عقيب الخلق أن

---

(١) المومنون : ٦٢ .

لايكون الأمر داخلاً في الخلق بل هو داخل في الخلق قال الله : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (١) مع أنّ آيات الكتاب داخلة في القرآن وقال : «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» (٢) مع أنّ الاحسان داخل في العدل و كذلك قال : «من كان عدوّاً لله و ملائكته و رسله وجبريل وميكال » (٣) وهما داخلان في الملائكة .

ومنهم قول الكعبيّ : إنّ مدار حجّتهم على أنّ المعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه وأنّه تعالى قال : «فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن بالله و كلماته » (٤) وعطف الكلمات على الله فوجب أن يكون الكلمات غير الله ، وكلّ ما كان غير الله فهو محدث مخلوق فوجب أن يكون الكلام محدثاً مخلوقاً .

وقال القاضي عبدالجبّار : أطبق المفسّرون على أنّه ليس المراد بالأمر في الآية كلام التنزيل بل المراد نفاذ إرادة الله فإذاً سقطت الحجّة وانقطع الدليل .

قوله:[إنّ رحمة الله قريب من المحسنين] تذكير القريب باعتبار المعنى من الرحمة وهو الغفران والعفو أو باكتساب التذكير من المضاف إليه كقوله : « إنارة العقل مكسوف بطوع هوى » أو صفة لمحذوف أي أمر قريب أو بمعنى الذات كما قالوا : امرأة طالق و حائض ، و ذكر القريب لتحقّق وقوعه ولو في الآخرة ؛ فإنّ ماهو آت قريب .

وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون (٥٧) و البلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج الانكداً كذلك نصرف الايات لقوم يشكرون (٥٨) .

النظم : لمّا ذكر دلائل التوحيد من بيان العالم العلويّ من السماوات والعرش والشمس والقمر و النجوم أتبعه في هذه الآية بذكر بعض أحوال العالم السفليّ ومن آثار العلويّة كالرياح و السحاب و الأمطار يترتّب وجود النبات والثمار ، ويحصل للإنسان معرفة المبدء والمعاد والنشر والبعث والقيامة وتجديد الأوضاع .

(١) الحجر : ١ .
(٢) النحل : ٩٢ .
(٣) البقرة . ٩٢ .
(٤) الاعراف : ١٥٨ .

قرء « الريح » على لفظ الواحد ، وقرء بلفظ الجمع « رياح » وفي الواحد أيضاً معنى الجمع الجنسيّة .

وقرء «نشر» بالنّون مضمومة والشين مضمومة وهو جمع نشور مثل رسل ورسول ، فيكون المعنى : رياح منشّرة أي مفرّقة ، والقراءة المعروفة بالباء الموحّدة جمع بشير من قوله : «يرسل الرياح مبشّرات[1]» تبشّر بالرّحمة أي المطر ، ومرسلها وناشرها هو الله وقد وصفوا الريح بأنّه هواء متحرّك ، ولو كان كما يقولون فكون هذا الهواء متحرّكاً ليس لذاته ولا للوازم ذاته وإلّا لدامت حركته بدوام ذاته ؛ فلابدّ بتحريك الفاعل جلّ جلاله .

قالت الفلاسفة : ههنا سبب آخر : و هو أنّه يرتفع من الأرض أجزاء أرضيّة كالهباء تسخّنه الشمس تسخيناً قويّاً شديداً فبسبب تلك السخونة ترفع وتتصاعد فإذا وصلت إلى القرب عن الفلك كان الهواء الملتصق بمقعّر الفلك متحرّكاً على استدارة الفلك بالحركة المستديرة التي حصلت لفلك الطبقة من الهواء ويمنع هذه الأدخنة و الأجزاء من الصعود بل يردّها عن سمت حركتها ؛ فحينئذ ترجع تلك الأدخنة والأجزاء فتتفرّق في الجوانب و بسبب ذلك التفرّق تحصل الرياح ثمّ كلّما كانت الأدخنة أكثر و كان صعودها أقوى كان رجوعها أيضاً أشدّ فكانت الرياح أقوى .

وهو باطل لوجوه ؛ وذلك لأنّ صعود الأجزاء الأرضيّة إنّما يكون لأجل شدّة تسخينها ، ولا شكّ أنّ ذلك التسخين عرض لأنّ الأرض باردة يابسة بالطبع فإذا كانت الأجزاء الأرضيّة متصعّدة جدّاً كانت سريعة الانفعال فإذا تصاعدت و وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد جدّاً ، و إذا بردت امتنع بلوغها في الصعود إلى الطبقة الهوائيّة المتحرّكة بحركة الفلك ؛ فبطل ماذكروه من السبب .

الثاني من الوجوه أنّ حركة تلك الأجزاء الأرضيّة النازلة لاتكون حركة قاهرة فإنّا نشاهد أنّ الرياح إذا هبّت حرّكت الغبار الكثير ، ثمّ عاد ذلك الغبار و

---

(١) الروم : ٤٥ .

نزل على السطوح لم يحسّ أحد نزولها ، ونرى هذه الرياح تارة تقلع الأشجار و تهدم الجبال وتموّج البحار ؛ فلو كان هبوب الرياح من طبيعة الصعود والنزول من الأجزاء فهذه الطبيعة مستقرّة دائمة فيكون الأثر على نهج واحد إمّا على رخاء دائماً وإمّا على عصف دائماً وليس كذلك لأنّا نرى أنّ الشمعة في فصل مخصوص لا تطفؤ بالرّيح ونرى بذلك الفصل المخصوص أنّ الشجرة انقلعت من الرياح .

الوجه الثالث أنّه لو كان الأمر على ما قالوه لكانت الرياح كلّما كانت أشدّ وجب أن يكون حصول الأجزاء الغباريّة أكثر ، وليس الأمر كذلك لأنّ الرياح قد يشتدّ عصوفها في وجه البحر ، والحسّ يدرك أنّه ليس في ذلك الهواء المتحرّك العاصف شيء من الغبار و الكدرة أصلاً . و كذلك نرى في الأرض بعض الأوقات مع هبوب العواصف لا يكون غبار أصلاً فبطل بهذا الوجه العلّة الّتي ذكروها في حركة الرياح .

ثمّ إنّ المنجّمين قالوا : إنّ قوى الكواكب هي الّتي تحرّك هذه الرياح وتوجب هبوبها ، وهذا أيضاً ليس بشيء لأنّ الموجب لهبوب الرياح إن كان طبيعة الكواكب وجب دوام الهبوب ، وإن كان هو طبيعة الكوكب بشرط حصوله في البرج المعيّن و الدرجة المعيّنة وجب أن تتحرّك حينئذ هواء كلّ العالم لأنّا نرى أنّ في شيراز رياح عاصفة وفي خارجها بمقدار فرسخ لم يكن نسيم فضلاً عن رياح ؛ فلا يكون إلّا بأمر الفاعل القيّوم بأمر الملك والملكوت ، انتهى .

رجعنا إلى التفسير : [بين يدي رحمته] أي بين يدي المطر ، والعرب يستعمل «اليد» في معنى التقدمة والقرب على سبيل المجاز واستعمل لفظ « اليد» لأنّها مقدّمة للمطر .

قوله : [حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً] أقلّ فلان الشيء إذا حمله أي إلى أن حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء فانّ السحاب الكثيف متضمّن للمياه الكثيرة و هو يبقى معلّقاً في الهواء ، و دبّر بحكمته أن يحرّك الرياح تحريكاً شديداً فلأجل الحركات الشديدة ينضمّ أجزاء السحاب بعضها إلى بعض ويتراكم ، وينعقد السحاب الكثيف الماطر ، و بسبب تلك الحركات يمتنع الأجزاء المائيّة من النزول دفعة واحدة ولا جرم يبقى السحاب معلّقاً في الهواء و يسوقه الرياح في موضع إلى موضع علم الله صلاحه

و للمطر استحقاقه و حرمانه .

ثمّ إنّ الرياح تارة تكون جامعة لأجزاء السحاب و انضمامها وتارة لتفريقها ومبطلة لها ، و تارة مقوّية للزّرع مكمّلة للنشوء و النماء و هي اللواقح و تارة مبطلة لها كرياح الخريف ، وتارة مهلكة كالسموم أو من البرد الشديد ، وتارة شرقيّة ، وتارة غربيّة وشماليّة وجنوبيّة ومن جانب دون جانب ؛ فلو كان المنشؤ والسبب كسب هواء المجاور لمقعّر الفلك ، وسرعة حركة المقعّر فوجب حدوث الرياح فمن أين يحصل هذه الكيفيّات المتباينة من الرياح ؟ مع أنّ مدار حركة الفلك على نهج واحد فإذن لابدّ وأن يكون الرياح على نهج واحد .

قيل : إنّ الرياح ثمان :

أربع منها عذاب : وهو العاصف والقاصف والصرصر والعقيم .

وأربعة منها رحمة : الباشرات والمبشّرات والمرسلات والذاريات .

قال السدّيّ : إنّه يقال : يرسل الرياح فيأتي بالسحاب ثم يبسطه في السماء و يفتّح ابواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثمّ يمطر السحاب ويكون السحاب للماء كالغربال فيمطر ، ولو ينزل الماء بغير هذا الترتيب لأفسد الزرع .

[سقناه لبلد ميّت] نسوق السحاب إلى مواضع من الفلاة والأرض [فأنزلنا به] الضمير يرجع إلى البلد أو بالسحاب لأنّ السحاب آلة لإنزال الماء [فأخرجنا به] بهذا الماء أو بهذا البلد المسقيّ من كلّ أنواع الثمر .

[كذلك] أي كما أخرجنا الثمرات و نحييها [نحي الموتى] لكي تتذكّرون حالة البعث و النشور .

[والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه] أرض الطيّب ترابه يخرج زروعه حسناً نامياً زاكياً بأمر الله [والّذي خبث] كأرض السبخة لايخرج منها إلّا شيئاً قليلاً لايفيد .

و هذا مثل ضربه الله للمؤمن و الكافر ؛ فالمؤمن شبّهه الله بالأرض الطيّبة و الكافر بالأرض الخبيثة فإنّ الروح الطاهرة إذا اتّصل بها نور القرآن ظهرت فيها

أنواع الخير والطاعة ، و الروح الخبيثة الكدرة و إن اتّصل بها نور القرآن لم يظهر فيها المعارف الإلهيّة والأخلاق الحميدة إلّا اليسير .

[كذلك نصّرف الآيات] فمثل هذا المثل بيّنّا الشواهد و الدلائل [لقوم يشكرون] الله و يعرفون قدر نعمه .

لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدو الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩) قال الملأ من قومه انا لنريك فى ضلال مبين (٦٠) قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين (٦١) ابلغكم رسالات ربى وأنصح لكم واعلم من الله مالاتعلمون (٦٢) .

قال الصادق عليه السلام عاش نوح ألفي وخمسمائة سنة ، ثمانمائة سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلّا خمسين عام وهو يدعوهم ، ومأتي سنة يعمل السفينة وخمسمائة بعد الطوفان .

لمّا ذكر سبحانه دلائل توحيده ذكر في هذه الآية أحوال من أنكر و عاند تسلية لنبيّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتاً له على الأذى من قومه .

و « اللّام » للقسم و هذه اللّام غالباً تتّصل « بقد » و « قد » تاكيد و تحقيق للكلام و تقديره : و بالله حقّاً أقول إنّا بعثنا نوحاً إلى قومه و اُمّته .

وهو أوّل نبيّ بعد إدريس جدّه قيل : إنّه كان نجّاراً ولد في عام الّذي مات فيه آدم ، وبعد أن بعث للنبوّة كان يدعوهم ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلّا فراراً وكان يضربه قومه حتّى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : «اللّهم اهد قومي فإنّهم لايعلمون» .

[فقال يا قوم اعبدوا الله] قيل كان عمره ألفاً و أربعمائة و خمسين سنة ، و بعث بالنبوّة حين كان عمره مائتين و خمسين ، ويدعو قومه تسعمائة و خمسين ، و عاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة ، وأمر قومه بعبادة الله وحده .

[مالكم من إله غيره إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] ولم يقل على سبيل القطع لأنّه احتمل و جوّز أن يؤمنوا ، والمراد بالعذاب العظيم عذاب يوم القيامة و يحتمل أن يكون مراده عذاب الطوفان .

[قال الملأ من قومه] وهم الأشراف الّذين يملؤون المجلس بتجمّعهم وحواشيهم

وتمتلىء العيون والقلوب من جلالتهم وهيبتهم [إنّا لنراك في ضلالة] وهذه الآية بمعنى الاعتقاد لا المشاهدة .

فأجاب عليه السلام [ليس بي ضلالة] أي ليس بي نوع من أنواع الضلالة ، و هذه العبارة أبلغ في عموم السلب . و وصف نفسه بأشرف الأوصاف وهو النبوّة فقال :

[و لكنّي رسول ربّ العالمين] و أعلم اُموراً لاتعملون كالعذاب و الطوفان واُحبّ لكم ما اُحبّ لنفسي وأنصح لكم في اُمور دينكم .

أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم و لتتقوا ولعلكم ترحمون(٦٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين(٦٤) .

الهمزة للاستفهام دخلت على واو العطف فبقيت مفتوحة كما كانت ، أي وهل تعجّبتم على بشر مثلكم أن جاء بكم و أتى بكتاب أو معجز أو أمر يأمركم وينهاكم . ومنشؤ عجبهم ونسبتهم الضلال إلى نوح أنّ التكليف لامنفعة له للمعبود و كلّ مايرجى فيه من الثواب و دفع العقاب فالله قادرٌ أن يعطيه بدون واسطة تكليف ؛ فالتكليف عبث .

و قال بعضهم من الملأ : ماعلم حسنه بالعقل فعلناه وماعلمنا قبحه تركناه ، و مالا نعلم حسنه و لا نعلم قبحه فإن كنّا مضطرّين إليه فعلناه لعلمنا أنّه متعال عن أن يكلّف عبده مالايطاق وإن لم نكن مضطرّين تركناه فأيّ حاجة إلى الرسول و بتقدير أن يكون الرسول لازماً فيكون من جنس الملائكة لأولويّتهم و أكمليّتهم واستغنائهم عن المأكول والمشروب وبعدهم عن الكذب .

وظنّ آخرون منهم أنّ مايدّعي نوح فهو من جنس التخيّلات والجنون فلهذه العقائد الفاسدة نسبوا نوحاً إلى الضلالة و كذّبوا نوحاً فيما دعاهم إليه ؛ فخلّصناه ومن كان معه في السفينة من المؤمنين وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا في الماء .

[إنّهم كانوا قوماً عمين] عن الحقّ يقال : « رجل عميّ » إذا كان أعمى القلب و رجل أعمى أي بلا بصر .

قال الصادق عليه السلام : آمن مع نوح ثمانية ، وكان الرجل يأتي بابنه وهو صغير فيقيمه

على رأس نوح فيقول : يا بنيّ إن بقيت بعدي فلا تطيعنّ هذا المجنون و كانوا يحملون إلى نوح و يضربونه حتّى تسيل مسامعه دماً ، و حتّى لا يعقل شيئاً ممّا يصنع به فيثورو و يرمى به إلى بيته و على باب داره مغشيّاً عليه ، و كذلك يفعل به ، فأوحى الله إليه أنّه لن يؤمن قومك إلّا من آمن فعندها أقبل في الدعاء عليهم ولم يكن دعا عليهم قبل ذلك ؛ فقال : « ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً »(١) فأعقم الله أصلاب الرجال و أرحام النساء ولبثوا أربعين سنة لا يولد لهم ولد وقحطوا في تلك الأربعين سنة حتّى هلكت أموالهم و أصابهم الجهد و البلاء ، ثمّ قال لهم نوح : «استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً»(٢) فجاوبوه و قالوا « لا تذرن ودّاً ولا سواعاً »(٣) يعنون أصنامهم و آلهتهم .

وسيأتي إن شاء الله قضيّة السفينة في سورة هود على التفصيل .

قوله : و الى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون (٦٥) .

عطف على قصّة نوح أي و أرسلنا إلى قوم عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح [أخاهم] في النسب لا في الدين [هوداً] فقال لهم هود : ياقوم لا تعبدوا الأصنام واعبدوا الله ليس إله موجود غير الله أفلا تتّقون الشرك والعذاب ؟

و كان قوم هود بالأحقاف و هو الرمل الّذي بين حضرموت إلى عمّان ، و دعوة هود كدعوة نوح إلّا أنّ نوح هدّدهم بعذاب عظيم ولكنّ هود حذّرهم بقوله : «أفلا تتّقون » أن يرد عليكم مثل ما ورد على قوم نوح .

قال الملاء الذين كفروا من قومه انا لنريك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين (٦٦) قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين (٦٧) ابلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين (٦٨) .

في قصّة نوح كانت هي « قال الملأ من قومه » و في هذه الآية قال الملأ الّذين كفروا من قومه ، لأنّ في أشراف قوم نوح ما كان مؤمن ولكن كان في أشراف قوم هود مؤمن مثل مرثد بن سعد الحميريّ كان مؤمناً لكن يكتم إيمانه فأُريدت التفرقة بالبيان .

(١ - ٢ - ٣) نوح : ٢٧ - ٩ - ٢٢

ثمّ فرق آخر في الآية أنّ قوم نوح نسبوه إلى الضلال حيث إنّه يأمرهم بأمر النبوّة ويتعب نفسه غاية في القول والعمل بتعب اشتغال السفينة فنسبوه إلى الضلال ، وهود مااشتغل بتعب البدن بل تعبه مشقّة القول الغير المسموع ؛ فنسبوه إلى قلّة العقل و السفاهة« والظنّ » هنا بمعنى اليقين كقوله تعالى:«الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم»[1].

ثمّ فرق آخر بين قول نوح و هود فنوح أدّى عبارة النصح بصيغة الفعل فقال : « وأنصح لكم » للدّلالة على التجدّد والحدوث ساعة فساعة و هود عليه السلام أتى الكلام بصيغة الاسم فقال : « وأنالكم ناصح أمين » لأنّها دالّة على الثبات والاستمرار ؛ هكذا قال الشيخ عبدالقاهر النحويّ في كتاب دلائل الإعجاز في القرآن .

ثمّ وصف نوح نفسه بالعلم حيث قال : « إنّي أعلم من الله مالا تعلمون » لأنّه كان عالماً بوقوع العذاب ، و هود وصف نفسه بالأمانة في النصح لأنّ نوح كان أعظم منصباً في النبوّة من هود .

او عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذجعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و زادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (٦٩) .

قوله [أوعجبتم] مرّ تفسيره : قبيل هذا . قوله : « و اذكروا » بيّن نعمه عليهم لوجوب الشكر بأن جعلهم خلفاء للسابقين بأن أورثهم أرضهم و ديارهم وما يتّصل لهم من المنافع الّتي كان قوم نوح ينتفعون بها .

[وزادكم] عنهم البسطة في الجسم والقوّة قال الكلبيّ : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستّين ذراعاً . وقال آخرون فضّلوا من غيرهم مقدار مم تبلغه يد إنسان إذا رفعها ، ففضّلوا أهل زمانهم هذا المقدار فاذكروا نعم الله و آلاءه واعملوا عملاً يليق بالإنعامات لكي تفلحوا .

قال الواحديّ . مفرد الآلاء ألي وألو وإلي قال الأعشى :

أبيض لايرهب الهزال ☆ ولايقطع ولايخون إلي

و نظير الآلاء في المفرد و الجمع الآناء .

(١) البقرة : ٤٣ .

قالوا أجئتنا لنعبدالله وحده و نذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس و غضب اتجادلوننى فى اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين (٧١) فانجيناه و الذين معه برحمة منا و قطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا و ما كانوا مؤمنين (٧٢) .

لمّا بيّن لهم هود ﷺ أنّ عبادة الأصنام لاتفيد و لابدّ أن يعبدوالله و ذكر لهم نعماءالله عليهم ولم يكن للقوم حجّة تمسّكوا بالتقليد فقالوا : [أجئتنا لنعبدالله وحده ونذر ماكان تعبد آباؤنا] الحمقاء [فأتنا بما تعدنا] و تخوّفنا به لأنّ هوداً قد هدّدهم بالوعيد قال هود قد وقع عليكم من ربّكم وقد جعل هود المتوقّع الّذي لا بدّ منه بمنزلة الواقع نظير قوله « أتى أمرالله »[1] والمرادمن الرجس : العذاب . أتناظرونني في أسماء و أصنام صنعتموها بأيديكم و اخترعتم أنتم و آباؤكم ؟ ونسبتم لبعضها أنّه يشفى المريض ، وللآخر يسقي المطر ، و للآخر يأتي بالرزق وللآخر يصحبهم في السفر ، وأمثال هذه الخرافات والحالة أنّ الله مانزّل لها قدرة و حجّة .

ثمّ ذكر لهم هود وعيداً مجدّداً فقال : [انتظروا إنّي معكم من المنتظرين] .

ثمّ أخبر سبحانه عن خاتمة هذه الواقعة بأن أهلكناهم بعذاب الاستيصال ، و قطع الدابر الّذي هو الريح العقيم ، وأنجى هوداً والمؤمنين معه برحمته وفضله وماكانوا مؤمنين لعلمه تعالى بأنّهم لوبقوا لم يومنوا أيضاً .

و قصّة هود على ما ذكرها السدّيّ و محمّدبن إسحاق أنّ عاداً كانوا ينزلون اليمن و الأحقاف و هي رمال يقال لها رمال عالج معروفة و الدهناء و يبرين ما بين عمّان وحضرموت ، و كان لهم زرع و نخيل و لهم أعمار طويلة وأجساد عظيمة و كانوا أصحاب أصنام .

فبعث الله هوداً إليهم نبيّاً و كان من أوسطهم نسباً و أفضلهم حسباً فدعاهم إلى التوحيد فكذّبوه و آذوه فأمسك الله عنهم المطر سبع سنين أو ثلاث سنين حتّى قحطوا وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل عليهم البلاء التجوا إلى بيت الله الحرام بمكّة مسلمهم و كافرهم .

---

(١) النحل : ١ .

وأهل مكّة يومئذ العماليق من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . وكان سيّد العمالقة إذذاك بمكّة رجلاً يقال له : معاوية بن بكر ، وكانت أمّه من عاد فبعث عاد وفداً إلى مكّة خارجاً من الحرم فأكرمهم وأنزلهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمور فلمّا رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون من البلاء الّذي نزل عليهم شقّ ذلك عليه ، وقال : هلك أخوالي ، وهؤلاء ضيفي أستحيي أن آمرهم بالخروج إلى مابعثوا إليه فشكى إلى امرأتين وهما الجرادتان كانتا تغنّيانهم ، فقالت الجرادتان له : قل شعراً نغنّيهم به لايدرون من قاله فقال معاوية :

ألايا قيل ويحك قم لأمر ☆ لعلّ الله يسقينا غماماً
فيسقي أرض عاد إنّ عاداً ☆ قد أمسوا ما يبينون الكلاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ☆ نهاركم وليلكم التماما
فقبيح وفدكم من وفد قوم ☆ ولالقوا التحيّة والسلاما

فلمّا غنّتهم الجرادتان بالأبيات قال بعضهم لبعض : إنّما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم من البلاء فادخلوا هذا الحرم فاستقوا لهم ؛ فقال لهم رجل منهم قد كان آمن بهود سرّاً : والله لاتسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيّكم سقيتم فزجروه وخرجوا إلى مكّة يستسقون لها بعاد .

وكان رئيس وفد عاد رجل اسمه قيل بن عمز ؛ فقال : يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا فأنشأ الله سحاباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء .

ثمّ ناداه مناد من السماء : ياقيل اختر لقومك ولنفسك فاختار السحابة السوداء الّتي فيها العذاب فساق الله تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد ، فلمّا رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فقال الله : بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم فسخّرها الله سبع ليال وثمانية أيّام حسوماً أي دائمة ؛ فلم تدع من عاد أحداً إلّا أهلك . واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة مايصيبه ومن معه إلّا مايلين عليه الجلود وتلتذّ النفوس وإنّها لتمرّ على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة .

و روى أبو حمزة الثمالي عن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن لله بيت ريح مقفل عليه لو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض ، ما أرسل على قوم عاد إلا قدر خاتم .

و كان هود وشعيب وإسماعيل و نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتكلمون بالعربية .

والي ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في ارض الله و لاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (٧٣) و اذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الارض تتخذون من سهو لها قصوراً و تنحتون من من الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله و لاتعثوا في الارض مفسدين (٧٤) .

المعنى : و إلى ثمود عطف على هود ونوح أي كما أرسلنا نوحاً وهوداً أرسلنا صالحاً . والأخ يأتي بمعنى الصاحب و قرابة القبيلة ومن العشيرة يطلق عليه الأخ .

وثمود هو ثمود بن عاشر بن إرم بن سام بن نوح . وصالح عليه السلام كان من ولد ثمود ، وثمود سميت لقلة مائها أولا سم أبيهم الأكبر ، و ثمود استعملت منصرفة وغير منصرفة بتأويل القبيلة و الحي . قال الله « ألا أن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود»[١]

قال لهم صالح : ياقوم اعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ثم ذكر البينة [هذه ناقة الله لكم] دلالة ، لأن ثمود طالبوه بالمعجزة على صحة نبوته فقال : ماتريدون ؟ قالوا : تخرج معنا في عيدنا و نخرج أصنامنا و تسأل إلهك ونسأل أصنامنا فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك ، و إن ظهر أثر دعائنا تتبعنا .

فخرج صالح معهم فسألوه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة بين الجبلين فأخذ منهم المواثيق أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا بأجمعهم ؛ فصلى ركعتين و دعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل ، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها و كانت عظيمة الجثة ، وكان الماء عندهم قليلاً و جعلوا ذلك الماء بالكلية شرباً لها في يوم وفي اليوم الثاني شرباً لكل القوم حسبما اشترط معهم صالح .

قال السدي : و كانت الناقة في اليوم الذي تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ، ثم تأتي فتشرب فتحلب مايكفي الكل ، وكأنها تصب اللبن صباً و في اليوم الذي لاتشرب لاتأتيهم و كان لها فصيل .

---

(١) هود : ٧١ .

فقال لهم صالح : يولد في شهر كم هذا غلام يكون هلاككم على يده فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم ، ثمّ ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه فنبت سريعاً .

ولمّا كبر الغلام جلس مع قوم يصبّون من الخمر ، فأرادوا ماءً يمزجونه به وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء واشتدّ ذلك عليهم ، فقال الغلام : هل لكم أن أعقر الناقة ؟ فرضوا فشدّ عليها ؛ فلمّا بصرت الناقة به هربت إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه فلمّا مرّت به تناولها فعقرها فسقطت ، وذلك قوله تعالى : « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » (١) وأظهروا حينئذ كفرهم وبغيهم وعتوا عن أمر ربّهم .

فقال لهم صالح : إنّ آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً واليوم الثاني صفراً واليوم الثالث سوداً فلمّا صبّحهم العذاب تحنّطوا واستعدّوا .

ثمّ إنّ كون الناقة معجزة وآية لا من جهة بل من جهات :

الأولى أنّ يوم مجيئها للشرب لا تأتي الحيوانات للشرب ويوم لا تأتي فتأتي الحيوانات للشرب .

والثانية أنّ يوم شربها تحلب من اللّبن مقدار يكفيهم جميعاً .

والثالثة : خروجها من الصخرة بكمالها مرّة واحدة لا من ذكر وأنثى بل من صخرة صمّاء .

وإنّما قال : « لكم » لأنّهم اقترحوا هذا النوع من المعجزة ولو أنّها معجزة لكلّ أحد ، ونسبة الناقة إلى الله نسبة التشريف مثل بيت الله .

ثمّ قال لهم صالح : [فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء] أي لا تطردوها ولا تؤذوها .

[واذكروا إذ جعلكم خلفاء] لأنّه لمّا أهلك الله عاداً عمّر ثمود بلادها وخلّفوهم في الأرض بين الحجاز والشام .

[وبوّأكم] أنزلكم منزلهم تتّخذون من سهولة الأرض قصوراً ومنازلاً لأنّ القصور تبنى من الطين والآجر واللبن [وتنحتون من الجبال] والصخر أبنية مسقّفة [بيوتاً] النّصب على الحال كقولك : أبر هذا القصب قلماً ، وكانوا يسكنون السهول في

---

(١) القمر : ٢٩ .

الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدلّ على أنّهم كانوا متنعّمين . واذكروا نعماء الله عليكم ولا تجاوزوا عن حدود الصلاح إلى الفساد في الأرض .

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون (٧٦) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم و قالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال ياقوم قد أبلغتكم رسالات ربى و نصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين (٧٩) .

قال الأشراف و الأغنياء من قوم صالح للمساكين منهم الّذين آمنوا بصالح ، و سألوا عن الفقراء عن حال صالح في نبوّته ، فقال الفقراء : نحن موقنون أنّ صالحاً نبيّ و أنّ ماجاء به حقّ ، فقال المستكبرون : بل نحن كافرون بماجاء به .

[فعقروا] العقر ضرب عرقوب[1] البعير ولمّا كان العقر سبباً للنحر أطلق على النّحر لاسم السبب على المسبّب و أسند العقر إلى جميعهم لأنّه كان برضاهم مع أنّه ما باشره إلّا العاقر وهو قدار بن سالف فأخذتهم الزلزلة العظيمة .

فأصبحوا في منازلهم جاثمين كبروك الإبل ، وهذه الحالة للإبل تسمّى البروك ، وللنّاس والطير تسمّى جثوماً أي موتى لايتحرّكون ، ومنه المجثّمة الّتي جاء النهي عنها وهي البهيمة الّتي ترتبط لترمى ، فالجثوم عبارة عن الخمود والسكون .

قيل : لمّا سمعوا الصيحة العظيمة تقطّعت قلوبهم وماتوا جاثمين على الركب .

وقيل : بل سقطوا على وجوههم .

وقيل : وصلت الصاعقة إليهم فاحترقوا .

وقيل : وقت نزول العذاب عليهم سقط بعضهم على بعض .

فلو قيل : كيف يمكن أنّ القوم لمّا عقروا الناقة وشاهدوا تلك المعجزة العظيمة من الناقة في أوّل الأمر وشاهدوا آثار العذاب في آخر الأمر بأنّهم احمرّوا و اصفرّوا

---

(١) العرقوب : عصب غليظ فوق العقب .

كيف يحتمل أن يكونوا مصرّين على كفرهم ولم يتوبوا ؟

فالجواب أنّهم قبل أن يشاهدوا كانوا يكذّبون صالحاً فلمّا شاهدوا العذاب خرجوا عن حدّ التكليف وعن أن تكون توبتهم مقبولة ؛ لأنّهم وصلوا إلى حدّ الإلجاء فحينئذٍ لاتقبل التوبة .

[فتولّى عنهم] و الفاء تدلّ على التعقيب فدلّ على أنّ حصول التولّي بعد جثومهم .

و قيل : إنّ التولّي قبل موتهم لأنّه خاطبهم بقوله : « ياقوم لقد أبلغتكم » و الأموات لايوصفون ولا يخاطبون وكيف يقال للميّت : إنّك لاتحبّ الناصح ؟

لكن ليس بمستبعد أن يخاطبهم وهم جاثمين كما أنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم خاطب قتلى بدر ، فقيل له : لمَ تتكلّم هذه الجيف ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ماأنتم بأسمع منهم ولكنّهم لايقدرون على الجواب .

قال كعب : كان سبب عقر الناقة أنّ امرأة كانت قد ملكت ثمود يقال لها : ملكا ؛ فلمّا أقبلت الناس على صالح وصارت إليه الرياسة حسدته ، وكانت امرأة جميلة يقال لها : قطام ، و كان معشوقة قدار ، و امرأة اُخرى يقال لها : إقبال كانت عشيقة مصدع .

وكان قدار و مصدع متصادقان يجتمعان معهما كلّ ليلة و يشربون الخمر ؛ فقالت ملكا للامرأتين : إذ آتا كما اللّيلة قدار و مصدع يجتمعان معكما فلاتطيعاهما و قولا لهما : إنّ ملكا حزنت لأجل الناقة و لأجل الصالح و نحن لانطيعكما حتّى تعقرا الناقة فلمّا صار الليل و اجتمعا قالا لهما ماقالت ملكا فقالا : نحن من وراء الناقة نعقرها .

فانطلق قدار و مصدع و أصحابهما فرصّدوا الناقة حين صدرت عن الماء و قد كمن لهما قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن مصدع في أصل صخرة اُخرى ؛ فمرّت على مصدع فرمى بسهم فأصاب به عطلة ساقها وخرجت امرأة اسمها عنيزة ، و أمرت ابنتها و كانت من أحسن الناس وجهاً و أسفرت لقدار فشدّ قدار على الناقة بالسّيف فكشف عرقوبها فخرّت الناقة ورغت رغاة واحدة وتحذر سقبها ثمّ طعن في لبتها فنحرها

فخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه .

فلمّا راى الفصيل مافعل بامّه ولّى هارباً حتّى صعد الجبل فرغا رغاءً يقطع منه قلوب القوم ، وأقبلوا نحو صالح يعتذرون إليه : إنّماعقرهافلان ، فقال صالح : انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبوه فلم يجدوه ، وكان العقر يوم الأربعاء فقال لهم صالح : تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام فإنّ العذاب نازل بكم ، انتهى .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : لمّا مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : لايدخلنّ أحد منكم القرية ، ولاتشربوا من مائها ولاتدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ماأصابهم، ثمّ قال :

أمّا بعد فلاتسألوا رسولكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم فبعث الله لهم الناقة وكانت ترد من هذه الفجّ (١) ؛ فعقروا الناقة فأهلكهم الله من مشارق الأرض منهم ومغاربها إلّا رجلاً واحداً يقال له : أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من العذاب فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه فدفن و دفن معه غصن من الذهب ، وأراهم قبر أبي رغال فنزل القوم فاستخرجوا ذلك الغصن

ثمّ قنع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رأسه و أسرع السير حتّى جاز الوادي

ولوطاً اذ قال لقومه أتاتون الفاحشة ماسبقكم بها أحد من العالمين(٨٠) انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوه من قريتكم انهم اناس يتطهرون (٨٢) فأنجيناه وأهله الا امرءته كانت من الغابرين (٨٣) وامطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين(٨٤) .

هذه هي القصّة الرابعة ؛ نوح وهود و صالح ولوط ، أي وأرسلنا لوطاً ، صرف لخفّته وسكون وسطه .

---

(١) هو الطريق الواسع الواضح بين جبلين .

قال : أتاتون السيئة المتمادية في القبح بحيث ماسبقكم في هذه القبيحة أحد من العالمين ؟ ويمكن أن انقضى كثير من القرون والأعصار ما أقدم على هذا الأمر القبيح أحد . أوأنّ قوم لوط بأجمعهم أقدموا على هذا المنكر ، ولم يتّفق في الأعصار الماضية أنّهم بكلّيّتهم يقدمون بهذا الأمر ، وكانوا لاينكحون إلّا الغرباء والضيف أوّلاً ، ثمّ استحكم عندهم حتّى فعل بعضهم ببعض

[أتاتون] وتشتهون [الرجال شهوة] وقبح هذا العمل من وجوه شتّى ؛ لأنّه على عكس حكمة الإلهيّة وخلاف مقتضى الطبيعة لأنّ الذكورة مظنّة الفعل والأنوثة مظنّة الانفعال ، فإذا صار الذكر منفعلاً صار الأمر بعكس الطبيعة ، ثمّ يوجب عدم بقاء نوع الإنسان الّذي هو أشرف الأنواع وأدّى إلى انقطاع النسل وذلك خلاف أمر الله وحكمته .

ثمّ إنّ الفاعل بهذه الفعلة القبيحة بسبب لذّة ساعة يسبّب للمفعول إيجاب العار العظيم والعيب الكامل على المفعول على وجه لايزول ذلك عند طول عمره ، وكيف يرضى العاقل المسلم لأجل لذّة ساعة خسيسة منقضية إيراد العيب الدائم على غيره ؟ فيوجب استحكام العداوة الدائمة بين الفاعل والمفعول ولعلّ ينجرّ إلى القتل كما أنّ هذا العمل بالنسبة إلى المرأة ينتج بالعكس ، وموجب لازدياد المحبّة .

تأمّل في الحكمة الإلهيّة حتّى يحصل لك اليقين بأنّه تعالى ماحرّم حراماً إلّا لمفاسد عظيمة ، وما حلّل حلالاً إلّا لمنافع عظيمة جليلة .

ثمّ إنّ من مضارّ هذا العمل أنّ الله أودع في الرحم قوّة جاذبة شديدة للمنيّ فإذا واقع الرجل المرأة قوى الجذب فلم يبق شيء من المنيّ في المجاري وينفصل ، أمّا إذا واقع بالرّجل لم يحصل ذلك الجذب من المفعول فيبقى شيء من أجزاء المنيّ في المجرى فيعفن ويفسد غالباً ، ويتولّد منه الأسقام العظيمة ، والأورام الشديدة .

وبالجملة لمّا منعهم لوط عن هذا الأمر ما امتنعوا نسبهم إلى السرف وتجاوز الحدّ ؛ فجاوبوه قومه أن أخرجوا الوطاً وأتباعه من البلدة فإنّهم يمنعونا عن هذا العمل ، وقالوا على سبيل السخريّة :

[إنّهم أُناس يتطهّرون فأنجيناه وأهله] والمراد من الأهل أنصاره وأهل دينه أو المتّصلين به بالنسب قال ابن عبّاس : المراد ابنتاه إلّا زوجته كانت من الباقين في العذاب « غبر » بمعنى مكث و إنّما لم يقل : من الغابرات لأنّه أراد المعنى أنّها عمّن بقيت مع الرجال في العذاب واُمطر عليهم الحجارة .

ولوط بن هاران بن تارخ قيل : إنّه كان ابن خالة إبراهيم ، وكان سارة امرأة إبراهيم اُخت لوط .

روي عن أبي حمزة الثماليّ وأبي بصير عن الباقر عليه السلام أنّ لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة ، وكان نازلاً فيهم ، ولم يكن منهم يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الفواحش فلم يجيبوه، وكانوا لا يتطهّرون من الجنابة ، بخلاء ، أشحّاء على الطعام ، وكانوا على طريق السيّارة إلى الشام ومصر ، وكان ينزل بهم الضيفان فيفضحوه وإنّما كانوا يفعلون ذلك بالضيف لتنكل النازلة عليهم من غير شهوة بهم إلى ذلك فأوردهم البخل هذا الداء . و كانوا يقولون للوط : لاتقرينّ ضيفاً فإنّك إن فعلت فضحنا ضيفك وكان لوط إذا نزل به الضيف كتم أمره مخافةً أن يفضحه قومه .

ولمّا استطالوا على هذا الأمر وأراد الله عذابهم بعث إليهم رسلاً مبشّرين ومنذرين جبريل في نفر من الملائكة ؛ فأقبلوا إلى إبراهيم قبل لوط فلمّا رآهم إبراهيم ذبح عجلاً سميناً فلمّا رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : يا إبراهيم إنّا رسل ربّك ، ونحن لا نأكل الطعام إنّا اُرسلنا إلى قوم لوط .

وخرجوا من عند إبراهيم فوقفوا على لوط وهو يسقي الزرع ؛ فقال : من أنتم ؟ قالوا نحن أبناء السبيل أضفنا الليلة ؛ فقال لوط : إنّ أهل هذه القرية قوم سوء ينكحون الرجال في أدبارهم ويأخدون أموالهم ، قالوا : أبطأنا فأضفنا .

فجاء لوط إلى أهله وكانت أهله كافرة ، وقال : قد آتاني أضياف في هذه الليلة فاكتمي أمرهم قالت : أفعل ؛ وكانت العلامة بينها و بين قومها أنّه إذا كان عند لوط أضياف بالنهار تدخن فوق السطح ، وإذا كان بالليل توقد النار .

فلمّا دخل جبرئيل والملائكة معه بيت لوط وثبت امرأته على السطح فأوقدت

النار فأقبل القوم من كلّ ناحية يهرعون إليه و داربينهم ما قصّه الله في كتابه في مواضع ؛ فضرب جبرئيل بجناحه عيونهم فطمسها فلمّا رأوا ذلك علموا أنّه قدأتاهم العذاب .

فقال جبرئيل : يالوط اخرج من بينهم أنت ومن معك إلّا امرأتك فقال لوط : كيف أخرج وقد اجتمعوا حولي وحول داري ؟ فوضع بين يديه عموداً وقال اتّبع هذا العمود ولا يلتفت منكم أحد فخرجوا من القرية .

فلمّا طلع الفجر ضرب جبرئيل بجناحه طرف القرية فقلعها من تخوم الأرضين السابعة ، ثمّ رفعها إلى الهواء حتّى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصراخ ديوكهم ، ثمّ قلّبها عليهم وهو قول الله : « فجعلنا عاليها سافلها » (١) وذلك بعد أن أمطر الله عليهم حجارة من سجّيل وهلكت امرأته بأن أرسل الله عليها صخرة فقتلتها .

وقيل : قلّبت المدينة على الحاضرين منهم واُمطرت الحجارة على الغائبين فاُهلكوا بها .

[فانظر كيف كان عاقبة المجرمين] ظاهر الخطاب وإن كان للرّسول لكنّ المراد الاُمّة ليتحرّزوا عن عذاب الآخرة .

قوله تعالى : والى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قدجاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين (٨٥) .

هذه هي القصّة الخامسة . التقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب لا في الدين .

واختلفوا في مدين قيل : اسم البلد و قيل : اسم القبيلة بسبب أنّهم أولاد مدين ابن إبراهيم الخليل .

وشعيب ابن نويب بن مدين بن إبراهيم ، فأمر شعيب قومه أوّلاً بعبادة الله وادّعى النبوّة .

والمراد بالبيّنة المعجزة وأمّا أنّ المعجزة من أيّ الأنواع كانت معجزته فليس في القرآن بيان كيفيّة معجزته .

ويقال لشعيب : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وقومه أصحاب الأيكة وأُرسل إلى مدين مرّتين وإلى أصحاب الأيكة مرّة ، وكان عادة الأنبياء أنّهم إذ رأوا قوماً مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر المفاسد بدؤوا بمنعهم عن تلك المفسدة .

قال صاحب الكشّاف : إنّ من معجزات شعيب أنّه دفع إلى موسى عصاه وهي الّتي صارت التنّين ، وقال لموسى : إنّ هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سواد وبياض وقد وهبتها لك فكان الأمر كذلك .

ثمّ قال الزمخشريّ : وهذه الأحوال كانت معجزات شعيب لأنّ موسى في ذلك الوقت ما ادّعى الرسالة .

وهذا الكلام بناء على أصل مختلف بين الأشاعرة والمعتزلة لأنّه عند الأشاعرة يجوز أن يظهر الله على من يصير بعد نبيّاً أنواع المعجزات ، ويسمّى ذلك إرهاصاً ؛ فعند الأشاعرة على هذا الأصل إرهاصات لموسى ، وعند المعتزلة معجزات لشعيب لأنّ الإرهاص لا يجوز عند المعتزلة .

وبالجملة أمر شعيب قومه بإيفاء الكيل لأنّهم كانوا مشغوفين بالتّطفيف ، والمراد بالكيل المكيال أي ما يكال به .

ثمّ قال : [ولا تبخسوا النّاس أشياءهم] والمراد المنع من التنقيص ويشمل في كلّ الأمور ، فيدخل فيه السرقة والغصب وأخذ الرشوة وانتزاع الأموال من أيدي الناس بطريق الحيل ؛ لأنّ كلّ ذلك تنقيص المال ، وهذه الأمور من موجبات الخصومة والغضب والمنازعة بين الناس .

قال : [ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها] بعد أن صلحت الأرض بشرائع الأنبياء وكيفيّة الأحكام [ذلكم] أي هذه الأمور [خير لكم إن كنتم مؤمنين] أي كونوا مؤمنين .

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون و تصدون عن سبيل الله من آمن به و تبغونها عوجاً و اذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين(٨٦) وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين(٨٧) .

روي أنّهم كانوا يجلسون على الطرقات و يخوّفون من آمن بشعيب ويحرّفون الناس عن منهج الدّين ، وقيل : كانوا يقطعون الطرق إلّا أنّ مابعد الآية يدلّ على أنّهم يصدّون الناس عن الدين بإلقاء الشبهات والشكوك بطريق الاعوجاج والإضلال و بأنّه لو آمنتم بشعيب كذا تصيرون مثلاً ، و أنّه كذّاب .

[و اذكروا إذ كنتم قليلاً] يمكن المراد تكثير المال أوتكثير النفوس،وعن ابن عبّاس ، قال : إنّ مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت حتّى كثر أولادها .

[و انظروا كيف كان عاقبة المفسدين] أي تأمّلوا في عواقب من كان منكم من المفسدين كقوم عاد و ثمود ولوط و إنزال العذاب بهم .

قوله : [و إن كان طائفة] أي و إن كان جماعة منكم [آمنوا بالّذي أرسلت به] و صدّقوني [و طائفة لم يؤمنوا] بي و المراد بيان إعلاء درجة المؤمنين و إظهار هوان الكافرين .

[فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا] في حقّ المؤمن والكافر [وهو خير الحاكمين] فإن لم تظهر في الدنيا فلابدّ من ظهورها في الآخرة .

قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين(٨٨) قد افترينا على الله كذباً ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ومايكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين(٨٩) .

لمّا قرّر شعيب تلك الكلمات [قال الّذين استكبروا] و أنفوا [من قومه لنخرجنك ياشعيب] ومن آمن معك من بلدتنا [أولتعودنّ في ملّتنا] .

و في هذا الكلام إشكال في الجملة وهو قولهم: « أولتعودنّ في ملّتنا » و كذلك قوله: « قدافترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم » ظاهره يدلّ على أنّ شعيب كان على ملّتهم الّتي هي الكفر .

و الجواب أنّ أتباع شعيب الّذين آمنوا كانوا من قبل كفّاراً فخاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه للتّغليب ، أوأنّ شعيباً ما كان يظهر دينه لهم فتوهّموا أنّه على دينهم .

قال لهم شعيب : [أولو كنّا كارهين] «الهمزة» للاستفهام «والواو» للحال أي أتعيدوننا في ملّتكم في حال كراهتنا أي لاتقدرون على ردّنا على دينكم على كره منّا بعد إذهدانا الله و نجّانا .

و نظم عليه السلام نفسه الشريفة في جملتهم وإن كان بريئاً من الكفر إجراء الكلام على التغليب ؛ فإن فعلنا ما تريدون منّا فحينئذ افترينا على الله الكذب ، وهذا مع قطع النظر عن قبح الكفر مناف للنبوّة لأنّ أصل الباب في النبوّات صدق اللهجة والبراءة من الشرك والكذب .

و بعض المفسّرين يرجعون الضمير في « فيها » إلى القرية أي نخرج منها فإن شاء الله نعود فيها و حينئذ سهل المعنى ، أمّا إذا رجع الضمير إلى الملّة فمعناه إلى أن يشاء الله ، وهذه قضيّة شرطيّة ، و إنّما ذكر هذا للتّبعيد كما يقال : لا أفعل هذا إلّا إذاشاب الغراب و ابيضّ القار ولا يشاء الله الكفر فلانعود أبداً وهذا المعنى يبطل قول من قال : إنّ الله قديشاء الكفر .

قال الجبّائيّ : المراد من الاستثناء الفروع والأحكام و العبادات كأوقات الصلاة والصيام من الفروع الّتي يجوز فيها طريان النسخ والتبديل لافي الأصول الّتي لايقبل التغيّر .

و قوله [وسع ربّنا كلّ شيء علماً] في تعلّق هذا الكلام بالكلام الأوّل قال القاضي عبدالجبّار : قد نقلنا عن أبي عليّ الجبّائيّ : إلّا أن يشاء الله معناه: إلّا أن يعرف المصلحة في تغيّر الفروع ؛ فالعالم في المصالح والتغيّر ليس إلّا من وسع علمه على كلّ شيء فلذلك أتبعه بهذا الكلام ؛ فصحّ النظم في الآية .

و قالت الأشاعرة : وجه النظم أنّ القوم لمّا قالوا لشعيب : إمّا أن تخرج من قريتنا ، و إمّا أن تعود إلى ملّتنا فقال شعيب : « وسع ربّنا كلّ شيء علماً » فربّما كان في علمه حصول قسم ثالث : وهو أن نبقي في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملّتكم بل نجعلكم مقهورين تحت حكمنا ، و يؤيّد هذا المعنى قوله:[على الله توكّلنا] فختم كلامه بالعزل عن الأسباب .

ثمّ اشتغل بالدّعاء فقال : [ربّنا افتح بيننا] أي احكم و اقض بيننا [بالحقّ و أنت خير الحاكمين] قال ابن عبّاس : ما كنت أدري قوله تعالى « ربّنا افتح » حتّى سمعت ابنة ذي يزن يقول لزوجها : تعال اُفاتحك أي اُحاكمك .

وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً انكم اذاً لخاسرون (٩٠) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٩١) الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين (٩٢) فتولى عنهم و قال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي و نصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (٩٣) .

في الآية بيان عظمة ضلالتهم بتكذيب شعيب و بيّن في هذه الآية أنّهم لم يقتصروا بذلك حتّى أضلّوا غيرهم و لاموهم على متابعته فقالوا : [لئن اتّبعتم شعيباً إنّكم لخاسرون] فاستحقّوا العذاب فأخذتهم الرجفة و هي الزلزلة الشديدة المهلكة فأصبحوا في منازلهم خامدين ساكنين بلاحياة و بعد ما أصابهم العذاب كأن لم يكونوا ساكنين بها فقال غنى القوم في دارهم أي طال مكثهم .

قال الزجّاج أي كأن لم يعيشوا فيها مستغنين وهذا التكرار في قوله الّذين كذّبوا شعيباً لبيان قباحة فعل المكذّبين كقولك أنت أنت ، وهذه معجزة عظيمة لشعيب إنّ مثل هذا العذاب العظيم النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع أنّهم مجتمعين في بلدة واحدة .

ثمّ قال : [فتولّى عنهم] و اختلفوا في أنّ شعيب تولّى بعد نزول العذاب بهم أوقبل ذلك ؛قال الكلبيّ : قبل ذلك قال : ولم يعذّب قوم نبيّ حتّى اُخرج من بينهم .

ثمّ قال: [فكيف آسى على قوم كافرين] قيل : اشتدّ حزنه على قومه من جهة القرابة و المجاورة ؛ فإنّه كان يتوقّع منهم الإجابة للإيمان فلمّا لم تقبلوا وعذّبوا حزن بحرما نهم عن السعادة ثمّ عزّى نفسه وقال : فكيف آسى . وقيل : ماحزن ومراده فكيف آسى وقد أبلغتكم ولم تقبلوا نصحي . و أنتم غير مستحقّين أن يأسى الإنسان لمثلكم . والصحيح القول الثاني .

قال البلخيّ : وفي هذه الآية دلالة على أنّه لايجوز للمسلم أن يطلب الخير للكافر ويحزن لشدّة اُمورهم .

و في عذابهم قيل : أرسل الله عليهم رعدة شديدة وحرًّا تأخذ بأنفاسهم فدخلوا في أجواف البيوت فدخل عليهم البيوت فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء و أنضجهم الحرّ فبعث الله سحابة فيها ريح طيّبة فوجدوا برد الريح و ظلّ السحابة فتنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البرّيّة فلمّا اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كالجراد المغليّ و صاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلّة وهذا القول عن ابن عبّاس و جماعة من المفسّرين .

وقيل : بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا ، عن أبي عبدالله عليه السلام .

وقيل : إنّ لشعيب قومين قوم اُهلكوا بالرجفة وقوم هم أصحاب الظلّة .

و ما ارسلنا فى قرية من نبى الا اخذنا اهلها بالباساء والضراء لعلهم يتضرعون(٩٤) ثم بدل الله مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون (٩٥) .

لمّا بيّن حال هؤلاء وماجرى على اُممهم بيّن في هذه الآية العلّة الّتي بها يفعل ذلك فقال :

[وما أرسلنا] الآية ، و إنّما ذكر القرية لأنّها مجتمع القوم وفيه حذف ، أي فكذّبوا ذلك النبيّ المرسل إلّا أخذنا المكذّبين و العاصين بالبأساء أي الشدّة في احوالهم ، و النقصان في زروعهم و ثمارهم و ضروعهم . والضرّاء ماينالهم من المرض والآلام ، وقيل : بالعكس .

[لعلّهم] و كلمة لعلّ في حقّ الله لايمكن حمله على الشكّ بل على اليقين ؛ فالمعنى : إنّما يفعل بهم هذا لكي يتضرّعوا و يتوبوا .

[ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة] ومعنى السيّئة الشدّة وما يسوء ، ومعنى الحسنة الرّخاء والنعمة ، أي تدبيره تعالى ليس على نمط واحد ، والمراد أنّه يأخذ أهل المعاصي تارة بالشدّة ليتنبّهوا وتارة بالنعمة ليطيعوا .

[حتّى عفوا] أي كثروا وزادوا قال أهل اللغة : قد عفى الشعر أي كثر ، و منه ماورد في الحديث أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر أن تحفّ الشوارب و تعفى اللحى ، أي توفر و تكثر .

[و قالوا قد مسّ آباءنا الضرّاء والسرّاء] أي قال هؤلاء الكافرون و العاصون : إنّ هذا الرخاء والشدّة ليس بسبب مانحن فيه من الدّين والعمل ، وتلك عادة الدهر وليس عقوبة من الله وإنّ آباءنا كذلك كانوا تارة تصيبهم الشدّة و تارة الرخاء ولاتلتفتوا إلى مثل هذه الأمور ، و كونوا على ما أنتم عليه .

[فأخذناهم بغتة] أمر يأتيك من غير ترقّب ومقدّمة [وهم لايشعرون] بأنّ العذاب نازل بهم .

قوله : ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بماكانوا يكسبون(٩٦) أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً و هم نائمون (٩٧) او امن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (٩٨) افأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (٩٩) .

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ الأمم عذّبوا بسبب كفرهم بيّن في هذه الآية أنّ الأمر بالعكس إذا آمنوا واتّقوا ، فتبدّل الشدّة بالرخاء والنعمة ، وتفتح أبواب السماء و الأرض ؛ بركات السماء بالخير والمطر ، وبركات الأرض بكثرة الثمر والمواشي و حصول الأمن والسلامة ؛ لأنّ السماء تجري مجرى الأب الرؤوف ، والأرض كالأمّ العطوف .

ثمّ عاد الكلام بمجرى التهديد فقال على سبيل الإستفهام الإنكاري : أفأمن أهل الأمصار أن يأتيهم عذابنا في الليل وهم نائمون ؟ أو يأتيهم بالنهار وقت ظهور الشمس وهم مشغولون في الحياة الدنيا ؛ لأنّ الدنيا لعب ولهذا قال : « وهم يلعبون » .

[أفأمنوا مكر الله] المراد عذاب الله و استعمل المكر في العذاب توسّعاً لأنّ الواحد منّا إذا أراد المكر بصاحبه فإنّه يوقعه في البلاء من حيث لايشعر بوقوعه فسمّي المكر بالعذاب لأنّه نزل بهم من حيث لايشعرون ولا يأمن من عذاب الله إلّا القوم الخاسرون لأنّه أوقع نفسه في الدنيا بالضرر و في الآخرة بالعذاب الأكبر .

أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم و نطبع على قلوبهم فهم لايسمعون(١٠٠) تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقدجاءتهم رسلهم بالبينات فماكانوا ليؤمنوا بماكذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١) .

قرء : « أولم نهد » بالنون .

المعنى : أنكر بهذا الاستفهام ترك الاعتبار ممّن تقدّمهم من الأمم واستيصالهم بالعذاب ، أي أولم يبيّن الله ولم يهتدوا هؤلاء الّذين استقرّوا مكان المتقدّمين منهم الّذين عذّبناهم وخلفناهم مكان اُولئك المعذّبين و ورثوهم أن لو نشاء لعذّبناهم كما عذّبنا قبلهم أونطبع على قلوبهم ؟ و معنى الطبع التخلية [فهم لا يسمعون]المواعظ .

[تلك القرى] المراد قرى الأقوام الخمسة الّذين مضى شرح حالهم وهم قوم نوح و هود و صالح ولوط و شعيب [نقصّ] أحوال إهلاكها [عليك] يامحمّد للاحتراز لأمّتك عن مثل تلك الأعمال .

ثمّ قال إنّا أتممنا عليهم الحجّة بإرسال الرسل والمعجزات فما قبلوا وما آمنوا وماكانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات كما لم يؤمنوا قبل رؤية المعجزات . وقيل : معناه : ولو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف لن يؤمنوا كقوله : « ولوردّوا لعادوا لما نهوا عنه »(١) و قيل : المعنى : قبل مجيء الرسل كانوا مصرّين على الكفر

(١) الحج : ٢ .

فهؤلاء ما كانوا ليؤمنوا بعد مجيء الرسل أيضاً .

[كذلك يطبع الله] أي مثل ذلك الّذي طبع على قلوب الكفّار والأُمم الماضية نطبع على قلوب اُمّتك الكافرة .

وماوجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢) .

اختلفوا في العهد : قال ابن عبّاس : يريد العهد الّذي عاهدهم الله وهم في الأصلاب حيث قال : « ألست بربّكم قالوا بلى »[١] ثمّ خالفوا ذلك العهد ولهذا قال : [وماوجدنا لأكثرهم من عهد] .

وقال ابن مسعود : المراد بالعهد الإيمان والدليل عليه قوله : « إلّا من اتّخذ عند الله عهداً »[٢] يعني آمن وقال : لا إله إلّا الله .

و القول الثالث أنّ العهد عبارة عن وضع الأدلّة الدالّة على صحّة التوحيد و النبوّة .

ثمّ قال : و إنّ الشأن والقصّة : وجدنا أكثرهم خارجين عن الدين.

إلى هنا تمّ الجزء الرابع من الكتاب مشتملاً
على ٩٤ آية من سورة المائدة ،
وتمام سورة الأنعام
و ١٠٢ آية من سورة الأعراف
ولله الحمد

(١) السورة : ١٧١ .

(٢) مريم : ٩٠ .